المشاهد والآثار في بلاد الشام

المشاهد والآثار
في بلاد الشام

تأليف
أحمد وصفي زكريا

المشاهد والآثار في بلاد الشام

تأليف: أحمد وصفي زكريا

إعداد: أحمد غسان سبانو بالتعاون مع لجنة الدراسات في دار رسلان

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ جرمانا

هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٠٩٦٣

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

وصفي زكريا

حياته ومؤلفاته

كثيرون منا عرفوا أو سمعوا أو قرؤوا شيئاً مما ألفه المهندس الزراعي وصفي زكريا، العالم الموسوعي والمؤرخ المدقق، ومن قرأ له يدرك مباشرة أنه كاتب موسوعي مدقق وبحاثة متتبع دؤوب، وعلى الرغم من شهرته الأدبية والعلمية والزراعية في سورية وفي أرجاء العالم العربي، وعلى الرغم من جهوده الوطنية وخبرته العلمية، التي قدمها لكل من سورية ولبنان وفلسطين والعراق والأردن واليمن، وعلى الرغم من أنه شهيد القلم، فقد توفي في ٢١ نيسان ١٩٦٤ في منزله في دمشق عن عمر يناهز الخامسة والسبعين بانفجار في الدماغ أثناء مراجعته الأخيرة لكتابه المخطوط "حيوانات وطيور بلاد الشام" (الذي طبع سنة ١٩٨٣). فهو لم ينل ما يستحقه من تقدير وفقط هذه الأيام وبعد مراجعات استمرت أكثر من ثلاثين سنة سمي باسمه شارع في العاصمة السورية (دمشق).



عاش وصفي زكريا إذن خمسة وسبعين عاماً، أمضاها في الدرس والتنقيب، وفي البحث في مجموعة كبيرة من المراجع والكتب التاريخية والزراعية، فترك خلفه مكتبة ضمت ما يزيد على مائة موسوعة ومئات الكتب العلمية التي تتناول الزراعة والآثار والتاريخ، حتى أنه في خواتيم حياته، وكانت تقدمت به السن، كان يُشاهد وهو يستحث الخطى متكئاً على عصاه متنقلاً من تل إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى، باحثاً منقباً عن "نهر مرا" (المرأة)، الذي ذكره الرحالة والشعراء، والذي بقيت آثاره مجهولة حتى قام، طيب الله ثراه، بالكشف عن بعض مواقعه وتحديدها. وليعد بحثاً عنه نشر بعد وفاته في مجلة "الحوليات الأثرية" التي كان يغذي صفحاتها بأبحاثه واكتشافاته ونظرياته وشروحاته التاريخية والأثرية التي كان لها الفضل العميم في تغيير العديد من آراء الأثريين والمؤرخين الباحثين في تاريخ بلاد الشام.

ولد المهندس العلامة وصفي زكريا عام ١٨٨٩ في طرابلس (الشام) في كنف عائلة تعود أصولها إلى عشيرة "الشبصغ" الشركسية.

والده زكريا وصفي شركس، الذي حمله والده وصفي (الكبير) وهو صغير من مدينة "باكو" عاصمة أذربيجان الحالية، إلى اسطنبول عاصمة السلطنة العثمانية، بعدما مني الشراكسة عام ١٨٥٩ بهزيمة في حربهم ضد الجيش الروسي في أواسط القرن التاسع عشر، وهم يحاولون المحافظة على الاستقلال من أطماع القياصرة الروس الهادفة إلى ضم بلادهم إلى إمبراطوريتهم الواسعة.

في اسطمبول انتمى زكريا وصفي شركس إلى الكلية العسكرية في سبعينيات القرن التاسع عشر وتخرج ضابطاً، أولى مهماته العسكرية كانت في طرابلس (الشام) حيث تزوج الضابط الشاب من السيدة حسناء سمينة شقيقة إبراهيم سمينة الذي كان رجل أعمال فرزق منها عام ١٨٨٥ بابنة سمياها زهراء، ثم بابنين هما وصفي عام ١٨٨٩ وحقي عام ١٨٩١.

بعد ولادة ابنه حقي نقل العقيد زكريا شركس من طرابلس (الشام) إلى موقع عسكري في مدينة (تل كلخ): وبقي فيه حتى عام ١٩٠٣، حيث أمر بقيادة حملة من ثلاثة آلاف جندي إلى اليمن، الذي كان قد ثار على حكم العثمانيين. لكن الثوار اليمنيين طوقوه وجنده في جبال عسير وأبادوهم، فانتقلت حسناء مع أولادها إلى دمشق حيث انصرفت إلى تربيتهم وتعويض حنان الأب ورعايته.



في دمشق أتم وصفي زكريا دراسته الابتدائية والثانوية، لينتقل عام ١٩٠٦ إلى اسطمبول ويلتحق بالمدرسة الزراعية العليا، ويتخرج منها عام ١٩١٢ مهندساً زراعياً.

بعد تخرجه عُين في "السلمية" حيث درس في مدرستها الزراعية، التي كانت أنشئت حديثاً، ثم أصبح مديراً لها.

سنة ١٩١٤ شغل منصباً في مديرية "دار الحرير" في بيروت. لينتقل بعدها أستاذاً محاضراً في مدرسة "اللطرون" (بين القدس ويافا). وهناك استدعي إلى الخدمة العسكرية الإلزامية برتبة ملازم أول في الجيش العثماني، الذي كان يحتل البلاد ويخوض حرباً ضد الجيش البريطاني على جبهتي سيناء والنقب، لكنه بعدما أمضى حوالي العامين متنقلاً بين غزة وبئر السبع، انتقاه الجنرال جمال باشا من بين

عديدين من المثقفين ليعيدهم إلى الحياة المدنية لتستفيد الدولة العثمانية من ثقافتهم في الميدان المدني.

في سنة ١٩١٦ كلف بمهمة مكافحة الجراد الذي اجتاح "دير الزور".

سنة ١٩١٩ تولى إدارة مدرسة "السلمية الزراعية" وفي سنة ١٩٢٤ عين مفتشاً لأملاك الدولة وظل في هذا المنصب حتى عام ١٩٣٦ عندما تعاقدت معه الحكومة اليمنية في صنعاء ليصبح مستشاراً زراعياً هناك لمدة سنتين، غادر بعدها إلى العراق ليعمل فيه خبيراً زراعياً ومحاضراً في دار المعلمين. ورغم مغادرته لليمن إلا أنه ظل على اتصال مع اليمن ومختصي الزراعة هناك للاطمئنان على أبحاثه وتجاربه الزراعية وحسن سير منجزاته، وقد ترك في أوراقه الكثير من الرسائل والأوراق، التي تثبت متابعته واهتمامه بذلك على الرغم من تركه تلك البلاد.

بقي وصفي زكريا في العراق حتى سنة ١٩٤١ خلال ثورة رشيد عالي الكيلاني، ولم يترك بغداد إلا عندما استدعته حكومة شرقي الأردن سنة ١٩٤٢ ليكون مديراً عاماً لوزارة الزراعة في عمان، حيث انكب على التنظيم الإداري لتلك الوزارة، والتنظيم الذي وضعه وصفي زكريا ظل معمولاً به طوال عقدين من الزمن.

في سنة ١٩٤٣ عينته الحكومة السورية مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة، فبقي في وظيفته حتى سنة ١٩٥٠ حيث أحيل على التقاعد لبلوغه السن القانونية، وقد اختارته الحكومة السورية في أواخر حياته عضواً في المجلس الأعلى للعلوم والآداب.



مر وصفي زكريا في حياته بفترات قاسية وعصيبة. فقد عاش في ظل الاحتلال العثماني، ثم الفرنسي، كما عاش فترات المخاض الصعبة للاستقلال السوري، فكان بذلك مجيداً للغة العربية، والتركية، والفرنسية، واللاتينية القديمة، الأمر الذي جعل مصادر البحث عنده كثيرة وآفاقه العلمية واسعة. أضف إلى ذلك ولعه بالرحلات والدراسات التاريخية والجغرافية، وكثرة أسفاره، مما جعل لديه حصيلة علمية تاريخية أثرية وجغرافية واسعة جداً انعكست على مؤلفاته التاريخية المهمة التي تركها.

ففـي مجـال اختـصاصه المهـني، كمهنـدس زراعـي، كـان وصفي زكريـا رائـد العلـوم الزراعيـة في الـشرق العربـي، فهـو أول مـن أسـس مـدارس زراعيـة في كـل مـن سورية ولبنان وفلسطين والعراق واليمن.

وهو أول مـن وضـع منـاهج وبـرامج التـدريس للمـدارس الزراعيـة، ومـن أجـل ذلـك وضع العديد من الكتب التدريسية.

وهو أول مـن عرب المصطلحات الزراعية من اللاتينية التي يجيدها والفرنسية إلى العربيــة، وهــذه المـصطلحات لم تــزل معتمــدة في المنــاهج الدراســية وفي الكتــب الزراعية، يعود إليها الباحثون بصورة دائمة.

وهو أول من وضع الكتب الزراعية العلمية المبسطة لتكـون في متنـاول الجميـع، وبذلك فقد جعل من العلوم الزراعية مادة للقراءة يستسيغها العوام.

وعلى الرغم من مرور حوالي أكثر مـن نـصف قـرن عليهـا، فـإن كتبـه الزراعيـة لم تزل أهم وأدق المصادر العلمية في الميدان الزراعي، وقد تخرج على يديه الكثيرون مـن المهندسـين الـزراعيين والمختـصين أثنـاء توليـه منـصب الأسـتاذ المحاضـر في كليـة الزراعة في جامعة دمشق.

وفي ميدان الأبحاث التاريخية والأثرية والجغرافية، ترك وصفي زكريـا مؤلفـات مهمــة كــان فيهــا رائــداً في أبحاثــه واكتــشافاته وشــروحاته متميــزاً فــي التــدقيق بالمعلومـات والتقصي الـدؤوب في المراجـع والوثـائق عـن الحقـائق، متثبتـاً مـن صـحتها. وكان يعتمد في أبحاثه واستقصاءاته أيضاً على استقراء ما حصل عليه مع أصدقائه العلماء والأدباء وأهل الدراية، ثم بعد ذلـك يعـود إلى اسـتقراء المعلومـات المتوافرة لـدى العامة، وذلك في سبيل استكمال سائر أنواع المـصادر حـول الموضـوع الـذي يدرسـه أو يؤلف فيه.



تـرك وصـفي زكريـا الكـثير مـن المؤلفـات، سـواء في حقـل اختـصاصه المهـني كمهندس زراعي، أو في حقول أبحاثه التأريخية والأثرية والجغرافية.

ففي مجال اختصاصه المهني خلَّف الآثار الآتية:

- "الدروس الزراعية للصفوف الابتدائية" (٣ أجزاء) صدر سنة ١٩٢٥.

❖ "المفكـرة الزراعيـة" وهـي تحتـوي علـى خلاصـة الفنـون والأعمـال الزراعيـة، صدر عام ١٩٣٠

❖ "زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام" (جزءان) صدرا سنة ١٩٥١.

❖ "حيوانات وطيور بلاد الشام" صدر سنة ١٩٨٣.

في المجـال التـاريخي والأثـري والجغـرافي تـرك وصـفي زكريـا علـى أرفـف المكتبات:

❖ "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية" صدر سنة ١٩٣٤.

❖ "عشائر الشام" (جزءان) صدرا سنة ١٩٤٥.

❖ "الريف السوري" (جزءان) الأول صدر سنة ١٩٥٧ والثاني سنة ١٩٥٥.

المخطوطات:

❖ مقالات عن رحلته إلى اليمن وتاريخ أحوال اليمن، وقد طبعت في كتاب صدر عام ١٩٨٩.

❖ مقالات مختلفة زراعية وتاريخيـة وأثريـة وجغرافيـة كانـت نـشرت في الـصحف والمجلات السورية والعربية.

❖ مقالات نشرت فـي الصحف والمجلات السورية: "المعـرفة" و "الـشرطة" و "مجلـة غرفة زراعة حلب" وجريدتا "القبس" و "النصر" و "مجلة الحوليات الأثرية" و "المقتطـف" المصرية.

❖ يـضاف إلى ذلـك كـثير مـن الأبحـاث المخطوطـة والمقـالات غـير المنـشورة الـتي وجدت في أدراج مكتبه بعضها باللغة العربية وبعضها باللغة التركية والفرنسية.

❖ ❖ ❖

كـان وصـفي زكريـا يواجـه صـعوبات كـثيرة في تـأمين الـسيولة الماليـة المطلوبـة لطبع ونشر كتبه، التي جاءت في عصر قل فيه راغبو الثقافة وعشاق الكتب.

وقـد أثـر هـذا علـى حياتـه وحيـاة أسـرته، فعلـى الـرغم مـن أسـفاره ونـشاطاته المختلفة، إلا أن دخله بكامله كان موجهاً نحو الإنتاج العلمي ونشره، لذلك لم يقـتن بيتاً أو سيارة، ولم يخلـف لأولاده مـن الأمـلاك شـيئاً إلا أنـه خلـف للعـالم العربـي آثـاراً خالدة.

لم يكن وصفي زكريا سورياً في أعماله، فقد خدم دول الشرق العربي، كما خدم التاريخ العربي، والزراعة العربية، وأسهم في تآليفه المهنية والتاريخية في توحيد المصطلحات العلمية والزراعية العربية.

لم يكن وصفي زكريا يجني من جهوده شيئاً، فهو لم يحظ بأي اهتمام أو تقدير رسمي من أي من الدول العربية، سواء في حياته وحتى بعد وفاته.

ولم تجر له حفلة تأبين، على الرغم من أن ابنه غسان زكريا طلب سنة ١٩٧٩ من وزارة الثقافة أن تتولى إقامة حفلة تأبين له إلا أنها اعتذرت بحجة أن وزارة الزراعة أو نقابة المهندسين الزراعيين، أو إحدى الجمعيات العلمية هي الأولى برعاية مثل هذا الحفل.

كما أنه لم يقم أي باحث عربي بتقديم دراسة عنه سوى ما أورده الأستاذ أبو الفرج العش، كمقدمة لمقال "نهر المرا" كتبه المهندس زكريا، ولم يكمله ونشر بعد وفاته بزمن في مجلة "الحوليات الأثرية" السورية.

كما قام الأستاذ المرحوم عبد القادر عياش بتقديم دراسة عن حياة المهندس زكريا في كتاب أصدره يتضمن ذكريات العلامة الراحل عن وادي الفرات سنة ١٩١٦.

وقد طالب البعض بمنح وصفي زكريا وسام الاستحقاق بعد وفاته.

إن نتاج وصفي زكريا العلمي المتميز، وتقدير المختصين لمكانته العلمية والفكرية والثقافية، التي فرضها بجهوده الحثيثة هي الوسام الخالد الذي انتزعه بجدارة من الجميع.

مقدمة

"المشاهد والآثار"

كان حلم العلامة المهندس وصفي زكريا أن يضع كتاباً يشبه "الكتاب الأزرق" Blue Book المخصص للسياح يبين مؤلفه فيه الطرق والبلدات والمسافات مع شرح مفصل لكل مدينة أو بلدة أو قرية عن تاريخها وأحوال سكانها ومعالمها الأثرية ووصف تلك المعالم. وقد حاول الحصول على إذن ورخصة لترجمة الكتاب الأزرق هذا إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. ونظراً لأن رغبته كانت قوية لدرجة لم يكن ليقبل بالتنازل عنها أو تأجيلها، لذلك عزم على وضع الكتاب بنفسه ناهجاً نفس المنهج العلمي المتبع بالكتاب الأزرق وغيره من "الأدلة السياحية" وكان لابد أن يدخل مادته العلمية ونتاج بحثه التاريخي والأثري والسكاني (الانثروبولوجي) واعتمد إضافة على المصادر الأجنبية التي تيسرت له اعتمد على المصادر العربية وقارن بين المصدرين.

كما قام خلافاً للكتاب الأزرق الذي وضع حينها منذ نحو عشر سنوات. قام بتحديث المعلومات حتى وقته. وأدخل في كتابه أقوال السكان الذين كانوا موضع اهتمامه وكانت أقوالهم مهما كانت ومهما بلغ مقدار صحتها موضع تفحُصِه وتدقيقه وبحثه العلمي. فأشار إلى تلك المصادر في كتابه وأشار إلى الخلافات بينها ونقد أقوال العارفين بتلك البقاع.

جاء كتاب المشاهد والآثار معتمداً على منهجية من سبقه من كتب الأدلة السياحية فكأن المؤلف وصفي زكريا في رحلة علمية (وربما عمل تلك الرحلة عدة مرات أثناء كتابة مؤلفه) فأخذ في وصف الاحتمالات والطرق المختلفة للوصول إلى كل ضيعة على الطريق، وحدد المسافات بالكيلومترات بين الضيع والقرى. ووصف الجو والطقس في مختلف فصول السنة ووصف كما قلنا بيوت القرية ومافيها من آثار ومشاهد ومساجد وكنائس وأبنية حكومية أو خاصة ومافيها من مدارس

ووصف حالة الناس ومتوسط عيشهم والحالة الثقافية وحركة العمران والتمدن والثقافة والعادات والتقاليد والحالة التعليمية.

وكان بذلك قد وضع كتاباً تفوق فيه على (الكتاب الأزرق) وخرج فيه عن المعهود مما يذكر في كتب الأدلة السياحية ليكون كتاباً منفرداً شاملاً جامعاً مختصراً مفيداً.

وقد قصد في توجيه كتابه لا إلى السائح فقط بل إلى كل من له حاجة في التعرف على القرى والبلدات من سياح وموظفين وعسكريين ورجال علم وثقافة ومعلمين وسواهم. وقد جاء في مقدمة كتابه عن هذا الموضوع ما يلي :

أطلق وصفي زكريا تلك التسمية "المشاهد والآثار في بلاد الشام" على مؤلفه الذي وجدته ضمن آلاف الأوراق المبعثرة المختلطة التي استلمتها من أسرته الميمونة التي عهدت إلى بموضوع تراثه وإعادة نشر كتبه فحاولت بكل جهد وإخلاص وأمانة أن أجمع جهد إنسان باحث عالم مجتهد فيما حاول أن يكتب وفيما حاول أن يقدم للقارئ العربي عموماً والسوري خصوصاً. وحاولت أن أعيد تشكيل وجمع شتات مختلف الأوراق ونتف الأوراق بما حوته من كتابات لمختلف المواضيع ولمختلف مشاريع الكتب ولأستخلص مما كتب وشطب وحتى بين السطور ولأتمم ما ترك من فراغات معتمداً على نفس مصادره مجتهداً فيما دون ذلك ليكون الكتاب الذي أراده على أحسن حال وأكمل وجه بقدر جهدي وامكاناتي ووقتي وعسى أن يكون جهدي هذا ملموساً وأن يكون لما فيه من خير مشكوراً ولما فيه من نقص أو غموض معذوراً. ولكن الدافع تخليد ذكرى شخصية أحببتها دون معرفة مباشرة ولكنها معرفة متابعة ودراسة لجهد إنسان مخلص في محبته ودأبه ومحاولاته.

حاول العلامة المهندس وصفي زكريا نشر كتبه تباعاً فطبع كتاب عشائر الشام بجهود كبيرة ونضال مرير. ثم نشر الريف السوري الجزء الثاني أيضاً بمساعدة صديق وتأخر صدور الجزء الأول لأن صديقاً آخر خرج عن الاتفاق الثلاثي بين الصديقين وبينه لطبع الجزئين معاً.

ونشر في حياته أيضاً كتابه المحاصيل الحقلية والمحاصيل الزراعية بجزئين كما نشر الدروس الزراعية بأربعة أجزاء ونشر العديد من المقالات في مختلف

الأبحاث التاريخية والأثرية عن مختلف الأقطار العربية وعن عشائر الشام بشكل خاص أيضاً.

وترك الكثير من الأوراق المبعثرة التي استطعت بتفهم طريقته العلمية في البحث والكتابة وطريقة تفكيره وخططه في وضع الكتاب فكان أن استطعت جمع عدة كتب له من آلاف الأوراق المبعثرة منها:

١- دمشق في كتابات وصفي زكريا ونشرته بدمشق.

٢- رحلتي إلى اليمن التي تمت عام ١٩٣٦ ونشرته بدمشق.

٣- حيوانات وطيور بلاد الشام التي مات أثناء وضعه اللمسات الأخيرة للكتاب.

والآن نقوم لكتابه الجديد وهو "المشاهد والآثار لبلاد الشام". وسيصدر تباعاً إن شاء الله تعالى

- القرى والبلدات في بلاد الشام.

- رحلة إلى الفرات.

وربما أجد في جولة أخرى بين أوراقه المبعثرة كتباً جديدة أعدها للنشر وليس لي من قصد سوى تقدير جهود عالم مخلص في بحثه ودراساته.

لندن شباط /٢٠٠٨

تمهيد

تشكل سورية الطبيعية بيئة جغرافية واحدة تنحصر بين جبال طوروس العالية في الشمال والصحارى العربية في الجنوب، وبين بلاد مابين النهرين في الشرق والبحر الأبيض المتوسط في الغرب.

وتتناوب طبوغرافية سورية بين مناطق منخفضة ومناطق مرتفعة يحاذي بعضها بعضاً وتتجه من الشمال إلى الجنوب. ويمكن تمييز خمس مناطق طولانية متتالية بين البحر والبادية الشامية.

أولاً السهل الساحلي الممتد من شبه جزيرة سيناء وحتى خليج الاسكندرون يحده البحر غرباً وسلسلة الجبال شرقاً ويختلف عرضه ما بين الشمال والجنوب ويكون في الوسط جانب جبل لبنان. وهو سهل خصب جداً كثير الأمطار نسبياً تختلف الارتفاعات فيه وقد تصل أحياناً إلى ٨٠٠ م فوق سطح البحر.

ثم تأتي السلسلة الجبلية الغربية تبدأ من جبال الأمانوس شمالاً وحتى جبل سيناء جنوباً وتكون حاجزاً بين الداخل والبحر سوى في الشمال السوري وعند برزخ السويس جنوباً مع وجود ممر وحيد شمال طرابلس هو صدع وادي نهر الكبير وصدع مرج ابن عامر شرقي حيفا ويكون أعلى ارتفاع في هذه السلسلة هو جبل لبنان حيث نجد أعلى قمة فيه تصل إلى نحو أربعة آلاف متر فوق سطح البحر. وثالث تلك المناطق هي منطقة السهول الواقعة بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية وهي تضم سهل العمق في الشمال وسهل البقاع في الوسط ويستمر جنوباً في وادي الأردن حتى البحر الميت ومنه إلى وادي عربة حتى خليج العقبة، ويختلف ارتفاعات أو انخفاضات تلك المنطقة السهلية فارتفاع سهل العمق قرب حماه نحو ٣٠٠م فوق سطح البحر وينخفض أدنى من سطح البحر بقدر ٤٢٠ م عند البحر الميت. المنطقة الرابعة هي السلسلة الشرقية وتبدأ من جنوبي حمص وهي تقابل جبال لبنان الغربية ولذلك سميت بسلسلة جبال لبنان الشرقية وهي تقريباً على طول واحد وارتفاع واحد ثم تنحدر من حرمون نحو هضبة حوران ومنطقة التلال التي تجاورها غربي الجولان حيث نجد أعلى ارتفاع لها لجبل الشيخ ثم تمتد إلى جبل عرمون نحو ١٣٠٠م فوق سطح البحر وجبل جلعاد

(١١٣٥ م فوق سطح البحر) ويصل الارتفاع قرب البتراء إلى نحو ١٤٠٠م فوق سطح البحر.

أما المنطقة الأخيرة فهي تلك السهوب والسهول التي تتدرج عن السلسلة الشرقية باتجاه الشرق لتصل إلى بادية الشام وهي منطقة منبسطة يقطعها سلسلة جبلية هي السلسلة التدمرية التي تمتد من شرق تدمر وتصل إلى جزيرة قبرص التي هي إحدى مرتفعات تلك السلسلة.

وتقسم بادية الشام التي هي تتمة الصحراء العربية إلى قسم يحيط بالعراق ويسمى صحراء أو بادية السماوة أو بادية العراق. وقسم جنوبي غربي يسمى بادية الشام أو الصحراء السورية. وهي تنقسم إلى قسم حجري يشكل الحماد ورملي يغطي المناطق الاخرى وكانت الصحراء وسيلة عبور هامة للقوافل التجارية وصلة وصل بين مصر وسورية ومناطق إيران والهند.

تنساب من المرتفعات الجبلية عدة أنهار تنبع من تلك السلاسل الجبلية منها ما يتجه غرباً أو شرقاً أو جنوباً إلا نهر العاصي الذي يخالف كل مجريات الأنهار فيتجه شمالاً ولذلك سمي بالعاصي.

أن التنوع الجغرافي والصورة الطبوغرافية لسورية الطبيعية جعلتها ذات مركز استراتيجي هام. وكان موقعها ودورها الحضاري مؤثراً كبيراً في تاريخها لذلك غزتها أقوام مختلفة شرقية وغربية ونشأت بسبب ذلك مناطق دفاعية كثيرة وحصون وقلاع مختلفة في بقاع استراتيجية ، ونشأت العديد من المدن والمواقع الجغرافية الهامة.

وكتابنا هذا وضعه العلامة المهندس وصفي زكريا واصفاً فيه بدقة المشاهد والآثار والطرق ليستفيد منه المدني والعسكري والسائح والمقيم والطالب والعالم وهو جمع ما بين الوصف الحي للمنطقة وبين المرويات التاريخية في بطون الكتب والآثار والمخطوطات وبين ما يعرفه السكان المحليون عن مرويات القدامى والأجداد.

لقد حاولت مراراً إعادة ترتيب الكتاب ولكني لم أستطع. فقد بدأ المؤلف كتابه من طرابلس الشام ولم يبدأ من بيروت أو من الشام مع أن طريقة الكتاب تعتمد الوصف للموقع والطرقات وما تؤدي له الطرقات وليس هاماً من أين نبدأ من

الساحل أم من الداخل من دمشق أم بيروت أم حلب إلى أن تبين لي سبب بدء المؤلف من طرابلس.

فطرابلس لها أثر خاص عند المؤلف وهي مدينة زوجته السيدة صدود ووالده وأولاده. وكأنه يحاول إهداء الكتاب إليها لو أمهله العمر لإتمامه وطباعته.

ولذلك حرصاً على ما نظنه هدف المؤلف نهدي الكتاب إلى السيدة صدود سمينة باسم مؤلفه وصفي زكريا لدورها الهام في حياته وإنتاجه وتربية أولادهما.

الفصل الأول

طـرابلس

مدينـة علـى سـاحل البحـر المتوسـط، سـكانها ٣٢٦٢٦، منهم ٢٨٠٠٠ مسلمون سنيون و ٤٠٠٠ روم أرثوذكس و ١٦٠٠ موارنـة وهـي مركـز محافظـة طـرابلس الـتي تكونـت بعـد الاحـتلال الإفرنـسي للجمهوريـة اللبنانيـة، رغـم رغبـة أهلـها الملحـة واحتجاجـاتهم وثـوراتهم لأجـل الالتحـاق بدمـشق، وهـي تقـع في الدرجـة ٣٧,٢٧ مـن العرض و ٣٥,٥٠ من الطول، وفيها محاكم صلح للبداية وللصلح ومركـز ومطرانية للموارنة وأخرى للروم الأرثوذكس وثالثة للروم الكاثوليك.

وتتألف مدينـة طـرابلس مـن بلـدتين مفترقـتين ـ الأولى البلـد، أو طـرابلس الأصلية يـشقها مـن النـصف نهـر أبـو علـي (قاديـشا)، والثانيـة الـمينـاء، وهـذه في منتهـى شـبة الجزيرة الداخلة في البحر وكانت بين البلدة والميناء.

وطرابلس البلد مبنية على بعد نحو كيلو مترين عن ساحل البحـر في سـفح وعلـى منحدر جبليين مـن أعـضاد لبنـان الـشمالي، الأول، أبـو سمـرا، علـى ضفة (أبـو علـي) اليـسرى، والثـاني القبـة علـى ضـفة (أبـو علـي) اليمنـى ـ وعلـى قمـة جبـل أبـو سمـرا انتصبت قلعة كبيرة تنسب إلى رايموند دوجيـل كونـت طولـوز الـذي حكـم طـرابلس في عهد الاحـتلال الـصليبي، وقـد انتـشر العمـران في غربـي القلعـة، ونـشطت حركـة بناء الدور الحديثة في الغرب الأقصى لجبل أبو سمرا بعد أن تم جلب مـاء عـين رشـعين العذبة سنة ١٩٣٤، وربما امتلأ ظهر هذا الجبل في مستقبل قريب.

والأحيـاء القديمـة لمدينـة طـرابلس محـصورة علـى ضـفتي نهـر أبـو علـي، ومبـاني دورها حجرية قديمة ذات طبقتين وأكثر كما رآها ناصر خسر وقبل منتصف القرن الخامس، مكتظـة لا تـزال محتفظـة بهندسـتها الأثريـة وبـضيق أزقتهـا واعوجـاج هـذه الأزقة ووفرة السبابيط والأقبية المظلمة الرطبة فيهـا، كمـا كانـت منـذ بـضعة قـرون خلت، وبين البلد وساحل البحر بسيط واسع تبلغ مساحته نحو ١١٥٠ هـكتاراً، كلـه بـساتين برتقـال وليمـون اشـتهرت بهـا طـرابلس. وتـشق هـذه البـساتين ثلاثـة طرقـات، أعرضها وأقدمها الممتد نحو الميناء، وكانت تمر لعهد قريب سكة حديد الترامـوي،

والثاني حديث يمتد نحو محطة القطار، قبيل الحرب العامة كان عزمي بك في العهد العثماني الأخير متصرفاً في طرابلس ثم والياً في بيروت، وهو مشهور بهمته وحبه للعمران.

وفي مدينة طرابلس، ولاسيما في حيها الجديد المعروف بالتل فنادق ومطاعم ومقاهٍ ودور سينما عديدة عصرية تشبه ما في بيروت على نسبة مصغرة، في داخل المدينة حمامات عربية قديمة اشتهرت بنظافتها ومستشفيات بلدية وأجنبية، ومرائب سيارات ووكالات بواخر ومكتبات، وفيها مدارس للحكومة وأخرى خصوصية للطوائف أكبرها شأناً كلية دار العلم والتربية الإسلامية، من أنظم الكليات الداخلية الإسلامية، ومدرسة أخوة العائلة المقدسة (الفرير)، ومدرسة الأميركان، وللطليان والروم الكاثوليك والأرثوذكس.. وغيرها.. ولجميع الطوائف بيع ومعابد، منها كنيسة اللاتين والكنيسة المارونية وكنيسة الروم، والروم الكاثوليك، وكنيسة للبروتستانت، وللمسلمين الجامع الكبير المنصوري، وجامع المعلق ومساجد صغيرة عديدة أخرى، ولليهود كنيس.

وفي محطة طرابلس ينتهي القطار القادم من حلب وحمص، كما ينتهي القطار ذو الأسرة (راغوت لي) القادم من باريز مباشرة، وهو يفد ويعود منها وإليها مرتين في الأسبوع، والمحطة تقع في الساحل الشمالي وشرقي الميناء وتنقل ركاب مصر بالسيارات الشركة الضخمة إلى حيفا ومنها يستقلون القطار إلى مصر.

التاريخ: كانت طرابلس في العصور القديمة على سيف الجسر في مكان الميناء الحالي على نحو ما كانت عليه بلدة صورة وهي إنما بنيت قبل الميلاد بثمانية قرون لتكون محل وكالات تجارية، ويظهر أن شأنها لم يبدأ بالبروز إلا حينما جعلت مركز اتحاد للدول الفينيقية حور وحين وإرواد واسمها اليوناني (أم المدن الثلاث) إنما جاءها كل من الصيدونيين والصوريين والإروادين وسكن كل منهم في حي منفرد محاط بسور خاص، أما اسمها الفينيقي فقد ظل مجهولاً. إن الجزائر الصغيرة التي أمام الميناء وأسماؤها المدورة ونولا والبلان وفاطون كانت عهدئذ متصلة وآهلة بالسكان ثم حدثت زلازل هائلة نقلتها عن الميناء وفصلت بعضها عن بعض. ولما جاء الملوك اليونان السلوقيون ثم الملوك الرومانيون بعدهم، زينوا وجملوا هذه المدينة.

(قال في كتاب تاريخ العصور القديمة لجايمس هنري براستد المعرب طبعة بريت ١٩٣ ص ١٢٧ إن من جملة المدن الساحلية التي أهديت إلى الملك الآشوري آشور ناصر بعل الذي جاء بلاد الشام غازياً - ثلاث مدن هي مخلات وميسة وكايسة، وقد اتحدت هذه المدن في الأزمنة اليونانية المتأخرة وأطلق عليها اسم طرابلس، ومعناه المدينة المثلثة) وقد اختلفوا في مواقعها على أنه يظن أن واحدة فقط من هذه المدن كانت مكان ميناء طرابلس الحالي، دون أن يكون ثمة إمكان للتثبت من ذلك نهائياً. بما شيدوه من المباني الفخمة، منها ثلاثة هياكل مكرسة لإجلال الآلهة أجلها هيكل عشتروت، ثم هيكلا ديوسقورس إله طرابلس الخاص وزئوس هاكيوس وهذا يماثل أدونيس، ولا يزال في جنوبي الميناء قرب الجسر أعمدة ضخمة من الغرانيت الأسود، ربما كانت من بقايا تلك الهياكل) كما تدل أيضاً على ذلك رسوم النقود التي عثر عليها.

وأصاب طرابلس في أوائل القرن السادس الميلادي زلزال هائل خربها تخريباً شديداً. إلا أنها فيما يظهر أعيد بناؤها بسرعة، وآية ذلك أنه كان لها عام ١٤هـ/٦٣٥م أسوار عالية، وفي الواقع أنها في ذلك التاريخ حاصرها سفيان أحد قواد معاوية بن أبي سفيان. وقد عجز يومئذ هذا القائد عن فتحها حرباً فعمد إلى فتحها بالحصار والجوع. ولما أحس سكانها بنفاذ أقواتهم استغاثوا بقيصر الروم البيزنطي، فأرسل هذا إليهم سفنه فأخرجوا أهلها جميعاً على حين غرة، فلما أحس المسلمون المحاصرون صباح ذات يوم بالأمر ووجدوا المدينة خالية. فاسكن معاوية فيها جالية من اليهود، وأقام فيها حامية كانت تفارق المدينة وتعود إلى دمشق أحياناً. وكان أحد وجهاء البيزنطيين استأذن معاوية في الإقامة في طرابلس مع أسرته، فاغتنم هذا ذات يوم فرصة غياب الحامية العربية وقام بالاعتصام بالمدينة، وهكذا ظلت بيد البيزنطيين من سنة ٦٦هـ/٦٨٥م إلى ٨٦هـ/٧٠٥م، ثم استعادها المسلمون فظلت تحت حكم الخلفاء الأمويين ثم العباسيين إلى سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م وفي سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م جاء جابر أحد قواد الخليفة المعز الفاطمي بجيش واستولى على كل بلاد الشام باسم مولاه، فأخذ طرابلس فيما أخذ وحصنها. حتى أنه لما جاء القيصر البيزنطي حنا زيمس (الشمقمق) واستولى على حصن عرقة سنة ٩٧٣/٣٦٣ لم يجسر على مهاجمة

طرابلس وجرب بعده القيصر باسيليوس في سنة ٣٨٥/٩٩٥ أن يحاصرها لكنه أخفق في فتحها وهكذا ظلت طرابلس بيد الفاطميين إلى أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

ومنذ أول العهد الإسلامي بدأ ازدهار التجارة والصناعة في طرابلس. وكان فيها دار كتب عظيمة تحتوي على أكثر من مائة ألف مجلد، احترقت يا للأسف بحريق خلال قدوم الصليبيين.

وفي سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م شرع رايمون سان جيل دوجيل كونت طولوز بمحاصرة طرابلس. وظلت طرابلس تدافع سبع سنوات، وزارها ناصر خسرو قبيل منتصف القرن الخامس فرأى بيوتها ذات أربع أو خمس وأحياناً ست طبقات.

مما يذكر في القرن الخامس الهجري أن القاضي جلال الملك أبا الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار جدد في طرابلس دار العلم ودار الحكمة وذلك في سنة ٤٧٢هـ لتكون مركزاً من مراكز التشريع، فنشرت العلوم والآداب وأصبحت طرابلس مدينة علم ودروس، وجهز هذه الجامعة الدينية بمائة ألف مجلد وربما كانت طرابلس على عهد ابن عمار، قبل استيلاء الصليبيين عليها، أول بلدة علمية في الشام على ما رأى الرحالة (فان برشم) ثم ازدهرت فيها في القرن السادس الهجري (مدرسة الياقية) ومنها نشأ أبو الفرج ابن العربي صاحب التاريخ المعروف به.

وكان فيها أربعة آلاف نول ودار علم فخمة ومكتبة عامرة بألوف الكتب (قيل ٣٠٠٠٠٠) التي كان جمعها القاضي أبو الحسن بن عمار ولما جاء الصليبيون ونزلوا على عرقا وهي لصاحب طرابلس فخر الملك محمد بن عمار بعث فاسترضاهم وفسح لهم أن يتجاوزوا البلدتين من غير أن يمسوها بضر. ولكن الصليبيين بعد أن فتحوا القدس عادوا لأخذ طرابلس وتم سقوطها بمعاونة الجنويين ٤/ تموز ٥٠٣ هـ /١١٠٩ ومداخلة هؤلاء الجنويين تشهد بها الآثار الإيطالية المشهورة في طرابلس. وقد نهبت المدينة يومئذ وأحرقت معها دار الكتب المذكورة. ولكن الصليبيين قاموا بعدئذ بترميمها وإعادة عمرانها، واستعادت طرابلس بسرعة حيويتها التجارية وشيد فيها عدة أديرة وبيع ومستشفيات.

وازدهر عمران طرابلس خلال ١٨٠ سنة في حكم الإفرنج، رغم مناحراتهم الداخلية والزلازل العديدة التي انتابتها، وصارت عهدئذ مركز أسقفية لاتينية ومركزاً صناعياً وثقافياً لبلاد الشام الشمالية ولم يكن فيها أقل من ٤٠٠٠ صنعة من نساجي الحرير. وكان يصنع فيها في ذلك العهد منسوجات من صوف الجمال والأقمشة الحريرية والأواني الزجاجية. كانت تعد من أجل صادراتها. وكان للنسطوريين واليعاقبة في ذلك العهد في طرابلس مدارس ذائعة الصيت يدرس فيها فيما يدرس علوم الفلسفة والطب.

وفي سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م بعد أن حاصر السلطان صلاح الدين الأيوبي صور ولم يفز بطائل جاء إلى طرابلس وحاصرها، لكنه رد عنها بشدة بفضل المدد الذي جاءها من الملك غليوم دوتيليسي الصقلي وفي سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣ استولى السلطان الملك الظاهر بيبرس على إنطاكية وذبح سكانها وضرب مبانيها النصرانية، وكتب يومئذ كتاباً إلى كونت طرابلس الذي كانت إنطاكية من إقطاعه يخبره بما جرى، وعقد وقتئذ هدنة، مكنت بيبرس من النفوذ إلى طرابلس وفحص أسوارها، ولما تولى الملك السلطان المنصور قلاوون وسمع بموت يوهموند السابع آخر كونتات طرابلس ٦٨٨هـ/١٢٨٨م جاء وحاصر طرابلس وركب حولها ١٩ منجنيقاً و١٥٠٠ جندي من نقابي الحصون ودام الحصار ٣٤ يوماً وانتهى بفتحها في ٢٦ نيسان ٦٨٨هـ/١٢٨٦م وذبح فيها ٧٠٠٠ صليبي ودكت المدينة دكاً.

ومنح السلطان المسلمين امتيازات عقارية فجاء هؤلاء وبنوا مدينة حديثة على بعد نحو مسير ساعة عن الجسر بقرب نهر أبو علي. وهذه هي البليدة الحالية ولأجل حمايتها من جهة الجسر بنى المسلمون مجموعة من مصانع دفاعية (أبراج) لا تزال بقاياها ممتدة على الساحل المذكور. وفي القرن ١٤ أغار افرنج قبرص على طرابلس ولم تضع بعد الحيوية التجارية كلها التي كانت بحكم موقعها الجغرافي، وقد قال القلقشندي في صبح الاعشى: (ج٤ ص ١٤٢)، هي مدينة من سواحل حمص، كانت في الأصل من بناء الروم، فلما فتحها المسلمون في سنة ٦٨٨م خربوها وعمروا مدينة على نحو ميل وسموها باسمها ـ ولما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة، ذميمة السكن، فلما طالت مدة سكنها وكثر بها الناس والدواب وصرفت المياه

الآسنة التي كانت حولها وعملت بساتين ونصبت بها النصوب والغروس خف ثقلها وخمها ، ثم قال: وهي الآن مدينة متمدنة كثيرة الزحام وفيها مساجد ومدارس وزوايا وبمارستان وأسواق جليلة وحمامات حسان، وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً وغوطتها محيطة بها وتحيط بغوطتها مزروعاتها وهي مدينة المشترف، ولها نهر يحكم على ديارها وطباقها ، ينخرق الماء في مواضع من أعالي بيوتها التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج ومواشٍ، وميناؤها ميناء جليلة تهوي إليها وفود البحر الرومي وترسو بها مراكبهم وتباع بها بضائعهم، وهي بلدة متجر وزرع كثيرة الفائدة وقد تقدم في الكلام على عجائب الشام أن داخل البحر بالقرب منها على نحو رمية حجر عن البر عيناً فوارة عذبة الماء تطفو على وجه الماء قدر ذراع أو أكثر تبين ذلك عند سكون الريح. وقال شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي في كتاب نخبة الدهر والقسم الخامس من مملكة الشام مملكة الساحل وكرسيها (طرابلس) المستجدة بعد فتح طرابلس الشام بجيش المسلمين في مملكة الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي. بنيت هذه المستجدة في ذيل من أذيال جبل لبنان بكورة من أكوار طرابلس، بعدها عن طرابلس القديمة المخروبة نحو من خمسة أميال على ضفاف نهر يجري إلى البحر وهي بلدة جبلية بحرية برية يتخلل الماء في جوانبها ، ولها قنطرة على وادٍ بين جبلين يمر عليها الماء من منبعه إليها في ارتفاع نحو من سبعين ذراعاً ، وطول هذه القنطرة نحو من مائتي ذراع، والنهر يجري من تحتها إلى سقي الأراضي ويصب في البحر الرومي ولا يكاد يوجد دار فيها بغير شجر لكثرة تخرق أرضها بالمياه، وهذا النهر ينبعث من جبل لبنان، وقد جمعت في بساتين طرابلس من الفواكه مالا يوجد في سائر الأقاليم أصلاً كقصب السكر والجميز والحمضيات الكثيرة الزائدة والقلقاس الذي لا يوجد مثله والثلج وسمك البحر الطري والطير الكثير ومجموعها لم يجمع في بلد غيرها.

بعد أن كانت ذات أسوار عريضة جداً بحيث إنه كان باستطاعة ثلاثة فرسان أن يسيروا عليها حيناً إلى حين قال كاترو في كتابه ج٢، ص ١٠٣ و ١٠٤.

امتد عمرانها وبنيانها في القرن السادس وصارت مؤلفة من بلدة بحرية وأخرى برية.

الصناعة والتجارة - إن الصناعات الوطنية في طرابلس تشمل صناعة الصابون ودباغة الجلود، وحياكة الأقمشة الحريرية المخططة، وفي موقع الجصاص أسس معمل للغزل.

وفي محيط طرابلس ينتج الليمون والبرتقال وفي أرضها البعل الزيتون، وفي القرى المجاورة لها يكثر القثة والرمان والموز والذرة والحبوب المتنوعة. وينتج سهل عكار الحنطة والشعير، وتصدر طرابلس الزيت والصابون والحرير والليمون والبرتقال والصوف والجلود والحبوب.

زيارة الأماكن الأثرية - جامع طغيال - ويلفظ طيلان، وهو اسم بانيه سيف الدين طغيال مملوك السلطان محمد الناصر في سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٦م وكان كافل المملكة الطرابلسية في أيام السلطان محمد الناصر وحاجبه، وبناه سنة ٧٣٦هـ، وفي النظرة الأولى، تدل هيئة بنائه ولاسيما مرتسمات قبته على أنه من طراز عربي خالص. إلا أن الروايات تنبىء بأنه مبني في مكان كنيسة مهدومة خلال الفتح الإسلامي سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩، وهو يتألف من قسمين مفترقين، ففي الشمال مسجد، يلوح بأنه ربما كان صحن كنيسة القرن ٧هـ/١٣م. وفي الجنوب بناء مقبري فخم يدخل إليه من بوابة عظيمة فخمة للغاية مشيدة على أبدع الأنماط العربية في القرن ٨هـ/١٤م، وفي منارة هذا الجامع هندسة لطيفة ولها من داخلها سلمان أحدهما سقف للآخر، فإذا أراد المؤذن الصعود للأذان من داره الملاصقة للمسجد دخل من باب المنارة صاعداً أعلاها، وإذا أراد النزول للصلاة دخل من باب آخر يصل منه إلى داخل المسجد وعلى هذه الصورة فباب المنارة السفلى الخارجي أدنى من أرض المسجد بقدر قامة الإنسان.

في قرب جامع طغيال، مسجد صغير مهم اسمه الصقرقية تقطنه أسرة فقيرة، له باب جميل وكتابات أثرية وقبة)، وإذا دخل السائح من بوابة الحدادين يصادف جامعاً اسمه (المعلق) فيه أيضاً كتابات.

وفي غربي البلد حي حديث يعود زمن الشروع بعمرانه إلى الربع الأخير من القرن الهجري الماضي، اسمه (التل) ازداد اتساعه وعمرانه بعد الحرب العظمى، وفيه

شوارع عريضة وقصور ودور وفنادق شاهقة جميلة، ودار للحكومة وأخرى للبلدية، ومرائب سيارات ودار البريد ودور سينما ومطاعم وبها مقاهٍ عديدة. وفي وسطه ساحة فسيحة أسس فيها حديقة بلدية عامة، وفي جانبها برج ساعة مربع الشكل زائد الارتفاع بني في سنة ١٣١٨هـ ذكرى العيد الفضي للسلطان عبد الحميد الثاني، ومن هذه الساحة تبدأ طريق الميناء العريضة وقد كان فيها خط الترامواي للشركة الوطنية، ظلت حافلات هذا الخط تسير على هذه الطريق منذ سنة ١٢٩٦ إلى أن عجزت عن مباراة السيارات، وهي من أجمل طرق بلاد الشام، وروائح زهور الأشجار النارنجية في فصل الربيع مما يبهج وظل يوسف باشا معيناً في ولاية طرابلس ٤٥ سنة إلى أن توفي سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م وكان قد عين وزيراً على طرابلس لكسر شوكة الأمير منصور الغساني. وبنو سيفا أمراء أكراد ينتسبون إلى المقدم جمال الدين الملقب سيفا من مماليك السلاطين الشراكسة، اشتهروا في طرابلس وعكار وحصن الأكراد وأشهرهم يوسف باشا هذا.

وآخر أمراء الغسانيين محمد ابن الأمير المنصور أتم قصر غزير وجامعها. وسار لمقاتلة يوسف باشا لتحصيل المال الميري الباقي عنده، فقتله الكامنون من قبل يوسف باشا من البترون وقلعة المسيلمة فانقرضت به ولاية الغسانيين الذين ملكوا كسروان ٢٨٣ سنة، وعدلوا في أحكامهم وعمروا البلاد. فخلفهم يوسف باشا المذكور في أموالهم وأملاكهم ومازال حتى اشتد الخصام بينه وبين الأمير فخر الدين المعني الثاني وكان اليوسفيون يمانيين والمعنيون قيسيين، فضايقهم الأمير فخر الدين بموقعه عكار سنة ١٥٥٩/١٠٠٤ وأحرق جميع دورهم فيها، ونقل حجارة قصور اليوسفيين إلى دير القمر.

الأماكن الأثرية في طرابلس ذات الكتابات: الجامع الكبير المنصوري، جامع القرطاوية، جامع طيغال، قلعة طرابلس، مدرسة الصقرقية، الخاتونية، المدرسة الرفاعية، جامع أرغون شاه، جامع التوبة، جامع المعلق.

وأزهرت طرابلس على عهد سيف الدين ارنومر الذي بنى القلعة وحماماً وسوقاً، وأنشأ فيها مجاري المياه الغريبة في تقسيمها إلى جميع طبقات الدور ليأمن ساكنوها من الحمى في الطبقات الأرضية، وحمامه الذي بناه في سنة ٧٠٩ هـ أجمع من رأوه أنه

ما عمر مثله في البلدان، وعمر قيسارية وطاحوناً وأنشأ لمماليكه بها مساكن حسنة البناء ذات طبقات يصعد إليها الماء، وعمر بعض القلعة وأقام أبراجاً، قاله النويري (الخطط) ٢/١/٤١.

السيارات السريعة: باعتها الشركة الوطنية إلى شركة الترامواي الكهربائي في بيروت سنة ١٩٢٩ فوقف عن السير يوم ٣٠ نيسان ٩٣٣ على أن تسيرها بالكهرباء، إلا أن هذه الشركة عدلت فيما يظهر عن عزمها، فظل النقل منحصراً بالسيارات.

وفي طرف ساحة التل طريق معبدة مدرجة يصعد فيها السائح إلى (التل) وفيه حديقة واسعة ومقهى جميل يشرف منه على مناظر غاية في الروعة تجمع زرقة البحر وحمرة رمال الشاطئ وخضرة حدائق الليمون والبرتقال، وزكاء روائحها العبقة في فصل الربيع وجمال الدور الحديثة المشيدة أمام هذا التل.

وإذا غادر موقع التل واتجه شرقاً نحو البلد يجتاز أسواقاً ضيقة على جوانبها حوانيت عديدة لمختلف السلع والحرف، منتهاها سوق الصاغة حيث اكتظت فيه حوانيت البدالين والبقالين، وقبله خان أثري كبير يدعى خان الصابون، وبعد هذا ينحرف نحو اليمين ويمر من بين حوانيت الصائغين، فيصل إلى الجامع المنصور الكبير، وهذه النسبة غلط، لأن الذي بناه على ما يرى في الكتابة المزبورة فوق باب الجامع الشمالي السلطان صلاح الدين خليل الأشرف ابن السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٩٣هـ.

ويزعم كتبة الإفرنج أن هذا الجامع كان قديماً كاتدرائية القديسة مريم البرجية في عهد الصليبيين بنيت هذه الكنيسة فيما قيل في أوائل القرن ١٢ م ثم دكتها الزلازل في سنة ١١٧٠م فأعيد ترميمها في القرن ١٣م، ثم هدمت سنة ١٢٨٧ لأجل بناء هذا الجامع، وإنما سميت باسم القديسة مريم البرجية لشكل مأذنتها الرهيبة.

قد قام الجامع الحالي مكان الكاتدرائية القديمة، وعلى أن شكله يبدي للوهلة الأولى كل مزايا المباني العربية، فهو مبني على التصميم المدرسي الكلاسيكي للمساجد العظيمة، فهو يحتوي على أربعة أروقة تكتنف مساحة

واسعة مبلطة مستطيلة الشكل، في وسطها مصلى وحوض وضوء كبير في جنوبي الساحة، والصحن الحرم، وهذا الحرم مؤلف من مضاعفة متوالية، في منتهاها الجنوبي المحراب والمنبر وهما تحت قبة. وهيئة هذا الحرم في الجملة باردة وخالية من كل رونق وبهاء، وسطوره المسحوقة قد طمست ببلاط أبيض شمل كل جدرانه. وعلى عقبة الباب الشمالي لهذا الجامع كتابة عربية تنسب بناء الجامع إلى السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون وذلك بعد فتح طرابلس بخمس سنوات من قبل أبيه الملك المنصور قلاوون.

ولم يبق من آثار الكاتدرائية القديمة إلا القليل، فالمدخل الكبير الفخم في شمال الجامع الذي لا يزال ماثلاً ودون طلي وتسوية هو قطع الكاتدرائية المذكورة دون ريب. إلا أن المكان المعقود الذي يتقدم هذا المدخل هو مما أضافه العرب فيما بعد، وفي اليسار قبل اجتياز وبلوغ المدخل يلحظ نافذة ذات قوس منكسر مع قسم من مسند عقد ذي متكئة تاريخها من العهد الصليبي، والواجهة الداخلية للمدخل من النمط الروماني، فهي مؤلفة من قوس ذي منحدر عميق، لأن الجدار ثخين والواجهة الأخرى أحدث عهداً، فهي مرممة في القرن ١٨م، وتحتوي على ثلاثة مساند عقود اثنان منها مزخرفان بخطوط حلزونية. والأخير يرتكز على أعمدة صغيرة رقيقة تعلوها تيجان فوقها ثلاثة صفوف من الشناكل. والباب الغربي لصحن الجامع هو أيضاً بقية جميلة لمدخل الكنيسة في القرن ١٢م، وهذه فجوة ذات عتبة ذات حجر بارز كبير يسندها، مع جوف اذن ذي عقد منحنٍ ومسند عقد واحد، والمدخل الجنوبي للجامع ليس فيه مايذكر، والمئذنة الموضوعة في استقامة المكان المغطى عند الباب الشمالي ينبغي أن تكون برج جرس في واجهة الكاتدرائية. وهي تظهر لمحة الفن اللومباردي، ولعل تاريخها من القرن ١٢م أو القرن ١٣م، وقد طلاها المسلمون بالكلس وجصصوها، ويا للأسف: وهذا البرج أوجب تسمية هذه الكاتدرائية بالقديسة ماري البرجية.

وبجانب الباب الشرقي للجامع الكبير يوجد جامع ثانٍ يدعى (جامع قرطباوية) بناه الأمير (قرطاي بك)، بعد الجامع الكبير بمدة وكان قرطاي بك من مماليك السلطان قلاوون، تولى نيابة طرابلس من (١٣١٦ - ١٣٢٥)م وفي وسط حرم هذا

الجامع حوض ماء كبير للوضوء، وله مدخل سامي الارتفاع مزين بأعمدة ذات تيجان رومانية لاتينية مأخوذة من مبانٍ سابقة، مؤلفة من أوراق طويلة. ويلوح أن جامع قرطاي بك مبني مكان (دار التعميد) التي كثيراً ما يبنونها في قلب الكاتدرائيات، وأن التيجان المذكورة كانت لها.

ومن سوق البدالين المسمى بالصاغة ينحرف نحو اليمين ويصعد في عقبة مبلطة ذات ميل خفيف تأخذه إلى (القلعة) التي يسميها الإفرنج حصن ريموند القديس دوجيل.

(يلج الزائر إلى القلعة من جسرها الشمالي الذي في قربه مقبرة إسلامية صغيرة، ويدخل من باب مدرع بالحديد . والزيارة منحصرة في يومي الجمعة والأحد، وقد تزار في كل يوم لقاء منحة للحارس.

في عام ٤٩٤هـ/١١٠٠م كان الكونت ريموند الطولوزي استقر بجيشه على هذا الجبل المشرف على وادي قاديشا وعلى مدينة طرابلس وعلى ساحلها كله، ففكر في أن يحول هذا الموقع إلى قصر محصن تحصيناً قوياً ينقلب بعد إلى قلعة طرابلس حينما ينتهي حصارها ويستلمها الصليبيون وسمي هذا الجبل جبل الحجاج. ومن ثم بنى القصر ولكنه احترق في سنة ١٢٨٧/٦٧٧ ثم رممه ترميماً مكرراً الأمير اسندمر الكرجي في سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٧م ٧٠٨هـ/١٣٠٨م وهو ولا يزال في القلعة، من آثار هذا القصر الصليبي بأسس جدران قديمة كما أن الجهة الشرقية التي من ذروة الجبل تشرف على دارى قاديشا، وهي من تلك الآثار)..

في داخل القلعة جدار الكنيسة التي كانت في القرن ٦هـ/١٢م لا يزال باقياً، وكانت هذه الكنيسة مؤلفة من صحن واحد معقودة ومن حنية أقواسها البارزة كانت مرتكزة على أعمدة قد اقحمت وسط انصاف دعامات ذات شكل صليبي، ولا يزال ثمة أنقاض منها ذات شأن، وقد كانت هذه القلعة في العهد العثماني الأخير سجناً عاماً.

ومن سطح القلعة يطل الزائر على مناظر غاية في الروعة والجمال، على البحر والسهل وسلسلة جبال لبنان الشامخة فوق طرابلس، وفي سفح الجبل الذي انتصبت فوقه هذه القلعة (تكية دراويش المولوية) المبنية على الضفة اليسرى لوادي قاديشا

الجميل وفي جنوبها الغربي وعلى طرف البلد جامع طغيال، وفي الغرب السهل لافح الفاصل بين البلد والميناء المكتظ بأشجار الليمون والبرتقال الدائمة الاخضرار والازدهار.

وإذا سار في طرف القلعة الشرقي يهبط من شعب متعرج إلى قعر وادي قاديشا، فيسير في هذا الوادي على ضفتيه الشرقية ويصل بعد ٣٠٠ متر إلى (تكية دراويش المولوية) وفيها سكن المشايخ والدوران، وعدة برك تتدفق منها مياه غزيرة ذات خرير داو مطرب، وفي هذا الموقع مناظر جميلة على نهر أبو علي والطواخي التي حوله والمنحدرات المزدانة بأشجار الزيتون، والقلعة الشامخة بأسوارها.

وصف قلعة طرابلس

قلعة طرابلس قائمة على ظهر أكمة كبيرة تشرف على البلدة من جهتها الغربية وتطل على نهر قاديشا من جهتها الشرقية وهي مستطيلة متعددة الأضلاع يبلغ طولها من مدخلها الشمالي إلى أقصى طرفها الجنوبي ١٣٦م ومعظم عرضها يتجاوز الـ ٧٠م، أما تحصيناتها فقسمان داخلي وخارجي، فالخارجي مؤلف من خندق وسلسلة (أبراج وسجون) والخندق محفور في الصخر عند طرفه الغربي ومبني فوق سطح الأرض عند الطرف الآخر، وهو يمتد من ركن القلعة الشمالي الشرقي إلى ركنها الشمالي الغربي، ويتجاوز طوله ٧٠م ومعدل عرضه خمسة أمتار وعمقه نحو ٢ ـ ٣ أمتار.

وسلسلة الأبراج والسجون تتألف من ٢٥ برجاً وسجناً، فعلى يمين باب القلعة الكبير ويساره برجان كبيران، وفي أحد هذين البرجين باب المدخل إلى القلعة عليه قوس من النوع المنكسر، وفوق القوس رخامة بيضاء عليها كتابة عربية تذكر أن السلطان سليمان القانوني أمر بتجديد البرج سنة ٩٢٧هـ. لا يتجاوز ارتفاعهما خمسة أمتار وثخن جدرانها عند السطح ١٢٠ سم، وفي أعلى هذين البرجين أربع طبقات وعدد وافر من المزاغل والمكاحل والشراريف، وفيها عدة أعمدة روابط قديمة استعلمت لربط مداميك الجدران ومرتبة ترتيباً هندسياً متقناً. وإذا استمر السائر

نحو اليسار نحو التحصينات الغربية والجنوبية المشرفةعلى المدينة يجدها مؤلفة من سبعة أبراج وأربعة سجون. ويجد في أعلى الجميع عشر طاقات للمدافع وعشرة فراغل. أما سمك هذه الأبراج والسجون فإنه يتراوح بين ٦ و ٧ م وثخن بنيانها عند السطح يتراوح بين ١٢٠ ـ ٢٤٠ سم.

أما الأبراج الشرقية المطلة على وادي قاديشا فثخنها قليل لا يتجاوز ٥٠ ـ ٦٠ سم ولكن علوها شاهق يبلغ في البرج المستدير ٢٠ متراً وهي قليلة فتحات المدافع ولكنها كثيرة المزاغل نحو ٥٠ مزغلاً، وفي أعاليها شراريف تتجاوز الخمسة.

وفي هذه التحصينات ماعدا الباب الكبير الذي فيه بويبان سريعان أحدهما في أسفل البرج الذي في الركن الجنوبي الغربي والثاني في أسفل البرج البارز الذي في وسط الأبراج الشرقية.

أما التحصينات الداخلية فمؤلفة من برجين كبيرين، يقعان وراء برجي السلطان سليمان فالأول منهما مربع الشكل يبلغ طول ضلعه الشرقي ١٤م وسمكه الشمالي ١٧ وغلظ جدرانه عند السطح ١٢٠ سم، وهو من المدافع الثلاثة فقط، أما الثاني برج بشكل مربع منحرف طوله ١٢,٢٨م وعرضه ١٢,٤٢ م وفيه طاقتا مدفع وخمسة مزاغل.

وفوق أبراج التحصينات الغربية سطح فسيح مستطيل الشكل أبعاده ٨٠×١٠ أمتار، مبني فيه بعض الأحياء المكتظة والمآذن العديدة.

وعلى بعد ٢ كم من التكية المولوية إلى مورد النهر، يصل إلى قناة ماء من الحجر مرتفعة فوق النهر، ممتدة بين عدوتي الوادي، تحمل منذ عصور مياه نبع رشعين القديمة إلى مدينة طرابلس، وتصب في خزان كبير في شمالي القلعة. ومازال الأهلون يدعون هذه القناة (قناطر البرنس) ويعنون به أحد الأمراء الصليبيين اللاتينيين الذين حكموا طرابلس، وهي مبنية من أحجار صغيرة وكبيرة ومحمولة على دعائم ضخمة تجمعها ثلاث قناطر مدببة.

وإذا عودة في مشيه يتبع ضفة القناة اليسرى ويترك القلعة على يساره فيدخل في أزقة قديمة تستحق التصوير، ذات عقود وسبابيط كثيرة متوالية حتى يصل إلى (الجسر القديم) عند باب الحديد وعلى هذا الجسر أيضاً منظر جميل يشرف على

الأحياء والدور اللاصقة بضفتي النهر.. وثمة قرب الجسر المذكور جامع البرطاسية وفيه كتابات عديدة.

وإذا عبر الجسر المذكور إلى الضفة اليمنى ودخل (السويقة) يشاهد فيها دوراً قديمة ما برحت محتفظة بمسحتها الأثرية، ولاسيما مدرسة الزريقتين وهي مسجد مهجور فيها كتابات.

ثم يعود ليصور نهر قاديشا من فوق (الجسر الجديد) وعلى طرفيه حوانيت عديدة تذكر سياح الإفرنج بجسر فيجو في فلورنسا. ومنه يجتاز أسواقاً عديدة منها سوق الجراح الذي فيه أعمدة وبقايا دعائم أثرية في سوق الزركان الحافل بحوانيت باعة الأقمشة المتنوعة، ويزور الثكنة العسكرية (خان السكر) وينسبها الإفرنج خطأ إلى الفرسان الهيكليين..، على حين أن بناءها مجهول، وجدران هذه الثكنة غاية في التحف ولها طبقتان، السفلى اصطبلات ومهاجع للجنود، وكانت طول العهد العثماني ثكنة للجنود الفرسان، وفي قرب الثكنة جامع التوبة على شكل مصغر للجامع الكبير، وجامع العطار وفيه كتابات أثرية، وجامع الدباغين.

وغرفة كانت تتخذ مستشفى للجند العثماني المرابط في طرابلس.

وقد دل التحقيق أن هذه القلعة عربية إسلامية، بني بعضها الأمير استدمر الكرجي حول سنة ٧٠٩ هـ ورمم وجدد بعضها السلطان سليمان القانوني ثم الولاة والحكام الذين تعاقبوا على الحكم في طرابلس ومنهم مصطفى آغا بربر، الذي لا يزال اسمه منقوشاً فوق محراب مسجد صغير في البرج الشمالي الكبير في سنة ٢١٦، وفوق مدخل هذا البرج أيضاً عتبة من الرخام الأبيض عليها كتابة طويلة من عهد الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون أن يسامح الجنود والأمراء بما قد يبقى في ذمتهم من فروق الرواتب الحاصلة من تفاوت السنين الشمسية والقمرية.. الخ من تاريخ ٧٤٦هـ على أنه قد كان مكان هذه القلعة الحالية قلعة صليبية هدمها المسلمون زمن الفتح واستعملوا بعض أحجارها وأسوارها في تضاعيف القلعة الحالية.

(عن نشرة صغيرة عن قلعة طرابلس الشام للأستاذ أسد رستم)

الميناء - يصل إلى الميناء راكباً إحدى السيارات، وبينها وبين البلد ٣ كم، والطريق من أبهج طرق بلاد الشام تحف به بساتين البرتقال والليمون البهيجة.. وكانت إلى عهد قريب تزداد بهجة بحافلات الترامواي المجرورة بالبغال ذات الأسطحة، وهي بلدة سكانها ٧٠٠٠ مسلم سني و ٣٥٠٠ نصارى معظمهم روم أرثوذكس. فيها مرفأ طرابلس وللميناء مرفأ حديث أسس عام ١٩٣٣ له جدار لكسر الأمواج، إلا أنه لا يكفي إلا لالتجاء السفن الشراعية والبواخر الصغيرة.

أما البواخر الكبيرة فقد كانت ولا تزال تضطر للابتعاد كثيراً عن الشاطئ، لقلة عمق الماء وطول الجدار المذكور ألف متر، وعرضه يفوق العشرة أرادوا به فيما زعموا أن هذا المرفأ لرسو الطيارات الحربية، وقد كلف بناء الجدار المذكور وله قسم من الساحل نحو ٨٥٠٠٠٠ ليرة سورية وقد أسس في الأرض التي ضمت محطة للطيارات الحربية التي تغدو وتروح من وإلى طرابلس في الأسبوع مرتين.. تقدم في بحث تاريخ طرابلس أنه بعد فتحها وإخراج الصليبيين منها رأى المسلمون ضرورة للدفاع عنها تجاه غارات الصليبيين الذين كانت أساطيلهم لا تفتأ عن المجيء. فشيدوا في الميناء على طول الشاطئ سلسلة من الأبراج اندثر معظمها ولم يبق إلا اثنان، أحدهما برج السباع قرب المحطة، ويزار باجازة من مدير المحطة.

وهذا البرج ما برح منتصباً على شاطىء البحر تهاجمه الأمواج، بين الميناء ومصب نهر أبو علي. وهو على شكل مكعب عظيم ذي أسس متطاولة، والقشرة الخارجية لجدرانه تتألف من أحجار ضخمة (بلوكات) من أحجار التشبيك ذات رفوف طويلة ومن الأحجار السورية المنحوتة نحتاً محدودياً وقد أحشي بين هذه الأحجار بالعرض قطع من أعمدة الربائط لتشد المداميك بعضها ببعض وهذه الأعمدة إما قديمة مستعارة أو مقلدة عن غيرها وثمة باب واطىء خرق في قعر فجوة عالية يحيط به دعامتان وقوس مدبب وحول الباب ينفتح بضعة مزاغل النشاب وينفتح في الطبقة الأولى نوافذ مستطيلة الشكل.

لم يبق في الميناء من الآثار القديمة شيء. لأن الفاتحين هدموها إلى الأرض. لكن بقي عند طرفها الجنوبي على طريق (فوق الريح) قطعة من السور العتيق يتجه عن الحد الذي بلغته يومئذ.

وفي الميناء خمسة جوامع تقام فيها صلاة الجمعة ومسجدان، وعدة كنائس ككنيسة مار الياس للارثوذكس وكنيسة للموارنة وكنيسة للفرنسيسكان ومستشفى للاميركان وآخر للموارنة ومستودع جمرك، وعلى شاطئها من الأبراج السبعة مكان برج الشيخ عفان وبرج الوفص .

وأمامها إلى الشمال الغربي سلسلة جزر صغيرة تمتد إلى مسافة كيلو متر منها جزيرة البقر وجزيرة طولون وجزيرة النخلة وجزيرة رمكة، ولعل هذه الجزر كانت متصلة ففصلتها الزلازل وفي شرقي الميناء بنوا حديثاً رصيفاً للطيارات المائية، وبعده مرفأ صغير لا يتسع إلا للزوارق ووراءه محطة السكة الحديدية الذاهبة إلى حمص وحماه وحلب.

سبعة أبراج من بناء السلاطين المماليك نذكرها باعتبار مواقعها من الشرق إلى الغرق فالأول برج العدس في شرقي مصب نهر أبو علي بينه وبين البداوي، والثاني برج رأس النهر عند الضفة اليسرى لمصب نهر أبو علي، والثالث برج سباع أو برج السباع عند محطة السكة الحديدية وهذا ما برح قائماً ومتخذاً مستودعاً. والرابع برج الفاخورة والخامس برج الديوان أو برج الشيخ عفان، والسادس برج البغا وفيه دار حكومة البناء والسابع والأخير برج المغاربة، ولعل هذه الأبراج كانت ثمانية لورود الاشارة إلى برج ثامن في البحصاص في كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري.

ومعيشة سكان الميناء من الملاحة والحمالة وصيد السمك، وكانوا قبلاً مشهورين باستخراج الإسفنج، وعدد سكانها ٦٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى، وكان عدد النصارى قبل تهافتهم على الهجرة إلى أميركا ضعفي عدد المسلمين.

وليس في الميناء سوى خان كبير يقع أمام الجمرك يدعى خان التماثيلي يعود بناؤه قبل قرنين ونصف، بناه ووقفه الوزير محمد بك الدفتر دار التماثيلي، وله عدة خانات أحدها في جبلة والثاني في اللاذقية، وكلها وقف لذريته. ذكر شيخ الربوة جزيرة النخلة قال (بجبال طرابلس الشام صغيرة بها جزائر صغار فيما بينها وبين الساحل).

وداخل البرج معقور وهو مستعمل الآن مستودعاً للسلع التجارية، ونمط عمارة هذا البرج تدل على أنه من القرن ١٤م ويعزى بناؤه إلى الأمير آي طوغمش، في عهد السلطان برقوق. ولم يبق من السباع المنقوشة التي كانت فيه أي أثر أو أي شاهد، رغم أن اسم البرج يدل على وجودها.

وعلى بعد ١،٥ كم إلى الشرق، قرب جسر المحطة الحديدية الممتد فوق نهر أبي علي، يوجد برج آخر يدعى برج رأس النهر، في زيارته بعض الفائدة. فهو حصن مربع ذرعه نحو ١٧ متراً من كل جهة، وزواياه قد حصنت بنوع من البريجات الثلاثة الأسطوانية الشكل، وفي جنوبي هذا البرج باب ينفذ منه إلى الطبقة السفلى، ولهذا من بهو واحد في وسطها دعامة مركزية تحمل عقداً ذا زوايا بارزة، وفي الجناح الشمالي كان أضيف برج نصف اسطواني ذو جدران أقل ثخناً من الأول فتح في وسطها ثلاث فتحات للرمي.

البداوي.. وفي شرقي طرابلس، في طريق حمص، وعلى بعد ٣ كم منها، يوجد (قبة البداوي)، وهي زاوية صغيرة للدراويش وحرم هذه الزاوية أو المصلى حديث البناء، لكن القسم الغربي المتخذ مسكناً قديم العهد، ويزعم نصارى طرابلس أنه هو البقية الباقية حتى يومنا من كنيسة كانت هناك في عهد الصليبيين مكرسة للقديس انطونيوس البادوي.

وأمام قبة البداوي وشرقها عين ماء ثرة تتفجر وسط حوض واسع نصف مدور بني حوالي سنة ١٣١٧ هـ تزدحم فيه ألوف من السمك الأسود الذي يحترمه الأهلون ولا يمسونه قط وفي هذا الاحترام مسحة من بقايا عبادة الاسماك المقدسة التي كانت في عهد الحثيين. وهذا السمك شفوف جداً يأكل حب الحمص المحمص (القضامة) فإذا القيت حبات منه تهافتت الاسماك عليه وشوهد لها منظر ممتع، وهذا المكان من منتزهات طرابلس البهيجة التي تقصد كثيراً.

وفي الميناء خمسة مساجد جوامع ومسجدان صغيران زوايا، فالجوامع، الجامع الحميدي وجامع غازي نسبة لأحد أفراد أسرة بني غازي، والجامع الكبير العالي وجامع الداكير وجامع حارة الجديدة وهي حارة حديثة نائية في جنوبي الميناء.

أخبر لوقيان في كتابه المعنون بآلهة السوريين: إن الأقدمين كانوا أثبتوا بركاً قرب هياكل آلهتهم لاسيما عشتاروت وكان في هذه البرك عدد غفير من السمك يعظمه القوم.

من طرابلس إلى الأرز

من طرابلس إلى الأرز طريقان الأول ٦٣ كم يمر بأميون وحصرون في الضفة اليسرى لوادي قاديشا، والثاني /٦١ كم/ يمر بزغرتا وإهدن في الضفة اليمنى لوادي قاديشا. وننصح أن يكون الذهاب من الأول والرجوع من الثاني، وبذلك تبقى المهاوي السحيقة والمنعرجات الصعبة على يسار السيارة الصاعدة أو النازلة مما يزيد في اطمئنان الراكبين. وإذن تكون هذه الجولة ١٢د٤ كم.

يغادر طرابلس من جنوبها خارجاً من بين مقبرة باب الرمل ومحاذياً جبل أبو سمرة وفي هذا دور حجرية وخشبية عديدة راكب بعضها فوق بعض في الكم ٢,٥ جسر الجصاص. وهنا يترك طريق بيروت وينحرف نحو اليسار ويتسلق طريقاً متجهاً إلى الجنوب الشرقي قد شق في التلعات الصخرية لسهل الكورة السفلي وهذه التلعات تفصل بين الساحل ووادي قاديشا في الكم ٤ ظهر العين - في الكم ٨ بطراطيش (في الكم ٩,٥ فرع على اليسار يمكنك من الاتجاه - دون أن تمر باميون - نحو كسبا، فتصل فيه بعد ٦ كم إلى بصرما، وفيها كنيسة قديمة من عهد الصليبيين، ومن بصرما أيضاً طريق ٦ كم، يوصل إلى سطح الانصباب الآخر لوادي قاديشا ويلاقي بعد قرية داريا طريق طرابلس - أهدن على قرية عرجس، ثم يلاقي الكم ١٥ قرية كسبا.

عودة - في الكم ١٠ غابة - في الكم ١٤ قرية بطرام سكانها روم ارثوذكس مبنية فوق أكمة صغيرة عند طرف الطريق وفيها منظر جميل يمتد نحو سهل الكورة المكتسى كله بغابات من أشجار الزيتون وكأنه خضم من الخضرة، في الكم ١٤,٢ على اليمين طريق يهبط نحو البحر في منعرجات عديدة فيلاقي طريق

بيروت، وهو يصل من القرى في الكم ٢,١ إلى لشمزين . وفي الكم ٤,٥ كفر حزين . وفي الكم ٩,٥ شكا العتيقة . وفي الكم ١١,٥ شكا الجديدة.

عودة - في الكم ١٦ اميون - مركز ناحية الكورة وأكبر قراها، وقاعدة القضاء سابقاً. وتعد من أمهات قرى لبنان وأكبرها بسكانها ٣٠٠٠ روم ارثوذكس تعلو ٤٠٠ متراً، مبنية على هضبة مستطيلة في حدود غابات الزيتون وأشجار الزيتون في حوار اميون عظيمة فخمة جداً وفيها محكمة بداية ومخفر درك ودائرة برق وبريد وفيها عدة كنائس، منها في الشمال كنيسة جديدة باسم مار يوحنا مبنية على شفا جرف صخري هائل، له جبهة في الجنوبي الشرقي المائلة وارتفاعه أكثر من ٢٥ متراً، فيها كوى عديدة عجيبة الشكل كانت تتخذ لدفن الموتى في العهد الفنيقي الروماني.

وفي أعلى الهضبة الحاملة للقرية كنيسة كبيرة باسم القديس جاورجيوس يظهر أنها مبنية ثانية فوق جدران أثرية ما برحت سالمة، تدل على أنها بناء روماني، وفي وسط القرية كنيسة أخرى باسم مارفقاس، بناؤها أثري غريب الشكل، رممت في سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥، يقال إن موريق قائد يوستينانوس الذي قتل رهبان دير مار مارون على العاصي ولحق الموارنة إلى هنا، قتلوه فدفن فيها وهندسة هذه الكنيسة وبقايا الصور الملونة التي فيها وطراز بنائها كل ذلك يدل على أنها من العهد البيزنطي. وفي الطرف الجنوبي للصخرة الحاملة للسراي كهف مقبري قلبوه إلى كنيسة باسم القديسة مارينا، أمام بابها أطلال كنيسة أخرى ربما كانت من العصور المتوسطة.

من أميون إلى دمعا (٢٠ كم، جنوباً)، طريق بعد ١ كم من أميون يترك طريق الأرز وينحرف إلى الطريق الأيمن في الكم ٢ بزيزا، قرية صغيرة فقيرة مارونية، مبنية، فوق أكمة تعلو عن الطريق وتطل على سهل بعضه مسقي، وفي هذه القرية كنيسة صغيرة فيها صور بيزنطية ملونة قد سترت بالطلاء، وفي قمة الأكمة هيكل روماني ذو أحجار ضخمة، ذرعه ١٠ وعلوه ٥ - ٧ أمتار قد زينت واجهته برواق جميل رشيق لا تزال أعمدته منتصبة (٣ على ٤) تحمل ريازة من الطراز الأميوني وقد بنوا في عهد البيزنطينيين كنيسة في هذا الهيكل.

وفي بزيزا فرع طريق يأخذ (بعد ٣ كم) إلى قرية دار بعشتار (بيت عشتروت) وجدوا تحتها في سنة ١٩٢٤ كهوفاً مقبرية استخرجوا منها عاديات مختلفة كقطع نقود وكسور أوانٍ خزفية.

وفي الكم ١٠ (دير بللا) ضيعة فقيرة مارونية علوها ٨٠٠ متر في الكم ١٣ كفر حلدا ضيعة جميلة روم أرثوذكس، في منتهى واد خصب خضر، نضر يجري فيه نهر الجوز.

في كفر حلدا طريق يعملون في إتمامه، يأخذ مباشرة إلى الشروف بعد اجتياز تهر الجوز ماراً بقرى جبلية في كم ١٢ ويقسماياني كم ١٤ وكفرعايا في كم ١٧، وهذا الطريق يمكن من الوصول إلى الأرز مباشرة إلى البترون دون أن يمر بطرابلس.

في الكم ١٦ مزرعة بيت شالا، في الكم ٢٠ دوما، قرية كبيرة ذات دور جميلة، سكانها ١٢٨١، أكثرهم روم أرثوذكس، علوها ١٠٠٠ متر، ذات موقع جميل وماء عذب مبنية فوق أكمة وسط بقعة بهيجة من الجبال الصخرية المكسية بالغابات، وهي مركز ناحية ومحكمة صلح ومخفر درك ومكتب برق وبريد. في أسفل القرية وأمام نبع عين التحتى ناووس من الحجر الكلسي عليه كتابة يونانية أثرية جميلة. ومعنى الكتابة فيما قيل أنه دفن هناك كاستور كاهن إله الطب وآلهة الصحة وبها تهديد لمن ينتهك حرمة المدفن.

ومن دوما مجاز نحو الغرب يوصل بعد مسير ساعة إلى مزرعة بشللة، وفيها خرائب ذات شأن اسمها (قلعة الحصن) مبنية فوق هضبة صغيرة علوها ١٢٦٠ متراً، فيها منظر رائع واسع الامتداد وثمة أطلال عمارة ربما كانت من العهد الروماني حول صخرة بشكل نبات الفطر، في قمتها جرن قرابين ويحيط بهذه الأطلال سوران، وفي قربها مقبرة صخرية.

(من دوما إلى تنورين الفوقا نحو ٢,٥ ساعة في مجاز رواحل) يسير أولاً في قعر وادي نهر الجوز النضر الزاهي بالغابات، وفي عدوتي الوادي جدران عمودية من الجبال الشاهقة الرهيبة وبعد ١,٥ ساعة تنورين التحتى، فيها نقوش أثرية بثلاثة أشخاص قد سحقت رؤوسهم، وعلى جانب سطح الانصباب الشمالي ويرحوب للموازنة وبعد ٢,٥ ساعة تنورين الفوقى، علوها ١٤٥٠ متراً وسط بسيط ضيق قد

طوقته جبال جرداء ومن تنورين للفرق يمكن الوصول في ٤,٥ ساعة إلى العافورة، ومنها أيضاً في ٤ ساعة إلى حدث الجبة).

إلى طريق الأرز عودة في الكم ١٩ كفر صارون، ومن هذه طريق يأخذ إلى كفر عقا التي كان فيها في عهد الصليبيين عودة حصن لم يبق منه إلا الخطوط، وفي الكم ٢١ كسبا، قرية كبيرة، سكانها ١٢٠٠ أكثرهم روم أرثوذكس، علوها ٥٠٠ متر، في سفح جبل شاهق، مشرف على الحمراء وهي غابة زيتون كبيرة وتظهر منها طرابلس وكسبا.

وفي أعلى القرية كروم كثيرة تنتهي قرب (قصر الناووس)، وهو بناء أثري ضخم، لازالت بعض جدرانه وعتباته قائمة، يعد بين المباني الأثرية الثاني بعد مباني بعلبك من جهة ضخامة الأحجار ودقة النقش. وهو قائم على أكمة عالية، وفيها بقايا هيكلين كبيرين، وجدوا فيها تمثالاً لبعل. مبنية على منحدراته، وهي مركز تجاري تتمون فيها كل قرى الجرود، وحولها غابات ممتدة من الزيتون يحصل منه زيت فاخر، وينسج فيها عدول من شعر المعزى، وعلى مقربة ١ كم منها، أكمة وسط الزيتون عليها كنيسة أثرية باسم دير بربارا يحتوي على صور ملونة بيزنطية وكتابات يونانية حال الطلاء دون قراءتها وعند الخروج من كسبا يشرع الطريق بالتسلق ويلج مضيق وادي قاديشا مطلاً عليه من علو غير يسير.

إن وادي قاديشا ينفذ في هذه الجبال في طول قدره ٢٠ كم، ويؤلف في مبتدأه شكلاً يشبه السطح المائل النصف دائري، وثمة عند هذا المبتدأ بقايا صخور مركومة مما جرفته الثلاجات في العصور الجيولوجية، في وسطها مغارة عظيمة سيأتي وصفها يتفجر منها نهر قاديشا ثم يكون الوادي هاوية سحيقة عظيمة تكتنفها جدران عمودية تعلو أكثر من ٢٠٠ متر، في قعرها يسيل النهر.

إن الشعب الذي يسكن هذا الوادي استقر فيه في منتصف القرن السابع وهو من نصارى بلاد الشام الذين لجأتهم انشقاق القائلين بطبيعة واحدة في المسيح إلى الابتعاد والتجمع بشكل طائفة وهؤلاء التفوا حول راهب تقي اسمه مارون - ومنه نشأ اسمهم الموارنة - واستقروا في عدد من القرى في وادي نهر العاصي في أديرة غنية وقاتلوا بشدة شيعة الانشقاق المذكور ولاسيما اليعاقبة. فنالهم من أعدائهم كثير من

العنت، ليحولوهم عن معتقدهم وليكسروا من شوكتهم، فاضطر الموارنة أخيراً إلى أن يفكروا في الجلاء عن أراضيهم والهجرة إلى أماكن حصينة يعيشون فيها أحراراً بعيدين عن الاضطهادات، فانتقوا بقاع لبنان العالية وخاصة وادي قاديشا. وكان ثمة نساك ظلوا خلال عدة قرون يلجأون إلى كهوف لا تعد ولا تحصى منقورة في الجبال في مواضع جد عالية تشبه أوكار النسور، ويعيشون فيها عيشة عزلة وزهد خالصة، ثم صاروا بعد حين يجتمعون ويقطنون في عدة أديرة اخصها دير قبوتين الذي فيه أخرجة البطاركة، وبعد أن لجأ الشعب الماروني الصغير إلى هذه البقاع العالية الحصينة تمردوا خلال القرون المتتابعة وقاوموا اضطهادات السلاطين المماليك والعثمانيين رغم الحملات والمذابح العديدة.

لذلك كان الشعب اللبناني ينظر إلى هذا الوادي نظرة تقديس (قاديشا بمعنى مقدس) وبعده.

أصل الموارنة

كان الموارنة في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي زمراً آرامية تقيم على مقربة من أفاميا في جهات دير مار مارون وقد اتخذوا اسمهم من القديس مارون ومن ثم انتشروا في وادي العاصي ولاسيما في المعرة وشيرز وحماه وحمص وربما كانوا أيضاً في أنحاء منبج وقنسرين وانطاكية، وذلك بسبب نشأة القديس مارون في بلدة قورس. ولما زادت عليهم اضطهادات مجاوريهم ولاسيما اليعاقبة، أعداؤهم هاجروا إلى شمالي لبنان، لأن اليعاقبة كانوا يتتبعونهم وبلغ عدد رهبانهم ٦٣٠٠، وقد حدثت هجرة الموارنة تباعاً، توطنوا أولاً جهاته الشمالية ثم تقدموا إلى أواسطه ثم إلى جونيه ـ وقد كانت مشارف جبل لبنان والأنحاء المعروفة بالجرد قليلة السكان كثيرة الغابات. أما "الوسط" فقد كانت مأهولة لعدد أقل مما في السواحل فالموارنة سكنوا أعالي لبنان لخلوه من السكان، واحتلوا أولاً أودية الجبة أي مقاطعات إهدن وبشري والحدث وبعض بلاد البترون ـ ولما كثر عددهم في القرن الثامن والتاسع والعاشر امتدوا شيئاً فشيئاً إلى الجنوب واحتلوا بلاد جبيل. واختلط بهم قوم

من الآباق والطرواد الذين لاذوا بحمى المردة والجراجمة الباقية في لبنان فضلاً عما كان ثمة من السكان الاصليين، فصار كل هذا أمة كبيرة واحدة في زيها وهيئتها.

ومن الثابت أن كسروان كان آهلاً قبل القرن ١٥ بالنصيرية فغزاهم نواب الشام في عهد السلطان الأشرف خليل والناصر محمد حتى اخرجوهم وخربوا ديارهم فاستفاد الموارنة من ذلك واحتلوها حتى صارت مقاطعة كسروان في القرن ١٧ لهم كلها.

وعلى العدوة اليمنى (الشمالية) من الوادي يلحظ عن بعد قرية (راس كيفا)، وفي أسفل هذه القرية، وعلى شنخاب رفيع من المنحدر المطل على جسر قاديشا يرى كنيسة غريبة جداً اسمها (مار الياس) بعضها داخل كهف طبيعي وبعضها منقور في الصخر، وبعضها مبني بالحجارة، وفيها صور ملونة بيزنطية وكتابات سريانية وهي مبنية مكان عمارة رومانية.

ثم يستمر الطريق في الصعائد والمنعرجات ويلحظ على العدوة اليمنى منظر عجيب جداً من الصخور الطباشيرية الكرتاشة والنواة الجوراسية وفي وسط هذا الحلزون الفسيح يوجد دير للروم الأرثوذكس اسمه حاطورا حوله كثير من الكهوف العظيمة وكنيسة هذا الدير قد اقحمت وسط أحد هذه الكهوف. في الكم ٢٤ المغارة - ضيعة - في شمالها ووسط هاوية صخرية كثير من الكهوف العجيبة أحدها مماثل نفقاً واسعاً.

في الكم ٢٨ يطل الطريق على طرزا، قرية مارونية، سكانها ٤٨٠، مبنية على جانب منحدر الوادي على علو ٦٠٠ متر وفيها كروم عنب كثيرة، وآثار قناة أثرية كانت تروي سهل الكورة، وفيها مقبرة صخرية ومن طرزا يمكن الوصول في شعب كؤود جداً وبعد مسيرة ساعة على الأقدام أثر دليل إلى (دير قنوبين) ويمكن أيضاً بعد الانفصال من الجبل المطل على دير قنوبين وبعد الاتجاه نحو الشمال الشرقي، أن يصل بعد مسير نحو ساعتين على الأقدام في شعب كؤود مثل الأولى - إلى دير القديس انطونيوس في قزحيا.

في الكم ٣٠ عين السنديانة فيها مخفر درك في أعلى الطريق يلحظ في علو شاهق جداً كهف منقور في الصخر وحوله عمارة، وكان هذا الكهف مأوى الزهاد ثم صار ديراً ثم ملتقى اللصوص.

في الكم ٣٤ بيت مندر - ضيعة محاطة بأشجار الصنوبر علوها ١٢٥٠ متراً، ثم تكثر المنعرجات السريعة ويزداد الصعود والدوران.

في الكم ٤٠ حدث الجبة - قرية مارونية جميلة، علوها ١٤٥٠، سكانها ٨٠٠ موارنة، حسنة الهواء وجافة جداً، لذا تعد من أنفع مراكز الاصطياف، للمصطافين وطالبي الهواء الجاف، ولها مناظر غاية في الامتداد والروعة نحو وادي قاديشا وسهل الكورة والبحر المتوسط، والقرى العديدة المبعثرة في الآكام والسفوح المتدحرجة تحت أقدامها، كما أنها ترى وراءها قرية حصرون عن كثب وقرية بشرّي عن بعد كما تلحظ غابة الأرز على شكل شامة سوداء في وجنة بيضاء ومن فوقها قمة (قرنة السوداء).

من الحدث إلى تنورين - ماراً بغابة الأرز الخاصة بالحدث، ٤ ساعات على الدابة، بعد مسير ساعة يصل إلى تل صغير عليه حرجة ثم يهبط وادياً دائرياً باسم وادي حريصا يخرج منه أحد روافد نهر الجوز ومنحدرات هذا الوادي في عدوته اليمنى قد اكتست بغابة حقيقية من شجر الأرز وهي ملك البطريرك الماروني وأشجار هذه الغابة وإن كانت أقل حسناً من غابة بشرّي لكنها أكثر عدداً، وإذ كانوا يستغلونها استغلالاً حراجياً فيقطعون أغصانها الرئيسية، اختلفت أشكالها وصارت كالشمعدانات، وفي فصل الربيع ينتشر مع نسغ هذه الأشجار أريج جد عطر وذكي، وفي ظلالها وتحت أقدامها تنبت وتنمو كثير من النباتات والزهور الجميلة بحقل رائيها يتخيل غابات لبنان قديماً حينما كانت تغطي منحدراته وسفوحه.

ويسير في الوادي نحو ساعة و ٤٥ دقيقة ويجتاز أكمة كلسية جرداء فيصل إلى مفرق حجازين أحدهما يأخذ إلى دير حوب الماروني فتنورين التحتى والثاني يأخذ إلى وادي تنور فتنورين الفوقى وقد تقدم ذكرهما والقرى التي يشار إليها معهما.

عودة، في الكم ٤١ بعد الخروج من الحدث وهبوط منفرجين يمر الطريق من فوق مقبرة صخرية صغيرة اسمها (مقرونا) عجيبة جداً، فيها كهوف منقورة في صخر ذي الألوان العديدة التي تبدأ من الأبيض الناصع إلى الأسمر البنفسجي.

في الكم ٤٢ حارة بيت رعد في الكم ٤٤ الديمان العلو ١٣٥٠ متر، وهو المقر الصيفي لبطريرك الموارنة.

وحولها ضيعة يقطنها مزارعو دار البطريركية.

من الديمان شعب جبلي شديد الكؤودة والانحدار يهبط بعد ساعة ونصف نحو قعر وادي قاديشا ويعبر النهر فوق جسر يستحق التصوير في قربه طاحون، فإذا صار في العدوة الثانية يتسلق شعبا عمودياً كؤوداً فيصل بعد ٣٠ دقيقة إلى دير قنوبين.

إن هذا الدير، وقد اشتق اسمه من كلمة يونانية معناها الدير، هو أعظم معابد هذا الوادي وأقدمها، شيده فيما قيل تئودور الكبير (٣٧٩ ـ ٣٩٥)م وهو منذ القرن ١٥م مقر بطاركة الموارنة، وقبور هؤلاء وعددهم ١٨ ـ موجودة في كايللا مبنية على بعد ١٥٠ متراً إلى الغرب وأمام مدخل المغارة المقدسة التي قضت القديسة مارينا أواخر حياتها فيها. وتجاليدهم موضوعة في توابيت قد أقيمت منتصبة على طول جدران الكهف المقبري، وأغطية أكثر هذه التوابيت من الزجاج، وجفاف هذا المكان قد حفظ إلى درجة هذه التجاليد.

والكنيسة الديرية، المبنية داخل مغارة طبيعية، قد كرست باسم العذراء، وفيها قد حفظ جثمان أحد الرهبان القدماء، وتزعم الروايات أنه البطريرك تيان المتوفى منذ مئة عام، والجثمان الذي ألبس لباسه الكهنوتي لايزال سالماً. وهذه الكنيسة مزينة بصور ملونة لا يمكن معرفة تاريخها، وهي مشتقة من الكتابات الكنسية البيزنطية وربما كانت من القرن ١٥م أو ١٦م، والحينة تحمل رسم إلهة مبهمة نوعاً ما. مع صورة كبيرة للمسيح وثمة كتابات سريانية ولاتينية، وفي وسط الجدار الشمالي صورة كبيرة للعذراء وتحت أقدامها صور بطاركة الموارنة بألبستهم الكهنوتية.

من دير قنوبين يمكن اللحاق بالطريق القادم من طرابلس إلى الأرز والمار بإهدن، هذا إذا تسلق مباشرة المنحدر الذي تحت ضيعة اسمها بلوزا.

عودة في الكم ٤٨ حصرون . قرية مارونية كبيرة حسنة ذات فنادق عديدة ودور عصرية جميلة علوها ١٢٥٠ متراً سكانها ١٤٦٠ ، منحدر قاديشا العمودي تطل على وادي قاديشا ، وتقف على شفا منحدره العمودي الرهيب مركز اصطياف ذو شأن، ذات هواء جيد ومكان خضر نضر.

في الكم ٥٠ بزعون، قرية مارونية، سكانها ٥٥٠، مركز اصطياف، في علو حصرون ذات مناظر خلابة، تحتها المنحدر الصخري العمودي والشلال الكبير.

ثم يمر الطريق من فوق دير ماريشا البشع وهذا الدير مبني فوق صخرة محاطة بالخضرة في مكان نزه، تاريخه سنة ١٨٦٠ ويمكن الوصول إلى هذا الدير في شعب يهبط نحو قعر الوادي ويعبر النهر فوق جسر قرب طاحون والدير مبني وسط منحدر عظيم في سفح المنحدر الذي تحت قرية بشري، ويكنى بأبي أديرة قاديشا ، لم يبق فيه سوى راهب ماروني واحد.

في الكم ٥١ بقرقاشا ، قرية صغيرة[1] ، ثم يمر الطريق تحت قرية قديمة اسمها بقفرا دورها ماتزال على الطراز الجبلي البدائي، وهي أعلى قرى وادي قاديشا (١٥٠٠ متر).

في الكم ٥٣ يعبر الطريق نهر قاديشا من فوق جسر، وفوق هذا الجسر بقليل درب يؤدي إلى دير مار سركيس المنقور أكثره في الصخر، وهذا الدير يحضن الآباء الايطاليين الكريمليين وهو قائم على صخر عظيم وهو لذلك يدعى دير ايشر ومن حواليه الأشجار الممتدة الظليلة ، ليس فيه سوى راهب واحد.

في الكم ٥٥ بشرّي . بلدة مارونية ذات شأن ومركز اصطياف مرغوب علوها ١٤٠٠ متر سكانها ٣٥٠٠ مبنية فوق تلعة مغشية بكروم العنب والتوت وغيرها ، وهي مركز ناحية ومحكمة صلح ومخفر درك وفيها فنادق عديدة جميلة ودور عصرية وحوانيت ومقاهٍ، وهواء وماء جيدان، وفيها أربع كنائس، أكبرها في الوسط، ومدرسة للإيطاليين ولبعض أسرها عراقة ووجاهة ، وفي أهلها قسوة في عهد الصليبيين كان اسم بشري وكانت إحدى اقطاعات كونتية طرابلس . وفي قرب

---

[1] سكا ا ٢٧١ نسمة.

بشري مكان توليد الكهرباء من شلال يهوي بشدة من المغارة التي ينبغ منها نهر قاديشا وهذا الكهرباء ينير قرى هذه الجبال كلها ومدينة طرابلس.

ومن بشري يصعد الطريق صعوداً رهيباً وتتعرج كثيراً، وفي خلال هذه الصعائد يطل على السيل النابع من قاديشا، ويحاذي القناة التي تؤدي بالماء إلى شلال معمل الكهرباء، ويشرف من علو شاهق على مضيق قاديشا السحيق حيث المنظر غاية في الروعة والجلال.

في الكم ٦١ يصل بعد آخر صعدة إلى بسيط منحصر بين شفا الوادي وقمم ظهر القضيب، في منتهاه غابة الأرز ذات اللون القاتم وفي جانبها على نشز فندق الأرز، كما أن في شفا الوادي فندق آخر حديث.

في الكم ٦٣ غابة الأرز هذه الغابات المحترمات هي إحدى بقايا الغابات العظيمة التي كانت تغطي لبنان في العصور القديمة وقد نوهت التوراة في عدة مواضيع بهذه الغابات وذكر أن النبي سليمان بن داود استعمل أخشابها في بناء هيكل بيت المقدس، ولا ريب في أن هذه الأخشاب نقلت وقتئذ من ميناء طرابلس بحراً إلى سواحل فلسطين، وقد استعمل أهل صور وصيدا أيضاً هذه الغابات في تلك العصور في صنع التماثيل وبناء الدور وصوارى السفن.

إن أرز لبنان واسمه اللاتيني قريب من أرز آخر اسمه أرز يؤدورا - وأصل هذا من جبال هيمالايا ويوجد منه في بلاد التيبت، ومن أرز ثالث اسمه أرز الأطلس جبال طوروس وآمانوس، وساق أرز لبنان باسق مستقيم في الغالب ويمكن ان يبسق حتى ٣٠ متراً، وأن يبلغ محيط دائرته من الضخامة نحو ١٣ - ١٤ متراً وتؤلف فروعه الغليظة طبقات غير قياسية، وينمو على هذه الجذوع أغصان عديدة تمتد امتدادا طويلاً وتنبسط على هيئة المراوح وخشب الأرز قاس، صقيل، ضارب للحمرة، وله طعم مر ينفر الحشرات، ومن هذه المرارة نشأ خلوده.

وما برح لبنان يحتفظ بغابات صغيرة من هذه الشجرة الجليلة القدر مبعثرة في أماكن مختلفة، كما في جوار قريتي إهدن وحدث الجبة، وعلى جبل الباروك حيث يدعى الأبهل، إلا أن أشجار غابة بشري هي دون منازع الأجمل والأعرق في القدم والإجلال.

هذه الغابة الجبارة قد نبتت في سفح جبل المكمل على علو ١٩٢١ متراً فوق صهوة صغيرة بارزة وسط خضرة المورن وهذا المورن يدل على المكان الذي وقفت فيه آخر الثلاجات التي كانت في لبنان في عصر كانت فيه الأمطار والثلوج أغرز وأشد من العصر الحاضر وعدد هذه الأشجار نحو ٤٠٠ وليست كلها من عمر واحد فاصغرها تبلغ من العمر نحو ٢٠٠ سنة وغيرها نحو ٤٠٠، ٨٠٠، ١٠٠٠، وقليل منها طاعن في السن إلى أكثر من ذلك ويقال إن هذه الأشجار الطاعنة في السن كانت قبل ثلاثة قرون أكثر عدداً من الآن. ففي سنة ١٥٥٠ ذكروا أن عددها ١٥ وفي سنة ١٦٦٠ كانت ٢٢ وفي سنة ١٦٩٦ لم يحصوا سوى ١٦، وفي يومنا لا يزيد عددها عن ١٢، ويقول العلماء أن عمرها يبلغ نحو ١٥٠٠ سنة وهي توجد فوق تلتين، في الأولى خمسة وفي الثانية سبعة وأضخمها يبلغ علوها ٢٢ متراً ومحيطها في قاعدة الساق ١٢ متراً.

وقد نقش كثير من الزائرين أسماءهم على قشور هذه الأشجار، وثمة على إحدى الاشجار الجبارة نقش اسم الشاعر الإفرنسي الشهير لامارتين وابنته جوليا وراهب اسمه جرامب، وتحت هذه الأسماء رخامة نقش عليها بالإفرنسية ما تعريبه باختصار أن اتحاد الشبيبة البشراوية يهدي هذه الرخامة تذكاراً لمرور الشاعر الإفرنسي الكبير لامارتين وابنته بأرز لبنان في عام ١٨٣٢ في حين أنه من الثابت أن لامارتين وابنته لم يصلا إلى الأرز، وإنما الذي وصل ونقش اسمه بها هو الراهب جرامب وحده.

ويسبغ الموارنة على هذه الأشجار نوعاً من التقديس ويسمونها بأرز الرب، وهي تحت حماية بطاركتهم، فقد بنى أحدهم في سنة ١٨٤٣ وسط الغابة كنيسة صغيرة، وضعوا تحت طائلة الحرمان القطع أو التجاوز عليها، وفي كل سنة في شهر آب يحتفل الأهلون بعيد كبير في حضور البطريرك. وقد عد اللبنانيون شجرة الأرز رمزهم الوطني ووضعوا رسمها وسط علمهم المثلث الألوان. (مساء ٩ - ١٠/١/١٩٣٩).

الصعود إلى قمة قرنة السوداء الـ ٣٠٨٨ متراً، هي أعلى قمم لبنان بل قمم بلاد الشام كلها، تحتاج لأربع ساعات، رحلة يسيرة، يفضل السفر صباحاً حيث تهب الريح الشمالية، وذلك كي لا يزعج السائر بالغيوم وكي يتمتع جداً بالمناظر. هذا

بعد أن يستوثق من أن الدليل يعرف الطريق جيداً، ويأخذ معه خريطة وبوصلة وذلك لاستخدامها في حالة الإحاطة بالضباب. وإذا لم يكن مجهزاً، بالثياب والأشياء المناسبة لمثل هذه الرحلة الجبلية، يفضل أن يستجلب من بشري بغلاً قويا قادراً على اجتياز هذه الرحلة، وذلك لكي لا يضطر للتبلل بأكوام الثلج التي تفترش المنحدرات العليا وتبقى متجلدة حتى شهر آب ولابد من النهوض والحركة باكراً جداً.

يغادر فندق الأرز ويتجه نحو الشمال الشرقي فبعد ٤٠ دقيقة يصل إلى عين الجورة، وهي ساحة مدورة صغيرة من آثار الثلاجات القديمة ينبس منها خيط رفيع من الماء يشرب منه رعاة الغنم البشراويين في فصل الصيف، ومن هنا ينبغي أخذ المؤنة الكافية من الماء، إذ لا يوجد بعده ماء جار قط. ومن عين الجورة هذه يبتدىء الصعود الحقيقي. فخلال ساعة ونصف يصعد في اتجاه الشمال الشرقي وفي منحدر كؤود ملآن بكسور الأحجار الكلسية وفتاتها التي تتدحرج تحت الأرجل فتزيد مشقة الصعود. ثم يصل إلى مصطبة صغيرة ينفرج بعدها شق أو وادٍ يسير فيه نحو الشمال الشرقي مسافة ٧ كم (نحو ساعة وربع) والمحور المتوسط لجبل لبنان الشمالي يؤلف أخدوداً طويلاً قعره على علو معدله نحو ٢٨٠٠ متر وخط التلفريك (المصعد الهوائي) ليس مستمراً، فهو يتقطع من مكان إلى آخر بآكام ومهاد وقعران تتراكم فيها الثلوج، وتتجمد خلال الموسم كله. والماء الذي يحصل من ذوبان هذه الثلوج ببطء لا يسيل على وجه الأرض بل ينفذ بين طبقات الكلس السنوماني.

ويغور ليرفد مجاري الماء في أحشاء الأرض وإن وجود هذا الإخدود المتوسط الذي تحده من الغرب والشرق قمم مشرفة عليه عن قرب ٣٠٠ متر لا تمكن الزائر من التمتع في وقت واحد بمناظر الساحل والداخل (البقاع).

وأول ما يصعد الزائر في الغرب (بعد مغادرة الأرز بأربع ساعات) إلى قرنة السوداء (علوها ٣٠٨٨ متراً) وهي أعلى قمم لبنان طراً، وفي ذروتها إشارة جؤد زيكية (طبغرافية) سوداء ويميز الناظر منها نحو الجنوب الغربي المنحدرات الكلسية السمراء لرأس الشقعة ويتجه نحو الغرب سهل زغرتا المغطى بالزيتون والمحروس من ريح البحر بجبل تربل القريب من الساحل، وثمة أيضاً مدينة طرابلس

المكتظة بالدور حول قلعتها، ومن بعدها الرأس المثلث الذي في منتهاه ميناء طرابلس وإذا كان الجو رائقاً فوق البحر المتوسط تتكشف أيضاً وسط هذا البحر الفسيح وعلى بعد ٢٥٠ كم عن الساحل جبال ترودوس (علوها ١٩٥٠ متراً) أعلى سلسلة جزيرة قبرص وهذه الجبال هي التكملة الجيولوجية لجبال اللكام الممتدة حول انطاكية وينبسط في الشمال والشمال الغربي سهل عكار الخضر النضر المؤلف من دلتا النهر الكبير، وبعده سلسلة جبال النصيرية المكللة قممها بقلاع العصور المتوسطة.

وإذا أراد الزائر أن يكتشف سهل البقاع ينبغي عليه أن يتقدم نحو الشرق ويهبط الأخدود المتوسط ويعود للصعود خلال ٤٥ ق إلى قمة أوطأ بقليل من القرنة السوداء، تشرف على هذه البقاع التي كانت في الأصل قعر بحيرة ويلحظ في الشرق قرية رأس بعلبك ومن بعدها المنحدرات الجرداء الشهباء لسلسلة لبنان الشرقي وفي الجنوب اللطخة الخضراء التي تحدثها غيطان بعلبك وبساتينها، ومن بعدها جبل الشيخ المكلل بالثلج.

أما الرجوع من قرنة السوداء فيمكن أن يؤتى من الطريق نفسها، أو الأفضل، فيما إذا كان الدليل يعرف المجازات أن يهبط خلال ست ساعات من المضيق الرهيب المسمى بضم الميزاب إلى قرية سير (تقدم ذكرها) أو يهبط إلى قرية إهدن ماراً بغابة الأرز المجاورة لها.

الرجوع: هذا ويمكن الرجوع من الأرز إلى بشري من نفس الطريق التي تقدم وصفها، أو من مجاز قدم تسلكه الدواب اسمه عين النبع يمر من تحت مارصربا.

من بشرّي إلى إهدن. يمكن الوصول من بشري إلى إهدن مباشرة خلال ساعتين من مجاز قديم تسلكه الدواب يمر من تحت دير مار سركيس وبعد هذا الدير بقليل وفوق المجاز عين نضاحة ينبجس منها ماء غزير وبارد.

(ومن بشري مجاز آخر يهبط إلى وادي قاديشا ويوصل إلى دير قديم اسمه مارليشا، ثم بعد هذا الدير يجتاز غابة جميلة من شجر العفص وبمسيل ينحدر من دير حامت وثمة قنطرة من الصخر الاشهب قد علت من ارتفاع مئة متر فوق هذا الشق العظيم المسمى بهوة نهر الرب، ثم يمر من أسفل كنيسة صخرية باسم القديسة

شمونة لها ثلاث حنايا أحدها فجوة في الصخر ثم يجتاز شعباً ضيقاً في ذروة منحدر سحيق مرعب يغور في الشمال في وادي عين القنطرة، وهو واد يستحق التصوير وموحش، إلى أن يبلغ إلى كنائس منقورة في الصخر باسم مار بهنا ومار سركيس وهي إزاء ديرالصليب).

عودة: في الكم ٧٣ يجتاز الطريق وادياً صغيراً في أعلاه يرى كنيسة باسم مار تدروس مبنية فوق حاجز صخري ففي سفح هذا الحاضر مغارة فيها معبد عجيب باسم سيدة الدر تفد إليه من أماكن بعيدة النساء اللواتي يشكين قلة الدر.

في الكم ٧٥ حوشيت ضيعة مارونية فقيرة علوها ١٣٢٠ متراً وسكانها ٩٠٠ مبنية فوق شنخاب صخري غريب الشكل جداً، فوق وادي قاديشا، وفيها طاحون قديم ذو قناة ماء. (١٠ـ ١٩٣٩/١/١١).

وتحت حدشيت هوة سحيقة في سندها مغارة اسمها (دير الصليب) فيها كنيسة مزدوجة، في حناياها صور ملونة بيزنطية لسبعة قديسين، وتحت هذه المغارة بمسافة وفي قعر الوادي كنيسة ضخمة أخرى عجيبة باسم مار انطون البداوي، ومغارة أكلة السيد ومغاور مار سلوان ومار شليتا ومار جريوس ومغارة مار يوحنا، ولا يزال في هذه المغاور سهمان منقطعان، الأخيرة أعجب وهي منقورة وسط جدار صخري عمودي شاهق وفيها صور ملونة بيزنطية أيضاً، وكل هذه المغاور والبيع من العصور المتوسطة.

في الكم ٧٨ بلوزا ـ قرية مبنية على قمة منحدر يفصل وادي قاديشا الأصلي عن وادي إهدن الذي يرفده وفي الكم ٨٢ بان ـ وهنا مجاز شديد الكئودة والوعورة يهبط في ساعة ونصف إلى قعر الوادي الذي ذكرنا أنه مضيق موحش بعضه مزروع. وكنيسة هذا الدير منقورة في الصخر. وثمة مغارة طبيعية يتخذونها سجنا للمجانين الذين يكبلونهم بالأغلال ويسجنونهم ريثما يشفيهم القديس قزحيا.

في الكم ٨٣٫٥ فرع من الطريق صالح للسيارات يوصل إلى قرية كفر صغاب، وهي مارونية سكانها ٩٠٠ في مكان خضر، علوها ٣٠٠ مترٍ، ثم يوصل إلى قرية عنطورين، ثم إلى طريق إهدن ـ طرابلس.

في الكم ٨٥ إهدن، بليدة حسنة، يقال أنه ليس في لبنان أعذب ماء وأطيب هواء وأجمل منظراً، علوها ١٤٥٠ متراً، مركز اصطياف مشهور، في مكان معجب ووسط مناظر رائعة. وهي في الصيف قاعدة ناحية ومسكن أهل زغرتا الذين يملكون كل مزارعها. أما في الشتاء والربيع فخاوية لا يبقى فيها سوى نحو عشرين أسرة لحراسة الدور ورفع الثلوج عن السطوح، وفيها محكمة ابتدائية ومخفر درك، وفنادق عصرية كبيرة ودار برق وبريد وفيها كنيسة كبيرة متسعة الجوانب تحتوي على جثمان يوسف كرم الذي يعده اللبنانيون بطلهم، والجثمان محنط منذ نصف قرن ومعروض في تابوته للأنظار تحت غطاء من الزجاج. وتحت الكنيسة المذكورة كنيسة قديمة خراب باسم القديس جاورجيوس وهي من العصور المتوسطة، فيها صور ملونة وكتابة بالسطر النجيلي، وفي الشمال الغربي من إهدن فوق أكمة كنيسة قديمة صغيرة باسم سيدة الحصن، كان أصلها برج مراقبة في عهد الرومان.

ومن اهدن طريق يوصل إلى غابة الأرز الجميلة في وادي فيران ومن هذه يمكن الصعود إلى القرنة السوداء عن طريق عين بتلاية وعين افقا وعين خالدية ومزرعة سويكطة ووادي العصافير وعين العصافير وخربة قلعة عيشة، لكن هذه الطريق شديدة الكئودة والوعورة.

في الكم ٨٩ فرع من الطريق يوصل بعد ١ كم إلى ضيعة مارونية اسمها إصبع في جوارها غابة صنوبر بنفس الاسم، هي إحدى الغابات الجميلة المحفوظة في هذه الربوع.

ثم يشرع الطريق بالهبوط تدريجياً في منعرجات يزداد قصرها وخطرها كلما انحدرت، إلى أن يبلغ في الكم ٨٢ قرية ايطو، مركز اصطياف صغير علوها ١١٠٠م مبنية على أسناد جبل كرم ايطو. وفي جنوبها على بعد ١٠ ق دير مار سمعان وفيه راهبات من الطائفة المارونية - في الكم ٨٥ كرم سعدة - في الكم ٩٦ قرية سبعل المشهورة بنبيذها - في قربها على أكمة دير مار يعقوب، مصيف مطران طرابلس الماروني - في الكم ٩٩ كفرفو، وهنا ينتهي الجبل ويبدأ السهل المغروس

بالزيتون - في الكم ١٠٣ عرجس - في الكم ١٠٧ دير الجديدة للرهبان المارونيين - في الكم ١١٠ الخالدية، وهنا فرع طوله ٦ كم إلى مزاريا.

في طريق مزرايا المذكورة، وفي الكم ٢ منه قرية ايعال، وفيها قصر محصن غريب بناه حول سنة ١٨١٠م حاكم طرابلس مصطفى آغا بربر، وهو فوق قلعة تشرف على القرية ويتصل بالنظر مع قلعة طرابلس.

وهذا القصر بناء ضخم طوله نحو ٥٠ متراً، له طبقتان مع باحة واسعة مكشوفة وفي داخل سوره مسجد صغير، في داخله ضريح الآغا المذكور.

عودة: في الكم ١١٢ كفر خلدا - في الكم ١١٤ زغرتا، قرية مارونية كبيرة، سكانها ٥٠٠٠ قاعدة مديرية، وفيها محكمة بدائية ودرك ودائرة برق وبريد ومدرسة راهبات وهي مبنية على حد سهل الزامية وتشرف على نهر رشعين الذي يجتازه الطريق بعد الخروج من زغرتا.

في الكم ١١٨ مجدليا، وههنا الطريق نجده فسيحاً مترامي الأطراف ملآناً بأشجار الزيتون إلى أن يصل إلى محلة القبة من أرياض طرابلس وإلى ساحة التل في طرابلس حيث الكم ١٢٤.

ضواحي طرابلس

هيكل سفيرة ـ ٢٩ كم في السير على طريق جبلية معبدة، ومنها ساعتان مشياً أو ركوباً إلى هيكل سفيرة.

يخرج من طرابلس من طرفها الشرقي المسمى بباب التبانة، ويصعد إلى حي القبة متسلقاً طريقاً معبدة كثيرة المتعرجات، فإذا بلغ الهضبة يترك على سمته وخرج وجاز باب الثكنة العسكرية يترك على يمينه الطريق الجنوبية الصاعدة نحو إهدن والأرز وينطلق نحو الشرق على طريق مستوية معبدة يعدو بين كروم الزيتون الجميلة الممتدة غرباً وجنوباً ويلحظ على يساره (جبل تربل) الشامخ بعظمته وأمامه قمم لبنان الشمالي ومنحدراته الرهيبة المكللة في كثير بالثلوج.

في الكم ٨ ـ قرية علمار في الكم ٨ قرية أرده، وهي مبنية وسط كروم الزيتون فوق أكمة مقابل قرية زغرتا وهذه تظهر دورها المسقوفة بالأجر الأحمر عن بعد، في الكم ١٣ مرياطة، قرية صغيرة إسلامية وسط كروم التوت والزيتون، فيها مقبرة حولها ـ أشجار سنديان ضخمة ـ في الكم ١٧ عشاش، تعلو ٢٥٠ متراً، دورها منتثرة بين خضم من الشجر الأخضر، وفي قرب الطريق دير للرهبان المارونيين.

ثم يجتاز الطريق نهيراً ثم يشرع بتسلق منحدرات الجبل، ثم يدخل في وادٍ يضيق شيئاً فشيئاً. في الكم ٢٠ كفر شلان، ضيعة مسلمة صغيرة ـ في الكم ٢٥ يشرف من بعد على قرية (حقل العزيمة).

في الكم ٢٦ يصل الطريق بغتة إلى منعرج شديد الالتواء، وإذا به أمام منظر غاية في الروعة، على يمينه منحدر عمودي يمعن في السمو، وعلى يساره منحدر عمودي آخر يمعن في العمق نحو وادٍ سحيق وعريض، انتشرت فيه الكروم والبساتين ذات الأشجار المثمرة المتنوعة، وازدهى بكثرة ينابيعه المتدفقة وشلالاته المتساقطة، وبما على وجهته اليمنى من الدور والقصور الحديثة التي بناها سراة طرابلس للاصطياف، وفي أسفل الوادي قرية ذات دور مبعثرة بين تلك الغياض والرياض اسمها (نجعون)، وفي أعلى الوادي قرية سير المقصودة ذات الاسطحة الحمراء، في الكم ٢٩، سير في سفح جبل الأربعين الشامخ بمنحدراته الهائلة،

وتشرف على علو تعلو ألف متر سكانها ٧٠٠، وفيها مركز ناحية الفينه ومخفر درك ودائرة برق وبريد. وهي قرية إسلامية ذات شأن، وموطن أسرة (رعد) الكبيرة زعيمة هذه الأنحاء ومصيف جميل يكثر فيه الأسر الطرابلسية. زاد إقبالهم عليها في السنين الأخيرة وفيها مسجد للمسلمين وكنيسة للموارنة وسوق صغيرة وفيها فندق حديث متقن ظل ظليل، وهواء منعش، كثير الرطوبة والضباب، وشلالات ومياه دافقة ومناظر رائعة، غاية في الامداد نحو البحر المتوسط وما يمخر فيه من السفن، ونحو سهل عكار الأفيح الزمردي، ونحو جبال عطار ولبنان الشامخة الظاهرة حول سير من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، وفي هذا الجنوب الأقصى (قرنة السوداء) أعلى قمم لبنان طراً (٣٠٨٥ متراً) وفي إحدى الآكام التي تعلو سير من الجنوب ضيعة حديثة (بقاع صفرين) اتخذت حديثاً مصيفاً.

زيارة هيكل سفيرة ـ يمكن الوصول إلى هذا الهيكل مشياً أو ركوباً في نحو ساعتين، فيسلك شعبا صخرياً شديد الانحدار والكئودة، ولا يزال يهبط فيه إلى أن يصل بعد ساعة إلى قعر وادي الطين أحد روافد نهر البارد فيعبره فوق جسر صغير، ثم يشرع بتسلق عقبة شديدة الانحدار والكئودة تمر من بين أشجار السنديان والملول والتوت الخضراء، إلى أن يصل بعد جهد إلى ضيعة (سفيرة) ذات الدور المنتشرة، بين تلك الأشجار، علوها ١١٠٠ متر، وفي شمالها بعد نحو ثلث ساعة يصل إلى هيكل سفيرة، وفي قربه غابة صغيرة جميلة من أشجار السنديان الأخضر، وحوله مناظر جميلة، وهو مبني فوق مرتفع.

لايزال هذا الهيكل سالماً في جملته. ولو بعثت (فرونتون) والكورنيش الذي كان يزين قسمه الأعلى لقلت أن بناءه قد تم من عهد قريب. إذ ليس فيه أي حجر متزحزح عن مكانه، وصهوات الزخارف ما برحت سالمة، حية، وواضحة كل الوضوح إلى حد يخيل إليك أنها خرجت من يد النحات أمس، قد ارتكز هذا الهيكل على مداميك أرضية تعلو نحو ٣ ـ ٤ أمتار، ليس فيها ولا في الواجهات أي أثر للأعمدة وشكل هذا الهيكل مستطيل يبلغ عرضه نحو نصف طوله. والأحجار التي بني بها غاية في الضخامة.

قيل إن أصل الأسرة من حوران، قدم جدهم رعد إلى طرابلس وانتمى إلى بني سيفا فولوه مقاطعة الفينة هو وخلفه أولاده إلى أواخر القرن الثاني عشر الهجري (تاريخ حيدر الشهابي، الطبعة الكاثوليكية ١٩٣٣، ص ٩٥ رقم ١ عن الطبوغرافية التاريخية لرسو ص ٨٨ ان كورة الفينة الجبلية عرفت فيما يظهر دور إقبال في زمن الرومان، وربما كان ذلك بعد دخول بوميوس، وآية ذلك أطلال حصن سفيرة وجزدان نائوس وهي فوق كسبة ونقوش طرزا وتبيرزا. ومنحوتة نحتاً جميلاً، وليس ما بينها أي أثر للكلس والطين. والجدران العالية الجانبية تتقدم عدة أمتار على الواجهة وتؤلف (اليرونائوس) أي القسم البارز القدامى من الهيكل يوصل إليه بسلم قد انسد اليوم بانقاض الفرونتون بيد أن هذا الهيكل بسيط البناء، فيه بضع دعامات لا تبرز فوق الجدار سوى ٣ ـ ٤ سنتميترات، مزخرفة من الخارج، والواجهة تحتوي على ثلاثة أبواب أكبرها المتوسط وهو عالي يحيط به إطار من النقش البارز أما البابان الآخران فهما ضيقان وواطئان ومعدوما الزخرف والذي في اليسار يوصل إلى سلم داخلي منحوت في حجارة الجدار، يصعد فيها إلى سطح الهيكل.

والسللا، طويلة نحو ١٤ ـ ١٥ متراً وذات قسمين، الثاني منهما أعلى من الأول بثلاثة أمتار. وفي الوسط درجات توصل إلى ذلك القسم العالي، بينما هناك في الجهة اليمنى باب صغير محاط باطار من الزخرف البارز، يوصلك في درج إلى المغارة الخاصة بدفن الموتى وطولها بقدر عرض الهيكل. وهناك في الواجهة الخارجية للجدار الجانبي الأيمن كتابة يونانية صعبة الحل، نقشت على حجر لا يختلف عن التي ذكرناها.

وفي جوانب هيكل سفيرة يلحظ وجود خرائب بنايتين اثريتين صغيرتين فالأولى في أسفل درج الهيكل، لم يبق منها سوى القسم الأعلى من الباب مع كتابة يونانية. والثانية التي مازال سورها مائلاً، تحتوي على ثلاثة أعمدة دورية لا تزال قائمة أيضاً.

وفي قرب هيكل سفيرة أكمة حجرية تشرف عليه، يرى فيها أطلال عمارة أثرية صغيرة مربعة الشكل مبنية بأحجار المكان نفسه، وفي قربها شبه مذبح مبني بغلظة زائدة وإلى جانبه يصادف عمارة ثانية ذرع كل من جهاتها ستة أمتار تكاد تكون على نفس الشكل الذي للعمارة الأولى، وفي أساسها زخرف بارز.

ويمكن أن يصعد من سير ويبلغ خلال ست ساعات (قرنة السوداء) ومنها يهبط وادي قاديشا والأرز وسيأتي ذكر ذلك.

ويمكن أيضاً ان يغادر سير نحو الشرق فيصل بعد ٥ ـ ٦ ساعات إلى وادي نيسان وقرية اكروم في المنحدر الشرقي لسلسلة لبنان المتجهة نحو حمص وكل البقاع.

حصن عكار

٤٦,٥ كم طريق معبدة حتى عيات، ومنها ٢,٥ ساعة على الرواحل جولة مفيدة جداً يخرج من طرابلس في طريق حمص ـ في الكم ٣ قبة البداوي التي تقدم ذكرها في الكم ٩,٥ قرية المنية ذات الغياض والرياض والينابيع الغزيرة ـ في الكم ١٤,٥ أرض ارطوزة مكان اورتوزيا قديماً (سيكون ذكرها) في بحث طريق طرابلس ـ حمص ثم يعبر الطريق نهر البارد فوق جسر جديد، وقد هجر الجسر القديم الحجري، في اليمين خان خراب يلوح أنه من بناء العصور المتوسطة. في الكم ١٥ المعبدة ـ هنا يترك على اليسار طريق حمص أكمة ـ في الكم ٢٦,٥ نهر عرقا وعليه جسر حجري جميل، وفيه ترى العين منظراً جد جميل يستحق التصوير ولنهر عرقا قناة فرعية جانبية تجتاز الجسر المذكور فوق جسر ذي قنطرتين وتسيل نحو الحقول الخضراء الممتدة ومن ثم يصل إلى أمام تل كبير بعضه اصطناعي هو ليس إلا مدينة عرقا الأثرية.

(كان لعرقا شأن كبير منذ أقدم أزمنة الفينيقيين وقد جاء ذكرها في رقم تل العمارنة وفي نصوص الآشوريين وفي عهد الرومانيين كان اسمها آرتاسزارئا أو قيصرية لبنان وكانت مركز عبادة ذات شأن للآلهة ونوس أرشي تي ويس وكان فيها هيكل ثانٍ باسم عشتروت يوليادا، وقد ولد فيها إسكندر سفيروس، وبنى فيها قصراً، ولما زحفت الحملة الصليبية الأولى نحو بلاد الشام وبلغت هذه الربوع وجدت هنا مدينة محصنة وسط بقاع عامرة ذات مياه غزيرة وحولها جبال مكتسية بالحراج، وبالتلال المفروشة بأشجار الزيتون وسهول فسيحة مقسمة زخرت بزروع

ومروج مختلفة، وكانت مياه عرقا تأتيها من عكار بقناة لا يزال مجراها المنقور في الصخر بارزاً في بعض الأماكن وقد اتخذ تارة مجازة للمرور كما في الدبل وتارة أثر فني كما في القنطرة، حيث كان يمر على قنطرة معقودة من فوق أحد روافد نهر عرقا. وبعد أن استولى الفرسان الهيكليون على عرقا جاء الملك الظاهر بيبرس واستخلصها منهم سنة ١٢٦٦م.

ثم يلف الطريق حول التل عن يساره ويلحظ على منحدرات هذا التل وداخل الصير (جمع صيرة) المسورة بضع قطع من أعمدة الغرانيت الوردي اللون الشبيهة بأعمدة بعلبك كما يوجد فسيفساء طولها أكثر من عشرة أمتار مغطاة بطبقة من التراب ثخنها نحو ٠,٧٥ متر، وقد ظهر طرف منها من أحد شقوق الارض، وثمة غير ذلك كثير من الأحجار المنحوتة.

وإذا صعد إلى ذروة هذا التل يشرف على منظر غاية في الروعة والامتداد يشمل كل سهل عكار الذي تصل مزارعه الخضراء ومحارثه الحمراء حتى شاطىء البحر. وهذا السهل، تبلغ مساحته نحو ١٢٠٠٠هكتار وهو ذو تربة جد خصبة، ويكاد يكون أهراء لبنان الشمالي، وسط هذا السهل الممعن في الانبساط تلمح عدداً من التلال الاصطناعية الصغيرة، وأطلال قرية أثرية رومانية أو صليبية أو عربية.

في الكم ٧، حلبا وهي هلبة في عهد الصليبيين، مبنية مكان قلعة من العصور المتوسطة قد دثرت الآن بالكلية، وهي قرية سكانها ١١٤٨ نصفهم مسلمون ونصفهم روم أرثوذكس وهي قاعدة قضاء عكار، وإن لم تكن أكبر قراه وفيها محكمة بداية ومخفر درك ودائرة برق وبريد. وحلبا مبنية في سفح أكمة ودورها متراكبة، ويناوح أكمتها أكمة أخرى بينها وبين الأولى واد، وعلى الثانية قرية نصرانية اسمها (الشيخ محمد) سكانها ٤٥١. من حلبا إلى القبيات ـ ٢٤,٥ كم طريق غير جيد ـ إذا خرج من حلبا ينحرف نحو اليسار.

عرقا الحالية قرية صغيرة ليس فيها سوى طاحون وبيوت قليلة، بينما كانت في العصور الماضية، مدينة عامرة، قال الادريسي "لعرقا في وسطها حصن على تلة عالية ولها ربض كبير وهي عامرة بالخلق كثيرة التجارات وأهلها مياسير وشربهم من ماء يأتيهم في قناة مجابة من نهرها. ونهرها ملاصق لها وبها بساتين كثيرة وفواكه

وقصب سكر وبها مطاحن على نهرها وبينها وبين البحر ثلاثة أميال وبناؤها بالجص والتراب، وجونها ينسب إليها بينما صار ينسب الآن إلى عكار لكثرة ما ينتجه من الحبوب والذرة والسمسم والبصل.

قضاء عكار من أعمال لواء لبنان الشمالي: سكانه نحو ٣٠٠٠٠ نصفهم مسلمون والنصف الآخر نصارى وهواؤه جيد نشيط، وسهوله خصبة، وفيه أشجار وافرة معظمها من الزيتون، وفي جباله أعظم غابات الشام. وكانت قرية عكار العتيقة مقاماً لآل سيفا.

وفي هذا القضاء صناعة السجادات المنقوشة، اقتبسها سكانه من التركمان الذين حلوا فيه، وأشهر القرى بهذه الصناعة عيدمون والمفراقة والجديدة والنهرية والرماح، ثم هند قت وحجز.

في الكم ١,٥ نخلة ـ وهنا يتفرع الطريق إلى فرعين يلتقيا في قرية البيرة.

فالفرع الأول ـ شمالي ـ في الكم ٦,٥ ضيعة إسلامية فقيرة اسمها حواش، تعلو مئة متر، مبنية فوق قلعة صخرية في طرف سهل عكار، منظر جميل ـ في الكم ١٠,٥ تليل (تصغير تل) ضيعة نصرانية وسط بقعة متتلعة في طرف واد صغير زاهٍ بزروعه وخضرته في الكم ١٤ الداوود في الكم ١٨ البيرة.

أما الفرع الثاني فجنوبي ـ في الكم ٢,٥ خربة الجندي ـ في الكم ٣ كوشار في الكم ٧ كفر حارة ـ في الكم ٧,٥ مزرعة بلدة ـ في الكم ٨ الحد ـ في الكم ٩,٥ دير حنين ـ في الكم ١٠,٥ البربارة ـ في الكم ١٢,٥ ـ الفساكين ـ في الكم ١٤,٥ خربة الداود ـ في الكم ١٥ البيرة، وهي قرية ذات شأن، سكانها ٧٠٠، وسط بقعة، جميلة المنظر، غزيرة المياه، فيها مسجد ظلل بدلبة عجيبة في ضخامتها وزهوها.

في شمالي البيرة وعلى بعد ٦ كم ضيعة مارونية فقيرة اسمها منجز مبنية قرب نهر الكبير، في واد سحيق محصور بين شاهقين، فيها دير كبير كان للآباء اليسوعيين ثم انتقل إلى الرهبان المارونيين، وهو من فوق منحدرات جميلة ملآنة بأشجار الحراج، وفي ملتقى نهر منجز بنهر الكبير أطلال حصن صليبي قديم كان اسمه في عهد الصليبيين (قلعة فليس) ونجد أسس جدران، وصهاريج وأخرجة

ومدارج، وكان هذا الحصن يتراسل بالنظر مع برج صافيتا وربما كذلك مع قلعة الحصن، وكان مكلفاً بحراسة معابر نهر الكبير.

في الكم ٢٤,٥ القبيات، قرية كبيرة، تعلو ٦٠٠ متر، مركز ناحية من أعمال قضاء عكار، سكانها ٢٢٢٧، كلهم موارنة، منقسمة إلى خمس حارات منفصلة، في سفح جبال مغطاة بالحراج، وفيها مدرسة إيطالية، ومستشفى إيطالي وكنيسة كبيرة، ومخفر درك، ومن قبيات يمكن الوصول على الدابة إلى حصن عكار).

وبعد القبيات يستمر الطريق فيصل بعد الكم ٤ إلى عندقت، قرية مارونية غنية ذات دور مكتظة، سكانها ٧٠٠، علوها ٧٠٠ متر، فيها مدرسة للراهبات ومعمل لحل الحرير ومقر سرية عسكرية لبنانية.

وعلى بعد ٧ كم إلى الشمال الغربي ضيعة فقيرة اسمها عيدمون، سكانها ٣٠٠ اشتهرت بالبسط العكارية التي ينسجها نساء هذه القرية في بيوتهن، فيغزلن الصوف ويصبغنه بايديهن وفيها نحو عشرين نولاً من الطراز القديم، وعرض هذه البسط (ليانات قياسات نحو ١,٣٠ متر أما الطول فمختلف حسب الطلب والرسوم قلما تختلف، وليس فيها اتساق على أن الصبغة إجمالاً لا بأس بها ومن الممكن تحسينها.

وعلى مقربة من عيدمون يمكن أن يزار بقايا هيكل روماني يدعى (مقام الرب) وهو من الفن الوحشي، ليس فيه سوى أنه ادى للاحتفاظ بصنعات محلية تعزى إلى نحاتي أحجار صالحين.

ومن عندقت يمكن الوصول بعد ٨ كم إلى طريق طرابلس ـ حمص عند الكم ٥٨، وعند جسر عريضة عودة بعد حلبا يتجه الطريق الذاهب إلى عكار نحو الجنوب الشرقي ففي الكم ٣٠,٥ يلمح على اليسار فوق مشخاب قرية الدبل، ويلف من حولها ـ في الكم ٣١,٥ وفوق قلعة على اليسار أطلال قناة رومانية (يتسلق خط أحجارها التلعة) كانت توصل ماء من عكار إلى عرقا.

ثم يشرع الطريق يتسلق منعرجات تصعد نحو أكمة خضراء تعد من أول اعضاء سلسلة جبال عكار.. في الكم ٣٣,٥ يشرف الآن من على قرية الدبل التي تلمح على اليسار هنا منظر غاية في الروعة نحو الجسر وجزيرة إرواد وجبال النصيرية.

في الكم ٣٤,٥ يهبط الوادي وفيه منظر جميل نحو جبل عكار وفي الجنوب نحو جبل الفنية وثمة في سفح عضد ثانٍ تظهر قرية جبرائيل في الكم ٣٧,٥ يعبر نهر عرقا فوق جسر ثم يجتاز قرية جبرائيل (قرية صغيرة أهلها روم ارثوذكس، عددهم ٥٣٦، دورها مبعثرة بين الرياض والمياه الدافقة.

وبعد جبرائيل تزداد وعوثة الطريق على السيارات وتصير مشرفة من على وادي نهر عرقا في الكم ٣٩,٥ يترك على اليمين فرعاً للطريق يتجه نحو الجنوب وفيه (في الكم ٣) قرية رحته.

في الكم ٤٠,٥ في امتداد الطريق على اليسار، أطلال أخرى للقناة الرومانية التي تقدم ذكرها، وفي اليمين تظهر قرية تكريت.

في الكم ٤٢,٥ بيت ملاط، قرية مارونية غنية، سكانها ٨٠٠، مبنية وسط الخضرة، علوها ٥٠٠ متر. في الكم ٤٣,٥ العيون وهنا يتفرع الطريق إلى فرعين، فالأيسر يتجه (٤٤,٥ كم) إلى بينو، قرية روم ارثوذكس، سكانها ١٠٠٠، مبنية وسط الخضرة والأشجار، وعند ملتقى واديين صغيرين يؤلفان نهر عرقا. فيها مخفر درك ومدرسة. أما الفرع الأيمن يجتاز (٤٥,٥ كم) ضيعة البرج فيها سراي قديمة في قربها مسجد وشجرة.

في الكم ٤٦,٥ عيات قرية إسلامية، سكانها ٤٠٠، ينتهي فيها طريق السيارات واكتظت حول دار محمد بك العثمان أحد أعيان هذه الأنحاء. ومن هذه الدار منظر ممتد رائع جداً.

وفي عيات يترك السيارات ويأخذ راحلة توصل إلى حصن عكار. والمجاز غير عسير، وإن كان متسلقاً، فيصل بعد ساعة إلى العضد الأخير المجاور لشواهق جبل عكار. ومن ثم يوصل إلى أكمة فيها منظر ممتد غاية في الروعة نحو البحر، يشمل سهل عكار الخصب الأخضر، وشبه الجزيرة التي تنتهي بميناء طرابلس، وجزيرة إرواد وجبال النصيرية مع صافيتا وقلعة الحصن ووادي نهر الكبير، ويشمل أيضاً في السطح المائل الآخر الشنخاب الذي قام فوقه حصن عكار، وهذا الشنخاب بين واديين ملتقيين يشرف عليه من على قمم جبل عكار المنشية بالحراج.

وهنا يهبط المجاز ويصير شاقاً كئوداً، ويجتاز واديين صغيرين كثيري الحراج، إلى أن يصل بعد ٢,٥ ساعة من عيات، إلى قدام حصن عكار.

يعلو حصن عكار ٧٠٠ متر، وهو مبني فوق شنخاب صخري ضيق جداً طوله نخو ١٥٠ متراً، وتخطيطه مائل ومتجه في الشمال والجنوب نحو الشرق والغرب. وقد انفصل عما حوله بمضيقين عميقين يجري فيهما غديران يلتقيان فيما بعد ويؤلفان نهر عكار عند قدم المنتهى الشمالي للشنخاب. وفي جنوبي الحصن خندق صناعي نقر في الصخر الصلد يفصله عن كتلة الجبل التي كانت تتصل بالشنخاب.

وثمة عند ملتقى الغديرين ساحة مظللة بأشجار الدلب يناسب ترك الخيل فيها، ومن ثم يتسلق مجازاً متعرجاً يصل بسهولة بعد عشر دقائق إلى ثغرة في المنتهى الشمالي يمكن الولوج منها إلى الحصن.

التاريخ: يعزو المؤرخون بناء هذا الحصن إلى رجل اسمه محمد زين عكار، وأنه ظل في حوزة أعقابه إلى سنة ٤١٠هـ/١٠١٩م ثم فتحه الخلفاء الفاطميون بالتاوب ٤٣٥هـ/١٠٩٣م ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ثم فتحه السلجوقيون وبعد أن فاز الصليبيون بفتح طرابلس أخذوا حصن عكار بمقتضى معاهدة، ثم استرده منهم نور الدين محمود، ثم عاد الصليبيون فاستردوه سنة ٥٦٦هـ/١٠٧٠م وسلمه ملك الفرنس آموري إلى الفرسان الاستباريل ولا يعلم مقدار الزمن الذي ظل هؤلاء فيه لأن هذا الحصن انتقل بعد حين إلى سادات الصليبيين الذين كان لهم شأن كبير في ذلك العهد. ثم تخلى هؤلاء عنه إلى أمير طرابلس سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م وكانت مكانة هذا الحصن في طريق حمص وبعلبك، حتى إذا بلغوا مآربهم لاذوا بهذا الحصن المنيع الواقع في مكان لا يرام، لهذا عزم المسلمون فيما بعد على نزع هذا المعقل الاستراتيجي من يد الإفرنج وتم ذلك على يد الملك الظاهر بيبرس فهو بعد أن افتتح قلعة الحصن ٨ نيسان ٦٧٠هـ/١٢٧١م حمل منجنيقاته وآلات الحصار والنقب وهاجم بها هذا الحصن ومازال يضايقه حتى استسلمت حاميته وقد أصلح المسلمون فيما بعد هذا الحصن وغيروا ببنائه كثيراً.

وفي عهد السلاطين العثمانيين استقر في حصن عكار وبلادها أمراء من بيت سيفا، إلى أن جاء الأمير فخر الدين المعني واننزعها من أيديهم وضرب الحصن.

كان هذا الحصن يتألف من برج مستطيل يقع في طرفه الجنوبي، ومن أربعة أبراج جانبية مستطيلة أيضاً ثلاثة في الشرق وواحد في الغرب، وكان ثمة جدار سجف من الحجر الأملس يربط الأبراج بعضها ببعض، وفيه مراس، وقد بقي من جدار السجف المذكور قطعة سالمة في الطرف الشمالي الشرقي من الحصن وثمة أيضاً بهو معقود يقع وراء السور، مازال الدخول إليه ممكناً فيه ثلاثة مرام كبيرة باقية.

وأشهر بنو سيفا كان يوسف باشا، الذي ظل والياً على طرابلس وماحولها ٤٥ سنة (توفي سنة ١٠٣٤ هـ) وهو الذي اغتال الأمير محمد آل عساف في عقبة المسيلمة ثم تزوج امرأته واستولى على ولايته وأرزاقه، وكان بينه وبين فخر الدين المعني الثاني حاكم جبل الشوف حروب طويلة.

وكانوا يمتدون إلى بيروت ولهم فيها آثار وأوقاف فلما أثاروا فتنة على الدولة العثمانية أتتهم جنودها من كل صوب فأخذوا قرية عكار وأحرقوها سنة ١٠٤٧هـ وكان الأمراء بنو سيفا قد اجتمعوا هناك فقتلوا عن آخرهم وانقرضت سلالتهم وضربت عكار بعد ذلك حتى أنها الآن ليس فيها أكثر من ثلاثين بيتاً.

بنو سيفا أمراء أكراد من حواشي الملوك الشراكسة في مصر، حكموا طرابلس وعكار وحصن الأكراد وقد اشتد الخصام بينهم وبين الأمير فخر الدين المعني الثاني، فضايق الأمير يوسف سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٨م بموقعة عكار وأحرق جميع قصوره ودوره فيها كما كان أحرق ابنه حسين باشا سيفا دور آل معن في دير القمر سنة ١٠٢١هـ/١٦١٢ م فاقسم فخر الدين إذ ذاك أن يبني دير القمر بحجارة عكار. وهكذا فعل فإنه نقل حجارة قصور السيفيين من عكار إلى دير القمر وبقي يوسف باشا في ولاية طرابلس إلى سنة ١٠٣٤هـ/١٦٢٤م مدة ٤٥ سنة.

الأبراج ومثلها بقية الأسوار قد تهدمت وزال منها كساؤها الخارجي الذي كان مؤلفاً من أحجار منحوتة ماعدا البرج الذي في الطرف الجنوبي، يدخل إلى هذا البرج من مدخل مرتفع فيجد بهوا معقوداً قد خرقت فيه مرامي وصنف الأحجار المستعملة في العمارة - ومنها تلك الأحجار المنفردة التي نحتت نحتاً محدودباً (أحجار صورية) تدل في وضوح على أنها من عهد الصليبيين، وإن هذا الحصن أعاد العرب بناءه.

ويزيد هذا الاستدلال صحة حينما يثبت لدى الممعن أن البرج في واجهاته الجنوبية والشرقية قد زين بصور جميلة للأسود التي كانت رمز الملك الظاهر بيبرس، مع صور رنوك (رنك).

ويلحظ بعد مغادرة البهو المذكور دهليز ينحرف بزاوية قائمة ومثله درج معقود يوصل إلى ذروة البرج، وفي هذه الذروة منظر جد رائع يشمل الحصن بكامله ثم قرية عكار ثم الشلالين اللذين يرفد أحدهما إلى الوادي الشرقي والثاني الوادي الغربي، ويشمل أيضاً إذا مد بصره من ثغرة في الجبل وادي نهر الكبير وجبال النصيرية التي يلمح فيها بجلاء برج صافيتا وقلعة الحصن، وتدل هذه المناظر على أن الصليبيين قد انتخبوا مكاناً يساعدهم على البقاء، متصلين بالنظر مع بقية حصونهم في هذه الربوع.

أما جوف الحصن فليس فيه سوى الأنقاض المركومة. إنما يميز ما بين هذه قسم مرتفع وآخر منحط فالأول ربما كان بناء المصيصة أو الملجأ الأخير في الدفاع، والثاني ربما كان الساحة السفلى، وقد انفصل القسمان عن بعضها بخندق. وفي القسم المرتفع يلحظ صهريج معقود ما برح جيد السلامة، أما مدخل القلعة فيظهر أنه كان منفتحاً نحو الواجهة الشرقية، ففي هذه الواجهة انقاض أحجار وأتربة فوق منحدرات الشنخاب الحامل للحصن يظن أنها كانت لأجل أن تحمل الطريق الموصل إلى القلعة.

وإذا دار الزائر حول الحصن من الخارج، يمكنه ان يرى عن كثب عند أقدام البرج الجنوبي. النقب في الصخر الذي صنع بيد البشر وقد عمل في هذا المكان حوضاً لخزن مياه المطر التي كانت تتجمع في سطح البرج وتنزل من خرق منقور في الصخر. وفي الواجهة الغربية الكثيرة الصخور يوجد عدد عظيم من كسور الأواني الخزفية العربية التي تعود للقرنين ١٢م و ١٣م.

هذا ويمكن الوصول إلى قرية عكار (العيقة) من الطاحون الذي يقع عند ملتقى الواديين (النهري) وهي في علو ٧٠٠ متر فوق أكمة تقع في شرقي الحصن وبإزائه. ولهذه القرية دور قديمة من الطرز المحلي لها نوافذ ذات إطارات وعوارض خشبية وهي في مكان أخضر فيها أشجار عظيمة من أجناس مختلفة اكتست

بالدوالي والنباتات المتعرشة وفي هذه القرية بقايا مسجد عليه كتابات، وبقايا تكية دراويش مرممة في سنة ١٠٢٠ هـ/١٦١١م وبناء هذه التكية يعلو ستة أمتار وفوقه برج صغير مربع الشكل يحتوي على درج حلزوني وقسم من واجهتها مبني من أحجار بيض وسود ومزخرف بأسد ذلك الملك الظاهر بيبرس، وقد نقل هذا الأسد من إفريز الأسود الذي في البرج الجنوبي من الحصن ولما ملك الأمير فخر الدين المعني الحصن دك أيضاً المسجد والتكية المذكورين.

وثمة مجاز دواب يوصل بعد ساعة إلى الشلال الجميل في الشيخ جنيد، ومن هذا الشلال يحصل الفرع الغربي لنهر عكار وثمة أيضاً مجاز يتجه نحو الشمال الشرقي نحو القبيات، في أولها تسلق العقبة الكأداء التي في الثنية المطلة على قرية عكار وعلوها ٨٦٠ متراً ثم هبوطه من المنحدر المناوح للعقبة المذكورة، حتى يصل إلى قرية القبيات في طريق السيارات.

الفصل الثاني

بيروت وضواحيها

عاصمة الجمهورية اللبنانية، مقر المفوض السامي الإفرنسي لدى الدول المشمولة بالانتداب، وبالقاصد الرسولي وبطريرك الأرمن الكاثوليك وبطريرك السريان الكاثوليك ومطران الروم الارثوذكس، ومطران الموارنة، ومطران الروم المتوسط وفي سفح جبل لبنان سكانها نحو ١٢٩ ألف منهم ٣٨ مسلمون سنية و ٤ مسلمون شيعةو ١٩ موارنة و ١٤ روم ارثوذكس، و ٥ روم كاثوليك، و ٢٥ أرمن و ٣ يهود و ١ لاتين وخلافهم.

وخلال الحرب العظمى فإن عدد سكان بيروت انخفض، ولكن بعدها بلغ الرقم المذكور بحكم هبوط كثير من اللبنانيين من قراهم وتوافد الألوف من مهاجري الأرمن.

وتقع مدينة بيروت موقعاً جميلاً على المسند والسفح الشماليين لخرشوم جبل واسع داخل في البحر ينتهي في الغرب برأس يدعى (رأس بيروت) وبيروت القديمة مبنية على ساحل البحر بين رأس بيروت في الغرب، مار الياس في الجنوب والأشرفية في الشرق. أما المدينة الحديثة فقد نمت وامتدت امتداداً عظيماً - ولاسيما بعد الحرب العظمى - فوق الروابي المختلفة المذكورة وعلى طول الشوارع والسكك الطويلة العظيمة الذاهبة نحو طرابلس أو دمشق أو صيدا وأكثر أحياء النصارى في محاذاة طريق طرابلس (شارع النهر) وهي تنتهي بحي الأرمن وأكثر أحياء المسلمين في محاذاة طريق صيدا (شارع البسطة).

وتلقى بيروت القديمة في روع الزائر أنها ورشة عظيمة فحيثما التفت تجد معاول الهدامين تنقض الدور القديمة، وتدك الأسواق والأزقة الضيقة المعوجة التي كانت مظلمة قذرة وغير صحية، فتخلفها دور وعمارات عصرية شاهقة الارتفاع وشوارع مستقيمة عريضة.

وفي بيروت عدد عظيم من الفنادق العصرية الجميلة بعضها من الدرجة الأولى وبعضها من الثانية، وفيها مالا يسعه الحصر من البانسيونات والمطاعم والمقاهي

والحانات والمسارح ودور السينما والنوادي وأماكن سباق الخيل في حرج الصنوبر وصيد الحمام والتنس والمستشفيات والمصارف والحمامات البحرية ومرائب السيارات، وتمتد خطوط الترامواي من شمالها إلى جنوبها من المنارة إلى فرن الشباك ومثله من الحرج إلى ساحة البرج ومن شرقها إلى غربها من النهر إلى الوسط القديمة، وفيها كنائس كبيرة وصغيرة لجميع الملل والنحل، وللمسلمين جوامع عديدة، وسط في ضخامتها، منها القديم منذ قرون والجامع الكبير العمري، وجامع السرايا وجامع النوفرة ومنها الحديث منذ نصف قرن أو أكثر كالجوامع العديدة في أحياء البسطة الفوقى والتحتى والحرج والمصيطبة ورأس بيروت وعين المريسة والدباغة والمجيدية، وفيها مستشفيات عديدة منها مستشفى للأميركان وآخر للإفرنسيين وآخر للألمان ولطوائف الروم والموارنة والمسلمين ناهيك المستشفيات الخاصة لبعض كبار الأطباء، وفيها متحف أثري بني له دار حديثة في حرج الصنوبر ودار كتب كبرى، ناهيك بالمكتبتين العظيمتين كل من الأميركية واليسوعية، وعشرات من المطابع والجرائد اليومية والأسبوعية، وهي تقسم إلى ثلاث عشرة محلة، ولها مرفأ.

التاريخ ـ سنة ١٣٠٥/١٨٨٧ والتي يعود تاريخها إلى أواخر القرن ٤ ق.م وقد كانت بيروت تؤلف مع جبيل أحد المركزين الأصليين للفنيقيين ثم ضربت سنة ١٤٠ ق.م خلال المعارك التي نشبت بين تريفون وانطيوخوس السابع وكانا يتنازعان الملك وبقيت خراباً ٧٥ سنة.

وفي عهد الرومان استولى عليها أغريبا وأسكن فيها الجنود الذين أنهوا خدمتهم في الفرقتين الخامسة المكدونية والثالثة الغالية، وجملها بكثير من المباني، ثم أعطاها اغسطوس قيصر حقوق المدن الرومانية الأصلية وسماها باسم ابنته جوليا أوكوستافليكس بريتوس وشاد هيرودوس الأكبر فيها وأخلافه هياكل وحمامات ومسارح ومدارج عظم شأنها وكثرت عمارتها.

ومنذ أواسط القرن الثالث ٢٢٢ فتحت في بيروت مدرسة لتدريس الحقوق ذاع صيتها بعد في كل بلاد الشام وصارت تباري مدارس أثينا والإسكندرية وقيصرية، وكانت تلقب حينئذ بمدينة العلاء، وفي أواخر القرن الرابع ظلت بيروت في مكانتها

تعد من أجل مدن الساحل الفينيقي ونفذت إليها النصرانية مباشرة فصارت كرسي أسقفية وفي أوائل القرن الخامس كان فيها تجارة عظيمة للحرير ومعامل لنسجه.

وفي سنة ٥٥١ حدثت فيها زلزلة هائلة دكت حروبها ومبانيها وارتفع وقتئذ البحر ارتفاعاً مدهشاً فجائياً اجتاح كل مدن سواحل الشام ومنها بيروت فهلك بذلك ٢٥٠ ألفاً من سكانها.

ومن ثم نقلت مدرسة الحقوق إلى صيدا، ومعامل الحرير التي عليها كان اعتماد ثروة بيروت ضعفت، ثم نقلت إلى بلاد اليونان، وفي سنة ٦٠٠ كانت بيروت خراباً، فجاءها المسلمون واستولوا عليها صلحاً سنة ١٣هـ وأهم أحداثها في العصور الإسلامية الأولى تنحصر في أن الروم البيزنطيين كانوا يغيرون عليها بأساطيلهم من البحر كلما احتلوا غرة من ضعف المسلمين جرى في سنتين.

ولعبت بيروت بعض الأدوار في تاريخ الصليبيين، وجعلت في عهدهم مركز اسقفية لاتينية، وحوصرت مرتين الأولى تلك التي تمكن بها بودوين الأول من فتحها سنة ٥٠٥هـ/١١١٠م وأظهر فيها المحصورون والمحاصرون كل الاستبسال، والثانية تلك التي قام بها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وفتحها.

وبعد ست سنوات جاء عموري ملك قبرص الصليبي وحاصرها واستخلصها من أيدي المسلمين، ووجد فيها الصليبيون غنائم عظيمة و ٩٠٠٠ أسير نصراني لقوا الخلاص آنئذ لكن هذا لم يدم لهم، فقد أعاد المسلمون في عهد المماليك الكرة عليها سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م وفي القرن ١٤ أغارت أساطيل الإفرنج مراراً على بيروت، وقصفتها ونهبتها وضربتها وأخصها في ذلك الجنويون سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م وقيل ١٣٣٣ م وفي القرن ١٥ حظي مرفأ بيروت بازدهار سلمي، فقد دخله الإفرنج لا حرباً بل كتجار وصارت بيروت من يومئذ ملتقى كل أمم البحر المتوسط.

وفي القرن ١٦/١٥ جاء العثمانيون في قيادة السلطان سليم واستولوا على بلاد الشام ومنها بيروت وجعلوها مركز سنجق. إلا أن السلاطين العثمانيين الذين كان همهم الوحيد جباية الضرائب فقط، تركوا بيروت كغيرها من مدن القطر الشامي تحت إدارة أمراء محليين كان لهم شبه استقلال. أخصهم بني عساف، وقد بنى أحدهم عساف الجامع المعروف باسمه، والمعنيون وأخصهم وكان اسمه الأمير فخر

الدين الثاني ١٠٠٤هـ/١٥٩٥م - ١٠٤٤هـ/١٦٣٤م انتهز وقتئذ هذه الفرص وأسس لنفسه مملكة شبه مستقلة حتى أنه ارتبط مباشرة بعلائق تجارية مع دول أوروبا ولا سيما مع البنادقة وجدد بناء برج الكشاف الذي هدم في سنة ١٨٨٠م اعاد هذا الأمير لبيروت حيويتها القديمة إلا أن الترك اضطربوا من نفوذ فخر الدين المتزايد فضربوا جيشه في صفد ثم اعتقلوه هو وقادوه إلى استانبول وصلبوه، وتعاورت بيروت أيدي الباشوات العثمانيين إلى أن تولاها الأمراء الشهابيون فعمر هؤلاء فيها قيساريات وأبراجاً عديدة.

وفي القرن ١٢هـ/١٨م كان الأمير ملحم الشهابي، وقد اهتم هذا بالتجارة وحاول أن يجعل في بيروت مرفأ ذا شأن إلا أن أحمد باشا الجزار والي عكار أضر بيروت ضرراً قاضياً، باتخاذه عكار مرفأ وبتحصنه فيها إلى أن حاصره الأمير بشير الشهابي مدة أربعة أشهر من البر والأسطول الروسي من البحر بإشارة ظاهر العمر، ولكن بعد وفاة الجزار في عكار في سنة ١٨٠٤ نهضت بيروت من كبوتها في عهد الأمير بشير الشهابي، فقد بسط هذا لواء الأمن في كل لبنان وأعاد إليه ازدهاره. وسقطت بيروت برهة من الزمن في حكم المصريين في عهد محمد علي باشا (سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م) وجاء الأسطول التركي، الإنكليزي المناوئ وقصف بيروت واستخلصها من يدهم في ١٠ تشرين الأول سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م وهدم أكثر أبراجها وأسوارها.

وبعد حوادث سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م هبطت بيروت جموع كثيرة من نصارى دمشق ووادي اليتم وجبل لبنان موارنة الجبل واستقروا فيها، واستفحل عمرانها ونمت تجارتها من ذلك التاريخ بحكم ازدياد سكانها، وبعد أن كانت بيروت تتبع إيالة صيدا نقل إليها الإيالة في سنة ١٢٥٦هـ تبعت دمشق قاعدة ولاية سورية منذ سنة ١٢٨١هـ.

وفي سنة تشرين الأول ١٩١٨/١٣٣٧ دخلت جيوش الحلفاء مدينة بيروت، وفي ٢٥ نيسان ١٣٣٩هـ/١٩٢٠م عهد مؤتمر سان ريمو إلى فرنسا بالانتداب على بلاد الشام، فصارت بيروت من يومئذ قاعدة الجمهورية اللبنانية ومركز المفوض السامي الإفرنسي.

المناخ - إن مناخ بيروت بحري بحت، وهو جد لطيف ولاسيما في الشتاء، ومعدل الحرارة في البرد المشهور نحو ١٣،٦ ، ولا يهبط الميزان فيها إلى تحت الصفر قط. أما الصيف في شهري تموز وآب فقلما تتجاوز درجة ٣٣ لكنه ثقيل الوطأة، بحكم جوها المشبع بالبخار وعدم اختلاف درجات الحرارة لا في الليل ولا في النهار ولا يلطفه إلا هبوب الرياح البحرية المنعشة. والمطر يهطل فيها من ١٥ كانون الثاني إلى ١٥ آذار، وكثيراً ما يكون تهطاله بغزارة وشدة، ومعدله السنوي حسب أرصاد الجامعة الأميركية ٩١٤ وقد يبلغ متراً وربع المتر وقد يهبط إلى أدنى درجة وهي ٥٨٣مم أما ماء بيروت فهو من أصح مياه مدن الشام.

معاهد العلم - اشتهرت بيروت بكثرة مافيها من معاهد العلم التي يتقاطر إليها الطلاب من كل أنحاء الأقطار العربية والشرقية. ففيها جامعتان الأولى إفرنسية باسم القديس يوسف، بإدارة الرهبان اليسوعيين وهي في حي الصيفي شرقي طريق دمشق، والثانية أميركية بإدارة المبشرين البروتستانتيين الأميركان. أسست الأولى سنة ١٨٧٥ وفيها عدة كليات، بعضها للفلسفة والإلهيات، وبعضها للحقوق، وبعضها للطب بفروعه المختلفة، هذا عدا عن فروع التعليم الثانوي، ومن لواصق هذه الجامعة المرصد الجوي في كسارا (البقاع) ودار الكتب الشرقية وهي من أغنى دور الكتب بالمطبوعات والمخطوطات العربية في شتى المواضيع ولاسيما في علوم التاريخ والدين.

أما الجامعة الأميركية فقد أسست سنة ١٨٦٦/١٢٨٣ وكان اسمها (الكلية السورية الإنجيلية) وهي في رأس بيروت، ذات بنايات ضخمة شاهقة عددها ٤٢ ممتدة على مسافات شاسعة تتخللها غابات جميلة مشرفة على الساحل من علٍ وهي تضم أقساماً عديدة ابتدائية وثانوية وكلية آداب وفنون وأخرى تجارية وأخرى طبية مع فروع ومستشفيات عديدة، ودار كتب كبيرة ومتاحف عديدة للعاديات والنباتات والحيوانات والمعادن. ومرصد فلكي وجوي وبناء خاص لمختلف الألعاب الرياضية.

وفي بيروت مدارس ثانوية أجنبية أخرى أهمها للذكور مدرسة البعثة العلمانية الإفرنسية، ومدرسة أخوة القلب (الفرير) الأقدس وللبنات عدة مدارس للراهبات المنتسبات لجمعيات مختلفة، ومن المدارس الأهلية المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك ومدرسة الحكمة للموارنة، وللمسلمين مدرسة ثانوية راقية في الحرج

بإدارة جمعية المقاصد الخيرية، ومدارس ابتدائية عديدة بإدارة هذه الجمعية أيضاً منتشرة في مختلف الأحياء، كما يوجد لإدارة المعارف ولمختلف الطوائف والنحل أيضاً مدارس ابتدائية كثيرة فبيروت في الجملة (مدينة العلم وبحث) وفيها مطابع عديدة أقدمها مطبعة الأميركان، ثم مطبعة اليسوعيين وعشرات من الجرائد السياسية وتكاد تعد متخمة بكثرة الجرائد.

المرفأ ووسط المدينة - يستحق المرفأ زيارة، وهو واسع تبلغ مساحته قبل توسيعه الأخير ١٦ هكتارا وعمقه ١٤ متراً فإذا وقف الزائر على الرصيف المجاور للمصرف السوري يرى مشاهد تستحق التصوير، فهناك البواخر الضخمة والسفن الشراعية الكثيرة قد انتصبت صواريها ومداخنها وأشرعتها، وراء ذلك أطوار لبنان الشاهقة الخضرة النضرة التي عند الغروب تكتسب ألواناً فتانة.

والمرفأ الحالي بإدارة شركة إفرنسية ذو جدار ضخم طوله نحو ٨٥٠ متراً يمتد من الغرب إلى الشرق يسع نحو ١٥ باخرة وهم مابرحوا منذ بضع سنوات يوسعونه إلى جهة الشرق، فقد عرضوا جداره الثاني الجنوبي الشمالي ونقلوا إليه الكرك ومستودعاته الضخمة واتخذوه قاعدة عسكرية، وهذا المرفأ كان ومايزال أجل مركز تصدير واستيراد للقطر الشامي كله، لولا أن مرفأ حيفا الحديث قد زاحمه منذ بضع سنوات وأهم السلع الصادرات هي بحسب الترتيب الحرير الخام (إلى فرنسا) والصوف الخام (إلى فرنسا وانكلترا) والجلد الخام الجاف إلى انكلترا وفرنسا والفواكه الطرية والمجففة والعنب إلى مصر والزيت وخشب السوس .. الخ وأهم السلع الواردة هي القطن والحبوب والمنسوجات الحريرية والصوفية والخشب والبن والرز والحطب والفحم الخشبي والحجري، ومواد البناء، والسيارات.. الخ.

وفقدان التوازن بين الصادر والوارد بارز ومؤسف، لولا أنه يعوض بما يرد من النقود من المهجر والمهاجرين في البلاد الأميركية وغيرها، ومن السياح والجنود والمصطافين.. الخ.

وينشأ من المرفأ شارعان أساسيان متوازيان حديثان، الأول باسم اللنبي والثاني باسم فوش وهما يصعدان من الشمال إلى الجنوب. ويتصلان بعد قليل بشارع ريناند الممتد من الشرق إلى الغرب أمام الجامع الكبير وفي هذه البقعة المحاطة بالشوارع

الثلاثة اكتظت البنوك ووكالات البواخر ومكاتب كبار التجار والوسطاء. ومحور الحركة والسعي والضوضاء في مدينة بيروت هو حول شارع ريناند المذكور وحول امتداده في الغرب الذاهب نحو باب ادريس ونحو رأس بيروت، وامتداده في الشرق الذاهب نحو ساحة البرج وطريق النهر، وثمة أسواق وشوارع عديدة تفضي هذا الشارع كسوق الطويلة وسوق الجميل وهما قديمان، وسوق المعرض وهو حديث، وفي هذه الأسواق والشوارع ازدحمت المخازن والحوانيت الأنيقة الملآنة بمختلف السلع والمنسوجات الإفرنجية وقامت على جانبيها عمارات شاهقة ذات طبقات وحجرات كثيرة يحتلها ذوو الحرف المختلفة، وكل هذه الشوارع والعمارات الحديثة ـ ماعدا سوق الطويلة وسوق الجميل وما حولهما ـ إنما بنيت بعد الحرب العامة بعد أن دكت قبيل تلك الحرب وخلالها، الأحياء والأزقة القديمة التي كانت هنا. لهذا لم يعد هواة الآثار والمباني التاريخية يجدون في بيروت إلا القليل مما يرغبونه من تراث الأقدمين، فقد اختفت بيروت القديمة ذات البوابات والخانات والحوانيت المفقودة والبيوت والأزقة والسبابيط الضيقة المزدحمة العفنة مما أدركه كهول زماننا وبعض شبانه، ولم يبق منها الا النذر اليسير الذي يوشك أن يزول أيضاً.

فقد كانت بيروت حتى أواسط القرن ١٣ هـ محصورة ضمن سور له أربعة أبواب ظلت واقفة إلى ١٣٣٠هـ أسماؤها بوابة يعقوب، بوابة الدركة أو الدركاه، بوابة السرايا، بوابة إدريس، ثم امتد العمران حتى تجاوز في الجهة الشرقية نهر بيروت وفرن الشباك وفي الجهة الجنوبية الحرج وأنحاء الغبيري حتى سفوح لبنان، وفي الجهة الغربية كل آكام رأس بيروت ورمال القنطاري والزيدانية فقد زالت كل آثار الفينيقيين، أما آثار الرومانيين فقد صادفوا منها خلال حفر الأساسات للعمائر الشاهقة الحديثة على بعض الأنقاض، مثل بقايا الهيكل الروماني الذي وجدوه في مدرسة راهبات المحبة والأعمدة الرومانية المنسوبة للأربعين شهيد قرب الكاتدرائية المارونية وغيرها من الأعمدة التي وجدت منذ عهد قريب في شارع اللنبي، كما وجدوا في أنحاء رأس بيروت كهوفاً مقبرية وقطع فسيفساء وتوابيت.

والبناء الأثري الوحيد الذي يستحق الزيارة في بيروت هو الجامع الكبير، فبابه الشمالي في شارع ريناند وبابه الغربي الأصلي في شارع المعرض وكان هذا الجامع في الأصل كنيسة باسم القديس يوحنا المعمدان للفرسان الاستماريين.

لما فتح الصليبيون بيروت بعد حصار شديد سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م أقاموا فيها أسقفية لاتينية، ثم شرعوا من سنة ١١١٣/٥٠٧ إلى سنة ١١٥٠/٥٤٥ يبنون هذه الكنيسة في مكان بناء بيزنطي، وهذا أيضاً قام مكان هيكل وثني وكرست هذه الكنيسة للقديس يوحنا المعمدان أو النبي يحي ويعتقد المسلمون وكذلك النصارى أن هذا الجامع يحتوي على ناووس فيه يمر النبي المشار إليه، يد هذا الناووس مستند على الجانب الأسفل الشمالي وقد وضع المسلمون هذا الناووس وسط تابوت من الخشب المصبوغ باللون الأخضر وحفظوه وسط بناية صغيرة، مسدودة بقفص من الحديد.

ومخطط الجامع يحتوي على ثلاث حنايا، فالوسطى قد مدت بعقد قصير جداً ويحتوي على صحن ذي خمسة عقود وعلى مكان مغطى غربي في محور الصحن بابه ربما كان قطعة من بقايا الكنيسة البيزنطية. ويلحظ الناظر إلى داخل الجامع وخارجه أن الصليبيين قد استعملوا كثيراً وعمداً تيجان الأعمدة البيزنطية والوثنية، ففي يمين الحنية جرن معمودية صغير مازال يحتوي على كتابة يونانية.

وإذا خرج الزائر من الباب الشرقي الصغير يلحظ في خارجه مجموعة الحنايا التي يدل مظهرها على أنها إفرنسية بحتة ومن طراز مقاطعة (اوفرني) خاصة، الواقف أمامها.

وقد حول المسلمون هذه الكنيسة سنة ١٢٩١/٦٩٠ إلى جامع وطرشوها وشوهوها سيئة فقد طلوا الداخل بطلاء كلس ثخين وهم الذين فتحوا البوابة المتجهة نحو باحة الجامع والباب الصغير المثقوب في قعر الحنية كما أنهم هم الذين رفعوا المئذنة الحالية.

وإذا ظل سائراً في شارع يصل إلى جامع السرايا، وهذا أيضاً مبني مكان كنيسة صغيرة للصليبيين باسم المخلص، وفي الروايات إن هذه الكنيسة بنيت مكان كنيس يهودي، وأن إليهود كانوا قد حفروا فيها صورة المسيح المصلوب، إلا

أن هـذه الـصورة قـد أحـدثت بعـد خـوارق حملـت كـل اليهـود علـى أن ينتـصروا وأن يحولـوا كنيـسهم إلى كنيـسة أمـا الجـامع الحـالي فلـيس فيـه فائـدة أثريـة، فهـو لا يحتوي على أي قسم قديم ولكن الكهف المقبري الـذي تحت مبانٍ قديمـة فهـي قبر جميل من بناء العرب قبل الاستيلاء الصليبي.

ويصل شارع الممتد إلى ساحة البرج نسبة لبرج اسمه الكشاف كان في شرقيها ويسميها الإفـرنج سـاحة المـدافع وسميت بعـد الحـرب العامـة سـاحة الـشهداء، وهـي الـساحة الكـبيرة الوحيـدة في مدينـة بـيروت، في وسـطها حديقـة عامـة مستطيلة فيهـا أشـجار غريبـة ضـخمة جميلـة، وفي أولهـا الـسراي الـصغيرة ودار الحكومـة اللبنانيـة المبنية في عهد العثمانيين لما كانت بيروت مركـز متصرفية مـن أعمـال ولايـة دمـشق، وثمة حول هذه الساحة بنايات شاهقة ذات عدة طبقـات، بعضها فنـادق أو مسارح لهـو ومقـصف وسـينما، وتحـت البنايـات مطـاعم ومقـاهٍ واسـعة عديـدة وحوانيـت لباعـة الحلويـات البيروتيـة الـشهيرة وغيرهـا، ولا تنقطـع حركـة الـذاهبين والآيبين وضـجيج الحـافلات والـسيارات والمركبـات وضوضـاء المـسارح والمقـاهي والملاهـي إلى مطلـع الفجـر، فـساحة الـبرج هـذه هـي مركـز المتعـة والـسمر والـسهر لـرواد هـذه الأمـور في بيروت.

وفي طرف حديقة هذه الساحة تمثال مـن الحجـر نـصب سـنة ١٩٣٠ عليـه امرأتـان أحـدهما مـسلمة والثانيـة نـصرانية وحـدتا أيـديهما فـوق رمـز الكـأس الـذي كـان يستعمل لحفظ رماد أجسام الموتى المحـروقين، وهـذا التمثـال الـسقيم في نحتـه ورمـزه وضع لتذكار الشهداء الذين صلبهم الطاغية التركي أحمد جمال باشا سنة ١٩١٦.

ويتفـرع مـن سـاحة الـبرج ثلاثـة شـوارع رئيـسية: الأول إلى الجنـوب ويـدعى طريـق الـشام وهـو مبـدأ الطريـق مـن بـيروت إلى دمـشق، والثـاني إلى الـشرق ويـدعى (شـارع طريق النهر) وسموه أخيراً شارع غورو وهو مبدأ الطريق الذاهب إلى طرابلس. والثالث إلى الغرب وهو الذاهب نحو ساحة السور (عصور) ونحو طريق البسطة وصيدا ونحـو السراي الكبرى التي كانت في الأصل برجاً من الأبراج المدافعة عن بيروت ثـم جعلـت الجنـود العثمـانيين ثـم جعلـها الـوالي التركـي الهمـام عزمـي بـك في أول سـنة الحـرب العامـة سـراياً لحكومـة ولايـة بـيروت وجـاءت المفوضـية الإفرنـسية بعـد الاحـتلال

فاتخذتها مقراً لدوائرها ونوصي الزائر أن يصعد نحو السراي المذكورة ويتجول في الساحة الفسيحة التي بينها وبين قصر العدلية التي أمامها وقد كان هذا في الأصل مستشفى الجنود العثمانيين ومن قبله برجاً حربياً، وثمة في تلك الساحة برج ساعة سامي الارتفاع ظريف البنيان، بناه وإلى بيروت سنة ١٣١٦هـ/١٨٩٨م.

وفي هذه الساحة يطل المتحول على مدينة بيروت والبحر الذي يغسل أقدامها وجبل لبنان المحيط بها، فيرى مشهداً عجباً جامعاً بين بدائع الطبيعة وجمال الحضارة العصرية. وفي شمالي هذه الساحة درج يهبط نحو باب إدريس وهذا الباب ملتقى شوارع عديدة وفيه حركة وصخب، ويهبط إلى مقبرة إسلامية باسم السنطية، وفي غربها على ساحل البحر جادة عريضة نزهة سموها بعد الحرب (جادة الإفرنسيين) ونصب فيها بناء بلدية بيروت تذكاراً لتمجيد الجنود البرية والبحرية الإفرنسيين الذين جاءوا إلى هذه الديار، وثمة نوادٍ وفنادق ومسارح عديدة فخمة، ومنتزه مسائي جميل لسكان هذه الأحياء من أجانب ووطنيين، يمتد حتى عين المريسة وطريق رأس بيروت المحاذي للبحر.

وفي وسط مدينة بيروت بين الجامع الكبير وساحة البرج، قسم قديم لم تصل إليه يد الهدم والتعديل بعد يحتوي على عدة أسواق شرقية الطراز، على أن هذه ليست عريقة في القدم كالتي هدمت، بل هي من العقد الأخير للقرن الهجري الماضي. فمنها غربي ساحة البرج سوق معقود مبلط للصاغة والجوهريين، وسوق آخر أقل إتقاناً من الأول باسم (النورية) مار جرجس لباعة الأحذية وآخر باسم سوق أبو النصر للبدالين وآخر باسم سوق سرسق للدلالين وباعة الأقمشة الإفرنجية والعربية المختلفة والأثاث والثياب القديمة. وغربي الجامع الكبير البقية الباقية من سوق البازركان، الضيق المتعرج المسقوف بعضه، وهو نموذج ما كانت عليه أسواق بيروت القديمة قبل الحرب العامة، وفيه حوانيت صغيرة كثيرة للعقادين وباعة القمصان والمطرزات والأسورة وضفائر الحرير والقطن وأمثالها وقرب هذا السوق جامع النوفرة وله مئذنة مثمنة الأضلاع وعدة قباب بيض. وثمة خان الحرير الذي كان مختصاً بتجار حرير الخام والملون، وحول باحته رواق ذو أقواس، وقد اتخذت الآن مقهى مكشوفاً.

المتاحف ـ الأول متحف الآثار القديمة الأهلي اللبناني ـ هو الآن غربي بوابة إدريس ويبنون له بناءً فخماً خارج البلدة في طرف حرج الصنوبر ويضم الآثار الملتقطة من أطراف الجمهورية اللبنانية وفي أبهائه وحديقته كثير من النواويس والتماثيل الحجرية والمصابيح والكؤوس والاواني الخزفية المدهونة الفينيقية واليونانية والرومانية، والقلائد والعصائب والحلي الذهبية والفضة المستخرجة من الجبل، وكلها مما يستحق الزيارة والإمعان.

الأحياء الخارجية ـ بعد أن كانت مدينة بيروت حتى أوائل القرن الهجري الماضي صغيرة مكتظة ومنحصرة وراء السور الضيق المحيط بها، لا ينفذ سكانها إلى الخارج إلا من بوابات اندثرت الآن كلها كبوابة يعقوب وبوابة إدريس وبوابة الدركة.. انفرجت بعد سنة ١٢٥٥ أو ١٢٦٠ هـ وبدأ عمران الأحياء الخارجية كالباشورة والبسطة والمصيطبة والمزرعة ورأس النبع وزقاق البلاط وبرج أبي حيدر والصيفي والرميلة والأشرفية والمزرعة ورأس بيروت ومنية الحصن وعين المريسة والمدور، وازداد ذلك بتقدم حركة التجارة التي كانت بيروت تصدرها إلى كل أنحاء القطر الشامي وما وراءه من البلاد العربية، وبازدياد عدد السكان الهافتين عليها من أنحاء لبنان وغيره، ونمو ثروتهم وترفهم، واستفحل ذلك العمران بعد الحرب العامة حتى عم حي الرمل الذي أدركناه سنة ١٩٠٥ وكان قاعا صفصفاً وبلغ قرب دير مار الياس والغيدة في الجنوب وعم ظهور الأشرفية وأنحاء الخضر في الشرق وكل ظهور رأس بيروت إلى قرب صخور الريشة. وكل هذه الأحياء الحديثة مبنية فوق تلعات ذات مدارج فتانة، ملئت بصروح ودور من أضخم وأجمل ما أوجده فن العمارة الحديث. وكلها قد أحيط بالحدائق البهيجة ذات الأشجار والرياحين النضرة الفواحة، وحيثما ذهبت تجد مناظر ومشاهد تدل على رغد وترف وما يجره من ضعف الروح الوطنية والقومية وتعدد النزعات والميول، والتهافت على جني المادة وإشباع النهمة كيفما كان المصدر وكانت الوسيلة، وإن ستر بعضها قسم غير يسير من الضنك أو الإشراف بحكم الأزمات الاقتصادية التي توالت في السنوات العشر الأخيرة. وأجل الأحياء ترفاً وحسن بناء منية الحصن ورأس بيروت ومار الياس والمصيطبة والأشرفية والرميلة.

ويغلب على أهالي بيروت النزق وسرعة الانفعال، والحرص على الوقت والنقد، والاندفاع نحو أبواب التجارة والمرابح الجزيلة، والتأنق في اللباس والرياض.

الجوامع ـ الجامع العمري الكبير جامع السرايا. (جامع النوفرة) وسط المدينة وغربي سوق البزركان، وهو يشبه جامع السرايا ببنائه، بناه الأمير منذر بن سليمان التفوضي من الأمراء المعنيين في القرن ١١ هـ. (جامع الدباغة) واقع في الميناء، مرتفع عن الأرض يصعد إليه بدرج، وطابقين، ومئذنة جميلة، جدد تجديدا متقناً منذ عهد قريب. (الجامع المجيدي) في منتهى سوق. البناء في كل من أحياء المصيطبة ١٣٠٢ والبسطة الفوقا ١٣١٢ والبسطة التحتي ١٢٨٢ ورأس النبع ١٢٩٩ وبرج أبي حيدر ١٣١٨ وزقاق من البلاط ١٢٧٧ والأشرافية ١٢٦٦ وعين المريسة ١٣٠٥ والروشة ١٣١٨ والمنارة ١٣١٨ والقنطاري ١٣٢٢ والزيدانية ١٣٢٦ والحرج ١٣١٧.

أما الكنائس الكبرى في بيروت فكثيرة أشهرها لطائفة الموارنة كاتدرائية مار جرجس أمام العازارية وفي ساحة البرج وساحة السور، ولطائفة الروم الأرثوذكس كاتدرائية مار جرجس في الغورية سوق الكنيسة خاصتها، وللروم الكاثوليك كاتدرائية مار الياس في سوقها الخاص المتصل بسوق سرسق، وللبروتستانت الكنيسة الإنجيلية الأميركية في طريق زقاق البلاط.

ولكل من الطوائف عدة جمعيات خيرية ومدارس أهلية ابتدائية وثانوية ولبعثات التبشير الأجنبية والأميركية مدارس وكليات عديدة يضيق نطاقنا عن تعدادها.

كما يزار في رأس بيروت الجامعة الأميركية التي تقدم ذكر مكتبتها ومدارسها ومتاحفها العديدة التي تستحق الزيارة، وفي هذه الجامعة ساحات فسيحة شاسعة ملئت بأشجار وغابات غريبة المنشأ والشكل، ومناظر خلابة نحو مدينة بيروت وخليج جونية وأعضاد لبنان وقمة جبل صنين.

وإذا جاوزنا الجامعة نحو الغرب يصادف بعد آخر خط الترامواي في الكم ٢,٧٠ (المنارة) وهذه يصل نورها إلى مسافة ١٦ ميلاً، وعلوها ٣٠ متراً، وهي مبنية فوق أعلى رأس بيروت. ثم يهبط الطريق منها إلى الساحل، حيث الصخور الكثيرة والخلجان الصغيرة العديدة والبحر الضخم ومشهد الغروب البديع والمقاهي وعمارات البحر الخشبية، وقد كان هذا الساحل منتزه سكان بيروت يغدون إليه في

المركبات والسيارات الفخمة للتمتع بهوائه الطلق وبغروب شمسه الرائع. ومن ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب بمحاذاة الساحل ويصعد أكمة شاهقة الارتفاع منتصبة فوق البحر عليها عدة مقاهٍ خشبية جميلة وأمامها صخرتان عظيمتان منفصلتان في أحد زلازل العصور القديمة عن الأكمة المذكورة، قد حملت الأمواج محفلها وفتحت فيها مغاور تسمى بمغارة الحمام، ويسمي البيروتيون هذا الموقع (الروشة) ويمكن لمن شاء أن يركب زورقاً ويزور المغاور المذكورة، فإحداها كبيرة (ذرعها ١٥×٤٠ متراً وعلوها ٢٠ متراً) والثانية مؤلفة من تجويفين والثالثة ليست الا نفقاً ضيقا ووراء المقاهي المذكورة ملعب عسكري حديث.

على رغد العيش وترفه، وعلى شدة تعلق البيروتيين عامة بحضارة الإفرنج وأطوارهم وبما تقتضيه هذه الحضارة من الإسراف في الأثاث والرياض واللباس والطعام والشراب والمعاشرة والمقامرة والمراطنة. وغالى النصارى منهم في السير في هذا التيار وأولعوا بتلك القشور دون سواها من لباب الغرب ومحاسنه فبعدوا عن الشرق أو ضاعوا بين الاثنين، هجروا الأول ولم يبلغوا الثاني. وقد أدى الآخر في تلك الأمور إلى وقوع كثير منهم في ضغاء المال والخلق وجاءت الأزمان الاقتصادية منذ سنة ١٣٤٧/١٩٣٠ تجر عليهم ويلاتها فكثر المفلسون من التجار.

بعد أن كانت قائمة على قدم وساق بين سنتي ١٩١٩/١٩٣٠ ووقعت أكثر المباني الحديثة فريسة الرهون في المصارف الأجنبية وركدت ريح البناء والإنشاء وصل الوجوم مكان النشاط، أما مسلمو بيروت فإنهم رغم التيار والضنك المذكورين اللذين القيا أيضاً جرافهما عليهم وغير كثيراً من سجايا ناشئتهم فإن كثرة كهولهم وشيوخهم ماتزال محتفظة بفطرتها وحميتها الإسلامية تحاول الاحتفاظ بهما وتسعى لبثهما بين ناشئة بيروت نفسها بواسطة المدارس العديدة التي لجمعية المقاصد الخيرية، وهي أقدم الجمعيات الخيرية الإسلامية في القطر الشامي، وبين ناشئة القرى الإسلامية القاصية والدانية في أرجاء الجمهورية اللبنانية بواسطة المدارس الأولية التي أنشأتها جمعية تعليم فقراء المسلمين في القرى في سنة ١٣٤٧.

الطواف حول بيروت - يستحسن أن يدور الزائر في الأماكن التي سنذكرها، مما يستغرق نحو ١٦ كم فيبدأ من ساحة البرج ويتجه في السيارة نحو رأس بيروت ماراً بالشوارع التي سموا أكثرها بعد الاحتلال بأسماء رجالات إفرنسيين وغيرهم كشارع ويفند (وهو جنرال افرنسي جاء مفوضاً سامياً إلى القطر الشامي سنة ١٩٢٤ وعمل على تجزئته، وشارع جورج بيكو الذي ينسب إليه اتفاق سايكس - بيكو جاء على تقسيم بلاد الشام، وشارع بلس (وهذا اميركي مؤسس الجامعة الأميركية وعميدها الأول)، إلى أن يصل بعد ٢ كم إلى الجامعة الأميركية التي تستحق الإعجاب والزيارة بوسعها وضخامة مبانيها، وفيها المدارس والمتاحف العديدة والمكتبة التي تقدم ذكرها في هذه الجامعة. ويستمر الطريق في محاذاة الساحل، تاركاً البحر على يمينه وكثبان عالية من الرمل على يساره قد امتلأ من عهد قريب بالصروح والقصور بعد أن كان صفصفا وفي قمة هذا الكثيب منظر ممتد جميل يتجه في الجنوب نحو سهل بئر حسن ومقام الإمام الأوزاعي، ومحطة البرق اللاسلكي وطريق صيدا ثم يصل الطريق إلى دير مار الياس بسطيخا المبني فوق مغارة اتخذت كنيسة زعموا أن النبي الياس أقام فيها في زمنه وبعد أن كان حول هذا الدير فضاء لا ترى فيه سوى كثاف الرمال ومقالع الحجارة أصبح ملآناً من عهد قريب بكثير من الثكنات والمنشآت العسكرية الحديثة للجيش الإفرنسي، ومدت الطرق والشوارع الجميلة نحوه فعمر ومن هناك إذا شاء الزائر الرجوع إلى المدينة ينحرف إلى اليسار فيمر من أمام مباني السجون العامة في شارع مار الياس نحو المصيطبة وزقاق البلاط أو ان شاء يتقدم ويأخذ شارع برج أبي حيدر، أو يتقدم ويستمر في الطواف حول المدينة تاركاً على يساره حي المزرعة أي الحرج وطريق الشام وحرج الصنوبر يعد من أفضل منتزهات البيروتيين، وفيه أشجار ملتفة من نوع الصنوبر المسمى الصنوبر الثمري، ويخطىء من يعزو بداية غرسه إلى الأمير فخر الدين المعني الذي قصد فيه فيما زعموا أن يرد كثبان الرمال المتحركة من أن تغمر مدينة بيروت، لأن مؤرخي الإفرنج في عهد الصليبيين ذكروه في مؤلفاتهم وقالوا إنهم كانوا يأخذون منه الأخشاب اللازمة لمنجنيقات الحصار وقد يكون الأمير فخر الدين قد زاد فيه. هذا وفي طرف هذا الحرج ميدان سباق الخيل وميدان صيد

الحمام، يتهافت سكان بيروت إلى مشاهدتهما والرهان وهذا في مباراتهما تهافتاً عجيباً، يقصدون من وراء الرهان المقامرة والربح اللذين كثيراً ما سودا وجوهاً وبيضا وجوهاً، والأسوداد وخراب البخت منهما كان وما برح أكثر. ويقع ميدان سباق الخيل أمام قصر المفوض السامي الإفرنسي، بنى هذا القصر المنشأ على الطراز المعرض الجميل الوالي العثماني الهمام عزمي بك أول الحرب العامة، فكان من نصيب الإفرنسيين.

وشرقي الحرج طريق دمشق، وفيه خط الترامواي القادم من المرفأ، وعلى جانبه البناء الذي سيتخذ داراً للآثار القديمة، وبعده المقبرة البروتستانتية ذات أشجار السرو الجبارة، ثم الكلية الطبية الإفرنسية، ولها حديقة نباتات متقنة، ثم المدرسة العلمانية الإفرنسية.

وغربي قصر المفوضية في الحرج بناء كلية المقاصد الخيرية الإسلامية، وهي في مكان حسن وسط أشجار الصنوبر، وحولها جامع بني سنة ١٣١٧ هـ وأمامها باحة لعب واسعة، تدرس العلوم الثانوية تدريساً متقناً وتعد الناشئة المسلمة إعداداً قومياً صالحاً وشرقي المدرسة العلمانية حي الأشرفية وفي دير سيدة الناصرة، وهو ذو بناء فخم كأنه من حصون العصور المتوسطة، شيد فوق قمة شاهقة، يطل الواقف على مناظر غاية في الروعة والامتداد. لاسيما إذا كان الوقت مساء أو صباحاً ونشرت الشمس أشعتها الذهبية على تلعات لبنان وقممه. فيرى الواقف حينئذ حتى مسافات غاية في البعد أدق المناظر الخلابة. ففي الشرق والجنوب ترتفع تدريجياً أسناد لبنان ومدارجه وتلعاته الخضراء النضرة بفروعها وغراسها وبصخورها الرمادية القاتمة التي انتشرت عليها قرى عديدة على ارتفاعات مختلفة، يميزها الناظر بسهولة من قصورها وبيوتها الجميلة البيضاء وسقوفها القرميدية الحمراء البارزة بين خضرة الجبال ونضرتها الخلابتين. وهذه القرى هي من الجنوب إلى الشمال الشويفات وكفر شيما وبعبدا والحدث، وفوق هذه سوق الغرب وعاليه، وفي الشمال الشرقي بيت مرى الجاثمة فوق المرتفعات المشرفة على نهر بيروت، وهذا يظهر مجراه العميق بوضوح قبل هبوطه إلى السهل في شرقي مدينة بيروت.

وفي الشمال يرى خلج القديس جاور جيوس (أو الخضر) وقد رسم خطاً منحنياً ظريفاً على ضفة أهداب من الموج المزبد، ويمتد من مصب نهر بيروت إلى مصب نهر الكلب، فاقترب بذلك من الأسناد الأخيرة المجندة من جبل صنين. وفي شمال هذا الخليج على بعد لسان صغير من اليابسة يختفي مصب نهر إبراهيم وأخيراً في الجنوب الغربي نحو صياد حرج بيروت ذي الأشجار الصنوبرية الفواحة المكتظة فكأنه بحر من الزمرد تتلاطم أمواجه الخضراء، وتبلغ كثبان الرمال الحمراء الممتدة على الشاطىء، وفي الشمال على طول امتداد الساحل مدينة بيروت وقد صفت دورها وقصورها الجميلة المحفوفة بالحدائق الغناء.

وإذا نزل من دير سيدة الناصرة واجتاز شارع الأشرفية المتجه إلى الشرق يصل إلى خزانات شركة الماء، وإذا انحرف نحو الجنوب الشرقي يصل إلى حديقة معامل السيوفي المشرفة من ارتفاع غير يسير على نهر بيروت، وفيها مرتفعاتها ذات المناظر الخلابة، ولهذا القصد أيضاً من منتزهات بيروت، وإذا هبط وبلغ حي الراسقة وفيه مطرانية الروم الأرثوذكس وقصور وفيلات عديدة غاية في روعة البناء ووسعته أحيطت بحدائق كبيرة غناء - ويقطن هذا الحي الفخم أغنى الأسر وأوجهها من طائفة الروم الأرثوذكس كأسرة سرسق وبسترس. ثم يتجه نحو الغرب إلى أن يلاقي ساحة البرج التي بدأ منها.

ضواحي بيروت

١ ـ قناة زبيدة الرومانية

يغادر بيروت من طريق دمشق ماراً من أمام حرج الصنوبر وحي فرن الشباك، وبعد ٥كم المفترق الذي يبدأ منه الصعود إلى الجبل. وعند هذا المفرق الذي فيه أيضاً قبر الباشاوات متصرفي جبل لبنان، يترك طريق دمشق ويسلك مجازاً إلى اليسار وهذا المجاز يطل في امتداده على الوادي الخصب الذي يسيل فيه نهر بيروت، وتروي مزارع هذا الوادي وبساتينه النضرة قناة صغيرة جانبية تجر قسماً كبيراً من ماء النهر، وثمة كثير من أشجار الموز والبرتقال والبلح والتوت أو فوقها في الجلول

المرتفعة الزيتون. ثم ينحرف المجاز ويعبر نهراً صغيراً من روافد نهر بيروت ويمر فوق ضيعة اسمها الحازمية، وفيها طواحين عديدة، وعلى أكمة عرف الديك المشرفة على العدوة اليمنى يلحظ كنيسة قرية مكلس، ثم يصل بعد بضعة منعرجات إلى قناة زبيدة.

في الكم ٩ أطلال قناة رومانية جميلة من العهد البيزنطي، سموها خطأ باسم زبيدة ملكة تدمر، وليست منها في شيء وطول هذه القناة ٢٤٠ متراً. وكانت تتألف من ثلاث طبقات من القناطر وكان القصد منها إمرار مياه النهر إلى قناة الري القديمة المحفورة في أعلى المجرى على العدوة اليمنى والتي كانت تنزل من ثم إلى بيروت مارة بالعدوة اليسرى. والقنطرة المتوسطة المرتكزة على النهر هي الآن متهدمة ولا يزال على العدوة اليسرى قنطرة واحدة من الطبقة الأولى وثلاث قناطر من الطبقة الثانية، وعلى العدوة اليمنى ثماني قناطر من الطبقة الثانية ـ أما الطبقة الثالثة التي كانت تحمل مجرى الماء فقد تهدمت بالكلية. ويلحظ الزائر الأحجار المنحوتة الجميلة التي كانت في بناء هذه الطبقات وفتحة مجرى ماء القناة، التي هي في هذه الجهة تحت الأرض، يمكن العثور عليها بسهولة على العدوة اليسرى، وعمل هذه القناة جد متقنة وهي مغطاة ببلاط موضوع على شكل جملون وقد ثقب بناة هذه القناة لها ثقباً، فتحوا له اثنى عشر بئراً من أعالي مدرج صخري ولا يزال يرى الواقف في العدوة المقابلة القناطر التي كانت فوق هذه الآبار.

عودة ـ يستمر المجاز نحو ١ كم ويصل إلى ضيعة اسمها (الجديدة) فيها طواحين وأهلها يرتزقون بصيد السمك، لأن مياه نهر بيروت غنية بالسمك، ومن ثم يسلك طريقاً يعبر نهر بيروت عند جسر الباشا. وعلى مقربة من هذا حديقة جميلة تعد من منتزهات بيروت تدعى (جنينة رستم باشا) أحد متصرفي لبنان السابقين، وضريحه على حافة طريق دمشق وفي هذه الحديقة مقهى، وثمة أشجار غريبة المنشأ والحجم والشكل، منها شجرة البانيان أو تين الهند، التي تتدلى أغصانها وتنفذ في الأرض ثم تنمو، ومنها شجلرة السكوا إحدى جبابرة الفصيلة الصنوبرية، ومنها الميموز أو غير ذلك. وتحت ظلال هذه الأشجار قعدة منعشة نزهة يقصدها البيروتيون.

في الكم ١٥، إما أن يسلك الطريق المار بسن الفيل، أو الطريق الذي على اليمين المار بالدكوانة والمتصل بطريق بيروت - بيت مري، وفي الدكوانة مشاتل للغراس متقنة.

في الكم ١٧ حارة الشيخ ، وفي الكم ١٨,٥ الجديدة، قرية فيها سراي حكومة اتخذت مأوى للعجزة، وفيها يلاقي الطريق القادم من طرابلس إلى بيروت.

٢ ـ عاليه ـ صوفر والرجوع عن طريق انا

يغادر بيروت من ساحة البرج وطريق دمشق، فيصل في الكم ٢ إلى حي فرن الشباك، وفي الكم ٣,٥ يجتاز الطريق السكة الحديدية ويغادر كل الساحل ـ في الكم ٤,٧ يترك على يساره طريقاً يتجه نحو جسر الباشا (تقدم ذكره)، في الكم ٥ قرية الحازمية، على اليمين وضمن كشك سور ضريحي واصيا باشا وفرتكو باشا متصرفا جبل لبنان، وفي كشك ثانٍ ضريح متصرف مسلم اسمه محمد باشا، ووراءهما مقبرة مسورة تحضن بعض الأسر في هذه الأنحاء وعلى اليسار مجاز يذهب إلى قناة زبيدة، وعلى اليسار طريق يصل بعد ٤ كم إلى بعبدا.

بعبدا بليدة، علوها ٢١٠ متراً وسكانها ٢١٨٢، كانت المقر الشتوي لمتصرف لبنان الصغير، تتصل ببيروت بالسكك الحديدية، وفيها منظر جميل جداً يشرف على بيروت وبحرها. وفي بعبدا سراي جديدة من عهد المتصرفين ذات طبقات وحجرات عديدة، لم تعد لازمة بعد نقل عاصمة لبنان إلى بيروت، فاتخذوها مدرسة للدرك وسراي أخرى قديمة اتخذوها لموظفي إدارة المساحة.

عودة، بعد قبر الباشا يشرع الطريق بتسلق أسناد لبنان. وثمة منظر جميل يمتد نحو كثبان الرمل الحمراء في الساحل، في الكم ٦,٥ العصفورية، على اليسار، وفيها مستشفى للمجانين بناه رجل إنكليزي من أهل الخير وعلى اليمين معمل في الكم ٨,٥ منظر جميل نحو وادي نهر بيروت ـ في الكم ١١ قرية الجمهور، على اليمين طريق آخر يحاذي السكة الحديدية يصل بعد ٤ كم إلى بعبدا التي تقدم ذكرها في الكم ١٢,٥، يجتاز السكة الحديدية فوق جسر ويترك على اليمين طريقاً متجهة إلى قرية كبيرة اسمها (البسوس) اشتهرت بفاكهتها كالمشمش

اللوزي والخوخ وغيرهما، علوها ٤٥٠ متراً - في الكم ١٤ على اليسار طريق يتجه إلى عاريا والشويت والعبادية ورأس الحرف. وعاريا قرية جميلة قريبة من بيروت، لا يقصدها للاصطياف إلا أصحاب الملك فيها. في شرقها نبع وسط مغارة تسمى شق العجوز، وقريتا شويت والعبادية من المصايف القليلة الرواد وفي العبادية عين الجوز تقصد للنزهة لحسن المشاهد المحيطة بها في الكم ١٥ كحالة قرية ذات دور مبعثرة تمتد على مسافة ١ كم - في الكم يجتاز الطريق فوق السكة الحديدية، ومن ثم يزداد روعة المناظر الممتدة نحو بيروت وضواحيها والمتن وجبل صنين.

في الكم ١٨ يصل إلى أول بيوت عالية وبعد ١,٥ كم والمجاور من أمام محطة السكة الحديدية يصل إلى عالية في الكم ١٩,٥.

عالية - بليدة، سكانها ٣٠٠٠، علوها ٨٤٠ متراً، ذات دور وقصور وفيللات جميلة، اشتهرت بموقعها وبفنادقها الفخمة الكثيرة ونواديها العديدة المخصصة لهذا ولقربها من بيروت كانت وما برحت أشهر مراكز الاصطياف والمقامرة وأجلها شأناً في لبنان، فهي (مونت كارلو) جبل لبنان بحق. وفي فصل الصيف وأيام الحر ينتقل قسم عظيم من سكان بيروت ومتاجرها إليها، فتكتظ عالية بضعة أشهر وتزدحم الأرجل فيها من مختلف المنابت والمشارب، حتى أن للمفوض السامي الإفرنسي ولرئيس جمهورية لبنان، كما لكثير من أغنياء بيروت قصور ومصايف خاصة فيها. ومن عالية طريق يؤدي بعد ٤ كم إلى سوق الغرب، إحدى مراكز الاصطياف المشهورة.

ومن ثنية عين البنية يهبط الطريق تدريجيا نحو الكم ٨١ وفيه قرية حور تعلة، سكانها ٣٠٠ جعفريون. ومن هذه القرية مدق يتجه نحو الجنوب الغربي ويمر من عاريا والرميدة (وهي غير الرميدة التي في نهر معربون) فيصل إلى سرعين، التي يوجد فيها أطلال مبعثرة جداً لهيكل وثني روماني، وبيوت منقورة في الصخر. وعلى بعد قليل من هذه الخرائب نحو الجنوب مقبرة مهمة نابتة بين الصخور اسمها ضهر عقرة دابا تشرف عليها أطلال هيكل آخر. وقد اشتهرت سرعين بتربية دود الحرير واستحصال بزوره، وتأتيها قناة من نهر يحفوفة فتسقى بساتينها. وفي محل اسمه ظهر الدير على بعد نصف ساعة أكمة فوقها حصن ضخم الحجارة، وعلى بعد ١,٥

ساعة إلى الجنوب دير باسم القديس جاورجيوس وهو ضخم الحجارة أيضاً يقع في سفح وادي يحفوفة حيث ينساب نهرها مقابل قرية قنا القديمة التي لها سور من حجر، ومن الوادي إلى الدير نفق (دهليز) وفي جنوبي سرعين والخط الحديدي، وعلى الضفة اليسرى لوادي يحفوفه ضيعة ماسة، قامت على أكمة صغيرة فيها هيكل صغير تحول إلى كنيسة، وهناك حجر وضع في دعامة كتب عليه أن لخيوس الكمشيس شيد هذا الهيكل لزحل (ساتورن) لأجل خلاص القيصر الذي يرجح أنه مرقص اويليوس.

في الكم ٨٣ *طاليا* - في الكم ٨٣,٥ وعند مخفر طاليا يلتقي هذا الطريق بطريق بيروت بعلبك في الكم ٩٤,٥ تقريباً بعلبك.

بعد الخروج من عالية يستمر الصعود في طريق دمشق، ويتسلق الاعضاء الثانية لسلسلة لبنان، ويبدأ الأخضر والنبات في القلة. في الكم ٢٤,٥ محطة بحمدون، علوها ١٠٠٠ متر مصيف ذو شأن، وفيها نحو عشرة فنادق جميلة وإن كانت من الدرجة الثانية، ومقاهٍ واسعة، ومنها طريق يصل بعد ٢,٥كم إلى قرية بحمدون.

يترك في محطة بحمدون طريقاً يهبط إلى وادي حمانا الذي يسيل فيه نهر المتن ماراً بقرية القيلية ورويسات المظيلة ويلاقي بعد ٦ كم عند قرية القبة طريق عاريا حمانا الذي تقدم ذكره آنفاً.

في الكم ٢٩,٥ *عين صوفر*، سكانها ٤٢٦، علوها ١,٢٨٠، قرية جميلة فيها فندق عظيم فخم من الدرجة الأولى وعدة فنادق أخرى من الدرجة الثانية، وفيها لأكثر أسر بيروت غنى وترفاً فيللات بديعة، لأن علوها الشاهق جعل هواءها غاية في الجودة والنقاء ومنظرها نحو وادي نهر المتن السحيق يأخذ مجامع القلوب في امتداده ونضرته وخضرته وروعة الساحة الجبلية المدورة حوله الممتدة من جبل في الشرق إلى ظهور رأس المتن في الغرب.

بعد الخروج من صوفر يستمر في صعوده وفي إشرافه على وادي حمانا الأغن، في الكم ٣٣,٥ مخفر درك المديرج العلو ١٤٠٠ متر هنا يترك على اليمين طريق يذهب إلى عين زحلتا والباروك ودير القمر (مر ذكره) وإضافة تكملة الطريق الذاهبة إلى دمشق فيترك الاثنين وينحرف نحو اليمين ويهبط إلى الوادي فيصل في الكم ٣٧ إلى

مجاز يصعد في نصف ساعة إلى شلال شاغور حمانا وهو شلال فياض يهبط من علو، وعنده فندق جميل ومقهى يقصدهما المصطافون والمتنزهون بكثرة.

في الكم ٣٨ قرية حمانا، قرية حسنة، ومصيف جميل، تقصد حتى من دمشق لروعة مناظرها وجودة هوائها، علوها ١١٨٠، سكانها ١٥٠٠، أكثرهم موارنة، وهي في وسط زراعي توت، عنب، أشجار مثمرة، خضروات متنوعة، لها ساحة صغيرة فيها عين ثرة، وبعد حمانا طريقان على اليمين أحدهما يأخذ إلى قرية فالوغا، وهي مصيف جميل أيضاً، علوها ١١٥٠، والثاني إلى قرية قرنايل، وهذه أيضاً مصيف جميل، علوها ١١١٠، ومنها يستمر الطريق في الهبوط إلى قرية زبدين ثم إلى قصر وادي جامينا أحد روافد نهر بيروت، ثم يصعد إلى قرية المتن ثم إلى قرية المروج وبعدها إلى ظهور الشوير والشوير.

بعد مغادرة بيروت من ساحة البرج، يصل إلى طرف بلدة عالية وفي عالية مسجد حديث جميل ومن ثم يستمر الطريق في صعود وتقل الأشجار والنباتات. في الكم ١٩ مزرعة مشرا . في الكم ٢١,٥ على اليسار خان خراب . في الكم ٢٤,٥ منظر رائع على الوادي نهر المتن السحيق الذي على يسار الطريق الهابط إلى وادي نهر المتن.

بعد مغادرة بيروت على اليسار طريق يهبط إلى وادي نهر المتن ويتصل في الكم ٤ بطريق عاريا . حمانا ماراً بقرية القربة في الكم ٥، محطة بحمدون التي علوها ١٠٠٠ متر، موقف قطار ثم يجتاز الطريق السكة الحديدية ويترك على اليمين طريق يوصل بين بحمدون المحطة وبحمدون القرية ويفضي إلى نهر القاضي.

في الكم ٢٧,٥ على اليسار فندق رويسات . في الكم ٢٩,٥ فندق عين صوفر الكبير (العلو ١٢٨٠ متراً) بعد الخروج من صوفر يستمر الطريق في صعوده وفي إشرافه على الوادي السحيق المسمى بوادي نهر المتن. وثمة مشهد بهيج ورائع جداً على هذه الساحة الجبلية المدورة الخضرة النضرة الآخذة بمجامع القلوب، المؤلفة من جبل الكنيسة في الشرق وسلسلة مرتفعات المتن في الوسط.

في الكم ٣٢,٥ ممر فوق السكة الحديدية التي لها في قرية نفق كبير تحت جبل شاهق.

في الكم ٣٣,٥ مخفر درك المديرج العلو ١٤٠٠ متر هنا على اليمين طريق يذهب إلى عين زحلتا والباروك وبيت الدين، وعلى اليسار طريق إلى حمانا وفالوغا وقرنايل وتخرج هنا السكة الحديدية من النفق وتبقى على اليمين ثم يصعد الطريق في منعرجات على يسارها هنا أسناد جبل الكنيسة وعلى يمينها أسناد جبل الباروك، وتجتاز في الكم ٣٥ على علو ١٥٢٤ عقبة ظهر البيدر وفي ذروة هذه العقبة خان قديم خراب وترى تحت الطريق محطة القطار. ثم تدخل السكة الحديدية تحت نفق بنوه حديثاً من الإسمنت للتوقي من الثلج الذي يتراكم هنا في إبانه بكثرة هائلة عطلت سير القطار أياماً وأسابيع.

في الكم ٣٩,٥ مخفر ظهر البيدر للدرك اللبناني ذو بناء كبير وجميل ومن ثم تبدأ الطريق بالهبوط وتخرج السكة من النفق، ويظهر فجأة سهل البقاع المسدود من الشرق بسلسلة لبنان الشرقي ومنظره هنا في النهاية من الجمال لانبساطه وتنوع الوان حقوله الصفراء والخضراء والحمراء وانتثار القرى المتعددة في الوسط وحوله.

البقاع سهل فسيح أو أخدود عظيم يمتد بين سلسلتي لبنان الغربي ولبنان الشرقي على علو ٩٠٠ - ١٠٠٠ متر عن سطح البحر وقد سد هذا السهل في جنوبه بشعب جبال نومان جزين التي يمر منها نهر الليطاني بصعوبة، لكن الأخدود يستأنف امتداده من بعدها حتى بحيرة طبريا وغور الأردن إلى أن ينتهي ببحيرة لوط.

في الكم ٤٥,٥ جسر تحت السكة الحديدية قبل الوصول إلى قرية المريجات (علوها ١١٩٨ متراً)، وفيها محطة للقطار، هواؤها جيد جاف جداً، بعض مسلمي بيروت لهم فيها دور جميلة ومعامل للخزف.

في الكم ٤٨,٥ على اليسار في سفح قرية جديتا.

في الكم ٤٩,٥ على اليمين طريق يذهب إلى الجنوب وينتهي بفلسطين ماراً بقب إلياس ومشغرة وجديدة معودةيون.

في الكم ٤٩,٧ على اليسار طريق ينتهي بعد ١,٥ كم إلى قرية جديتا وفيها محطة قطار يقصدها بعض مسلمي بيروت للاصطياف.

في الكم ٥١,٥ شتورا، قرية صغيرة متفرقة البنيان، علوها ٩٠٠ متر، مركز ذو شأن لالتقاء الطرق الآتية من بيروت ودمشق وزحلة وبعلبك وجديدة معودةيون، وفيه

دور وفنادق ومقاهٍ عصرية جميلة ، وفي قربه نهر صغير ينبع عن كثب بسببه الأشجار والغياض الظليلة في شتورا. واشتهرت أيضاً شتورا بخمورها الجيدة التي تصنع في معامل كسارا للآباء اليسوعيين في قربها ومعامل خمور لأناس آخرين إفرنج ولبنانيين ـ في الكم ٥٣,٥ جسر على نهر جلالة أحد روافد الليطاني يترك بعده طريق يذهب بعد ٣ كم إلى سعد نايل قرية إسلامية فيها محطة قطار ثم يترك على اليمين قرية تعنايل وفي قربها دير زراعي كبير للآباء اليسوعيين أسس بعد حوادث سنة ١٨٦٠ وفيه حقول وكروم وغياض ومشاتل فنية واسعة.

في الكم ٥٧,٥ يمر الطريق على أول جسر نهر البردوني القادم من زحلة ثم على جسر ثانٍ نهر الليطاني وملتقى هذين النهرين في جنوبي الطريق بمسافة قليلة.

وفي الكم ٥٩,٥ على اليسار وسط السهل قرية كبيرة "بر الياس" إسلامية اشتهر بعض أهلها بتربية عتاق الخيل دورها المكتظة من اللبن محيطة بتل قديم، تظهر مئذنة المسجد من بيروت، وعلى اليمين على بعد نحو ٢ كم قرية المرج.

في الكم ٦٠,٥ مكان اسمه دير دنون، على يسار الطريق بناء صغير حديث، هرمي الشكل، ذكرى بدء عمليات التجديد المثلثية لتخطيط خارطة بلاد الشام، وبعده طريق يذهب إلى رياق ١٤ كم ويتبع اعضاد لبنان الشرقي ويمر من أسفل دير الغزال، وفيه أطلال هيكل قديم وقطع أعمدة مكسرة ـ في الكم ٦٠,٧ جسر من الإسمنت على نهر الفرير أحد روافد الليطاني، منبعه من عيون. ويترك على اليسار طريقاً يذهب إلى هذه العيون وعلى اليمين طريقاً يذهب إلى قرية الاصطبل ـ في الكم ٦١,٥ على اليسار حوش مزرعة خاصة رشدي بك حفيد درويش باشا وهو أكبر ملاك في البقاع ـ في الكم ٦٢,٥ على اليسار أكمة صخرية في قمتها مزار النبي عزيز يقصده مسلمو هذه الرباع في يوم خاص ويقيم مشايخ الطرق حفلاتهم يومئذ. في الكم ٦٣,٥ طريق يذهب إلى عيون عنجر.

عيون عنجر ـ مجاز ٢ كم ـ يمر المجاز أولاً بأطلال عظيمة دارسة بقي منها سور كبير مستطيل الشكل طوله نحو ٢٠٠ متر. هذه الأطلال هي بقايا شاليس لبنان القديم. في داخل هذا السور يلحظ آثار بلاط عدة طرق وبضعة أعمدة وأنقاض مختلفة. كانت شاليس هذه عاصمة مملكة تمتد من البقاع إلى ابطوريا (حبيدور

حوران) وكانت تابعة لبطلاوس ابن مثنة وإلى ابن ليزانياس المقبري نقل عاصمته فيما بعد إلى ابيبلا (سوق وادي بردى) وفي عهد الامبراطور كلوديوس اعطيت شالسيس إلى هرودوس حفيد هرودوس الكبير، ثم انتقلت إلى يد هرودوس غريبا إلى أن ألحقت بالمملكة الرومانية. ثم يصل المجاز إلى عيون عنجر، وهو نبع نهر الليطاني الأصلية تنفجر من حوض واسع مياهه راكدة في سفح لبنان الشرقي. وتمتد أنقاض أحجار أثرية ضخمة تدل على أن هذا مكان عبادة في العصور القديمة وكان انفجار الماء قديماً غزيراً جداً لدرجة أنه من القرن ١٤ كانت تؤلف بحيرة حقيقية تشمل كل أراضي قرى الاصطبل والمرج، وربما كانت تصل إلى تل الأخضر وفي الأساطير العربية أن سفينة نوح استقرت في عنجر ـ والأمير سيف الدين تنكيز حاكم دمشق صرف مياه هذه البحيرة وعمل لها مجاريَ تنفذ إلى الليطاني وحول قاعها المجفف إلى أراضٍ زراعية وذلك بإشارة علاء الدين بن صبح البقاعي فعمر فيه.

في الكم ٦٥ يلحظ على اليمين قرية مجدل عنجر وقد سميت بذلك تمييزاً لها عن بقية المجادل كمجدل شمس وغيرهما، قرية جميلة متجهة مبنية في السفح الشرقي من أكمة ذات سنامين بينهما باحة مجوفة برزت من وسطها مأذنة المسجد.

ويظن أن كلمة مجدل تدل على وجود حصن قديم ففي ذروة الأكمة التي في شمال القرية يرى أطلال هيكل وثني بدله العرب إلى حصن فأعمدة الرواق الأمامي الذي في الوجهة الشمالية الشرقية قد تهدمت وامتدت أنقاضها على الأرض أما السيللا Cella فلا تزال تامة كلها ويرى البلوكات الضخمة جداً (الجبارية) التي تؤلف أسس الجدران. ومن فوقها أحجار من النوع المحدب المنسوب للأسوار. أما الباب الخراب فلا يزال فيه عضاوتان من القطع الواحد. وكان داخل الهيكل مزداناً بأعمدة ذات تيجان من الطراز الأيوبي مع كورنيش عظيم وأحجار بين الأعمدة كما هو الحال في هياكل بعلبك وتدمر، وطراز بناء هذا الهيكل يدل على أنه سابق لعهود هياكل المدن المذكورة وربما قبل عهد هيرودوس، ومن هذه الأكمة يشرف على منظر رائع نحو كل البقاع الممتد القائم نحو الشمال الغربي والذي في الجنوب يحدث المضيق الضيق الذي يمر منه الليطاني وفي الجنوب الشرقي ترتفع ذروات جبل الشيخ المكللة بالثلوج.

ومن الهيكل المذكور يمكن الوصول بعد ٤٥ دقيقة في الجنوب الغربي وعلى المنحدر الغربي للأكمة إلى قرية الركوة، فيها أطلال هيكل آخر أصغر من الأول، فيه تيجان أعمدة كورنثية ومغاور منقورة في الصخر فيها نواويس .

في الكم ٦٧ يترك على اليمين الطريق الذاهبة إلى راشيا ٣٢ كم إلى الجنوب الغربي يتبع الطريق وادي الحرير المحصور بين آكام مزدانة بأشجار السنديان. بعد ١ كم على اليمين منظر جميل نحو مجدل عنجر إلى بعد ٣ كم السويرة قرية مسلمة في سفح الجبل - في الكم ٤ على اليمين أكمة فوقها ضريح ذو قبة لأحد الصلحاء وتفترق هذه الأكمة عن أخرى تماثلها بحفرة كبيرة مغروسة منحدراتها بالأشجار المثمرة، وعلى ذروة هذه الأكمة الثانية الشاهقة ربضت قرية (السلطان يعقوب) كأنها عش نسرٍ حقيقي، تعلو ١٤٠٠ متر اشتهرت بصناعة ضفر الحصر التي تعمل من الأقصاب.

في الكم ٨ على اليسار قرية حمارا، على الطريق مخفر للدرك، في الكم ٩ يهبط الطريق، هنا منظر على الوادي في الجنوب - في الكم ١٠ طريق على اليسار يأخذ بعد ٢ كم إلى قرية عيتا الفوقا.

في الكم ١٤ مضيق الفالوج مكان مخيف خطر، حدثت فيه مذبحة الجند المصري من قبل شبلي العريان وأخرى إبان الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥/١٣٤٤ عدة معارك بين الثوار الدروز والجند الإفرنسي القادم لنجدة قلعة راشيا المحصورة، وكانت الدائرة في الغالب على الجند وقد أقيم بعد لحفظ هذا الممر فوق المرتفع الذي يقع شرقي الطريق مخفران عسكريان يصلهما إلى الطريق مجازان وثمة يلمح على يمين الطريق أطلال دائرة، ويترك على يمين الطريق أيضاً مجازاً يتصل بالطريق الذاهب من شتورا إلى طبريا.

(على يسار هذا المجاز وفي صدر الجبل مقبرة واسعة فيها نحو ٣٠٠ قبر في الكم ٧ قرية كامد اللوز التي كانت مدينة ذات شأن، هو يظن أنها هي المذكورة في رقم تل العمارنة، وبعدها في الكم ٧ على اليسار قرية جب جنين في المنتهى الشمالي لهضبة تفرق بين وادي التيم ووادي نهر الليطاني، في الكم ٨ جسر على الليطاني - في الكم ١٣ قرية كفريا (على الطريق الذاهبة من شتورا إلى طبريا).

عودة ـ ثم بعد المضيق تصل إلى نقطة خط تقسيم المياه ومن هنا فصاعداً تصل كل المياه نحو الجنوب فتؤلف وادي التيم الذي يلتقي مع النهر الحاصباني فيؤلفان نهر الأردن الأعلى.

في الكم ١٦ على اليمين، أكمة مشرفة على الطريق يلمح فيها بوضوح قبران محفوران في الصخر، أحدهما أحيط بعمودين ـ في الكم ١٧، على منحدر الجبل قرية خربة روما، وعلى الأكمة اليمنى قرية البيرة.

في الكم ٢٢ منظر رائع نحو الطود الشاهق الرهيب الذي يؤلفه جبل الشيخ، ويلمح في سفحه على مرتفع قرية راشيا، على اليمين قرية محيدثة، جسر على نهير.

في الكم ٢٣ ينحرف الطريق نحو الشرق ويشرع بالصعود في الكم ٢٤ يلمح على اليسار فوق أكمة مرتفع قرية ظهر الأحمر ـ في الكم ٢٦ يترك على اليمين مجازاً إلى حاصبيا (٢٤,٥ كم).

ثم يتسلق الطريق منعرجاً ملآن بكروم العنب والتين ونصبت فوقه راشيا (كم ٣٢).

راشيا ـ قرية كبيرة سكانها ١٥٠٠ نصفهم دروز ونصفهم روم أرثوذكس في العهد العثماني تتبع ولاية دمشق، وفي عهد الاحتلال الإفرنسي ضمت قسراً إلى لبنان في جملة الأقضية الأربعة، وجعلت الآن مركز ناحية علوها ١٣٥٠ متراً بنيت فوق أكمة مشرفة على وادي التيم وهي قاعدة وادي التيم الأعلى إلى الشمال الغربي من جبل الشيخ، كانت مركز قضاء، وتحرس راشيا قلعة قديمة تدعى /برج الريش/ من بناء الأمراء الشهابيين. ولهذه القلعة ذكر في تاريخ الثورة السورية سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٥م حاصر الثوار الدروز الجند الإفرنسي الذي كان اتخذها قبل ذلك ثكنة واستبسلوا في مهاجمتها مدة أربعة أيام، إلى أن جاءتها نجدات قوية من الإفرنسيين وانقذتها، وضربت إذ ذاك أكثر دور راشيا وأحرقت ونهبت، ثم عاد سكانها بعد الهجرة فجددوا على التوالي نحو نصفها، ولا يزالون يعملون في تجديدها، وهي قد اشتهرت بهوائها النقي الصحي.

في باحة القلعة بناء تذكاري للضباط وللجنود الذين قتلوا في معارك راشيا، ولهذه القلعة منظر رائع نحو جبل حرمون.. وجعلت في سنة ١٩٤٢ معتقلاً لبعض الأحرار الدمشقيين بقوا فيها مدة.

ترتبط راشيا بمجاز صالح ٣٠,٥ كم إلى حاصبيا وبآخر ١٨ كم إلى طريق راشيا ـ طبريا وبثالث طريق دمشق بيروت يمر بدير العشاير، ومستنقع قرية غيما ويمكن الوصول أيضاً إلى دمشق عن طريق زحلة وقطنا.

الصعود إلى جبل الشيخ ـ ٤,٥ ساعة، مصعد راشيا أبعد من مصعد حاصبيا، لكنه أسهل، فبعد الخروج من راشيا يهبط إلى الوادي برهة ثم ينحرف إلى اليسار، في منتهاه (بعد ساعة) يدخل في مضيق موحش، منه مبدأ الصعود الحقيقي. وهذا الصعود شاق ومجهد جداً، لفقدان أي مجاز مخطط، فتارة يتبع الصاعد مجرى مسيل، وتارة يتسلق منحدرات عمودية شبه أدراج حلزونية، يتقى فيها انهيار الصخور بعد ٣ ساعات مغارة عظيمة، ومن بعدها ينحرف نحو الجنوب الغربي ويتبع صور الجبل ويترك على اليسار إحدى ذرواته، وبعد ٣ ساعات ٢٠ ق يصل إلى عين صغيرة يمكن أن يتوقف فيها ويستريح، لعدم وجود ماء بعدها ثم بعدها بساعة يصل إلى الذروة العليا من جبل الشيخ ٢٨١٤ متراً.

وقضاء راشيا صغير المساحة يحده من الشمال قضاء زحلة ومن الشرق قضاء وادي العجم ومن الجنوب قضاء معودتيون ومن الغرب قضاء زحلة وعلى مسيرة نحو ثلث ساعة فيها مستنقع عجا القريت من قرية صغيرة بهذا الاسم وهو مجمع المياه الجارية إليه والمنجسة من جوانبه وتكثر فيه حمى البرداء ويموت في كل سنة مئات من سكان القرى المجاورة.

تتبعه ١٦كم قرية وسميت *راشيا الوادي* تمييزاً لها عن راشيا الفخار التي في قضاء حاصبيا، وكان في راشيا قديماً منازل بني الأطرش وبني العريان الدروز.

غير أن ماءها قليل ومناظرها جميلة خاصة من أعلى الأكمة، وأهلها أشداء صحاح البنية يعمرون طويلاً ولنسائها جمال، ولهم حذق في الحدادة والصياغة وعمل القضامي، وأراضيها وعرة لكنها خصبة، وكرومها كثيرة وذات عنب جيد. ويظن أن راشيا لم تعرف قبل الصليبيين، وهؤلاء بنوا بها البرج الريش لصد العرب، وبعد

أن استخلصها الشهابيون منهم عمرت وكثر سكانها ومنها نشأ شبلي العريان الذي حاصر الحامية المصرية في قلعة راشيا ثم لحقها إلى نبع الفالوج وفتك بها فعودة إبراهيم باشا ودهم راشيا وخربها، ثم عادت إلى العمران بعد إبراهيم باشا، وكان الشهابيون حكامها إلى سنة ١٨٦٠ فكانت فيها الفتنة المشهورة وأحرق كثير من بيوتها وقتل كثير من الشهابيين، ثم تجدد عمرانها وصارت مركز قضاء في عهد ولاية سورية إلى أن جرت فيها ثورة ١٩٢٥ كما قدمنا، وأعيد عمرانها وجعلت مركز قضاء.

وادي التيم - من أحداثه في سنة ٦٨٣ أن المغول قصدوه وأحرقوا وأفحشوا، وفي سنة ٦٤٢ قصدته جموع الإفرنج وتصدى لهم الأمير عامر الشهابي وفرسان عشرية من استنجدهم من آل معن، والتقوا بهم في مرج الخيام ودحروهم فعظمت بعد ذلك إمارتهم.

عودة إلى طريق دمشق - ينفذ طريق دمشق في وادي الحرير الضيق المنحصر بين آكام سلسلة لبنان الشرقي، ويصعد تدريجياً - في الكم ٧٤,٥ تعلو حتى ١٨٨٣م الخشبة المكتوبة الدالة على الحدود بين حكومتي بيروت ودمشق، وهنا خط تقسيم المياه لسلسلة جبال لبنان الشرقية ومن ثم يبدأ الطريق بالهبوط ويدخل سهلاً فسيحاً لإدارة واسعة محيط اسمه سهل الجديدة في شرقه جبال صخرية شاهقة كعرف الديك المتطاول من الشمال إلى الجنوب تطل على سهل الزبداني قرى قريتا يبوس ومعدر وفي وسط السهل عند الكم ٧٨,٥ قرية جديدة يبوس، وثمة على الطريق مخفر للدرك الدمشقي (العلو ١٢٥٢ متراً)، مسيل ماء متدفق.

ثم يترك الطريق السهل المذكور وينفذ في واد ضيق على جانبيه جبال شاهقة جرداء، اسمه "وادي القرن" وهو أحد روافد نهر بردى، ولهذا الوادي الموحش ذكريات رهيبة فقد كان في الأزمان الماضية إبان فوضى الأحكام مكمناً لقطاع الطريق حتى يضرب به المثل وفي الكم ٨٥,٥ يخرج الطريق من الوادي المذكور، وثمة منظر جميل على اليمين نحو الآكام الشاهقة المشرفة على قرية البترونة - في الكم ٨٦,٥ جسر على وادي القرن الذاهب للقاء نهر بردى، ثم يتسلق الطريق (عقبة

بالطين) وهي على أكمة مرتفعة ترابية، فيها في الكم ٩٠,٥ أطلال خلوة درزية أقام الجند الإفرنسي حولها مخفراً ثم هجره. وهنا في هذه العقبة حدثت معركة ميسلون.

في الكم ٩١,٥ يترك على اليسار الطريق (٨ كم) الذاهب إلى محطة التكية ومصايف الزبداني وبلودان. ثم يبدأ الطريق بالهبوط وينفذ في وادي ميسلون إلى الكم ٩٣ وفيه خان ميسلون ومخفر درك وعين ماء ثمة وأضرحة الجنود الإفرنسيين الذين قتلوا في المعركة التي حدثت في ٢٤ تموز ١٩٢٠، وفي قربهم ضريح البطل الشهيد في تلك المعركة يوسف العظمة وزير الحربية في حكومة المرحوم الملك فيصل. يحتفل الدمشقيون كل عام في ذلك اليوم بزيارته.

من خان ميسلون إلى الجنوب الغربي مجاز دواب طوله ٦,٥ كم يأخذ إلى أكمة شاهقة كالمسلة واقفة بين فرعين لوادي القرن عليها أطلال (دير العشائر) فيه هيكل جميل جداً من الطراز الأبيوني، بني فوق سطح تلك الأكمة بابعاد ٤٠×٢٢م المنحوتة وزين بنقوش فاتنة بديعة في واجهاته الجانبية وحول الدير انتثر كثير من بقايا الأعمدة والأحجار.

وادي القرن ووادي بكة ووادي فعرة ووادي يحفوفة كانت ممكن للصوص في العصور السابقة.

في الشرق وعلى سهل الجديدة في الغرب، وفي سفحها الغربي عند طرف السهل ثلاث قرى صغيرة، أسماؤها معدر وكفير يبوس ويبوس في وسط السهل.. الخ وفي غربي هذه القرى هضاب وروابٍ فيها حراج سنديان صغيرة ممتدة إلى ما بعد وادي الحرير، لو تركت تنمو لأفادت كثيراً.

وإلى جنوبي هذا الوادي وادي بكة، حدثت فيه وقعة عظيمة بين إبراهيم باشا المصري والدروز فكانت الدائرة عليهم ومن حوادثه التاريخية أنه في شهر نيسان ١٢٧٧ هـ /١٨٦٠ م مات فيه قافلة مؤلفة من أكثر من مائة شخص دفناً هم ودوابهم لشدة الثلج والبرد الذي داهمهم حينئذ.

من دير العشاير إلى راشيا ٢,٥ ساعة، في طريق وعرة ذات تلعات . في نحو ٢٠ دقيقة يتبع نحو الجنوب، واد هو الرافد الغربي لوادي الحرير. ثم يتسلق المنحدر الشمالي لوادي القرن، ثم يجتاز خلال ٤٥ دقيقة هضبة وعرة ثم ينحدر في عقبة

كأداء فيصل بعد ١ ساعة و ٢٥ دقيقة إلى كفر فوق، علوها ١٠٧٠ متراً تقع في المنتهى الشرقي لسهل محصور بين جبال يحصل فيه في الشتاء بحيرة وثمة أطلال هيكل وكتابات يونانية وبعد ٣٠٠ متر نحو راشيا مسماة امرأة منقورة في الصخر الصلد ومقابر كفر فوق، ثم يصعد نحو ساعة نحو الجنوب الغربي فيصل بعد ٢,٥ إلى راشيا.

عودة - بعد خان ميسلون يدخل الطريق عند الكم ٩٤,٥ في واد ضيق يشبه وادي القرن قليلاً تاركاً مياه وادي ميسلون على يمينه - وفي الكم ٩٦,٣ بعد أن يخرج من ذلك الوادي يترك على يساره عند خان الديماس المندثر مجازاً صالحاً للسيارات يذهب نحو قرية دير قانون في وادي بردى وكرومها من العنب والتين الجيدين.

في الكم ٩٧,٥ ينحرف الطريق نحو الشرق في معاطف صعبة إلى أن يصل في الكم ١٠٠,٥ إلى صحراء الديماس وهي دارة واسعة منحصرة بين سلاسل من الآكام البعيدة على يسارها الجبال الشاهقة المشرفة على وادي بردى من شماله، وفي جنوبها الغربي الطود المعظم المسمى جبل الشيخ والتلعات الصاعدة نحوه، وفي شرقها جبل قاسيون وقد اختفت دمشق تحته. والطريق في صحراء الديماس يسير على خط مستقيم، وقد حف منذ بضع سنوات بالأشجار - في الكم ١٠٢,٥ على اليسار الغربي في محاذاة جبل هاشمة والواصل (سيأتي ذكرها) وفي أول هذا المجاز أرض العراد المشهورة في التاريخ بحدوث معارك بين ونبع وعين الدياسة التي يشرف عليها مصطافو قرية قدسيا.

في الكم ١١٠,٥ تهبط الطريق في واد أغن يفصل بين بساتين قريتي قدسيا والهامة ويشعر بروعة الظل الظليل والندى العليل اللذين عرفته بهما أرباض دمشق - بعد جفاف الطريق وتجرده، وثمة على يمين الطريق ويساره دور وقصور وسط في بنائها منتثرة بين الغياط والرياض الغناء وعلى بعد نحو ١ كم في بطن الوادي الذي يمر فيه نهر بردى قرية الهامة سكانها ٤٢٠، وثمة محطة السكة الحديدية، فإذا اجتاز سكة الحديد عند المحطة يلاقي نهر بردى الفياض بخريره وشدة جريانه.

في الكم ١١٥,٥ طاحونة كبيرة على نهر بردى وعلى بعد ٣٠٠ متر معامل الإسمنت الوطنية ذات المداخن السامية.

ﾠفي الكم ١١٦,٥ قرية دمر سكانها ٤٠٠، فيها محطة السكة الحديدية ومخفر شرطة، ومقاهٍ ومقاصف جميلة حول نهر بردى هي أجمل منتزهات دمشق وأكثرها إقبالاً في الصيف وثمة كثير من الدور والقصور على يسار الطريق كانت حتى القرن الماضي المصايف الوحيدة لأثرياء دمشق ثم هجرت لانتقال المصطافين إلى قرى الزبداني ولبنان، يدخل الطريق في مضيق منحصر بين جبال شاهقة جرداء، في وسط نهر بردى وفروعه العديدة كيزيد وتورا وعلى ضفافها غياض الدلب والحور المكتظة والقصور والدور مما يجعل الطريق هنا روعة وبداعة تأخذ بالألباب. وفي الكم ١١٧,٥ يمر الطريق فوق السكة الحديدية وعلى جسر مشيد فوق أحد فروع بردى . في الكم ١٢٠,٥ الربوة وعليها أجمل أماكن منتزهاتها، حفت بالمقاهي العديدة المنتشرة على اليمين واليسار في أسناد الجبل الهابطة نحو بردى وحول المسايل الدافقة والقنوات الجارية من بردى وفروعه، وهنا يتسع الوادي فيمضي بين الرياض والغياض تاركاً على يمينه الطريق الصاعدة نحو قرية المزة، وفي الكم ١٢١,٥ مخفر كيوان للشرطة، وفيه على اليسار طريق يصعد نحو حي المهاجرين في سفح قاسيون، وبعد قليل يصل إلى المرج الأخضر، وعلى يمينه الثكنة الحميدية في مكان كان يدعى الشرف الأدنى يناوحه على يسار المرج الشرف الأعلى، وعلى يسار الطريق ثكنات عسكرية ومشتل حكومي ومدرسة التجهيز الحديثة إلى أن يصل إلى دمشق في الكم ١٢٤,٥.

الفصل الثالث

دمشق وما حولها

دمشق، عاصمة الجمهورية السورية، تعد هي وحلب أجمل مدن الشام الداخلية قدراً. شيدت على سفح جبل قاسيون أحد مرتفعات قلمون ووسط سهل فسيح تجري فيه فروع عديدة اشتقت من نهر بردى وقد أحاطت بها بقعة عظيمة مشجرة اسمها (الغوطة) وعلوها عن سطح البحر (٦٩٠) ومن ثم كان لشتائها بعض القسوة، وحرها في الصيف أيضاً غير يسير لولا أن لياليه طرية منعشة.

أما بردى فهو GHRYSORRHOUS او نهر الذهب، ينبع قرب الزبداني، من أحد الجبال المشرفة على سهله في الغرب على بعد ٣٥ كم من دمشق وترفده مياه عين الفيجة، بل هي أكثر كمية منه بأضعاف، ومن هذه العين يشرب أهل دمشق، وحين وصول بردى إلى أول سهل دمشق وقبل دخوله المدينة يتفرع إلى سبعة فروع يزيد، ثورا، وقناة المزة والديراني وقنوات وبانياس والعقرباني[1] ويجتاز بردى الأصلي كل المدينة من الغرب إلى الشرق، بينما بقية الفروع تتشعب في كل أحيائها وتسقى دورها وبساتينها القريبة والبعيدة، وإذ خرج منها يجتاز ٢٥ كم يصب في بحيرة العتيبة وتبدو الغوطة أكثر اتساعا واكتظاظاً من الخضرة الخلابة في بلاد جرداء كالشام الداخلية. وهذا الإفراط في الاخضرار والنبات قد أثر تاثيراً بالغاً في مخيلة العرب حتى عدوها (الفردوس) أو (جنة جمال الأرض)[2] أما الأوروبي المعتاد على طبيعة أكثر سخاء فقد لايهتم بزيارة الرياض، فنباتات دمشق لا تختلف عما ينبت في بقية الأقاليم المعتدلة (الجوز والحور والمشمش والزيتون والتين) إلا أنه حينما يأتي فصل الربيع القصير في هذه البلاد وتغسل أنواره الرقيقة هذه الخضرة الغنية، المتعارضة بشدة مع تجرد هذه الجبال، لا يخلو إذ ذاك منظر الحدائق من الجذب،

---

(١) العقربا ينفرع ضمن ا دينة ويقصد هنا بردى نفسه

(٢) قال ابن جب : دمشق جنة ا شرق، ومطلع نورها ا شرق، قد لت بأزاه الرياح ، و لت حلل سندسية من البسات ظل ظليل وماء سلسبيل، تنساب مياهه انسياب الأراقم بكل سبيل، ورياض ي النفوس نسيمها العليل، قد أحاطت كثرة ا اء والبسات ا إحداق ا الة بالقمر، وامتدت بشرقيها غوطتها ا ضراء امتداد البصر.

لاسيما حينما تأتي القرويات باقنعتهن ويزدن لطخاتها السوداء، وفي المدينة نفسها يكون نهر بردى مكشوفاً في الغالب في كل مكان وتراه فيها قد تشعب إلى مجار وأقنية تنبو عن الحصر، فيغذي بمياهه الدافقة الحمامات والمساجد والدور والسبل العامة، والشرب منها خطر، وفي كل من هذه المباني حوض أو أحواض متعددة والخرير الدائم لهذه القنوات والمجاري، الذي يفاجئك حيثما ذهبت، يجعل لدمشق مزية خاصة نادرة المثال، وإذا خرج بردى من الغوطة يذهب نحو الشرق ليصب في قعرة غير نافذة اسمها (بحيرة العتيبة) يؤلف فيها مستنقعاً وخيم الهواء جداً.

شيدت دمشق في امتداد بردى، وعلى طول نحو ٢ كم ويحيط ـ بجهاتها الأربع سور محصن، شكله قريب من المستطيل، ولدمشق في خارج هذا السور أرباض مكتظة بالسكان ففي الجنوب ربض أو حي الميدان يمتد مسكن الفلاحين والبدو وهو على الطريق القديم الآخذ إلى مكة، وهو مسكن تجار الغلال والحبوب والمتعاملين مع الفلاحين والبدو، وفي الشمال حي العمارة وحي سوق ساروجة وفي الشمال الغربي طريق الصالحية الطويل الذي تقطن فيه الأسر الوجيهة والجوالي[1] الأوروبية، أما داخل السور فمكتظ أكثره بالأسواق، ففي جنوبه يقوم حي إليهود وفي زاويته الشمالية الشرقية يقوم حي النصارى (باب توما) الممتد حتى ربض اسمه القصاع في أول طريق حلب.

ويتعذر معرفة سكان دمشق لقلة الاحصاءات الدقيقة ولعله قريب من ٣٠,٠٠٠ ثلاثة أرباعهم مسلمون، لهذا كان عدد المساجد والجوامع كثيراً جداً أي نحو ٢٥٠ وجلها قديم أثري، لكن مآذنها التي يغلب عليها الشكل المربع ليس لها ذلك التباين والرشاقة اللذين اسبغا جمالاً فتاناً على مآذن القاهرة، وحتى على مآذن حلب، إلا أن أصوات المؤذنين يسمع في دمشق أعذب من غيرها، وبالذات عند غروب الشمس وفي مطلع الفجر تدوى في سماء المدينة كصوت الجمع المحتشد، وأكثر هذه المساجد مغلقة في وجه الأجانب لأن الشعب الدمشقي ما برح شديد التعصب. وقد أسبغت الكثير من الذكريات على دمشق صفة المدينة المقدسة، فهي مبدأ ركب الحج إلى

(١) ا وا ع جالية

مكة أو هي باب الكعبة، وفيها ازدهرت العلوم الإسلامية خلال قرون طويلة، وفيها دفن كثير من العظماء. إلا أن شيوع الثقافة الأوروبية بين الطبقة المختارة ستخفف تدريجياً من تلك الحالة الروحية.

والمدارس الإسلامية القديمة التي أعلت شهرة دمشق فيما مضى قد اندثرت الآن كلها تقريباً والمكتبات التي كانت في مساجدها قد تشتت شملها بالنهب والإهمال. بيد أنه صار الآن فيها تعليم أرقى من السابق، وهو يوشك أن ينضج، فمدارس البعثة العلمانية في الصالحية، شارع بغداد ومدارس الآباء العازريين في باب توما، والإخوان المريميين في الصالحية شارع البرلمان تقوم بتعليم مئات من أبناء دمشق، والكتاتيب القرآنية تقوم مقامها بالتدريج مدارس ابتدائية وثانوية، وقد صار في دمشق الآن كلية عربية للآداب، (الغيت سنة ١٩٣٣) ومدرسة للحقوق وكلية للطب وفيها مجمع علمي عربي أيضاً.

والنصارى نحو ٥٠٠٠ هم أنشط الشعب الدمشقي وإن لم يكونوا أكثر عدداً وبينهم كل المذاهب النصرانية، والكثرة للروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك وكل الأسر المترفة قد اكتسبت التربية الأوروبية، وتعد اللغة الإفرنسية منتشرة بقدر اللغة العربية، والأرمن المهاجرون هم في الغالب من انحاء كيليكية يمتازون بنشاطهم ودأبهم، أما إليهود منهم فعلى قلة.

وفي جانب ما عددناه من السكان الأصليين تحتوي دمشق على عدد كبير من الغرباء ولاسيما الأكراد الذين أتوا مع صلاح الدين، والمغاربة الذين جلبهم الأمير عبد القادر معه، والفرس والأفغان والتركمان وحين رجوع الحجاج من مكة يزداد عدد هذه الاجناس والأزياء المتباينة ويلحظ وقتئذ في شوارع دمشق الأزياء المختلفة للعالم الإسلامي. واختلاف هذه الاجناس والأزياء وتعددها في دمشق يعطيها مزية خاصة، ومن المشاهد الأخاذة أن تتحول يوم الجمعة بعد الظهر نحو الساعة الواحدة، في أسواق دمشق، فتجد أنئذ أزياء ونماذج على غاية من الاختلاف تتدافع بالمناكب وسط الصخب والضجيج، وأكثر ما يلفت النظر هو أزياء نساء الغوطة، والملتحفات من الرأس إلى القدم ملاءة كبرة ذات أقلام عريضة أو رفيعة ملفحة من حرير توضع على الرأس وتلف على الذقن لا يظهر منهن سوى العيون، وألوان هذه المآزر تختلف

حسب القرى، أما النساء الدمشقيات فهن على العكس ـ ما خلا بعض الكبيرات في السن المحتفظات بالإزارات البيض ـ يلبسن ملآت سوداء فوق ثيابهن الداخلية، وهذه الملآت التي تسترهن تماماً مؤلفة من تنورة (خراطة)، وقناع أسود. أما البدويات فإما أن يكن حفاة أو ينتعلن جزمات ثقيلة ذات عقب من حديد وطرة. وهن يلبسن قميصاً مصبوغاً بالنيلة. ولهن وجوه قد يكون فيها شيء من الوسامة، يوشحنه ويزينه بقطعة من الذهب ملتصق بينها حجر فيروز يضعنها على الطرف الأيمن من أنوفهن (خزام) أما أزياء الرجال فهي ليست اقل اختلافاً، فكثير منهم يلبسون ثياباً أوروبية وعلى رؤوسهم الطرابيش إلا أن عدداً من الدمشقيين مازالوا محتفظين بالقنابيز الطويلة الحريرية المخططة والعباءات وبالعمائم ذات القماش المنقش بخطوط منفصلة (الأغاباني) وبعضهم بالسراول المتموجة في أسفلها ـ والبدو وكثير من القرويين يلبسون قميصاً طويلاً من نسيج القطن وعباءة من الصوف، وهذه إما أن تكون بلون واحد أو مخططة بالأبيض والبني، ويرى السائح أيضاً مشايخ يعرفون بعمائمهم ذات النسيج الرفيع الأبيض، ودراويش المولوية اللابسين طاقيات طويلة من اللباد (كلاه)[1].

وقد ضعفت مكانة دمشق منذ أن قامت السكك الحديدية مكان القوافل في أمر النقل والركاب. وإذا كانت دمشق ما برحت محتفظة بشيء من المكانة باعتبار أنها مركز تجاري، فذلك لأن موقعها الجغرافي جعلها مركز تموين للبدو، وسوقاً كبيراً بتصريف أقماح حوران، ثم إن فواكه بساتينها تصدر إلى الخارج حتى مصر. وهي بلدة صناعية قد احتفظت بمكانتها في صناعة الأقمشة الحريرية التي مازالت تنسج بآلات بسيطة جداً (نحو ٢٠٠٠ نول)، وقد زاحمتها المصنوعات الليونية[2] وتكاد تقضي عليها. ويصنع فيها أيضاً موبيليا من ذات الحفر والتزيين ومن الخشب المقلوب، على أن هذه المصنوعات تدل على مهارة أكثر منها على الذوق، ويصنع

(١) سوق ا ياط (الأزياء الدمشقية) و سوق الأروام (الألبسة ا ورانية والدرزية).

(٢) من ليون بفرنسا (م)

فيها أوانٍ نحاسية مشغولة بالمثقب وملبسة. أما بقية الصناعات التي كانت اشتهرت بها دمشق في القديم كالأسلحة والأواني الزجاجية والجلدية فقد اندثرت بالكلية.

وفي دمشق عدد كبير من الفنادق العصرية والمطاعم والمقاهي ودور السينما والمسارح والبارات، والمرائب والحمامات والمكاتب، أما المعابد، فالمساجد الجوامع فهي تعد بالمئات، والكنائس أيضاً بكثرة، فلليسوعيين والفرنسيسكان في باب توما والأخوات المريميات في الصالحية كنائس عديدة، ومثل ذلك للطوائف المارونية والروم الأرذثوكس والروم الكاثوليك.. الخ في باب توما، ولليهود تسع كنائس في حيهم ١٤/١٥/١٢/٩٣٨ .

التاريخ - إن اسم دمشق سابق لعهد اللغات السامية.. وقد ذكر في النصوص المصرية على عهد الأسرة ١٨ والنصوص الآشورية وفي سفر التكوين وتكرر ذكرها في العهدين، ولم يبدأ التاريخ بذكر هذه المدينة إلا منذ عهد سليمان حول سنة ٩٤٠ ق.م فقد كانت حينئذ عاصمة دولة آرامية عرفناها جيداً، رغم أنها لم تخلف أي أثر مادي. وقد حكمت هذه الدولة فيما بعد حمص وحماه والبقاع وأكناف الفرات، وكانت عدوة لدودة للعبرانيين، لاسيما في عهد أحد ملوكها حزائيل. فقد استأثرت بالسيادة على بلاد الشام وقامت أيضاً بمهمة الدفاع عنها ضد هجمات الآشوريين، فقد أوقف بنجدد هذه الهجمات مراراً على شواطئ العاصي (٨٧٦) ق.م إلا أن دمشق سقطت بعد حين في يد الآشوريين الذين استنجد بهم آجاز ملك يهودا فقام سرجون الآشوري بنقل معظم سكانها إلى أرمينية (٧٣٢) ق.م.

وفي عهد السلوقيين كانت دمشق تنتقل من يد إلى يد دون أن يكون لها صيت ذائع. وفي عام ٨٥ ق.م تملكها أمير نبطي اسمه (الحارث)، ثم انتقلت لمدة قصيرة إلى يد الملك تيفران الأرمني، ثم سقطت في يد نواب القائد الروماني بومبي في سنة ٦٦، وتبعت من ذلك الحين الولاية الرومانية السورية. وقد منحها أدريانوس رتبة عواصم المدن الرومانية، وجعلها سبتموس سيفروس قاعدة لولاية (سورية الفينيقية) وأدخل تحت جنحها كل البقاع وأنحاء حمص وأفاميا وتدمر، وفي حكم سيفروس الأول والثاني صارت مستعمرة رومانية. ومن ثم ازدهرت دمشق ورقت تجارتها وسكنتها جالية كبيرة من اليهود، واشتهرت في تواريخ النصرانية الأولى بتنصر القديس بولس

ومواعظه الأولى، ثم صارت بعدها بمدة مركز أسقفية كانت تعد في درجة تتلو درجة بطريركية أنطاكية. وفي العهد البيزنطي حازت دمشق بفضل مركزها مكانة غير يسيرة كنقطة استناد لحراسة حدود الصحراء وحول تيؤديوس الكبير هيكل جوبيتر إلى كنيسة على اسم القديس يوحنا المعمدان، إلا أن استيلاء الفرس عليها سنة ٦١٤ كان ضربة قاضية عليها.

وفي أيلول سنة ١٤هـ/٦٣٥م فتحت دمشق أبوابها للعرب، ثم تركها هؤلاء في الربيع التالي حينما اقترب جيش بيزنطي، ولكن بعد معركة اليرموك سقطت دمشق ثانية في يدهم بعد أن قامت بدفاع قصير أوجبت تثقيل الشروط في المعاهدة الحديثة (كانون الأول ١٥هـ/٦٣٦م وجعلت دمشق في بادئ الأمر في عهد الخلفاء مركزاً عادياً لبلاد الشام ملحقة بعاصمة الخلافة (المدينة) إلا أنها استقبلت فيما بعد والياً اسمه معاوية بن أبي سفيان، إذ استقل فيها ٤٠هـ/٦٦٠م وفي عهد أعقابه الخلفاء الأمويين صارت دمشق عاصمة العالم الإسلامي كله وحظيت مدة من الزمن بجلال وسناء منقطع النظير. إلا أن هذه السعادة قضى عليها فيما بعد العباسيون حينما استولوا على الخلافة ١٣٠هـ/٧٥٠ هـ وأهملوا عمداً شؤون بلاد الشام. ثم تبعت دمشق فيما بعد مصر في عهد الطولونيين ٢٦٤م والاخشيديين ٣٢٣ هـ والفاطميين ٣٥٩ ـ ٤٦٨ هـ، وقاست من المحن ألوانا لتوالي غارات القرامطة وثورات (٢٩١ و ٣٦٠) هـ جنود المغاربة ومطامع البدو. وفي خلال هذه القلاقل احترقت دمشق عدة مرات. وبعد أن استخلصها أمراء الترك السلجوقيين في سنة ٤٦٨ هـ من يد الفاطميين صار لدمشق أسرة مالكة خاصة لها، وهي أسرة البوريين ٤٩٨هـ/١١٠٤م أبناء ظهر الدين أبو سعيد طغتكين (٤٩٩ ـ ٥٤٩)، إلا أن هؤلاء لعبوا على الحبلين بين الصليبيين الذين طردوهم من تحت أسوار دمشق مرتين (١١٢٩/٥٢٤ و ١١٤٨/٥٤٣) وبين الاتابكيين السلجوقيين.

ولما انتزعها نور الدين محمود بن زنكي وملكها سنة ١١٥٤/٥٤٩ عادت دمشق عاصمة لبلاد الشام ومركزاً للجهاد ضد الصليبيين وحفظت هذا الوضع أيضاً في عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه الملوك الأيوبيين الذين كانوا يتناحرون بقسوة لأجلها. وإلى هذا العهد الذي يعد من أسطع العهود في تاريخها (القرن ١٣) بنيت

أكثر عمائر دمشق العظيمة الأثرية. ثم شرعت تأتيها غارات المغول ١٢٦٠/٦٥٩ ، وفي عهد السلاطين المماليك جعلت دمشق مركزاً لولاية بلاد الشام كلها. ثم عاد المغول لغاراتهم ونهبوها وأفحشوا فيها ١٣٠٠/٧٠٠ فشرعت في ذلك الحين تضعف وتخرب.

أول من ولي دمشق والشام كله في الإسلام (أبو عبيدة بن الجراح) عند فتحها في خلافة عمر، ثم حرف عنها ووليها (معاوية بن أبي سفيان) عن عمر أيضاً. فبقي هو وأعقابه من بني أمية إلى انقراض دولتهم بقتل (مروان بن محمد) آخر خلفائهم. وفي دولة بني العباس وليها في خلافة السفاح عمه (عبد الله بن علي) في سنة ١٣٢ ، فبقي في أيام السفاح وبعض أيام المنصور بعده، ثم صرفه المنصور بولاية (أبي مسلم الخراساني) الشام ومصر في سنة ١٣٧ ثم بعد قتله توالت أعمال خلفاء بني العباس إلى أن غلب (أحمد بن طولون) صاحب مصر فهو أول ملوكها بعد موت ملكها أما جور في سنة ٢٦٤ ، ثم ملكها بعده ابنه (خمارويه) ثم جيش بن خمارويه، ثم (هارون بن خمارويه)، وكان طغج بن جف نائباً عنه بها. وفي أيام هارون تغلب القرامطة على دمشق، ثم انتزعها منهم (المكتفي بالله) خليفة بغداد في سنة ٢٩١ وأقام عليها (أحمد بن كيغلغ) أميراً، فلما ولي الراضي الخلافة عزله في سنة ٣٢٣ وولى عليها (الإخشيد) وهو محمد بن طغج بن جف وذلك قبل أن يلي مصر فاستتاب عليها بدراً الاخشيدي، فانتزعها منه (محمد بن رائق) في سنة ٣٢٨ ثم عاد الاخشيد المذكور وانتزعها من ابن رائق وبقيت معه حتى سنة ٣٣٤ فوليها بعده ابنه (انوجور) وهو صغير، وقام بتدبير دولته كافور الإخشيدي الخادم. ثم انتزعها منه (سيف الدولة بن حمدان) صاحب حلب ثم انتزعها منه كافور الإخشيدي وولى عليها بدراً الإخشيدي الذي كان بها أولاً، ثم وليها (أبو المظفر أفورجو بن طغج) ثم لما مات ملكها مع مصر أخوه علي بن طغج ثم كافور بعده ثم أحمد بن علي بن الإخشيد وهو كان آخر الإخشيديين، ولما استولى جوهر قائد المعز الفاطمي على مصر أخذ دمشق أيضاً في سنة ٣٥٩ وولى عليها جعفر بن فلاح، ثم ولى المعز عليها ريان الخادم، ثم غلب عليها افتكين مولى معز الدولة بن بويه باسم العباسيين، ثم استردها المعز وابنه العزيز وفي أيامهما تغلب عليها قسام الحارثي، ثم تولاها بكتكين ثم بكجور

وغيرهما من عمال الفاطميين إلى أن تغلب علهيا (أتسز بن ارنن) الخوارزمي أحد أمراء السلطان ملكشاه السلجوقي في سنة ٤٦٨ وخطب للعباسيين ثم غلب عليها (تتش بن أبي أرسلان بن داود بن ميكائل بن سلجوق) في سنة ٤٩١ ثم ابنه دقاق مشاركاً أخاه رضوان صاحب حلب في الخطبة، ولما توفي دقاق سنة ٤٩٩ تغلب اتابك ابنه (طغتكين) وبقي حتى ٥٢٢ ثم ابنه (تاج الملوك بوري) إلى سنة ٥٢٦ ثم ابنه هذا (شمس الملوك اسماعيل) ثم أخوه شهاب الدين محمود بن بوري) حتى توفي سنة ٥٣٣، ثم ابنه (مجير الدين ارتق) وفي أيار تغلبت الفرنج على ناحية دمشق[1] ثم انتزعها منهم نور الدين محمود بن رنكي المعروف بالشهيد وملكها في سنة ٥٤٩ واجتمع له ملك سائر الشام معها ثم لما توفي خلفه ابنه الملك الصالح اسماعيل، ثم انتزعها منهم نور السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب مصر في سنة ٥٧٠ وقرر فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين، ثم ابن أخيه شاهنشاه بن فرخشاه بن أيوب في سنة ٥٧٤، ثم قرر فيها ابنه الأفضل نور الدين علي.

وبعد وفاة صلاح الدين انتزعها منه أخوه العزيز عثمان صاحب مصر بمعاضدة عمه العادل في سنة ٥٩٢، ثم سلمها العزيز إلى عمه (العادل) فقرر فيها ابنه (المعظم عيسى) صاحب الكرك والشوبك، ثم لأخيه (الكامل) صاحب مصر حتى سنة ٦٢٤، ثم بعده ابنه (الناصر صلاح الدين داود) ثم انتزعها منه (الناصر محمد بن العادل) واستخلف فيها أخاه الأشرف موسى، حتى سنة ٦٣٥ ثم ملكها أخوه (الصالح إسماعيل) فانتزعها منه أخوه (الكامل في ٦٣٥ ثم بعده (الجواد).

رغم طول ايأم الحكم التي تولاها تنكيز نائب سلطان مصر (١٣١٢/٧١٢ - ١٣٣٩/٧٤٠ ذلك من جراء فوضى الإدارة والسياسة في تلك الحقبة وفي سنة ١٤٠٠/٨٠٣ جاء تيمورلنك ونهب دمشق وأحرقها وضربها بقسوة تركها شبه خاوية مدة نحو نصف قرن، وجاءت بعد إدارة المماليك (الشراكسة القلقة) فلم تتمكن دمشق من جراء ذلك أن تنهض من كبوتها.

---

(١) لايقصد أن الفرنج قد احتلوا دمشق لأن هذا دث قط بل يقصد نزو م بأرياضها ونواحيها.

ولما استولى العثمانيون على دمشق سنة ١٥١٦/٩٢٢ صارت مركز باشوية هامة، ورأت بفضل حسن إدارة بعض هؤلاء الباشوات أمثال أسعد باشا (في القرن ١٨) عهداً جديداً من الازدهار، وكثرت فيها المباني العظيمة الأثرية، في عهد استيلاء المصريين[1] (١٨٣٢/١٢٤٨ ـ ١٨٤٠/١٢٥٦).

وفي سنة ١٢٣٥ هـ حدثت في المزة معركة كبيرة بين عبد الله باشا ودرويش باشا. وشاهدت أول تجارب التنظيم في الحكومة ولكن حوادث لبنان أدت إلى مذبحة هائلة في النصاري (١٨٦٠/١٢٧٧) أظهر خلالها الأمير عبد القادر مروءة عظيمة وعهد مدحت باشا كان بدأ تأسيس تنظيم نافع، وإلى هذا العهد تعود أكثر الشوارع الرئيسية في دمشق ثم صارت دمشق في وقت سريع بؤرة لقومية شامية لكثرة ما فيها من الطبقة المثقفة. وبعد الحرب صارت عاصمة المملكة السورية التي شادها فيصل، والذي أسقطتها إدارة الانتداب الفرنسي.

زيارة المدينة ـ في دمشق كثير من خطوط الترامواي الكهربائي، التي تجتمع في ساحة المرجة كما توجد في هذه الساحة مركبات (فياكر) وسيارات أجرة، لكن الأفضل أن يسير السائح مشياً كي يتمتع بمشاهدة حيوية الشوارع ويلحظ مناظر وحوادث جذابة وقد بدأت حافلات الترام سيرها بدمشق إثر احداث التنوير الكهربائي في المدينة في نيسان ١٩٠٧.

المدينة القديمة ـ يبدأ السير من ساحة المرجة، (ساحة الشهداء) لأن أحمد جمال باشا شنق فيها في نيسان ١٩١٦ بعض أحرار العرب وهذه تعد مركز دائرة البلدية الحديثة، وفي وسطها قامت حديقة صغيرة تحيط بعمود تذكاري من البرونز أقامه ناظم باشا في سنة ١٣١٦ ذكرى لتمديد السلك البرقي من دمشق إلى استانبول أعلاه تمثال مصغر لجامع الحميدية في اسطنبول ـ ومن المرجة يتبع سكة حديد الترامواي نحو طريق السنجقدار، وكان فيه حي كبير احترق في سنة ١٣٤٧ وثمة جامع السنجقدار المبني في سنة ١٢٣٦، وقد سمي بهذا الاسم لوجود ضريح فيه لعباس بن مرداس حامل لواء (سنجق) الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي واجهته الحجرية

---

(١) يقصد حكومة مد علي باشا الذي أرسل ابنه ابراهيم باشا لاحتلال بلاد الشام.

العالية في الحجر الأسود والأبيض وفيه باب مقرنص لطيف كتب عليه أبيات تركية فيها تاريخ ١٢٣٦ هـ ثم يصل إلى مدخل سوق مسقوف اسمه الخوجه المبني فوق خندق القلعة القديم في سوق الخوجه ثم يخرق نحو سوق الأروام[1]، فهذا السوق مع سوق الحميدية الذي يتصل به ويطيله يؤلفان أجل شارع تجاري في دمشق. وهنا يوجد باعة الأشياء والسلع الأثرية، وتجار السجاد العجمي، وكذلك السلع الأوروبية.

وإن كانت الحوانيت التي على جانبي هذين السوقين لا تحتوي على شيء من المزايا البلدية، إلا أنهما لا يخلوان من المتع من جراء الحركة والازدحام السائدين فيهما. ففيها يوجد هؤلاء الدلالون الذين يركضون من حانوت إلى آخر يحملون الأشياء المعروضة للمزاد ويرفعون عقيرتهم بالنداء عليها، وباعة الليموناده المثلجة الذين يحملون خابية كبيرة من الزجاج على صدورهم ويدقون بطاسات نحاسية دقات خفيفة متتابعة، وعدد لا يحصى من الباعة الجوالين ينادون على فواكههم أو خضرواتهم وهم يسوقون أمامهم حميرهم السود أو البيضاء، وقد زينوا أعجازها برسوم أحدثوها بالمقص، وحلاقون يحلقون الرؤوس في العراء، وترى بائع القهوة يدخل إلى حانوت ويخرج من حانوت وهو حامل بيده اليمنى ركوة وفي اليسرى فناجين صغيرة عديدة، ومتسولات وعميان يرتلون أناشيد ويستجدون الصدقات، ومجنونون نصف عراة يمرون دون أن يحتج أحد على إزعاجهم، لأنهم ينظر إليهم كقديسين.

وفي وسط سوق الحميدية طريق إلى اليسار يذهب نحو إلى سوق العصرونية نسبة إلى المدرسة التي احترقت في الحريق الكبير سنة ١٣٢٨ هـ الأشهر ولم تعد إلى ما

---

(١) وعلى سوق الأروام لا تزال هناك أسواق قد ة معقودة السقوف ضيقة تباع فيها الفرش والبسط والوسائد وأمثا ا وقد قامت هذه الأسواق مكان (دار العدل) مسكن نواب دمشق العصور السابقة وقد ب دار العدل نور الدين الشهيد و جنو هذه الأسواق كان هنالك حي كب كان يدعى (زقاق سيدي عامود) نسبة لبقايا أعمـدة الشارع ا ستقيم ال كانت فيه احترق هذا ا ي بقنابل ا دافع ال أطلقت عليه من قلعة غورو ا زة احـدى ليا تشرين الثا ١٩٢٥ نظمته البلد وقسمته إ أربع شوارع مستقيمة تقاطع ثلاثي شرع أصحابه بنـاء منازل حديثة فيه ذات طبقات وقد يت الشوارع الأربعة بأ اء طارق بن زياد وغسان وعبد القادر وأبو عبيـدة وصفي.

كانت وبقي اسم السوق منسوباً إليها، فيه حوانيت صناع نباريش النراجيل وتجار الأواني الزجاجية، وفيه طريق في أوله دار الحديث الأشرفية[2] على اليمين وفي وسطه المدرسة العادلية الصغرى إنشاء زهرة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب، كانت قد حرقت وبقيت جدرانها قائمة، وتجاهها (النورية الصغرى) كانت حرقت وبقيت جدرانها أيضاً بعد أن تجتاز (بنكو دي روما) المدخل الشرقي للقلعة.

بنيت قلعة دمشق وسط أرض منبسطة وليس على نشز كما هو الحال في بقية قلاع بلاد الشام، وسبب ذلك لأنها خلفت مكان حصن روماني قديم، لاتزال بقاياه ماثلة في داخل السور ويعود أكثر مباني هذه القلعة الحاضرة إلى القرن ١٣ سنة ٦١٤ ـ ٦٧٦هـ/١٢٨٠م ومابعدها ، إذ إن الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين قام بهذا البناء مكان الحصن القديم الذي لم يعد يصلح للدفاع بحكم الفنون الحربية التي تغيرت حينئذ عما قبل. وظلت هذه القلعة معتنى بأمرها إلى حين استيلاء العثمانيين سنة ١٥١٦/٩٢٢. ولا تزال هذه القلعة سالمة في الجملة وهي تحتوي على سور مستطيل الشكل، يتبع في ا لشمال مجرى نهر بردى الذي يقوم لها مقام الخندق، وهذا السور حصن باثنى عشر برجاً مستطيلة الشكل، والباب الشرقي (القرن ١٣) قد ستر بعقد من الحجر المقرنص، وهو يعد آية في عداد هذا النوع من النحت، ويعد أحد خصائص فن الريادة العربية.

وإذا ظل سائراً في سوق الحميدية يصل حالاً إلى أمام (مدخل الهيكل) الذي يخطئ من يظنه قوس نصر وبعد بضعة أمتار وراءه ينفتح مدخل الجامع الأموي.

قام الجامع الأموي مكان الهيكل المخصص لجوبيتر الدمشقي، الذي بدله الرومان عن الإله الشامي القديم حدد الذي كان يعبد في عهد الدولة الآرامية الدمشقية.

وكان لهذا البناء سور أولي خارجي طوله ٣٠٠ متر، وهو الآن قد غطى تحت أروقته سوقاً، وكان لهذا السور بابان عظيمان لكل منهما مدخل فخم. فالباب

---

(٢) نسبة لبانيها ا لملك الأشرف موسى بن العادل سنة ٦٣٠ وقد احترقت عام ١٣٣٠ ر مت ترميماً خفيفـاً (وصفي)

الغربي الذي قد حفظ أكثر من غيره هو الذي صار يعرف خطأ بأنه قوس نصر و (الفرونتون) فيه الذي زخرف زخرفاً ثرياً قد ركب فوق ستة أعمدة طول علوها ١٦ متراً، عليها تيجان كورنثية جميلة أما سور الهيكل الأصلي المزخرف بدعائم، فهو يؤلف اليوم جدار الجامع ويظهر أنه كان له برج في كل من زواياه. وكل هذه المباني قد انتهى تشييدها فيما يظهر في القرن الثالث الميلادي. فالامبراطور تئودوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) هدم الهيكل الذي كان قائماً وسط السور الداخلي وبني في لصق الجدار الجنوبي من هذا السور بازيليكا ذات ثلاثة صحون وأسواق تتصل بباحة ذات قبة Transpent a compole وتتصل في الوقت نفسه بأعمدة تربط الأبواب بالمدخل الكبير.

ثم جعلت هذه البازيليكا تحت حماية القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى) وفي سنة ٧٠٨م عزم الوليد على أن يحلي دمشق بمسجد فخم يتناسب مع عظمة الخلافة الأموية فصمم باحة كنيسة القديس يوحنا للمسجد، إلا أن التغيير الذي أجراه فيها لم يبدل فيما يظهر منظرها العام، وقد اهتم هذا الخليفة بالتزويق والزخرف، فجاء آية في الإبداع، فمنها الفسيفساء المذهبة، والمرصعات والنقوش بالرخام الثمين، والتلبيس الذهبي جعلت لهذا المسجد الحديث زهواً وفخاراً لدمشق أجمع العالم كله على الإعجاب به وعد من بعد أحد عجائب العالم، وقد احترق هذا المسجد ونهب مراراً عديدة، أفظعها ما أجراه المغول، وقد حولوه وقتئذ لمكان فحش إلى أن احترق احتراقاً كاملاً سنة ١٨٩٣، وقد رممته الحكومة التركية فيما بعد ترميماً لم يكن طبق الأمانة المرغوبة، إلا أنه على الرغم مما هو عليه مازال له منظر جميل بحكم ما له من الوسعة والعظمة والأطلال التي ما برحت تدل على رونقه وبهائه القديمين).

يدخل إلى الجامع الأموي من بابه الغربي المعروف بباب البريد، ولا يزال لهذا الباب تاجان عربيان من البرونز النافر وهذا الباب نوع من المنفذ جدرانه مزخرفة بالقاشاني (القرن ١١ هـ /١٧م وقبابه بالفسيفساء وهذه الفسيفساء مصنوعة على الطراز البيزنطي بمكعبات من الزجاج الملون أو المذهب وقد اكتشفها حديثاً المسيودي السوري وأخرجها من تحت طلاء الكلس الذي كان ممدوداً فوقها، وهي

كلها من العهد الأموي، ما خلا قليلاً من الرتوش الذي يعود للقرن ١٣/٦ بدلالة كتابة لبيبرس موجودة في الجدار الجنوبي، أما الصور على الفسيفساء المذكورة فهي مختلفة، وليس بينها أي صورة للبشر قط، بحكم منع التصوير في الإسلام وهي في الغالب صور أشجار وأوراق، وأغصان الخرشون ومبانٍ، ووجهة المنفذ (الباب) نحو صحن المسجد محفوظ خاصة حفظاً جيداً وغني بالألوان، لكن أجمع مجاميع الألوان هي تحت الرواق الغربي للصحن، فترى فيها مباني مختلفة امتدت على شاطئ نهر تحت ظلال أشجار باسقة. وعلى قبة الخزنة في الشمال سطح مزخرف بصورة نخلة.

والحرم ذو طول قدره ١٣٠ متراً أعيد بناؤه حسب وضعه الأصلي ولكن الزخارف كلها جديدة، وينقسم هذا الحرم إلى ثلاثة صحون تفصلها صفوف من الأعمدة الكورنثية التي كان لها قبلاً تيجان مذهبة وقد غطيت بسقوف، وفي وسط الحرم القبة التي رممت ترميماً غير متقن تحملها أربعة دعائم عظيمة ضخمة (يلحظ على الدعامة الشمالية الشرقية قطعة من الفسيفساء تحمل كتابة عربية).

أما المحراب فهو حديث. وفي الجهة الشرقية من الحرم بنية صغيرة يقال إن فيها رأس القديس يوحنا المعمدان (النبي يحيى) الذي قد يكون اكتشف في خشخاشة أثناء قيام الوليد بن عبد الملك بإشادة هذا الجامع. أما صحن الجامع فمحاط بالأروقة ولا تزال يلحظ فيها في عدة أماكن وجود مصفحات رخامية (في المدخل الشرقي) وبقايا من قطع الفسيفساء في جهة ما بين الصحن والحرم) وفي قسم هذا الصحن الغربي يوجد قبة صغيرة راكبة على أعمدة، اسمها قبة الخزنة، كانت تحتوي على بيت مال الأمة في أول عهد العرب.

وللجامع الأموي ثلاث مآذن، أعلاها في الجنوب الشرقي تدعى مئذنة عيسى، ويزعم المسلمون أن عيسى يهبط إليها إلى هذه الدنيا ويقاتل الدجال الذي يأتي قبيل قيام الساعة، والمئذنة الجنوبية الغربية مثمنة الأضلاع جميلة وواسعة البناء قد بنيت فوق أحد أبراج هيكل جوبيتر، وهي أجمل مئذنة من حيث الهندسة والنقش والأصول المعمارية قامت على مساحة ٤٨م٢ بارتفاع ٦٦م فمهندسها عربي اسمه سلوان بن علي وقد تمت عمارتها سنة ٨٨٥ وبانيها السلطان الملك الأشرف قاتباي

كتب اسمه على جهاتها الأربع، ولها شكل ممشوق خاص بها بناها في القرن ١٥/٩ السلطان الملك الأشرف قاتباي على الطراز المصري. أما المئذنة الشمالية فتدعى مئذنة العروس وهي من العهد الأموي، لكن قسمها الأعلى حديث.

يخرج السائح من باب المسجد الشمالي الملبس بالبرونز النافر (من القرن ١٤) ويمر بين صفين من الأعمدة البيزنطية ويجد على يمينه باب المدرسة المشيساطية التي بناها في سنة ٣٤٠ أبو القاسم على السلمي الشميساطي العالم الفلكي المهندس، وكانت قبلاً دار الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد كانت جددت في السنين الأخيرة لتكون مدرسة نظامية لتدريس العلوم الإسلامية فضاع المشروع بين تسويف الحكام ونسيان الأمة وانتهى بها الأمر إلى أن قد احتلها الآن مريد مريدو الطريقة التيجانية وجعلوها إحدى معاقلهم، ثم ينحرف نحو اليسار بين مدرستين قديمتين المدرسة الجقعمانية وتجاهها خانقاه الجقعمانية جددها بعد احتراقهما سيف الدين جقعمان في سنة ٨٢٢. وفيها ضريحه وهي اليوم خراب إلا واجهتها الجميلة فيرى فوراً على يساره ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي المتوفى سنة ١١٩٣/٥٨٩م تحت قبة ذات أضلاع.

ظل هذا الفرع قروناً مهملاً إلى أن زاره الأمبراطور الألماني سنة ١٨٩٨، فرممه وقتئذ وأهداه (تابوتاً) جديداً، علق فوقه مصباح فضي منقوش باسمي الامبراطور المذكور والسلطان عبد الحميد الثاني، إلا أن أكثر ما يسترعي النظر هنا ذلك التابوت الخشبي المزين بالنقوش العربية البديعة (القرن ١٢) ويظن أن هذا التابوت لسكرتير السلطان صلاح الدين، والجدار الغربي للضريح مزخرف بالقاشاني من القرن ١٧ وفيه كتابة تركية من مضامينها شكر السلطان صلاح الدين لتخليصه واسترداده القدس من أيدي الكفرة.

وإذا خرج من هذا الضريح واستمر سائراً نحو الغرب يصل حالاً إلى ما بين المدرستين الظاهرية على اليمين والعادلية على اليسار. فالمدرسة العادلية الكبرى تحتوي على قبر الملك العادل سيف الدين والذي يزعمونه زعماً لا أصل له في الغالب.

إن هذه المدرسة التي تم بناؤها سنة ١٢١٨/٦١٨ تمتاز بريازة ذات متانة عظيمة وفيها الآن المجمع العلمي العربي والمتحف الذي يفتح في كل يوم ماعدا الثلاثاء. وفي

هذا المتحف[1] خاصة مجموعة جميلة من أنصاب الموتى التدمريين ومجموعة بديعة جداً من الأواني الزجاجية الرومانية والعربية، وفي البهو الخاص بالآثار الإسلامية وفيه قبة تحتها ضريح الملك العادل (قطرها ١١ متراً) يلحظ أيضاً بضع قطع من المخطوطات الملونة ومحمل الحاج الشامي المنسوج من المخمل المطرز بالذهب).

أما المدرسة الظاهرية المبنية سنة ١٢٧٩ ففيها ضريح الملك الظاهر بيبرس من ألد أخصام الصليبيين، وقد دفن فيها هو وابنه الملك السعيد سنة ٦٧٦ هـ (يدخل إلى هذه المدرسة من بوابة سامية الارتفاع زين أعلاها بالأحجار المقرنصة، المزحلقة المصقولة عجيبة جداً، ونقشت فيها سطور ذات خط غاية في الحسن ذكر فيها اسم الملك السعيد واسم المهندس ابراهيم بن غنايم، أما القبة التي فيها قبر الملك الظاهر وابنه الملك السعيد بركة خان فهي وحيدة بنقوشها وجميل بنائها في كل مصانع الشام، فقد جعل مكتبة، له جدار ملبسة بفسيفساء بديعة من الرخام الملون، وله افريز (طنف) من الفسيفساء البديعة ذات الفصوص الذهبية، صور بها أشجار ومبانٍ، في دائره كله. وهنا أجمل ما حفظته دمشق من الآثار الجميلة للفن العربي).

يستمر السائح نحو الجنوب من سوق باب البريد ويجتاز سوق الحميدية (من أمام باب البريد) والمدخل الروماني، فينفذ إلى سوق تزدحم فيه الأرجل اسمه سوق الحرير، فيجد فيه حوانيت متراصفة تزخر بمختلف الأقمشة الأوروبية القطنية، وفي يسار هذا السوق خان حديث كان فيه سوق الرقيق قديماً، وعلى اليمين خان قديم اسمه خان الجمرك غطي بقباب عديدة (من القرن ١٦ - ١٧) وفيه حوانيت للأقمشة النسائية تزدحم فيه النساء بالمناكب. ثم في سوق الحرير على اليسار أيضاً سوق حمام القيشاني (من القرن ١٧) بناه درويش باشا المتوفي سنة ٩٨٦ الذي حول إلى سوق في حوانيته تباع الأقمشة المصورة والمخرمة والمطرزة، وفي واجهته نافذتان من الستيلاكيت وفي جداره الغربي بقايا قطع من القيشاني صنع دمشق، وإذا سار على استواء بين صفين من الحوانيت ذات الطراز القديم يصل إلى مصلبة طريقين فيهما

---

(١) أسس ا تحف الوط عهد ا لك فيصل ١٩١٨ - ١٩٢٠ قبل الاحتلال الفرنسي وقد كان مقر ا تحـف الأول مكان ا درسة العادلية.

باب قديم لهيكل جوبيتر، لا تزال عتبته العليا وعضاديته المزخرفة وطرف من السور القديم ذي الأحجار الضخمة مائلة.

وإذا انحرف السائح إلى اليسار يمر تحت ساباط[1] وإذا سار في سوق الحرير يمر من أمام المسجد الذي فيه قبر السلطان نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٣ هـ وهي بعض دار هشام بن عبد الملك، وإذا دخل سوق الخياطين يجد في وسطه على اليسار المدرسة الإسماعيلية نسبة لإسماعيل باشا العظم في سنة ١١٤١ فيه مدرسة مهجورة صارت مأوى للفقراء من بناء عبد الله باشا العظم في سنة ١٢١٠ ثم ينفذ بعد مسافة إلى أول سوق السلاح، وثمة على اليمين المدرسة الفارسية من بناء الدوادار سيف الدين فارس التميمي في سنة ٨٠٨، وعلى يساره خان ثم يبلغ باب قصر بيت العظم ثم يمر من البزورية وثمة بيت العظم.

شرع في بناء هذا القصر سنة ١١٤٩/١١٦٣، وانتهى في سنة ١١٧٤، وكان مسكن أسعد باشا العظم أحد مشاهير ولاة دمشق في عهد العثمانيين وقد اشترته الحكومة الفرنسية من آل العظم في سنة ١٩٢٢ وجعلته داراً للبعثة الأثرية الفرنسية ورممت خرابه القديم، إلا أن قاعته الجميلة كانت وقسم (السلاملك) البراني أصابها حريق في ثورة دمشق الكبرى سنة ١٩٢٥/١٣٤٤ ثم جددت.

إن باحة هذا القصر التي كانت مختصة بالحريم بهيجة جداً، لجمال بلاطها ورخامها وأحواضها، وأشجارها وفي اليمين بقايا القاعة التي كانت البهو الكبير الخاص باستقبال الزائرين، وجدران هذه القاعة مصفحة بالرخام والقاشاني. وكان لها قبلاً نوافذ كبيرة ذات إطارات معدنية تحيط بألواح الزجاج، وسقف غاية في الزخرف. وفي هذا القصر حمام جميل فيه أقسام ومقاصير عديدة ذات حرارة مختلفة، وفي الجهة الجنوبية من القصر يوجد إيوان جميل يستعمل في الصيف، وهذه الأواوين يوجد منها في كل دور دمشق. والمكتبة والديوان والبهو الموجودة تحت الأقواس فهي نماذج ممتازة من الصناعة الخشبية المصبوغة بالصباغ المعروف بالعجمي التي اشتهرت بها دور دمشق. ويلاحظ هنا خاصة غنى السقوف بالأصبغة،

---

(١) الساباط هو البناء (أو جزء من بناء) يصل ما بـ بنائ ويكون فوق شارع.

والروعة والجمال من فحص التلبيس والتزيين الداخلي على الجدران يبدو لك كثير من تفاصيل التزيينات المنقطعة النظير في الروعة والجمال. وفي آخر الباحة ترى أسداً حثياً من حجر البازلت الأسود جلبوه من قرية الشيخ سعد في حوران (القرن ١١ ق.م) وخابيتين كبيرتين أثريتين. أما قسم (السلاملك) وهو المختص بالرجال من هذا القصر فقد احترق معظمه وسيُجدد بناؤه.

بعد الخروج من قصر بيت العظم يدخل السائح سوق البزورية، وفي أوله حوانيت كبيرة لصنع المربيات والسكاكر لاسيما تلك التي تعمل بلباقة من الثمار والفواكه الدمشقية وأخصها المشمش، ولمنتوجات هذه الصناعة التي اشتهرت بها دمشق واختصت شهرة في الخارج ورواج غير يسير.

وفي هذا السوق على اليسار حمام من آثار نور الدين محمود زنكي، ثم خان عظيم بناه أسعد باشا العظم بعد بضع سنوات من بنائه القصر، وهو أجمل خانات دمشق طراً وأجمل ما فيه واجهته وبوابته.

ثم يدور إلى اليمين وينفذ إلى سوق مدحت باشا الممتد نحو الغرب بامتداد (الشارع المستقيم) الروماني وهو من أعظم الأسواق حركة في دمشق لكثرة مافيه من حوانيت الأقمشة والمنسوجات القطنية كالعبي والفرش والحبال ولأنه ممر كبير نحو الأحياء الشرقية كالشاغور والخضيرية ومئذنة الشحم والخراب وحي الأمين ويمكنه أن يبدل اتجاهه فينفذ إلى سوق القطن، الذي يزدحم فيه القرويون والبدو دائماً. وفيه يلحظ مئذنتان جميلتان لجامعين اسمهما (القلعي) و (سيدي هشام)، فمسجد القلعي قال عنه أسعد طلس "مسجد صغير" (لكن) بجانب بابه تقوم المنارة الحجرية المربعة الرائعة ذات الزخارف البديعة والمقرنصات والنقوش، و (هي) تزين (مسجد القلعي) كان في القرن الحادي عشر أعظم بكثير مما هو عليه الآن. ومسجد (سيدي هشام) أيضاً صغير له منارة حجرية مثمنة بديعة في بنائها وزخرفتها. وحوض ماء (سبيل) عربي جميل (من القرن ١٤ و ١٥). وهذان السوقان يصلان إلى شارع الدرويشية أمام جامع كبير. وهنا يتلاقى خط الترمواي القادم من حي الميدان، فيتبعه سائراً نحو الشمال. فيرى على يمينه حوانيت صناع الخراطين الذين يدورون مخرطتهم بباهم رجلهم، ثم يصل إلى (جامع الدرويشية) وبناه في القرن ١٦، درويش

باشا المتوفى سنة ٩٨٦. وهو يحتوي على سطوح مزخرفة بالقيشاني الدمشقي عجيبة جداً. (من القرن ١٦) وأجمل قطع هذه القاشاني في داخل حرم الجامع وداخل ضريح درويش باشا المبني تجاه الجامع.

ثم يصل فوراً إلى مدخل سوق الحميدية، ويدور هناك إلى اليسار نحو شارع عريض جميل يدعى شارع النصر، فتحه القائد العثماني الشهيد أحمد جمال باشا أثناء الحرب العامة وفي أول هذا الشارع على اليسار (سراي المشيرية) القديمة وعلى يمين الشارع نفسه منشآت حديثة للأوقاف وللمصالح العقارية، وغيرها ثم يتقدم إلى الأمام فيلاقي على اليمين جامع تنكز ذا الوجهة الواسعة الممتدة طول الشارع، وكان اتخذ منذ سنة ١٢٧٠ هـ مدرسة عسكرية ظلت تحوي ضباطاً وقواداً نحو ٨٠ سنة إلى أن تركته العسكرية فاحتلته جمعية دينية اسمها الجمعية الفراء واتخذته مدرسة ثم بعده بقليل وعلى اليمين أيضاً التكية المولوية على عتبة بابها تاريخ ٩٩٣ وقد بني لها أخيراً مسجد ومئذنة جميلين، وعلى اليسار بناء إدارة البرق والبريد والهاتف ومحطة السكة الحديدية الحجازية. ثم على اليمين فندق كبير فخم هو فندق قصر الشرق. وإذا ظل سائراً سوياً بمحاذاة نهر بانياس يقترب من موقع البرامكة ويمر من أمام المستشفى الوطني وهو من آثار ناظم باشا تم تأسيسه في سنة ١٣١٧ هـ والجامعة السورية وينحرف نحو اليمين فيلاقى جامع السلطان سليم وتكية السلطان السليمية التي بناها السلطان سليمان القانوني وفي شرقه التكية السليمية التي بناها السلطان سليم الأول.

بُني هذا الجامع الجميل ذات المئذنتين المشوقتين وهي من أجمل آثار العثمانيين هندسها سنان الشهير المتوفى سنة ٩٦٦ والقبة العظيمة، على الطراز التركي وهي في الغاية بناء وهندسة وأوقافاً عظيمة وأمام حرمه رواق كبير محمول على أعمدة أكثرها من حجر الغرانيت، وشيد حول صحنه مطابخ ومقاصير عديدة لايواء طلبة العلوم الشرعية ولكل من هذه المقاصير مدفأة وفوق كل منها قبة، وعلى أبوابها قطع جميلة من القيشاني الدمشقي (القرن العاشر ١٦) ذرعها ١٢٣× ٩٢.

وفي غربي هذه التكية تكية أخرى أصغر من الأولى بناها السلطان سليم سنة ٩٢٢ إلا أن أكثر مقاصر الجامع المذكور قد أشغلته مختبرات ومكاتب المعهد الطبي العربي وحسناً ما فعلت وذرعها ٤٢×٤٠.

ثم من أمام حوانيت حقيرة البناء كلها مرائب ومعامل لإصلاح السيارات ويمكن الرجوع إلى المدينة إذا سار من أمام التكية متبعاً ضفة نهر بردى اليمنى فيمر من أمام بناء فيه معهد الحقوق ودور المعلمين الابتدائية ثم يقطع الطريق العريض الصاعد نحو محطة السكة الحجازية، ثم يمر من أمام دار المصرف السوري وإدارة الشرطة و (سراي الحكومة) التي بناها ناظم باشا في سنة ١٣١٧ هـ وكان مكانها (حديقة بلدية) ومن يسار دار البلدية فيجد نفسه في ساحة المرجة التي بدأ منها، وفي شمالي هذه الساحة فندق كبير باسم (أمية) وداربن كبيرتين الأولى للعدلية والثانية للبرق والبريد والاثنان قديمتان وتحتاجان للتبديل.

الصالحية - قرية كبيرة من ضواحي دمشق في سفح جبل قاسيون، كانت فيما مضى منفصلة عنها ثم اتصلتا منذ ثلث قرن جادة طويلة على جانبيها دور حديثة ما برحت تتسع نحو الشرق والغرب وتتضخم.

لا ريب في أن اسم الصاليحة نشأ من كثرة ما في هذه الضاحية من الأضرحة والمزارات والمدارس والمساجد والمستشفيات التي شيدت فيها في القرن ١٣ ويقطن في الجانب الشرقي منها المسمى بحي الأكراد جالية من الكرد الذين كان بدء مجيئهم وهم من عهد صلاح الدين ثم تتابع ورودهم والجانب الغربي منها المسمى بالمهاجرين فهو حديث العهد ويزداد اتساعاً وعمراناً يوماً بعد يوم.

لابد من زيارة حي الصالحية وإن كانت مبانيها الأثرية عسيرة البلوغ، يجد فيها السائر نموذجاً مفيداً من الأحياء الآهلة، لاسيما من هذا الحي يمكن الإحاطة بوضع دمشق ومشاهدة منظرها العام ورياضها وغياضها المحيطة بها.

يركب السائح من المرجة إما بسيارة أو الترامواي وهذا الخط طوله من المرجة إلى المهاجرين نحو ٣,٥ كم ويقصد الجسر الأبيض على نهر تورا أحد فروع بردى فيمر من شرقي المستشفى العسكري أحد مآثر إبراهيم باشا ودار مجلس النواب السوري ويمر السائر من أمام مسجد الماردينية وعلى سقف باب الدخلة عتبة خشبية

جميلة منقوشة، ويصعد نحو الشمال في (طلعة حمام المقدم) التي لا تزال على شكلها الأثري، ثم إلى أن يمر من فوق نهر يزيد أحد فروع بردى أيضاً، ويصل إلى شارع حي الصالحية الممتد طولاً من الشرق إلى الغرب فيجد نفسه أمام مدرسة الأمير جهاركس فخر الدين الصلاحي ٦٠٨/١٢١١ درست هذه المدرسة ولم يبق منها سوى قبتين عظيمتين أعلاها متهدم وجدرانها حجر بخيت وكان نائباً عن الملك العادل ببانياس وقلاع تبنين وهو من أرباب الهمم العالية وفيها ضريحه وله قبتان وهنا في الشارع حركة مرور وعبور وبيع وشراء وحوانيت بدالين وبقالين ومزينين وغيرهم.

ثم يستمر السائح صعداً نحو الشمال ماراً من الجهة الشرقية للمدرسة الجهاركسية، في زقاق صاعد حوله بيوت جلها من اللبن أبوابها قديمة أثرية، وأرضها وباحاتها كانت أخزمة إلى أن يصل إلى مقبرة وضعت في سفح هذا الجبل المسمى قاسيون. ولا فائدة من التوغل أكثر من ذلك إلى قمة جبل قاسيون، إذ ليس المنظر أبعد مدى ورؤية سلاسل لبنان الممتدة في الغرب لا توازي الجهد في هذا المحتاج لأكثر من ساعة.

والواقف حول المقبرة يرى بادىء بدء عن كثب سطوح بيوت حي الصالحية القديمة والحديثة والمئذنة التي تنحدر بسرعة كالدرج وعن بعد يرى مدينة دمشق القديمة، والبساتين الخضراء الملتفة تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم، وفي الوسط يرى مآذن الجامع الأموي الثلاث وقبته الشامخة قد سمت نحو العلا وعن بعد في الجنوب يرى حي الميدان الممتد كالخط الرفيع، وعلى اليسار حي النصارى والصحراء تبتدئ تقريباً عند حدود الشجرة الأخيرة من بساتين الغوطة وفي كل الجهات تتجلى لناظرها أجمل مناظر دمشق وما يحيط بها من الآفاق المسدودة بآكام وجبال، منها على اليسار الآكام الذاهبة نحو طريق تدمر، ومنها على اليمين الأوعار المتموجة في حوران والصفا.

ويرجح أن يأتي السائح إلى مشاهدة هذه المناظر قبل الغروب فيجد نفسه حينئذ في ظل جبل قاسيون ويتمتع أكثر بمنظر المدينة.

ويمكن الوصول إلى هنا أيضاً إذا ركب حافلة الترام من المرجة حتى جامع الشيخ محي الدين القرن ١٦ وطول هذا الخط نحو ١ كم وفيه وسط بهو مزين

بالقيشاني الحجري ضريح الشيخ الفيلسوف العربي الشيخ محي الدين بن محمد الحاتمي الاندلسي المعروف بابن العربي المتوفى سنة ١٢٣٠/٦٣٨ وحول الضريح شبك من الفضة القرن ١٩ وفي جانبه ضريح الأمير عبد القادر الجزائري[1] وضريح واليين عثمانيين أمين باشا سنة ١٢٧٧ وناشد باشا في سنة ١٢٩٣ وإذا سار من الجامع ومنها نحو الشرق في طريق حي أبو جرش وحي الأكراد بجد مدارس أثرية عديدة منها في حي أبي جرش مدرسة الصاحبة وهي ربيعة خاتون أخت صلاح الدين الأيوبي، بنتها لمحمد بن الفرج بن الجوزي ودفنت فيها في سنة ٦٣٤، وهي اليوم مدرسة ابتدائية ثم في حي الأكراد يصادف المدرسة الركنية بناها الأمير ركن الدين منكورس من مماليك الملك العادل أبو بكر وضريحه فيها وفي حي أبي جرش جامع الحنابلة بناه أبو عمر محمد المقدسي الجماعلي وكان ديراً قديماً، وهو أول من نزل الصالحية في سنة ٤٩٨ وسميت باسمه لصلاحه ثم أكمله الأمير المظفر لابن الدين كوكبوري صاجب اربيل، وفي صحنه أعمدة أحدها من الغرانيت ذات تيجان أثرية وفي حرمه ثلاث مزاعب ذات سقوف خشبية (جملون) وفيه منبر خشبي بديع النقوش تاريخه ٦٠٤، ويحج النساء إلى هذا الجامع كل سنة في شعبان ويطرقون حلقة بابه ويزعمون أنها تنفع لتقدير حظوظهن، وفي هذا الحي المدرسة العمرية، بناها أبو عمر المقدسي، وهي خراب، كانت عامرة إلى أواخر سني الحرب العامة.

ونحو الشرق في طريق بين المدارس والسكة يجد على يمينه التربة التكريتية التي بناها تقي الدين الصالح التكريتي سنة ٦٩٨ وعلى يساره المدرسة المرشدية، وفيها ضريح خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى في سنة ٦٥٠ ولهذه المدرسة قبتان ومئذنة مربعة مهجورة تعد أقدم مئذنة في دمشق ثم المدرسة القرنثية (داخل بيت المناع) وفيها قبة مخصصة الداخل ذات نقوش بديعة.

وقد هدمت حديثاً الدور وأقسام السور الذي كانت على يمينه وجعلت ساحة عامة. المذكور نحو الجهاركسية (ونحو حي ابي جرش ثم حي الأكراد الذي بعده

(١) نقلت رفاته مؤخراً إ ا زائر

يحوي على يمينه ويساره آثار جدران وأبواب مدارس وزوايا كلها قد اندثر وتبدلت معالمه).

أما المنظر الذي وصفناه فإنه بالإمكان رؤيته من آخر حي المهاجرين في غربه الأقصى وقرب قبة السيار[1] لكنه اقل إشراقاً ونفعاً.

حي النصاري - حي النصارى أو حي باب توما قد كان خرب بالمرة في حادثة سنة ١٨٦٠/١٢٧٧ التي أوجبت وقتئذ مداخلة فرنسا، وقضت على أكثر من ٨٠٠٠ شخص رغم إسعاف الأمير عبد القادر الجزائري ذلك فإن مزايا هذا الحي أقل من غيره لولا وجود الذكريات الخاصة بالقديس بولص.

يمكن الوصول إلى حي النصارى إما بالمركبة أو مشياً من الشارع الجديد العريض المسمى بشارع بغداد فتح سنة ١٩٢٦ بين البساتين ولا يزال فارغاً من الدور إلا قليلاً يمر في وسطه على مقبرة الدحداح المنسوبة للشيخ أحمد بن أبي الدحداح المتوفى سنة ٣٢٨ فيصل فوراً إلى مستشفى القديس لويس الفرنسي وثمة حي يعد من أرياض دمشق اسمه حي القصاع وهو تتمة حي باب توما يمتد شمالاً على طريق الطريق الذاهبة نحو بغداد وتدمر وحلب وينحرف السائر هنا نحو اليمين، وبعد مسافة برج الروس يجتاز جسراً قائماً فوق نهر برجى فيلج (باب توما) الذي يعود بناؤه الحالي إلى أواخر القرن ١٣ والشارع الذي يسير في هذا الباب يعد الشريان الخاص بحي النصارى يشاهد فيه على اليسار دير التراسانتا الأرض المقدسة لرهبان اللاتين، ووراءه دير الآباء العازاريين. ثم يصل إلى مصلبة في قربها ثكنة قديمة اسمها (العثمانية) فيلاقى الطريق الطويل الذي يشق دمشق من الغرب إل الشرق. وهو الشارع المستقيم في العصور القديمة المذكور في سير الرسل الحواريين ٩ و ١١ ومما لا ريب فيه أن أعمدة كانت تمتد حول هذا الشارع، ثم ينحرف نحو اليسار عند الثكنة المذكورة ويستمر في سيره نحو الغرب فيدخل حي إليهود، وإذا انحرف نحو اليمين يصل إلى سوق مدحت باشا، وإذا تابع السير في أول درب ينحرف إلى اليسار

(١) ي برج الروس لأن تيمورلنك بعد احتلاله دمشق قطع رؤوس الرجال وجعلهم كالا ج هذه ا نطقة وقد كانت عادة ا غول كذلك ا دن الا يفتحو ا.

قبل الوصول إلى الباب الكبير المفتوح في منتهى الشارع، يصل إلى بيت القديس حنانيا الذي استرد فيه القديس بولص بصره وهذا بازيليكا (من القرن ٥ ـ ٦) التي يمكن تمييز أنقاضتها في الطلوع على سطح الكيللا، وبعد أن قلبها المسلمون إلى مسجد استعيض عنها بمغارة الموتى التي يمكن زيارتها ـ أما الباب الشرقي الذي فيه منتهى المدينة هو أحد الأبواب الرومانية القديمة في دمشق، أبقاه العرب على حاله.

فالفجوة الشمالية منه وحدها هي المستعملة الآن، أما الوسطى التي كانت أعرض من ستة أمتار والفجوة الجنوبية فقد سدتا واستتر قسم منها بمخازن معمل النعسان الذي يصنع فيه أواني نحاسية وخشبية مرصعة.

وإذا وازى في سيره نحو الجنوب السور المحيط بالمدينة يرى على بعد نحو ٣٠٠ متر من الباب الشرقي المكان الذي يقال في الأساطير أن القديس بولص قد تدلى منه بواسطة السلة بعد أن سجن في دمشق وهو باب مسدود له مقام، ثمة كنيسة صغيرة تدل على هذا المكان كايلا كنيسة صغيرة.

ويمكن الوصول إلى الشارع المستقيم إما بالرجوع نحو الباب الشرقي وإما بمتابعة السير حول السور حتى شارع السير خضوري[1] الذي يلج فيه السائر، وثمة مدرسة حديثة لليهود تأسست بمال هذا الثري، وبعد اجتياز حي إليهود يصل إلى حي الخراب وأكثر سكانه شيعة ثم إلى سوق مدحت باشا.

انحاء دمشق

رحلات نحو بحيرات المرج والبحيرة: هذه الرحلات تعطي فكرة عن بساتين دمشق المعروفة في العصور القديمة، وأرض هذه البساتين ذات خصب ممتاز وهي تزرع دائماً وتقطن، ويوجد فيها بعض خرائب قديمة.

من دمشق إلى الهيجانة ٣٢ كم طريق معبدة ثم مجاز قد يتعسر يخرج من دمشق من الباب الشرقي ثم يحاذي السور ويمر من أمام الكنيسة الصغيرة المنسوبة للقديس بولص وعلى بعد بضعة أمتار ينحرف نحو اليمين ويسلك طريقاً في أوله مزار إسلامي

(١) ثري يهودي والشارع ا ه (امتداد شارع ا راب أو شارع الأم)

صغير وقبتان وبعده حي حقير لمهاجري الأرمن ثم مقابر فخمة للنصارى واليهود، ثم عدة بساتين جميلة.

في الكم ٣ قرية جرمانا، أهلها دروز، اختصوا بصناعة نسج العبي (صداري حمر من صوف المعزى) وبعد الخروج منها يأخذ طريق اليمين بين مزارع القنب الجميلة.

في الكم ٧ الخيارة ـ مزرعة كبيرة، على اليمين يلحظ الجبل المانع ـ في الكم ١٠ على اليسار مزرعة شبعا، و من ثم يدخل الطريق هذا في سهل فسيح على اليسار خط سور دمشق بناء السور مختلف الأشكال والحجارة، فالمدماكان الأولان من بناء الرومان ومافوقها من بناء العرب ومن عهد الايوبيين والمماليك، لأنها قد خربت في المحاصرات، ثم جددت مراراً وأكثر أبراج هذا السور أصبحت متهدمة أو كادت، في أحدها اسم نور الدين سنة ٦٦٤، وفي هذا السور عدة أبواب ١ ـ الباب الشرقي، وقد تقدم ذكره ٢ ـ باب كيسان الذي رمم وجدد حديثاً ومن جانبه تدلى القديس بولس وهرب، وعلى خارج هذا الباب وشرقيه مقابر النصارى وهي محفوظة بالجدران، ٣ ـ الباب الصغير في الجنوب الغربي من المدينة وفي قربه مقابر المسلمين التي مابرحوا يستعلمونها منذ الفتح الإسلامي، بينها قبور مئات الألوف من الملوك والأمراء والعلماء ولاسيما مؤسس الدولة الأموية معاوية بن أبي سفيان ٤ ـ باب الجابية ٥ ـ باب النصر تهدم سنة ١٨٦٣م ٦ ـ باب الفرج وصار يسمى باب المناخلية وهو في شمالي القلعة ٧ ـ باب الفراديس وصار يسمى الآن باب العمارة ٨ ـ باب السلام بناه الملك العادل أبو بكر في سنة ٦٤١هـ وعليه اسمه. ٩ ـ باب توما. وهو ضريح أبي ابن كعب بن قيس الخزرجي الأنصاري الصحابي سيد القراء في عهد الرسول. المنسوجات الدمشقية مملوك من الحور يدل على الزور وهو على وادي بردى، على اليمين كتلة جبل الشيخ، وإذا نظر السائر إلى الوراء يتمتع بمشاهدة جبل آنتي لبنان.

في الكم ١٢ حتيتة حديثة التركمان ـ في الكم ١٤ على المصلبة، الطريق اليسار المنيحة مباشرة إلى الهيجانة، أما طريق اليمين فيصل في الكم ١٧ إلى قرية قرحتا، ثم في الكم ٢ إلى قرية كبيرة اسمها الغزلانية، وهنا زي النساء يسترعي

النظر (يتضمن شالاً أحمر فوق نهودهن)، ويصير السهل كلما تقدمت أجرد وقفراً، في الكم ٢٦ تل مسكن، ضيعة فوق تل ترابي.

في الكم ٣٢ الهيجانة، قرية كبيرة مبنية في سفح أكمة على قمتها مخفر عسكري (أسس ٦٤٩م) وفيها تجارة الحبوب المختلفة من قمح وذرة وفي الجنوب الشرقي من الهيجانة وعلى بعد نحو كم منها تمتد بحيرة الهيجانة التي يصب فيها نهر الأعوج، ومن الهيجانة يمكن الوصول في ٢٥ كم إلى طريق مجاز كسوة - شهبا (جبل العرب) وذلك قبل قرية الصورة الكبيرة بقليل ومثل ذلك أيضاً بعد ٩٠ كم يوصل إلى الزلف في مجاز جبل السايس.

وأخيراً يمكن الوصول من الهيجانة إلى طريق دمشق - عتيبة (سيأتي ذكره) الماء بحران العواميد والبلالية إلا أن اجتياز هذا الطريق عسير من كثرة الأنهار والسواقي التي تعترضه، رغم الجسور التي عليها لأنها خطرة وغير متينة، في الكم ١٠ من هذا الطريق قرية الكفرين، التي تلاقي فيها نهر بردى، وتكثر في هذه الأراضي المستنقعات وحقول القنب وهو يجود جداً. وفي الكم ١٢ حران العواميد قرية جميلة وخلابة تجد هنا أزياء النساء اللواتي يغلب أن يكنَّ هنا على جمال نادر الأمثال، ووسط دور هذه القرية قد سمت ثلاثة أعمدة من الطراز الأيوني ومن حجر البازلت ومن عهد الرومان. وفي جامع القرية يوجد أيضاً بضع قطع أثرية مكسرة عليها نقوش نسور ونبات الخرشوف، وتيجان أعمدة مستعملة، وحجر تكريس كان مخصصاً لقسطنطين (٣٣٦ - ٣٣٧) عليه كتابة يتعذر قراءتها وفي الكم قرية العتيبة التي سميت باسمها.

الغوطة - ناحية كثيرة المياه نضرة الأشجار متجاوبة الأطيار مؤنقة الرياض والأزهار ملتفة الأغصان خضرة الجنان تمتد مسيرة لا تقع الشمس على كثير من أراضيها ولا تبين القرى من خلال أشجارها وفيها قرى كثيرة.

انحاء دمشق

جولة إلى حرستا ودوما بحافلة الترامواي - في شرقي دمشق حي جميل يدعى القصاع، في شرقه حديقة جميلة محصورة بين فرعي نهر بردى يدعى الصوفانية تحتاج للتوقف في كنيس جوبر حجرة تحت الأرض يتوافد إليها الزوار للاستشفاء ظناً بأن هذه الحجرة كانت مسكناً للنبي إيليا الخضر، ويمكن أن تصل السيارة من الهيجانة إلى قرية العتيبة في دعس صيفي يتجه شمالاً فتمر بقربه جديدة الخاص ثم بالكفرين ومن الكفر دعس ينشط نحو الغرب الشمالي فيمر في الكم ١٧ جعيدية، في الكم ٢٠ دير سلمان - في الكم ٢١ البلالية ضيعة مختبئة وسط المستنقعات - في الكم ٢٣ جسر حديث على نهر بردى من طراز البناء العثماني - في الكم ٢٤ قرية النشابية، وهنا يلاقي الطريق الآخذ من دمشق إلى العتيبة.

ب - من دمشق إلى العتيبة _٣١ كم مجاز صالح مع بعض الحذر، يخرج من دمشق من حي القصاع وينحرف فوراً إلى اليمين ليلج طريق بساتين الغوطة، وهنا كل اللطافة التي يضرب بها الأمثال - لغوطة دمشق تفوح من هذه الخضرة الغضة لأشجار الجوز والمشمش والحور المصطفة حول ماء جار رقراق. عين ترما وفي الكم ٧ كفر بطنا - في الكم ٨ جسرين، قرية كبيرة جميلة جداً وسط البساتين، ودورها جيدة البناء في مسجدها ترى بضعة قطع من أنقاض أثرية، كتيجان أعمدة وأسس جدران وكتابات يونانية تاريخها ١٩٦ ق.م - في الكم ١٣ بيت نائم وهنا زي النساء يعجب الناظرين، فلهن أقبعة كبيرة واسعة وردية الشكل أو زرقاء على نسلية بيضاء التي رونقها الخفيف يأتلف تماماً مع لطافة منظر هذه البقاع، يترك هنا على اليسار مجازاً صالحاً يمر بقرية الشفونية.

في الكم ١٦ حوش الصالحية، مزرعة كبيرة منفردة، وهنا تزداد رطوبة هذه الكورة ويبدأ برؤية الجواميس ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب الشرقي لتصل قرية حزرما في الكم ١٩ النشابية قرية سكانها ١٦٥، مركز ناحية ومخفر درك، ومركز هاتف، ومن هنا يمكن ان تبلغ مباشرة الهيجانة من حران العواميد وقد تقدم.

في الكم ٢٣ القاسمية، قرية نفوسها ٢٣٥ وإذا خرجت من القرية، تأخذ اليسار وتجتاز أحد فروع بردى، في الكم ٣٢ العزيفة ضيعة حقيرة . في الكم ٢٧ قرية العبادة تلفون عند المختار . قرية كبيرة، نفوسها ٤٨٧ وسط القصب والحلفا، في الكم ٢٩ و ٣٠ يجتاز فرعي بردى عليهما جسور غير متينة، في الكم ٣١ قرية العتيبة كبيرة نفوسها ١١٢٣ فيها مخفر درك.

هذه آخر القرى في الجهة الجنوبية الشرقية على حدود الصحراء، وهي تكاد تكون وسط القرى قوس الدائرة الذي تؤلفه بحيرة العتيبة، وهذه البحيرة بطيحة واسعة لا مخرج لمياهها ولا جريان، تتألف من مياه بردى التي تصب فيها وتضيع ومن اجتماع مياه السيول والأمطار القادمة من الشرق والغرب التي لا تستطيع أن ترشح في هذه الأراضي غير القابلة للنفوذ وتختلف سعتها حسب المواسم، ففي الشتاء قد تمتد في مساحة طولها نحو ٧ كم وعرضها ٢ كم من تل رمدان في الشمال إلى رجم المداوير في الجنوب. أما في الصيف فتنقلب إلى شبه مستنقع، وفي الخريف تجف بتاتاً، وفي أيام الحر تردها الأعراب وتروي مواشيها، ويزرع أهل القرى المجاورة وخاصة العتيبة الذرة في قيعانها التي تنحسر المياه عنها.

وقد انتشرت الملاريا بحكم مجاورة هذا المستنقع في أهل القرى المجاورة، ويلحظ الناظر إليهم وجوههم الصفراء وأطحلتهم الضخمة، كما يلحظ أسراب البعوض، وقد حاولت الحكومة الشامية تجفيف هذه المستنقع وإزالة أسباب وخامة الهواء لكنها أخفقت، ويكثر وجود الخنازير البرية والطيور المائية ولاسيما البط في كل الشتاء ولو أن صيد ذلك يكاد يكون مستحيلاً من صعوبة الوصول.

من دمشق إلى بعلبك

في السكة الحديدية ١٠٧ كم ٣,٥ ساعة يتبدل القطار في رياق، وسيأتي وصف هذا الطريق فهي من دمشق إلى رياق ٨١,٧ كم ومن رياق إلى بعلبك ٢٥,٦ كم في الطريق المعبدة، أما عن طريق بيروت الذي ينفصل إلى بعلبك في شتورة، ٧٣ كم من دمشق إلى شتورة و ٣٨,٥ من شتورة إلى بعلبك، وسيأتي وصفها، وأما عن وادي بردى

١٢,٥ كم طريق غير معبدة لكنها صالحة، بعد السير في الطريق الذاهبة إلى بيروت نحو ١٥ كم، وعند الصعود من وادي الهامة، وفي أول صجراء الديماس، يترك طريق بيروت وينحرف نحو اليمين فيأخذ الطريق الموطأة للسيارات غير المزفتة بعد الذاهبة نحو الشمال الغربي، الهابطة نحو وادي بردى.

في الكم ١٨ قرية جديدة الوادي فيها ٢٨٠ نفساً ومحطة سكة الحديد التي علوها ٧٧٣ م يصطاف فيها بعض الدمشقيين.

وثمة طريق معبد ثانٍ وسط غوطة دمشق قد شرع في تزفيته وتم نصف ذلك، يبدأ من الباب الشرقي ويمتد شرقاً ماراً ببستان القواص ومن أمام حتيتة الحرش ومن حوش بالا ثم من حوش خرابو وفرع ينشط نحو الجنوب إلى مرج السلطان، ومن ثم إلى البلالية فدير سلمان فالحميدية فحران العواميد.

وثمة طريق ثالث وسط غوطة دمشق يبدأ من حي القصاع ماراً بجوبر في الكم ٥ وزملكا في الكم ٦ وينتهي بحمورية كم ٩ ومن زملكا يمكن الاتجاه شمالاً نحو عربين في الكم ١٠ ومنها إلى طريق دمشق ـ دوما في غربي حرستا.

أما طريق الترامواي الذاهب إلى دوما، فإنه يمر بموازاة الطريق الثالث المذكور فيمر بجوبر وزملكا وعربين وحرستا وينتهي في دوما، فجوبر فيها كنيس يهودي قديم يجتمع فيه يهود دمشق ذكرها ياقوت وفي هذا الكنيس مغارة اختبأ فيها النبي إلياس لما هرب من اضطهاد جزابل.

وطريق السيارات وتتجه نحو الشمال وتوازي السكة الحديدية وتتركها كما تترك نهر بردى على يمينها، ثم تظهر على عدوة الوادي اليسرى قرية الأشرفية في الكم ٢٠ سكانها ٢٠٠ مسلمون، وهنا على منحدر الوادي الأيسر نفق طويل منقور في الصخر الصلد من الجبل يصل الأشرفية بسيمة وهذا النفق هو قناة ماء تبدأ من فوق جسر الهوى الذي سيأتي ذكره، وتظهر تارة وتختفي أخرى، وتمتد حتى دمشق وما وراءها إلى خربة الماطرون في شرقي الضمير على ما تراءى لي من تعقب مجراها وهي عمل جبار عظيم مدهش حقاً، عرضها لا يقل عن ٨٠ متراً، وعلوها أكثر من ١,٥٠ وربما بلغ طولها ٨٠ كم.

ﻓﻲ الكم ٢١ بسيمة على العدوة اليسرى أيضاً، قرية جميلة، دورها منتزه على طول العدوة، سكانها ٣٠٠ مسلمون، قد جثمت على عضد ذات انحدار سحيق نحو الوادي، وعند ملتقى بردى بأحد روافده، وفي العدوة اليسرى منحدر صخري هائل غاية في السمو والوقوف يلمح فيه كهوف مقبرية عديدة.

وإذا قطعت نهر بردى على جسر وتجاوزت قرية بسيمة، يمكنك الصعود نحو الشرق في مجازة سهلة تسير وسط وادٍ جميل وعميق وهو أحد روافد بردى، وبعد ٣٠ دقيقة تلمح على اليسار إخدوداً في الجبل، وحول هذا الإخدود قد حفر كثير من غرف الموتى، وثمة أدراج منقورة في الصخر وكان هذا الإخدود مفتوحاً يمر به طريق أثري يذهب نحو الشمالي الغربي - وإذا ظل سائراً في المجاز يصل بعد ساعة إلى المضيق الأثري الذي يمر بين الدريج وحلبون ويفضي فرع منه إلى منين وفرع ثانٍ إلى حلبون والبعد بين بسيمة وحلبون نحو ١٠كم، وبينها والدريج ٦ وبينها ومنين ١٢كم،.

في الرجوع على العدوة اليسرى من النهر يلمح مرة أخرى بقايا القناة المنقورة في صدر الجبل ثم يصل إلى مكان نزه فيه عين الخضراء وحوله بعض المقاهي والفنادق التي يقصدها الدمشقيون ولاسيما الطبقة المتوسطة منهم في الصيف بكثرة، وهناك يعلو الجبل على يسار الطريق علواً شاهقاً إلى نحو ٤٠٠ متر فوق الوادي، وهذا الوادي ينحرف في اليسار نحو الغرب، ويدرج على الصعود، وثمة كتابة فرنسية منقوشة على الصخر بأن هذه الطريق المسماة بوادي الدراجة، والوادي قبل بسيمة يخرق جدارين شاهقين أحدهما يدعى الجبل الشرقي وثانيهما الغربي، كما أن في شمالي بسيمة يزداد علو الجبال وانحدارها زيادة عظيمة فجائية حتى يبلغ العلو ١٨٨١ متراً في (قرنة النحلة) التي تبعد عن بسيمة نحو ٦ كم على خط مستقيم.

وأكثر ما يقصدونها في أيام الجمعة وفي الأيام ذات الليالي المقمرة يزدحمون في هذا الوادي الضيق بالمناكب، نساء ورجالاً وصغاراً وتراهم ما بين ماشٍ وواقف وجالس ومضطجع ومنتشرين على ضفتي بردى الصاخب الرائق يهرعون بالقطارات والسيارات زرافاتٍ وأسراباً يأكلون ويشربون أو يدخنون أو يتفاكهون بين خرير الماء

وحفيف الشجر وتغريد الحارين وزجل المطروبين ولفظ الذاهبين والآيبين، وفي الجملة تكون مشاهد تلك الأيام مما يجدر رؤيته وتحمد رسمته.

شقتها إدارة الأشغال العامة والجند الفرنسي في سني ١٩٢٧ - ١٩٢٩.

في الكم ٢٦ يشرف على قرية عين الفيجة، سكانها ٦٠٠، دورها مبثوثة على العدوة اليسرى على طول الوادي، تحت ظلال خضراء أحدثتها أشجار مكثفة من الجوز والحور والمشمش وكروم العنب والتين في منحدرات الجبل المرتفعة، وثمة محطة قطار، وبعد اجتياز جسر حجري على نهر بردى يمر وسط دور القرية ومن أمام مسجدها الصغير ذي المئذنة المتواضعة الجميلة، وفي قرية شجرة زيتونة مباركة تتدلى من أغصانها كثير من الخروق المطرزة المخصصة للنذور والبركة في شجرة التين في أفقة كسروان لبنان مثل هذه، وبعد هنيهة يصل إلى رأس نبع عين الفيجة.

إن نبع عين الفيجة (من كلمة بجه بمعنى عين) قد استعمل منذ أقدم العصور، واتخذ مكاناً للعبادة بدليل وجود الهيكل الروماني في قربها. ومياه هذه العين تنفجر بغزارة مدهشة من كهف في سفح الجبل الشاهق المطل على القرية من غربيها، ومن تحت سطح نصفه صخري ونصفه من الحجر المبني، وبعد انفجارها تجتمع في حوض كبير يمكن الاغتسال فيه أيام الصيف وبعد مسافة نحو ٥٠ متراً تنضم مياهها إلى نهر بردى وترفده بأكثر من نصف مياهه الآتي بها، فهي أجل قدراً أو سخاءً منه، وقسم ضئيل من مياه هذه العين النقية الباردة يؤخذ ضمن قناة حديثة من الإسمنت إلى دمشق ينهل منها أهلها وأول من ساقه إلى دمشق ناظم باشا.

وقد بقي من الهيكل الروماني الصغير المذكور فوق السطح الذي يعلو العين قسم من جدار مؤلف من رضام عظيمة، وتحته ببضعة أمتار بناء مستطيل الشكل ذرعه ٣٠×١١×٨,٢٠، وهو أيضاً مؤلف من حجارة ضخمة عظيمة. وقد ظلت جدران هذا الهيكل محفوظة، ويرى كوة واحدة وسط الجدار المتطرف المواجه للمدخل، ولما انتشرت النصرانية قلب هذا الهيكل إلى كنيسة، وجرى مثل هذا القلب وفي الوقت نفسه بدير مريم الخاص بالرهبان اليعاقبة، وهو في قرية (افرة) فوق عين الفيجة ويعلو الطريق عن الوادي وعن السكة الحديدية ويتجه نحو الغرب ويلمح

السائر بعد على العدوة اليسرى قرية دير مقرن وفيها مجاز يصعد نحو قرية افرة ٧ كم ثم يتسع الوادي ويمتلىء ببساتين الفاكهة وغياض الحور ولها مناظر جميلة.

في الكم ٣١ على العدوة اليمنى قرية دير قانون علوها ١٠٠٠ متر، فيها محطة قطار، وبينها جسر حجري على بردى، وفي قرية طاحون على العدوة اليسرى قرية كفر الزيت ذات الدور الراكبة فوق بعضها.

وفي دير قانون طريق ذاهبة نحو الجنوب تتصل بعد ٦ كم في خان الديماس بطريق دمشق ـ بيروت.

في الكم ٣٣,٥ على العدوة اليمنى ضيعة الحسينية (علوها ٩٤٠م) في العدوة اليسرى وإلى الشمال الغربي كفير العواميد، بينها وبين تل في قربه طاحون وفوق هذه القرية أنقاض هيكل وثني قديم بني فوق صخور بارزة، بينها كسور أعمدة وتيجان وفرونتون، وبعد كفير العواميد وفي العدوة اليسرى أيضاً ضيعة البرهلية، وبينها وبين بردى أطلال أثرية.

في الكم ٣٥ وسط وادي بردى المتسع قرية (سوق وادي بردى، ذات الدور المكتظة أحاطت بها الرياض وغياض الخضراء، وأشرفت على نهر بردى، وهو عندها يفتح ممراً بين جدران عالية ثخينة من الصخور.

قرية سوق وادي بردى، هي القديمة، قصبة المملكة المربعة التي ذكرها القديس لوقا (٣ ـ ١) وهي مقاطعة انفصلت في زمن ما عن مملكة شاليس (عنجر) .. في عهد القيصر طباريوس وحكمها رجل اسمه ليزانياس، وقد كانت هذه المملكة المربعة تحوي أيضاً شمالي لبنان حتى طرابلس، وجنوب فلسطين حتى البثانية واللجا (اليوم شمالي جبل العرب مع اللجا)، ولم تكن أبيلا مبنية فقط على الطريق المحاذي وادي بردى، بل بفضل مضيق وادي القرن، على الطريق الممتد من شاليس (عين الحجر) إلى دمشق ومن هذا نشأت أهميتها، وقد تعاقب الحكم على آبيلا فيليب تتدارك وآغريبا الأول وكان آخرهم دوس أغريبا. وأخيراً في القرن الخامس كانت مركز أسقفية وسقطت عام ٦٣٤ في يد المسلمين الذين استولوا عليها بمفاجأة حينما كان قائماً فيها المعرض السنوي (السوق في لغة العرب) لوادي نهر بردى، وكان مجتمعاً فيه كل نصارى تلك الأنحاء، ومنه نشأ اسمها الحالي.

لايزال يوجد وسط القرية بضعة أحجار أثرية منحوتة وكسور أعمدة، أما الخرائب الهامة فهي العدوة المقابلة في جنوبي سوق وادي بردى أكمة شاهقة تشرف على القرية (علوها ١٢٦٥م) تدعى جبل هابيل في ذروتها بناء عظيم تذكاري طوله نحو عشرة أمتار يسميه مسلمو هذه الأنحاء مزار (النبي هابيل) وهذه التسمية نشأت من الخلط بين آبيلة ليزانياس وآبيلة فلسطين ثم بعد مسافة قليلة وعلى قمة الأكمة المذكورة أطلال هيكل وثني قديم ذرعه ١٤×١٨ متراً في طرفه الشرقي كهف مقبرة وفي قربه مدارج نقرت في الصخر الصلد. وقد حولت هذه الأكمة فيما بعد إلى كنيسة. ثم يدرج الطريق في مضيق ضيق، في قعره يجري بردى، ثم ينحرف الطريق نحو الغرب ويجتاز بردى فوق جسر الهوى في قربه طاحون بينما يلج القطار في نفق تحت جبل هابيل المذكور.

يوجد هنا على المنحدر الذي فوق الطريق في العدوة اليسرى، قسم من سكة رومانية أثرية تنقطع فجأة على حافة هاوية، ويظهر أنها كانت تجتاز هذه الهاوية فوق جسر ذي قناطر عالية راكبة على الوادي، ولا تزال بعض أنقاضها مبعثرة فوق صدر الجبل.

وتمتد هذه السكة على طول يقدر بـ ١٨٠ متراً وعرض أربعة أمتار، وقد شقت طريقها في الصخر الصلد شقاً عريضاً كأخادير سكك حديد هذا الزمان، بعمق ٥ ـ ٦ أمتار، وثمة على حائطها الشرقي كتابات باللاتينية يفهم منها أن هذه الطريق قد رممت في عهد مرقص أوريليوس على يد الوالي لوسيوس فروس، وثمة أيضاً تحت السكة المذكورة مباشرة يوجد قناة ماء، تراها تارة مكشوفة وتارة منقورة نقراً عجيباً وتمتد إلى مسافة غير يسيرة في لحف الجبل، وهي من أقسام القناة التي تقدم ذكرها في بسيمة. ويمكن السير وسط هذه القناة والوصول إلى كهوف المقابر التي يراها راكبو القطار عن بعد أيضاً وكأنها معلقة فوق الهاوية. وهذه الكهوف ليست سوى غرف بسيطة كانت فيما مضى مغلقة بأبواب حجرية وجد أحدها على ضفة بردى، وفي داخل الكهوف مشاكي بشكل الأفران كانت تتخذ لوضع توابيت الموتى.

في الكم ٤٠ التكية، على اليسار المعمل الكهربائي المائي الذي يدفع بالكهرباء إلى دمشق، وهو يأخذ قوته من مسقط جدير بالنظر قوته ١٣٠٠ حصان بخاري، وتمر السكة الحديدية على اليسار فوق جسر على بردى. ويترك على اليسار طريق وادي الخشنة يتصل بعد ٥ كم بطريق دمشق - بيروت غربي خان ميسلون، ثم يلمح على اليسار محطة صغيرة باسم التكية علوها ١١٠٠ ومن ثم يتسع الوادي ويبدأ سهل الزبداني الخصب الفسيح، وينحرف الطريق نحو الشمال باتجاه مستقيم.

يمتد هذا السهل من الجنوب إلى الشمال بطول ١٢كم وعرض ٥,٢٥ كم، بين جبال شاهقة، فالغربية منها ذات منحدرات كأداء تشبه عرف الديك المتطاول من الشمال إلى الجنوب، وتدعى جبل البطرونة وتعلو ذروتها (١٨٨٥ متراً)، أما السلسلة الشرقية التي هي كتلة لبنان الشرقي الأصلية فتدعى بالنسبة إلى الزبداني الجبل الشرقي تعلو في بعض ذرواتها إلى (٢٠٧٥ متراً) وكان سهل الزبداني دون ريب قعراً لبحيرة قديمة ونحو ثلثه يروى، أما ثلثاه فلا يزال يزرع بعلاً.

في الكم ٤٥، وعلى بعد ٢ كم من يمين الطريق (مضايا) قرية كبيرة سكانها، ٢٠٠ نفس مسلمون، شيدت في منحدر الجبل، وركبت دورها بعضها فوق بعض، علوها ١٢٨٠ متراً، وهي مركز اصطياف لكثير من الأسر الدمشقية.

وفي أعلى هذه القرية وفي منكب الجبل مكان يلحظ فيه صخور عجيبة الشكل ذات لون رمادي أحيطت بسور من أشجار السنديان الشامخة، وهذا المكان يدعى "آية كرسي الملك" ومعناه علامة مسكن الملك مولوخ، ولعلها كانت "معصبة" ابتدائية، أو كانت عموداً مقدساً يعبد باعتباره رمزاً لبعل مولوخ، ولا يزال مسلمو هذه الديار يقدسون هذا المكان وتكثر أشجار السنديان المحيطة به.

وبعد مضايا يدرج الطريق نحو الشمال، وعلى بعد ٣,٥ كم من يمين الطريق "بقين" قرية صغيرة علوها ١٢٥٠م مركز اصطياف الأسر الدمشقية المسلمة، وفيها عين ماء ثرة عذبة باردة، ثم على بعد ٥,٥ كم من يمين الطريق مكان اسمه "الجرجانية" وفيه فندق حديث وينابيع كثيرة، وهو منتجع الدمشقيين في الصيف.

في الكم ٥١ الزبداني - بليدة سكانها ٤٤٠٠/٧٠٠٠ أكثرهم مسلمون والنصارى روم ارثوذكس، مركز قضاء الزبداني علو محطتها ١٢١٠م، بنيت في

أوطأ مكان من السهل، واكتظت دورها الحجرية الساذجة، أما الزبداني الحديثة فدورها جميلة منظمة.

وفي سفح السلسلة الغربية وجنوبها نبع بردى حيث العلو /١١٠٢/م والنبع يؤلف شبه بحيرة كبيرة مستطيلة راكدة، ومن ثم تنحرف مياهه نحو الجنوب وتحدث تعاريج عديدة وتسير وسط السهل في مجرى صغير إلى أن تبلغ التكية فتسقط في الوادي ذاهبة نحو دمشق.

قال الشهاب فتيان بن علي الأسدي الدمشقي المتوفى سنة ٦١٥ وقد أقام في الزبداني مدة وقد سقط عليها الثلج:

قد أجمد كانون بكل قدح	وأخمد الجمر في الكانون حين قدح
يا جنة الزبداني أنت مسفرة	بحسن وجه إذا وجه الزمان كلح
فالثلج قطن عليك السحب تندفه	والجو يحلجه والقدس قوس قزح

حول الزبداني خرب أثرية ككفر عامر

ففيها دور حديثة جميلة حول محطة القطار، وفي مكان مرتفع ترى في البلدة القديمة وللزبداني دار حكومة بنيت ١٣١٩/١٩٠٣ ومسجد جامع وكنيسة ومستوصف، وفندقان يفتحان في فصل الصيف.

للزبداني ماضٍ يعود إلى أقدم العصور، وبعد انحطاط آبيلا أسس في الزبداني مركز أسقفية وبني دير عظيم، وقد ظلت عامرة إلى حين قدوم الصليبيين، ولكن المسلمين فتحوها وذبحوا ألف راهب كانوا في الدير المذكور وقلبوه إلى مسجد.

وحول الزبداني كروم وبساتين كثيرة في مساحة لا تقل عن تسعة كيلو مترات مربعة، ذات أشجار مثمرة مختلفة أخصها التفاح الذي يجود فيها كل الجودة

ويتنوع، الصنف المدعو بالسكري ذي اللون والرائحة والطعم الفاخر، ويليه الدرشاوي فالسكارجي فالخلاطي وثمة السفرجل.

ناهيك التفاح السكري المنقطع النظير في لونه وطعمه وعبقه، ومثل ذلك يقال عن بقية الخضروات والفواكه، ولو أنها دون الحاجة ككفر عامر، وكفر نفاخ، وغبتة، وعين الدلة، والكبرى، وعين التوت، وسفيرة.. الخ.

وهذه الخرب هجرت بسبب الكوارث والتجأ أهلها إلى مكان الزبداني فعمروه.

كنخيل ابو الجن. أما العيون، فعين خرير وعين أبو زاد وعين الدولة وعين النسور في سفح جبل أبو الجن.

ومن هذه البحيرة ينفجر نهر بردى الأصلي ويسير في مجرى كثير التعرج وسط الحقول المتناثرة في سهل الزبداني وتأتيه روافد كثيرة.

وبعد الخروج من الزبداني يضيق الوادي مرة أخرى ويكاد يغلق. ويتبع سكة الحديد وطريق السيارات عدوة الوادي المائلة. ثم يترك الطريق السكة على يمينه أمام جدران جبل الشقيف الشامخة الهائلة الذي فيه معبد قصر يونان، ثم يعود الوادي للانفتاح.

في الكم ٥٨ عين حور، ضيعة في سفح جبل الشقيف، فيها عين ثرة تسقى مياهها أراضي هذه القرية، ومن ثم يزداد انفساح الوادي ويحدث سهلاً فسيحاً، وبعد قليل يصل إلى نقطة تقسيم المياه عند علو (١٤٠٥ متراً) ففي شمال هذه النقطة تجري المياه نحو وادي يحفوفة والليطاني والبحر المتوسط، وفي جنوبها تجري نحو سهل الزبداني وبردى، وبحيرة العتيبة.

في الكم ٦٢ سرغايا، قرية كبيرة وسط السهل، علوها ١٣٧٢ متراً سكانها ٨٠٠ مسلمون، وفي قربها محطة القطار -، ذات هواء جاف ونقي، اشتهر أهلها بالجفوة، وفيها منظر جميل نحو الواديين، الشمالي منها مقفر، والجنوبي مخضر.

وفي شرقي سرغايا جبل شاهق اسمه جبل درة في منحدره كهوف مدافن ونواويس منقورة في الصخر الصلد، وصهاريج ماء ومعاصر وبقايا أعمدة تعود إلى هيكل وثني قديم. وعلى أحد هذه الأعمدة نقشت كتابة أثرية وللكهوف المذكورة

ستة أقواس وكوى لأجل التوابيت، ووراء الصخور أطلال غير ذات أهمية واضحة لقرية قديمة وسنديانة كبيرة في قربها بضعة قبور أثرية.

بعد سرغايا، في الكم ٦٤,٥ نقطة اجتماع رافدين، والأول لنهر يحفوفة، والثاني لنهر معربون، وعلى الثاني وهو أكبرهما يلمح جسراً حجرياً صغيراً من البناء العربي يعرف بجسر الرمانة. ومكانة هذا الحسر نشأت من أنه على طريق دمشق ـ بعلبك القديم.

في هذا الجسر مجاز كئود جداً يتدرج نحو الشمال ويتوقل الجبل الشاهق، ويمر بضيعة اسمها الخريبة.

ويجتاز وادي الصنوبر فيصل إلى قرية بريتال، سكانها ٢٠٠ جعفريون، (ويظن أن هذه القرية تقربمن بروتيا التي انتصر فيها النبي داود على الملك هاداد ايزر الآرامي واستولى منها على كميات كبيرة من النحاس، وفي هذه القرية أطلال أثرية. وبعدها ضيعة اسمها الطيبة، أهلها كاثوليك، ويجتاز فيها وادي الطيبة السحيق يلج وادياً صغيراً يتجه نحو الشمال ويبقى السائر فيه عن بعد مناظر جميلة في سهل البقاع وجبل لبنان. وأخيراً يصل إلى ضيعة اسمها عين الباردة، ومنها إلى بعلبك.

عودة: يترك الطريق على اليسار السكة الحديدية ويتجه نحو الغرب ومن يحفوفة يلحق برياق إذا تتبع مجرى وادي يحفوفة الظليل الندي، وإذا مر من أسفل قرية النبي شيت سكانها ٨٠٠ جعفريون واسم هذه نشأ من وجود ضريح فيها باسم النبي شيث.

أما إذا ظل الطريق متتبعاً ـ على العكس ـ السكة الرومانية القديمة الممتدة من دمشق إلى بعلبك أي وادي نهر معربون السحيق الموحش ـ يمر في الكم تقريباً ـ من أسفل قرية معربون. وفيها عين جبلية وأطلال أثرية ـ ويترك على اليمين تلعات كبيرة تختفي وراءها قرية الرميدة.

في الكم ٧٣ النبي شام، ضيعة في قربها مزار حديث للنبي شام، بني فوق أنقاض هيكل وثني قديم، والعتبة التي فوق المدخل طولها أكثر من أربعة أمتار، وفيها إشارة نذر تاريخها ١٧٢ ـ ١٧٣ والاسم كومة خامون وينحرف الطريق بعد نحو

الغرب ويجتاز الجبل الذي يفصل بين الوادي وبين سهل البقاع في الكم ٧٤ حيث عقبة باسم يمين البنية.

وبدلاً عن اجتياز هذه العقبة يمكن الاستمرار على جانب الوادي نحو الشمال من مدق يمر بالتتابع من شيبة وهي خربة هيكل وثني قديم، ثم اذا اجتاز المدق نهر الصنوبر وثمة انقاض السكة الرومانية القديمة ـ ثم عين العروس، وهي عين ثرة ـ ثم يجتاز عدة أودية صغار إلى أن يصل إلى رأس العين.

من طرابلس إلى حمص

في القطار ١٠٢ كم، يستغرق ٣ عة و ٣٠ دق.

إن محطة قطار شركة د.ج وتمديداتها تقع على بعد ١,٥ كم عن المدينة، يوصل إليها من شارع عزمي بك وإلى بيروت سابقاً ـ وتحاذي السكة البحر في امتدادها تاركة جنائن طرابلس إلى يمينها والبحر إلى يسارها، وتوازي في سيرها الطريق المعبدة التي سيأتي ذكرها. ـ في الكم ١٥,٨ محطة العبدة ـ في الكم ٢٩ محطة تل عباس وهنا ممر الحدود الفاصلة بين لبنان ومحافظة اللاذقية.

في الكم ٤٠ العكاري، في الكم٥١ تل كلخ، في الكم ٦٦ حديدة (والأصح أن تدعى وادي خالد) ـ في الكم ٧٧,٤ قزلاخر، وهنا الحد بين محافظتي اللاذقية وحمص، ـ في الكم ٩٠,٢ خربة التين ـ في الكم ١٠٢,٣ محطة حمص وهي تبعد ١,٥ كم عن البلدة.

في الطريق المعبدة ١٠٥ كم، وهي طريق جيدة، تحاذي بادىء بدء ساحل البحر ثم تنحرف نحو الشمال الشرقي.

في الكم ٣ قبة البداوي، (تقدم وصفها..) وبعدها يمر الطريق من بين منشآت وأحواض شركة النفط العراقية التي تأسست سنة ١٩٣٢/١٣٥٠ ثم يجتاز ثنية صغيرة اسمها النقور، على يمينها فجوات منقورة ومنحوتة في الصخر، ربما كانت حفر مقابر، ثم يهبط من الثنية ويجتاز سهلاً فسيحاً على يمينه طود عظيم شامخ العلو، أدكن اللون، من أعضاء لبنان اسمه جبل تربل، في سفحه ضيعات إسلامية

أسماؤها برج عمار وبرج اليهودية، وقرية المنية، وعلى يسار السهل جوف عكار الممتد نحو الشمال، فالمنظر هنا رائع يجمع بين الخضرة والزرقة.

في الكم ٩,٥ المنية - قرية كبيرة، سكانها ٢٥٠٠ أكثرهم مسلمون وقليلهم روم أرثوذكس دورها مبثوثة وسط البساتين والكروم الممتدة إلى مسافة بعيدة، اشتهرت ينابيعها الغزيرة وفواكهها الكثيرة، وهي قاعدة ناحية وفيها مخفر درك، وفي شمالها مزار باسم النبي يوشع في الكم ١٢,٥ خان كبير.

في الكم ١٤,٥ أرض ارطوزة، مكان اورتوزيا قديماً. وفيها كهوف مقبرية ثم يخرج السائح من طرابلس من (بوابة التبانة) ويتجه شمالاً ويجتاز طريقاً تحف به كروم الزيتون وتشرف عليه عن كثب آخر أعضاء لبنان المزدانة بغراس الزيتون، وضفتا الطريق لا تنقطع منها الدور والحوانيت المبثوثة.

نهر البارد فوق جسر حجري ذي عدة قناطر، ثم ينعطف الطريق إلى اليسار ويمر من أمام خان خراب يتركه على اليمين، ويلوح أن هذا الخان من بناء العصور المتوسطة.

في الكم ١٥ العبدة، هنا محطة قطار ومخفر درك، وعدة حوانيت ومطاعم للمنتزهين الذين يأتونها من طرابلس، وخان يودع فيه البصل الذي يصعد بالسفن الشراعية من هنا بكثرة إلى قبرص ومصر. وفي العبدة يتركون على اليمين طريقاً يتجه نحو الشمال الشرقي نحو حلبا .

في الكم ١٧ جسر فوق جدول، على يساره جسر السكة الحديدية. - في الكم ١٩ ينعطف الطريق نحو اليمين - في الكم ٢٠ يعبر الطريق نهر عرقا - في الكم ٢١ مفرق الطريق الذاهب إلى اللاذقية الذي يترك على اليسار - في الكم ٢٣ تل عيات، على اليسار، وفي ذروة هذا التل بناء أثري صغير معدوم الاطراز، الأرجح أنه كان برج خضراء صليبي أو عربي.

في الكم ٢٤ يترك على اليسار مجاز يفضي بعد ٥٠٠ متر إلى قرية القليعات، وهي تقع قرب خرائب قلعة صليبية صغيرة قائمة فوق أكمة واطئة. إن منشأ هذه القلعة مجهول، ولم تعرف للمرة الأولى إلا منذ تملكها الفرسان الاستباريون وفي سنة ٦٠٤هـ ١٢١٧م استولى عليها الملك العادل أبو بكر بن أيوب في زحفه على

طرابلس، ثم استولى عليها الملك الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٨/٦٦٧، وكانت هذه القلعة بالاشتراك مع حصني عرقا وحلبا تحرس طريق طرابلس تجاه القادمين من حمص. ويدل مخططها المربع الشكل ووضعها المنتظم وأبراجها البارزة على أنها من أقدم القلاع العربية واللاتينية في بلاد الشام.

ثم يسير الطريق نحو الشرق في موازاة السكة الحديدية وعلى مقربة منها - في الكم ٢٨ جسر على نهر عكار - في الكم ٢٩ تل عباس، وفيه محطة القطار - في الكم ٣٤ الشيخ عياش، في كم ٣٥ خان العبودية.

من خان العبودية إلى صافيتا ٢٤ كم - ينحرف الطريق نحو اليسار طريق حمص، فيلاقي في ١ كم جسراً على نهر الكبير وارزونة ضيعة من أوقاف جامع طيغال في طرابلس.

شمالاً برشين وتين السبل وبيت ناطق وشرقاً مريمين والطيبة وعرقايا والشراقلية من قرى قضاء حمص وغرباً مقلس وحدى وحاصور وعين الفارة.

وعلى بعد ٦ كم، وفي طريق معبدة مزفتة (بلودان)، قرية كبيرة مرتفعة عن الزبداني، علوها ١٥٠٠، سكانها ٧٠٠ أكثرهم نصارى، ذات هواء غاية في الجفاف والجودة، وكذا الماء في جودته، ووفرة ينابيعه وهي أجمل وأصح مكان للاصطياف في منطقة دمشق، تزدحم فيها الدمشقية في الصيف، وتكثر الحفلات، والاجتماعات الأدبية والسياسية، وفيها فندق عظيم حديث للحكومة ذو ١١٥ غرفة، وفندقان آخران صغيران، وفيها كنائس لطوائف الكاثوليك والأرثوذكس، ومعبد مدرسة للبروتستانت، ومسجد للمسلمين، ومنظر بلودان نحو سهل الزبداني رائع وبديع جداً، ويشرف منها في الأفق الجنوبي على جبل الشيخ وفي الأفق الغربي سلسلة جبال شاهقة تشبه جداراً صخرياً يمتد أعلاه كالخط، وهذه السلسلة تشرف من الوراء على قرى يبوس وكفير يبوس والجديدة، أما الأفق الشرقي في بلودان فقد شد بجبل الشقيف وبآكام وقمم تذهب صعداً إلى جرود ممعنة في العلو والبعد والتجرد إلا من آبار ضئيلة لحراج قديمة من سنديان وغيره. وفي أعلى بلودان منتزه جميل على عين أبي زاد يقصده رواد القصف.

حوالي بلودان ـ أولاً، الصعود إلى جبل الشقيف ١,٥ ساعة على الخيل، (العلو ٢٠٧٥ متر) من ذروته منظر رائع على سهل البقاع، ثانياً ـ قصر اليونان ـ هيكل وثني قديم لا يزال بعض أطلاله ماثلة، بني في قرية وعرة شاهقة، في الشمال الشرقي من بلودان، يوصل إليها بعد اجتياز عين أبو زاد وعين الدولة وعين جل جرانك وعين النسور (٢٢٥٠م).

وعلى بعد ٨ كم إلى الجنوب الغربي من الزبداني (نبع نهر بردى) في سفح الجبل الغربي، وهو يؤلف بحيرة واسعة مساحتها نحو هكتارين، ماؤها راكد ورائق جداً، وفي وسطها عدد لا يحصى من الينابيع الصغيرة المتفجرة .

معلولا ـ (٦٠ كم إلى الشمال الشرقي) يستعار الطريق الذاهب من دمشق إلى حمص حتى خان العروس (في الكم ٥٠) ومن بعد هذا الخان ينفصل الطريق نحو الغرب الشمالي وهذا الطريق منعرجات عديدة صاعدة صعوداً خفيفاً، وهو يسير بمحاذاة وادٍ مغروس بكروم العنب، يضيق تدريجياً، بعد أن يترك على يمينه (في الكم ٥٥) عين التينة وهي قرية مرينة شيدت فوق نشز محاط بالأشجار وفيها نحو ٢٠٠ شجرة فستق. ومن ثم تكثر البساتين، إلى أن يبلغ بعد بضعة منعرجات إلى البيوت الأولى في قرية معلولا في (الكم ٥٩) وهي من أرقى قرى بلاد الشام، وأجل ما يلفت الأنظار فيها المشهد الرائع الذي للصخور العظيمة المحيطة بها والاكتظاظ الغريب الذي لدورها الراكب بعضها فوق بعض. وسكان هذه القرية ١٥٠٠ أكثريتهم الساحقة نصارى (روم كاثوليك) بينهم عدد ضئيل من المسلمين، وقد احتفظوا بلهجة خاصة من اللغة السريانية أو (الآرامية الغربية).

(إن هذه اللغة إحدى اللغات السامية الكبرى، كانت في عهد أكاسرة الفرس اللغة المستعملة عند عموم أمم آسيا الغربية. وقد كتبت بعض أسفار التوراة وبعض نقوش تدمر بهذه الآرامية الغربية. ثم إنها هي اللغة التي كانت تحكى في فلسطين في عهد يسوع المسيح. أما اليوم فقد اندثرت بالمرة. ولم يبق منها إلا هذه اللهجة المستعملة في قرية معلولا. وفي قريتين مجاورتين لها وسط هذه الجبال وهما جبعدين وبخعة.

وأزياء رجال معلولا لا تختلف عما يستعمله عامة سكان لبنان. أما أزياء النساء في معلولا التي تستعمل أيضاً في كل قرى هذا الجبل هي أكثر غرابة. وهي تمتاز خاصة بذوآبة طويلة من الهندي تلتف حول الرأس ثم تمتد وراء الظهر حتى الكعب).

إن قرية معلولا مبنية في صدر فجوة مسدودة من الصخور العظيمة، وعلى جانبي هذه الفجوة بنيت البيوت وبينها أشجار مبعثرة، واكتظت واختلطت بصورة عجيبة. وينفصل عن الفجوة شقان انفصالاً يشبه رجل حرف Y ، ففي الشق أو المسيل الأيسر يمكن أن يبلغ الزائر بدلالة أحد أولاد القرية إلى دير مار سركيس الكاثوليكي الذي يقع في ذروة المنحدر.

وهذا الدير من العهد البيزنطي وفيه كنيسة صغيرة ذات قبة راكبة على باندانتيف، ويلحظ فيها تاجا عمود قد سترا بملاط. ومن بلكون (شرفة) الدير منظر ممتد رائع نحو القرية وبساتينها. ووراء الدير في الشرق يوجد هضبة صخرية قد نقر فيها عدد كبير من المقابر. وفي إحداها زخارف، يميز الناظر بينها حتى الآن نسرين قد بسطا أجنحتهما مثل العذراء.

وينزل الزائر إلى القرية من المسيل الوادي الشمالي من مهابط ضيقة كأداء لا تتسع في بعض الأماكن حتى لمرور رجل. وعلى جانبي الصخور آثار مجارٍ كانت توصل مياه الشرب إلى القرية. أما اليوم فتشرب القرية من ينبوع يقع عند مخرج الشق، أما دير الروم الأرثوذكس المنسوب لمار تقلا والكنيسة التي فيه ليس فيها ما يستحق الذكر. ولا يزال في معلولا بعض الأطلال الأثرية. نخص بالذكر نقشاً منخفضاً شوّه يمثل رجلاً وامرأة قد نقرا في الصخر. ولما رمموا كنيسة مار الياس الصغيرة القديمة عثروا فيها على فسيفساء من القرن الرابع الميلادي.

من معلولا إلى دمشق ماراً بصيدنايا (٣١ كم)، يسلك هذا الطريق الموطأ أولاً حضيض كتلة صخرية هائلة، ففي الكم ١ يترك على اليسار طريق خان العروس - في الكم ٨ يجتاز الطريق الآتي من خان العروس إلى جبعدين - في الكم ١٢ يهبط الطريق نحو قرية التواني فيمر بها عند الكم ١٥ - ثم في الكم ٢١ عكوبر، في الكم ٢٦ يدرك ثانية الطريق الممتد بين دمشق - يبرود المار بصيدنايا، وهذا الطريق يوصل إلى دمشق في الكم ٧٣.

٢ ـ حلبون، صيدنايا، يبرود إلى الشمال، دورة تستغرق نحو ١٠٠كم، ينفصل طريق صيدنايا عن طريق حمص عند المحجر الصحي الذي بعد جسر ثورا. فيجتاز بعد ٢ كم من المحجر قرية القابون وفي الكم ٤ قرية برزة. (وفي أسطورة إسلامية أن قرية برزة كانت الموطن الأول لإبراهيم (عليه السلام) وصارت مستقره بعد أن جاءها مع أتباعه. وقرب برزة في حضيض صخرة شاهقة عمودية مزار ولي مشهور يدعونه مقام إبراهيم.

ثم إن الطريق يلج وادي الجبل مستعيراً قعر مسيل أجرد هو ثمة وادي منين، فيمر في الكم ١٤ بقرية معربا، دورها متعلقة ومكتظة بصورة مرينة غريبة على جانب منحدر شاهق، ثم تبدأ الأشجار بالظهور ويعرض الوادي واسمه "وادي منين" ويزدهي بالبساتين وجل أشجارها من الجوز التي تنتج أجود الجوز في أنحاء دمشق ولو دعي هذا الوادي بوادي الجوز لكان أنسب، لأنه حافل بأكثر الجوز وأجوده في ضواحي دمشق.

وفي شمال معربا تجتمع مياه وادي حلبون مع وادي التل ومنين لتهبط نحو برزة المعروف وتنصب بعد في نهر تورا. وفي معربا أيضاً يترك الزائر على اليسار المجرى الأصلي لوادي حلبون المذكور، وثمة مجاز يمكن من سلوك هذا المجرى ويمتد نحو ٢,٥ ساعة فيصل إلى المضيق الأثري لحلبون بعد أن يترك على اليسار قرية الدريج.

في الكم ١٨ التل، قرية كبيرة، علوها ١٠٠٠ وسكانها ٣٢٠٥ مسلمون ودورها حجرية جميلة وفيها أسواق وحوانيت، ولأهلها براعة في نحت الحجارة والبناء، يشتغلون بذلك أفواجاً منهم في دمشق وغيرها. وفيها جامع كبير كأنه مصغر الجامع الأموي، حوله عدد كبير من القطع الأثرية كالأعمدة والحجارة المنحوتة، والكهوف المقبرية، وكلها يعود لمدينة قديمة لم يعرف اسمها ـ وبعد التل يصعد الطريق في منعرجات، ثم يهبط، فيبلغ في الكم ٢٤ منين، قرية كبيرة، علوها ١٢٢٠ وسكانها ٢٢٣٧ مسلمون، مركز ناحية ومخفر درك، وينبع ماء غزيرة ينساب إلى بساتينها وحوله مقاهٍ. وفيها كروم واسعة ويكثر فيها شجر الجوز وهو ضخم وجيد جداً.

كانت منين من المدن النصرانية. وكان فيها كنيستان شيدتهما القديسة هيلانة. وفي شمالي القرية صخرة شاهقة منحدرة تحتوي على كهوف منقورة في الصخر. تستحق الزيارة. ويوجد في العقبة التي تفضي إلى تلك الكهوف بقايا أعمدة وأحجار منحوتة وفي الذروة ينتصب عمود، ووراءه في الجهة الغربية تنفتح غرفة منقورة في الصخر، ذرعها ٨×٥ وعلو ٧ أمتار وتنتهي بكوة مربعة. وكان المدخل مزيناً برواق منقور في الصخر لا يزال ظاهر الأثر، وإلى بعد قليل نحو الشمال غرفة أخرى لا يزال مدخلها محتفظاً بحاشية مزينة تزييناً بالغاً. وإزاء هذه الكهوف على بعد نحو ١٥ م يوجد أسس بناء كبير منقور أيضاً في الصخر مع بقايا رواق. (قصر ماريا).

وفي منين مجاز يتجه نحو الغرب ويمكن أن يلحق ثانية بالمجرى الأصلي لوادي حلبون. وذلك في شمالي قرية الدريج بقليل، هذا إذا تسلق الزائر الجبل المنفرد الشاهق المقرن الذي يشرف على الوادي المذكور من شرقه. وثمة منظرة غاية في الروعة والبهاء على الغوطة ووادي بردى وجبل الشيخ.

وإذا عاد هبوط الوادي نجد طاحونة وسط بستان مشمش، والمكان جد مزين، ويجد ثمة مدخل مضيق حرج للغاية انحصر بين صخور عمودية ارتفاعها أكثر من ٣٠ م وفيه مجاز وجدول قد شق فأحدث مجال المرور، وينبع هذا الجدول من بعد ٢٠٠م عن ذلك المكان من عين تدعى (عين الصاحب) مقصد المنتزهات من دمشق.

وعلى الصخرة العمودية التي تشرف على المضيق المذكور من غربة ويلمح نصبان أو قبران من العهد الروماني، وعلى النصب الذي لناحية الغرب كتابة يونانية واضحة القراءة. وبدلاً من عبور الوادي إذا سار محاذياً الصخرة المذكورة نحو الغرب وتسلق الحواجز العمودية ومر من أمام نصب ثالث يصل خلال ١٠ دقائق إلى قبر كبير منقور في الصخر عرضه ٦م وعلوه ١٥ أحاط به عمودان جميلان يحملان فرونتوناً. ويتبادر إلى الظن أن السكة القديمة التي كانت تمتد من قرية سوق وادي بردى (أبيلا) إلى حلبون كانت تلف حول هذا الشنخاب الصخري، وبهذا يعلل وجود هذه الآثار.

وبعد عبور المضيق المذكور يسلك طريقاً يتبع وادي حلبون فيبلغ بعد نحو ساعة قرية حلبون، وهي مبنية في قعر وادٍ موحش تشرف عليه جبال شاهقة.

ويظن أن حلبون هذه هي القديمة التي ذكرها حز قيال (٢٧ ، ١١٨)، ويظن آخرون أنه هي التي ذكرها استرابون وبطليموس ونوها بشهرة خمورها. فالكروم لا تزال موجودة حول القرية بكثرة، لكن أعنابها لا تصير الآن خموراً بل زبيباً فقط. وكانت شاليبون من أعمال مملكة (ليسانياس) المربعة. ويلحظ في بيوت هذه القرية وجدرانها قطع أعمدة وأحجار منحوتة أثرية. وفي أسفل القرية يوجد مكان فيه هيكل. وجامع القرية بارز للعيان بمئذنته القديمة الشبيهة بالبرج. وأمام الجامع يوجد شبه طارمة تتألف من ثلاثة أعمدة أثرية قد أعيد تأليفها من عدة قطع ووضع على رأسها تيجان جميلة. وفي أسفل الجامع ينبوع ماء غزير.

ومن حلبون يمكن أن يبلغ وادي بردى خلال ٣ ساعة. ففي الساعة الأولى يبلغ المضيق الأثري وهناك يسلك مجازاً على اليمين (نحو الغرب) وبعد أن يجتاز هضبة (٢ ساعة) فيها منظر جميل يلج في وادٍ سحيق يجري فيه أحد روافد بردى ويصب في بسيمة .

ومن حلبون يمكن أيضاً أن يبلغ الزبداني ماراً ببلودان: يتوقل سطح الانصباب الأيسر لوادي البساتين وبعد ٢٢ دقيقة يهبط الوادي فيصل خلال ٤ دقائق إلى ينبوع ماء غزير يدعى عين الفاخوخ، ثم يعود للتوقل في الوادي الأصلي فيصل بعد ٢٦ دقيقة إلى مفرق، فيأخذ منه نحو اليمين مدة ٤٥ دقيقة وفي آخرها، يشرف على منظر رائع نحو غوطة دمشق، وبعد ١٧ دقيقة يهبط وادياً قعره (٢٦ دقيقة) مزروع، ثم يعود للصعود نحو اليمين فيخرج بعد ٢٤ دقيقة إلى هضبة صغيرة، وبعد ١٧ دقيقة ينزل إلى قرية بلودان (١٤٧٧م)، ومن بلودان إلى الزبداني طريق معبدة.

أو يمكنه أن يتجه غرباً فيمر بقريتي أفرة وهريرة الشاهقتين (١٤٥٢) والمشتهرتين بجبسهما الذي يصدر إلى دمشق.

عودة - وبعد منين، يزداد الصعود إلى أن يخرج إلى سهل فسيح يدعى سهل صديانا - في الكم ٣٤ يدور نحو اليسار تاركاً الطريق قبل بلوغ مفرق قرية المعرة، وهي ترى على اليمين وسط السهل ووسط الحقول المزروعة، ذات دور حديثة الطراز

نظيفة تشبه قرى لبنان تؤمها بعض الأسر المسيحية من دمشق للاصطياف وأمامها في الشمال في سفح الجبل وعلى بعد ٤ كم قرية صيدنايا التي تظهر كلها فجأة فوق ذروة أخرى صغيرة.

في الكم ٣٧ صيدنايا ـ قرية كبيرة، علوها ١٤١٥ وسكانها ٢٢٤٠ نحو نصفهم أرثوذكس، ونصفهم كاثوليك وثمة عدد ضئيل من المسلمين وفيها مخفر درك. وهي مبنية نصفها في السهل ونصفها فوق نشز على ذروته قد انتصب دير يشرف على القرية كأنه الحصن المنيع. بل هو يقوم أحياناً مقام الحصون ويلجأ إليه سكان القرية في أيام الفتن.

يعزى بناء هذا الدير إلى يوستيانوس، وفي الواقع أن قسماً كبيراً من الطوابق السفلى قديم. وقد كان طيلة عهد الصليبيين مزاراً يحج إليه في غاية من الاحترام الصليبيون وحتى المسلمون. لأن سلاطين المسلمين في دمشق كانوا يقدمون زيت مصابيح لهذا الدير. يدخل إلى هذا الدير، بعد تسلق عقبة كأداء مدرجة من باب ضيق واطىء ذي مصاريع حديدية، تعلوه ورود بارزة منقوشة من عهد النصرانية وبعد عبور الباب يجد الزائر نفسه وسط متاهة من الباحات والسلالم والقلالي والسطوح والممرات المسقوفة، وكلها قد بني دون أي تصميم مشترك، وفي ارتفاعات مختلفة. ولهذا يضل الزائر إذا سار وحده، إلا أن الراهبات (وهن من الروم الأرثوذكس) يتقدمن عن طيبة خاطر إلى إرشاده.

وليس في كنيسة الدير أي جاذبية خاصة، والقسم الأكثر نفعاً في الدير هو كايلا تحتوي على صورة عجيبة للعذراء. وهذه الكايلا (من العادة أن تخلع الأحذية عند الدخول) عبارة عن غرفة صغيرة ذات أضلاع كثيرة ضيقة وواطئة وبدون نافذة وقد لبست جدرانها بإيقونات مذهبة ـ والجدار الشرقي يحتوي على بيت قبر مقدس من الفضة، وفي هذا البيت الصورة العجيبة للعذراء قد حفظت وسط أيقونة، (ترى العذراء حاملة الطفل يسوع)، وتفسر زيارة هذه الصورة، بأساليب مختلفة ومهما يكن فأكبر وقت للزيارة هو ٢١ أيلول في كل سنة، يتقاطر فيه ألوف من الزوار.

وفي فصل الصيف يتوافد إلى صيدنايا عدد من المصطافين الدمشقيين، وهؤلاء يجدون في غرف الدير مساكن قليلة الكلفة.

وفي الدير سطوح واسعة لها مناظر ممتدة تشرف على قرية صيدنايا وسهلها. وعلى بعد نحو مائة متر من الدير بناء أثري صغير (هيكل أو ضريح) لايزال سالماً، قد حول في عهدنا إلى كنيسة باسم بطرس وكل الصخور المجاورة قد نقرت فيها كهوف مقبرية. وفي شمالي الدير ينتصب جبل اسمه جبل الثرا بين علوه ١٥٠٠ م على أسناده عدة كايللات مكرسة لبعض قديسي الكنيسة الأرثوذكسية.

ومن صيدنايا يمكن السفر إلى النبك ماراً بالهضبة التي تمتد بين كتلتي جبال آنتي لبنان. إلا أن الطريق لا يسلك إلا في الفصول الجافة ولا تقطعه السيارات إلا بعد قرية رنكوس. وتفصيله أن الخارج من صيدنايا يهبط نحو السهل فيدرك في الكم ٣٩ من طريق آخر، الطريق الذي تركه قبلاً، فيسلكه هذه المرة نحو الشمال الشرقي تاركاً على يمينه المجاز الذاهب إلى المعرة.

في الكم ٤٧ يترك على اليمين مجاز معلولا ويتجه نحو الجبل فيلج فيه قعر واد والطريق يزداد وعورة وصخوراً من مكان إلى آخر.

في الكم ٥٢ رنكوس ـ قرية دورها المبنية من الحجر المجفف تختفي وراء إحدى طيات الجبل، وليس في جوارها أي أثر للخضرة. ومما يلفت النظر فيها أن النساء يلبسن أثواباً حمراء.

ويخرج من رنكوس متوقلاً جبل الوز في صعدة غاية في الوقوف. ويرسم الطريق فيها خلال ٤ كم، عدداً وفيراً من المنعرجات الشديدة الخطر التي تمتد كالكورنيش فوق المسيل، (فالممر سقيم وخطر) حتى يبلغ في صعوده الهضبة (في الكم ٥٦) فيجد نفسه حينئذ إزاء السلسلة الأصلية لجبل سنير (انتى لبنان). ومن بعد هذا المكان يصير الطريق حصوياً تقاطعه في أماكن كثيرة أخاديد ذات مستنقعات.

في الكم ٦١ في اليسار ينفصل المجاز الذاهب إلى قصر نمرود طوله نحو ٨ كم وهو قرب نبع اسمه الجوزة ويلمح من بعد. (لم يبق من قصر نمرود سوى الجدار الغربي لقدس الأقداس للسيللا المبنية بأحجار وسط في ضخامتها وهي على وشك الانهدام التام، وسوى بضعة أعمدة للرواق الأمامي، وهذه الأعمدة من الطراز

الدوريكي ولا يزال على رؤوسها (آنتا ملجان) الأقسام العليا الحاملة للسقف. وواجهة الهيكل كانت في الشمال، وكان ذرعه نحو ٢٠م في ١٢,٥ ، وكان يستند في طرفه الجنوبي على أكمة في وسطها مغارة عميقة أما السيللا فقد كان ذرعها ١٠م في ٤,٥ وكل الأرض حول الهيكل مغطاة بأنقاض من الأعمدة، وقد وجدت بين هذه الأنقاض كتابتان أحدهما أغريقية والثانية سريانية. الأولى على عتبة مكسورة والثانية على عمود، ومعهما صليبان أغريقيان من الطرز القديمة قد رسما تحت الكتابة: فهذه الآثار تحمل على الظن بأن قصر نمرود إنما هو هيكل أغريقي، وربما كان من عهد السلوقيين، ثم حول إلى كنيسة في القرن الأول الميلادي. ويلحظ شكل البناء والبساطة البالغة في طرازه وسذاجة زخارفه).

في الكم ٦٢ على اليمين حوش مزرعة منفرد اسمه المعمورة - في الكم ٦٤ تل فطايا حوش ثانٍ اسمه تل فطايا حوله مرج فسيح يسيل في جانبه جدول عليه طاحونة، والعلو ١٣٥٠ - في الكم ٦٨ قرية عسال الورد أعلى قرى هذه النجود الشاهقة الباردة.

ومن بعد عسال الورد تزداد وعوثة الطريق وتقاطعه جلاميد صخور وأخاديد واسعة - في الكم ٧٥ قرية الجبة بيوتها من الأحجار المركومة.

ومن بعد الجبة يصير المشهد مطرداً كئيباً وسط هذه المرتفعات الجرداء البيضاء - في الكم ٧٩ ضيعة الكبرى مبنية على مدرج من الصخور - في الكم ٨١ معرة باش ضيعة قائمة على منحدر صخري. - ومن ثم تعود الأرض للسهولة، وينحرف الطريق نحو الكتلة الجبلية المنسوبة لمعلولا - في الكم ٩٥ مفرق: ففي الشرق على بعد ٥٠٠ م رأس العين، وفيها عين ثرة تحف بها الأشجار. وثمة مقابر أثرية عديدة يعلوها منحدر عمودي قد نقرت فيه كهوف طبيعية. ثم يجد أمامه أكمة طبا شيرية في سفحها قد شيدت قرية يبرود حول ينبوع غزير جداً.

في الكم ٩٩ يبرود قرية عظيمة، علوها ١٥٥٠ سكانها ٤٤١٠، منهم ٢٦٣٢ مسلمون و ١٦٩٠ روم كاثوليك. وهي مركز ناحية ومقر مطرانية للروم الكاثوليك ووسط نصراني ذو شأن وفيها سوق حافل ومخفر درك.

كانت يبرود في العصور القديمة مكاناً ذا شأن وجزءاً من مملكة أغريبا الثاني. ولعلها كانت قبل ذلك من أجزاء مملكة ليسانياس المربعة فقدمها إلى أغريبا كلود سنة ٥٣م. وقد عثر المنقبون في روما على مذبح مكرس باسم جوبيتر مالك اليبرودي. (ماليس يبروديس) والقرية الحالية تؤلف مجموعة عظيمة، تحيط بها البساتين الغناء، وقد بنيت وسط دائرة واسعة من الصخور وفي حضيض أكمة طباشيرية. وليست مزية هذه القرية في موقعها بل في دورها المبنية من الحجارة الرخوة ذات البياض الباهر للعيون وفي شوارعها ذات الأقواس المصفوفة التي تجري فيها من مكان إلى آخر سواقٍ وجداول تحف بها أشجار الصفصاف، وفي أشكال سكانها ولاسيما النساء (ويكاد يكون عموم سكانها نصارى) الذين في هيئاتهم تناسب عظيم، وتختلف قليلاً أزياء يبرود عنها في معلولا. في يبرود لا يوجد أثرية ما عدا الكنيسة وهي من العهد اليزنطي، بيد أن يبرود من الضواحي الجليلة الشأن حول دمشق بحكم مزاياها الشديدة الاختصاص وبحكم استمرار عادات وصناعات محلية (كصناعة المنسوجات الغليظة من شعر المعزى والطاقيات من الدانتيلا. . الخ وفي دورة الأكمة الطباشيرية منظر جميل نحو القرية. ويمكن أيضاً التقدم نحو الجنوب إلى رأس العين ـ ومن يبرود يدرك في طريق جيدة بعد ٩ كم طريق حمص دمشق عند مدخل النبك.

بعلبك وضواحيها

بالقطار من بيروت ٩١,٨٠ كم في نحو ٣,٥ ساعة، من طرابلس عن طريق حمص ١٦٠ كم في ٥,٤٥ ساعة، من دمشق ١٠٧,٣ كم في ٣,٢٥ ساعة.

بطريق السيارات من بيروت ٩٠ كم من طرابلس عن طريق الأرز ـ من دمشق عن طريق شتورا ١١١,٥ كم ـ عن طريق سرغايا نحو ٩٢.

بعلبك ـ بلدة سكانها ٥٠٠٠ وهم ٢٣٥٠ شيعة، ١٧٥٠ مسلمون سنية ٦٠٠ روم ملكيين ٢٥٠ موارنة ١٠٠ أرثوذكس مركز قضاء بعلبك، تقع في طرق سهل البقاع البعلبكي أو الشمالي الخصب، وسط واحة خاصة بها، علوها ١١٥٠ متراً، وهذا

العلو الذي تتمتع به يهيء لها درجة لطيفة تجعلها مقصد المصيفين الهاربين من رطوبة الساحل والحر الجاف جداً في الداخل.

وفيها محطة قطار غربي البلدة وعدة فنادق من الدرجة الثانية والثالثة ودور حديثة جميلة وكنائس وجوامع.

مر ابن بطوطة ببعلبك سنة ٧٢٦ فوصفها في رحلته قائلاً: وهي حسنة قديمة من أطيب مدن الشام، تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المنيعة وتخترق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية، وبها من حب الملوك ما ليس في سواها وبها يصنع الدبس المنسوب إليها، وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب، ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التي يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالملبن، ويسمونها أيضاً بجلد الفرس وهي كثيرة الألبان وتجلب منها إلى دمشق، وبينهما مسيرة يوم للمجد ويصنع فيها الثياب المنسوبة إليها من احرام وغيره، ويصنع بها أواني الخشب وملاعقه التي لا نظير لها في البلاد، وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع في جوفها وأخرى في جوفها إلى أن يبلغوا العشرة يخيل لرائيها أنها صحفة واحدة وكذلك يعملون بالملاعق يصنعون منها عشرة واحدة، في جوف واحد ويصنعون لها غشاء من جلد ويمسكها الرجل في حزامه، وإذا حضر طعاماً مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه أنها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة (هذا الذي كان لم يبق منه أثر الآن).

التاريخ قلما يعرف شيئاً كافياً عن بعلبك في العهود التي سبقت العهد السلوقي إلا أن اسم هذه البلدة يدل على أنها بنيت في العهد الفينيقي باسم (باق آل بقا) أي سيد البقاع ويجب دحض النظرية التي تجعلها إحدى مدن الملك سليمان (سفر الملوك ١٨٢٩)، وبعد فتوح الإسكندر سكن اليونان في هذه البلاد فسموا هذه المدينة باسم هليويوليس (مدينة الشمس)، وقد طبق هؤلاء القادمون الجدد اسم بعل السامي على اسم معبودهم الشمس. وفي زمن اغطوس قيصر صارت بعلبك كبيروت مستعمرة رومانية وصارت عنايتها مرغوبة رغبة عظيمة. ومن ثم صار الإله الشمس يدعى (جوبيتر البعلبكي) وصار يعبد حتى في بلاد الغرب، وشيد القياصرة الرومان له في

بعلبك هيكلاً عظيماً مكان معبد قديم كان متواضعاً جداً ، ودامت الإشارة من عهد انطونين التقي (١٣٨ ـ ١٥١ ب.م) إلى عهد كاركلا (٢١١ ـ ٢١٧) وأقيمت لجوبيتر ولغيره من المعبودات التي رافقته هياكل، لاتزال خرائبها الكئيبة شاهدة بعظمة وفخامة المشاريع التي اتخذت.

أما عهد النصرانية الذي وافى بعد فهو فضلاً عن أنه أبعد الأمن والسلام، عهد الخراب والدمار، فقسطنطين (٣٢٤ ـ ٣٣٧) ألغى عبادة فينوس. وتئودوس (٣٧٠ ـ ٣٩٥) هدم قسماً من الباحة الكبرى ومن واجهة هيكل جوبيتر لكي يبني فيه كنيسة. وجاءت الزلازل تزيد الدمار أيضاً. ثم في سنة ٦٣٤ دخلت بعلبك في حوزة المسلمين القادمين بقيادة أبو عبيدة، وفي القرن ٧ هـ/١٣م قلب المسلمون هياكل بعلبك ومبانيها إلى قلعة حصينة (فيها الأسور والشرفات والمرامى والأبواب السرحية وغيرها)، وكان تاريخ بعلبك حتى الفتح العثماني سنة ١٥١٧/٩٢٢ مفرغة من الحروب والفتن زادها الصليبيون في مهاجماتهم ١١٧٦/٥٧١ بقيادة ريموند حاكم طرابلس فأوجبت خراب مبانيها الأثرية وفي سنة ١٦٦٤/١٠٧٥ ثم في سنة ١٧٥٩/١١٧٣ حدثت زلازل عظيمة دكت بعلبك وهياكلها دكاً هائلاً وفي سنة ١٧٥١/١١٦٥ جاءها السائح الإنكليزي وشاهد تسعة أعمدة من هيكل جوبيتر، وفي سنة ١١٩٩ هـ/١٧٨٤ لم يشاهد فولناي الفرنسي أكثر من ستة، هي الباقة حتى الآن.

آلهة بعلبك ـ قد أجمعت الآراء في زماننا على أن الآلهة التي عبدت في بعلبك كانت تؤلف ما اتفق على تسميته بالثالوث البعلبكي (جوبيتر وفينوس ومركور) إلا أن الصعوبة تبدو في معرفة أي المعابد الجليلة كانت مخصصة لهم، بيد أنه يظهر أن الهيكل الكبير كان مخصصاً لجوبيتر، الباقي منه ستة أعمدة، وأن الهيكل المنسوب لدى العموم خطأ إلى باخوس كان مخصصاً بفينوس. أما المعبد الذي كان مخصصاً بمركور فلعله هو الذي اكتشف وسط البساتين خلال التنقيب الحديث الذي جرى في ١٩٢٧/١٣٤٥ ـ ١٩٢٨/١٣٤٦ وثمة سؤال.. مقام أي المعبودات المحلية قامت هذه الآلهة؟ الجواب، أن جوبيتر خلف حدد، وفينوس خلفت عشتروت، أما مركور فإنه لم يكن مما جلبه الرومان معهم، ربما كان خليفة الإله السامي

المسمى سيميوس.

استعمال الوقت - لابد لزيارة بعلبك من يوم على الأقل. ففي الصباح تزار الهياكل، والهيكل الصغير المنسوب بفينوس والجامع الكبير. وبعد الظهر، ورأس العين، وعند الغروب الهياكل الظاهرة في الركن الجنوبي الغربي من الآكرويول[2] وإذا كان لدى الزائر وقت أفسح يمكن أن يزور البقعة التي فيها الدياييس، والأخرى التي جرى فيها التنقيب سنة ٩٢٧ - ٩٢٨ وأن يصعد على أكمة الشيخ عبد الله، ومن استطاع أن يقضي ليلة في بعلبك عليه أن لا يفوتها، لأن ألوان وقت الغروب والشفق ومشاهدهما، وأشباح الهياكل التي تتدرج بالقناعة هي ذات أثر لا يمكن نسيانه، أما طلوع الشمس فذو أثر أروع وأبدع بحكم الألوان التي يظهرها.

(اجرة الدخول ليرة سورية عن الشخص تدفع عند الممر المغطى الساباط) إن مجموع الهياكل الكبيرة يؤلف ما يدعى أيضاً بعض الأحيان بالأكرويول (القلعة) وهو قائم في غربي البلدة ووسط البساتين. وهناك كتلة من المباني الضخمة المتراكمة: منها هيكلان وباحتان يتقدمهما مدخل فخم، وسور قد بنى العرب فوقه حصوناً وصياصي، وخندق يكاد يكون هاوية هائلة قد ملئت لحسن الحظ بالردم الذي ألقته فيها البعثة الألمانية سنة ١٩٠٠ - ١٩٠٤ بعد أن أتقنت التنقيب والكشف.

فالمداخل - كانت بقرب درج عظيم عرضه ٥٠ متراً يفضي إلى رواق يحدق به برجان ويزينه في جبهته صف من الأعمدة (لا تزال قواعد ١٢ ظاهرة في المكان)، وثلاثة من هذه الأعمدة تحمل كتابة لاتينية فيها دعاء بسلامة كاراكلا (٢١١ - ٢١٧).

وقد كان لأورليوس أنطوان لونجين شرف طلي التيجان المعدنية للأعمدة المذكورة بالذهب وعلى نفقته الذي فيه، وزيادة في تمجيد إله بعلبك زخرفوا زخرفة ثمينة كل جدران الرواق الذي فيه ثلاثة أبواب كبيرة (الفجوة الوسطى أكبر من

(٢) الاكروبول، هو أعلى مكان ا دن اليونانية القد ة والأكرويول آثينة كان اسم قلعتها ا بنية فوق صخرة تعلو عنها و ١٥٠ قدماً، وكان يوصل إليها من مداخل فخمة وكانت قمة الصخرة توي على هياكل عظيمـة أخصها اليارثنون والاركثيون، و اثيل (آتينا يروماخوس.. ا)

الجانبين) مسدودة في وقتنا الحاضر. ولما شرع العرب بتحويل الهيكل إلى قلعة محوا الزخارف المذكورة كلها، ومن برجي المداخل اللذين كانا يحدقان بالدرج قد سقط منهما بالمرة، أما الشمالي فلا يزال نوعاً، قائماً، وهو مزين في خارجه باروقة أمامية كورنثية، ويمكن النفوذ إليه من الرواق نفسه من باب مقنطر ومحاط بعضائد ذات بطن كبير. وثمة من مكان إلى آخر بابان مسدودان في العهد الروماني، وفي داخل البرج فقد بلاط البهو، والعقد الذي كان يحمل البهو قد سقط. وزخرف الجدار مع بيوت القربان المقدس المتراكبة ذات الفرونتونات المثلثية أو المدورة ـ كلها من نفس النموذج الذي في باحة المذبح. وكثير من تفاصيل الزخرف يدل على أن العمل لم ينتهِ وقتئذ.

وكان يدخل قبلاً إلى الباحة ذات الأضلاع السداسية (المسدسة الأضلاع) من ثلاثة أبواب بقي منها الوسطاني الكبير كان العرب سدوه ثم فتحه الألمان ومما يلفت النظر في الباحة هو العتبة البارزة كثيراً التي تؤلف حد الحرم المقدس.

وهذه الباحة الأولى ذات عمق يقدر بنحو ٦٠م وكانت محاطة برواق ذي أعمدة (أحد الأسس لا يزال في موقعه عند الركن الجنوبي الغربي لا تزال مداميكه السفلى ذات الكورنيش والأسس لا تزال رسومها بارزة للعيان، مع درجاتها غير الكاملة أو المشوهة، وكان هناك أربع ردهات للاستقبال ممتدة من الشمال إلى الجنوب تنفتح على الرواق المذكور وأمام كل منها أربعة أعمدة ـ وكانت هذه الردهات مزخرفة بطبقتين من الكوى ذات الفرونتونات المثلثية أو المدورة، قد خربت بالمرة، وكان بينها صياصي بشكل زوايا، استعملها العرب وبنوا فيها كما بنوا في ردهتي الاستقبال الأوليين مجموعة من الأقبية المخبأة المحصنة معقودة بعقود بيضوية.

وفي شمالي الباحة المسدسة الأضلاع وقرب الباب الأيمن الذي ينفتح نحو باحة المذبح يوجد الرسم البارز المشهور لجوبيتر البعلبكي الذي عثر عليه في نبع اللجوج (على بعد ٨ كم من بعلبك (سيأتي ذكره).

الواجهة الأصلية: الإله لابس درعاً قرميدياً ، وعلى رأسه قلنسوة يحمل في إحدى يديه سوطاً، وفي الأخرى صاعقة. وعلى رجليه هرمز (غمد يحمل رأس مركور) بين ثورين.

الواجهة الجانبية : الثور والصاعقة وكان الثور هو الحيوان المنسوب إلى الإله السوري حدد ، (رب العواصف والصواعق) أما السوط فكان دون ريب رمزاً لأميرة الشمس.

ويمكن الدخول من الباحة المسدسة الأضلاع إلى باحة المذبح من أبواب ثلاثة لم يبق منها سالماً إلا الباب الأيمن، وهذا الطراز من الباحات المتوالية (أي التي ليست على شكل الدوائر المتحدة المركز كما هو الحال في هيكل جوبيتر الدمشقي، يعلل باتجاه الفكر السامي لجعل الوصول إلى قدس الأقداس على مراحل. وهذه الباحة الثانية تذرع ١٣٥ م طول في ١١٣ م عرض. وقد كانت مزخرفة زخرفة بالغة في جهاتها الثلاث (ماعدا الغربية) بردهات استقبال جعلت مستطيلة ونصف مدورة بالتتابع (٤ نصف مدورة و ٨ ذات زوايا قائمة ومستطيلة) مع صفين مزدوجين من الكوى التي فوقها فرونتونات، ومع جبهة مزينة بصف أعمدة (٢ للردهة النصف مدورة و ٤ أو ٦ للبقية)، وبين ردهات الاستقبال قد ثقب في جدران الفواصل كوى لوضع التماثيل، وأمام هذه الجبهة وعلى بعد ثمانية أمتار يمتد على الجهات الثلاث صف من الأعمدة (أحد هذه الأعمدة، من الحجر الغرانيتي الوردي اللون المجلوب من أصوان، وطوله ١٧,٨ أمتار، وهو لا يزال مرئياً في الركن الجنوبي الغربي من الباحة وتجاه الردهة الأخيرة). وكل هذه الأروقة والردهات كانت مغطاة بسقف خشبي ليحفظ من المطر والشمس من كانوا يجتمعون تحتها ليتداولوا أحاديث الأعمال أو ليأكلوا الضحايا المذبوحة.

وكان يوجد في هذه الباحة حوضان أحدهما في الشمال والثاني في الجنوب يحيطان بالمذبح، فالحوض الشمالي (٢٠ م × ٧,٥م) هو أكثرهما سلامة ونفعاً ، ورغم التشويه لا يزال يظهر في هذا الحوض قطع رسوم مزخرفة زخرفاً دقيقاً جداً (كصور تريتون ونرئيديس ومدوز يبدون راكبي التنانين) تتعاقب مع أوضاع أكثر اختصاراً مستعارة من الفن القبوري (كالجن وحملة العقود.. الخ) والحوض الجنوبي ذو زخرف مختلف عن الأول وأبسط وقد خرب للأسف قسم منه واختفى تحت بناء عربي.

وهناك بازيليكا نصرانية ربما شيدها تئوديوس قد هدمت كل الوضع المنظري للباحة الكبرى. وهي التي تلحظ حينما يخرج الزائر من الباحة المسدسة الأضلاع، وبناؤها ليس متجانساً ففي بادىء الأمر معبد ينفتح مدخله نحو الشرق، له درج عظيم لا تزال أنقاضه بادية، وله خورس متجه نحو الغرب، ومن بعد زمن غيروا اتجاه الكنيسة، فبنوا في الشرق أمام البوابة القديمة حنية جديدة، وجعلوا في مدخل المعبد باباً في الغرب وآخر في الخورس القديم.

وفي الطابق الأسفل من البازيليكا وبين الروم وجدوا المذبح القديم لضحايا الهيكل الوثني. ويظهر أن النصارى حاولوا أن يهدموه دون جدوى تامة، ولا يزال يلحظ فيه الدرجات التي كان يهبط منها الكربان لذبح الضحايا.

هيكل جوبيتر البعلبكي، مبني فوق طبقة سفلى كانوا يصلون إليها من مدرج عظيم البناء لا يزال بالإمكان رؤية كل سعته رغم الحنية البيزنطية التي أقيمت فوقه، وعلو هذا الهيكل ٧,٥٠ هو بذلك يشرف على جميع المباني التي حوله، كما أنه أعلى من أرض الحدائق المجاورة بـ ١٣ متراً، وهو يشغل مساحة طولها ٨٧,٨٥ م وعرضها ٤٧,٧٠م وكان يتألف من سللا حفظوا فيها تمثال الإله، وأحاطوها برواق جد فخم: عشرة أعمدة في الجبهة و ١٩ عاموداً في الجهات الطويلة، فالمجموع ٥٤ عموداً، ولم يبق الآن سوى ستة أعمدة للرواق الأمامي الجنوبي.

بلغ علوها مع القاعدة والتاج عشرين متراً وقطرها ٢,٢٠ متراً (والبدن مؤلف من ثلاث اسطوانات وهذه الأعمدة تحمل عمامة ذرعها أكثر من خمسة أمتار. وفي هذه العمامة ارشيتراف طنف ثم إفريز مزخرف بـ الثيران والأسود مرتبطة على شكل عقد زهري صغير، وفيه كورنيش قد نقش نقشاً بديعاً جداً على حروف السين الإفرنجية المتداخلة وعلى شكل الآلي والبيض، وفيه زوافر صغيرة ذات تقويس حلزوني، وزخارف على شكل الأسنان، والأرضي شوكي ورؤوس الأسود وأفواه الوحوش الضارية، وبقية مكسرة من هذا الكورنيش توجد في الجنوب الشرقي بين الهيكلين، وهي جديرة بالفحص وحالة صف الأعمدة الكبيرة تستدعي الخوف والحذر، ويكفي أن يرى الزائر في الداخل العمود الثالث اعتباراً من اليسار.

وإذا سـار الزائـر في محاذاة السـور الغربـي يـرى أساسـي أعمـدة الـرواق الأمـامي الغربي للهيكل وهما لا يزالان في مكانهما فيصل بذلك في الركن الجنوبي الغربـي إلى بـاب صـغير ينفتح على سـطح صـغير يطـل منـه علـى منظـر جد رائـع نحـو بـساتين بعلبك وسهل البقـاع وسلسلة لبنـان وفيـه يحيط ويفهم كـل أهميـة العـروق والمداميك السفلى التي كانت تحمل صف الأعمدة والجدار الشاهق الضخم الذي كان تجاه سطح الهيكل.

وإذا عـاد إلى الـوراء وعـاد للقـاء صـف الأعمـدة الكـبيرة تاركـاً إيـاه علـى الـيمين يجد مجازاً ذا انحدار صعب يفضي إلى حضيض العروق والمداميك السفلى الشرقية، فيترك هذا المجاز سائراً فوق رضام ضخمة غاية في الضخامة كانت تحد السطح في شـرقه وهـذه الرضـام هائلـة، ومعـدل قياسمهـا ٩,٥ م طـولاً و ٤ م علـواً و ٣م ثخنـاً وقـد جمع بعضها إلى بعض في غاية من الضبط وكـان في خارجها صفوف من الثقـوب، عملت في مقالعها تمهيداً لأعمال آلات النحت، وفي الشرق وخارج السطح كثير من تيجـان الأعمـدة وعتبـة عليهـا حـروف ترمـز لاسـم المـسيح، نزعـت مـن بازيليكـا تئودسيوس.

هيكل باخوس. هذا الهيكل ما برح سالماً في النسبة، وهو يعطي فكـرة حسنة عمـا كـانـت عليـه معابـد بعلبـك وهـو أقـل ارتفاعـا مـن هيكـل جـوبيتر ومـستقل عنـه تماماً.

وممـا لاريـب فيـه أنـه كـان أمامـه باحـة لهـا مـذبح وكـان يوصـل إليـه مـن الـشرق بـسلم فخـم البنيـان ذي ٣٣ درجـة مقطـوع ثـلاث مـصاطب. وكـان هـذا هـيكلاً ذا خطـوط منحنيـة طولـه ٣٣م وعرضـه ٣٦م) ولـه رواق يحـيط بالـسيللا (٨ أعمـدة في الجبهة و ١٥ على الجهة الطويلة) وقسم متقدم يدعى برونـائوس مـزين بأعمـدة مقـورة (اثنـان مـن هـذه الأعمـدة مـازالا بـاقيين علـى سـلامتهما وهمـا علـى يسار البرونـائوس) ويبلـغ علـو الأعمـدة بمـا فيهـا القواعـد والتيجـان نحـو ١٩ متـراً وهـي تحمـل آنتـا بلحانـا كثير الزخـرف قـد زخـرف إفريـز هـذا أيضاً بيروتـوم الأسـود والـثيران متـصلاً بجـدار السيللا ببلاطات جد ضخمة منحنيـة قليلاً مـن الخـارج إلى الـداخل، وهـذه الـبلاطـات تؤلف سقفاً ذا قسائم كثيرة النقوش البديعة.

وإذا زار السائح هذا الهيكل بعد زيارته هيكل جوبيتر يصل إلى طبقته السفلى فيجدها مبنية بأحجار غاية في جودة النحت وإتقانه، وإذا صعد سلماً ذا بضع درجات يجد نفسه وسط رواقه الأمامي، وهو أكثر الأروقة سلامة، وله تسعة أعمدة لا تزال واقفة هي وسقفه ذو القسائم.

يرى فيه تماثيل عدة آلهة منها مارس المدرع (ثمة فراغ بحكم سقوط إحدى القسائم) نصرة مجنحة - ديانا تأخذ عن يمينها سهماً من كنانتها مع قرن البركة - ولقان ومطرقته باخوس - سرس آلهة الزراعة حاملة حزمة سنابل، ومما يلفت النظر قواعد الأعمدة التي جوفها أناس مخربون بقصد التحري على قطع البرونز التي كانت تستعمل للربط.

أما الرواق الأمامي فهو على خلاف الأول ليس له سوى ثلاثة أعمدة سالمة. خمسة أعمدة أخرى قد انفك بعضها عن بعض، لها أطوال مختلفة، والاسطوانات قد سقطت إلى الخارج فوق بناء عربي، والزائر يتخطى أو يدور حول قسائم سقف مقطعة الأجزاء مطروحة على الأرض ويصل إلى الركن الجنوبي الشرقي، وفي هذا الركن يتمكن من أن يلقى بنظرة واحدة على كل المباني العربية (المسجد ومباني التحصين كالأبراج والمرامي والأبواب السرية) والرواق E قد تهدم خاصة خلال زلزلة سنة ١١٧٣هـ /١١٥٩م وقد بقي منه في المكان أربعة أعمدة، وعمود آخر منه قد استند على جدار السيللا وحفظت قطع الحديد الروابط ارتباط اسطوانات بدنه بعضها ببعض وقواعد الأعمدة الزائلة لا تزال سالمة.

وتمتد في طول الجدار قطع ساقطة من قسائم السقف المنقوش منها غانيمد الأمير الذي حمله نسر، وهو أحد أمراء اليونان من تروا - بعلبك على جانبيها تمثالا نصر يحملون قناعاً - آلهة حامية بقعة مبنية على ضفاف نهر وفي أعلى الأعمدة السالمة يظهر في القسائم تماثيل الآلهتين الخزفيتين مدوز وسيلفان.

وهكذا يصل الزائر إلى القسم المتقدم من الهيكل ويواجه بوابة عظيمة البنيان تحضن السيللا، وهي من أعظم وأفخم بوابات العالم (علو ١٣ م وعرض ٧,٥) لها إطارات في الجهات الثلاث منقوشة نقوشاً ذات رقة خارقة للعادة منها حزم سنابل وخشخاش، غصون من شجر العنب ونبات المدادة المتشابكة، وتحتها موضوعات

تاريخية قد قطعت أجزاؤها ويا للأسف. وعلى اليسار صبي ترضعه جنية وفي أعلاها الإله يان والآلهات والراهبات اللواتي كن يرقصن ويحتفلن بإكبار باخوس وأعياده. وعلى اليمين آمورس قطافو العنب وسقف العتبة المؤلفة من ثلاث قطع رخام مزخرف بزخارف لم تفهم بعد، منها نسر يقبض بين مخالبه على غصن زيتون في رأسه جناحان وحوله تنينان متداخلان ويقبض في منقاره على أطراف عقد طويل من الزهر يحملها جنيان (وفي حصن سليمان في جبال النصيرية يوجد لهذا النسر شبه) وعلى يمين البوابة وفوق الباب الصغير الذي يفضي إلى الدرج الموصل إلى أعلى الجدار، يوجد إفريز، ذو طراز كثير الاختلاف، يمثل موكباً للضحايا.

والسللا تذرع ٢٧ م في ٥٠ م كانت مزينة زينة بالغة بالأعمدة المقورة وبصفين من بيوت القربان المقدس ذوات فرونتونات نصف دائرية ومثلثية. ومما كان فيها وضاع أعمدة صغيرة وتماثيل كانت فيما يظن على غاية من جمال الزينة، كانت موضوعة في جوف السيللا وأمامها درج ذو منحدرين - وكان فيها أيضاً نقوش بارزة مشوهة تشويهاً زائداً يحول دون الإحاطة بمغارها، بيد أنه يظهر منها ثلاثة رقاصين وكان المزين بأعمدة نصفية تشبه التي في الجدران الجانبية. وكان هناك فجوة كبيرة.

وسكانية تمكن المؤمنين من رؤية تمثال الإله، وكانت هذه الفجوة موضوعة تحت سرداق، وقد وجدوا أحد قواعد الأعمدة الصغيرة التي كانت تحت هذا السرداق، والسرداق كان يركب على أربع ركائز مستندة ظهورها إلى الجدار الأخير. وكان الطلسم الأسفل من السرداق منقوشاً ولكن موضوعات النقوش مشوهة جداً، ويظن أنها تمثل على اليسار باخوس وآريان وموكباً، وعلى اليمين باخوس قاعداً على فهد ومحاطاً. وكانت تحت كهف مقبري ينفذ إليه من درج ينفتح في الشمال.

وإذا عاد الزائر نحو المدخل يرى الدعامتين المربعتين اللتين تحيط بالبوابة وتحتوي على سلالم دوارة، وقد خرب نصف الدعامة اليمنى وسلمها أصبح مكشوفاً أما الدعامة اليسرى فلم تمس بسوء وهي مزينة بورق الأرضي شوكي من قاعدتها إلى تاجها. ومن هذه النقطة يصعد الزائر ليصل إلى القسم الطافح من الرواق الأمامي وفي أعلى البوابة يكون المشهد جميلاً جداً نحو سيللا الهيكل.

وفي خارج القسم المتقدم من الهيكل وفي شرقه قد بنى العرب مباني فوق السلم القديم للهيكل، ويمكن أيضاً الصعود إلى قمة البرج وإلى السطوح، التي فيها مناظر ممتدة جميلة نحو البقاع ولبنان الشرقي، وكما قلنا سابقاً نقول إن هيكل بعلبك الثاني - رغم زية ديونيسية (باخورية)، ينبغي أن يكون مكرساً إلى فنوس آستراكايتس وهي الآلهة لجوبيتر- هاداو.

الأقبية وجدار السور - يخرج الزائر من الهياكل ماراً تحت نفق عظيم معقود (ذرعه ١٢٠م في ٥٠م) وهو يعد من الأقسام السفلية المخصصة لحمل الباحة الكبرى للمذبح وهناك سردابان متوازيان متصلان اتصالاً عمودياً بسرداب ثالث، وتؤلف هذه السراديب الثلاثة دهاليز عظيمة تمتد في محاذاة أقبية وأبهاء، ولعلها مخازن أم ملاجئ للحجاج.

وقبل الخروج من السرداب الجنوبي، وهو في قرب لوح الحارس يزار أحد هذه الابهاء التي زينتها تفاجئك مفاجأة، ويوصل إليها من درج ومن ممر ضيق ينفتح نحو بيت قربان مقدس قديم وسقف البهو منقوش نقشاً بديعاً بالقاسم المسدسة الأضلاع مع مدايونات وسماوات، والواجهة الداخلية الشمالية (التي فيها المدخل الحالي) مزينة ببيوت قربان مقدس ذات فرونتونات مثلثية أو مدورة، منفصلة بركائز كورنثية، وبالنظر إلى زينته المعتنى بها جداً يظهر أن هذا البهو كان مخصصاً للحفلات والمآدب الرسمية أو مخصصاً إلى كبار الرؤساء من الاكليروس الروماني.

وكان هيكل جوبيتر مبنياً - كما رأينا - فوق طبقة سفلية واسعة أوجبت رفع جدار سور عظيم هائل، ويمكن مشاهدة هذا السور والإحاطة به بسهولة من خارج الخرائب إلى مشهد بقايا الجدار الغربي، وثمة مجاز صخري يسير بحذاء القسم المتقدم الجنوبي من هيكل باخوس، ويلف حول برج زاوية، إن هذا المجاز يفضي إلى أسفل السور المذكور المشهور بمجموع المباني المنسوبة إليه، وفي هذا السور أساس مؤلف من أحجار وسط في ضخامتها، وصف من الرخام التي ينبغي أن تؤلف بروفيل الأساس (والمتوسطة من هذه الرخامات تذرع ٩,٥ × ٤×٣) وأخيراً الأحجار الضخمة الثلاثة التي كانت فيما يظهر تحمل بروفيل رأس السور، وذرعها من اليسار إلى

اليمين ١٩,١٠م و ١٩,٣٠م و ١٩,٥٦ طولاً في ٤,٥٠ م علواً و ٣,٧٥ عرضاً (وكل رخامة تزن نحو ٧٥٠ ألف كيلو غرام).

ويظهر أن التصميم الأولي كان يرمى إلى بناء كل جدار السور من هذه الأحجار الهائلة، ويظهر أن عظمة المشروع والمصاعب التي نجمت عن تنفيذه اضطرتهم إلى العدول عنه، وإلى أن يصغروا ذلك المخطط الهائل قليلاً. (ويرى في المقلع حتى الآن حجر اسمه (حجر الحبلى) نحتوه ولم ينقلوه.

وعلى بعد ٢٠٠ متر من الآكرويول هناك هيكل صغير باسم فينوس. إن حالته الخربة (خرابة) وأطلاله التي لا تزال قائمة قد شجعت على ترميم هذه السيللا الكنيسة التي تعد عجيبة صغيرة لحسن الذوق ولدقة العمل، وفي هذا الهيكل مكان خاص للعظماء وكبار الرهبان. وهو يتجه نحو الشمال ويتقدمه سلم ذو ثلاث درجات وثمة واجهة مستقيمة الخطوط مع صفين مزدوجين من الأعمدة.

والسيللا المدورة تنفتح ببوابة كان لها علو قدره ٦م وعرض ٣,٥م وكانت السيللا مزدانة الداخل بيوت القربان المقدس موضوع بعضها فوق بعض والمغطاة بقية وفي الخارج، كان لها صف أعمدة كورنثية تستند على مقعر وفي جدار السيللا نفسه كان يوجد ركائز تتجاوب مع الأعمدة وتحدق بكوى فرونتونات مدورة، كانت فيما مضى مزدانة بتماثيل وفي أعلى الجدار إفريز مؤلف من أكاليل تتدلى من تيجان الركائز ولا يمكن إدراك هذه التزيينات إلا إذا نظر إلى الهيكل من ورائه، ولهذا يجب الالتفاف حول كل الدور التي تستر البناء والسير في الطريق الذي يمر من قرب الجامع الكبير، وفي عهد النصرانية كان هذا الهيكل الصغير مخصصاً للقديس بازيا.

وفي شرقي المداخل يوجد الجامع الكبير وهو ذو بناء ضخم، أصبح الآن خراباً، كان مزينا بثلاثة صفوف أعمدة جلبت قطعها من سور الهياكل المجاورة، ويدرك الناظر بسهولة أن أساطين الأعمدة قد ركب علهيا تيجان غير متشابهة، وفي الركن الشمالي الغربي من باحة تقع على الجانب الشمالي للجامع ترى خرائب مئذنة كبيرة، مربعة في قاعدتها ومثمنة الأضلاع في أعلاها.

وفي الشرق الجنوبي من بعلبك وعلى بعد كيلو متر منها مكان في حضيض الجبل الشرقي اسمه (رأس العين) فيه فندق حسن، وينبوع غزير رائق - ينبجس من الأرض ويؤلف شبه بحيرة صغيرة وهو مكان نزه، نضر، مظلل بأشجار الصفصاف، يقصده المصطافون بكثرة وفيه مسجدان متهدمان بني الصغير منهما الملك الظاهر بيبرس والثاني ابنه الملك السعيد بركة خان.

ولابد لزائر بعلبك أن يقصد المقالع وهي في سفح أكمة الشيخ عبد الله وهو صاحب الضريح الذي يرى في أعلى القمة، فيجد فيها رضماً من الصخر منحوتة نحتاً تاماً يدعوه الأهلون (حجر الحبلى)، وقد ظل ماكثاً في أرضه التي اقتلع منها لا ريب في أنه كان مخصصاً لسور الهيكل الكبير، وهو يزيد في الحجم عن الرخامة الشهيرة وذرع هذا الحجر في الطول ٢١,٥م وفي العلو ٤,٣٠م وفي العرض ٤,٨٠ ويقدر وزنه بألفي طون وهو دون ريب أعظم أحجار الدنيا.

وقد قامت دائرة الآثار القديمة في المفوضية العليا بحفريات في سني ١٩٢٧/١٣٤٥ و ١٩٢٨/١٣٤٦ في الجنوب الغربي من القلعة حول الفندق الكبير الجديد فكشفت خطوط بناء عظيم كان مجهولاً حتى الآن، فأظهرت عموداً عظيماً يشبه بضخامته وطوله تلك التي في صف الأعمدة الكبير. وهذا العمود يعود إلى بناء لعله هيكل، ولعل هذا الهيكل هو الخاص بمركور الإله الثالث لبعلبك.

وقبل الوصول إلى بعلبك ببضع دقائق على يسار طريق رياق يرى السائر بناء مقبرياً صغيراً يدعى (قبة درويس) تشبه لقرية قريبة بهذا الاسم وهي مثمنة الاضلاع، بناها العرب في سنة ٦٤١هـ /١٢٤٣م واستعملوا لأجلها ستة أعمدة من الغرانيت الوردي اللون دون قواعد ولا تيجان، وركبوا فوقها قبة أصبحت الآن ساقطة وهناك ناووس قديم كانوا اتخذوه محراباً، تراه ملقى على الأرض في جوارها.

أما الأضرحة في بعلبك فكثيرة، ولاسيما تلك التي من العهد الروماني، وأخص المقابر هي التي في الشمال الشرقي من القلعة وفي خارج الأسوار. وفي سفح أكمة الشيخ عبد الله قد حفروا كهوفاً مقبرية، ودور بعلبك الحديثة قد شيد أكثرها فوق أقبية حقيقية من التي كانت تحفظ فيها الموتى - إلا أن كل هذه قد نبشت منذ أحقاب بعيدة ولم يبق فيها نفع أثري ذو بال.

أما المسرح فلا يذكر إلا من قبيل التذكار، لأنه الآن قد انطمر قرب (فندق تدمر) يلحظ أمام هذا الفندق بقايا جدار ذي أحجار ضخمة، وقد أجروا هنا حفريات إلى عمق مترين، فعثروا على بوابة ذات عتبة منقوشة. وجدار مكان التمثيل الذي كان يمتد طوله - فيما زعموا - إلى فندق فرانسا كان مزخرفاً بنقوش سالمة كل السلامة، لكن اليوم قد انطمرت تحت أسس دار عارف أفندي.

من بعلبك إلى نحلة واللبوة (١ عة و ١٠ و ٥ عة و ٣٠ دق) إلى الشمال والشمال الشرقي لحب جيد يتجه اللحب نحو الشرق ويحاذي سفح جبل لبنان الشرقي.

في الساعة وعشرة دقائق - نحلة، قرية صغيرة قائمة فوق واد سحيق مزدان بالبساتين النضرة، يجري في قعره مسيل سريع تجاج فجاج وهو أحد روافد الليطاني وفي وسط القرية، أطلال هيكل صغير لم يبق منه سوى دكة التي تشبه دكة الهيكل الصغير في بعلبك وبعض الأثر في جدرانه الطبقة السفلى ويلوح أن هذا المعبد كان مؤلفاً من قسمين باحة سماوية مكشوفة وردهة كبيرة مسقوفة، ولا يزال يرى في الجدار ثقوب لوضع أرض الشقف الخشبية، وقد بنى الأهلون كثيراً من الدور المكتظة حول هذا الهيكل ويكادون يغطونه بالكلية، وفي شرقي القرية مقبرة رومانية وبيزنطية.

على بعد ٢ كم في الجنوب الشرقي نبع عين اللجوج، ذات الماء الغزير النقي البارد، وكانت تؤخذ مياه هذه العين بقناتين إلى القسم العالي من بعلبك وإلى الهياكل - أما وقد خربت هذه الأقنية صارت المياه تضيع في الحقول، ولا يزال يرى آثار الأقنية الرومانية هنا وهنالك، وهي مبنية بحجارة مربعة مطلية بالشيد ومسقوفة بألواح حجرية بحيث يكاد الرجل يمشي في القناة مستوياً.

بعد عبور المسيل المذكور من فوق جسر حجري يتجه السائر نحو الشمال الشرقي محاذياً سطح انصباب أكمة - في الساعة ٢ والدقيقة ٣٠ يونين - قرية، سكانها ١٢٠٠ أكثرهم شيعة، قائمة في مدخل واد سحيق يروى بجدول صغير ويسقي بساتيناً كثيرة نضرة، ثم يصعد الدرب ثم يهبط حسب التلاع العديدة - في الساعة ٣ ونصف نبع (اهلا)، الذي ينبجس من تحت صخرة ويروي ضيعة اسمها رسم الحد.

ثم يصعد المجاز صعوداً خفيفاً خلال ٥ كم ويوصل (في الساعة ٤ وثلث) إلى نشر فيه منظر جميل، وفي هذا النشر انقسام المياه بين نهري العاصي والليطاني. ومن ثم يشرع بالهبوط ـ في الساعة ٥,٣٠ اللبوة حيث يلاقي طريق بعلبك حمص واللبوة أجمل قرى بعلبك ماء وأكثرها خيراً وأشجاراً وأنهاراً، ومياهها تنبثق من نبع من بعلبك إلى الأرز لايزال هذا وهو يمر من بحيرة اليمونة وحدث الجبة، على أن مسافة ٢٥كم منه صالحة للسيارات حتى عيناتا، ومن ثم درب دواب تستغرق نحو ٣,٣٠ ساعة.

بعد بعلبك يسلك طريق حمص ـ في الكم ٣,٥ يترك الطريق المذكور على اليمين ويسلك طريقاً متجهاً نحو الشمال الغربي بقطع السكة الحديدية من ممر في مستوى الأرض.

في الكم ٥ إيمات، ضيعة حقيرة، سكانها ٥٠٠ شيعة و ٢٠٠ موارنة بعدها بمسافة وعلى اليمين يرى السائر عموداً منفرداً وسط السهل وهو ذو قاعدة وبدون تاج علوه نحو ٢٠ متراً يصل إلى القديسة هيلانة.

ويزعمون أتها ـ أقامت هناك مكاناً من أماكن بريدها الكثر. إلا أن الظن الأصح يجعله بناء مقرياً.

وبعد أن يترك على اليسار أكمة شيلفا التي عليها طلل روماني اسمه قصر البنات يصل إلى منتهى السهل في الكم ١٠ دير الاحمر، قرية سكانها ١١٤٧ موارنة، وهي قاعدة ناحية، فيها كنيستان ومدرسة، إلا أن ماءها رديء، وقد نسب الاحمرار إلى اسم هذه القرية من وفرة الحجارة الحمراء التي ترى فيها.

بعد الخروج من دير الأحمر، ينقلب الطريق إلى مجاز ويبدأ بتوقل العضد الأول لجبل لبنان، ويجتاز غابة سنديان أخضر وعرعر، في الكم ٢٠ المشيتية، ضيعة بسيطة يترك فيها على اليسار الجنوب الغربي مجاز صالح للسيارات يفضي إلى اليمونة ـ غيضة جوز.

في الكم ٢٥ عيناتا، قرية سكانها ٦٠٠ موارنة، مبنية حول نبع وفيها كنيسة. ومن عيناتا يمكن الوصول إلى اليمونة خلال ساعتين من مجاز يتجه نحو الجنوب الغربي متتبعاً الوادي الذي يؤلف بعد بحيرة اليمونة.

يترك السيارة في عيناتا ويبدأ بالتسلق ماشياً أو راكباً بغلاً من مجاز ذي متعرجات وصعائد كأداء جداً في سفح لبنان والأرض هنا صخرية. نبتت فيها شجيرات وأنجم ملتوية وكلما تقدم في الصعود يزداد اتساع المنظر وبهجته فيرى كل سهل البقاع حتى جنوبه وبحيرة اليمونة وسلسلة لبنان الشرقي وجبل حرمون.

بعد نحو ساعتين يصل إلى عقبة الأرز (العلو ٢٦٥٠م) فيكشف فيها فجأة في سطح الصب الغربي منظراً لا يقل عن الأول روعة وبهجة، فيرى أرز لبنان ووادي قاديشا السحيق وفي الأفق البعيد البحر المتوسط الممعن في بعده وزرقته، وبعد بلوغ منتهى الصعود يبدأ الهبوط في مجاز أسهل من الأول فيصل إلى الأرز في الساعة ٣,٣٠ من مغادرة عيناتا.

وقد شرعوا منذ بضع سنوات في فتح طريق للسيارات من بعلبك إلى الأرز يمر بشليفا وهي في منتهى الجنوب من يمونة ثم يتسلق منعرجات في سفح جبل المنيطرة ويمر بشرقي الباقورة سالكاً خط العمود الفقري للعرفة إلى أن يبلغ حدث الجبة وهي على الطريق الهابط من الأرز إلى طرابلس وعلى بعد ٢٣ كم من الأرز.

من بعلبك إلى اليمونة ٢٧ كم من لحب صالح، وسيمتد فيه طريق السيارات من بعلبك إلى البشتية ٢٠ كم، (وقد مر وصفها) ومن ثم يترك على اليمين طريق عيناتا ثم يهبط اللحب نحو الجنوب الغربي إلى حفرة اليمونة.

في الكم ٢٧ اليمونة - يمكن أن يبيت لدى المختار قرب الكنيسة المارونية الصغيرة - قرية صغيرة، سكانها ٢٠٠ نسمة نصفهم شيعة ونصفهم موارنة، مبنية في سفح جبل لبنان وتشرف على أرض منخفضة كالحفرة، علوها ١٣٧٥م فيها بحيرة ذرعها كيلو متر في عرض نصف ذلك، ليس لها منفذ سوى فتحة كبيرة، ثم هي تجف بالمرة في أواخر الصيف.

وهناك ينابيع تنبجس من الصخور المجاورة وتصب في هذه البحيرة، وأخصها نبع الأربعين، وقد سمي بذلك لأن هذا النبع يزداد تدفقه في عيد الأربعين شاهد (٢٢ آذار) من غربي القرية.

وفي جنوبي القرية على ضفة البحيرة يوجد أطلال هيكل يوناني - روماني للزهرة لا يزال أكثر سوره سالماً ومثله الطبقة السفلى من المعبد، وتذكر الميثولوجيا

الفينيقية كثيراً من الإشارات عن بحيرة اليمونة منها أن عشتروت حينما هربت من تيفون انمسخت فيها سمكة، وفي اعتقاد يتناقله أهالي لبنان أباً عن جد أن مياه نهر إبراهيم (أدونيس) تنشأ من هذه البحيرة، وعلى بعد ٣ كم من جنوبي بحيرة اليمونة يوجد في قعر وادٍ مسدود بحيرة صغيرة أخرى، طولها نحو كيلو مترين مؤلفة من ماء رائق جداً واسمها بحيرة الزينية.

وإذا تم طريق السيارات بين بعلبك والأرز يمكن الوصول إلى اليمونة ماراً بشليفا ومن اليمونة يمكن الوصول إلى أفقه التي فيها نبع نهر ابراهيم، أو العاقورة ومنها أيضاً يمكن الوصول خلال ساعتين إلى ضيعة اسمها عيناتا وهي في حضيض ثنية الأرز، وفيها ينبوع بارد شهير وإليها مجاز يتجه نحو الشمال الشرقي محاذياً الانخفاض الذي كان السبب في حصول البحيرة.

الفصل الرابع

من بيروت إلى الناقورة

عن صيدا وصور "طريق معبدة ١١٣ كم تحاذي الساحل من مسافات مختلفة يترك بيروت من ساحة السور (عصور) فينحرف نحو الجنوب ويدرج صاعداً في طريق البسطة التحتا ثم البسطة الفوقا، وأهلها شيعة التي تبعد ٢ كم وفيها أول حرج الصنوبر وبعد جامع الحرب يجد طريقين، فالغربي منهما يذهب جنوباً وسط الحرج إلى قرية الشياح (في الكم ٢,٥) ثم يمر وسط الصنوبر إلى أن يبلغ في الكم ٤ قرية الطيونة. ويحاذي الطريق حضيض الجبل من بعد ٢ ـ ٣ عن البحر ـ في الكم ٦ يرى على اليسار فوق مرتفع بعبدا، وفي قرية الحدث يترك على يساره الطريق الذي يفضي إلى بعبدا (في الكم ٤) ثم في الكم ٧ طريق ثانٍ يفضي أيضاً إلى بعبدا في الكم ٤ وعلى اليمين طريق نحو قرية برج البراجنة التي لها طريق خاص إلى بيروت يوازي ما نذكره ويمر بقرية الشياح التي تقدم ذكرها.

أما الحدث فقرية جميلة سكانها ٢٥٠٠ أكثرهم موارنة وهي موطن الفرع الذي تنصر من الأمراء الشهابيين، ولهم فيها دور كبيرة قديمة وفي الحدث محطة للسكة الحديدية الذاهبة إلى دمشق. في الكم ٨ يترك على اليسار الطريق الصاعد إلى قرى وادي الشحرور وبديرون والقماطية، ثم يجتاز غابة جميلة من شجر الزيتون تسمى باسم صحراء الشويفات ـ وفي الكم ٩ يعبر جسراً فوق نهر الغدير، وهنا يرى على يساره فوق أكمتين قريتين متجاورتين اسمهما كفر شيما ورويسات، فكفر شيما منشأ كثير من العلماء والشعراء والكتاب أمثال آل اليازجي وشميل وتقلا وغيرهم، وفي أعلاها دير كبير يسمى مار أنطونيوس دير القرقفة للروم الكاثوليك، يبدو للعين كقلعة حصينة، أما رويسات فليس فيها ما يستحق الذكر سوى القبور الرومانية العديدة التي وجدت حولها، ثم يستمر الطريق في اجتياز غابة الزيتون المذكورة وهي جد عظيمة ربما بلغت مساحتها ١٨٠٠ هكتار، في الكم ١٠ الطريق الصاعدة إلى الشويفات وعين عنوب وعيتات وسوق الغرب، ثم يرى على اليسار الشويفات القائمة فوق ثلاث أكمات، ودورها متدرجة راكب بعضها فوق

بعض وهي بُليدة حسنة، وقاعدة قائمقامية الشوف الشتوية، سكانها نحو ٥٠٠، وأول ما يشاهد المسافر فيها كنيستين متلاصقتين وهي للأرثوذكس وللموارنة، وفي أعلاها بناية ضخمة في مركز جميل هي المدرسة الإنكليزية، ثم بعدها دار حكومة القضاء وأجل ما يصدر من الشويفات الزيت وفيها ثلاثون معصرة لاستخراجه ومعامل للصابون ومدارس داخلية وخارجية عديدة ونهضة علمية كبرى، وقد نبغ منها كثير من رجال السياسة والقلم، وهي من أول القرى التي بناها التنوخيون، كما تدل على ذلك آثارهم وبقايا دورهم المتهدمة، ثم صارت مقر بعض الأمراء الأرسلانيين أنسباء التنوخيين ومنهم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان المنذر بن مسعود بن عون بن المنذر بن النعمان بن قابوس بن المنذر بن ماء السماء اللخمي. والأرسلانيون من آل تنوخ من أعقاب ماء السماء اللخمي. الأمراء الأرسلانيون الذين منهم أمير البيان والمدافع عن حمى الاسلام العلامة الأمير شكيب أرسلان.

في الكم ١٢ على يسار الطريق مخفر درك - في الكم ١٤ على يمين الطريق وقرب شاطىء البحر محطة البرق اللاسلكي لشركة راديو الشرق وفيها أعمدة سامية الإرتفاع جداً ومن هنا يقترب الطريق إلى البحر فيسير على ضفته - في الكم ١٨ خان خلدة، وهو خان قديم فيه مقهى صغير، وقد ذكر هذا المكان في كتب الأدلة القديمة باسم موتايتو خلدوا، وعلى يمين الطريق يلحظ تل صغير وجدوا فيه أنقاضاً أثرية رومانية وبيزنطية، وفي شرقه على سطح انصباب الجبل وجدوا أيضاً عدداً كبيراً من النواويس من العهد الروماني البيزنطي وعدداً من المغاور المنقورة في الصخر. في الكم ٢٠ الناعمة، قرية كبيرة مبنية مكان مدينة أثرية يجزمون بأنها مدينة الأسد، وقد وجدوا فيها أطلالاً ذات شأن وعلى الأخص كثيراً من العاديات السابقة للعهد الروماني، وفي أعلى القرية دير اسمه دير الناعمة - ثم على اليمين تبدأ مغارس التوت الممتدة إلى أن يصل: في الكم ٢٢ الدامور، قرية كبيرة سكانها ٢٢٠٠ تمتد من الناعمة إلى مسافة كيلو مترين، وهي مشهورة بخصب تربتها ووفرة مياهها وباعتناء أهلها بتربية دورد الحرير الذي دالت دولته بعد الحرب العظمى، وفيها خمسة معامل للحرير تظهر وسط كروم التوت الواسعة التي يشملها اسم (جبل الدامور).

من الدامور إلى دير القمر ٢١ كم، إلى الشرق في طريق معبدة

يتبع السائر طريق الناقورة إلى مسافة ٣كم، ثم يسلك نحو اليسار طريقاً يصعد في وادي نهر الدامور على ضفته اليمنى وكان اسم هذا النهر قديماً - في الكم ١ بيتنايا، قرية وسط سهل خصب - في الكم ٢ الزيرة، وهنا مغارس توت، ثم يضيق الوادي - في الكم ٣ يعبر الوادي فوق جسر وينتقل إلى الضفة اليسرى، في الكم جسر على نهر الحمام، وهذا يتحد مع نهر القاضي فيؤلفان نهر الدامور - في الكم ٥ يلج وادي نهر القاضي ثم يتسلق الصعائد التي في سطح الانصباب الأيمن لهذا الوادي من منعرجات شديدة الخطر - في الكم ٦، المغارة، مقهى ومخفر درك - ثم يستمر الطريق في الصعود وتسلق المنعرجات، ثم في الكم ٩ يشرف على وادي نهر الحمام (على اليمين)، وهنالك منظر جميل فوق هذه العرفة. وعلى اليمين وفي الأسفل قرية عوقايا - في الكم ١٣ يستمر في الصعود فيبلغ قرية بيدر الرمل - في الكم ١٤،٥ يترك على اليمين طريقاً يهبط إلى بطن وادي نهر الحمام ثم يصعد إلى بعقلين، وهي قرية كبيرة درزية قائمة فوق أكمة كالعرفة، كان لها شأن يذكر في تاريخ لبنان، وهي الآن قاعدة قائمقامية الشوف الصيفية، سكانها ٣٠٠٠، وفيها بعض الآثار الباقية من عهد آل معن، فقد كانت أول مساكنهم وفيها دار للحكومة ومستشفى إنكليزي ومدرسة إنكليزية وأخرى وطنية ابتدائية، وقد امتاز أهلها بصنع السجاد والعباءات والصابون واشتهرت بكروم الزيتون والعنب ومعاصر الزيت وهي مقر شيخ عقل الطائفة الدرزية. لكن ليس فيها نبع، ويشرب أهلها من الصهاريج - في الكم ١٥ قرية كفر حيم - في الكم ١٩ يلحق الطريق القادم من سوق الغرب إلى دير القمر والمار من جسر القاضي، ثم يستمر في توقل الصعائد المنعرجة إلى أن يبلغ في الكم ٢١ دير القمر.

عودة إلى طريق الناقورة ـ بعد معلقة الدامور يمر الطريق (في الكم ٢٤) من تحت خان مسقوف ثم في الكم ٢٥ على اليسار مفرق طريق دير القمر الذي تقدم ذكره.

ثم يعبر طريق الناقورة نهر الدامور فوق جسر حجري كبير. على اليمين آثار الجسر القديم.

في الكم ٢٧ السعديات نقطة فيها خنادق ومقاه بسيطة. ومن ثم يمر الطريق تحت خان مسقوف ويبلغ رأس الدامور. ويزعم البعض أن في هذا الرأس كانت المعركة القديمة التي انتصر فيها انطيوخس الكبير على جيش بطليموس الرابع (فيلوماتر) سنة ٢١٨ ق.م، أما الأثري دوسسو فيضع هذه المعركة في عرمون الواقعة تحت طريق سوق الغرب عند جسر القاضي.

في الكم ٢٨ خان مسقوف ـ في الكم ٢٩ منظر جميل على جون الجية، وهنا مخفر درك السعديات ـ ثم يترك الطريق على اليمين كثبان رمال ثم ينحرف نحو اليسار.

في الكم ٣٠ قرية الجية وسط البساتين وكروم الزيتون. (وجد المسيو كونتو قرب هذه القرية وعلى بعد بضعة أمتار من الطريق وفي منتصف الجون على التقريب ـ لبقايا بلاط أثري جميل من الفسيفساء كان مطموراً تحت الرمال، وعليه تاريخ ٥٧٣ ميلادية وكتابة تدل على أن البلاط المذكور من توابع أحد المعابد.

في الكم ٣٣ خان النبي يونس، وجد فيه أيضاً الدكتور جاياردو فسيفساء أهديت في سنة ١٢٨٠/١٨٦٣ إلى الإمبراطور نيوليون الثالث. في يمين هذا الخان، وعلى شاطىء البحر مزار يزعمون أنه هو النبي يونس الذي سمي المكان باسمه، وأنه هو الذي خرج من بطن الحوت هناك ودفن فيه.

وبقعتا خان يونس والحسية وحدها الأثريون مع اسم مدينة (يورفيزون) المشهورة في تاريخ الشام القديم. واسم يورفيزون هذا نشأ دون شك من أن هذا القسم من الساحل الفينيقي كان محلاً لاصطياد الأرجوان. وهناك كثير من قطع الأعمدة باقية على شاطىء البحر وتدل وفرة الفسيفساء التي استخرجت من تحت الرمال هنا على أن هذه البقعة قضت عهداً لامعاً في القرن الخامس الميلادي.

على يسار الطريق قرية برجا - ثم يبلغ الطريق في الكم ٣٥ خرشوماً داخلاً في البحر اسمه رأس جدرا فيشرف منه على منظر جميل نحو صيدا - في الكم ٣٦ وبعد خان يجتاز الطريق وادي السكة، ثم في الكم ٣٧ يجتاز وادي الزينية - في الكم ٣٨ يترك على اليسار طريقاً يتصل بعد نحو ٣٠ كم إلى بعقلين ماراً بشحيم في الكم ١٤ رأس الرميلة - وهذه قرية مسلمة كبيرة، سكانها نحو ٢٠٠٠، ثم بقرية غاريفة في الكلم ٢٥ ومنها إلى بعقلين وبيت الدين، ثم على اليمين ساحل رملي جميل ثم على اليسار قرية الرميلة، وهي راكبة على أكمة وفي أسفلها مقبرة أثرية ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب فيبلغ أول سهل صيدا - في الكم ٤٣، على اليسار طريق يذهب إلى جون وإلى دير المخلص.

ثم يعبر الطريق جسراً على نهر الأولي، وهذا النهر كان يسمى قديماً بوسترنوس، ثم سماه العرب نهر الفراديس نسبة إلى وادي الفراديس الذي يجري فيه، وهو فوق دير القمر، وفيه يتكون النهر من ثلاثة روافد أجلها شأناً نبع الباروك ويعد هذا النهر الحد الفاصل بين إقليم الخروب وإقليم التفاح في لبنان.

وبعد عبور الجسر يجد على اليسار جسراً قديماً بناه الأمير فخر الدين المعني. وفي قربه تبدأ قناطر الماء التي تشتق من نهر الأولي ثم تروي بساتين صيدا الغناء. وإذا طل الزائر على الضفة اليسرى للنهر يرى القسم الأكبر من جدار عظيم باقٍ من هيكل اشمون، وهذا يمكن بلوغه من مجاز على اليسار (في الكم ٤٣,٥) فيصله خلال عشر دقائق.

في الكم ٤٤,٢ يترك على اليسار طريقاً يفضي إلى الرامية، في الكم ٤٦ على اليسار طريق يدرج نحو جزين. ثم تجتاز الطريق بساتين البرتقال والليمون والأكي دنيا التي اشتهرت بها صيدا، وتلتف في عدة منعرجات خلال ذلك - في الكم ٤٧,٥ يترك على اليسار طريقاً يصعد إلى مية ومية - في الكم ٤٨ صيدا.

صيدا مدينة صغيرة على ساحل البحر، سكانها نحو ١٥٠٠٠ نصفهم مسلمون سنية ثم شيعة ونصفهم نصارى من الروم الكاثوليك والموارنة وقليل من اليهود، وهي قاعدة اللواء الجنوبي اللبناني - وفيها مفتٍ للمسلمين ومطارنة الروم الكاثوليك والموارنة.

وصيدا تشبه غيرها من المدن القديمة في الساحل الفينيقي بأنها مبنية فوق خرشوم ممتد نحو البحر، وأمامه جزيرة وهي محاطة ببساتين غناء فيحاء تنمو فيها أطيب ثمار البرتقال والليمون واليوسفي والموز وزعرور اليابان المعروف بالأكيدنيا والمشمش والدراق وغيرها، وفصل الربيع في صيدا خلال شهري آذار ونيسان جد بهيج عطر، حينما "تتطرز ضواحيها وحواشيها بروائحها الذكية. وتتسلسل قنواتها، وتتفتق أنوار أشجارها النارنجية فتتضمخ الأرجاء فتصبح بهجة النفوس حقاً. وهذه القنوات المشتقة من نهر الأولي تحمل إلى تلك البساتين الري والخصب، ووراء السهل الحاوي تلك البساتين تنتصب الأعضاد الأولى من جبل لبنان، وتطل جبال تيماوتومات جزين على هذه الأعضاد من علو ١٨٥٠ متراً.

ومرفأ صيدا صغير لا تستطيع أن تدخله سوى المراكب الشراعية وزوارق صيادي السمك، ولهؤلاء هنا حركة غير يسيرة، وتستورد صيدا الحبوب والبن والبترول والرز والسكر والخشب، وتصدر البرتقال والليمون ثم الفواكه المتنوعة التي تقدم ذكرها، وفيها معمل لدباغة الجلود وفيها ثلاثة فنادق من الدرجة الوسطى في الشارع الكبير المنسوب للمطران، وثلاثة مقاه وحمامات وعدة مرائب للسيارات ونحو ستة مدارس متوسطة لمختلف الطوائف وتسعة مساجد للمسلمين وخمس كنائس للنصارى وكنيس لليهود.

التاريخ - صيدا واسمها القديم صيدون من أقدم المدن الفنيقية عهوداً وأجلها شأناً. وكانت منقسمة إلى قسمين - كما يدل على ذلك كتابات هيكل اشمون، الأول المدينة البحرية (الميناء) (صيدون يام) والثاني المدينة البرية العليا المبنية على الأعضاد الأولى للبنان (صيدون صادة) قال يوسيفوس المؤرخ العبراني إن صيدون تسمت على اسم صيدون بكر كنعان بن حام بن نوح. ولما فتح الفراعنة الشام على عهد الدولة الثامنة عشر والتاسعة عشر ودخلت صيدا في حمايتهم حازت المقاوم الأول بين المدن الفنيقية، وشاد الصيدونيون مخازن تجارية لهم في لانيس وحامات (حماة) وتايسلك وبلغوا نيسيسبي قلب منبع الرحلة كما أن تجارتهم مع الأمم القاطنة على شواطىء البحر المتوسط جعلت لهم مملكة استعمارية حقيقية. ولما تقدمت الدولة الاقريطيشية في أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر بدأت السيطرة البحرية الصيدونية

في بحار اليونان تميل للزوال وقد تكلم موسى عن صيدا بأنها الحد الشمالي لأرض كنعان (الاصحاح ١٠، ١٥ ـ ١٩) وكانت تعد إحدى المدن السبعة التي لم يجسر العبرانيون أن يستخلصوها من يد الكنعانيين، وقال هوميروس عن الصيدويين بأنهم مهرة في كل الأمور، وظلت صيدون مترئسة على المدن الفينيقية حتى أخذ الفلسطينيون يركبون البحار فعزموا على مقاومة صيدا وداهمت سفائنهم أسطولها فكسروه وأسقطوا صيدا وخربوها، فهرب من نجا من أهلها والتجأ إلى صور ومن ذلك الحين انتقلت الرياسة على المدن الفينيقية إلى صور، واستكانت عهدئذ صيدا بصور إلى سلمنازار الثالث حول سنة ٨٤٠ ق.م وظلت منقادة إلى الأشوريين تقدم السفن إلى سنماصر الخامس ضد صور المحصورة حول سنة ٧٢٦ ق.م، وقام أحد ملوك صيدا وكان اسمه عبدي ملكوت شاقاً عصا الطاعة ضد آصور أض الدين فجاء هذا ودك صيدا وذبح كبراءها ونقل ملكها وسكانها إلى بلاد آشور وأسكن محلهم حوالي من بلاد كلدة، وسوسيانة (٦٨٠ ـ ٦٧٠ ق.م) ولما قام أمراء بلاد الشام بثورة عامة ضد متبوعهم ملك آشور بختنصر، لم تشاركهم صيدا في ذلك وحفظت طاعتها له ثم سقطت في سنة ٥٨٠ بيد الفرعون أوابرا. ثم بعد مدة (٣٥٠) ثارت ضد أرتاكسركيس أوخوس، فأحرقها هذا واحترق بين اللهيب ٤٠٠٠٠ نسمة من سكانها بينهم الملك تنس الذي خان شعبه وسلم صيدا إلى العدو (ديوردروس الصقلي) ويزعم بعض المؤلفين أن هذا الملك كان أبا اشمونازار الذي وجد ضريحه في صيدا، ثم عادت صيدا إلى سابق عهدها وسلمت للاسكندر دون مقاومة، ثم سقطت في أيدي السلوقيين والبطليموسيين، وفي أول عهد الرومان حكم صيدا أبناؤها وألفوا شبه جمهورية مؤلفة من مجلس قضاة ومجلس نيابي، ثم حرم اغسطوس قيصر الصيدونيين من امتيازاتهم هذه، ومر القديس بولص بصيدا في طريقه من قيصرية إلى رومية ورآها رغم انحطاطها البارز محتوية على حركة تجارية ذت شأن. ولما عمت النصرانية صارت صيدا مركز أسقفية.

وفتحها المسلمون فيما فتحوا من بلاد الشام وظلت في أيديهم حتى جاء الصليبيون، فاستخلصها منهم بلددين في سنة ١١١١/٥٠٥ وجعلها الصليبيون في عهدهم قاعدة مقاطعة سموها ـ وهي ثانية الباردينات الأربع في مملكة الفرنج، ولما

ظهر السلطان صلاح الدين بعد أن افتتحها دون مقاومة سنة ١١٨٧/٥٨٣ فدك أسوارها ثم استعادها الصليبيون سنة ١١٩٧/٥٩٤ وظلت في أيديهم حتى استعادها المسلمون منهم سنة ١٢٤٩/٦٤٧ وخربوا أسوارها مرة أخرى، ثم عاد الصليبيون مرة أخرى وأسقطوها في سنة ١٢٥٣/٦٥١ ورمموا حصونها، ثم اشتراها الفرسان الهيكليون من أميرها يوليانوس وظلت في أيديهم إلى أن هاجمها المغول سنة ١٢٦٠/٦٥٩ فجعلوا عاليها سافلها، ثم وقعت في أيدي المسلمين سنة ١٢٩١/٦٩٠ بعد سقوط عكا وخروج الصليبيين نهائياً من كل الساحل الشامي.

وفي القرن ٩هـ/١٥م ذكر الظاهري أن صيدا كانت أحد مرافىء دمشق تغشاها السفن التجارية بكثرة. وكانت الطريق على رواية العزيزي من صيدا إلى مشغرا ومنها إلى كامد (ولعلها كامد اللوز قرية في غربي البقاع) ومنها إلى عين الجسر ومنها إلى دمشق، إلا أن صيدا لم تنهض من كبوتها إلا في القرن الحادي عشر الهجري على عهد الأمير فخر الدين المعني الذي جعلها مقر ولايته وسمح لتجار الإفرنج الطليان والفرنسيس بالنزول بها حتى ازدهرت تجارتها وأقام فيها قصراً له وخاناً كبيراً، لكنه اضطر لسد المرفأ وإملائه من خوف الأسطول العثماني. وتوفق وقتئذ الشغاليه دارفيو قنصل فرنسا وشريك أحد البيوتات التجارية في مرسيليا لتأسيس علاقات تجارية هامة بين بلاد الشام وفرنسا. وظلت صيدا متقدمة في تجارتها وعمرانها إلى أواخر القرن الثاني عشر، وكانت قاعدة إيالة، كانت في سنة ١٨٣٨/١٢٥٤ تتألف من أنحاء عكا وجبالها وبلاد بشارة وصفد وطبريا وتوابعها. إلا أنه لما طرد أحمد باشا الجزار الإفرنج من صيدا سنة ١٧٩١/١٢٠٦ أخذت في الانحطاط عاماً فعاماً. وزاد هذا فيما بعد حينما نقلت قاعدة الإيالة إلى بريت، وانتقلت حركة التجارة مع أوروبا إلى بريت وحلب.

وخربت زلزلة سنة ١٨٣٧/١٢٥٣ صيدا فجاء سليمان باشا الفرنساوي رئيس أركان جيش إبراهيم باشا وقد كانت أعجبته فبدأ بإعمارها وأحاطها بسور كبير من جهة البر، وفي سنة ١٨٤٠/١٢٥٦ جاءت الأساطيل المتحدة لإخراج جيش إبراهيم باشا فقصفت بمدافعها قلعة مرفأ صيدا ودكتها.

زيارة صيدا - تترك السيارة عند تقاطع طريق بيروت بشارع المطران الكبير، فيسير الزائر بهذا الشارع متجهاً نحو الشمال ثم يدور إلى اليسار ويمر من أمام خان قديم بدل إلى ثكنة ذات بوابة تستحق الرؤية لها على جانبيها أسود، ثم يدور إلى اليمين ويصل إلى الرصيف الذي على ساحل البحر ويعبر لساناً ضيقاً يوصله إلى قلعة البحر.

وهذه القلعة قائمة في جزيرة صغيرة وسط البحر ذرعها نحو ١٠٠×٨٠ متراً، كان فيها دون ريب في العصور القديمة بناء عظيم ذو أعمدة لعله هيكل مكرس على ما يظن إلى ملكار هركول الفينيقيين. وفي عهد الصليبيين جاء فريدريك الثاني واستقر في صيدا وحول البناء الأثري المذكور إلى قلعة ليجعل صيدا في أمان من هجوم المسلمين. وقد تناورت هذه القلعة أيدي الصليبيين والمسلمين عدة مرات كما ذكرنا في تاريخ صيدا ، وهي الآن متخذة مستودعاً للبترول.

وكانت الجزيرة المذكورة في الماضي متصلة بالبر بطريق معبدة. ثم أزيلت هذه وبدلت بجسر قد تهدم الآن، وهو من عهد سابق للصليبيين، وكان هذا الجسر يربط الشاطىء بكتلة صخرية قام فوقها باب وبرج يعود لعهد الصليبيين وهذا البرج يبعد عن القلعة نحو ٣٢م وكان بينه وبينها جسر ذو أربع قناطر لاتزال دعائمها قائمة. وكانت الجزيرة محاطة في دائرتها بسطح منحدر من الحجر المبني لا تزال بعض أقسامه مائلة، ولا ريب في أنه كان هناك باب قد اندثر الآن بالمرة محله في منتهى الجسر. والقلعة كانت في الأصل مؤلفة من برجين لهما سور فالبرج الشرقي وهو الأعظم، كان متخذاً كصرح، وهو مستطيل الشكل وذرعه ٢٧م في ٢١م، وفي جدرانه قد اقحموا عدداً كبيراً من أعمدة الروابط وقد زالت طبقته العليا ولم يبق إلا السفلى، وفي جوف هذه صهريجا ماء مطليان بطبقة ثخينة من الطين والكلس، وهذه الطبقة السفلى مؤلفة من رخام ضخمة أكثرها منحوت نحتاً بارزاً كالأحجار الصورية. أما البرج الثاني الغربي فهو أكثر سلامة وطبقته السفلى وحدها قد بنيت بالأحجار الأثرية قديمة المنحوتة نحتاً جميلاً. أما السور الذي حول البرجين فقد بني مكانه مبانٍ حديثة ولا يزال يعثر المدققون على بعض أنقاض من آثار الريازة والنقش اللذين يعدان من أبدع الطرز الفرنسية في القرن ١٣م كالأحجار

المنحوتة نحتاً بارزاً، وتيجان الأعمدة وغيرها. وفي الجنوب الغربي قد جعلت الصخور بحيث تؤلف خطاً عرضه ثلاثة أمتار ومبلطاً ببلاط طويل أصبح الآن مغموراً بالمياه.

وقلعة البحر تطل على المرفأ الشمالي وهذا المرفأ مابرح مستعملاً على الرغم من أن الأمير فخر الدين المعني قد طم مدخله في القرن الحادي عشر الهجري ليمنع دخول الأسطول العثماني فيه، وثمة خط صخور طبيعي يحد المرفأ ويحفظ من الغرب ومن الشمال، وليس لهذا الخط سوى ممر ضيق لا يزيد عن ٢٥م في مكان اسمه الفتحة يحرسه برج لاتزال بقايا رضامه الضخمة ظاهرة. وفي غربي قلعة البحر سد أو حاجز (قد اندثر الآن، وهو في مكان المدخل الحالي للمرفأ) وكان متمماً للرصيف في جهة الشمال، بينما كان ثمة طريق معبدة تسد المرفأ من جهة الشمال الشرقي، ولا يزال بالإمكان تمييز آثار هذه الطريق في قعر الماء، وهي على مقربة من القناطر التي كانت حاملة الجسر الذي يوصل للقلعة بالبر. وكانوا إذا أرادوا سد الفتحة يمدون سلسلة ضخمة من الحديد فيمتنع إمكان الدخول إلى المرفأ بالمرة، وهذا ما دعا سيلاقس أن يسميه بالمرفأ المسدود. وفي الطرف الجنوبي يلحظ وجود حوض صغير منقور بيد الإنسان في الصخر، ذي شكل مستطيل. وهو لا شك (المرفأ الجواني) مأوى زوارق الفينيقيين، فقد كان هؤلاء يستعملون هذا المرفأ ومرفأ آخر يقع في مسافة إلى الجنوب، وذلك حسب الفصول والرياح، ويؤكد بعض المؤلفين أن المرفأين كانا متصلين بترعة، بينما الأثرى كونتنو يخالفهم بهذا الرأي، وهو آخر أثري عني بآثار صيدا، فلم يعثر على أي أثر للترعة المزعومة. والمسافة الفاصلة بين المرفأ الشمالي والمرفأ الجنوبي (المصري) مسدود بخط من الصخور المغمورة بالماء وقد سويت ونقرت بيد الإنسان، ويحفظ هذه الصخور من أنواء البحر سد طويل بني في غربها وهو يتمم سد المرفأ الشمالي ولا بد أن الصخور المذكورة كانت تحمل فوقها عدة مبانٍ.

ومن قلعة البحر يعود الزائر إلى البرويسير مدة على الرصيف، ثم ينفذ نحو اليسار إلى سوق جميل جداً في وسطه على اليمين خان الفرنساوي وهو أبدع الخانات التي بناها الأمير فخر الدين وخربتها معاول الهدامين وهذا الخان يقع شمالي السراي القديمة، وهو كمثل غيره من الخانات يحتوي على ساحة واسعة مستطيلة تحدق بها

أروقـة، وفي وسـط الباحـة حـوض مـاء، وقـد كـان هـذا الخـان في القـرن ١٩م مقـر القنصل الفرنسي والرهبـان الفرنسيسـكانيين أمـا الآن فقـد اتخـذه راهبـات القـديس يوسف قيماً للبنـات وعلـى سـطح هـذا الخـان منظـر جميـل نحـو المرفـأ الـشمالي وقلعـة البحـر.

ويستمر الزائـر في مروره وسـط الـسوق نحـو الجنـوب ثـم يفـرق نحـو اليمين فيـصل إلى ساحة صغيرة يشاهد فيها مقهى قام مكـان الـسراي القديمـة، والجـامع المنسوب إلى هـذه الـسراي (وفيهـا أعمـدة أثريـة) ثـم يغـادر هـذه الـساحة فيأخـذ نحـو الجنـوب شارعاً يمتد في طول السراي القديمة. وفي منتهى هذا الـشارع يدور إلى اليمين ثم إلى الـشمال فيمـر مـن أمـام جـامع الكـشكية. وفيـه مجموعـة جميلـة مـن القاشـاني الدمشقي الأزرق والأخضر، تزين جوف إحدى قباب حرم هذا الجامع، وثمة حديقـة، ثم بعـد الجـامع يـدور إلى الـيمين فيـصل فيمـا بعـد إلى الجـامع الكـبير الـذي يقـع في منتهى بستان برتقال جميل.

يشرف هذا الجامع في الغرب علـى شـاطئ البحـر وقـد بـني هنـا فـوق سـطح عـالٍ جعله في هيئة الحصون. وكان هذا الجامع في ما مضى كنيسة للفرسان الاستباريين في القرن ١٣م ولا يزال يحمل الجدران الأربعـة لتلك الكنيسـة المستطيلة. أمـا القبـاب فحديثة. أما طوله فثلاثون متراً في عشرة. ويتقدمـه في شمـال المئذنـة دهليـز قـد سـقف بقبـة صغيرة وعليهـا المئذنـة وفي وسـط هـذا الـدهليز حـوض للوضـوء قـد زيـن بأعمـدة أثرية قد طليت تيجانهـا للأسـف بطبقـة مـن الكلس. وفي الأرض الأبـراج الـتي شـرقي الجامع كـان يقوم فيما مضـى قصر الأمير فخر الدين. وفي جانب الجامع إلى الجنـوب مدرسة المقاصد الخيرية الإسلامية، في باحتها منظر جميل يستحق المشاهدة.

وإذا عودة على أثـره يستمر في سيره في الـشارع المتجـه إلى الـشرق وفي عـدة أزقـة أتاوية، إلى أن يبلغ بعد باب عتيق وساباط معقود غريب الـشكل إلى قلعـة المعـزة. بنـى الصليبيون هذه القلعة مكـان الآسيلال أرفع بناء فينيقي في صيدون القديمة وذلك في أول عهد استيلائهم علـى صيدا (القـرن ١٢م) ويظـن أن القـديس لـويس قـد أقـام فيهـا زمناً طويلاً ولذا يدعوها الإفرنج قلعة سان لويس، ومن المحتمل أن العرب دكوا هـذه القلعـة بـالمرة ثـم أعـادوا بناءهـا. وهـي قائمـة فـوق خرشـوم يقـسم مدينـة صـيدا إلى

قسمين، لأنه يشرف على كل صيدا إشرافاً عالياً يجعلها تحت إشرافه، وهذا الخرشوم أو التل بعضه صناعي، يتألف من نواة قد تضخمت بانتظام في عدة أماكن منها على أثر تراكم الأنقاض خلال العصور المتوالية. ويحتمل أن القسم الثاني منها كان مسكوناً منذ النصف الثاني للألف الثانية بينما في القسم الشمالي بضعة آثار ذات شأن لعمائر يونانية رومانية، وفي القسم الجنوبي قد أعليت جدرانه مؤخراً تبعاً لبعض ذوي الآراء الضالة. هذا وينفذ إلى داخل السور من ممر معقود ويبدأ يلحظ من حين سيره من الشمال أولاً في الجهة الشرقية برجاً ثلاثة أرباعه مستطيل الشكل وجهته الخارجية مدورة ثم يلحظ جداراً عالياً (يطل على طريق صور) مؤلفاً من رخام ضخمة مع بضعة أحجار من ذوات النحت المحدودب، ويظهر أن الباني قد عمل في هذا الجدار باستعجال، ولعله الملك الظاهر بيبرس، الذي اضطر إلى رفع إعادة بناء هذه التحصينات بعد أن استولى عليها ليجعلها في مأمن من الغارات. وأخيراً يلاقي أطلال برج قد خربه الأهلون من عهد قريب كان مبنياً بأحجار صغيرة تشبه التي في البرج والصرح ثم يتقدم فيلاقي الصرح المتجه إلى الجنوب. والواجهات الثلاث في هذا الصرح القائمة في الداخل مستوية، بينما التي تتجه نحو الجنوب مدورة. والحجارة التي يبنى عليها على غير اتساق، وثمة عدة مدارج توصل إلى باب واطىء يقع في منتصف الواجهة الغربية وينفذ من المدخل إلى بهو مسقوف بعقد بيضي تحمله دعائم مبنية على شكل مربع وفوق الكل سطح يحيط به جدار بعضه خراب، قد ثقبت فيه عدة مزاغل وإذا استمر في تقدمه نحو الغرب يجتاز باحة فارغة فيجد جداراً عالياً حجارته في الحواجز الداخلية مؤلفة من الرخام الأثرية الضخمة، وهو يتصل بباحة صغيرة مربعة قد خرب نصفها، ثم يصل الزائر إلى برج يقع في الشمال الغربي (ثلاثة أرباعه مستطيل الشكل وذو جهة خارجية مدورة)، وكل واجهته الشمالية تتألف من جدار رديء واطيء مؤلف من حجارة تحيط زقاقاً صغيراً وبساتين، وكان مكريدي بك مندوب متحف استنبول والدكتور كونتو نقبا في أرض هذا التل سنة ١٩١٤ ثم استأنف الثاني هذا العمل لوحده في سنة ١٩٢٠ فوجدوا بقايا قرمود لأواخر الألف الثانية قبل الميلاد وللعهد اليوناني الروماني أخصها قطعة عاج جميلة حفظت في متحف بيروت.

وإذا سار نحو جنوب القلعة يلحظ تلاً مؤلفاً من الأنقاض يدعى تل الصوف قد تضخم بفضلات معامل الأرجوان علوه نحو ٤٥ م وطوله نحو ١٠٠م، وفي قمته مقبرة طائفة الشيعة وهناك الصيدونيون يلقون ما يتراكم في معاملهم من فضلات المواد التي يستعملونها فكانوا يكسرون الصدفة الصغيرة المسماة (موركس) ويستخرجون المادة الصباغية المعروفة بالأرجوان، وفي المقبرة المذكورة منظر جميل يمتد نحو المرفأ الجنوبي أو المرفأ المصري.

إن هذا المرفأ يشبه في شكله جوناً عريضاً إلا أنه لا يدفع أذى الرياح الغربية والقبلية كما ينبغي أو كما هو الحال في مرفأ صور الذي كان له عدة سدود قد اندثرت الآن. وقد طمر الأمير فخر الدين هذا المرفأ الجنوبي أيضاً والداخل ضمن سور المدينة القديمة.

وعند قلعة المعزة إلى الشرق يبلغ الشارع الكبير (طريق صور)، فيسير فيه نحو الشمال ماراً من أمام مدرسة الفرير (المريميين)، وعلى اليسار فوق مدخل المدرسة قسم من عتبة أثرية - ويستمر حتى مكان التقاطع مع طريق بيروت. حيث السيارة التي تركها - فيركبها ويتوجه في طريق صور إلى مسافة ٢كم حتى الجسر الذي على نهر البرعوث (وهو سيل يجف في أكثر أيام السنة) فيترك السيارة هناك ويسلك نحو اليسار طريقاً على الضفة اليمنى للنهر المذكور، ويترك وهو سائر أول طريق يصادفه على اليمين ويظل متجهاً نحو درب السن، ثم بعده بعدة مئات من الأمتار يترك بطن النهر المذكور ليسلك طريقاً ثانياً متجهاً إلى الجنوب، إلى أن يصل إلى أرض واسعة فيها تلان الغربي منهما (الأيمن) يحتوي على مغارة تدعى مغارة عبلون، وصحيحها مغارة أبو لون الإله اليوناني.

يتقدم هذه المغارة في الجنوب دهليز صغير وكانت جدرانها الداخلية فيما مضى مطلية بملاط ملون قد سقط الآن كله. وكان محفوراً على يمين هذه الجدران ويسارها وفي صدرها كوة معقودة معدة لاستيعاب نواويس الموتى، وقد أصبحت الآن هذه النواويس مكسرة أو مكسورة. وثمة حيصة صغيرة متصلة بخارج الحاجز الشرقي لهذه المغارة كانوا وجدوا فيهاسنة ١٢٧٢هـ/١٨٥٥م الناووس الشهير العائد للملك إشمنعزار الثاني، وكان من الحجر البازلت الأسود وعليه كتابة فينيقية ذات

٢٣ سطراً يلعن بها هذا الملك كل من يتجاسر على إزعاجه، فنقلوا هذا الناووس وغيره من العاديات التي وجدوها حوله إلى متحف اللوفر بباريس، ووجد وقتئذ أرنست أرنان وبعده كاياردو مغاور مقبرية عديدة مبثوثة في هذه الأماكن، وفي الثاني أكثر تموجاً يقع إلى الشرق ويحسب القسم الثاني من المقبرة.

وجاء الدكتور كونتينو في سني ١٩١٤ ـ ١٩٢٠ واستأنف التنقيب في قطعة مثلثة الشكل بين التلين المذكورين فعثر على مغارة مقبرية واسعة من عهد متأخر في العصور القديمة، والفائدة في هذه المغارة أنها واسعة المساحة كثيرة التعقيد في تخطيطها لا يقل عدد غرفها عن العشر وفي قرب هذه المغارة وجد المسيو كونتينو المذكور وماقريدي بيك مندوب متحف الأستانة الذي كان يرافقه ويراقبه، ناووساً جميلاً عليه كل رسوم ومزايا السفن التجارية الرومانية في العصر الميلادي الأول، وهذا الناووس الآن في متحف بيروت.

ويمكن تقسيم المغاور المقبرية في هذه المقبرة إلى ثلاثة أصناف ١ ـ القبور القديمة جداً، وهذه عبارة عن آبار مستطيلة الشكل عميقة وبدون مدارج، وفي قعرها أبواب تنفتح نحو الجوانب الصغيرة، التي جعل الواحد منها تجاه الآخر، في كل منها غرف مستطيلة الشكل أيضاً منفصلة بحواجز، قد نفذت فيها النواويس وهذه النواويس عبارة عن أجران من المرمر لها أغطية محدودبة، ليس عليها زخارف، لكن بعضها قد نقش عليها رأس بارز. ثانياً المغاور ذات العقود التي فيها كوى جانبية لوضع النواويس، ينزل إليها بدرج، وهذه المغاور يكثر عددها خاصة في القسم الجنوبي الشرقي من المقبرة، لكن نواويسها إما من التراب المشوي وإما من التي عليها رسوم أكاليل. ثالثاً المغاور المطلية الداخل بالكلس والرسوم، التي يظهر فيها تأثيرات أمم شتى يونان ورومان ونصارى، ويكثر في الكتابات اليونانية، وليس من النادر العثور على نواويس من الرصاص.

ضواحي صيدا

آ ـ **البساتين** ـ لابد من زيارة بساتين صيدا الغناء الجميلة، وهي تحدق بالمدينة من كل الجهات، ولا يمكن تعيين خطط لهذه الزيارة، فحيثما اتجه السائر يحد نفس الروعة والجمال. ويكفي أن يوقف السائح سيارته في طريق بيروت ـ صيدا أمام أحد الأبواب العديدة الهامة بهذه البساتين وينفذ إليها بعد الاستئذان، بيد أنه يمكن أن نوصي بطريق هو الممتد من صيدا نحو الشمال المحاذي للبحر مسافة نحو كيلو متر حتى قرية الرملة ـ ينفصل من هذا الطريق الساحلي طريقان يلاقيان بعد وسط البساتين طريق بيروت ـ صيدا.

٢ ـ **هيكل أشمون** ـ للوصول إلى هيكل أشمون يسلك القاصد طريق صيدا ـ بيروت حتى مسافة ٤،٥ كم إلى شمالي صيدا وقبيل الوصول إلى الجسر الذي على نهر الأولي يترك السيارة ويسلك مجازاً على اليمين (نحو الشرق) يفضي بعد عشر دقائق إلى مكان اسمه بستان الشيخ فيجد فيه أطلال هيكل أشمون.

كرس الصيدونيون في زمنهم هذا الهيكل إلى أشمون الذي وجدوا فيه أدونيس وأسكولاب، وكان هذا الهيكل قائماً فوق باحة مكشوفة تقع في منتصف ارتفاع أكمة تشرف على الضفة اليسرى لنهر الأولي، وطول هذه الباحة ١٢ متراً، كان قد قام فوقها وفي منتصفها على التقريب جدار جميل نصفه خراب أسند ظهره إلى الأكمة. وحجارة هذا الجدار محدودبة ومن التي تدعى أحجار تشيك، وعرض هذا الجدار من المدماك الثاني ١٣م وعلوه ٤م، ويظن المسيو كونيتو أن هذا الباقي منه كان مخصصاً لحجب القسم العالي من الأكمة ولذا فقد جعل في الصدر ليؤلف أحد الجوانب الداخلية للساحة، والباحة المكشوفة كانت قائمة على قمة سطح نصفه منقور في صخر الأكمة التي نصفها صناعي، وهي مؤلفة من تراب وحجارة مجبولة وقد عثر على أساس الجدران التي كانت تؤلف واجهات هذا السطح يوصل إليها بصعوبة في مجاز صغير يقع في أسفل الباحة، والجدار الشمالي يؤلف الواجهة الأكثر اقتراباً إلى النهر، كان يمسك التراب ويتألف من خراستين من الحجارة متوازيتين وقد رأى الملك بود آختار خليفة اشمقدار أن يدعم هذا الجدار فألصق به

جداراً جديداً مؤلفاً من ثلاثة فرش من الحجارة. وقد عثروا على كتابات فينيقية سالمة كل السلامة وذات فوائد كلية، وذلك في مكان ارتباط أحجار الفرش الثلاثة الفارقة في أحشاء الجدار المذكور، ومنها ما عثروا عليه في المكان الذي كان واجهة الجدار القديم الذي سترته عمارات التدعيم وكانت الكتابات المذكورة مخبأة وخاصة بالإله. وقد اضطروا أثناء التحري عن هذه الكتابات إلى تفريغ جوف الجدار فحدث فيه سرداب حقيقي ينفذ إليه بسهولة.

إن الكتابات التي استخرجت من هنا وتوزعت في متاحف مختلفة (منها متحف بيروت) ذات نموذجين مختلفين، فالأولى وهي الأطول لا تبحث إلا عن الملك تبداختار وتعد بعض الأقسام من صيدون القديمة والثانية تبحث عن الملك من اختار وابنه.

وعلى مقربة من الهيكل وجد المسيو دونان قطعاً مهمة من العهد اليوناني (تماثيل أولاد، فسفيساء.. الخ) وفي رأيه أن اقتصاديات هيكل اشمون تتبىء إلى حد ما عن الوقف السياسي لصيدون في عهد الفرس، ونحن في هذا الوضع الراكبة طبقات بعضها فوق بعض سنجد أحد المؤثرات من الطريقة المرينة الغالية على فن الريازة الفارسية الأخمينية.

وتجاه هيكل أشمون وعلى الضفة اليمنى لنهر الأولي وقرب قرية المعز نقر الدكتور كونيتو مغارة في الصخر، فوجد فيها نصباً غريباً من الفسيفساء من القرن الثالث أو الرابع الميلادي. وبيوت القرية المذكورة نفسها مبنية بأحجار جميلة متقنة مأخوذة من مبان قديمة جداً بعضها من حجارة التشيك وبعضها من ذات النحت المحدودب كالموجودة في هيكل أشمون.

٣ ـ **الميه والمية**. يمكن بلوغ الأكمة المسماة بالمية والمية في مجاز صالح للسيارات (طوله ٣ كم) يتجه نحو الشرق بعد أن ينفصل عن طريق صيدا ـ بيروت عند الخروج من صيدا. وتقوم في سفح هذه الأكمة مبانٍ ضخمة لمدرسة البنات الأميركية. وقصر فورد وهو مدير البعثة الأميركية السابق وقد وجد هذا الرجل في حديقة قصره ٢٥ ناووساً ذات أشكال بشرية من القرن الرابع والخامس قبل الميلاد. ويظن أن بعض هذه النواويس من صنع فنانين فينيقيين وبعضها من صنع فنانين يونان. أحدهما يمتاز بدقة خاصة في نحته، ولا ريب في أنه من صنع أحد اليونان ووجد الرجل المذكور،

أيضاً تيجان أعمدة عليها بروثوم ثيران لا ريب في أنها جلبت من القصر الذي بناه داريوس ملك الفرس في صيدا.

تقوم في ذروة الأكمة البناية العظيمة الحديثة للمدرسة الأميركية الخاصة بالبنين، وقد استعمل في زخرفة أبهائها الداخلية أعمدة أثرية جميلة من حجر السيئنيت الوردي كما أن في باحتها ناووسين أثريين ونوصي بالوصول والنزهة إلى هذه المدرسة لأن فيها مجالاً للاستمتاع بمشهد غاية في الروعة نحو صيدا والبحر من جهة، ونحو الجبال من جهة أخرى.

٤ ـ **الولي النبي يحي** ـ في شمالي المية ومية أكمة سهلة البلوغ من طريق بين البساتين، تحمل في منحدراتها مزار النبي يحيى، وهو بناء ربما قام مكان معبد من عهد الكنعانيين، كما قامت أيضاً الكنيسة المارونية المنسوبة إلى مار الياس وهي في مكان قريب يعلو قليلاً عن المزار المذكور.

٥ ـ **سيدة المنظرة** ـ عند الخروج من صيدا نحو الجنوب يترك على اليمين طريق صيدا ويأخذ درباً صالحاً لسير السيارات يفضي إلى درب السن على اليمين، بعد عشر دقائق من السير يقوم مزار النبي سيدون الذي يزعم إليهود أنه ضريح زابولون ويحجون إليه وبعد أن يترك على اليسار عدة دروب، أبعدها في الجنوب يفضي إلى المقبرة الفينيقية (تقدمت..) وفي الدقيقة ١٥ بعد نهر برغوث، وكان اسمه قديماً ثم يترك على اليسار صخرة (مغارة عبلون)، ثم يجتاز في الجنوب الشرقي سهلاً مزروعاً ثم يعبر في (الدقيقة ٤٠) نهر السنيق وهنالك صعدة تدوم نصف ساعة (طريق صالح) تفضي إلى معبد نصراني اسمه سيدة المنظرة وهي كنيسة صغيرة منقورة في الصخر يزعمون أنها كانت مخصصة للعشتروت، ويحج النصارى إليها بكثرة كل سنة في ٨ أيلول، وفي الطرف الشمالي من الأكمة التي قامت فوقها الكنيسة المذكورة يوجد أطلال قصر محصن اسمه (قصر المنطرة) ويظن أنه أحد حصون النظارة والمراقبة التي بناها الصليبيون ولم يبق من هذا القصر سوى صهاريجه وفي هذا المكان منظر جد معجب نحو صيدا. وعلى بعد بضع مئات من الأمتار في الجنوب الشرقي من سيدة المنظرة يوجد قرية مغدوشة، وفيها تزار مغارة قديمة تحتوي على

صورة امرأة منحوتة نحتاً ضخماً، ومن مغدوشة يمكن الرجوع إلى صيدا خلال ساعة ماراً بمغارة الزيتون وعين الزيتون.

٦ ـ **جون (ضريح اللادي ستنهوب) دير المخلص وقلعة أبو الحسن** ـ (جولة تستغرق نحو ٢٠ كم) يغادر صيدا من طريق بيروت ـ في الكم ٥ بعد عبور نهر الأولي فوق جسر يأخذ على اليمين طريقاً يتجه نحو الشرق إلى الجبل ـ ويجتاز الطريق البساتين الجميلة الممتدة على ضفة نهر الأولي كما يجتاز قرية مشع وفي الضفة اليسرى يلحظ وسط الأنجم والأعشاب الخضراء أطلال هيكل أشمون وقد تقدم، في الكم ٦ ينعطف نهر الأولي نحو اليمين عطفة جميلة بين البساتين، ويرى السائر هنالك قرية غوسطا المشرفة على النهر ـ في الكم ٧ يدور الطريق حول وادٍ يحري فيه أحد روافد نهر الأولي، ثم يشرع بالتوقل ـ في الكم ٨ ينحرف الطريق نحو الشمال صعوداً بين آكام طباشيرية جرداء بالكل ية ـ في الكم ٩ قرية عواد ـ في الكم ١١ يشرف على وادي نهر الأولي وهو على اليمين، وضيق في هذا المكان للغاية ـ في الكم ١٤ بعد اجتياز كروم زيتون جميلة ينفذ إلى قرية كبيرة اسمها ظهر حون.

وبعد جون يسير ـ في مجاز يعبر مسيلاً في شمالي القرية فيبلغ خلال ٢٠ دقيقة قمة أكمة واقعة في الشمال الغربي مغروسة بالزيتون والتين والرمان وغيرهما في هذه القمة حوش مزرعة تحضن دير المخلص للروم الكاثوليك، وهذا الدير قديم محول وكان مسكن اللادي استر ستنهوب، أما ضريحها فهو في الجنوب الغربي من الدير قد ظللته أشجار جميلة من الزيتون وهذا الضريح مؤلف من أربعة مداميك حجرية وعليه بلاطة من الرخام نقش عليها اللادي استيرلوسي ستنهوب، ولدت في ١٢ آذار ١٧٧٦/١١٩٠ وتوفيت في ٢٣ حزيران ١٨٣٩/١١٥٢.

نشأت هذه السيدة من أسرة نبيلة، لأن جدها اللورد شاتهام وعمها ويليم ييت وقد كانا من أقطاب السياسة والحكم في المملكة البريطانية، وأبوها شارل كونت استانهوب العالم الكاتب الشهير (١٧٣٥ ـ ١٨١٦) وكانت هذه السيدة ذات ذكاء ونشاط خارق للعادة، ولذا صارت مساعدة لعمها حتى موته سنة ١٨٠٦/١٢٢١، وقد بلغ بها الأمر أن أصبحت اقدار انكلترا بيدها خلال بضع سنوات.

وبعد موت عمها ساقها دهاؤها السياسي ودهاؤها بالسيطرة والحركة إلى أن تأتي الشرق سنة ١٨١٠/١٢٢٥ وظهرت في أول الأمر بشكل سائحة عادية، فطافت أنحاء الشام كلها فزارت القدس ودمشق وحمص وبعلبك فجاءت أولاً إلى اللاذقية فأقامت فيها وتعلمت العربية، ثم تهيأت للتجول في الأماكن التي كان يعسر الوصول إليها من البلاد العربية وبراريها للقيام باكتشافات جديدة، فظهرت بادىء بدىء بمظهر سائحة عادية وبلغت بها الجرأة والمغامرة أن اتصلت بالبدو وذهبت تحت حمايتهم إلى تدمر التي كان الوصول إليها في تلك الحقبة شبه مستحيل أو ضرباً من المجازفة، وقد جهزت قافلة كبيرة وحملت إلى البدو هدايا نفيسة، وفي تدمر جعلوها كملكة وكانت هي تضاهي زنوبيا في أعمالها. ثم لم تلبث أن اشتركت فعلياً وعن كثب في رياسة البلاد وكانت غريبة نالت منزلة عند عبد الله باشا والي عكا والأمير بشير الشهابي وإبراهيم باشا المصري وغيرهم، وصادف أن اغتيل وقتئذ ضابط فرنسي اسمه الكولونيل بورتين في جبال النصيرية فتمكنت اللادي أن تحصل من باشاوات عكا وطرابلس على تجريدة عسكرية قادتها بنفسها وذهبت لمقاتلة ومقاصصة المعتدين. وكانوا يلقبونها بالست، وكان لها تأثير واحترام زائدان لدى الباشاوات والشيوخ حتى لدى أخصامها فضلاً عن أصدقائها وفضلاً عن الطبقة العامة من الشعب.

ثم في سنة ١٨١٨/١٢٣٤ آوت إلى قرية جون وبنت لها داراً فيها واعتزلت العالم كله. وعاشت من يومئذ عيشة انزواء وانفراد وشذوذ، تستقبل عدداً ضئيلاً من السياح مثل لامارتين في سنة ١٨٣٢/١٢٤٨ إلا أن نشاطها لم يخمد خلال ذلك، فقد كانت خصماً لدوداً للأمير بشير الشهابي سيد لبنان في تلك الحقبة وقد استطاعت أن تجعله يحترم جانبها. ولما استولى ابراهيم باشا على عكا في سنة ١٨٣٢/١٢٤٨ آوت في منزلها مئات من الفارين واللاجئين من عكا وشاكست الباشا المشار إليه كما شاكست الأمير بشير. وفي سنة ١٨٣٨ حرضت الدروز خفية على الثورة. وفي آخر عمرها كانت افتقرت بحكم التبذير والبذخ اللذين اعتادتهما، فاحترفت السحر والتنجيم إلى أن ماتت سنة ١٨٣٩/١٢٥٥ في جون بائسة منبوذة ونهب قصرها وخرب (راجع ترجمتها في دائرة المعارف ج٣ ص ٤٤٠).

وبعد جون ينحرف الطريق نحو الشمال ويجتاز أكمة، وهنا يتمتع السائر بمنظر رائع لسلسلة الجبال المؤلفة في اليمين من جبل الريحان (وهو إلى الجنوب) وفي اليسار من جبل الباروك (وهو في الشمال) ثم يلحظ على اليمين دير المخلص، ويهبط الطريق هنا، وهو من تخطيط رهبان الدير المذكور، ويدور في الشمال حول الأكمة التي قام عليها الدير، ثم يجتاز في الكم ١٦ غابة صغيرة من الصنوبر فيبلغ في الكم ١٨ الدير من جهته الشرقية بعد دورة طويلة.

إن هذا الدير المنسوب للمخلص يعود إلى آباء الرهبنة الباسيلية السالفاتورية، أسس سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م وهو يتألف من الدير نفسه ومن مدرسة اكليريكية، وعلى مقربة منه نحو الشرق دير آخر للراهبات ودار للمبتدئات في الرهبنة، ولكرم رهبان هذا الدير ووفادتهم شهرة معروفة وذائعة في لبنان.

دير المخلص مجاز يهبط إلى وادي نهر الأولي يفضي خلال ساعة إلى قلعة (أبي الحسن) وهي قلعة صغيرة مبنية بناء يستحق التصوير فوق شنخاب صخري يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، علوه ٨٠م وعرضه في القمة ١٠٠م، ويقع عند إحدى عقد النهر. وهي خراب بالمرة، وكانت تشرف وتحرس وادي نهر الأولي، ويدل مظهرها أنها عربية، يدخل إليها من باب في الجنوب الغربي مفتوح ضمن بناء، وبعد اجتياز هذا الباب يبلغ في الشرق إلى باب سري، وبعد هذا يصل إلى القلعة القائمة فوق الشنخاب، فيجد من آثارها أطلال الجدران. وهنالك قبو كبير يمتد في جوف الشنخاب في كل طوله.

من صيدا إلى جزين (٣٨ كم ، طريق معبدة)

يترك صيدا من طريق بيروت . ‌في الكم ٢ يسلك على اليمين طريقاً يتجه نحو الجبل . في الكم ٣ على اليسار درب صالح للسيارات يفضي إلى قرية الرامية وإلى أملاك الأسرة الجنبلاطية ، وهناك منظر رائع نحو صيدا وبساتينها وهذا الدرب يلحق بعد بطريق بيروت (تقدم) وفي جنوبي أكمة الرامية وغربيها نقب الدكتور كونيتو كهوف مقبرية فيها صور ملونة.

ثم يجتاز الطريق قرية الهلالية ، وسكانها موارنة وروم كاثوليك ، ومن المحتمل أن كنيسة هذه القرية قد بنيت بأحجار أثرية ، وفي سفح الأكمة التي ركبت القرية عليها قد نقرت قبور من عهود ونقبها الدكتور كونيتو فاستخرج منها ناووساً لأشمنغر من الرخام الأبيض على شكل الإنسان وضع فيما بعد في متحف بريت ، وفي جنوبي القرية بئر مقبري من عهد عريق في القدم مسقوف بعقد خراب ، وإلى الغرب منه بمسافة وفي مكان أوطأ مغارة اسمها مغارة الكتابات فيها خمس غرف جانبية على اليمين وعلى اليسار ثم غرفتان مندثرتان قد رسمتا بالألوان المغطسة بماء الكلس ورسوم زخرفية. وكل هذا يدل على وجود مدرسة حقيقية للرسم الزخرفي لدى الصيدونيين. إن آثار هذه المدرسة متسلسلة على امتداد عدة قرون مع مطابقة للواقع لا خلاف عليها هذا وكان في الاتجاه الممتد في ظهر الأكمة مبان ولعل أحد معابد الصيدونيين المشهورة كان موجوداً هنا.

ولا ريب في أنه كان في الوقت نفسه هو والآكام المجاوة موقع مدينة صيدون يام أي صيدون البرية المذكورة في كتابات هيكل أشمون.

ثم يصعد الطريق في منعرجات عديدة فيبلغ (في الكم ٥) قرية عبرة المارونية ، تحيط بها كروم الزيتون والتين والعنب . في الكم ٦ قرية كرم الحنش ، وفي أول هذه القرية بيت منفرد للسيد أنيس جبرائيل عنده عاديات ، منها تمثال متدثر مقطوع الرأس وجد منذ سنين عديدة. وبعد هذا البيت كنيسة منفردة على ضفة الطريق . في الكم ٨ قرية الصالحية ، مارونية وروم كاثوليك ، مبنية فوق أكمة ، وفيها عين ماء جيدة مسقوفة بعقد في جوارها عدة مقابر أثرية . في الكم ٩ على اليمين قرية كفر

جرا ، وفيها فواخير لصنع الجرار ، وفوق أكمة شهباء وجدوا مقابر عديدة من أجيال مختلفة تبدأ من أول الألف الثاني إلى سنة ١٥٠٠ أو ١٤٠٠ ق.م ولا ريب في أن كفر جرا كانت من أماكن الكنعانيين.

في الكم ١٢ لبعا ، وهي قرية وجدت فيها قبور أقدم من التي في كفر جرا يعود بعضها إلى الألف الثالث قبل الميلاد.

في الكم ١٤ على اليمين قرية الإصطبل ثم يجتاز الطريق روابي صغيرة من الكلس الأبيض . في الكم ١٦ ، يعود للهبوط ، على اليمين وادٍ سحيق فيه نهر الشماس ، في الكم ١٧ على اليسار قرية قديمة محصنة اسمها كفر فكلوس . في الكم ١٩ مخفر درك ، يترك على اليسار درب خصوصي يفضي بعد ٢ كم إلى مزرعة صفارية . ترى عن بعد جون ودير المخلص . في الكم ٢١ ينحرف الطريق نحو اليمين (أي نحو الشرق) ويمر من أسفل قرية آنام ، وعلى اليسار يصعد في منعرجات تزداد انتقاباً في منحدرات جبل الكأداء. في الكم ٢٧ على يسار الطريق بناء مدفني في الكم ٢٨ وفي أسفل قرية روم وعلى علو ٩٠٠م ثنية يعلوها مزار ولي يصلون إليه من طريق على اليمين . ثم ينحدر الطريق ، وهنا منظر بديع على الوادي المكتظ بالحراج يترك على اليسار فرعاً يفضي إلى قرية عازور.

في الكم ٣٠ يجتاز غابة جميلة من شجر الصنوبر الحلبي ، ثم يبلغ بعد اجتياز مرتفع كالخرشوم إلى العنصر الثاني للجبل . في الكم ٣٢ قرية الحمصية ثم يتوقل الطريق العضد المذكور ماراً بين أشجار الصنوبر ، ويرى على اليسار فوق شنعوف مزار النبي ميشا. (يترك هنا على اليمين طريقاً غير منتهٍ بعد يمر في الكم ٢,٥ بقرية قيتولي وفي الكم ١٠ بجرجوة وفي الكم ١٢ بعرب سليم ، وفي الكم ١٤ بجسر فوق نهر الزهراني ، وفي الكم ١٨ كفر رمان ، وفي الكم ٢٠ يبلغ الطريق الذاهب من صور إلى جديدة معودتيون (سيأتي) وبين قيطولة وجرجوة يترك هذا الطريق على بعد ٢ كم قرية كبيرة اسمها جباع ، سكانها ٥٠٠٠ مسلمون ، قامت وسط غوطة غناء لا تقل عدد عيونها عن ٢٥٦ عيناً.

في الكم ٣٤ يبلغ قمة العضد الثاني للجبل وتدعى ظهور الرملة ، وفيها منظر غاية في الروعة والامتداد نحو الدائرة الجبلية الواقعة تحت إشراف كتلة تومات

جزين وربما شاهد بلدة صور وفي حضن هذه القمة تظهر جزين وشلالها. يترك على اليسار طريقاً له فرع يفضي في الكم ٢ منه إلى قرية بيت الدين وفرع ثانٍ في الكم ٢ منه أيضاً إلى دير ماروني اسمه المشموشة وهو في أسفل النبي ميشا وثمة منظر رائع جداً.

في الكم ٣٥ ينحدر الطريق في منعرجات منتصبة. في الكم ٣٦ على اليسار طريق يفضي في الكم ٣ منه إلى قرية بكاسين وجد فيها الرهبان اليسوعيون أحجار صوان من عهود ماقبل التاريخ (شلئينية).

ثم يشرف الطريق على وادي جزين السحيق الخضر النضر (وهو على اليسار) ثم في الكم ٣٨ ينفذ في أخدود عميق منقور في الصخر، بعده تبتدىء بيوت قرية جزين.

جزين - قرية، علوها ٨٣٠م وسكانها ٣٠٠٠ أكثرهم موارنة وأقلهم كاثوليك، وهي قاعدة مديرية ناحية قائمقامية تتبع لواء صيدا، وفيها عدة كنائس للطائفتين المذكورتين ومحكمة بداية ومخفر درك وبضعة فنادق كبيرة جميلة. وهي من أشهر المصايف المقصودة في لبنان ولاسيما من المصريين بعلوها المعتدل وموقعها البديع وشلالها ذي المنظر البهيج ومائها العذب وفاكهتها وخضرتها.

وجزين كانت في عهد الصليبيين هي والشوف من مقاطعاتهم الكبرى التابعة لسينورية صيدا، ثم تخلى عنها جوليان دوسايت إلى أصحاب الطريقة التونوية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م.

يزار في جزين العين التي تنفجر في أعلى القرية من مجازة كالمغارة، ويزار الشلال الذي علوه نحو ٤ أمتار وتجري في وسط القرية من الشرق إلى الغرب قاسمة إياها إلى قسمين ومن ذلك اسمها وهو محرف عن جزئين واسمه شالون جوين، وإذا هبط الوادي ثم صعد إلى ضفته اليسرى يبلغ مغارة كبيرة تنسب إلى الأمير فخر الدين المعني، وهي تتألف من دهاليز منقورة في الصخر اختبأ فيها الأمير المذكور وألقي فيما بعد القبض عليه (نحو سنة ١٠٤٢هـ).

من جزين إلى مشغرة ودير عين الجوزة (١٣ و ٢٦,٥ كم إلى الشمال الشرقي، طريق شقه الجيش الفرنسي سنة ١٩٢٨ ولم يتم بعد، يدور حول كتلة تومات جزين ويفضي إلى وادي الليطاني بعد مشغره).

يترك هذا الطريق جزين من جنوبها ويسلك كورنيشاً شق) فوق واد سحيق يتركه على يمينه، في الكم ٢ يترك على اليمين طريقاً (وهذا لم يتم بعد) يتجه نحو كفر حونة والجرمون والجرمق. في الكم ٤ بعد تسلق أو عضد مؤلف من صخور هائلة فوق قممها وسحيقة يشرع بالتوقل في صعائد الجبل والنفوذ في واد يطل عليه السائر إطلالاً تاركاً إياه على اليسار. في الكم ٨ عقبة على علو ١٤٥٠م يشرف عليها من اليسار مخفر عسكري مهجور، ثم يعود الطريق بالانحدار في حضن واد يمتد حتى غريبية الفوقى ثم يرى على اليسار شنخاب جبلي يدعى تومات نيحا، وهي نجعة الرواد من السياح، لا ينقطع الهواء البارد منها ثم جبل لبنان الذي يحجب وادي الليطاني.

في الكم ١٠ يبلغ الطريق عقبة ثانية، وفيها يظهر بغتة منظر رائع نحو جبل الشيخ ومنابع وادي الليطاني التي تشرف عليها قرية يحمور ومن ثم يبدأ الطريق بالانحدار شيئاً فشيئاً نحو السفح الشرقي لجبل لبنان، فينحرف بشدة نحو الجنوب ويمر من أسفل شيفوفين اسمها تومات جزين (العلو ١٨٤٦م، مشهد رائع) وفيهما أطلال هيكل - في الكم ١٢ على اليمين مجاز دواب رديء يصعد إلى أن يبلغ ثلاث أشجار منفردة ويهبط بعدها نحو وادي الجنان حتى دير مزرع العائد للروم الكاثوليك - في الكم ١٣ يترك على اليمين قرية عين التينة. ثم يستمر الطريق في هبوطه وهو يخطط منحنياً واسعاً ويتجه نحو الشمال الشرقي فيبلغ مشغرة في الكم ١٨ وعينتيت في الكم ٢٢ وبوماريا في الكم ٢٧ أما قرية دير عين الجوزة ففي الكم ٢٦,٥ ومن هذه القرية طريق نحو شتوره شمالاً ونحو جديدة معودةيون جنوباً وقد تقدم وصف هذه القرى والطرق..

من جزين إلى جسر الخردلة (٣٤ كم، طريق غيركامل) يستمر في بادىء الأمر خلال ٢ كم طريق جزين - مشغرة، ثم يتركه على اليسار ويسلك على اليمين طريقاً متجهاً إلى الجنوب ثم يترك هذا الطريق الوادي ويتسلق أكمة في منعرجات عديدة عليها جلول متدرجة مفروشة بالعنب - في الكم ٨ على اليمين مبان مقبرية، ومن ثم يستمر في الهبوط في منعرجات في الكم ٩ كفر حون، قرية سكانها ٨٠٠ أكثرهم نصارى وأقلهم مسلمون شيعة - في الكم ١١ يترك على اليسار فرعاً للطريق يفضي

إلى مزرعة داريا، على اليسار وعلى بعد ٣٠٠ م قرية شيعية اسمها عرمتى ـ ثم ينحرف الطريق نحو اليمين (إلى الغرب) ويدور حول كتلة جبلية تحجب وراءها قرية الريحان. وهنا يستمتع بمنظر جميل على وادي الليطاني وبحيرة الحولة وجبل الشيخ ـ في الكم ١٧,٥ قرية الريحان ـ في الكم ٢٢ قرية عيشية وهي في بطن واد سحيق فيه جدول من روافد الليطاني يخرج من نبع المدينة ـ في الكم ٢٦ جرمق وفيها فرع للطريق ينشط نحو اليمين (الغرب) ليلحق في الكم ٤ كفر رمان ـ في الكم ٢٩ يبلغ طريق صيدا ـ معودتيون على بعد ٥ كم من جسر الخردلة الذي على الليطاني.

من جزين إلى بيت الدين (٣٣ كم، طريق متشعث) ـ في الكم ١ يترك على اليمين طريق مشغرة المذكور آنفاً، ثم ينحرف نحو الشمال ويحاذي سطح الانصباب الشرقي لوادي جزين وثمة منظر رائع نحو هذا الوادي ـ في الكم ٦ في أسفل الطريق قرية شمرا، وفي أعلاه على اليمين يرى فتحة مغارة في لحف الجبل تتألف من ثلاث غرف منقورة في الصخر، وهنا تدعى قلعة جزين، وهي القلعة التي التجأ إليها الأمير فخر الدين المعني حينما أحاطت به عساكر الدولة وحاصرته فيها نحو شهرين ويمكن الوصول إليها من مجاز شديد الانحدار، ويفضل لمن يصيبهم الدوار أن يصطحبوا أحد الرعاة.

ويشرف الطريق على ملتقى نهر الباروك جزين اللذين يلتقيان هنا ليؤلفا نهر الأولي (بوسترينوس القديم) وعند هذا الملتقى مرج يدعى مرج البسري فيه بساتين غناء خضراء، وقد وجدوا فيه أربعة أعمدة من الغرانيت المصري علوها ٤ م وعرضها ١,٢٠ م ويسمون مكان هذه الأعمدة خربة بسري ولا ريب أنه كانت هنا مدينة التي كان نهر الأولي قديماً ينسب إليها فيدعى بوسترينوس ثم إلى مسافة نحو الغرب وعلى سطح الانصباب الجنوبي لوادي نهر الأولي يذكر وجود مدافن.

في الكم ٩ على اليسار قرية درويت ـ ثم ينحرف الطريق نحو اليمين ويدور حول واد جانبي يأتي من الشرق ـ في الكم ١٠ منظر رائق نحو جبل نيحا ـ في الكم ١١ شلال وطواحين ثم يبلغ قرية درزية تدعى باتر المحاطة بكروم الزيتون والجوز على اليمين مقابر تحت شجرتي سنديان أخضر ـ في الكم ١٢ على اليسار منظر بديع

على وادي نهر الأولي. من بعده يكشف المحدق البحر - وعلى اليسار قرية بيقون - في الكم ١٤ قرية جبلاي.

ثم يحاذي الطريق وادي نهر الباروك (على اليسار) - في الكم ١٦ يدور حول وادٍ جانبي يأتي من الشرق وفيه (أشجار توت وزيتون).

في الكم ١٧ قرية حارة جنيدلة، يرى على اليسار فوق سطح الانصباب المقابل قرية كبيرة اسمها مزرعة الشوف - في الكم ١٩ عماطور قرية درزية كبيرة، فيها في شرقيها عين ثرة ومناظرها جميلة - في الكم ٢٠ عين قنى قرية درزية، وفيها قصر قديم لآل جنبلاط - ثم يدور الطريق حول وادٍ جانبي يأتي من الشرق - في الكم ٢١ يجتاز شلالاً فوق جسرين ثم ينحرف الطريق نحو اليسار.

في الكم ٢٢ المختارة، قرية سكانها ٥٠٠ علوها ٨٥٠ قاعدة مديرية، وفيها قصر عظيم قديم جميل للشيخ بشير جنبلاط عميد عائلة جنبلاط الذي كان معاصراً للأمير بشير الشهابي الكبير وجرت إليه المياه من نهر الباروك مسافة نحو ساعتين في قناة أكثرها منقور في الصخر، وتجتمع مياه هذه القناة الكبيرة بمياه عماطور وباتر ونيحا وعارية وعذيبة وجزين في محل يسمى المرج (مرج بسرى) وتسير بعدئذ في وادٍ يفصل إقليم الخروب عن إقليم التفاح، هذا ويمكن زيارة هذا القصر بعد الاستئذان من السيدة (نظيرة جنبلاط) وهو محاط بأشجار سرو جميلة، وعلى بعد منه طاحونة تنبجس منه المياه بشدة ورغوة رائعتين.

ومن المختارة طريق خط الأهلون يفضي بنحو ١٠ كم إلى قرية معاصر الشوف التي فيها غابات الأرز. في الكم ٢٤ جسر على نهر الباروك ، في الكم ٢٥ قرية الجديدة في الكم ٢٦ إلى الوراء مشهد غاية في الروعة نحو المختارة ونحو جبل الباروك في الشرق ونحو جزين وشلالها في الجنوب.

في الكم ٢٧ يتسلق الطريق نجداً فيه مشهد غاية في الروعة نحو جبل الباروك، وهناك على اليمين وفي أسفل الطريق عين الحصرين.

في الكم ٢٨ هبوط في منعرجات، على اليسار فوق أول أكمة قرية السمقانية، على اليمين عين ماء اسمها السوق وهي على حافة الطريق.

في الكم ٣٠ يصعد الطريق في منعرجات أيضاً ثم يعود للهبوط، وهنالك منظر جميل نحو دير القمر الذي يفصلها عن هنا وادي الحمام.

في الكم ٣٢ يترك على اليسار طريقاً يفضي إلى بعقلين وهي قرية درزية كبيرة سكانها ٣٠٠٠ كان لها شأن يذكر في تاريخ لبنان وقد بناها المعنيون حينما دخلوا الشوف. وكانت في بادىء الأمر مقر حكومتهم حتى انتقلوا إلى دير القمر، وهي الآن قاعدة قضاء الشوف ومركزه الصيفي وفيها بعض الآثار الباقية من عهد آل معن، وسراي للحكومة ومستشفى إنكليزي ومدرسة إنكليزية ولذا تجد أكثر مثقفي الدروز من رجال ونساء من خريجي المدارس الإنكليزية المنتشرة في قراهم منذ عشرات السنين.

ثم بعد بعقلين يستمر هذا الطريق في هبوطه نحو الساحل ماراً بغريفة وشحيم. في الكم ٣٣ بيت الدين .

من صيدا إلى جديدة معوديون - عن طريق حصن الشقيف (٥٧,٥ كم، إلى الجنوب الشرقي، طريق معبدة). يترك صيدا نحو الجنوب ويسلك طريق الناقورة - في الكم ٩ مصب نهر الزهراني - وفور عبور الجسر الذي على هذا النهر يسلك طريقاً إلى اليسار يتجه نحو الشرق ويصعد في منعرجات تاركاً على يساره وادي نهر الزهراني الذي يطل عليه فوراً، وفي بطن الوادي المذكور جسر قديم محدودب الظهر - ثم يلمح على اليسار (في الكم ١٣) قرية المسيلة في الكم ١٦ يشرف في اليسار على واد سحيق هائل ، وثمة منظر أنيق نحو جبل الريحان وجبل نيحا. في الكم ١٧ مزرعة خان محمد علي، على اليمين في الكم ١٨,٥ على اليمين قرية زفتى وهي تطل على الطريق من علٍ، وعلى اليسار وفوق شنعوف وفي الضفة الأخرى من الوادي قرية خزيز.

ثم يغادر وادي نهر الزهراني تاركاً إياه على اليسار - في الكم ٢٤ على اليسار قرية كفر الجوز وهي فوق شنعوف - في الكم ٢٥ على اليسار قرية دير الزهراني، وهذه قامت في مكان أثري تدل عليه قطع الأعمدة الكثيرة - في الكم ٢٦ في الضفة الأخرى من الوادي وعلى اليسار يلمح قرية رومين.

في الكم ٢٧ قرية تل حاموش، فيها خان مسقوف وبركة قديمة (نبجس ماؤها من قعرها لعمقها الزائد في أراضٍ كلسية)، وهناك مقبرة على اليسار فوق نشز ـ في الكم ٣٠ يصعد الطريق ثم يهبط.

في الكم ٣١ يترك على اليسار طريقاً طوله ٢٠كم، لم يتم بعد، يتصل قرب قرية الحمصية بطريق صيدا إلى جزين، وهو يمر في الكم ٢ بقرية كفر رمان مقر يوسف بك الزين أحد كبار ملاكي هذه الأنحاء، وفيها أطلال هيكل روماني ـ في الكم ٦ جسر على نهر الزهراني ـ في الكم ٨ عرب سليم، في الكم ١٠ جرجوة، في الكم ١٢,٥ قيطولي. وفي كفر رمان فرع طوله ٤ كم يصل الطريق المذكور بطريق جزين ـ كفر حونة ـ جسر الخردلة.

في الكم ٣٣ نبطية التحتى، قرية كبيرة، علوها ٤٥٠م، سكانها ٣٤٠٠، كلهم مسلمون جعفرية إلا عدد ضئيل من النصارى وهي من كبريات عواصمهم وقاعدة مديرية وفيها محكمة صلح، وموقعها المتوسط جعل لها مركزاً تجارياً هاماً ويقام فيها كل يوم ثلاثاء سوق عامة كبيرة يتهافت إليه الألوف من كل هذه الأنحاء، وفيها مسجد جامع يدعى الحسينية وكنيسة للروم الكاثوليك ولأهلها ولع بزراعة التبغ التركي، وعلى بعد ٥ كم إلى الجنوب الغربي في الحاروف كهوف مقبرية وكتابات آرامية.

في الكم ٣٤ على اليمين وفوق مرتفع النبطية الفوقى وهي أقدم من التحتى ـ على يسار الطريق يلمح ديراً قديماً..

قلعة الشقيف ـ حصن بوفور (الحصن الجميل) في الكم ٣٦ من الطريق المذكور آنفاً وقبل قرية كفر نبتيت وقرب مستنقع كبير، يترك على اليسار لحباً يصلح قليلاً للسيارات حتى قبل قرية آرنون بقليل ومن هناك إما أن يركب السائح راحلة أو يسير على قدميه خلال ٤٠ دقيقة ويتسلق أكمة قليلة الانحدار في هذه الجهة، قامت فوقها قلعة الشقيف.

التاريخ ـ سمى العرب هذه القلعة شقيف آرنون وسماها الصليبيون بوفور أي (الحصن الجميل) وحق لهم أن يسموها كذلك لجمال موقعها، وقد كانت في عهدهم من أجزاء مقاطعة صيدا استخلصها فولك ملك القدس سنة ١١٣٩/٥٣٤ من

الأمير شهاب الدين وعهد به إلى حكام صيدا الصليبيين، فجدد هؤلاء بناءها وسموها من ذلك الحين بوفور.

ويقول المؤرخ كيليوم الصوري إن بعد الكسرة التي حدثت للصليبيين في سنة ١١٧٩/٥٧٥ قرب بانياس التجأ كثير من الفرسان الشفالية والجنود إلى هذه القلعة، وفي سنة ١١٩٢/٥٨٨ حاصرها السلطان صلاح الدين، ولما شهد أن حصارها يحتاج لمدة طويلة والنجاح فيه غير مؤكد حاول أن يأخذها بالخدعة فطلب مقابلة رينو حاكم صيدا، وكان هذا محصوراً في القلعة، وبعث إليه بخاتمة ليتأكد من حسن نيته - ولما وصل رينو إلى خيمة السلطان كبل بالحديد، ثم سيق إلى أمام القلعة وعرض أمام أنظار المحصورين فيها، إلا أن هذا رغم ذلك حرض رجاله على الدفاع فأرسله السلطان صلاج الدين إلى دمشق وأبقاه فيها معتقلاً وبعد حصار سنتين الجأ الجوع المحاصرين إلى التسليم ١١٩٤/٥٩١.

وفي سنة ١٢٤٠/٦٣٨ عقد اسماعيل ملك دمشق عهداً مع الصليبيين أعاد إليهم بموجبها قلعة الشقيف وقلعة صفد، إلا أن هذه الإعادة لم تسلم من الصعوبة، لأن الحامية المسلمة التي كانت في القلعة لم ترضخ لأمر السلطان فدافعت طويلاً حتى النهاية ورممها بعد الاستلام يوليانوس صاحب صيدا ثم باعها إلى الفرسان الهيكليين، وفي سنة ١٢٦٨/٦٦٧ جاء الملك الظاهر بيبرس بعد أن استولى على صفد فحاصر قلعة الشقيف واستولى عليها وأقام فيها حامية من جيشه وبنى برجاً على بابها، وفي القرن ١٧/١١ حينما عصى الأمير فخر الدين المعني على الدولة عني ترميم هذه القلعة وجعلها بحالة صالحة للدفاع ضد هجمات جيوش الدولة التي سيقت عليه بقيادة باشاوات عكا ودمشق - وفي القرن الماضي سكنها أبناء العشائر أو حكام جبل عامل ولم يغادروها إلا في النصف الأخير من ذلك القرن، أما اليوم فقد أمست زريبة يأوي إليها الرعاة بغنمهم وماعزهم.

الوصف - انتقى بناة هذه القلعة مكانها في قمة أكمة صخرية كعرف الديك، فهي محلقة في الجو كالعقاب يحدها من الشرق منحدر سحيق منتصب عمقه أكثر من ٢٠٠ متر، يجري في قعره نهر الليطاني، ومن الغرب منحدر آخر يهبط نحو مستوى السهل الذي فيه قرية أرنون.

وأمام القلعة في الجنوب يرى نجداً صغيراً يظهر أنه صناعي، وقد كانت ضاحية القلعة خلال العصور المتوسطة مبنية في هذا النجد ولا يزال يرى فيه في جهة الغرب أطلال جدار محصن ببريجات بناها في القرن ١٧ الأمير فخر الدين المعني بحجارة بسيطة، وحينما اشترى الفرسان الهيكليون هذه القلعة سنة ٦٥٩/١٢٦٠ بنوا في طرفها الجنوبي طابية (مصنعاً حربياً منعزلاً ليس له زاوية داخلية)، ولكنها لم تلبث سوى ثماني سنوات حتى جاءها الملك الظاهر بيبرس، وهذه الطابية ذات شكل مستطيل، ذرعها ٢٥×٢٠ خطوة، وقد بنيت من أحجار وسط في حجومها ولا يزال باقياً منها بضع غرف معقودة وصهاريج.

وفي مكان هذه الطابية يمتد النظر إلى آفاق جد واسعة ومناظر رائعة بهيجة تملك على الإنسان مشاعره، فهو ينظر إلى القلعة فيراها محلقة في الجو كالعقاب، ويلمح على بعد في الشرق قمم جبل الشيخ المكللة بالثلوج، وفي الجنوب الشرقي قلعة الصيبية المشرفة على بانياس والحولة، وفي الشمال بلاد بشارة الشمالية وسهل البقاع وجبال لبنان، وفي الجنوب بلاد بشارة الجنوبية التابعة لقضائي صور ومعودةيون والممتدة حتى جبال صفد وكل هذه المناظر من أجمل ما في بلاد الشام تحصنت فيها سنين كثيرة جيوش أهل الصليب وأهل الإسلام، ولولا عزيمة صلاح الدين وخلفائه لانمحت كلمة الإسلام والعرب من ذلك التاريخ.

وقد اضطر مهندسو هذه القلعة أن يتبعوا في تخطيطهم عوارض الأرض وتضاريسها التي بنيت القلعة فوقها فشكلها يشبه إلى حد ما مثلثاً متطاولاً وطوله على التقريب ١٥٠ متراً، وعرضه في أعرض مكان ١٠٠ وهي تنقسم إلى قسمين، الأول الأسفل، وهو في الشرق، على حافات المنحدر الهابط نحو الليطاني، والثاني أعلى من الأول ويؤلف العيصة، وقد شيد على قمة العرفة الصخرية بعد أن وطئوا سطحها وعدلوه لتتمكن من حمله.

وقد بنيت هذه القلعة من حجارة ضخمة منحوتة نحتاً محدودباً، كما بني في المنحدرات الصخرية التي تطل عليها أقسام القلعة جدران سفوح مائلة مبلطة بحجارة منحوتة لايزال بعض أجزائها ماثلاً. ويحدق بالقلعة خندق عميق من الجهة الشرقية والغربية ويوجد في الخندق الواجهة الغربية صهاريج عظيمة معقودة منقورة في الصخر

الصلد ومدخل القلعة عند نقطة A وأمام الباحة المكشوفة الخارجية. وينفذ الداخل منه إلى الباحة السفلى الداخلية. وعلى يسار هذا المدخل يلحظ خزان ماء منقور في الصخر وموضوع في الخندق. وفي الجناح الجنوبي للخندق بضعة كهوف لا يعرف سبب بنائها قد نقرت هي الأخرى في الصخر.

وقد بقي من الباحة السفلى في الشرق ثلاثة أبراج مدورة (C) و (B) و (B ١) تشرف على وادي الليطاني . لكن الثالث منها قد تهدم بالمرة، وفي شمالي هذا البرج الثالث مصنع طويل (D) ينتهي عند حد الباحة السفلى المذكورة، فيه ثلاث طبقات من الأبهاء التي لعلها كانت مخازن. لكن الطابق الأعلى خراب بالمرة.

والسور الأعلى يحتوي من الجنوب إلى الشمال أولاً على بقايا برجين مدورين جميلين D و G قد بنيا بأحجار منحوتة نحتاً محدودباً وركبا على جدار سفح مائل من أحجار جميلة منحوتة نحتاً أملس. ومما يلفت النظر هنا الشكل المخروطي الذي بني به سفح البرج والزخرف البارز الجميل الذي يزين هامة هذا السفح. أما البرج فقد صار متهدماً بالمرة. وهذان البرجان يقعان إلى حد ما في خارج السور فهو يشرف عليهما، ويؤلف في هذه الواجهة جداراً عظيماً بعضه متهدم، ويلحظ فيه أحجاره الجميلة المنحوتة نحتاً محدودباً وحجومها الهائلة.

ويرى الأثري راي أن باب القلعة يجب أن يكون عند نقطة D الذي أصبح الآن عبارة عن ثغرة بسيطة، يشرف عليه ويحرسه برج ويوصل إلى هذا الباب بتسلق سطح مائل مد في محاذاة المنحدر الذي يحمل القلعة. وتتصل هذه الثغرة ببهو معقود يفضي منه المهاجم إلى ساحة مكشوفة. كأنها في قعر خندق، فتعرضت من كل الجهات لمقذوفات المدافعين قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى المدخل الحقيقي للصيصة الواقعة عند نقطة (H) ففي هذا المكان يوجد باب ذو قوس منكسر له صفان من الأحجار التي بشكل الزاويا. وقد فتح هذا الباب في الجدار الجنوبي وصار نصفه الآن مطموراً في التراب، وفوقه زافرة مرمى. وكان يتصل بهذا الباب دهليز معقود طويل قد سد الآن، ينفتح عند الأرض المكشوفة وسط القلعة.

والواجهة الغربية للسور تتألف من جدار شاهق العلو وعظيم العرض جداً، ومداميكه السفلى الراكبة على الصخر مؤلفة من أحجار ضخمة للغاية وأكثرها

منحوت نحتاً محدودباً، وكان يشرف على هذا الجدار الصرح (K) وهو برج مستطيل لم يجعلوه بارزاً فوق جدار السجف.

وجدران هذا الصرح قد تهمدت إلا في جبهته الشرقية التي فتح فيها في جوف المكان باب المدخل، ولهذا الباب عتبة تحمل فوقها قوساً مؤلفاً من ثلاثة أحجار مزوقة منحوتة نحتاً محدودباً ومصفوفة صفاً كالطريدة. والمدرج المبني وسط الجدار لا يزال موجوداً. ثم إن في داخل الصرح بقايا عقد منكسر كان سقفاً للبهو القديم في الطبقة السفلى.

وإزاء المعقل تماماً نحو الشرق يقوم بناء صغير مبني من أحجار متوسطة الحجم ويحجب بهواً مقسماً إلى طاقين معقودين فوق متصالبات ذات أعصاب تؤلف زوايا جوانبها تنتهي على خط المركز وينفذ إلى هذا البناء في الغرب من مدخل صغير أقواسه المدورة كانت ذات قمم حادة وتستند على أرجل قائمة في أعلاها تيجان مزخرفة بالأوراق المنحوتة. وهذا المدخل كان سالماً حين مر به (راي)، أما الآن فقد تشوه وصار نصفه مطموراً في التراب. وقد نسب راي هذا البناء إلى النصف الثاني من القرن ١٣، إلا أنه أخطأ بحسبانه كنيسة، في حين أنه في الظن الأقوى البهو الكبير وتحت الباحة المكشوفة التي يطل عليها الصرح والبهو المذكور يوجد سرداب طويل يتجه من الجنوب إلى الشمال، وهو غير الدهليز الذي يقع إلى الغرب ويتصل بالباب H وقد أصبح الآن مسدوداً.

وفي الطرف الشمالي من الصيصة يقوم في نقطة (M) برج ذو شكل غير منتظم مبني من أحجار جميلة، يحتوي في طبقته السفلى على بهو فيه ثلاث مزاغل ينزل إليه بدرج.

وقد أضافوا وربطوا فيما بعد بهذا البرج بناء عجيب الشكل وذلك لتحصين خط السجف في الشمال، وهذا البناء مؤلف من ثلاث طبقات لكل منها بهو فيه مزاغل، وهنالك درج يوصل الطابق الأعلى بالطابق المتوسط، ولكن لم يعثر على أثر لمدرج يوصل الطابق المتوسط بالطابق الأسفل. وهذان الطابقان الأخيران يتصلان مع المستودعات التي ذكرت سابقاً.

وفي أسفل هذا البناء، في الشمال، صهريج واسع منه قسم منقور في الصخر وقسم مبني بالحجر والجدران التي تحيط به ذات سفوح مائلة.

هذا ويمكن أيضاً الوصول إلى قلعة الشقيف من مجاز يأتي من جسر الخردلة على الليطاني ويتسلق الواجهة الشرقية من الشنخاب الصخري إلا أن الصعود في هذا المجاز صعب وكئود للغاية ويستغرق ساعة ونصف، ولا نوصي به. وعليه يعود الزائر من حيث أتى إلى القرية أرنون.

عودة إلى طريق صيدا - جديدة معودةيون - في الكم ٣٧ كفر تبنيت، قرية يشبه اسمها اسم ملك صيدا تبنيت المذكور في الكتابة الشهيرة المنسوبة للاشمنغرار - إلى اليسار مزار ولي فوق أكمة وحوله قبور - في الكم ٣٨ يهبط الطريق في منعرجات نحو وادي أحد روافد الليطاني.

في الكم ٤٠ يترك على اليسار طريقاً لم يتم بعد يفضي إلى جرمق وفي الكم ٣ وعيشية في الكم ٧ الريحان في الكم ١١ وكفر حونة في الكم ٢٠ وجزين في الكم ٢٩ وكما أن في جرمق فرعاً طوله ٤ كم يصل الطريق المذكور بكفر رمان التي على طريق الحمصية - قيطولى - نبطية.

في الكم ٤٢ يستمر الطريق في الهبوط إلى الوادي الذي يلمح في قعره أشجار الدفلى الوردية الزهور. ويميز في سطح الانصباب المقابل بيوت جديدة معودةيون والقليعات.

في الكم ٤٣ يبلغ الطريق وادي الليطاني وهو هنا عريض فيسير مدة محاذياً ضفته.

في الكم ٤٥ جسر الخردلة (مخفر درك) وهو جسر حديث على نهر الليطاني على اليمين الجسر القديم ذو القنطرتين، وقد استبدل بالحديث منذ بضع سنوات.

في الكم ٤٧ يسير الطريق في سفح المنحدرات التي تطل عليها قلعة الشقيف المذكورة آنفاً - في الكم ٤٩ على اليمين يلمح قرية كبيرة اسمها دير ميماس ويترك على اليمين مجازاً يفضي إليها ثم يستمر حتى كفر كيلة ومنها يبلغ المطلة على الحدود الفلسطينية، ثم ينحرف الطريق نحو اليسار (إلى الشمال) ويصعد إلى سطح الانصباب الشرقي لوادي الليطاني - في الكم ٥٣ يمر من أسفل قرية القليعات - في

الكم ٥٤ يترك على اليمين طريقاً يفضي إلى المطلة المذكورة والطيبة. على اليمين في آخر تلك السهل الخضر النضر يلمح قرية كبيرة اسمها الخيام - في الكم ٥٦ يترك على اليسار طريقاً يفضي إلى منزل الخوداي إلى معسكر جديدة معودةيون في الكم ٥٧ يترك الطريق الكبير المذكور ويأخذ في اليسار طريقاً يفضي في الكم ٥٧,٥ إلى ساحة السراي في جديدة معودةيون .

عودة إلى طريق صيدا - الناقورة - يترك الطريق صيدا متجهاً نحو الجنوب - في الكم ٤٩ يمر من أسفل قلعة القديس لويس (وهي على يمين الطريق) - في الكم ٥٠ جسر على نهرالبرغوث (واسمه القديم) ويترك على اليسار الطريق الذي يفضي إلى المقابر الفينيقية) .

في الكم ٥٢ جسر على نهر سنيق وقربه خان فيه حجر ميل روماني. ويلحظ على اليسار في ضفة النهر المذكور قرية دير بسين المارونية قامت في مكان أثري - وعلى بعد قليل منها على اليسار يلمح قرية كبيرة شيعية اسمها الغازية تقع في سفح أكمة على قمتها المعبد الذي يقدسه النصارى ويدعونه سيدة المنظرة (تقدم ذكرها..)

في الكم ٥٧ جسر حجري ذو ثلاث قناطر على نهر الزهراني وفي قربه آثار مطحنة رومانية قديمة وفور عبور الجسر يترك على اليسار الطريق الذاهب إلى النبطية وجديدة معودةيون .

في الكم ٥٩ لحب يفضي في اليمين إلى ساحل البحر حيث تل البراق ويظن أنه المكان التي ذكره استرابون. وهذا التل مدور الشكل، وفيه عين ماء عذبة. سفوحه تحرث وتزرع، وفيها قطع كثيرة من الأواني الخزفية التي تنتسب لعهود جمة. وفي أسفل هذا التل بناء مزرعة أحدقت به أشجار الليمون والبرتقال. وفي شمالي هذا التل يلحظ أطلال أربعة صهاريج أثرية بنيت على نفس الطراز الذي في رأس العين قرب صور فالحواجز مبنية بالحصى والزلط والقطع الخزفية المجموع بعضها على بعض بخلاط قوي. وكان هنالك قناطر توصل الماء من تل البراق إلى صرفند.

في الكم ٦٠ جسر على وادي البراقية وهذا يغلب عليه الجفاف . في الكم ٦١ جسر على نهر العدسية يلمح على اليمين أطلال القناطر التي كانت توصل ماء تل براق صرفند.

في الكم ٦٢ يعبر وادي الأخبية ويترك على اليمين فوق خرشوم داخل في البحر أطلال برج ناظور يسمى برج الخضر أو الاخبية.

في الكم ٦٤ على يمين الطريق عين ماء ثرة تدعى عين القنطرة يجتمع ماؤها في صهريج مبني بالرخام جميلة أثرية ويعزى اسم هذه العين والرأس الداخل في البحر المجاور لها إلى القنطرة التي قلنا إنها توصل الماء إلى صرفند.

في الكم ٦٥ مزار الخضر وهو بين الطريق والبحر، تشرف عليه من يساره قرية صرفند القائمة فوق أكمة.

هذه مكان أو زاويتها القديمة المشهورة في الكتاب المقدس بأن النبي الياس أقام فيها مدة في بيت أرملة فقيرة وأتى بمعجزة إحياء ابنها بعد موته. وفي صرفند هذه كان الصيدانيون يصنعون أوانهم الزجاجية ومن هذا نشأت الكلمة العبرية "زريتا" صرفند والتي معناها إذا به المعادن. مدينة زريتا القديمة ميناء ذو شأن مبنية على طول الشاطىء في طول ١,٨٠ كم وتشمل ثلاثة خلجان صغيرة. وفي عهد الصليبيين كانت زريتا ُبليدة مهمة محاطة بأسوار. وكان يسمى رأسها الداخل في البحر (رأس القنطرة الآن) رأس القديس رافائيل. وكانت المدينة نفسها من مقاطعات مملكة صيدا ومركز أسقفية ومقر رهبان من الطريقة الكرملية. وكان حصنها مشيداً قرب البحر، ولعله كان فوق الجبل الذي يؤلف رأس القنطرة. أما كنيسة النبي الياس فقد كانت وسط البلدة، ولا ريب في أنها كانت مكان الخضر الحالي وفي هذا المكان نفسه نقب المسيو راي سنة ١٨٥٧ فعثر على سماوة من تمثال فينيقي نقله إلى متحف اللوفر في باريز وسمي سماوة صرفند، أما الخرائب التي ذكرها السياح فقد كادت أن تزول، والحفر الذي جرى هنا وهناك كشف عن قطع أعمدة وغيرها. والخلجان الصغيرة مازال يستعلمها صيادو السمك ويلجأون إليها، وقد أدى اختلال الأمن بعد القرن ١٣ إلى انتقال زريتا من ساحل البحر إلى مكان قرية صرفند

الحاليـة، والمتوجـه إلى صـيدا مـا أن يـترك صـرفند حتـى يطـل علـى صـيدا فتبـدو في السهل أمامه من جهة الشمال.

في الكـم ٦٦ يمـر الطريـق بالتتـابع بثلاثـة خانـات مسقوفة ثـم يـدور نحـو اليـسار ويعبر جسراً فوق جدول. ثم يلمح على اليسار فوق مرتفـع قريـة الثكثكيـة وفي قربهـا كهوف مقبرية . في الكم ٦٧ خان وفي الكـم ٦٩ يعبر الطريق نهـر الخيزرانـي وعلـى اليسار فوق مرتفع قرية الأنصارية . في الكم ٧٠ عدلون.

على يسار الطريق وفوق صخرة طويلـة تـشرف عليـه، يوجـد مقبـرة كـبيرة تتـألف من مغاور مقبرية عديدة منقورة في ارتفاعات مختلفة أو لكل مـن هـذه المغـاور دركـاه صغير، إلا أنها لا تحتوي في الغالب إلا على غرفة مقبرية مربعة ذرعها متران في مثلـه، فيها ثلاث فجوات مقبرية، يعلو كل منهـا قـوس صـغير. وفـوق بـاب عـدة فجـوات منهـا آثار كتابة يونانية يتعذر قراءتها. ويلحظ أيضاً مغارة كبيرة تدعى مغـارة البزيـز علـى بعد قليل من شمالها نصب مصري مشوه جداً، وعلـى يمـين الطريـق أمـام البحـر بقايـا حوض منقور في الصخر وصهاريج. ومعاصر زيت. هـذا وإذا فضلنا توحيـد الاسـم مـع تـل الـبراق عوضـاً عـن توحيـده مـع عـدلون نـصل إلى أن التـشخيص في عـدلون الـتي ذكرها حاج بوردو. وفي عهد الصليبيين كانت عدلون إحدى مقاطعات ولاية صيدا.

في الكـم ٧١ يجتـاز الطريـق نهـر أبـو الأسـود . في الكـم ٧٧ علـى اليـسار يلمـح صـخوراً بيـضاء في أسـفلها، يوجـد مغارتـان غريبتـا الـشكل فيهمـا خطـوط متقاطعـة وكتابات يونانية ومثلثات غير مضبوطة الخطوط ورموز عبادة عشتروت.

في الكم ٧٨ على اليمين، بقايا قنطرة ماء خراب ويحاذي الطريق نهـر القاسميـة وله هنـا فرعـان، فيعبره في الكـم ٧٩ فـوق جسـر ذي قنطـرة واحـدة مـن بنـاء ابـراهيم باشا ونهر القاسمية هنا عميق ومجراه هادىء، وهو القسم الأدنـى مـن نهـر الليطـاني، يصب هنا في البحر بعد أن يرسم منعرجات عديدة (٦/٤/٩٣٩).

وفي يسار الطريق يلمـح خـان القاسميـة وهـو مـبني بأحجـار أثريـة، فبـاب المـدخل خاصـة كـان مبنيـاً بأحجـار منحوتـة نحتـاً بـديعاً، والعتبـة مزدوجـة وهـي مـن أجمـل أحجار الغرانيت الوردي الملون، وكانت في الأصل عمـوداً فنحتـت وجعلـت عتبـة، وفي أعلى الخان الطابق الأرضي لبناء قديم كبير يسميه العـرب بـرج الهـواء. وإلى الجنـوب

منه بعد مسافة يصادف أحواض ماء ومعاصر وقطعاً مربعة من فسيفساء متفرقة وحفراً وقبوراً.. الخ وكلها يدل على أن هذا المكان كان فيه مدينة قديمة تشرف على مصب الليطاني ويجب ألا يوجد اسم هذا المكان مع لئونيوتوليس التي كان موقعها في مصب نهر الدامور ثم بعد مسافة ١٥ دقيقة من هنا ووسط الأرضين يوجد ناووس ذو حجم عظيم وزخرف زائد دقيق وفي قربه نواويس أخرى أحدها لم ينفصل بعد من بين الصخر ويسمي الأهلون هذه الأطلال قبور الملوك.

هذا وبعد أن يجوز نبع ماء جار يدعى عين ابريعان تقع في سفح ابريعان (فيه بقايا نواويس) يصل في الكم ٨٥ إلى أوائل بساتين صور الخصبة، وعلى اليسار ينفصل لحب صالح ينتهي في يومنا عند صريفة. وبعد اجتياز عين ماء عذبة تدعى عين بابوك يلمح على اليمين في الكم ٨٧ تل المعشوق ويأخذ على اليمين لحباً صالحاً يفضي في الكم ٨٨ إلى صور بعد أن يحاذي شاطئها الرملي.

إن الطريق الأصلية لصور التي تسير فوق مخطط سد الاسكندر الذي كان يصل بين جزيرة صور القديمة والبر، كان ينفصل هنا بعد مسافة قليلة إلى اليمين في مكان يدعى البصة (مقهى ومطعم) إلا أن هذا الطريق غير صالح للسير في كل وقت لوفرة ما فيه من الرمال.

صور ويسميها الإفرنج قاعدة قضاء، ومركز محكمة بداية، تقع على ساحل البحر المتوسط في الدرجة ٣٣,١٦ من العرض الشمالي و ٣٥,١١ من الطول الشرقي سكانها ٥٢٤٠ أكثر من نصفهم مسلمون جعفرية والبقية نصارى أكثرهم روم كاثوليك، بنيت بلدة صور الحالية فوق شبه جزيرة كانت فيما مضى منفصلة عن البر بالمرة، أما الآن فهي متصلة به ببرزخ رملي والجزيرة الأولية كانت واطئة وصخرية وموازية في امتدادها للشاطيء، وكان طولها نحو ١٦٠٩ أمتار وكان طرفاها يمتدان بعد بخط من الصخور ويؤلفان خليجيين أحدهما في الشمال والثاني في الجنوب والخليج الشمالي هو المرفأ الحالي، كما أن البلدة الحالية مبنية في هذه الجهة في نقطة الجزيرة بالبرزخ والفرق عظيم بين صيدا وصور فبينما صيدا تصيد القلوب صيداً، تنقبض النفس في صور انقباضاً وذلك لانحصارها وضيقها وكآبة دورها وسككها وحوانيتها، فسكان صور الحاليون إنما هم صيادو سمك وتجارو

قوارب وأصحاب بضعة حوانيت. والحركة التجارية ضعيفة، تقتصر على استيراد ما يكفي سكان البلدة والقرى المجاورة لها وعلى أكوام من سماد الغنم والماعز الذي يستعمل في بساتين بيروت، وفي شاطئها بضعة مقاهٍ بسيطة وفندق صغير، وفيها مدارس ابتدائية إحداها حكومية والبقية طائفية، وفيها كنائس للاتين والكاثوليك وللموارنة والأرثوذكس ومعبد للبروتستانت ومسجد كبير للمسلمين.

التاريخ - يعني صور في العبرية الصخرة وفي العربية سور، وتاريخها قديم يتغلغل في ظلمات الأحقاب الغابرة. وقد روى هيرودوتس أن صور بنيت في الوقت الذي بنى فيه هيكل هرقل الجبار، فإذا صح هذا يكون البناء في سنة ٢٧٥٠ قبل الميلاد ويصادف ذلك أمد غارة الكنعانيين - وفي عهد الأسرة ١٨ المصرية رضخت صور وصيدا وبيروت لحكم الفراعنة وأدت لهم الجزية وظلت على ولاء هؤلاء السادة الأجانب منذ عهد تحوتمس الأول إلى عهد رعمسيس الثاني، وفي هذه الفترة التي امتدت من القرن ١٧ إلى القرن ١٤ ق.م كان السبق في مضمار التقدم والازدهار لصيدا. إلا أن صور تمتعت إلى أبعد مدى بأثمار التجارة التي دأبت عليها تحت ظل الحماية التي كان يبسطها المصريون على الفنيقيين.

وقبل حروب طروادة بنحو قرن استولى ملك عسقلان على صيدا فهرب سكانها إلى صور، فأصبحت من ذلك الحين أكبر وأفخم مدينة على الساحل الفنيقي. وقد حكمها بادىء ذي بدء قاضيان ثم عهدوا بها إلى ملك اسمه انيبعل وكان ذلك على التقريب في الوقت الذي تولى داود حكم بني إسرائيل، ولما مات بعل خلفه على عرش صور ابنه حيرام وذلك قبل بناء هيكل سليمان سنة ١٠١١ ق.م والصلات التي كانت بين حيرام وداود أشهر من أن تذكر. وقد زادت في عهد سليمان فعقدت بين الفريقين معاهدة توجب على سليمان أن يقدم في كل عام عشرين ألف قمح ومثلها من الزيت لقاء كميات خشب أرز لبنان وعدد من الصناع الماهرين في نحت الأحجار والمعادن وصنع المنسوجات، وتخلى سليمان وقتئذ لحيرام عن مقاطعة في بلاد الجليل تحوي عشرين قرية (سفر الملوك ٩، ٣٥) كما أن حيرام أدى لسليمان خدمات كثيرة خلال تعاقده التجاري مع عوفير وقد جمل كثيراً مدينة الجزيرة وربطها بجزيرة ثانية في الجنوب وباليز. وخلال حكم حيرام الأول الذي امتد زمناً طويلاً تمكنت صور من

استعمار صقلية وشمالي إفريقية وبلاد طارنيش وبذلت أقصى جهودها ونشاطها في توسيع أملاكها المترامية الأطراف.

ولما مات حيرام الأول بعد أن حكم ٣٤ سنة اضطربت صور وحدثت فيها ثورات دامية، ويذكر من الملوك الذين خلفوه ايتو بعل المذكور في التوراة، زوَّج ابنته جزابل إلى آشاب ملك إسرائيل، وقد استطاع ايتو بعل خلال حكمه الطويل أن يحفظ السلام بين الأحزاب إلا أنه بعد وفاته استيقظت الفتن والحروب الأهلية واشتدت أكثر من قبل، ومما يذكر أيضاً أن امرأة اسمها ديدون أخفقت في ثورة كان الحزب الأرستقراطي كله خائضاً غمارها، فاستولت على حين غرة على أسطول كان واقفاً حينئذ في المرفأ ونشرت أشرعته وتوجهت به نحو إفريقية وراحت تنشئ فوق أطلال مدينة كامدة مدينة حديثة سمتها قريات حدشات، بدلها بعد الإغريق إلى قرخدون، والرومان إلى قرطاجة.

وقد فعلت هجرة الطبقة الأرستقراطية في صور نفس ما فعلته هجرة الطبقة المذكورة في صيدا لما غادرتها إلى صور، أي أن ذلك كان مبدأ الانحطاط، فقد حدث بعد ذلك أن الآشوريين ظهروا في فينيقية على عهد ايتو بعل الأول فقد اجتاز آصور نازير هابال جبال لبنان وبلغ بجيوشه البحر فقابله الصوريون بنفس المقابلة التي قابل الصيدونيون بها المصريين أي أنهم حسبوا ثم انتهوا إلى أن الاستسلام إليه دون حرب أجدى نفعاً لهم من دفاع غير معروف العاقبة، فاشتروا سلامتهم بذلك ولما مال سلطان الآشوريين نحو الزوال شرعت صور بالتمرد ضدهم وامتنعت عن أداء الجزية التي دفعتها طيلة نصف قرن ونهض وقتئذ مونتون الثاني في صرف الآشوريين، ليسترد استقلاله معتمداً على تحالفه مع رتسين، أخفق وانكسر فكان ذلك مدعاة لحدوث ثورة في جزيرة قبرص، لكن الوالي نجح في إطفاء هذه الثورة إلا أنه لما أراد أن يحارب الآشوريين خذلته جميع مدن فينيقية ووضعت كل سفنها تحت تصرف سلمنازار الخامس فترك الأولى لمدينة صور البرية وتحصن في المدينة البحرية ودافع عنها ببسالة ومازال حتى غلب الأسطول الفينيقي الذي يركبه الآشوريون، وراحت جهود سلمنازار وسرحون بعده أدراج الرياح ففي سنة ٧١٥ فك سرحون الحصار عن صور بعد أن استمر عشر سنوات دون انقطاع، إلا أن ابنه سنحاريب نجح بعد عناء

طويل في الاستيلاء على صور سنة ٧٠٠ وأقام مكان الوالي ايتو بعل الثاني وجعله تابعاً له. وقد قضت هذه الغلبة على سلطنة صور المترامية الأطراف فأصبحت صيدون قاعدة حكومة (الاتحاد الفينيقي). وظهر في المستعمرات من الاضطرابات مثل التي ظهر في مدينة صور نفسها، فقد استمرت في الازدياد إلى عهد ايتو بعل الأول. وقد كان قواد الأساطيل الصورية تجاوزوا بلاد موريتانيا توماس والجزائر ومراكش وكشفوا سواحل بلاد مراكش إلى أقصى حدودها الجنوبية، ثم أسسوا مستعمرات بين مضيق غلاير وبلاد السنغال ثم صعدوا في سواحل أسبانيا واجتازوت بحر بلاد السنغال وبلغوا جزيرة بريطانيا العظمى واستعمروها، وكانت صور في تلك الحقبة العاصمة التجارية للعالم كله، ولكن الفتن التي حدثت عقب وفاة ايتو بعل الأول أوقفت حركة التوسع، وقام وقتئذ بعض الأعداء الأشداء يناوئون الصوريين في أكثر الأماكن التي بلغوها فزادوا الطين بلة. وتقدمت سفن الاتروسكيين[٣] حتى بلغت سواحل إيطاليا وغاليا، بينما سفن الإغريق بعد أن استولت على كل ما كان باقياً من المستعمرات الصيدونية تقدمت إلى السواحل الجنوبية لآسيا الصغرى وجزيرة قبرص فأسست فيها مستعمرات ومازالت تتقدم حتى بلغت صقلية، واستولت خلال بضع سنوات على سواحلها الشرقية والجنوبية (٧٣٤ ـ ٧٣٠) حتى أن قرطاجة لم تتوانى هي عن منازعة وطنها الأصلي، فهي بعد ستين سنة من تأسيسها استولت باسمها الخاص على القسم الجنوبي من جزيرة سردينيا وأدخلت تحت حمايتها الأسواق الفينيقية التي في سواحل صقلية وأسبانيا وأفريقيا.

فقد كانت هذه الأسواق عرضة لغارات قراصنة الإغريق وجماعات البرابرة، ولم تستطع صور المشغولة بمدافعة الآشوريين عن نفسها أن تمدها. وخلفت المملكة القرطاجية المملكة الفينيقية حتى وفي أواخر عهد آشور بانيبال لم يبق في يد فينيقية أي مستعمرة تذعن لسلطتها. ولا ينكر أن فينيقية ظلت تحتفظ خلال عهد طويل بتجارتها وثرواتها وذلك باشتغالها كوسيطة للحركة التجارية في العالم كله. إلا أنها وقفت عند هذا الحد ولم تتخطاه، والملاحون الذين كلفهم الملك نيكائوا الأول

(٣) أحد شعوب ايطاليا القد ة موطنه مقاطعة طوسقانا القرن ١٥ ق.م

المصري من الأسرة ٢٦ (٦١١ ـ ٥٩٥ ق.م) أن يذهبوا ويتحروا على كنوز وثروات الساحل الأفريقي قد كانوا فينيقيين، فقد خرج هؤلاء من البحر الأحمر وداروا حول القارة الأفريقية ورجعوا من أعمدة هرقل، ودامت رحلتهم الهائلة هذه ثلاث سنوات.

وعلى الرغم مما حدث فقد استطاعت صور أن تدافع دفاعاً عجيباً مجيداً ضد غارات أعدائها، فقد صمدت تجاه حصار بختنصر (٥٨٧ ـ ٥٧٤) ق.م ثلاث عشرة سنة واضطرت الكلدانيين أن يعقدوا معاهدة مع ايتو بعل الثالث الذي قاد حركة الدفاع في سنة ٥٧٤ ق.م ويحتمل أن في هذه السنة حدثت المهاجرة من يالائويتروس وانتقل سكانها إلى جزيرة بعد أن خربوا الطريق التي عبرها حيرام وأسسوا صور الحديثة التي نهضت بين المياه بفخامة منقطعة النظير، ويؤكدون أن أسوارها كانت وقتئذ تعلو خمسين متراً.

وظلت صور زمناً آخر ملكة البحار وقد وصف عظمتها النبي حزقيال وصفاً بديعاً في (سفر خرمياس ٢٧) وفي عهد انحطاط المملكة الفارسية جاهر فاحوراس صور واستولى عليها.

وأكبر ما وقع لصور بعد حادث حصار بختنصر هو دفاعها ضد حصار الإسكندر الكبير مدة سبعة أشهر، وقد استعمل هذا الفاتح وقتئذ أنقاض مدينة بالائويتروس ومدَّ بها سكة هائلة بين البر والجزيرة التي كانت عليها صور، ووصلها بهذا إلى تحت أسوار مدينة صور وشرع يفتح فيها ثغرات، ولما استولى عليها دك نحو نصفها وذبح كل سكانها وأسرهم وجعلهم عبيداً أرقاء، إلا أن صور عادت ونهضت من عثرتها، وبعد سنة ٣١٣ ق.م بقليل سقطت في يد انتيفونس بعد حصار دام أربعة عشر شهراً، وفي السنة ٦٤ ق.م. انتقلت صور وكل بلاد الشام أيضاً من يد البطالسة إلى يد الرومانيين وقد شاد هيرودتس الكبير في صور هياكل وميادين عامة، ولما أن دخلت صور في النصرانية صارت مركزاً لرئاسة أساقفة تحت أمرتها أربع عشرة أسقفية. وفي القرن الرابع للميلاد استعادت صور قسماً من ازدهارها القديم وكان فيها كاتدرائية، وسقطت صور فيما بعد في سنة ١٨هـ /٦٣٩م بيد المسلمين، وفي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤ وصل أسطول البنادقة إلى ساحل صور وعزم على مهاجمة صور

التي كان لجأ إليها كل سكان المدن التي سقطت بيد الصليبيين ظناً بأنها لا ترام، ولكن بعد دفاع هائل استمر خمسة أشهر ونصف سقطت صور بيد الصليبيين المهاجمين.

وقد استفادت مملكة أورشليم الصليبية فائدة كبرى من الاستيلاء على صور والضواحي الخصبة المجاورة لها. فقد حصنها الصليبيون تحصيناً قوياً ورمموا أسوارها وقطعوا برزخها بخندق كبير، وصارت صور من ذلك العهد إحدى قواعد الإفرنج الكبرى، وفي سنة ١١٩٧/٥٢١ شرعوا ببناء الكاتدرائية التي خلفت بازيليكا القرن الرابع، كما بنوا فيها أيضاً أربع عشرة كنيسة، وفي سنة ١١٧٣/٥٦٩ انتخب فيها كيوم الصوري رئيس أساقفة، وهو مؤلف السفر الخالد المسمى (تاريخ مملكة أورشليم).

وبعد النصر الذي أحرزه السلطان صلاح الدين في حطين سنة ١١٨٧/٥٨٣ حاصر هذا السلطان صور مرتين ولم يفز بطائل، وفي سنة ١٨٨ اغتال الاسماعيلية كونراد صاحب صور، وفي سنة ١٢٩١/٦٩٠ بعد أن كاد الصليبيون أن يخلوا صور فخربها المسلمون واستعملت من ذلك الحين أحجارها وأنقاضها ونقلت، وقد ذكرها وقتئذ أبو الفداء ملك حماة في كتابه تقويم البلدان قال "هي الآن خراب خالية".

وفي مطلع القرن ١٧ حاول الأمير فخر الدين المعني أن يعيد عمرانها فلم يوفق، لأن بيروت بارتها ولم تفسح لها المجال، وفي سنة ١٧٦٦/١١٨٠ سقطت بيد شيعة جبل عامل ثم نقل أحمد باشا الجزار أحجارها إلى عكا. وجاءت الرمال السافية تغطي ما تبقى فيها تدريجياً كما غطت مرفأها الذي قضي على حركته التجارية نهائياً.

ليس في بلدة صور الحالية ما يستحق أن يذكر سوى تاريخها الذي قدمناه، فليس فيها ما يلفت نظر الزائر إلا مرفؤها الصغير، أما المدينة الأثرية فهذه بعضها قد غمرته مياه البحر وبعضها طمرته الرمال والأنقاض القليلة التي خلصت من هذه وتلك قد نهبتها أيدي الناس دونما شفقة، فالمرفأ الحالي الذي في الشمال وقد كان يسمى مرفأ الصيدونيين لأنه يتجه نحو صيدا، عبارة عن خليج صغير مسدود في الشمال والشرق بجدارين بنيا بأحجار أثرية، ومدخل هذا المرفأ في الشمال الغربي، وقد كان يحرسه برجان مربعان ضخمان، عند قاعدتيهما، وكانت جدرانهما

مصفحة برخام ضخمة ومنحوتة نحتاً محدودباً ولكن لم يبق منهما سوى بضعة أنقاض مهمة، ولما كان هذا المرفأ قليل العمق لا يستطيع أن يلجأ إليه إلا المراكب الشراعية الصغيرة التي لا تدل على عظمته ولا تشعر إلا بفقر ومسكنة، وثمة عدد من البيوت عند شاطئ المرفأ قد شيدت فوق الحوض القديم المردوم الذي كان لهذا المرفأ، والحاجز الذي يحد المرفأ من الشمال والشرق كان فيما مضى مسبوقاً بحاجز آخر صار الآن تحت مستوى ماء البحر، وكان يؤلف شبه مدخل للمرفأ أو شبه خليج صناعي. وثمة بين الحاجزين أعمدة عديدة ملقاة وممددة تحت الأمواج، وثمة أيضاً الجزر الصغيرة الواقعة في شمالي هذا المرفأ، كان اسم أكبرها فيما مضى (قبر رودوب) ويظهر أنها كانت مرتبطة بعضها ببعض بحاجز أصبح اليوم تحت الماء أيضاً.

وفي جنوبي شبه الجزيرة كان يوجد المرفأ الذي ذكره القدماء باسم المرفأ المصري.

يظهر أنه كان هذا المرفأ محمياً بحاجز طوله لا يقل عن ٥٠٠ متر، يمتد من الغرب الجنوبي نحو الشرق الشمالي وكان مشيداً برضام غاية في الضخامة وبالباطون، وقد أصبح بعض هذا السد الآن تحت البحر، وكان يحدق بحوض ذي سعة غير يسيرة شكله في جهة الشرق يشبه مثلثاً ضيقاً، وكان في وسط هذا الحاجز فتحة تفضي إلى خليج صناعي جميل جداً، وكان هذا الخليج محمياً بحاجز آخر عظيم جداً أصبح الآن كله تحت الماء على عمق كثير من الأمتار.

والسور الذي بناه الصليبيون كان يحدق بالمرفأ الشمالي ويمتد في محاذاة الساحل الغربي، ثم كان يفصل شبه الجزيرة في الشرق والجنوب عن البر في أضيق نقطة من البرزخ.

كان يتألف هذا السور في الجهة الشرقية من ثلاثة جدران محمية بأبراج سامية الارتفاع وقريبة بعضها من بعض جداً ووراء هذه الجدران الثلاثة كان يوجد خندق عريض، بالإمكان أن يملأ بماء البحر عند الحاجة من طرفيه. وهذه الجدران أصبحت الآن مطمورة تحت كثبان الرمال التي تعلو يوماً بعد يوم وهذه الكثبان نفسها والأودية الصغيرة التي تفصل ما بينها تدل اتجاهاتها على اتجاهات جدران

السور المذكورة ـ أما الخندق فيجب التحري في المنخفض الذي يقع ما بعد خط تلك الكثبان.

وفي الجهة الغربية كان السور مؤلفاً فقط من جدارين محميين بالأبراج. والغربي من هذين الجدارين هو الآن تحت الماء، وكان حوله مساحة واسعة من الصخور الكاسرة للأمواج والموسعة لامتداد البلدة، وقد مهد سكان صور وقتئذ سطح هذه الصخور واتخذوها قاعدة لبناء كثير من الدور التي أصبحت الآن مندثرة، ولم يبق ثمة سوى السطح الممهد المذكور. والجدار الثاني كان يتبع الشاطئ الحالي ولكن لم يبق منه إلا ما ندر من الرسوم الغامضة، وثمة في الشاطئ المذكور مجموعة من الحجرات الصغيرة التي جدرانها مطلية بملاط من كلس ورخام شديد الصلابة، ويظن أنها مقابر قديمة أو أماكن لتحضير الأرجوان، أو ممالح ولا يزال يرى على طول الشاطئ الجنوبي بقايا أبراج، أحدها يدعى (الجزائري) يقع وسط بستان.

أما البازيليكا، وقد كانت كاتدرائية فخمة للغاية، فلم يبق منها إلا قسم من جدار قد انسلخ عنه ملاطه، يقع في أرض فضاء في الحد الجنوبي للبلدة الحالية. ولا يزال باقياً منها أيضاً عامود جميل من حجر السينيت الوردي اللون المصري الأصل، يتألف من ثلاثة أبدان مرتبطة، قد أعجب به السواح الذين شاهدوه، ومنهم فولناي، وثمة اثنان من تلك الأبدان ملقاة على الأرض. وفي الواقع أن مهندسي إبراهيم باشا لم يستطيعوا رفع هذه الكتل ولا تقطيعها، وهي دون ريب من بقايا هياكل صور القديمة.

كانت هذه الكاتدرائية مكرسة باسم القديس مار، جدد بناءها البندقيون حول سنة ١١٢٧ ولم تنته إلا في غرة القرن الثاني عشر، أما لبناؤها الأول فيعود إلى أسقف صور يولينوس فقد شيدها هذا بأمر ديوكلينانوس مكان بازيليكا قديمة خربت سنة ٣٠٣، وقد كانت عهدئذ أجمل وأعظم كنيسة في فينيقية. وكانت في عهد الصليبيين بعد تجديدها ذات طول قدره ٧٠م ويمتد من الشرق إلى الغرب وعرض ٢٢م. وعلو ٣٥م تحت الصليب. وكان لها ثلاثة صحون، وثلاث حنايا متصلة ومحمية الجوانب بأبراج يصعد إليها بأدراج لولبية، وفي روايات الأهلين هنا أن ضريح الإمبراطور فريدريك باربـاروس وضريح كنرادوي منتفرات الذي قتل في هذه

الكنيسة سنة ١١٩٢/٥٨٨ كانا في هذه الكنيسة، لكن الدكتور سب الألماني جاء سنة ١٨٧٤/١٢٩١ وبحث كثيراً فلم يعثر على ما يؤيد ذلك.

الضواحي - ١ - طريق جويا (تل المعشوق، الأواطين، برج الشمال، تبنين، في طريق صالح حتى ١٤ كم، جويا) يأتي إلى الكيلومتر ١ في طريق بيروت - ناقورة، ويجتاز آخذاً إزاءه طريقاً يتجه نحو الشرق.

في الكم ٠,٥ يلمح على اليسار جبلاً صخرياً في قمته ضريحا وليين هذا هو (تل المعشوق) إن ضريحي الوليين أدخلا ضمن حوش مزرعة يعود إلى اجفتلك رأس العين العائد لجمهورية لبنان، وهما يحتويان على ضريحي عباس بن محمد الأسعد وأحمد بن سيف الدين عرنوس الملقب بالنبي معشوق. وكلمة معشوق هذه تدل دلالة قوية على أن هذا المعبد الإسلامي قد خلف هيكلاً قديماً ربما كان هيكل هركول استروشيتون الذي ذكره الشاعر نونوس، وهذا الهيكل نفسه قد خلف الهيكل العالمي الخاص بملكار عاشق عشتروت، ولما جاء الاسكندر الكبير حاول رسل صور الذين قابلوه أن يحولوا عزمه عن دخول جزيرتهم فزعموا أن هذا الهيكل أقدم من الذي في جزيرتهم.

والتل الذي يشرف على السهول إلى أبعاد شاسعة ربما كان في الأصل نوعاً من أكرويول ديني ونقطة مركزية أو عقدة اتصال البلدتين البرية والبحرية صور الحديثة وويالا ايتر على هذا التل في سنة ١١٢٤ التي حاصر الصليبيون خلالها مدينة صور، وقد أقام الملك بودوين الثاني معسكراً محصناً، وقد نقبت السيدة لي لاسور هذا التل فعثرت فيه على الأدراج القديمة لسلم يبلغ علوه ٨م، يظن أنه عائد للهيكل القديم. وقد اكتظت القبور حول تل المعشوق لاسيما في منحدراته الشمالية والشرقية وتقدر مواقع هذه القبور تقديراً لكن مداخلها في يومنا هذا أصبحت مسدودة لا ترام. وفي الشمال يلحظ وجود غطاء جميل لناووس على شكل سرج مع آذان في الزوايا وفي سفح التل من جهة الجنوب حوض كبير من الغرانيت الوردي في قربه يوجد حجر ضخم مدور من الغرانيت المذكور أيضاً ولعله من أحجار الطواحين وعلى مسافة أبعد في الشمال الشرقي من التل ووسط البساتين، يمكن أن تزار مغارة تعرف بمغارة السوق يدخل إليها من سفح خفيف الانحدار، وبابها عريض ومرتفع

وقد قسم داخلها إلى ثلاثة صحون، وكل الأشكال مستطيلة، أما الكتابات والنقوش فلا أثر لها.

وكان تل المعشوق إلى هذا نقطة تجتمع فيها مياه ينابيع رأس العين المجلوبة بقناة ثم تتجه نحو الشمال وسط البساتين بقناة لا يزال لها آثار عديدة، أما في الجهة الغربية فقد كانت تتجه هذه المياه نحو البلدة البحرية بقنطرة.

ولا تزال قناة رأس العين الآتية إلى تل المعشوق تحمل المياه إلى يومنا هذا فهي تتجه بصورة محسوسة من الجنوب إلى الشمال، إلى بعد قليل نحو الشرق من طريق الناقورة الحالي، ثم هي تنحرف فجأة نحو الغرب لتلحق بتل المعشوق، ثم هي تارة تسيرة تحت الأرض وتارة على وجه الأرض وتارة أعلى من مستوى الأرض حينما تحمل على سلسلة أقواس مرتفعة قليلاً أو كثيراً حسب تموجات الأرض التي تجتازها وقد كانت هذه القناة مداراً للبحث منذ أن شرع سلمنازار بحصار صور، فقد أحاطها بجنوده يمنع الصوريين أن يتناولوا منها الماء، والقسم الذي يتغلغل تحت الأرض ربما كان من صنع الفينيقيين، أما الأقسام التي على هيئة قناطر فهي على الغالب رومانية، أصابها ترميم متوالٍ خلال الأحقاب التي توالت.

والقناطر الآخذة بالماء من قبل المعشوق إلى صور، والتي كانت ذات صفوف من الأقواس المعقودة الجميلة للغاية، أصبحت الآن خراباً بالمرة. وقد كانت تسير فوق الطريق المعبدة التي صنعها الاسكندر ولذا يرجع عهد إنشائها إلى ما بعد هذا الفاتح إلا أنه قبل مجيء الإسكندر ربما كان الماء يساق إلى داخل صور البحرية بقناة تسير تحت الأرض أو أنه كانت هذه القناة تفرغ ماءها في خزان عظيم على مقربة من المضيق الفاصل للجزيرة عن البر، وإذا عاد الزائر بالسيارة واستمر في تقدمه نحو الشرق يبلغ في الكم ١,٣٠ حضيض أكمات صغيرة كلسية شديدة البياض يميز فيها فتحات مربعة كثيرة غطتها الأنجم والأعشاب. إن هذه الفتحات عبارة عن مقبرة فينيقية تسمى الأواتين نقبها رينان، وليست الفتحات إلا آباراً يهبط منها إلى الكهوف وهذه الكهوف قد نهبت لسوء الحظ بالمرة، إلا أن بعضها واسع للغاية ويحتوي على عدة طبقات من وهي إما مستطيلة الشكل أو ذات عقود مقنطرة. ويصعد الطريق ويبلغ في الكم ٢ إلى برج الشمال، وهي قرية صغيرة شيعية يلحظ

فيها حصن صغير مثقوب بمرمى ومشيد بأحجار جميلة منحوتة نحتاً محدودباً مستعارة من مبانٍ أخرى وهذا الحصن متخذ الآن كمستودع للحبوب، وهو ربما كان من بقايا التحصينات التي شادها الصليبيون للدفاع عن صور.

وعلى بعد عشر دقائق في جنوبي هذه القرية يبلغ الزائر بعد اجتياز مسيل مكاناً يدعى جل العمد فيه كهوف مقبرية ذات شأن، اكتشفتها العالمة السيدة ديلاسور. ويوصل إليها من سلم ذي عشرة أدراج فينفذ لداخل بهو يتصل بست حجيرات جانبية (في كل جانب ثلاث منها) ومثلها في صدر القسيمتين وقد طلي داخل هذه الكهوف بملاط أبيض نقشت عليه صور زخرفية جميلة مختلفة الأشكال ويلحظ فيها خاصة في القسم الأعلى من الحواجز إفريز كبير يحتوي على أكوام من الأثمار والأزهار والأوراق، كما يلحظ أيضاً سقف في أربعة زواياه قد برزت فيها الرياح الأربعة المشخصة على هيئة سموات وهي تنفتح بملء أشداقها.

وحول هذه الكهوف يلمح آثار مداخل أخرى لقبور لم يستخرج ما فيها بعد وإلى الجنوب أيضاً في مسافة أكمة تقابل تلك الكهوف وتشرف على قرية برج الشمال يوجد فيها قبور أخرى وأطلال أثرية مختلفة.

في الكم ٦ البازورية، قرية وجد فيها نواويس من الرصاص بيزنطية الرصاص. ثم يتبع الطريق وادي المزرعة - في الكم ١٠ قرية جلون - ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب.

في الكم ١٤ جويا - فيها قبور وصهاريج أثرية، وهي قرية تقع الآن في منتهى الطريق، إلا أن هذا الطريق سيمدد بعد إلى تبنين، فيها حصن يمكن بلوغه من الشرق بعد دورة طويلة أما الآن فيذهب قاصدو تبنين من جويا على الرواحل خلال ساعتين مارين بمجدل ودير عنتر وإليهودية وهذه الدرب جميلة تستوقف الطرف جداً. وهي في كل امتدادها تشرف على جميع هذه الربوع.

٢ - طريق قانا (قبر حيرام، حصن تبنين - طريق صالحة للسيارات حتى الكم ١٠ ومن ثم نحو ٢,٤٥ على الرواحل).

يسلك أولاً طريق بيروت - ناقورة متجهاً نحو الجنوب إلى الكم ٣ من مفرق طريق صور وهناك يسلك طريقاً على اليسار يتجه نحو الشرق - في الكم ٢ على اليمين

منظر جميل نحو الرأس الأبيض الذي تطل عليه قلعة الشمع ثم يهبط الطريق نحو وادٍ صغير . في الكم ٣ جسر فوق جدول فيه أشجار الدفلى ذات الزهور الوردية ، ويلمح على يسار الجسر الوادي الأبيض لذلك الجدول المغروس بالزيتون ثم يعود الطريق إلى الصعود.

في الكم ٥ يلمح على اليسار قرية عين البعل: فيها آبار مغطاة ببلاطات ضخمة وفي مسجدها أعمدة أثرية لعلها مأخوذة من معبد قديم كان مكرساً للإله بعل الذي احتفظت هذه القرية باسمه. على اليمين قرية بيت حولة وفيها أطلال أثرية. في الكم ٦ على اليمين الطريق القبر المنسوب إلى حيرام (قبر حيرام).

وهذا القبر عبارة عن ناووس كبير من حجر واحد طوله نحو ٤م وعرضه ٣م وعلوه ٢م، وله غطاء هرمي ثخنه نحو متران. والقبر والغطاء محمولان على قاعدة منفردة علوها أكثر من ٣م مؤلفة من ثلاث طبقات من الأحجار الضخمة، وقد كان رينان نقب حول هذا القبر فعثر في الجهة الشمالية على سلم ملتو منقور في الصخر يلتصق بأسس القبر نفسه، ويفضي إلى كهف مقبري معقود على غير اتساق ومرتفع جداً ووضع الأسس يدل على أن هذا السلم كان موجوداً من قبل أن يشاد القبر. وكيفما كان الأمر يشبه هذا البناء بمغازل عمريت في طريق اللاذقية.

والرواية التي تنسب هذا القبر إلى حيرام لا تستند على تحقيق تاريخي ولا ترجع إلى عهود بعيدة بيد أن البناء عريق في القدم ويحتمل جداً أن يكون فينيقياً.

على يمين الطريق، وقبل القبر المنسوب إلى حيرام بقليل، وجدوا في سنة ١٩٢٣ أطلال معبد ذي أعمدة وقبراً من العهد الفينيقي حجراته منفصلة ببلاطات من الحجر الكلسي الأبيض. وكل من هذه البلاطات يحمل في واجهته الداخلية صورة بعضها ظاهر، وخاصة صورة رمز السلام الذي فيه غصن من الزيتون يحمل نسراً باسطاً جناحيه، وحيتين متقابلتين ورمز تانيت إلهة قرطجنة التي شوهدت في بلاد الشام للمرة الأولى، ومن ثم يتراءى للفكر أن قرطجنة استعارت هذا الرمز من صور نفسها. وقد كشف التنقيب عن مغارة مقبرية خرج منها ناووس جميل من الرصاص (موجود الآن في متحف اللوفر) وإلى مسافة بعيدة قليلاً اكتشف رينان كنيسة

بيزنطية صغيرة تاريخها سنة ٧٠١ ميلادية كانت مبلطة بفسيفساء بديعة سالمة سلامة غريبة، فنقلتها إلى فرنسا (حين كان الترك وقتئذ)؟.

وعلى يسار الطريق وعلى علو قبر حيرام كشف التنقيب أيضاً جداراً جميلاً مثقوباً بباب، لعله كان أحد الواجهات الداخلية لخزان عميق مبني وكان الباب المذكور يصل هذا الخزان مع صهريج آخر وكشف التنقيب أيضاً عن مغاور مقبرية ونواويس الخ.

في الكم ٧ على اليمين، فوق أكمة، حنونة، قرية فيها كثير من الأحجار الأثرية المنحوتة التي ربما كانت تعود إلى كنيسة قديمة مكرسة باسم يوحنا المعمدان، لأن في هذه القرية ولياً مسلماً يدعونه يحي بن زكريا.

(على اليسار وتجاه هذه القرية يوجد جبل يرى في قمته أطلال قلعة فينيقية درسها رينان (بينها بقايا جدران ومقابر فيها حفر لم تنته بعد) وفي قاعدة القلعة وادٍ كثير الالتواء يدعى وادي العقرب قد انحصر حصراً عميقاً بين مداميك قرية من الصخر الكلسي الطباشيري. فإذا تتبع الزائر الجانب الأيسر من هذا الوادي متجهاً نحو الغرب يصل إلى منحدرات صخرية يظهر فيها تماثيل كثيرة محدودبة علوها ٨٠ ـ ١٠٠ سنتمتر وقد جعلت الرؤوس في الغالب بحيث تظهر من الجانب، أما العيون فتظهر من الأمام كما هو الحال في تماثيل العصور القديمة، ولباس هذه التماثيل عبارة عن قمصان بسيطة جداً متشابكة في الجانب الأيسر وعلى بعد بضعة أمتار من هذه التماثيل وفي أسفل صخرة منتصبة ومنحوتة نحتاً عمودياً اكتشفوا محنطة بشرية تعود إلى أقدم عهود ما قبل التاريخ (صوان منحوت، أجزاء من العظام والأسنان).

في الكم ٨ على ضفة الطريق ويمينه يلحظ أطلالاً غامضة، وسوراً يحدق بأرض مرتفعة عما حولها ربما كانت مكان هيكل وعلى بعد قليل نحو الجنوب أطلال حنية تدل دون ريب على مكان كنيسة ـ في الكم ٩ يهبط الطريق ثم يعود إلى الصعود، يلمح على اليسار قرية الخريبة وعلى اليمين قرية الرميدية.

في الكم ١٠ قانا، قرية كبيرة، سكانها ١٥٠٠ أكثرهم شيعة، وفيها مسجد وكنيسة للروم الكاثوليك وهي قد تكون قانا يشوع (١٩، ٢٩) إحدى المدن

الشمالية الخاصة بسبط اسبسار والقرية تنقسم إلى حارتين، إحداهما للشيعة والثانية للكاثوليك وهنا خاتمة طريق السيارات، ويكون من الصواب أن يبعث الزائر من صور برواحله لكي يركبها فيبلغ بعد ٢ ساعة و ٤٥ دقيقة إلى قلعة تبنين من مجاز دواب.

إن هذا المجاز بعد أن يجتاز عيناً في أسفل القرية يهبط وادي عاشور (١٥ دقيقة) وفي الدقيقة ٣٠ يترك على اليسار وادياً جانبياً أما وادي عاشور فينحرف نحو اليمين ويمر من تحت قرية اسمها المزرعة.

(على علو نحو ٤٠ متراً عن بطن الوادي يلمح مدخل سللا منقورة في الصخر. وهي عبارة عن فجوة هامة يحيط بها إطار مربع الأضلاع مؤلف من إطارات تتراجع بعضها عن بعض بخفة، وفي قعر الفجوة صور من النحت البارز والطراز المصري وهي بحالة سيئة، ويظن أنها تمثال حفلة تقديم نذور ومن فوقها كرة مجنحة مع نسرين كبيرين، وإذا أدار ظهره إلى الصور المذكورة يجد إزاءها تمثالاً جانبياً لرجل قاعد وعلى رأسه قلنسوة وأمام هذا الإله شبحا شخصين يتعبدانه وهما متجهان إليه وفوق هذه السللا مغارة ليس فيها شي.

يستمر الطريق في سلوك وادي عاشور في ساعة ونصف يترك على اليمين وادياً جانبياً يتجه نحو الجنوب. في الساعة ٤٥،١ دق يترك على اليمين طريقاً يفضي إلى قرية بنت جبيل.

في الساعة ٢ والدقيقة ١٥ يترك وادي عاشور ويصعد إلى ثنية يظهر فيها فجأة منظر جميل نحو حصن تبنين، ويلمح على أبعاد شاسعة قلعة الشقيف.

في الساعة ٢،٣٠ دقيقة يلمح على اليسار قرى عياطة انطوط واطاطا، وعلى اليسار قرية يهودية في الساعة ٢،٤٥ دقيقة (تبنين) قرية كبيرة، سكانها ١٣٠٠ أكثرهم شيعة، بينهم عدد ضئيل من الكاثوليك، علوها ٨٧٠م، مركز ناحية، وتشرف على هذه القرية من جهة الشرق قلعة تبنين التي بناها هوكوئس دوسنت أومر صاحب طبريا، حوالي سنة ١١٠٤/٤٩٨ وسماها طورون واتخذها معقلاً لغز وصور وما يليها، وهي كلمة إفرنسية قديمة بمعنى مرتفع أو أكمة منفردة، بعد أن

مات هوكوس دوسنت أومر دون عقب أعطيت تورون إلى أسرة تلقبت بتورون وقامت بأعمال مماثلة لما كان للأسر النبيلة القادمة من وراء البحر.

(حاصر صلاح الدين هذا الحصن سنة ١١٨٧/٥٨٣ وفتحه، وحاول الإفرنج سنة ١١٩٧/٥٩٤ وفي عهد الملك العادل أن يستردوه فأخفقوا وفي سنة ١٢١٩/٦١٦ دكه الملك المعظم ثم أعيد ترميمه في سنة ١٢٢٠/٦١٧ فصار سبباً للتداعي بين الفرسان التورونيين وورثة فيليب دومو منقور الذي اكتسب حقاً على هذا الحصن بحكم زواجه. وعهد الامبراطور فريدريك الثاني هذا الحصن إلى اليؤنور دومومنقور وعوض فرسان التورونيين بريع سنوي قدره ٧٠٠٠ بازان يجبونه من مكوس مرفأ عكا وفي سنة ١٢٦٦/٦٦٥ استولى الملك الظاهر على تبنين بعد أن كان استولى على صفد وأعيد ترميم هذا الحصن في القرن ١٧ من قبل ظاهر العمر حينما أظهر هذا العصيان ضد الدولة الثمانية.

إن بناء هذا الحصن عربي وغير متقن، يقوم على قمة أكمة مدورة جعلت الحصن أيضاً ذا شكل مدور وتقع الأكمة وسط بقعة خصبة شجراء. وقد حصنت بأبراج بعضها مربع وبعضها نصف مدور، ويصعد إلى الحصن من سلم طويل ولم يبق فيه الآن من عهد الصليبيين سوى الأسيس السفلي وبعض المداميك ذات الأحجار الضخمة المنحوتة نحتاً محدودباً لا تزال في مكانها في الجهة الغربية أمام السور الحالي، أو أنها أعيد استعمالها في داخل الحصن.

وفي أسفل الحصن بينه وبين القرية خزان عظيم ملآن بالماء، وفوق القرية في الجهة الغربية قلعة قام عليها حصن عربي صغير حصنت أطرافه بأربعة أبراج مدورة، وهو مبني في عهد بناء حصن تبنين الحالي.

من تبنين إلى بنت جبيل إلى الجنوب الشرقي ١,٥ ساعة ونصف على الرواحل - في يومنا هذا يهبط طريق الرواحل إلى الوادي في الجنوب ثم يصعد حتى قرية عياطة الريط ثم يجتاز بعد نحو ساعة هضبة حسنة الحرث والزرع مجردة عن الشجر ومن ثم يبلغ قرية بيت ياهون، وهذه مشيدة بأحجار أثرية (أعمدة وصيدة الحجر، أجران مقبرية.. الخ).

ومن ثم يهبط الطريق في واد قليل العمق متقن الزرع قامت فيه قرية قونين، وفي هذه أيضاً أطلال أثرية نخص بالذكر حوضاً كبيراً وعدة آبار، ثم يجتاز رابية صغيرة مغشاة بكروم العنب حتى قمتها، ثم يترك على اليمين عينيتا وهي قرية سنية وشيعية وهي بيت عنات المذكورة في التوراة، كانت تعود إلى سبط نفتالي، وفيها حوض نصف أثري وآبار ثم يترك على اليمين خربة تعرف باسم خربة شلابون تقوم فوق تل صخري، يلحظ ما بينها ناووسان، على واجهتها الطويلة جني مجنح قد نقش في وسط واجهتها الطويلة يحمل على يمينه ويساره إكليلاً جميلاً وضع في داخل انحنائه على الطرف قرص وعلى الطرف الآخر صليب ذو أضلاع متساوية يحيط به إطار مثمن الزوايا وهكذا فقد جمعت في هذه النقوش رموز الوثنية والنصرانية معاً.

في الساعة ١,٣٠ يعود للهبوط نحو بنت جبيل، قرية كبيرة، سكانها ٣٠٠٠ شيعة وفيها دار بريد ومخفر درك وسوق عام يقام في كل خميس يكتظ بالقادمين. ويلحظ في هذه القرية حوضان كبيران على أطرافهما كثير من الرخام الجميلة المجلوبة فيما يظن من بناء مهدوم. ويوجد في هذه القرية أيضاً بقايا كتابات يونانية تدل على اسم بناء ديني.

ومن بنت جبيل يمكن الوصول خلال نحو ساعة في طريق رواحل يتجه نحو الجنوب إلى يارون وهي يرئون يشوع إحدى مدن سبط نعتالي وهي قرية أهلها روم كاثوليك وشيعة، يلحظ فيها فوق تل منفرد أطلال مسجد للشيعة كان في الأصل هيكلاً ثم جعل في عهد البيزنطيين كنيسة وقد كان طولها ٣٥ قدماً وعرضها ٢٢، وكان لها ثلاثة مداخل متجهة نحو الغرب تناوح ثلاثة صحون تنتهي بثلاث حنايا بارزة إلى الخارج.

فالحنية الوسطى كانت منفصلة عن جارتيها باثني عشر عموداً وحيدة الحجارة عليها تيجان كورنثية، في كل جهة ستة أعمدة. وبقايا هذه الكنيسة قد تبعثرت فوق منحدر التل وفي داخل القرية.

من تبنين إلى الطيبة في الشمال الشرقي سيمتد طريق صالح للسيارات يفضي إلى الطيبة ماراً بـ القنطرة، والطيبة مرتبطة من قبل بطريق صالح للسيارات إلى جديدة مرجعيون .

من تبنين إلى قرية شقيف أرنون ـ نحو الشمال الشرقي في طريق رواحل يجتاز من الشمال الوادي الذي يلف حول حصن تبنين، ثم يتسلق في الشمال الشرقي ميول جبل صفد البطيخ تاركاً هذا الجبل على يمينه. وينفذ بعد نصف ساعة إلى وادي الحجير الذي يهبط خلال أربع ساعات ليبلغ نهر القاسمية عند جسر القاقلية ومن هنالك يدور الطريق نحو اليمين ويصعد في وادي عين عبد العال، تاركاً على يمينه مضيق الليطاني فيبلغ بعد نصف ساعة زعوتر وبعد (١ ساعة و ٨٠ دقيقة) قرية الحمرا وبعد نصف ساعة أرنون في سفح قلعة الشقيف من تبنين إلى هونين في الشرق يهبط إلى بطن الوادي الذي يلف حول تبنين في شرقها ويمر من قرب بئرين قديمين يسميان عيون الخان لأنهما على مقربة من أطلال خان إسلامي.

وبعد اجتياز عدة أكمات يفصلها بعضها عن بعض أودية قليلة العمق أو كثيرته، نخص بالذكر منها وادي الحجير، يبلغ قرية مشغرة مقر أحد كبار رؤساء الشيعة الملقب بالسيد الكبير، وفيها مسجد تحت قبته ضريح سيد مقصود بالزيارة من أطراف هذه البقاع، وقد شيد هذا المسجد بأنقاض هيكل أو بيعة.

ثم يخترق هضبة يرى فيها منظراً غاية في الروعة والبهجة، ثم يهبط إلى بطن وادي السلوقي وبعد عبوره يتوقل خرشوماً صخرياً يقع عند ملتقى وادي السلوقي بوادي الجمال، وفي الطرف الشمالي من هذا الملتقى تقوم قلعة صغيرة إسلامية تدعى (قلعة دبيل) وبناؤها يتألف من برجين أحدهما مستطيل الشكل وهو في الغرب. والثاني نصف دائري وهو في الشرق، وهما يتصلان بعضهما ببعض بسور شاهق، وهناك خندق محفور في الصخر يحدق بهذا السور كله، والباب الأصلي ينفتح في الطابية التي في الطرف الشمالي والقريبة من البرج نصف الدائري المكلف بحمايتها.

وبعد أن يلج من الباب يجد نفسه وسط بهو صغير معقود يطل على الباحة الداخلية للقلعة، وحول هذه الباحة حجيرات الجنود ومستودعات المؤن، فما كان من هذه في القسم الغربي هي أجل الكل شأناً ويحتمل أن يكون بينها ردهة الاستقبال وغرفة محافظ القلعة، وهذا الحصن من بناء العرب. ولعل تاريخها من القرن ١١هـ /١٧م وهناك كثير من الصهاريج المنقورة وسط فسحة صخرية واسعة أمام القلعة،

ومثلها حوض كبير منقور في الصخر في سفح الجبل يخيل للناظر أنه أقدم من بناء هذه الحصن العربي.

وبعد عبور وادي الجمال يقطع هضبة ثم يسير بمحاذاة وادي الحولة ثم يعبر هذا الوادي إلى أن يبلغ قرية الحولة الواقعة على سفوح محروثة ومزروعة وفيها تيجان أعمدة أثرية من الطراز الدوريكي موضوعة في مسجد القرية، ولعلها مأخوذة من معبد قديم.

وبعد عبور الحدود الفلسطينية يبلغ قلعة هونين أو الحصن الجديد في عرف الصليبيين المبنية مكان مدينة يانوها المذكورة في التوراة، وهي قلعة كبيرة ولكنها في حالة الخراب.

٣ ـ صور القديمة (يالا ايتر) تل الرشيدية ورأس العين (نحو ٧ كم إلى الجنوب والجنوب الغربي) طريق صالحة للسيارات يترك صور من طريق بيروت ـ الناقورة ـ في الكم الخامس بعد ملتقى طريق صور يلحظ على اليمين بين الطريق والبحر مرتفعاً صخرياً طوله نحو ٤٠٠ متر وعرضه ٢٠٠ م قد بنى فوقه الحوش العائد للمزرعة الكورة المسماة (رأس العين) وهي من أملاك الجمهورية اللبنانية، تؤجر أراضيها إلى الأهلين، والمرتفع المذكور يدعى تل الرشيدية نسبة لرشيد باشا الذي بنى الحوش المذكور في القرن ١٩، واستعمل في بنائه كثيراً من الحجارة الأثرية التي كانت ملقاة ومبعثرة هنا وقد ظن الأثريون هذا التل بأنه الأكرويول العائد لمدينة يالا آتير صور البرية التي ذكر استرابون أن موقعها على بعد ٣٠كم. سناد وفي جنوبي صور، وفي سفح التل يلحظ وجود ثلاثة خزانات قديمة تدير مياهها طواحين أو تروي المغارس القريبة، وعلى بعد ٢,٥ كم في شرقي التل المذكور خربة الحوش عين المسيود أسسوا فيها مكان بلدة أوشو المذكورة في النصوص الآشورية والمصرية وفي رقم تل العمارنة.

في الكم ٦ يأخذ على اليمين درباً صالحاً للسيارات يفضي بعد ٨٠٠ م عن الطريق المعبدة إلى (رأس العين) ذات الينابيع الجميلة التي تفيض الغل والخصب لكل كورة صور (يلحظ فيها وسط ضيعة نضرة أربعة خزانات ماء أثرية بديعة الصنع عليها مسحة الأبراج المربعة، وأجل هذه الخزانات شأناً هو الذي تنبع منه

العين الأصلية، وهو بشكله سداسي الأضلاع وكل جهة منه تمسح ٨,٥ م وجدرانه ثخينة تتجاوز الثلاثة أمتار، وقد شيدت بحصى البحر المرتبط بعضها ببعض بملاط غاية في الصلابة، أما أرضه فمقعرة تؤلف في أجزائها العليا ما يشبه الخرشوم المدور وبعرض هذا الخرشوم عدة أمتار وعلوه يتجاوز مستوى الماء، والخزان يعلو عن مستوى الأرض المجاورة له نحو خمسة أمتار، أحيط من الخارج بجدار له سطح متحدر وأحيط أيضاً بمربع مبني برخامة جميلة متأخرة، ومياه هذا الخزان تدير طاحوناً ثم تنصب فوراً في البحر، وهنالك قنطرة ماء رومانية تربط هذا الحوض بمياه حوضين آخرين يقعان إلى الشرق على بعد نحو مئة متر، وهذان الحوضان متصلان ببعضهما ويخرج من أحدهما قنطرة الماء القديمة المتجهة شمالاً نحو المعشوق الذي تقدم ذكره، ويخرج من ثانيهما قنطرة أحدث عهداً ساكبة فوق صف من الأقواس، وهذه القنطرة تذهب جنوباً وتروى الأشجار المغروسة وهنالك حوض رابع يبعد قليلاً نحو الشمال.

وثمة رواية تسب هذه الخزانات إلى سليمان وأنه شادها ليقابل حسن صنيع حيرام ملك صور الذي كان قدم إليه كثيراً من خشب الأرز والصناع حينما بنى هيكل أورشليم، وقد ذكرها طيوم الصوري ووصفها وصفاً دقيقاً، هذه الخزانات هي على أوكد الظنون من بناء سكان صور القديمة يالا ايتر الذين قاموا من أول عهدهم يستعملون هذه الينابيع الثمينة، فحصروها ضمن خزانات متينة ورفعوا مياهها إلى مستوى أعلى من مستوى ينابيعها التي تتفجر منه، فتمكنوا بهذا العمل من سوقها إلى صور رغم الميل المعاكس للأرض وخلال العصور التي تلت أيام يالا ايتر رممت هذه الخزانات عدة مرات.

وعلى المرتفع الذي لطريق رأس العين ينفصل درب ترابي عن طريق الناقورة ويتجه شرقاً نحو ضيعة اسمها الطيبة تقع على الميول الأولى المشرفة على السهل، ففي هذه الضيعة عثروا على عرش لعشتروت نشره الأب رونزفال اليسوعي والتنقيب الذي جرى حديثاً كشف أسس جدران قديمة وقواعد أعمدة من الرخام الأبيض ولا ريب في أنها تعود إلى معبد خاص بعشتروت الفينيقية قلب فيما بعد إلى بيعة نصرانية في العهد البيزنطي، كما تدل على ذلك صلبان إغريقية منقوشة على صفاح الرخام.

٤ ـ حديقة، السكة الرومانية، قلعة معرون إلى الغرب ١٩،٥ كم لحب صالح حتى حريفة، ثم ٤٥ دقيقة في طريق رواحل في الكم ٢ شمالي مفرق طريق بيروت ـ ناقورة عن طريق صور ينفصل لحب صالح للسيارات فتحه الأهلون، يجتاز هذا اللحب الطريدة الضيقة من الأرض التي تؤلف في هذا المكان السهل وتصل في وقت وجيز إلى الأعضاء الأولى من آكام بلاد بشارة.

ومن ثم يسير اللحب في طول واد عريض نوعاً ما، وحسن الزرع يلمح على اليسار، منحدرات جرداء فيها مغاور عديدة. في الكم ٢،٥ على اليمين وفوق جبل صغير ضيعة الحميدية ـ في الكم ٧ ضيعة أكبر اسمها العباسية، ثم يضيق الوادي. ويسيل الجدول قرب الطريق تحت ظلال أشجار الحور ـ يعبر اللحب الجدول ويصعد إلى ضفة وعرة.

في الكم ١٠،٥ قرية دير قانون، في ذروة الضفة وفيها زروع جميلة وكروم زيتون وتين ـ في الكم ١٦ يلمح على اليسار فوق أكمة قرية بيضاء اسمها دير دوغيا (على طرف الطريق آبار فياضة)، وثمة آثار مقبرة أثرية رومانية .

في الكم ١٩،٥ صريفة، قرية شيعية كبيرة تقع فوق مرتفع يشرف على كل هذه الربوع. وبعد هذه القرية لا يعود اللحب صالحاً للسيارات، إلا أنه بالإمكان التقدم إلى بعد منها نحو العديسة التي على الطريق الذاهبة من الطيبة إلى جديدة مرجعيون.

(في عدة أماكن من هذا اللحب آبار متباعدة على مسافات، وهو محدود على التقريب في كل امتداده بعقد من قطع الرخام الضخمة المتوازية، ثم هو في بعض الأماكن ولاسيما بين دير دوغيا وصريفة منقور في الصخر، كل ذلك يدل دلالة قوية على أنه هو السكة القديمة الرومانية التي كانت تصل الساحل الصوري بوادي الأردن الأعلى ومن بعده بأنحاء دمشق.

ومن صريفة يبلغ راكب الراحلة خلال ٤٥ دقيقة نحو الشمال الشرقي قلعة معرون ولا يزال لهذه القلعة منظر رهيب لمن يراها من بعيد لاسيما من الوادي الذي تشرف هي عليه نحو الغرب. وهي رابضة فوق ذروة أكمة ذات ميول شديدة، فيها وجلول مدرجة مزروعة. وفي القلعة أبراج نصف دائرية مرتبط بعضها ببعض بالجدران

أسوار شاهقة العلو إلا أنها عند الوصول إليها لا تظهر إلا أكوام خرائب. وفي السور الخارجي ثغرات واسعة. والأبراج والأسوار قد هدمت تيجانها ونحو الشمال الغربي يوجد آثار سور ثانٍ لعله القلعة الأصلية. ويلحظ أيضاً وجود صهاريج عديدة منقورة في الصخر. وهذه القلعة عربية الأصل، وينسب بناؤها إلى ظاهر العمر، فهي معاصرة لقلعة تبنين ولعلها مبنية فوق مكان أثري أقدم منها.

عودة: يخرج من صور حتى يلاقي طريق بيروت - ناقورة ويترك على يمينه طريقاً آخر يفضي إلى صور فأصبح مطموراً بالرمال ويترك على يساره طريقاً يفضي إلى جويا وفي النية إكماله حتى تبنين .

في الكم ٨٩، على اليمين وعلى اليسار، أملاك زراعية جميلة - في الكم ٩٠ على اليسار طريق يفضي إلى قانا. في الكم ٩٢ يلمح تل الرشيدية .

في الكم ٩٣ على اليمين، درب ذو صلاح ضئيل للسيارات يفضي بعد ٨٠٠م إلى رأس العين وعلى اليسار سكة ترابية تفضي إلى قرية تبنين .

في الكم ٩٥ يلمح على اليسار وفوق الطريق قرية دير قانون فيها تماثيل منقوشة في الصخر، وبعدها تأتي قرية قيليلة التي يجوزها السائر بعد عبور نهر المنصورة. ومما يذكر أن بين هاتين القريتين كثيراً من الكهوف المقبرية والنواويس.

وعلى بعد نصف ساعة شرقي قيليلة يوجد في الجبل معبد يدعى النبي عمران، يلحظ فيه تيجان أعمدة كورنثية وبيزنطية وآثار كثيرة من العهد البيزنطي.

في الكم ٩٧ جسر على نهر العزية، يترك على اليسار على الضفة اليسرى للنهر قرية العزية ولعلها أشازي المذكورة في رقم تل العمارنة.

في الكم ٩٩ على اليسار قرية بيوص الصيد وفيها آبار ولعلها في مكان، ثم قرية الشيبرية وفيها أطلال ثم يبلغ إلى الخرشوم الكبير المسمى برأس الأبيض .

ويرى صخوره البيضاء تدخل في البحر دخولاً عمودياً هائلاً، والطريق التي تجتازه منقورة في الصخر نقراً .

في الكم ١٠١، تبلغ الطريق قمة الخرشوم المذكور، وهناك منظر جميل رائع يمتد نحو صور في الشمال ورأس الناقورة في الجنوب - في الكم ١٠٣ الإسكندرونة، وفيها خان بسيط على يسار الطريق ومقهى ومطعم صغيران على يمينه وفيها سمك

طري هذه ومعنى هذا الاسم خيمة الاسكندر وأصله أن الاسكندر الكبير حينما كان يحاصر صور عسكر في هذا المكان وشاد فيه حصناً صغيراً، وفي العصور المتوسطة سمي هذا المكان اسكندليون وجعل من إقطاعات صور وفي سنة ١١١٩ رمم بودوين الأول الحصن ليتخذه قاعدة لحركاته العسكرية ضد صور بيد أن خرائب هذه الإسكندرونة قد اندثرت بالمرة. وليس فيها من الآثار القديمة سوى عين ثرة جميلة تتدفق من حوض مدور، وبعض أبدان أعمدة.

وفي الإسكندرونة مجاز يفضي خلال نحو ٤٥ دقيقة إلى حصن قديم يشرف على رأس الأبيض ويحكم على طريق الساحل اسمه (قلعة الشمعة) وهذا الحصن لا يتجاوز عهد ظاهر العمر وهو الآن خراب.. وهو مبني على هضبة مرتفعة (علوها ٤٠٠ متر) يمتد النظر منها إلى مسافات شاسعة، ويحيط سور محصن على مسافات متباعدة بأبراج نصف دائرية، مبنية هي الأخرى كالسور بأحجار منتظمة ذات حجوم وسط، ما خلا المداميك السفلى المصفوفة على هيئة سطح مائل، فإنها من رضام أعظم وأضخم، يدخل إلى هذا الحصن من أحد البابين السريين الموضوعين وضعاً متقناً في أسفل الأبراج الجنوبية. وكان داخل الحصن مقسماً إلى قسمين، أحدهما نحو الشمال يمكث فيه الباشا والثاني نحو الجنوب كان يحتوي على مساكن خاصة ولم يبق من الحصن الأصلي سوى بضعة أبهاء يتخذها الآن الرعاة زرائب للغنم.

يمر الطريق من أسفل تل الضبع وتل أرميد أو الأمسيس (وفيه بقايا جدران، أجران قبورية، نواويس) ويبلغ في الكم ١٠٦ أسفل الأكمة التي يوجد فيها الخرائب المعروفة باسم أم العواميد.

يرى في أم العواميد نوع من الأكروبول مع بقايا أعمدة ذات تيجان أيونية وقد عثر زينان على أجزاء لأبي الهول على رأسه غطاء مصري، وعلى كرات عديدة مجنحة والتي هي التصميم الاعتيادي لكل إطارات الأبواب والنوافذ الفينيقية، وعلى أجزاء مذابح مزخرفة، وعلى حوض ماء ممتاز جداً.. الخ.

وقد كان في أم العواميد عمارة مصرية قد دثرت الآن، كان فيها عتبة باب عليها كرة مجنحة باورائوس وقد اكتشفوا في أم العواميد أربع كتابات إحداها

إغريقية والثلاث فينيقية واكتشفوا أيضاً أنصاباً جنائزية من أسلوب واحد مشتق من نموذج صوري، أخصها نصب راهب ميلكاشتار. وقد ذكر في إحدى الكتابات اسم بلدها مون قربوها بالتشبيه لهامون يشوع (١٩، ٢٨) وللنبع المسمى عين حامول الذي يسيل في أسفل أم العواميد. ونقب المسيو دي لوري سنة ١٩٢١ فظهر من ذلك ازدهار هذه المدينة المصرية الفينقية بعد الإسكندر ويعزى ذلك إلى أن كثيراً من الأسر الصورية لجأت إلى هذا المكان عقيب استيلاء الإسكندر على بلدتهم صور.

في الكم ١٠٧ ينحرف الطريق نحو اليمين ويجتاز خرشوماً صغيراً - في الكم ١٩٨ على اليسار قرية الناقورة سكانها ٢١٧ يترك هنا على اليسار درباً يفضي بعد ٦ كم إلى علما قرية سكانها ٧٠٠، وهي قاعدة ناحية وفيها كنائس مارونية وكاثوليكية ومعبد بروتستانتي وقد اشتهرت بجودة تبغها، وسيمد هذا الدرب في المستقبل حتى قرية بنت جبيل التي يوصل إليها الآن من طريق رواحل سيأتي وصفه.

من علما إلى بنت جبيل (إلى الغرب)، خلال ٤ - ٥ ساعات، في لحب دواب، بعد ٢٥ دقيقة يصل إلى قبر كوسا وهي قرية خربة مهجورة تقع فوق أكمة يلحظ فيها مغاور مقبرية كثيرة، منقورة في صخر طري هش. في الدقيقة ٣٥ رملة، وفيها بيت منعزل، على اليمين درب يفضي بعد ثلث ساعة إلى يحادي، فيها أطلال قرية صغيرة لا يزال باقياً منها عدة أحواض وأقبية على اليسار درب يفضي خلال ٣٠ دقيقة إلى يارين وهي ضيعة يقطنها نحو ٣٠٠ نفس من البدو وقد وجدوا بها اسم الصليبية التي كانت قائمة فوق قمة ومنحدرات أكمة كان يحيط بها في الماضي سور مبني برضام ضخمة منحوتة، وبعد أن خربت يارين وأصبحت ركاماً من الأنقاض امتلأت أكمتها بالأنجم النابتة أو بالزروع ولا يزال يلحظ على قمتها حصن قديم.

وفي الجنوب الشرقي من ناحية المسيل الذي يتلوى فيه وادي يارين، عين ثرة لا تنقطع عن الانفجار من أسفل مغارة ثم تجتمع مياهها في خزان منقور في الصخور وفي الشرق يمتد نوع من الشوارع كانت فيما مضى تحضن بجانبيه عمارات ذات شأن وقد لحظوا فيه خاصة بقايا كنيسة كبيرة ذرعها ٤٥ خطوة في ٢٢، وقد كانت مبنية بأحجار جميلة منحوتة راكب بعضها فوق بعض دون ملاط، ومنتهية نحو الشرق بثلاث حنايا وفي داخلها كان صفان من الأعمدة الوحيدة الحجر بعض قطعها

المهشمة لا تزال ملقاة على الأرض، وكان الصفان المذكوران يقسمان هذا الداخل إلى ثلاثة صحون. وعلى ذلك ينبغي أن يكون للصحون المذكورة ثلاثة أبواب في واجهة الكنيسة الغربية.

في الساعة ١,٢٥ دقيقة يترك على اليسار على بعد ٢٠ دقيقة فوق جبل صعب المنال أطلال هيكل قديم يدعى (البلاط) يرى فيه من جهة الجنوب ثلاثة أعمدة تحمل حتى الآن ارسيتراق وأمام الهيكل على بعد قليل عمودان منفردان بدون تيجان وفي امتداد صف الأعمدة الثلاثة الحاملة للآرسيتراق، في جهة الشرق ينتصب شبه دعامة ذات زوايا رأسها يتقعر على شكل تاج عمود ويرى في الهيكل من جهة أخرى في الجنوب الغربي من الهضبة زاوية من صف الأعمدة يتألف من عمود واحد في الجنوب ومن عمودين في الغرب، وفوق هذا الصف آرسيتراق.

وفوق قمة الجبل المذكور كلها يرى كميات وافرة من الأعمدة الملقاة على الأرض ومن الأحجار المنحوتة والبلاط وفي شرقه أطلال يظن أنها مداخل الهيكل، إذ لا يزال فيها ستة أدراج ظاهرة لسلم ذي عرض غير يسير يصعدونه إلى الهيكل، وفي مرتفع هذا الهيكل منظر غاية في الروعة والانتصاع يكشف كل البقاع الممتدة من بيروت حتى الناصرة.

في الساعة ١,٤٠ دقيقة يترك على اليسار (سرايا) القديمة التي ذكرها يشوع وقد كانت تعود إلى سبط آزر وهي الآن قرية شيعية تقع فوق قمة أكمة. يلحظ فيها جرن يشبه ناووساً هائل الحجم منقور في صخر عظيم، بحيث لا يزال قعره غير منفك عن الصخر، ويحتوي هذا الجرن على ثلاث قعرات قبورية متوازية، وأحواض وكهوف مقبرية.. الخ.

ويمكن الوصول من راما إلى بنت جبيل أولاً خلال ٣ ساعات و ١٠ دقيقة، فيمر في الدقيقة ٤٥ بقربة دبييل المارونية القائمة على ذروة أكمة وفيها أطلال جدار سور وأحواض وصهاريج وكهوف مقبرية مع كتابات إغريقية، ثم في الساعة ٢ والدقيقة ١٠ بدبييل، وهي قرية كبيرة سكانها ١٠٠٠ نفس أكثرهم موارنة وفيها أيضاً صهاريج ونواويس، ثانياً من طريق جنوبية أكثر خلال ساعتين و ٢٠ دقيقة، فيمر في الدقيقة ٢٠ بعيتا الشعب وهي قرية شيعية وفيها بقايا جدار سور، وحصن صغير تحته

صهريج واسع وكهوف مقبرية، وفي الساعة ١ والدقيقة ٢٠ بقرية روميش ومن هذا المسلك الثاني سيمتد في المستقبل طريق علما - بنت جبيل .

عودة - على اليمين يلمح برج مراقبة قديم مستطيل الشكل يدعى برج الناقورة. وهذا أيضاً مبني فوق الصخر ويطل على البحر من جهة واحدة. شيد بقطع رخام أثرية، ولا يبعد عهده عن العصور المتوسطة. ونصف الطابق الأعلى منه متهدم وبعد هذا البرج يصل فوراً إلى نقطة الجمرك اللبناني.

ثم يوازي الطريق ساحل البحر، ثم يصعد تدريجياً ويجتاز في الكم ١١٢ رأس الناقورة. وقد كان هذا الرأس الحد الفاصل بين أرض الميعاد وفينيقية، وقد صار في يومنا هذا الحد الفاصل بين فلسطين والجمهورية اللبنانية. وهناك السكة القديمة المؤلفة من مدارج متتابعة منقورة في الصخر، وقد كان اسمها مدارج صور.

في الكم ١١٣ نقطة الجمرك الفلسطيني. وعند الخروج من هذه النقطة تظهر منظرة رائعة نحو سهل عكا وخليج حيفا وجبل الكرمل. ومن هذه النقطة إلى حيفا ٣٤,٣ كم فقط .

الفصل الخامس

من دمشق إلى تدمر

طول هذا المسلك نحو ٢٣٠كم، معبد حتى القطيفة، جيد حتى جيرود، ثم يصير مجازاً يعد حسناً يغادر دمشق من طريق حمص ـ ويجتاز ٣٩ كم من دمشق إلى القطيفة. فإذا وصل إلى القطيفة ينحرف في أولها إلى اليمين ويسلك الطريق الذاهبة نحو الشرق ـ ويجتاز حقولاً مزروعة بكروم العنب ويترك على يمينه سلسلة جبال تفصل بين سهل القطيفة وبين مزرعتي الرمادة والمعيصرة الواقعتين بين قريتي عدرا والضمير. ويترك أيضاً على يمينه مجازاً للدواب يشق السلسلة المذكورة ويهبط نحو الضمير.

في الكم ٤٣ المعضمية، قرية كبيرة، سكانها ٢٥٠٠ مسلمون، وفيها مسجدان، وفي الكم ٥٣ الرحيبة، قرية كبيرة، سكانها ٣٦٠٠ مسلمون، وفيها ثلاثة مساجد في غربي هذه القرية على أكمة عالية قبر أبو سعيد الخدري سعد بن مالك الأنصاري كان من أعيان الصحابة شهد الخندق وبيعة الرضوان ومات في دمشق سنة ٧٤هـ وفي الكم ٦٤ جيرود، قرية كبيرة حسنة، سكانها ٢٤٠٠ مسلمون، مركز ناحية وكانت لمضي بضع سنوات مركز القضاء، إلى أن استبعدوها فنقلوه إلى القطيفة، ويظن أنها جرودا المذكورة في دليل انطونين، وقد ذكرها ياقوت اشتهرت بعنبها الدربلي الذي ينتج منه زبيب فاخر، وفي الجنوب الشرقي لجيرود بحيرة جيرود، وهي مستنقع عظيم مالحة يستخرج منها كثير من الملح، وبعد جيرود تنتهي الطريق المعبدة ويسلك مجازاً صالحاً لسير السيارات في كل الفصول الجافة. وبعد جيرود يجتاز سهلاً فسيحاً فيه كثير من قنوات الماء التي يسقون منها حقولهم، ولكل منها فتحات كواكب في ابعاد متساوية (كل ٢٠ متر كوكب) وثمة آبار عليها غرافات لسحب الماء وري الزروع أيضاً. وبعد جيرود ضيعة اسمها، العطنة، سكانها ٣٠٠ مسلمون وفيها مسجد وخان قديم استعيرت أحجاره في الغالب من حصن روماني قديم كان في هذه البقاع. ثم يدخل المجاز في قيعان رملية جرداء صف بها من جانبيها الشمالي والجنوبي سلسلتا جبال جرداء موحشة،

اسم الشمالية جبل حاجولة وجبل غزالة والجنوبية جبل التوف وقد فتح في سنة ١٩٤٠ في جبل حاجولة طريق للسيارات (طوله نحو ١٥ كم) يصل النبك بالناصرية وقلمون الأعلى بالأسفل، والمجاز رديء، في الكم ٧٥ قرية صغيرة الناصرية، سكانها ٣٥٠ مسلمون وفيها مسجد، وهنا منتهى العمران وأول البادية، وفي الكم ٨٥ خان الجلاجل وهو خراب، في شرقه وقرب المجاز أطلال سور قديم، في الكم ٨٨ خان الأبيض، وهو أيضاً خراب.

في الكم ١٣٠ القريتين، (بريد، هاتف، مخفر درك) قرية كبيرة حسنة، سكانها ٢٥٠٠ ثلثاهم مسلمون والبقية سريان كاثوليك ويعاقبه، مركز ناحية وكانت قبل بضع سنوات مركز قضاء، وفيها مسجد وكنيسة لكل طائفة نصرانية، والقريتين هي في دليل نويتسيا، تحيط بها بساتين ملتفة زاهية، بفضل عين ثرة تتفجر من الجبل. وفيها كروم حسنة. وفي دار أحد وجهائها فياض آغا نقوش وكتابات تدمرية جديرة بالزيارة. ويداوي البدو هنا الممسوسين بطريقة الغل والقيد، وهي طريقة تشبه ما يعمل في دير القديس انطونيوس في قزحيا شمال لبنان.

ويدور المجاز الجديد حول القرية في غربها ثم في الشمال الشرقي يصعد نحو آخر تلعات هذه الهضبة القفراء، وبعد ٠،٥ كم يعبر وادياً - في الكم ١٣٣ يعبر وادياً عريضاً، ثم يسلك برية فسيحة قفراء مطردة المناظر، وثمة سلسلة جبال تمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، تدعى على التوالي جبل الشرق وجبل الرواق وجبل الحجل وجبل الطويل.

في الكم ١٥٠ يمر من قرب القناة القديمة التي كانت تروي تدمر.

في الكم ١٥٣ أطلال قصر الحير، ويظهر برجه الشاهق عن مسافة بعيدة، (في هذه الأطلال خان، في هذا الخان نزل الأمير ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان أخ الملك العادل من أمه، المتوفى سنة ٥٥٩ والمدفون في مدرسة الباقية في حي الأكراد بصالحية دمشق. ذكر القلقشندي هذا الفندق أو الخان في صبح الأعشى، ليس الرابع ولعله غيره ص ٣٨١ في كلامه على مراكز البريد قال: وأما طريق الرحبة - يعني رحبة مالك بن طوق - فمن القطيفة المقدمة الذكر إلى العطنة - قال في التعريف وليس بها مركز وإنما بها خان تفرق به صدقة من الخبز والأحذية ونعال

الدواب - إلى جلجل ثم منها إلى المصنع ثم منها إلى القريتين، آه ويزيد العمري في كتابه التعريف أن العطنة كانت إحدى مراكز المناور لرفع النار في الليل والدخان في النهار للإعلام بحركات التتار إذا قصدوا البلاد لحرب أو غارة فكان.

ينور بعانة على شط الفرات ثم يصير التنوير بعدة مراكز إلى أن يرى من العطنة فيرفع فيها فيرى بثنية العقاب ويرفع فيها فيرى بمئذنة العروس بدمشق ويرفع فيها لما حولها إنذاراً للرعايا، ذكر ياقوت: جليجل تصغير جلجل، منزل في طريق البرية من دمشق دون القريتين بينه وبين دمشق مرحلتان لمن يقصد الشرق به خان رأيته غير مرة. و (فندق العطنة) بناء مربع مساحته نحو ٣٠×٣٠ م، طبقته العليا مهدمة والسفلى سالمة كما كانت قديماً. وتحيط به رواقات معقودة على جدران ضخمة من جهاته الأربع وللفندق باب واحد قبلي فخم وعن يمين هذا الباب ويساره من الخارج وقفية هذا الفندق ونظامه الداخلي واسم مهندسه وبانيه وهذا الفندق مستعمل اليوم لربط الدواب ووضع الأقذار فخرب بعد أن كان مأوى أبناء السبيل من المسلمين يطعمون ويكسون وتنعل دوابهم (عن مقال في مجلة التمدن الاسلامي سنة ٤ج٤) للشيخ دهمان وكتب ٩٤٠/١٢/٣. أطلال مختلفة، قد امتدت في مساحة نحو كيلو متر من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، ففي الشرق أولاً آثار سور طوله ٥٠ متراً، وفي جهة الشمالية باب عليه عتبة جميلة (ذرعها ٤،٢٩× ١،٠٥ متر) تدمرية الشكل قد زخرفت بأوراق الشجر مع أنواط لباخوس وإله الخمر أبيه وسيفن إله الدعابة، ولا تزال هذه العتبة في مكانها فوق دعائمها.

وفي الجبهة الغربية من هذا السور برج شاهق الارتفاع إلى ١٦ متر، بابه في الجهة الشرقية ينفتح في داخل السور، وهو بناء نصراني بدليل وجود صلبان بيزنطية زينوا بها طبقته العليا، ومنها صليب ملقى بين الأحجار البلوكات الضخمة في الجنوب وإلى في جدرانه القواطع الثلاثة باقية في الجهة الغربية، وكان لهذا البرج ثلاث طبقات.

وفي الوسط وعلى بعد ٦٠٠ متر من غربي البرج حفر صهريج مربع واسع (٦٦ متراً) له جدران مبنية بالحجر وتأتي إليه الماء بقناة واسعة عرضها ١،٠٥ وعلى جدرانها الداخلي كذلك وحول هذا الصهريج يمتد من الجنوب الشرقي إلى الشمال

الغربي تالوس من التراب نشأ على ما يظهر مما استخرج أثناء حفر الصهريج أو تعزيله . ثم على بعد ١٥٠ متراً في الغرب سور مربع، طوله ٧٠ متراً مرسوم على الأرض. له باب تدمري الشكل (٢,٨١ متر) فيه زخرف من النقش البارز فقط، وهو يفتح نحو الشمال، وعليه كتابة عربية كوفية جميلة من عهد الخليفة هشام الأموي سنة ١٠٧هـ /٧٢٧ ويظن أن هذه الأطلال منشآت زراعية تعود لاسعد عهود تدمر، في القرن الثالث وينبغي أن لا تخلط هذه الخرائب مع خرائب أخرى تدعى (قصر الحير) وتقع في الشمال الشرقي لتدمر).

عودة: تستمر الطريق في التدرج نحو الشرق وسط سباسب قفراء حتى تدمر هنا مفرق عليه الارقام الآتية: تدمر ٣٠ دير الزور ٢٥٠ قريتين ٧٥ جيرود ١٤٠ دمشق ٢٠٠ حمص ١٣٥ في الكم ١٩٥ عين البيضاء. خان قديم، وهنا ملتقى الطريق الذاهبة من تدمر إلى حمص وهذه العين تنشأ من بئر ذي ماء أجاج، (لابد من حبل ودلو لنشله) في قربه خان قديم مهجور.

لا يعرف إلا القليل عن تاريخ تدمر في الألف الأول السابق للميلاد. إلا أنه بعد أن انتقلت إلى يد السلوقيين الذين اخذوا بلاد الشام الشمالية بعد اقتسام ممالك الإسكندر عادت واستردت استقلالها في عام ٦٤ ق.م، حينما جاء الرومان وجعلوا بلاد الشام ولا ياتهم، وفي سنة ٤٠ ق.م كانت تدمر غنية إلى درجة جلبت عليها شهوة الطمع عند أنطوان فجرَّ عليها حملة لنهبها ولا يظهر أنه بُدئ في تحصينها من ذلك الحين، وفي الواقع، حينما شعر سكانها بالخطر، احتاطو للأمر فأخلوا مدينتهم ونقلوا خزائنهم إلى ضفاف الفرات.

ومن تدقيق الكتابات والخرائب يظهر أن القرن الأول والثاني كانا من أسعد القرون في تاريخ تدمر، وأن كثيراً من المباني الفخمة قد شيدت خلالهما وفي سنة ١٢٩ زارها دريانوس تدمر وسماها هادريانا، وقد امتدت سلطة روما في زمن على تدمر وكان أن جمعت جنوداً متطوعة معاونة أشهر كتابها تلك التي دعيت باسم الرماة التدمريين على أنه لم تأخذ تدمر اسم مستعمرة رومانية إلا في عهد سبتموس سيفروس سنة ٢٠٠.

وفي أوائل القرن الثالث لمع اسم أذينات(أذينة)، وقد لعب أعقاب هذا الرجل دوراً عظيم الشأن في تاريخ تدمر فأول ذلك أنه سنة ٢٣٠ كان الأول بينهم شيخاً في سناتوروما وحكم عليه بالموت بعصيانه. وابن هذا حيران لقب في إحدى الكتابات المؤرخة في سنة ٢٥١ بلقب (أمير تدمر) وجاء أذينات ثانٍ وهو ابن حيران، وحاز سنة ٢٥٨ شعار القنصلية وصار زوج زنوبيا الشهيرة، وقد كان من أكبر أعوان الرومانيين، وبعد هزيمة واسارة والاريانوس حارب بشجاعة سابور وطرده إلى وراء الفرات. وقد عهد إليه القيصر كاللييانوس قيادة الجيوش الرومانية في بلاد الشام، فأحسن هذه القيادة من سنة ٢٦٢ إلى ٢٦٤ وفتح ثانية مزوبوتا ميا حتى طيسفون وقد كافأه الإمبراطور أولاً بلقب (دوق) ثم بلقب (إمبراطور) والكتابات الأثرية تذكره بعنوان (ومصلح كل الولاية) وهو نفسه، مع اعترافه بسيادة روما.

وفي شمالي هذه العين على بعد ١٢ كل يمتد جبل اليتاس وجبل الطرفا والجبل الأبيض، سمي بذلك لبياض صخوره الكلسية وفيه بضعة كهوف ومدافن أثرية، وفي جنوبها على بعد ١٥ ـ ١٨ كم (لجبل لبتار) يمتد في خطوط مدورة.

وفي الكم ٢٠٨ على بعد ١,٥ كم من الطريق نحو الشمال يرى ثلاث قواعد حجرية تسمى (الكراسي) وهذه مذابح تدمرية، مكرسة لإله غير مسمى، في تاريخ ١١ مارس سنة ١١٤ ميلادية، من قبل أربعة خازني المال في تدمر وهي مصفوفة على شكل مثلث، الاثنان منها في الجنوب مرتفعان نحو ١,٦٥م وذرع قاعدتهما من أسفل ١,١٦× ١,١٨ متراً وواجهتهما الشمالية تحمل كتابات يونانية وتدمرية تحيط به نقوش أريد بها الإشارة إلى الصواعق. ورأي أحد المستشرقين في النقوش البارزة في الجهة الغربية إشارة سنبلة قمح والبارزة في الجهة الشرقية شجرة مع جذورها. وكلا النقشين تحملها يد واحدة. وفي المذبح الشمالي وهو أسفل من غيره وبعضه خراب مازال يظهر أرجل مائة قربان أو مذبح وكتابات تشبه التي تقدم ذكرها.

وهذا المكان المقدس إذا ربما شيد لتخليد ذكرى غرس غابة أو بستان أشجار وللشروع باستغلال البرية المجاورة وذلك في عيد الربيع سنة ١١٤.

في الكم ٢١٠ بئر طراف، وهو حديث، في الكم ٢١١ يهبط الطريق قليلاً ويدور حول الأعضاد الأخيرة من جبل الطمار في الشمال، وجبل الحيانة في الجنوب،

ثم يجتاز مستنقع بئر أبو الفوارس، في الشمال الغربي على بعد ١٢ كم مزار باسم شيخ بني هلال، وثمة عن بعد تلعات متطاولة يقال إن في قممها رجوم أحجار قد سدت الأفق الشرقي، فهذه هي أبراج المدافن.

في الكم ٢١٦ ترى عند منعطف المجاز أبراج المدافن الأولى لمقبرة تدمر الغربية (قبر ماليكو سنة ٧٩ ـ ٨٠م)، وهنا يكون السائر قد دخل في وادي القبور فإذا ما خرج من هذا المضيق الضيق تظهر فوراً خرائب تدمر بكاملها ففي الوسط، الكتلة المذهبة لهيكل الشمس الكبير تبرز من وسط دور القرية القديمة، وفي الشمال قلعة ابن معن الجاثمة على أكمة صخرية مستدقة، وفي الجنوب في سهل مسطح العين الكبريتية وقد وردت عليها كثير من القطعان.

في الكم ٢٣٠ تدمر، يصل المجاز الذي يخترق الخرائب إلى أمام السراي والمباني العسكرية والفنادق الوطنية.

تدمر

طرق الوصول ـ من حمص ١٦٥ كم، من دمشق ٢٣٠، من دير الزور ٢٢٠ كم.

تدمر ـ مدينة قديمة خربة، قد قل سكانها فصارت الآن بسبب عددهم الضئيل قرية بسيطة، وهم أعراب متحضرون التف معظمهم ضمن أسوار هيكل بعل القديم. إلا أن تدمر ما برحت تحوي على أوسع وأجمل مجموعة الخرائب الموجودة في بلاد الشام، وهذه الخرائب تمتد في بقعة عظيمة، علوها ٤٠٥ أمتار، ووسط بادية الشام القفراء. وفي سفح آكام طباشيرية تتجه من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وتنفصل بصورة جد عجيبة عند منتهى تلك الأكمة الصغيرة الجبلية المقطوعة قطعاً جيداً، وهذه الأكمة ذات منحدرات جرداء ومخربة، وفي هذه المنحدرات انتثرت أبراج مدافن، وعلى أعلى قمة في تلك المنحدرات جثمت قلعة عربية.والنجد القليل الارتفاع الذي كانت بنيت المدينة القديمة فوقه يهبط بانحدار خفيف من قاعدة هذه الآكام وينفتح إلى ما لا نهاية له نحو الجنوب ونحو الشرق في أفق البادية الترابية الأطراف.

وقد كانت تدمر تتمتع في القرن الثاني والثالث الميلاديين بأقصى حدود السعادة المادية وذلك بحكم أنها كانت نقطة المرور والتمون للقوافل القادمة من ما بين النهرين والحاملة إلى سواحل البحر المتوسط ثروات بلاد آسيا وبحكم أنها كانت مستودعاً زاخراً بكل أنواع السلع والبضائع، ومركزاً فعالاً للتعامل الذي كانت تجتمع فيه كل أجناس الشرق، وقد مكنت هذه المزايا تدمر أن تجتاز دوراً ذا إنتاج سريع في ساحة الفنون، وقد أسبغت كثرة الزخرف التي ترى فيها على هذا الدور خاصية ممتازة لها مكانتها العظمى في تاريخ الحضارة.

وإذا صعد الزائر إلى قمة الأكمة التي عليها قلعة ابن معن يحيط نظره بكل الخرائب على مدى اتساعها على أن هذه أحسن موقع يرسخ صورة بتلك الخرائب في الذهن هو على قمة جبل (م) الذي في جنوبي وادي القبور فمن هذا الموقع يمكن أن يمتثل الناظر - دونما حاجة لإتعاب الفكر - كيف كانت حالة تدمر القديمة، وكيف كانت تمتد أبنيتها الفخمة وسط هذه الغراس والزروع التي كأنها لطخة خضراء وسط هذا الانفتاح الكثيب لهذه الرمال .

في تدمر فندق أوروبي باسم زنوبيا ، وفنادق أخرى وطنية رديئة - وبعد أن كانت تدمر في معزل جد بعيد ، غزتها السيارات وجلبت لها حركة وحياة حديثتين. وقد هدمت الحكومة دور الأهلين التي كانت حول هيكل الشمس وبنت لهم قرية حديثة خارج السور وأجبرتهم على السكن فيها.

التاريخ: يعود اسم تدمر إلى العهد اليوناني الروماني وقبلاً كانت تدعى تدمر، وهذا الاسم السامي ظل مستعملاً حتى يومنا هذا.

ليس لدينا أي معلومات قطعية عن منشأ تدمر الأصلية ولا عن تاريخها ، نسبة بنائها إلى النبي سليمان بن داود نشأت عن قراءة مغلوطة للعهد القديم (سفر الأيام) ففي الواقع، قد ذكر في كتاب الملوك وكذلك في كتاب المؤرخين اسم تامور في جنوبي حبرون ولم يذكر قط اسم تدمر ومثل ذلك أيضاً لا يمكن الاعتماد على مزاعم المؤرخين البيزنطينيين الذين درجوا خبر نهب تدمر من قبل نبوخذ نصر في زحفه على أورشليم، لفقدان القيود الموثوقة. وفي الحقيقة أنه من المحتمل أن نقبل أنه في زمن عريق في القدم استقرت طوائف من البشر قرب ينابيع هذه الواحة، إلا أنه

حتى الآن حادثة واحدة فقط هي صحيحة، وهو أن وجود تدمر قد شهدت به منذ سنة ١١١٥ ـ ١١١٠ بكتابين لتفلات فلا زار الأول، قيل فهيما أن بلدة تدمر في مملكة العموريين.

كان يلقب نفسه (ملك) وكان يحكم فعلياً كل الشرق الروماني، ماعدا مصر وآسيا الصغرى. وقد مات حيران سنة ٢٦٦ مذبوحاً في اسا (حمص) هو وابنه الأكبر هيران معاً.

وقامت أرملته زنوبيا تحكم البلاد بالنيابة عن ابنها الثاني (وهب اللاة) إلا أن كاالليانوس رفض أن يمنح إلى وهب اللاة الألقاب المعطاة إلى أبيه أذينة إلا أن الملكة زنوبيا لم تخش بتاتاً من الدخول في النزاع مع روما حتى أن جيوشها انتصرت على هر اكليانوس الذي حاول أن يسترد الولايات المفتحة حديثاً. وكان يساعد زنوبيا وزيرها الأول لونجين، فاستطاعت أن تثبت رجحان وسيطرة تدمر، وفي سنة ٢٦٩ حينما كان كلوديوس يدافع هجمات قبائل الغوط، ساقت جيوشها بقيادة زبدا وافتتحت بلاد مصر وآسيا الصغرى. وفي سنة ٢٧٠ وصلت الجيوش التدمرية إلى بيتينا (على ساحل البحر الأسود) وعقد أورليانوس خليفة كاالليانوس معاهدة، أقربها بألقاب وهبة الله. ولكن المنح الجليلة التي أعطاها الإمبراطور المذكور لم تكف مطامع الملكة زنوبيا ففي سنة ٢٧١ تلقب وهبة الله بلقب (أوغست) ونادى باستقلاله وضرب سكة فيها أمه.

وعلى هذا جهز الإمبراطور أورليانوس جيشاً عظيماً لإخضاع تدمر وحينما كان يروبوس يسترد مصر تقدم الإمبراطور بنفسه إلى آسيا الصغرى واستولى على تيان ولحق بقفا الجيوش التدمرية وكسرها أول مرة في مكان قبل أنطاكية.

وفي حمص انكسرت الجيوش التدمرية كسرة كاملة وانهزمت راجعة إلى تدمر. ولحق بها أوليانوس إلى تدمر وحاصر زنوبيا في عاصمتها ولما رأت هذه عجزها اخترقت خطوط المحاصرين وانعزلت نحو الشرق لتطلب النجدة من الفرس، لكن لحقتها خيل أوليانوس على ضفة الفرات واقتادتها أسيرة إلى معسكر أورليانوس وبعد برهة سقطت تدمر (سنة ٢٧٢) وقيد الإمبراطور زنوبيا بسلاسل من الذهب

وسيرها مشياً وراء مركبته حتى روما. وفي روايات موثوقة أنها قضت بقية عمرها في رفاهية وراحة كاملتين في إحدى قصور تيبور.

ولما غادر أورليانوس بلاد الشام لم يترك في تدمر سوى حامية ضعيفة وهو ما أن وصل إلى أوروبا حتى ثار أهل تدمر فذبحوا الوالي والجنود الرومانيين. فأسرع أورليانوس بنفسه وجد السير حتى تدمر وترك جيوشه تنهبها وتدك أسوارها (سنة ٢٧٣) وهكذا قضى قضاءً كاملاً على ازدهار هذه المدينة الغنية وزال عمرانها.

إلا أنه رغم هذا السقوط ظلت تدمر محتفظة بشيء من فعاليتها التجارية وقد أحسن دير كلسيامن إليها بإشادة سور وبناء ثكنة. وفي عهد بوستنيانوس بنى فيها عدة مبانٍ تذكارية منها القناة التي جلبت بماء الشرب إلى الحامية الرومانية، كما أن أسواراً جديرة قد أقيمت على أنها كانت أضيق ساحة من الأسوار السابقة.

استولى خالد بن الوليد على تدمر (في العام ١٢ من الهجرة ٦٣٣ م). وفي سنة ١٢٨هـ/٧٤٥ جاءها مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية وكان أهل تدمر خالفوا عليه فقتلهم وفرق الخيل تدمرهم وهم قتلى ودك كل حصونها. ولعلهم شيدوا غيرها بعد، لأن أبا الفداء يذكر تدمر بأنها بلدة صغيرة محاطة بسور وفيها قلعة وجاءتها في غاية القرن ١١ زلزلة فهدمتها.

وفي القرن ١٢ كان فيها جالية من اليهود وظلت تدمر مجهولة، لا يعرف الأوروبيون عنها شيئاً إلى أواخر القرن ١٧، فقد جاءها في سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٨ تاجران إنكليزيان من حلب واكتشفا أجزاءها وفي القرن ١٨ جاءها سياح افرنسيون وجاسوا خلال خرائبها مثل جيرو وسوته في سنة ١١١٧/١٧٠٥ وتور تشودي كرانجر سنة ١١٤٨/١٧٣٥، وجاء إنكليزيان فودو افكينس فمكثا في تدمر أسبوعين ورسموا مخطط الخرائب ورسموا أهم المباني الفخمة وقد نشرت نتائج تحرياتهم في رسالة كبيرة شرحها بعد عدة علماء وفنانون في ذلك العهد.

وفي القرن التاسع عشر ازداد عدد السائحين الذين كانوا يتهافتون على زيارة تدمر فمن مشاهيرهم ده فوكي وساشو وهوبر وأوتنيك وسوبر نهايم وكثير من أمثالهم. وقد جاء هؤلاء بكثير من المواد المتعلقة بتاريخ تدمر وكتاباتها.

وفي القرن ٢٠ أغنى الألمانيان بوشتاين وويغاند والإفرنسيان جوسن وسافينياك معلوماتنا عن تدمر وأخيراً بعد دخول الانتداب الإفرنسي.

وقد ذكر المتنبي تدمر حين تحصن فيها بنو عامر وكلاب من سيف الدولة ابن حمدان سنة ٣٤٤ هـ بقوله:

وليس بغير تدمر مستغاث	وتدمر كاسمها لهم دمار
أرادوا أن يديروا الرأي فيها	فصبحهم برأي لا يدار

وذكرها المعلم لبنيامين الطليطلي سنة ١١٧٢ وقال إنه كان فيها حينئذ ٤٠٠٠ يهودي وكانت من جملة الصور التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة بقية صور كانت هناك فمر بها أوس بن ثعلبة صاحب قصر أوس فاستحسنها فقال:

فتاتي أهل تدمر خبراني	**ألما تسأما طول القيام**
قيامكما على غير الحشايا	**على جبل أصم من الرخام**
فكم قد مر من عدد الليالي	**لعصركما وعام بعد عام**

جاء موريس ونو وهارالد انلوكد والبركابريل حضروا مخطط اكتشافات لتدمر أكثر انطباقاً على القواعد وتتابعت نشراتهم في هذا البحث.

الكتابات التدمرية: وجدوا في تدمر عدداً عظيماً جداً من الكتابات المحررة بلهجة سامية قريبة جداً من اللغة الآرامية التوراتية وأكثر هذه الكتابات مرفوقة بترجمة يونانية وبأسلوب أدبي نوعاً ما. وهذا ما سهل حل معانيها كثيراً. فالكتابات المذكورة مشتقة من الغباء سامية وتبدو مشابهة قريبة جداً للعبرانية المربعة والتواريخ المقروءة على الكتابات تبع عهد السلوقيين (غرة أكتوبر سنة ٣١٢ ق.م).

والكتابات القبورية كانت أكثر من غيرها عدداً، وهي التي أعانت على معرفة اللهجة التدمرية، والكتابات النجيلية أعانت على وضع تاريخ قسم من المباني الفخمة وأدت إلى الحصول على معلومات موثوقة من تاريخ تدمر وأساليب الحكم والإدارة التي كانت فيها، ثم الكتابات الدينية عرفتنا المعبودات المختلفة التي كان

يقدسها التدمريون كبعل المشابه لمردوك، وآجيول إله القمر وبرهيبول إله الشمس وكان هذا اللات يستجيب الدعاء وآثار كاتيس التي كان لها في هيرا بوليس (منج) معبد فخم واللات معبودة العرب العظمى وبعلسمين سيد السموات وساماس أو الشمس ومالاكبل رسول بعل، صادرانا واصله إيراني، وصاي القوم حافظ القوافل اعرزو وعزيز والهين صالحين للخير والبركة.

وفي متحف الهرميتاج في بتروغراد كتابة تدمرية ذائعة الصيت كانت اكتشفت سنة ١٨٨١/١٢٩٩ وعرفت بأنها تحتوي على (قانون جباية الأموال الأميرية)، فيها كثير من المعلومات الموثوقة عن الحياة التجارية والإدارية في تدمر ففيها معلومات عن نوع الغلال التي تنقلها القوافل وعن حالة القطعان وإدارة المياه والأملاح وإعاشة المدينة وكذلك عن امتيازات أعضاء مجلس الشيوخ ومجلس البلدية. وإلى هذه الكتابة يرجع الفضل في كشف القناع عن ما كانت عليه هذه البقعة التجارية الزاهرة، التي كانت تلتقي فيها القوافل القادمة من كل أنحاء الشرق الأدنى والمجتازة بادية الشام.

زيارة الخرائب: إذا أريد النقل بسهولة بين خرائب تدمر لابد من استصحاب واتباع المخطط المرسوم بجانبه. فإذا جاء السائح من دمشق يدخل تدمر من وادي القبور ( ) بينما المجاز القادم من بغداد يدخلها من شرقي الشمس (A) مخترقاً الحقول المزروعة ثمة.

وحيثما كان المجيء فالسور الخارجي للهيكل والحصن العربي الذي في غربي الهيكل يظهران من كل الجهات ويؤلفان أول نقطة الإشارة وثمة نقطة ثانية تؤلفها القلعة العربية المسماة بقلعة ابن معن الجاثمة فوق قمة الأكمة في الشمال الغربي.

وخرائب المدينة القديمة في تدمر فسيحة الامتداد جداً وأنقاضها منتشرة في أي مكان من هذا الانفساح على أنها قد اجتمعت خاصة بين هيكل بعل في الشرق وسفح الآكام في الغرب. ومن ذلك الحد الشرقي إلى الحد الغربي امتدت (شارع رئيسي) A. B. C قد ظهرت علائمها بوضوح من صفين من الأعمدة المطمورة التي لا يزال قسم منها منتصباً.

وثمة سور محصن بأبراج عديدة، هو من عهد بوستينانوس دون ريب قد دك حتى مستوى الأرض يحدد مساحة طولها كيلو مترين وعرضها كيلو متر وفي هذه المساحة

اكتظت أهم مباني تدمر الأثرية وهذه المساحة تقابل بكل وضوح مختصر المدينة القديمة التي كانت في القرن الثالث والتي ينبغي تحري حدودها الأولية في أماكن أبعد بكثير من سور بوستينانوس، ويظهر أيضاً أن الأسوار المنسوبة إلى زنوبيا تطابق آثار الأكمات المردومة الطويلة المستقيمة الخطوط التي تبرز بروزاً غير تام فوق سطح أرض الصحراء والتي تلحظ في ا لشمال وفي الجنوب في نقاط KK بقايا سور متمادٍ ربما كان من توابع جدران الحصون البارزة ومن القرن الثالث. ومن المحتمل في القرن المذكور أن تكون القمم المجاورة لخرائب تدمر وخاصة الأكمة في الجبل الجنوبي الغربي والقمة المدورة g الحاملة للقلعة العربية (ابن معن) كانت تربطها بسلسلة من الجدران بالسور المحصن ومن الواضح أن العين الأصلية أو عين أفقا (Q في الغرب) كانت داخلة ضمن الحصون.

وفي جانب المدينة نفسها مدافن تبدو منها فوائد أثرية هامة فالقبور المختلفة الأشكال كثيراً، قد توزعت على مجاميع عديدة ووضعت مبتعدة بعداً كبيراً عن بعضها، ونحن ننصح أن يزور السائح بادئ ذي بدء القسم المتوسط من الخرائب. مبتدئا بهيكل بعل فمن سطح هذا الهيكل يمتد النظر على جميع خرائب تدمر ويحيط الناظر بوهلة واحدة بأوضاعها العامة.

هيكل بعل: كان هذا الهيكل مخصصاً إلى بعل، وهو إله من أصل بابلي والهيكل كان يتألف من قسمين: آ ـ من ساحة أمامية واسعة مربعة الشكل ٢ ـ ومن الهيكل الأصلي.

فالباحة الأمامية تذرع ٢٢٥ متراً في كل من جوانبها، وكان يحيط بها جدار ممتد مزين في خارجه قلدوه من الخارج بدعائم مربعة كورتينية وخرقوا في جبهاته الجنوبية والشمالية والشرقية بنوافذ مستطيلة الشكل تحمل أعلاها فرنتونات وعلى كل من هذه الجهات كان يمتد في داخل الساحة رواق كان سقفه مسنوداً بصفين من الأعمدة الكورتينية وفي الجهة الغربية كان الرواق الداخلي الأعلى من السابق لا يملك إلا صحناً أو سوقاً واحدة عريضاً بحيث عرضه لوحده كان يعادل عرض صحن الرواقات الداخلية وعلى هذه الجبهة الغربية، كان يوجد المدخل المؤلف من ثلاثة أبواب مجتمعة تحت الرواق وفوق درج فخم البناء، وكل هذا القسم من البناء

كان قد حور تحويراً شديداً حينما بنى العرب حصنهم الذي حجب الوضع القديم، وقد استعملوا وقتئذ في حصنهم هذا وبصورة مبعثرة جداً مواد البناء القديمة المقلوعة من الهيكل والمباني المجاورة له. ومن أراد الولوج إلى الساحة يدخل من باب هذا الحصن العربي.

وكانت هذه الساحة مكتظة بدور القرية وحينما كان سكان هذه القرية تحت رحمة غزاة البدو الرحل كانوا يجدون وراء الجدران العالية لهذا الهيكل معتصماً قوي الحفظ وظل هؤلاء يسكنون في هذه الدور حتى تقرر سنة ١٩٢٩ هدمها وإخلاء الساحة وإسكان أهل تدمر في الدور التي بنتها الحكومة السورية لهم في خارج القرية نحو الشرق الشمالي.

وحينما يجوز السائح باب الحصن العربي يلحظ فوراً الباب المركزي القديم، المؤلف من عضادتين وعتبة ضخمة منقوشة نقشاً بديعاً وقد كان هذا الباب متهدماً بالكلية وهو الآن في حالة يخشى عليها. ويمكن أن يجد المتحري على بقايا البابين الجانبيين في الدور الحديثة الملتصقة بالحصن.

وإذا ولج إلى داخل الساحة يسلك الشارع العام في القرية إلى أن يصل إلى الهيكل. وكان هذا الهيكل يتألف من ناووس مستطيل الشكل، عرضه أكثر من عمقه يحيط به رواق أمامي ذو أعمدة منفردة أو لم يبق من هذا الهيكل سوى جدران النائوس وأعمدة الجناح الشرقي للرواق المذكور والباب أو المدخل الفخم في الغرب مع عضادتيه المنتصبتين وعتبته وفرونتونه. ويلحظ على هذا المدخل الفخم بوضوح المزايا الخاصة بصناعة الحفر والنقش الزينية ولاسيما تلك الصناعة التي مثلت بها أغصان الكرمة وبأوراقها وعناقيدها، ومدت على شكل زخرفي ذي أغصان مقلوبة.

ووضوح هذه المزايا هنا بارز أكثر مما على باب الحصن العربي وقد تلاشى سقف الناووس وبنوا في قسم من سطحه مسجداً ليس له أي مزية. ويمر الزائر من المسجد ليصل فيما بعد إلى الشمال إلى ساحة سماوية يوجد فيها عناصر الديكتور المعتنى بها أكثر من غيرها وهي كالكوى والأعمدة المخرمة من فوق إلى تحت، دعامات أبواب طافحة بالزخارف، سقوف ذات قسائم مزخرفة وقبيبات، يظهر فيها

إشارات الفلك أو منطقة البروج، لكن هذه الإشارات مشبوهة جداً ويا للأسف وفي جدران النائوس أحدثت مجارٍ عميقة على يمين الوصلات (اللزاقات) العمودية وذلك بقصد البلوغ إلى الرصاص المستعمل لأجل تمكين البناء. ويتسلق الزائر الدرج الذي في الجهة الشمالية الغربية الصاعد إلى ذروات الجدران. وهنا يتمكن من الإحاطة بادئ بدء من أوضاع الهيكل كله، فيرى أن الرواقات التي كانت تستند على الأعمدة قد رسمت ونصبت بأعمدة كورنثية نشأت تظهر للرائي فوق أسطحة الدور. وفي النظرة الأولى في الغرب تنفصل ذروة الباب الفخم الكبير للرواق الأمامي الذي في مقدم البناء مع فرونتونه المثلثي الشكل وفي ا لشرق أعمدة الرواق المذكور الباقية على انتصابها، تظهر فيها أبدانها المخرمة بخطوط من فوق إلى تحت، وقد كانت هذه الأعمدة تحمل تيجاناً كورنثية معدنية ليس لها الآن أي أثر ولا ريب أن هذه التيجان كانت مؤلفة من تطبيق البرونز المندمج على أحجار مزخرفة لم يبق أي أثر من ديكورها هذا.

أما الساحة نفسها فقد كانت مبلطة ومن المحتمل جداً أنه كان فيها مبانٍ فخمة عديدة (التقطت كثير من الكتابات من سور الهيكل، إلا أن واحدة منها فقط كانت تعود لبنائه. وقد ذكر فيها أن سماوات كانت رفعت ونصبت على شرف اثنين من وجهاء تدمر اللذين كانا أهديا الهيكل ستة أبواب من البرونز وضعا في رواقه الكبير. ولا ريب في أن الكتابة تعنى تلك المصاريع الستة التي كانت تغلق الأبواب الثلاثة الخارجية في الغرب وتاريخ تقدمة هذه الهدايا في مارس سنة ١٧٥، لكن هذا التاريخ متأخر كثيراً عن بناء الهيكل لأن كتابة شرقية أخرى تذكر تاريخ وضعها أنه في سنة ١٧، ومما لا ريب فيه أن هذا الهيكل شيد خلال السنين الأولى من عهد النصرانية، إلا أنه كان يتحول أو كان على الأقل يزخرف ويجمل مراراً بفضل الهدايا والتقادم، كما تدل عليه جملة وافرة من الكتابات الممتدة تواريخها من سنة ١٧ إلى سنة ١٦٧، وتدل عليه التقادم من الأنصاب المرفوعة لذكرى الأغنياء التدمريين الذين وضعوا أسس الأضاحي، أو قدموا إلى الهيكل نذوراً ثمينة).

صف الأعمدة أو الشارع الأعظم: وإذا خرج الزائر من الهيكل من بابه الغربي، يتوجه نحو القوس الكبير، متتبعاً صف الأعمدة الذي يمتد على طول ١١٠٠ متر ويؤلف الشارع الأعظم الأساسي للمدينة وصف الأعمدة المذكور يتألف من ثلاثة أقسام تنفصل عن بعضها حسب زوايا كثيرة الإنفراج، فالأول يبتدئ في جوار هيكل بعل ويمتد حتى القوس الكبير (رقم ٩) والثاني يذهب من القوس الكبير حتى مكان الأعمدة الأربعة (٢٢)، والثالث من الأعمدة المربعة حتى قرب هيكل المدافن (٣٠).

المسير من هيكل بعل إلى القوس الكبير: من المحتمل أن صف الأعمدة الكبير كان مبنياً في كل امتداده على نسق واحد إلا أنه في القسم الأول من هذا المسير يرى الزائر أنه لم يبق من الصف المذكور سوى أسس الصف الغربي (٨ ـ ٩) ومعظمها قد سترته الرمال. وبعد مئة متر من القوس الكبير كان ينفتح بَهْو مكالمة فسيح ذو كراسي (٧)، وعلى امتداد أبدان الأعمدة بروز خفيف كان يقوم عليه، فوق أربع قواعد مربعة قوية لا تزال ماثلة في مكانها، أربعة أعمدة قطرها ١,٣٠ متراً، وعلوها ١٢,٧٠ متراً وهذه الأعمدة لا تزال تيجانها وقطع أبدانها الأسطوانية مصروعة على الأرض، كما صرعت أيضاً أقسام الإنتابلجان المختلفة. وهنا يلحظ خاصة أفاريز مزينة (دكوره) على وجهاتها الأربع أوراق شجر السنديان وأثماره (بلوطة) ومن المسافات الثلاث التي ما بين الدعائم ـ المؤلفة على النحو المذكور ـ الوسطية منها هي أعرض من التاليتين، كانت تذرع ٨ أمتار طولاً أي بقدر قطر بهو المكالمة الذي تقدم ذكره والذي توجد أسسه تحت الرمال.

ويحتوي القوس الكبير على فجوة مركزية انحناؤها نصف دائرة، على جانبيهما قوسان أصغر منها فوقهما كوات ونقاط امتداده قد شيدت تبعاً حسب تصميم مثلثي الشكل، وذلك نتيجة تغيير استقامة الشارع ومداميكه الداخلية قد نحتت إلى عمق وافر، وقمته قد خرب معظمها، لكن هو في مجموعة ذو نسب متناسقة جداً وله خيال في السماء مرئي وارتسامات جديرة بالإعجاب، وحبذا لو يبنون ثانية فوق القوس المركزي فرونتوناً مثلثي الشكل لا تزال بعض قطعه على الأرض.

وبناء هذا القوس يعود فيما يظهر إلى القرن الثاني الميلادي. وفيه براعة معتنى بها جداً ونقوشه البنائية تظهر اختلافات جمة تتباين كثيراً في مواضيع قد اتخذ منها أطرزة قد ألفت تأليفاً غاية في الإتقان وأخص ما يلفت النظر منها تلك التي تزين الدعائم والقصور والأقسام المنحنية.

المسير من القوس الكبير إلى الأعمدة الأربعة: في هذه المسافة كما في التي تليها لا يزال عدد كبير من الأعمدة منتصباً، أكثرها ما زال يحمل كل الآنتاجمان ويلحظ هنا بسهولة كيفية امتداد وتنظيم هذا الشارع وبموازاة كل من خطوط الأعمدة يظهر في الشمال وفي الجنوب أسس جدار ممتد وعلى هذا فإن صف الأعمدة الكبير في تدمر كان يحتوي في وسطه على طريق معبدة مكشوفة عرضها ١١ متراً بين الأعمدة ويحتوي في جانبيه على ممرين عرضهما ستة أمتار مغطيان بسقوف. هذه النقطة الأخيرة لا تحتمل الريب. لأن التجاويف التي تدخل فيها الجسور مازالت ماثلة للعيان فوق عمائم الأعمدة الأنتابلمانات الباقية في مكانها وقد كانت الحوانيت والمباني العامة مشيدة تحت هذا الممر المسقوف.

والأعمدة من الطراز الكورنثي قطرها ٩٥ سنتمتراً وعلوها مع القاعدة والتاج ٩,٥ متر وعلى أبدان كل منها وفي الوسط يبرز قونسول ذو زخارف بارزة، وهو مخصص إلى وضع نصب كما يدل على ذلك كثير من الكتابات النذرية التي تحتها وهذه الأنصاب كانت تقام على شرف الشخصيات العالمية والقضاة وحتى أبناء العامة الذين كانوا يبنون على نفقتهم بعض أقسام ما بين أعمدة الرواقات الطاقات، وعلى بعد مئة من القوس الكبير كان يقف أربعة أعمدة من حجر الغرانيت ذات أبدان مؤلفة من صخر واحد (رقم ١١) ولا يزال ثلاثة منها ممددة على الأرض. علو كل منها يختلف عن الآخر من نصف متر ولو أن أقطار قواعدها متماثلة ١,١٠ متراً ولكن تيجانها الكورنثية تمتد على أفقية واحدة وقد عوضوا اختلاف مستوى قواعدها تصحيحات عملت فوق أنسب الزخارف البارزة للقواعد.

مما لا ريب فيه أن هذه الأعمدة الغرانيتية قد استعملت مراراً، وإذ كان حجر الغرانيت الصالح للأعمدة لا وجود له في بلاد الشام أصلاً، ينبغي أن نقبل بأنها قد

جلبت من مكان بعيد جداً، ومن المحتمل جداً أن يكون من مصر مهما كان هذا الظن بعيد التصديق، باعتبار أن ثقل كل منها لا يقل عن عشرين طناً.

وكانت هذه الأعمدة الأربعة تؤلف رواقاً، تغطي ممراً إلى بناء فخم ساحته المتوسطة كانت محاطة برواق أمامي كورنثي ذو أعمدة منفردة (١٢) وبعض هذا الرواق منتصب ولكن ليس في الإمكان الآن أن يثبت ويعين أوضاع هذا البناء ولا الغاية التي كان مبنياً لأجلها.

وإذا عاد الزائر إلى الشارع العام واستمر سائراً فيه نحو الغرب، يمشي في الجنوب بمحاذاة صف الأعمدة الخاص بالمسرح (١٣) وسيأتي ذكره ثم يستمر في سيره فيرى في الشمال مجموعة أعمدة التي وإن كانت ممتدة في استقامة الرواق الجاري، لكنها كانت تعود إلى تراتيب مختلفة. واثنان من أعمدة هذه المجموعة ذات أقطار خارقة للعادة وعمود آخر منها (٢٠) يحمل عموداً أصغر منه يدل على أن بناء ذا طابقين كان مشيداً في هذا المكان، وفي هذا الموقع كما في غيره أيضاً من الضروري أن تجري حفريات عميقة حولية لتثبيت المخطط الصحيح للمدينة القديمة.

وثمة كتابتان ذات سطرين، هما تقدمات لأنصاب يوليوس اولئوس زابد يلاد والملك أذينة، تدلان على أن هذا القسم من صف الأعمدة انتهى في عام ٢٤٢.

أما التترايبل البناء ذو الأعمدة الأربعة (٢٢) فهو لم يبقَ منه إلا أربع دعائم ضخمة لا تزال واقفة وإلا بعض أقسام المداميك العليا ـ وهذه فيما يظهر قد اندكت بتأثير زلزلة هائلة فاستلقت على الأرض.

إذا فحص الزائر بإمعان هذه الأنقاض يستنتج أن التترايبل قد نال ترميماً فهو كان يتألف من أربعة بيلونات وجهات ضخمة مربعة القطع، مؤلف كل منها من أربعة أعمدة كورنثية من الغرانيت. موضوعة على زوايا القواعد المنفردة وكانت هذه الأعمدة تحمل آنتابلجان (عمامة) مزينة زينة غنية بالأغصان المقلوبة والحلزونية وفي وسط كل من القواعد المنفردة للأساس كان يوضع تمثال وتوجد آثار أقدام هذه التماثيل على ثلاثة من المساند الصغيرة الأقل تشويهاً وكسراً.

وثمة أربعة بيلونات كانت قائمة على زوايا سطح مرتفع مربع الشكل ذرعه في كل جهة ١٨ متراً، وكان لها مداميك عالية منتظمة، قد طرق الآن بالكلية تحت الرمال (الساعة ١٢ في ٣٨/١٢/٢٢ الرقمية).

المسير من التترابيل إلى هيكل المدافن: ليس في هذه المسافة شيئاً ممتازاً سوى بهو المكالمة (٢٧) في جنوبه والأعمدة المذكورة وقبل الاستمرار في الزيارات ينبغي التجوال بادىء بدء في حي المسرح.

من الهيكل المحاط بأعمدة منفردة (١٠) لم يبق سوى المداميك السفلى ومما لاريب فيه أنه كان محاطاً بـ (٩) وثمة عمودان مازالا منتصبان في الجنوب كانا يخصان المدخلة الفخمة، والمسرح (١٣) كان ذا اتساع عظيم ومكان الأوركسترا والقبو قد انطمر بالكلية تحت الرمال، ولكن مكان التمثيل حفظ أقساماً هامة من أجزائه العليا وثمة سكة عريضة كانت تحيط بالمسرح.

كما كان المسرح محاطاً أيضاً بأروقة بعضها مدورة (١٤) كان فيها حوانيت باعة، وبعضها مستقيمة الخطوط (١٩) لا يستطاع الآن في حالتها الحاضرة معرفة أوضاعها وكان ثمة شارع محاط بأروقة (١٥) ينتهي بقوس كبير (١٧)، ثم رواق آخر (١٩) ذو بناء متقن جداً كان يحصن فيما يظهر الباحة المتوسطة لبناء عمومي أما الساحة الفسيحة (١٨) المحاطة بجدار ممتد، كان يحمل رواقاً داخلياً، وقد كانت هذه الساحة فيما يظهر متصلة بالساحة البلدية العامة التي يظهر منها في الشرق ملحق ويوجد في أنقاض الجدار (١٦) مثالاً ممتازاً من أفعال الزلازل الأرضية.

وإذا عدنا نحو التترابيل، يتأكد أنه كان مبنياً على مصلبة وأن شوارع متعامدة، كانت تتفرع في هذه النقطة على صف الأعمدة المتوسط. وهكذا فإن صفاً من الأعمدة المنتصبة حتى الآن (٢٣) كان يخص فيما يظهر جادة مغطاة تنتهي بالتترابيل وصف آخر لا يكاد يلحظ إلا من رسومه كان يمتد فيما يظهر أيضاً نحو الشمال (٢٥).

الحي الجنوبي الغربي ـ إذا طاف الزائر بهذا الحي قادماً من المسرح، يتحقق لديه أنه ليس ثمة في تلك المساحات الشاسعة فوق الأرض، سوى القليل النادر من الأنقاض الأثرية وبكل صعوبة تتراءى للممعن هنا وهناك آثار صفحة أعمدة

متصالبة (٦٢) أو رواق أمامي لبناء (٦١) تبرز من بين الرمال ومع هذا يمكن الاستدلال بأن كل هذه البقعة كانت مقسمة إلى جزيرات، ذوي مساحات مختلفة بواسطة حزمة من الدروب المتوازية كل الموازاة وعمودية على استقامة الشارع الأعظم.

وفي الغرب الأقصى من ساحة الخرائب يمتد حي ممتاز، له خصائص لذاته. فهو منفصل عن الحي المتقدم ذكره بشكل ساحة (٣٣) ذرعها ٢١٠ أمتار في ٢٠ متراً، يحدها من كل جهة برواق، وكانت تنتهي في الجنوب على ما يظهر بنوع من الساحات أو نقطة مدورة، كما تدل على ذلك الأعمدة المصطفة على شكل قوس دائري وهي لا تزال منتصبة (٣٤ ـ ٣٥) ويظهر أيضاً أن هذه الأروقة متقدمة في تاريخ بنائها عن أروقة صف الأعمدة الكبير فالكتابات النذرية التي عليها تحوي تواريخ سنة ١١٠ و ١٧٠م.

وبعد الساحة المذكورة (٣٣) يوجد غرفة واسعة ذات الأضلاع الكثيرة غير المنتظمة وهي محاطة بجدار دفاع محصن بأبراج وثمة قد تراكمت أنقاض أثرية تراكماً مختلطاً كل الاختلاط ويوجد بين هذه الأنقاض موقع قوس كبير بعض قطعه المنحنية قد انطرحت على الأرض (٣٧) وكان هذا القوس ينفتح في سور ممتد. وكان هذا السور يحيط ببناء غريب الشكل جداً (٣٦) ينسب بناؤه إلى ديوقلسيانوس، عرف ذلك من كتابة لاتينية عثر عليها في هذا المكان. وهنا يمكن تمييز الوضع العام بسهولة فقد كان في ذروة درج عريض مختص بالمآثر قد شيد رواق كورنثي فوق سطح مثلثي الشكل وقد كان هذا الرواق يتفق مع بهو متوسط ينتهي نحو الغرب بنوع من المنايا نصف دائرية.

وفي جنوبي هذا البناء (٦٣) كان يخزن أحد نبعي الماء في تدمر، المسمى بعين السراي (سيأتي ذكرها). ولأجل هذا الخزن كانوا حفروا بئراً عمقه ثمانية أمتار يتصل بسرداب ينفتح في بهو واسع ولاحظ أحد الفرنسيين المسيو كارل (في كتابة الإدارة الزراعية والصناعية للماء في بلاد الشام، باريز ١٩٢٣ ص ٥٨) في ذلك السرداب فجوات محفورة في الجدران وآثار سطح مائل للاتصال، وشاهد أيضاً آثار مكان لصيد السمك.

حي الشمال الغربي: إن الساحة (٣٣) التي تقدم ذكرها تتصل في الشمال مع صف الأعمدة الكبير (٢٩) وفي محور الشارع كان قائماً هيكل مدفني (٣٠) لا تزال ستة أعمدة لرواقه الأمامي ذوي فرونتونات مثلثية منتصبة وكذلك إحدى الدعائم المربعة حول الباب والمزخرفة بالأوراق والورود وثمة بناء مجاور (٣٠) كان يظهر أنه كان مخصصاً لنفس الغاية (٣١) إلا أن كل ذلك قد اندكت أنقاضه وكسوره بعضها فوق بعض وأصبحت بحاجة للرفع والتفريق كيما يمكن معرفة وضع المراد من تصميم البناء.

وجدار يوستيا نوس القريب إلى هنا، يستند على مجموعة أبراج مدافن (٧١ - ٧٦) يظهر أن بناءها متقدم التاريخ على بناء السور فأحد هذه الأبراج (٧٥) مازال محتفظاً ببقايا هامة من زخارفه الداخلية، لاسيما صورتين مجنحتين من النقش البارز.

وإذا تقدم الزائر نحو الشرق يطوف في حي تكاد تكون في مستوى الأرض تماماً، لولا أنه يمكن تمييز رسوم الشوارع القديمة ويلحظ بالتتابع ست جزائر عرضها ٢٦,٥ متر منفصل بعضها عن بعض بشوارع عرضها ٤,٣٠ متر ثم يلحظ جزيرة طولها ٥٣ متراً تتبعها جزيرتان أخريان وكذلك عرضها ٢٧,٥ متراً وأخيراً جزيرتان عرضهما ٥٣ متراً، وإذا ابتعد نحو الشرق يتعذر عليه جداً أن يعثر على الخطوط الكبيرة لتصميم المدينة.

وعلى كل حال، لا ريب في أن الذين خططوا هذه البقعة قد قبلوا رسم الشوارع على أساليب معينة تشبه ما عمل في المدن الكبيرة في آسيا الصغرى كيريان (قرب ازيد) وافسس (كذا) التي كان فيها معبد ديانا وسيندا وغيرها، حتى أن الإسكندرية كانت أوضاعها نحو ذلك. وكذلك الحال في فيلادلفيا (عمان) وجرانا (جرش) وأفاميا (قلعة المضيق) ودورا أورويس (الصالحية على الفرات)..

وكانوا قد شيدوا في هذا الحي دوراً خاصة لتصاميمها قرابة شديدة مع دور بلاد اليونان. وكل من مجموعة الأعمدة التي لا تزال منتصبة في هذه البقعة كان خاصاً بالرواق الأمامي المحيط بالباحة المتوسطة لاحد الدور (٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤٥) وتحت هذا الرواق الأمامي كانت تنفتح الغرف المختلفة للمسكن، وهنا أمور جديرة

بالملاحظة رواق مضاعف على إحدى وجهات باحة (٣٩) أو رواق أمامي ذو أعمدة يشبه ما في جزيرة رودس (٤٥)، وأحد أجنحة هذا الرواق أعلى من الأجنحة الثلاثة الباقية.

ولنذكر أيضاً موقع كنيس يهودي (٤١) عرف من الكتابات العبرية التي على عتبة بابه ظلت وحدها في المكان، وهناك كنيستان نصرانيتان (٤٢ و ٤٣) بنيتا حسب تصميم بازيلياس ذي ثلاث حنايا، وفي الكنيسة الكبرى (٤٢) كابللا أو ملحق كان يحمي نواويس بضعة شخصيات مقدسة.

هيكل بعلسمين (٤٨) قام على بعد ٢٥٠ في شمال التترابيل وهو لا يزال على بعض سلامته، وقد شيد على شرف بعل سمين (رب السموات)، ولا ريب أنه ناب عن هيكل أقدم منه كان مكرساً للرب المذكور. وهيئته الحاضرة تعود على ما يظهر من إحدى الكتابات المنقوشة عليه إلى تاريخ ١٣٠ ب. م ومدخل هذا الهيكل مزين بأعمدة، ومن هذا الشكل يتألف نائوس مستطيل الشكل تقدمه في الجهة الشرقية رواق أمامي ذو ستة أعمدة أربعة منها في الجبهة، وربما كان هذا الهيكل محاطاً بسور مقدس.

الحي الشمالي الشرقي: إن البقعة الشمالية الشرقية تخفي تحت رمالها عدداً عظيماً من كسور المباني القديمة، وهذه الكسور ذات أشكال جد مختلفة وذات نفع ضئيل. ويصعب جداً تعيين التاريخ والغاية من أحد هذه المباني، وهو مستطيل الشكل وواسع نوعاً ما (٥٢) ولعله مستودع ذخائر أو ثكنة جنود أقيمت في جوار سوريو ستينانوس وثمة عمود نذري سامي الارتفاع لا يزال منتصباً (٥٣) يحمل تاريخ سنة ١٣٩ ب.م وثمة أيضاً بقايا الدور ذات الأرقام ٤٩، ٥١، ٥٦، ٥٨ وبقايا الأروقة ٥٤ التي كانت تحادد المستودعات أو الحوانيت ٥٥ تظهر هنا وهناك، والأرض في هذه البقعة قد حفرت وبعثرت إلى عمق وافر في عدة أماكن بقصد إنشاء بساتين، وحيثما تبدأ الزراعة فالأنقاض الأثرية تصبح نادرة جداً.

عين السريا (٥٠) هي العين ذات الطعم الكبيريتي الخفيف التي تسيل ينهل منها سكان تدمر وقد اتصلت بنقطة الخزق (٦٣) الكائنة في جنوبي بناية ديوكلسيان وقد قدمنا البحث عنها، واتصالها هذا من طريق قناة تحت الأرض ذات فتحات أو

كواكب مكشوفة وليس لهذه العين أي نفع، إلا أنه يرى فيها وخاصة قرب الغروب زحوف البدويات والقرويات الملتحفات بأزر ذات ألوان متنوعة، يأتين لإملاء جرارهن الخزفية من العين.

سور يوستنيانوس - إن ما يمكن ملاحظته في البقية الباقية من هذا السور المحصن (٦٦ - ٧٦ - ٨٠ - ٨٣) هي أن تاريخه يتفق مع القرن السادس المنسوب إليه، فسجف الخط الدفاعي في هذا السور يتألف من جدران مستقيمة الخطوط تتلاقى بزوايا منفرجة. وكانت كل زاوية محصنة من جهتيها بأبراج خاصة نصف مدورة، كان يقوم ما بينها أيضاً أبراج قائمة الزوايا، وثمة أبراج نصف مدورة كانت أيضاً تحمي الأبواب في الشرق والشمال والجنوب (٦٦، ٦٧، ٦٨، ٨٢) وقد استعملوا في بناء هذه الحصون عدداً عظيماً من القطع المنقوشة أو المزخرفة المنقولة من أماكن أخرى متهدمة، وفي الغرب يستند سجف الخط الدفاعي على أبراج مدافن (٧٠ - ٧٦) تاريخها متقدم.

الحي الجنوبي - وكلما ابتعد الزائر عن سور يوستينانوس وتقدم نحو الجنوب يتناقص عدد الأنقاض الأثرية، إلا أن تدمر القديمة كانت تمتد أيضاً في هذه البقعة، كما يدل على ذلك رسوم بعض المباني الاكثر بروزاً فيها (٨٤، ٨٥، ٨٦) وكان ثمة عمود نزري سامي الارتفاع، قد انطرحت على الرمل قطع من بدنه وانطرح تاجه، وكان يحمل كتابة تقدمة مجلس الشيوخ تاريخها ١٣٩.

وحول العين الكبرى أو عين أفقا وقد تقدم ذكرها يمتد على الأرض بعض قطع من أبدان أعمدة وبعض قطع مزخرفة وربما كان في تلك العهود عدة مبانٍ قد شيدت في جوار هذه العين.

وهذه العين تستحق الزيارة، لأن كمية مياهها الدافقة غزيرة تتدفق بانتظام (١٥٠ ليتراً في الثانية) وينفجر الماء من الأرض من قعر كهف طوله أكثر من مئة متر، وينبعث من هذه المياه رائحة خفيفة لغاز الهيدروجين المكبرت وحين خروجها من الكهف تدور رحى ثم تسيل بتعرج بين الحقول إلى أن تغور بعدها في الرمال.

المقابر - إن القبور التدمرية ذات أشكال عدة مختلفة فمنها الهياكل القبورية ٢ - القبور ذات الباحات المتوسطة ٣ - الأبراج القبورية ٤ - المغاور القبورية. وهذه المقابر

تتوزع على أربعة مجامع أصلية وأهمها تمتد على طول طريق دمشق وتحتوي على هياكل وخاصة على أبراج قبورية ومجموعة ثانية تحتوي على أبراج ومغاور قبورية لاسيما تلك التي حفرها المسيو أنكولد سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥، ومجموعة T تحتوي فيما عدا ذلك على بيت مقبري. والمقبرة الشمالية الغربية V - U تتألف من هياكل وأبراج قبورية أكثرها سلامة هي التي في داخل سور يوستينانوس وسنستعرض هذه الأنواع المختلفة التي فيها فائدة.

المقبرة T إن البيت المقبري يحتوي على باحة متوسطة مربعة محاطة برواق أمامي له اثنا عشر عموداً منفرداً لا تزال قواعدها وقطع البدن السفلية ماثلة في الأرض، وثمة ستة مبانٍ ضخمة موزعة حول البيت تحتوي في الجملة على ٣٨ تجويفاً كانت مخصصة لدفن الموتى.

والأضرحة (النواويس) المتجمعة على أرض المدخل حصلت من المكان المقبري المجاور، الذي نقبه الكابتن دوفو والناووس الذي في الكوة (الصدرانية) هو الوحيد الذي كان عائداً في بادئ الأمر إلى الضريح، وباب المدخل كان مؤلفاً من مصراعين حجريين مزينين في أعلاهما زخارف، وهما لا يزالا سالمين في معظمهما، والباب كان ينفتح تحت مكان مغطى محمول على عمودين ويظهر أنهم استعملوا لبناء هذا القبر الرواق الأمامي لأحد البيوت.

المقبرة: قبر الأخوة الثلاثة (٨) يوصل إليه من باب مستطيل الشكل كان مغلقاً، بمصراع من الحجر المزخرف (في الداخل يحتوي القبر على بهو متوسط. وعلى جانبيه بهوان جانبيان وشكل المجموع يحد مساحة حرة شكلها كحرف عليها عقد دائري، وفي امتداد الحواجز ستة صفوف من التجاويف بعضها فوق بعض كان يوضع فيها أجساد الموتى. والعقود مبنية بالآجر ومستورة بطلاء من الكلس وكذلك الحواجز والبهو الجانبي الذي على يمين الداخل يحتوي على بقايا ثلاثة نواويس جميلة قد شوهت كثيراً.

وأكبر فائدة لهذا القبر هي في زينته المؤلفة من رسوم ملونة قريبة لبهو المكالمة الممتد في منتهى البهو المتوسط تحتوي على رسوم كثيرة مختلفة الأوضاع. وفي داخل بهو المكالمة المذكور قامت دعامتان عريضتان. وفي وجهة كل منهما قد رسمت

صورة امرأة واقفة. وفي الوجهتين الجانبيتين امتدت زخارف على شكل أغصان وأوراق، ومن بينها ينفصل أشكال غريبة ويميز منها سيف، ومسامير وطيور وحية وعقرب، وهذه للحراسة ضد إصابة العين.

والحقول العمودية التي تفصل التجاويف هي أيضاً مطلية والأشكال الغريبة المذكورة قد رسمت في كل منها وفي قسمها الأسفل، ساحة صيد أو طيور وفي قسمها الأعلى حلقة مستطيلة الشكل قد نقش فيها شكل معين، وأخيراً صورة مجنحة واقفة على كرة وسواعدها المرفوعة تحمل مداليوناً مدوراً وفي المداليونات قد رسمت صور مختلفة للرجال والنساء.

والعقد مكورة بشكل سداسي الأضلاع أزرق وبزخارف على شكل الورود المذهبة.

الفصل السادس

المشاهد والآثار "الجزيرة السورية"

إن مجموع وشكل هذه الخرائب الأثرية كمثلث متطاول قاعدته موازية نهر الفرات، والأرض تصعد بسرعة من هذه الناحية حتى ذروة المثلث. وهذه الخرائب مبنية فوق رابية مرتفعة، يعلوها برج كبير يشرف على ضفة الفرات التي تمت طرق الوصول إليه من البادية ومن جهة النهر، كان لهذه المدينة بابان على الأقل إن لم نقل ثلاثة، بينما لم يبق لها الآن سوى واحد على بعد قليل من النهر في جانبيه الشمالي والجنوبي. والأسوار مؤلفة من مجموعة أبراج مستطيلة الشكل متصلة بجوف خط دفاعي مستقيمة. أما البرج الكبير فخراب بالمرة، لكن يشرف منه على منظر جميل نحو مجموع المدينة والوادي، وقد كان رمم في عهد العرب دون شك، وذلك بعد أن دكه كخير والأول سنة (٥٤٠) وكخير والثاني (٦١٠) اللذين جاءا واستوليا على حلبية. وقد رمم العرب أيضاً سجون خط الدفاع الجنوبية، لأن أقسامها رممت ثانية بالآجر المشوي المرتبط بأحجار من البازلت. بينما كانت المباني القديمة كلها بالأحجار البيض الجميلة.

وفيما عدا البابين الجميلين الجنوبي والشمالي، يلمح البهو الكبير أو قصر الحاكم. المبني في الجهة الشمالية للأسوار والمحتوي على ثلاث طبقات، عقودها ذات الزوايا البارزة من الآجر وهي لا تزال سالمة في بعضها، وتركب على أقواس حجرية. وفي وسط السور أنقاض بازيليكا وبضعة مبانٍ أخرى قد دكت بالمرة.

بيد أنه يظهر أن حلبية هذه لم تكن سوى معسكر دفاعي، لأنه لا يرى أي أثر لدور أو أزقة في وسط سورها، وفي خارجها، وعلى منحدر الهضبة الصحراوية الهابطة نحو الفرات في مجراه الأعلى، خرائب أبراج مقبرية أخرى.

هذا ويمكن الرجوع إلى نقطة السفر إذ يحاذي ضفة الفرات مسافة ١,٣٠٠ كم إلى كوع الفرات، الذي تشرف عيه خرائب زلابية (اسمها القديم pemobua وهذه تظهر أطلالها فوق على الأكمة الناتئة فوق الهضبة التي على يسار الفرات.

يسميها العرب قصر البنات. وهي من عهد بوتيايوس الأول (٥٢٧ ـ ٥٤٥)، وفي روايات العرب أن أحد الملوك سجن فيها أربعين بنتاً، وهم يعنون بذلك أنها كانت ديراً للراهبات وأنه كان ثمة سرداب تحت قاع الفرات يصل الزلابية بحلبية.

وسور الزلابية يحتوي على ثمانية أبراج لاتزال سالمة، وشكل هذا السور مستطيل وعلى جوانبه أبراج مربعة، وبابه الأصلي ذو عقد منحنٍ ينفتح نحو الشرق، والجهة الغربية من هذا الحصن قد دكتها الزلازل الهائلة وفيضانات الفرات، أما طراز البناء فمماثل لحلبية تماماً.

وليس في هذا الموقع معبر على الفرات. لذلك ينبغي الحضور إلى زلابية من جهة دير الزور ٥٨ كم خلال ساعتين، والطريق تمر في سهل ثم تعلو هضبة متموجة فيها واديان عميقان لكنهما مما يمكن اجتيازهما في الفصول الجافة.

عودة ـ بعد أن يجوز لحب دير الزور مكاناً صخرياً (وفيه منظر جميل) يجتاز جسراً صغيراً فوق سيل في الكم ٢٩٥ مخفر درك مبني في جنوبي غربي اللحب، في سفح منحدر صخري منقب. وعلى بعد قريب خان في الجنوب، وجسر، ثم خان آخر في الشمال.

ثم يصعد اللحب الهضبة ويتعرج كثيراً إلى أن يصل إلى مرتفع الطريف.

في الكم ٣٠٣ الطريف. ـ هنا يمكن النزول من السيارة والوصول إلى طرف المنحدر الصخري حيث يشرف على منظر نحو الفرات غاية في الروعة. ـ ثم يستمر اللحب في تضرسه، ثم يدخل في سهل حتى سفح تابوس.

في الكم ٣١٦ تابوس، فيه أطلال حصن مهم، لكنه خراب بالمرة، وهو فوق الوادي بـ ٩٠ متراً. ثم يجري اللحب في أرض مضرسة، يقطعها مسايل عديدة، أهمها قد بني فوقه (الكم ٣٢٨) جسر صغير، وهو في أسفل عقبة كثيرة التعرج. ويسمى هذا المسيل، وادي الموت أو وادي الكوماندايات.

وقتل هنا القائدان فانريد و يزوكي وسائقهما اللذين اغتالتهم عصابة لصوص ٢٥ أيار ١٩٢٥.

في الكم ٣٢٩ حوى (يذكر أن بعد الرقة (١٢٠ كم)). ومن ثم طريق جيدة فوق أرض متموجة حتى حدود دير الزور، التي فيها ثكنة دلابلانش ومقبرة نصرانية في الشمال الشرقي.

٣٤٤ حوى كبير للكتيبة الأجنبية الإفرنسية، في الجنوب الغربي من اللحب ثم حوى كبير آخر فيه مسافات والاتجاهات إلى أماكن مختلفة. ثم مفرق لحب دير الزور. وفي قربه ساحة السيارات العسكرية والمستشفى العسكري والمدرسة والكنيسة الكاثوليكية ثم دائرة البريد. ثم أحياء المدينة.

دير الزور ـ تقع على علو ١٩٥ متراً، وهي المدينة المهمة الوحيدة في وادي الفرات سكانها ٢٢٠٠٠ أكثرهم مسلمون وثمة أقليات نصرانية صغيرة، وأرمنية ممن هاجروا من تركيا. وهي قاعدة محافظة دير الزور. وموقع عسكري ذو شأن، ومركز طيران، وقوة درك، وبرق لاسلكي وفيها مستشفيات عسكرية وأهلية، وفيها نحو ١٢ مسجداً وكنائس سريانية وكلدانية وأرمنية كاثوليكية وأرمنية أرثوذكسية ومعبد بروتستانتي وفيها ثلاثة فنادق وسط في إتقانها، ومدارس رسمية.

التاريخ. ـ هي أوزارا القديمة Aozara أو آزورا Aozaura ولعل اسمها الحالي (دير الزور) محرف عن زور أو زاور، والزور بمعنى غابات الطرفاء أو الغَرَب الصغيرة التي تنمو حول الفرات أو وسط جزائره. وأطلال المدينة القديمة كانت في الجنوب الشرقي للمدينة الحالية.

وقد جعلتها العثمانية مركز لواء في سنة ١٨٦٧/١٢٨٤، واستولى عليها الإنكليز في سنة ١٩٢٢/١٣٣٧ ثم الجند الشريفي ثم الجند الإفرنسي، إلى أن تم تنظيمها وإقراراً منها سنة ١٩٢١/١٣٤٠ و ١٩٢٢/١٣٤١.

إن سوق هذه المدينة البسيط ليس في رؤيته نفع يذكر، وكذا الأمر في رؤية مساجدها لأن جميعها حديثة البناء. إلا أنه مما يشاهد هنا فرع الفرات الأيمن (عرضه ٨٠ متراً)، وعليه جسر، يوصل إليه بعد اجتياز المدينة من الجنوب إلى الشمال الشرقي، منظر رائع نحو مرفأ الشنماية التي تأتي بحطب بلاد الفرات الأعلى في تركيا. وبعد مسافة ١,٥ كم، يوصل في طريق جيدة إلى منعطف ثريا باشا ملك زاده وزير عثماني شهير بمبراته وخيراته، كان والياً في حلب سنة ١٢٨٠

وهو الذي دخل دير الزور على رأس حملة عسكرية وأعاد إليها الأمن وأنشأ فيها متصرفية دير الزور.

الجسر الجديد المعلق فوق الفرات (له أربع دعائم مركزية، عرضه ٣,٥ وطوله ٣٥٠ متراً، كان افتتاحه في ٢٣ نيسان ١٩٣١، وهنا منظر رائع على الفرات، والعمق هنا المتوسط ٨,٥٠م في التحاريق ٥م وفي الفيضان ١٠ ـ ١١، وسرعة الجريان متر في الثانية في أيام التحاريق ٢ في الثانية في أيام الفيضان. وهي محطة متوسطة هامة في طريق العراق نحو الموصل وبغداد، ومنها يمكن السفر لزيارة خرائب حلبية وزلبية والرقة.. وغيرها.

من دير الزور إلى أبي كمال

كم ١٢٤ لحب جيد في الفصول الجافة. من حلب إلى بغداد نحو ٩٠٠ كم: منها ٣٤٢ إلى دير الزور و ١٤٢ من دير الزور إلى أبي كمال و ٤٢٠ من أبي كمال إلى بغداد.

من دير الزور إلى الصالحية (دورا اورويس)

٩٧ كم أو ١٠٨ كم إذا عرج بالعشارة، مجاز جيد، وله حوىً في كل وكل. إلا أن هذا اللحب يكون رملياً في منتصف المسافة بين دير الزور والميادين. وعسيراً في فصل الشتاء بين الميادين والهضبة الصحرائية.

يخرج من دير الزور تاركاً دائرة الجمرك على يساره، ثم مخفراً للشرطة على يمينه، وساحة الطيران وراءه. ويرى في الشمال الشرقي تلالاً من الأنقاض تخفي وراءها الفرات، والطريق يبعد تدريجياً عن الفرات كلما اقترب من المنحدر الصخري الأحمر الفاصل بين الحاوي والهضبة الصحراوية (الحماد) ويتعرج اللحب عدة مرارت ثم يقطع (٣,٥ كم) (وادي الملح) وهو سحيق وجاف في أكثر الفصول. ثم يجتاز اللحب سهلاً فسيحاً طينياً إلى أن ينقلب رملياً تاركاً الحقول المزروعة في

الجهة الشمالية الشرقية. وهنا تبدو في الأفق قرية البصيرة على الضفة اليسرى كأنها جزيرة صغيرة من الخضرة، وفي قربها ملتقى الخابور بالفرات. - في الكم ٣٠ أنقاض عمارات من الآجر من العهد العربي. ثم يجتاز الحقول المزروعة القريبة من الميادين ويعبر اللحب عدة مجارٍ وسواقٍ للمياه عليها معديات.

كان في محلها في العصور المتوسطة بليدة تعرف بقرقيسيا. ذكر القلقشندي أنها مدينة من ديار مضر من الجزيرة الفراتية وهي مدينة الزباد صاحبة جذيمة الأبرش يعني الذي قتلته، وبها مات جرير بن عبد الله البجلي الصحابي. وقال ياقوت: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها رحب الخابور في الفرات، فهي مثلث بين الخابور والفرات وفتحها حبيب بن مسلمة الفهري الذي أوفده عياض بن غنم في سنة ١٩هـ.

في الكم ٤٤ قلعة الرحبة، وهي حصن عربي هام، مبني فوق قمة ناتئة للمنحدر الصخري المتد في الجنوب. وهي تستحق الزيارة: يدور الزائر حول الخنادق الخارجية المنقورة في الصخر. إلى أن يصل إلى المدخل في الشمال الغربي. فيصعده ويزور الباحة المتوسطة الكبرى وهي خراب: وفي الجهة المطلة على السهل في الشمال الشرقي، ركام من الأتربة وأنقاض الأحجار، وفي كنف المنحدر الصخري في الشمال مزاران عربيان صغيران خراب.

في الكم ٤٩ الميادين هي القديمة. بليدة، سكانها ٢,٣٠٠ نسمة مسلمون، وبينهم عدد ضئيل من النصارى. بنيت فوق تل قليل الارتفاع مؤلف من الركام والأنقاض القديمة، وفيها دار حكومة ومدرسة ومركز بريد وجمرك، وبضعة بساتين للرمان، وقليل من النخيل وفيها سوق صغير. والخروج من الميادين يكون من وسطها، حيث مجتمع السيارات، ويؤخذ إلى اليسار (نحو الجنوب الغربي). وعند الخروج يقطع اللحب أكمات الأتربة المبعثرة من حفريات الأهلين، ثم يدرج في بادية منبسطة ومطردة، تتصل في الجنوب بالمنحدر الصخري الصحراوي الذي تكرر ذكره. - في الكم ٥٩، سوران من التراب مهملان، وفي الجنوب وعلى الأكمة الناتئة من المنحدر الصخري الشيخ الشبلي. - خرائب مسجد فيه ضريح هذا الشيخ، بينها ثلاث أبهاء معقودة بقيت ترتكز على دعامة في الوسط، ومحراب.

في الكم ٦١ نحو الشرق إلى اليسار، مفترق اللحب الذاهب إلى العشارة، على بعد ٨ كم زيارة العشارة. ـ

هي في الكم ٦٩ قرية صغيرة، فيها مخفر درك، مبنية فوق تل صناعي من الآجر المشوي الممثل للبلدة الآشورية والنصف الشرقي من هذا التل قد جرفه الفرات. وفي منتصف القرية مئذنة صغيرة لمسجد متهدم. يمكن أن يصعد إليها فيطل على منظر جميل نحو الفرات والقرية. وفي القسم الجنوبي الشرقي من العشارة كثير من الكرود الرافعة لماء الفرات.

قال القلقشندي في صبح الأعشى ج٤ ص ١١٥: مدينة الرحبة وتعرف برحبة مالك بن طوق وهو من قواد هارون الرشيد، قيل إنه أول من عمرها فنسبت إليه. قال أبو الفداء، وقد خربت الرحبة المذكورة وصارت قرية وبها آثار المدينة من المآذن الشواهق وغيرها. واستحدث شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي صاحب حمص من جنوبيها الرحبة الجديدة على نحو فرسخ من الفرات وهي بلدة صغيرة ولها قلعة على تل تراب وشرب أهلها من قناة من نهر سعيد الخارجة من الفرات. وهي اليوم محط القوافل بين الفرات والشام. قلت: ويظهر من نهر سعيد هذا أنه كان يشتق من قرب دير الزور ويرسم قوساً كبيراً ماراً بقرية الدالية إلى أن يصب في الفرات شرقي (الرحبة).

وهناك آلات بسيطة ترفع الماء بواسطة ظروف من الجلد تجرها خيل أو بقر وتسير ذهاباً وإياباً على مخدرات محضرة لها، ومنظرها مرني جداً. وفي قرب هذه الكرود المقبرة القديمة.

عودة: في الكم ٨٠ يعود لملاقاة لحب أبي كمال، ويتوجه لأجله إلى الجنوب تماماً ونحو المنحدر الصخري ـ في الكم ٦٥ العريشة. ـ يظهر هنا فوق شنخاب من المنحدر الصخري مسجد خراب مع قاعدة مئذنته المثمنة الأضلاع وأعمدة داخلة في الجدران وفي محرابه. وهو في الغرب وعلى بعد ستة كم من اللحب. وبعد قليل مسجد الإمام علي مبني فوق كتف الهضبة ومطل على وادي الأرز وفيه مئذنة خراب مثمنة الأضلاع علوها نحو ١٣ متراً، لايزال في جوفها سلم ذو ٥٣ درجة. ومنها منظر رائع نحو البقاع المجاورة.

(في خارج مسجد الإمام علي صفين من الأقواس ذات النقوش الجصية، إلا أنهما متعطلان بشدة. والقبة الكبرى الراكبة على عقد ذي أقواس نصفها خراب أيضاً. وفي حرم المسجد لا يزال المحراب موجوداً وعلى المحراب صحون من القاشاني المزين قد اقحمت في البناء.

والهيئة العامة لهذا المسجد مرنية، وهي تظهر من أبعاد شاسعة وفي سفح الهضبة عدة آبار متصلة من تحت بقناة عميقة يجري فيها ماء غزير رائق، قليل الملوحة. يضيع في الحقول المجاورة، وقد كانت هذه القناة تروي المدينة القديمة التي يظهر خرابها وما برحت تدعى (موجن) المحقن.

ـ في الكم ٧٨ خروج من السهل وصعود إلى التلعات المؤدية إلى الهضبة الصحراوية. في الكم ٨١ الوصول إلى الهضبة الصحراوية الرملية، في الشرق مقبرة بدوية صغيرة من الأحجار المركومة.

في الكم ٩٠ طريق مفروشة بالحجارة مع جسر صغير وثلاث مساكن لعمال الطرق مبنية في الشمال (في الكيلو مترات ٨٣ و ٨٧,٥ و ٩٢,٢، ثم يدرج في وعرة كثيرة الحصى يزعم العرب أنه نزل فيها (مطر من الحجارة).

في الكم ٩٤ على الهضبة يظهر بغتة خط أسوار الصالحية التي كان اسمها قديماً دورا أورديس. ثم في الشرق أي على اليسار، على بعد ١٥٠ متراً من اللحب و ١٨٠٠ متر من المدينة، يرى بناء يشبه برجاً خراب. وهو قوس النصر. مؤلف من صف من أعمدة كبيرة في جانبيه بابان صغيران، وهذا القوس يدل على مدخل المدينة. وهو من طراز قوس رمسيس أو أقواس سبتموس سيفروس وقسطنطين في روما. ويسميه الأهلون (قصر أم المصباح) ويتخذه البدو الرحل صوى للاسترشاد بالطريق عن بعد. وفي قرب المدينة تماماً وفي غربي اللحب أكمتان صغيرتان تتمثلان أنقاض الأبراج المقبرية من الطراز الموجودة في تدمر. على أن كل هذه البقعة الخالية، الواقعة في خارج المدينة الأثرية كانت جبّانة، لكن قبورها قد نبشت منذ عهد بعيد، والنابشون لم يعثروا فيها إلا على تخاريب فارغة. وثمة على كتف المنحدر الصخري مزار ولي عربي اسمه (البدر).

في الكم ٩٦ يلج الزائر مدينة دورا أورديس، التي صارت الآن الصالحية. من ثغرة فتحت في الزمن الأخير في اكدارها.

(في الشرق، على اليسار، استحكامات قديمة تتبع التواءات واد يهبط نحو السهل الذي على ضفة الفرات (الحاوي) في الغرب، على اليمين، وعلى العكس، خط الأسوار المستقيم يقف في وجه البادية. وقد غطيت قواعد هذه الأسوار بسطح منحدر مؤلف من الرماد وممسوك بجدار مائل من الآجر المشوي. بني في القرن الثالث لكي يمسك الأسوار. القسم الأعلى في الأبراج ولاسيما أبراج باب المدينة الأوحد، المفتوح نحو البادية والمسمى (باب تدمر) يظهر (يبرز) من بين منحدرات الأسوار.

وفي المنتهى الجنوبي تتصل الأسوار اتصالاً محكماً بدائرة وادٍ سحيق وتتبعها حتى المنحدر الصخري المطل على سهل ضفة الفرات. لكنها قد خربت بالمرة.

ونحو نهر الفرات، تقف الهضبة فوق خط من المنحدرات الصخرية العالية (٣٥ عند أعلى مكان في القلعة) التي جرف الفرات قسماً كبيراً منها في العصور القديمة ودكت زلزلة سنة ١٦١ الباقية. وهكذا فقد اندثر نصف القلعة بحكم تلك الفيضانات والزلازل.

وحين الوصول إلى الخرائب، يترك اللحب على يساره في الشرق البرج والهيكل الخاصين بالآلهة التدمرية، وهما يؤلفان الزاوية الشمالية الغربية من سور المدينة القديمة وقد جعل قدامهما أربع قطع من أبدان أعمدة مدورة. وعلى بعد يسير (برج الرماة)، يرى فيه بابان والأعمدة التي جعلت قدامهما (ستة أعمدة مدورة)، ثم يرى أنقاض الحمامات الرومانية، بينما في الغرب وفي الجنوب الغربي تستمر الهضبة ثانية إلى خرائب دور المدينة العليا، وهياكلها المخصصة بآر تميز وآستراكاتيس، وبابها الكبير المسمى باب تدمر.

ثم يهبط اللحب بسرعة ثم يحاذي الجبهة الغربية للقلعة. ولهذه القلعة برج في الزاوية الشمالية الغربية لايقل علوه عن ٢٢ متراً. ونحو الشمال الشرقي مسيل يمثل أجد شوارع المدينة القديمة وينتهي بثغرة مؤلفة من باب كبير يهبط نحو المرفأ. وتطل القلعة على هذا الشارع من أحد حصونها الضخمة الجاثم فوق ذروة الصخرة.

وفي قرب البرج الشمالي الغربي للقلعة ينفتح بابها الذي قوسه على شكل نصف دائرة. وقبله تظهر أنقاض هيكل الرماة الرومانيين المنتسبين للسرية ١١ من الفرقة أولبيا. مع قاعدة مذبحه ودعائمه المربعة لا تزال ماثلة. وفي قمة الصخرة ترى بقايا القلعة العليا وعلى بعد منها برجا الزاوية الجنوبية الغربية مع بابين آخرين معقودين.

في الغرب ترى المنحدرات السريعة الهابطة من الهضبة نحو القلعة قد قطعت في كل مكان بأنقاض الجدران القديمة التي يمر فوقها الطريق الثالث. ثم يصادف بعدها مسيل هو أنقاض شارع يهبط من المدينة العليا. ويطل هنا على الشارع في الجنوب جدار كبير، كان من خطوط الدفاع الأولى للمدينة، ثم أهمل فيما بعد. وفي الشرق بيت البعثة التي تعمل في حفريات الصالحية (٩٧ كم عن دير الزور) ثم يصعد اللحب سوراً ضخماً ويجتاز جهة الأسوار الجنوبية للمدينة القديمة ثم يهبط في منعرجات نحو السهل. حيث منظر جميل مشرف على الفرات.

التاريخ - إن مدينة دورا أورديس أو دورا نيقاتوريس، ومعناه مدينة نيقاتور قد بنيت في عهد السلوقيين، نحو أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، والبانون هم المقدونيون رجال سلوقس نيقاتور الأول (٣١٢ - ٢٨٠) وربما كان الباني أحد قواد هذا الملك المسمى نيقاتور حاكم الجزيرة (مزويوتايا) واسم دورا يظهر أنه مشتق من الكلمة الآشورية دور أي قصر أو حصن، وأورديس، هو اسم البلدة التي كانت مسقط رأس سوقوس نيقاتور في مقدونية.

وبدء تاريخها ما برح مجهولاً. وفي أواخر القرن الثاني ق.م، وخلال نحو مائتي سنة ظلت تحت سيطرة البرثين الآركاسيديين (٢٥٥ ق و ٢٢٦ ب، م) وخلال استيلاء الرومانيين على بلاد الشام في سنة ٦٤ ق.م لم تبلغ أيديهم إليها. وإذ كانت هذه المدينة واقعة على الحد الفاصل بين دولتين عظيمتين، بلاد الشام والمملكة البرثية، فقد حدثت نكبات مختلفة ثم استولت عليها حامية تدمرية في القرن الثاني بعد المسيح، ومن ذلك الحين ارتبطت مقدراتها بعد فتح تدمر.

ثم استولى عليها الرومانيون، وربما حدث ذلك فيما كان تراجان زاحفاً على طيسفون (١١٦م) لكن آدريانوس عهد بإدارتها إلى مدينة تدمر.

وحدثت زلزلة هائلة في صباح ٩ سبتمبر أو ٩ اكتوبر سنة ١٦١ م فدكت كل دور المدينة واستحكاماتها ولكن فيما بعد أعيد بناؤها ، إلا أن جدران الأسوار والقلعة لم ترم إلا قليلاً من قبل جيش لوسيوس فروس الذي انتصر على جيوش البرثيين سنة ١٦٥ تحت أسوار دورا اورديس.

ويظهر أن حظ دورا اورديس ارتبط بمدينة تدمر. فقد ازدهرت هي أيضاً بازدهار تدمر، ثم شقيت وانحطت بعدما سقطت تدمر في يد أوريانوس سنة ٢٧٢ وأسر ملكها.

وفي بداية القرن الرابع في عهد قسطنين تم خراب دورا فهجرت من ثم بالكلية. وظلت أرضها مقفرة حتى يومنا هذا ، لا يقطنها سوى بضعة أشخاص من فقراء الزراع. ولما زحف يوليانوس سنة ٣٦٣ م على المدائن (طيسفون)، لم يجد في دورا إلا أنقاض مدينة دائرة.

وإذا استثنينا مباني الدفاع وهي يونانية ، فإن جميع الأنقاض القديمة التي عثر عليها حتى الآن إنما هي تدمرية أو برثية أو رومانية ، والكتابات تكاد تكون جميعها يونانية وبعضها تدمرياً أو لاتينياً. والتواريخ المذكورة من عهد سلوقس الأول الذي بدأ في اكتوبر سنة ٣١٢ ق.م.

ومساحة البقعة الحاضرة تبلغ ٧٣ هكتاراً ، إلا أن قسماً من القلعة الرابضة فوق المنحدر الصخري الشرقي والطرف الأقصى الجنوبي الشرقي من المدينة قد جرفته فيضانات الفرات على توالي السنين. وكان لهذه المدينة على الفرات مرفأ نهري حوله مستودعات، لكنه لم يبق لها أثر. وعلى الضفة اليسرى من الفرات كانت تمتد مزارع يعتني بريها اعتناء زائداً من شبكة الأقنية التي يعثر على آثارها في كل مكان.

وكانت مدينة دورا أورديس كثيرة السكان، ويمكن تقدير عددهم من إحصاء البيوت التي داخل السور. وكان سكانها الأولون وهم من المستعمرين المقدونيين كما قدمنا ذوي نخوة لعنصرهم ولديهم تشريع يحفظ أصلهم، إلا أنهم على الرغم من ذلك، اختلطوا بعد بسرعة بالجاليات المحلية كالتدمريين والنبطيين والبرثيين والبابليين، وعلى هذا فلم تحتفظ أقدم الأسر من الثقافة اليونانية بسوى

اللغة والتقاليد، والعنصر اليوناني نفسه فسد فيما بعد وصار شرقياً ولم يعد يونانياً قط.

لقد ارتسمت خطوط هذه المدينة على الهضبة الممتدة وراء جهة الصحراء، وشيدته تشييداً غاية في الانتظام. فالشوارع تتقاطع على زوايا قائمة وتؤلف جزيرات مستطيلة الشكل اكتظت بالدور وهذه الدور تجمع أقسامها (غرفها) حول فناء تأخذ منه النور والهواء. والأبواب وحدها تكون من الحجر، والغالب أن تكون مطلية بالجص. أما بقية الجدران فهي مؤلفة من أحجار متوسطة الحجم أو صغيرته، مطلية بالجص أو مستورة بآجر مشوي مطلي بالجص. وكانت هذه الدور ذات طبقة واحدة وأحياناً طبقة تحت الأرض.

وباب تدمر يقع وسط الجبهة الغربية، وهو الباب الوحيد للمدينة، الذي ينفتح في كل محيطه نحو الغرب والشمال والجنوب. وثمة في الشرق بابان أخران ينفتحان نحو الفرات، لكنهما قد اندثرا بالكلية، وجرفهما الفرات. ما خلا الذي في الشمال، فإن أنقاضه ماتزال.

إن باب تدمر يتألف من موضعي دفاع قويين مستطيلي الشكل، لكل منهما طبقتان وخط من الجدران المضرسة، وفي داخلهما قد انقسما إلى غرفتين مضيئتين بمزاغل بسيطة. والباب يشمل مساحة ٢٢,٣٥ متراً في ٢٣,١٨، وكان ممره المتوسط يغلق بثلاثة أبواب متتابعة، وكان للاثنين الآخرين منهما الكائنين في جهة المدينة قوس يعلوهما، وأعلى هذا القوس كان يمكن من الانتقال من حصن إلى آخر، وكان الباب يمثل بهذه الترتيبات جهة نحو المدينة طولها ٢٣,١٨ متراً، مخروقة بصف من الأقواس، أما نحو الصحراء فكان يمثل حصني دفاع لا يختلفان عن الأبراج المتوزعة على طول الأسوار. وفي قرب هذا الباب في داخل المدينة يلحظ نحو الجنوب أطلال الحمامات الرومانية وفي الشمال أطلال الهيكل.

يقع هيكل أرتميس نانايا في وسط المدينة تقريباً، على بعد ٣٠٠ متر من باب تدمر. وبناؤه قد يعود إلى الزمن الذي أرسيت فيه المستعمرة. ومخططه يبدي شكل المعبد الأصلي أما توابعه فتتألف من مسرح غناء صغير، وقد اجتمعت هذه التوابع حول باحة مستطيلة الشكل طول أكبر أضلاعها ٣٠ متراً من الشرق إلى الغرب.

وهذا الهيكل يشبه الهياكل البابلية أكثر من مشابهته للمباني اليونانية. والربة التي كانت تعبد فيه كانت من المحاربات، فقد كانت تقود إلى النصر، وعبادتها فيما يظهر كانت من الطراز الشرقي البحت.

واحدى الكابللات المخصصة بإفروديت كانت تحتوي على تمثال جميل لهذه الربة يمثلها منتصبة وواضعة رجلها على سلحفاة (وهي في متحف اللوفر) ، وكذلك كان فيها دمى صغيرة من الجص المتعددة الألوان، ثم القسم المتقدم من الهيكل، والكابللا المجاورة، وهما في الشمال الغربي قد احتويتا على كتابات عديدة تذكر المؤسسات المشيدة للتقوى وفيهما اسماء شيعة هذه الربة مع قسم من تراجمهم. وتاريخ هذه الكتابات من السنة ٦ ق.م إلى سنة ١٤٠ ب.م وكلها قد استعملت مرة أخرى في تبليط هذه الكابللا، وينبغي أن يكون منشؤها من بهو ذي مدارج يشبه ما في هيكل آستراكاتيس. وأمام المعبد كان يوجد عمود يحتوي على كتابة نذرية باسم (جملوس).

وفي الجهة الأخرى من الباحة الكبرى للهيكل، في الجنوب الشرقي، مسرح غنائي صغير، ذرعه ١٣,٦٠ × ١٢,٥٠ كان مخصصاً مثل البهو ذي المدارج إلى الاحتفالات المقدسة.

أما هيكل آستراكاتيس ودار الرهبان اللذان اكتشفا سنة ١٩٢٩/١٣٤٨ فيقعان في الجنوب الشرقي من الجهة الثانية للسكة المقدسة التي تفصلهما عن هيكل آرتاميس. ويشكل كل منهما نصف جزيرة من المدينة. وهيكل الربة آستراكاتيس ذرعه ٣٧× ٣٥ متراً، ومدخله يقع في الجنوب الشرقي، ومنه يلج إلى باحة عظيمة (٢١×١٩ متراً) تحف بها أبهاء مختلفة. وفي الوسط، المذبح الكبير للقرابين، وفي الجهة الشمالية الغربية (منه) البهو المدرج، المكرس باسم (الرب هداد). وإزاء المدخل معبد مع كتابة نذرية باسم الحاكم جملوس (وفي الجنوب الشرقي بهو مدرج كبير، الذي كانت تقرأ فيه أسماء عباد الربة، تاريخه ٦١ ـ ٦٢ ب.م وثمة ناووس مع كرسي وتمثال، وقد وجدوا في هذا الهيكل عدة تماثيل ونذور من القرن الأول إلى القرن الثالث.

وقوس النصر مع عدد كبير من الدور الخاصة بأغنياء التجار قد بنيت في مسافة غير بعيدة من المكان الذي نذكره، وهي إلى الشمال في أقصى طرف شارع تدمر الأكبر وعلى كتف الهضبة. وهي أيضاً في منتصف المنحدر وسط المسيل الذي تتابع فيه الشوارع.

أما في الجنوب الشرقي فالأمر على خلاف ذلك، إذ يرى جزيرة مكتظة بالدور قد استنقضت كلها، وهي تذرع ٣٩×٩٢ متراً، وتحتوي على دور عديدة لكل منها باحة داخلية محاطة بأروقة وأقنية وأدراج وسلالم ومراحيض.. الخ.

وهيكل الأرباب التدمريين يقع في الزاوية الشمالية (الغربية من السور، في قرب برج مربع، ويمكن زيارته في حين الولوج إلى هذه المدينة القديمة للقادم من دير الزور ولم يبق الآن من هذا الهيكل سوى أربعة أعمدة أمامه ومكان كالمصطبة والناووس للبناء. لكن الصور الملونة التي زينوا بها جدرانه هي إحدى الأنقاض العجيبة جداً للمذاهب الشرقية المستعملة في دورا، وقبل ذلك استيلاء الرومانيين على هذه الكورة. وأقدم هذه الصور وكذلك صورة جد عظيمة لبعل (على الجدار الجنوبي) يعود تاريخهما إلى سنة ٧٥م، بينما الصور الأخرى تعود لأواخر القرن الثاني أو لأواسط القرن الثالث الميلاديين.

(إن اكتشاف هذه الصور الذي حدث مصادفة هو الذي لفت أنظار العلماء إلى بقعة الصالحية. وقد نقلت هذه الصور سنة ١٩٣١ وعرضت في متحف دمشق وفي متحف ياله (الولايات المتحدة).

والقلعة تنتصب فوق شنخاب صخري في شمالي المدينة. وقد خرب قسم منها بفيضانات الفرات. إنما مجموع أسوارها المطلة على المسيل الذي يفرقها عن المدينة مازال مائلاً بمنظره الرهيب وكذلك جهتها الغربية التي طولها ٢٨٨ متراً، وأبراجها الثلاثة، وأحد هذه الأبراج الذي في الشمال الغربي مازال سامي الارتفاع إلى أكثر من ٢٢ متراً، وكذلك أبوابها الثلاثة المعقودة وفي الجهة الشمالية الغربية يبلغ امتدادها نحو ٤٨ متراً، وثمة مصنع دفاعي قوي متعلق بالصخر يطل على الباب القديم الآخذ نحو المرفأ ووادي الفرات.

إن أبراج هذه القلعة كانت تحتوي على طبقتين علويتين، تعلوهما أسطحة ذات جدران مضرسة. ومن مزايا هذه المطبقات الغريبة أنه لم يكن لهما أي اتصال دائم مع الطبقة السفلية. وإنما كان الاتصال يتم بواسطة سلالم أو معديات متحركة، وهذا التدبير كان لتأكيد سلامة اطمئنان الحامية حين حدوث ثورة داخلية أو مباغتة عدو خارجي والأقسام التحتانية من مباني الدفاع كان لها أيضاً هذا التدبير الدفاعي الغريب. والأعمدة الخشبية للطبقات المذكورة كانت مؤلفة من جسور ضخمة، لا يزال يرى بقاياها المقحمة داخل الجدران، وكانت هذه الجسور تحمل بواري من القصب المغطاة بباطون ثخين مؤلف من الجص والحصى. والمزاغل والأبواب هي مستطيلة الشكل في الخارج، ولكن، في المؤخرة، قد عملت عقودها المثلثية من بلوكات (أحجار ضخمة) بارزة فوق الجدران بتتابع (من بلوكات ركب بعضها فوق بعض على شكل متتابع).

وأقدم أقسام القلعة يقع في ذروة الصخرة ويتألف من مجموع قسائم (غرف) مبنية بأحجار جميلة، وفي وسطها صهريج قد سقط نصفه الشرقي في النهر مع قسم من المباني الدفاعية. ويعود بناؤها إلى عهد السلوقيين، والطابية الداخلية التي تقع إزاء القلعة في الجهة الجنوبية الشرقية. ربما كانت أيضاً من ذلك العهد كما أن اتجاهها مثل ذلك القسم القديم. ولهذه الطابية مدخلان أساسيان، أحدهما في الجنوب الغربي نحو الوادي الأسفل، وثانيهما في الجهة الشرقية نحو الهضبة. ويخط أحجارها المنحوتة بأحد ابواب (أحجار صورية) وهي في وجهتها المطلة على المسيل الأوسط. وكذلك دهاليز مدخلها وناحيتها الداخلية ذات الأروقة. وإذ إنها أهملت في العهد الروماني ما عتم السكان أن بنوا في أطرافها دوراً عديدة.

كيف اكتشفت دورا. - إن مدينة الصالحية كان يعرفها السياح المجتازون لتلك الطريق الطويلة الممتدة من حلب إلى بغداد. ففي سنة ١٨٧٢ كتب المهندس النمساوي زرينان عن قلعتها كتابة مختصرة، وجاء بعده المسيو سار في سنة ١٨٩٨ والمسيو هرزفيلد في سنة ١٩١٢ ووقفا أمام أطلالها. إلا أنه لم تكتشف بحق حتى ولم يعرف اسمها الأصلي إلا حديثاً، وذلك أنه في آذار سنة ١٣٤٠/١٩٢١ كانت القوة الإنكليزية مستولية على لواء دير الزور وتدفع القبائل الثائرة عليها، وبينما كان

الكابتن موري في الإنكليزي يحفر خنادق دفاعية في موقع الصالحية عثر مصادفة على الصور الملونة الجميلة التي كانت في هيكل الأرباب التدمريين، وكان بقاؤها سالمة حتى هذا العصر مدهشاً للغاية. فأعلم الكابتن مراجعه في بغداد، وكان يومئذ فيها المس جرترودبل العارفة بقيمة الآثار. فدعت حالاً المسيو جامس برستد مدير المعهد الشرقي في شيكاغو، الذي سبق له عدة اكتشافات في الجزيرة وطلبت إليه الإسراع بالمجيء إلى الصالحية مع بعثة فنية. فلبى المسيو جامس الطلب وحضر. إلا أنه ما إن وصل إليها حتى أعطيت الأوامر إلى الجيش الإنكليزي بالانسحاب من تلك البقعة، فلم يتمكن المسيو برستد ورفاقه من البقاء إلا ليوم واحد ٣ مارس ١٩٢١ تمكنوا فيه من دراسة الصور الملونة المذكورة وأخذوا صوراً بالفوتوغراف، وعاد المسيو برستد ينوه بقيمة هذه الصور ويشهرها في أكاديمية الآثار والآداب. فأرسلت هذه الأكاديمية فيما بعد المسيو فرانزكومون ليكتشف البقعة، فجاء هذا مصحوباً بقوة كبيرة من الجند الإنكليزي وقام بعمله في خريف سنة ١٩٢٢ و١٩٢٣ ودرس خلالها الصور الملونة المكتشفة، واستنفض هيكل آرتميس وبرج الرماة ودوراً مختلفة في المدينة. كما اكتشف عدداً كبياًر من قطع اليامبروس المحفوظة في البرج المجاور لهيكل الأرباب التدمريين. وفي سنة ١٩٢٤/١٣٤٢ قامت سرية عسكرية صغيرة بقيادة الملازم دلا يلانش وحفرت دوراً مختلفة وقسماً من الجبانة التي في الصحراء. وأخيراً منذ سنة ١٩٢٨/١٣٤٦ قاد المسيو موريس يلليه اكتشافات هذه البقعة من قبل بعثة مؤلفة تحت رعاية أكاديمية النقوش والآثار ورعاية جامعة يالة.

من الصالحية إلى أبو كمال

٤١ كم في اللحب المستقيم، ٤٥ كم في اللحب المحاذي للمنحدر الصخري، وهذا يتبع في الأوقات الرطبة. إذا خرج من السور الجنوبي لدورا أورديس يهبط اللحب فجأة في تعاريج، ثم يجتاز الطرف النهائي لمسيل محفور تحت أقدام تلك الأسوار. وعلى بعد ٢٠٠ متر في الشرق، على ضفة الفرات، ثلاث دعائم من الآجر ذات فتحات أقواس مثلثية وجدار طويل قد خرقت فيه أيضاً مثل تلك الفتحات، وكل ذلك يمثل رأس جسر كان هنا في عهد العرب.

ويتبع اللحب المنحدر الصخري ويترك إلى الشرق (الزور) وهو غابة صغيرة من الطرفاء والشجيرات الشائكة التي يقطعها العرب الرحل.

في الكم ١,٥ وسط الصخر نبع ماء مالح صغير ينبض قطرة فقطرة. وبعد دورة حول ركام من صخور المنحدر مقبرة عربية صغيرة، رموسها مؤلفة من الحصى. على أن اللحب صعب الاجتياز أيام المطر.

في الكم ٣ الصالحية. ـ ضيعة فيها عدد قليل من البيوت المبنية من الطين (سكانها ٧٣٤ من جملتهم الجماعات المنتشرة في الضفة اليسرى) وهي مركز ناحية، وفيها مخفر درك وخانات وطاحون ناري. وفي قرب المخفر صوى للطريق. بعد المخفر ينحرف اللحب إلى اليمين، ويمتد باستقامة ويترك من الغرب وادي السويحل وهو جاف دائماً، تمرح فيه قطعان الحباري وقليل من الأرانب.

في الكم ١٢ ضريح شيخ بدوي، تحيط به قبور عديدة.

(قبل الوصول إلى هذا الضريح وبعده أيضاً يتعذر السير في أيام المطر، لهذا يكون من الخير حينئذ أن يترك هذا اللحب قرب المقبرة العربية وقبل الاقتراب من المخفر وأن يسير في موازاة المنحدر الصخري ثم يعود للصعود بعد مسافة غير قليلة إلى وادي السويحل قبل قطعه من الجنوب ليعود لملاقاة المنحدرات الصخرية الواقعة في الجهة الثانية من الوادي).

يقترب اللحب من المنحدرات الصخرية، وخيال هذه المنحدرات يظهر في الغالب شكل القلعة المنتصبة فوق الآكام. ثم تتراءى في الشرق ثلاثة تلال. اثنان منها، تل

(تيهالي) وتل سحبل هما في ضفة الفرات اليسرى وثالثها وهو الأكبر واسمه تل كوك في الضفة اليمنى.

في الكم ١٧ تل بهنى، وهو تل صغير (ذرعه ٥٥ × ٣٨ متراً وعلوه ٥ ـ ٦) يقع إلى غربي اللحب. ومن ثم يظهر طريق مبلط عريض، هو من أنقاض رصيف روماني قديم، عرضه نحو ٣ أمتار، يمتد باستقامة بادىء بدء نحو الجنوب ثم ينحرف نحو الشرق ويقطع اللحب بعد ٣,٥ كم ويمتد ٢ كم آخرين بعد كوع في الجنوب ويستمر في امتداده حتى يلحق بالتل المدبوك.

ويظل اللحب من بعد ذلك سائراً حتى أبو كمال في بسيط أفيح ليس فيه أي عارضة. بل صوى كبيرة وضع كل منها على بعد ٥ كم عن الآخر.

في الكم ٣٦ مسلة لذكرى وفاة الطيار لاكوست دولاتل ٢٨ تموز ١٩٢٨، وضريح صغير لولي، عليه قبة حجرية، مبني على بعد ١٥٠ متراً إلى غربي اللحب. ويلحظ السائر على ضفة الفرات اليسرى عدة تبعات ومنحدر صخري عظيم اسمه (ايرزي باخوس) ثم تظهر (أبو كمال) عن بعد، تشرف عليها مئذنة صغيرة منتصبة في جهتها الشمالية الغربية، بينما في الشرق على ضفة الفرات غابة صغيرة من الأدكاليتوس آخذة بالنمو.

في الكم ٤١ ابو كمال (علوها ١٦٧ متراً)، في مدخلها دار ضابط المصالح الخاصة الإفرنسية ثم دائرة البرق اللاسلكي والبريد ثم دائرة الجمرك. وأبو كمال بليدة حديثة العهد ذات دور حسنة مبنية بالحجر، وشوارعها تتقاطع بزوايا قائمة. والبلدة القديمة بعيدة عنها إلى الشرق خربت بفيضان الفرات، وسكانها ١٠٥٥، أما القضاء فـ ١٠٧٨٢ نسمة.

بعد ٣ كم من أبي كمال أبراج مقبرية تدعى (ايرزي باخوس) من الطراز التدمري ومن العهد نفسه، لكنه أكثرها خراب، وهي تنتصب في قمة المنحدر الصخري الذي في الضفة اليسرى والذي قد خربه الفرات أيضاً. ولا ريب في أن أطلال هذه الأبراج تمثل البقايا الوحيدة القديمة (هنيداريا الآشورية) التي يلوح أن الفرات قد جرفها بعد أن غير مجراه نحو الشمال الشرقي.

وللوصول إليها يؤخذ زورق من أبي كمال. وتستغرق هذه الرحلة والزيارة نحو خمس ساعات، ففي أقصى المنحدر الصخري المجروف بالفرات (علوه ٢١٢ متراً) أطلال ستة أبراج مقبرية. ليس بينها ذو أهمية إلا اثنين. وبعد ٢٠ دقيقة إلى الجنوب، البرج المدعو بأبي جلال وهو أسلم الكل، وطول جداره في الأسفل خمسة أمتار وكل من واجهاته مزدان ببردات مؤلف من عمودين من الطراز الدوري قد أقحما في الجدران وبدعائم في الزوايا. وكان يعلو الجميع طبقة صغيرة تحت السقف لم يبق منها سوى الأنقاض وثمة سلم ذو مدارج مستقيمة وشكل مربع يمكن الزائر من الوصول إلى قمة البرج والكوى أو النخاريب الخاصة لوضع الرموس موجودة في أسفل البرج ومغطاة بعقود مثلثية. وباب السلم أيضاً من الشكل نفسه. وإزاء هذا البرج في السهل جبّانة صغيرة للعرب.

وإذا تقدم نحو الجنوب، يصادف بعد ٢٥ دقيقية في قمة المنحدر عين ماء مالح في قعر سيل، ثم بعدها بـ ٣٠ دقيقة برج آخر اسمه أبو زبين يماثل الجلال في المساحة، إلا أنه أشد خراباً.

وإذا عكس المسير وحاذى المنحدر الصخري نحو الشرق يصادف أيضاً أطلال عدة أبراج حتى ذلك المسمى بدير نتش، الواقع على بعد ٣ كم.

وإذا رجع الزائر إلى الفرات يلاقي الزورق في هري (على بعد كم من أبي كمال) وتستطيع السيارات الوصول إلى بعد ١,٥ كم من هري فيراه الزائر ويعود إلى أبي كمال.

من دير الزور إلى الحسكة

يتجه من دير الزور إلى الشمال الشرقي. وبعد أن يجتاز الجسر الكبير المعلق الذي تقدم ذكره ووصفه، يدخل في صحراء الجزيرة ويعلو هضبة قفراء فيها طيور للصيد كثيرة.

في الكم ٧ هنا في هذه النقطة إذا أراد الوصول إلى البصيرة بعد ٤٥ كم يتجه نحو الشرق متتبعاً الصوى الكيلومترية.

والصحراء هنا منبسطة كل الانبساط، لا يرى فيها نحو الشرق إلا خط وادي الخابور. وبعد اجتياز عدة تلات مموجة يترك في الشرق مقبرة صغيرة وفي الغرب تلاً كبيراً.

في الكم ٥٣ الصور، ضيعة مؤلفة من بضعة بيوت حقيرة ومن مخفر، ومكانة الصور تعود للجسر النقال الذي على الخابور يعبره المسافرون إلى الموصل، ونهر الخابور يتعرج هنا عدة مرات، ففي أعلاه جزيرة صغيرة وسد وناعورة، يطل عليه في ضفته إلى تل متطاول (٢٥٠ متر × ٩٠ متراً) يمكن للواقف على قمته أن يشرف على منظر غاية في الامتداد نحو وادي الخابور. وفي قمة هذا التل أطلال من العهد اليوناني الروماني راكبة فوق أطلال أخرى من عهود أقدم من تلك (آشورية وميتانية) وهي من الآجر المشوي.

ويطل لحب الجسمة على ضفة الخابور اليمنى يحاذي تل الصور في الغرب بإزاء المقبرة التي تقع قبل الدخول إلى الصور.

(إن وادي الخابور كان فيما مضى معموراً حافلاً بالسكان وغنياً بزروع القطن الذي اشتهرت بلاد الشام في العصور المتوسطة بأنها من أكبر مصدرية. وأحسن القطن الشامي كان يصدر من بقاع حلب وحماه أما اليوم فقد أصبح هذا الوادي مقفراً، امتدت فيه على مسافات تلول أثرية تدل على ازدهاره السابق.

بعد صور يجتاز براري منبسطة ليس فيها تلات: ويتراءى عن بعد تلان احدهما في الكم ٧١ تل حسين، على الضفة اليمنى، ويناوحه في الضفة اليسرى وعلى بعد ٢ كم للشمال الشرقي تل أحمد وعليه مقابر وأطلال مبانٍ عربية راكبة فوق أطلال العهود السابقة.

الأفق هنا فسيح ومنبسط كل الانبساط إلا أنه تظهر من حين إلى آخر ضفة الخابور المنحدرة وتبرز بضعة تلات من على بعد شاسع ثم يمتد منحدر صخري ضارب للاحمرار متوج بصخور عظيمة من البازلت الأسود.

في الكم ٨٢ تل مرقدة. ـ وهو على بعد قليل نحو الشرق من قرب النهر الذي تظهر فيه ناعورة صغيرة، وفي سفح هذا التل (وطوله ١٥٠ متراً) كانت بلدة

ماكسين العربية، ولا تزال أطلال بيوتها ماثلة وهي راكبة فوق أطلال من عهود أقدم منها، ويلحظ هنا أيضاً صخور بازلتية كبيرة ممتدة إلى أبعاد شاسعة.

ثم يحاذي المنحدر الصخري، تاركاً إياه إلى الغرب ثم يدرج في السهل.

في الكم ١٠٥ تل فدغمى (في الخرائط الإنكليزية تل فريد غامي) وهو على ضفة الخابور اليسرى وفي بقعة مهمة يمر منها طريق الموصل الذي ينحرف بعدها نحو الشرق دارجاً نحو البيضاء.

في الكم ١٢٠ تل الشواري - وهو سكير العباسي قديماً عند العرب، يطل على الخابور من علو ٢٠ - ٢٥ متراً، في الجنوب مخفر وبضعة بيوت خراب. ثم يلف اللحب حول التل من الغرب.

في الكم ١٣٩ تل عجاج أو عجاجة، على أنه يعرف أكثر باسم عربان، بقعة آشورية هامة، ظلت عامرة حتى العهود العربية الأخيرة.

(إن المكتشف الإنكليزي لايارد نقب هنا في سنة ١٨٥٠ فاكتشف خنافس من عهد الاسرة الثامنة عشر المصرية (١٥٤٠ - ١٧٢٥ ق.م) وثيراناً مجنحة تحرس أبواب قصر الراهب موشاش بنيت الذي يعود دون ريب إلى الألف الأول قبل الميلاد. وجاء فيضان للخابور فأظهره للوجود، بعد أن جرف القسم الشرقي من التل وحفر هنا عدة أنفاق اخترقت جدران القصر المبنية من الآجر المشوي، وهي لا تزال ماثلة حتى اليوم.

وقد عمل الخابور هنا جزيرة بازاء المدينة، والتل الأصلي يعلو نحو ٢٥ متراً وفي قمته مقبرة بدوية صغيرة وفي شماله يرى سور مائل من الآجر المشوي، من العهد الروماني دون ريب. وفي الجنوب قرب مكان قليل الارتفاع من التل (نحو ٢٠ متراً) ثلاث دعائم لجسر جميل من العهد العربي قد امتلأت بالتراب وأصبحت في أرض جافة.

في الكم ١٥٥ تل على الضفة اليسرى، في قمته مزار صغير.

ثم يصبح اللحب وعثاً، يقطع مسايل صغيرة ويقترب في كثير من الأحيان نحو الضفاف.

وقد ذكرها ياقوت فقال: بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة، وعده القلقشندي بين مدن الجزيرة الفراتية وقال إن بينها وبين قرقيسيا سبعة فراسخ وبينها وبين سنجار اثنان وعشرون فرسخاً.

الخابور العمودية، وهو هنا يتعرج كثيراً، حتى أن هذا اللحب كثيراً ما ينقطع المرور به في فصل الشتاء.

وفي هذه الرباع يهب في بعض الأيام ريح شديدة شمالية شرقية كما هو الحال في كل رباع الحسكة، الواقعة في دهليز محصور بين جبل شمبة في الشرق وهو آخر فروع جبل سنجار وبين جبل عبد العزيز في الغرب. لهذا كان أقليمها قاسياً وقارساً في الشتاء. وفي منتهى الأفق إلى الشرق قليلاً كوكب، وهو بركان منطفىء انتصب فوق السهل المحيط به.

في الكم ١٧٨ يعبر الخابور فوق جسر صغير يطل عليه برج الحسكة.

الحسكة. ـ هي القديمة في عهد ملوك آشور توكلتي نينيب (٨٨٩ ـ ٨٨٤) وآصورنا سيريال (٨٨٤ ـ ٨٥٩) ق.م، وهي قرية كبيرة، سكانها نحو ٢٠٠٠ أكثرهم نصارى (٤٤٠ كاثوليك و ٦٢٠ سريان يعاقبة) من الذين هاجروا من تركية. وهي مركز محافظة الجزيرة، ونقطة عسكرية، وفيها كنيستان ومدارس للسريان والكاثوليك.

وقد كانت هذه القرية الحديثة في الأصل مخفراً عسكرياً أسس في نيسان ١٩٢٢/١٣٤١ وثم التف حوله السكان وبنيت البيوت. وهي مركز تموين لقبائل البدو المجاورة. وإليها تنساق محاصيل وادي الخابور والجغجغ، وفيها يوجد أطلال أثرية يلوح أنها كانت لمخفر روماني.

من الحسكة إلى القامشلي ونصيبين نحو ٩٣ كم، من لحب يتبع ضفة الجغجغ اليمنى، فيه عدة تلال أثرية، أهمها تل براق (على بعد نحو ٤٠ كم) نقب في سنة ١٩٢٨ و ١٩٣٨ فوجدوا فيه أطلالاً وآثاراً.

ـ من الحسكة إلى رأس العين ٧٥ كم من لحب، يتبع الخابور. وإلى الدرباسية (٧٠كم، وإلى عامودا (٧٠ كم) وإلى بلد سنجار.

من حلب إلى الموصل

٤٤٨ كم، في السكة الحديدية.

تمتد السكة الحديدية من حلب نحو الشمال، ففي الكم ٤٥ المسلمية، وهنا ملتقى الخط القادم من الآستانة ماراً من أضنه وميدان إكبز.

من حلب إلى الموصل

٤٤٨ بالسكة الحديدية (شركة بوزانطي ـ حلب، نصيبين وامتدادها

تمتد السكة نحو الشمال، فتدخل في الكم ١٥ إلى المسلمية، وهنا ملتقى الخط القادم من استانبول ماراً بأضنه وميدان إكبز، ثم ينحرف الخط نحو الشمال الشرقي.

ففي الكم ٤٤ محطة اخترين. ـ وقرب المحطة قرية اخترين، مركز ناحية، من توابعها مرج دابق التي وقعت فيها المعركة الهائلة بين السلطان قانصو الغوري المصري والسلطان سليم العثماني، وفي القرية جمرك سوري.

وفي الكم ٦٤ محطة جوبان بك، وقرب المحطة قرية جوبان بك السورية وسكانها تركمان، والقرية مبنية على سفح تل كبير، وفي المحطة جمرك تركي.

وفي الكم ٨٥ محطة آقجه قويونلي، ثم يجتاز القطار نهر الساجور أحد روافد الفرات، وفي الكم ١٠٧ قرية هولمان أهلها تركمان ـ وفي الكم ١٢٠ جرابلس. وهي كركميش في عهد الحثيين وأورديس في العهد اليونان الروماني، اشتهرت قلعتها بالصور البارزة المنقوشة على جدران من الصخور. وبليدة جرابلس الحديثة في الحدود السورية، أما القلعة ذات الصور المذكورة فهي في الحدود التركية.

وفي جرابلس يعبر القطار نهر الفرات من فوق جسر حديدي عظيم ذي عشر قناطر و ٨٠٠ متر طولاً. ومن ثم يصعد في نشوز مرتفعة ممتدة على ضفة الفرات اليسرى (أرض الجزيرة) ويجتاز طرف كورة خصبة هي كورة مروج، ثم يصل إلى الكم ١٤٦ إلى سنفيك والقطار لا يقف إلا نادراً، وفي الكم ١٥٩ إلى عين العرب (عرب بينار).

وعلى مقربة من قرية عين العرب قرية كبيرة كردية اسمها آرسلان طاش هذه هي في النصوص الآشورية. ولعلها من بناء الملوك الآشوريين الذين أوصلتهم مطامعهم إلى هذه الربوع من ضفاف الفرات، وقد كانت خاداتا مع مثلها تل الأحمر على الفرات من المحطات التجارية والحربية الاستراتيجية في الطريق الممتد بين حران وحلب والمار من منبج وبراعة، وإذ كانت تقع على بعد ٤٠ كم من ضفة الفرات كانت هذه المحطة تعد مركز اجتماع ونقطة زحف للجيوش الآشورية المتوجهة للغارة على بلاد الشام. وظلت حتى العهد اليوناني محتفظة بأهميتها إلى حد أن اليونان شيدوا فيها هيكلاً وإن لم يكن ذا نفع بارز.

نقبت (ارسلان طاش) في سنة ١٩٢٨ من قبل بعثة إفرنسية يقودها المسيو (تورو دانكن) فوجدت فيها مجموعة جميلة من المباني الآشورية. ولا يزال يشاهد حول القرية الحالية المداميك الحجرية السفلى للسور المدور الذي كان يحيط بالبلدة الآشورية. والأقسام العليا من السور كانت من الآجر.

ومن مكان إلى آخر يميز الناظر أساس المصانع البارزة المربعة الشكل التي كانت تحمي جوانب الأسوار من الخارج، ولا يبعد المصنع عن الآخر أكثر من بضعة أمتار وقد كان في هذا السور ثلاث أبواب في الشمال الشرقي وفي الشرق وفي الغرب، وكان للبابين الغربيين أسود تحرس جانبيهما. وأسود الباب الشرقي ظلت محفوظة مكانها وعلى حالها. وأحدها ما برح منتصباً في مكانه، والثاني مقلوب رأساً على عقب. وهذه الأسود منحوتة من صخور بازلتية ضخمة جداً يبلغ طول كل منها نحو مترين، في مثل ذلك علواً. وفي الشرق الأقصى للقرية أظهرت أعمال النقب والحفر أطلال هيكل. وكان ثمة ثوران من البازلت يحرسان مدخل الهيكل المذكور، وقد نقلا في يومنا إلى متحف اللوفر في باريز. وفي الشمال أكمة مطلة على القرية يمكن حتى الآن أن تلمح من قمتها جدراناً قد تهدم نصفها هي لقصر كبير متسع قد بناه من الطين الملك تغلات بيلاسر الثالث الآشوري. وكان هذا القصر مبنياً كله من الآجر، ويبلغ طوله ١٥٠ متراً، ولم تكن عدد غرفه أقل من ٥٦ موزعة حول باحتين واسعتين. وفي الشرق بعد مسافة يسيرة خرائب قصر من النوع المتقدم ذكره، لكنه أصغر وأوطأ منه بكثير وأقدم منه عهداً. وقد وجدوا في أحد

أبهائه قطعاً من العاج غاية في الحسن والإتقان (نقل نصفها إلى متحف حلب ونصفها الثاني إلى متحف اللوفر في باريز) ولعل هذه القطع كانت فيما يظن من أقسام زخارف بعض الأثاث. ويعود عهدها إلى القرن التاسع ق.م) وأحدها يحمل كتابة نذرية باسم ملوك دمشق. وربما كانت هذه من جملة الاشياء المنهوبة من دمشق من قبل أحد ملوك الآشوريين.

في الكم ١٨٠ خراب نازي في الكم ٢٠١، نيه، في الكم ٢٢١ تل الأبيض (أقجه قلعة لدى الترك)، محطة مهمة مبنية وسط البرية على ضفاف نهر البليخ.

إن النبي إبراهيم الخليل عليه السلام استقر مدة مديدة في هذا المكان قبل أن يستأنف سيره نحو أرض كنعان، بنت قبوئيل بن ناحور، تركه إبراهيم واستبقى فيه اخاه ناحور. ثم بعد مدة أرسل عبده أليعازر ليفتش له على رفقة ليزوجها بابنه اسحق. وقد كان التقاء الرسول مع الفتاة المذكورة قرب نبع يدعى (عين العروس) على بعد نحو ٢ كم من جنوب المحطة الحالية. وفي هذه العين يكثر وجود سمك الشبوط المقدس. وقد سافرت رفقة من هنا مع العبد (الاصحاح ٢٤) من سفر التكوين. وإلى هذه القرية ايضاً ارسلت فيما بعد رفقة ابنها المفضل يعقوب لينتقي له زوجة من بين بنات أخيها لابان، ولكي يتجنب الزواج ببنت حث، وهو مالم تكن ترغبه لابنها. ومن زواج يعقوب بليئة جاء روبين وشمعون ولاذى ويهوذا ويساكر وزبولون، ومن زواجه ببلهة جارية راحيل جاء دان ونفتالي، وزواجه بزيلخة جارية ليئة جاءه جاد واشير، ومن زواجه براحيل جاءه يوسف، وهي بمعنى أن تسعة أنبياء اعقبوا فيما بعد ١٢ سبطاً لبني اسرائيل (الاصحاح ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١).

من تل أبيض إلى الرقة (نحو ١٠٧ كم، إلى الجنوب، لحب)

يترك في تل أبيض على اليمين لحبان يتوجهان إلى الجنوب ويصلان كلاهما إلى الرقة. أحدهما على ضفة البليخ اليمنى والثاني على ضفة البليخ اليسرى، اللحب على اليمين يمر في الكم ٤٢ قبل السجن وفيه قرية حديثة استعمرتها جالية من مهاجري الأرمن ممن تخلصوا من مذابح الحرب العامة.

في شرقي تل أبيض يجتاز القطار وادي البليخ الخصيب ثم يدخل في سهل متسع يزدان في فصل الربيع بقطعان ومضارب كثيرة للأعراب الرحل - في الكم ٢٦٢ كوجر - في الكم ٢٨٣ التويم - في الكم ٣٠٥ تل حمود - في الكم ٣٢٤ يعبر القطار نهر الخابور القديم أحد روافد الفرات، ويصل إلى رأس العين. هي القديمة، كانت مستعمرة رومانية منذ عهد شيموس سيفروس. وقد حصلت على نعم، ذكر ياقوت البليخ فقال: اسم نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون. وأعظم تلك العيون عين يقال لها الدهبانية في أرض حران فيجري نحو خمسة أميال، ثم يسير إلى موضع قد بنى عليه مسلمة بن عبد الملك حصناً يكون أسفله قدر جريب وارتفاعه في الهواء أكثر من خمسين ذراعاً وأجرى ماء تلك العيون تحته، فإذا خرج من تحت الحصن يسمى بليخاً ويتشعب من ذلك الموضع أنهار تسقي بساتين وقرى ثم تصب في الفرات تحت الرقة بميل. وقال عن حصن مسلمة: هو بالجزيرة بين رأس عين والرقة بناه مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وبينه وبين البليخ ميل ونصف وشرب أهله من مصنع فيه طوله مائتا ذراع في عرض مثله وعمقه نحو عشرين ذراعاً معقود بالحجارة وكان مسلمة قد أصلحه والماء يجري فيه من البليخ إلى نهر مفرد في كل سنة مرة حتى يملأه فيكفي أهله بقية عامهم، ويسقى هذا النهر بساتين حصن مسلمة وفوهته من البليخ على خمسة أميال وبين حصن مسلمة وحران تسعة فراسخ وهو على طريق القاصد للرقة من حران. ومما ذكره أيضاً مسكة: قريتان على البليخ قرب الرقة يقال لها مسكة الكبرى ومسكة الصغرى.

تئودوس الأول، فسميت باسمه وصارت مدينة محصنة ومركز حامية، نهبها تيمورلنك في أواخر القرن ١٤،

في رأس العين عيون ثرة جميلة تنصب في الخابور فتزيد مياهه إلى ثلاثة أضعاف، وفي قرب هذه العيون ساحة متسعة من الأطلال الأثرية. وكيفما تجولت تتعثر بقطع مكسرة من البازلت ولاسيما بعتبات أبواب. ويظهر أن هذه البقعة قديماً كانت جد واسعة.

وقبل الدخول إلى المحطة يرى على اليمين (تل حلف) مكان مدينة حثية، نقبها البارون ماكس فون اوبنهايم في سني ١٩١١ - ١٩١٣ وفي سني ١٩٢٧ - ١٩٢٩ وهي دون

ريب الواردة في النصوص الآشورية. وأجل الآثار التي اكتشفها البارون المذكور يعود تاريخها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وقد كانت تزين قصر كيارا ابن هادياني، وقد نقل نصف هذه الآثار إلى متحف حلب ونصفها إلى متحف برلين.

وثمة من رأس العين إلى الحسكة لحبان للسيارات أحدهما يسير على ضفة الخابور اليمنى والثاني على اليسرى، وطولهما ٧٥ كم.

في الكم ٣٦٣ عامودا قرية كبيرة وهنا يجتاز القطار نهراً صغيراً اسمه زيركان (زرقان) في الكم ٣٧٨ الدرباسية، ومن هنا تبدأ الأراضي ذات الخصب الشهير الممتدة في سفح جبل ماسيوس (جبل الطور) الروماني، وهو منحدر صخري طويل ترى على قمته مدينة ماردين قد جثمت وظهرت من بعد شاسع كأنها وكر نسر حقيقي.

من الدرباسية إلى الحسكة ٧٠ كم

في الكم ٤١٠ محطة تل حليف ـ يترك على اليمين عن بعد ٢ كم (عامودا) وهي القديمة قرية كبيرة آخذة في النمو، سكانها أكراد ونصارى وعرب من عشيرة وعددهم ٢٠٠٠، وفي شمالي عامودا داخل حدود تركيا خربة دارا الأثرية، بناها سنة ٥٠٤ الامبراطور اناسطاس، مبنية فوق ثلاث روابي يجري فيها نهر.

في الكم ٤٣١ قصر سرجه خان ـ سمي بذلك لوجود برج بيزنطي وأنقاض حصن خراب في قرب المحطة.

ذكر ياقوت رأس العين فقال: مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودينسر وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حران وهي إلى دينسر أقرب بينها نحو عشرة فراسخ. وفي رأس العين عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور وأشهر هذه العيون أربع هي عين الآس وعين الطور وعين الرياحية وعين الهاشمية، وفيها عين يقال لها خسفة سلامة فيها سمك كبير ينظره الناظر كأن بينه وبينه شبر ويكون بينه وبينه مقدار عشر قامات. وعين الصرار هي التي نثر فيها المتوكل عشرة آلاف درهم ونزل أهل

المدينة فأخذوهما لصفاء الماء ولم يفقد منها شيء فإنه يبين مع عمقها ما في قعرها للناظر من فوقها وعمقها نحو عشرة أذرع وربما أخذ منها الشيء اللطيف لصفائها. كذا قال أحمد بن الطيب لاني اجتزت أنا برأس عين ولم أر هذه الصفة، وتجتمع هذه العيون فتسقي بساتين المدينة وتدير رحبتها ثم تصب في الخابور. وقال أحمد بن الطيب أيضاً وفيها عين مما يلي حران تسمى الزاهرية كان المتوكل نزلها وبنى عندها بناء وكانت الزوارق الصغار تدخل إلى عين الزاهرية وإلى عين الهاشمية وكان الناس يركبون فيها إلى بساتينهم وإلى قرقيسيا إن شاؤوا قلت أنا، أما الآن فليس هناك سفينة ولا يعرفها أهل رأس عين ولا أدري ما سبب ذلك، فإن الماء كثير وهو يحمل سفينة صغيرة كما ذكروا، ولعل الهمم قصرت فعدم ذلك. قال، وبالقرب من عين الزاهرية عين كبريت يظهر ماؤها أخضر ليس له رائحة فتجري في نهر صغير وتدور به ناعورة يجتمع مع عين الزاهرية في موضع واحد ينصبان جميعاً من موضع واحد في نهر الخابور. وقال القلقشندي في صبح الاعش إن رأس العين هي أول مجن ديار ربيعة من جهة ديار مضر في الجزيرة الفراتية.

في الخط: داخل الحدود الشامية ضيعة اسمها تل عفر.

في الكم ٤٤٦ نصيبين، مركز قضاء، بليدة في حدود تركية، سكانها ١٢٠٠، فوق نهر الجغجغ القديم أحد روافد الخابور. هي القديمة، المذكورة في النصوص الآشورية باسم نصيبينا وقد استعمرها اليونان السلوقيون في حينهم وسموها (أنطاكية ميكدونية) واستولى عليها الرومانيون في سنة ٦٩ ثم استعادها ألبرت من الرومان. ثم أخذها الرومان ثانية وجعلوها الممر الأكبر لحملاتهم ضد الفرس الساسانيين وفي القرن الخامس والسادس كانت نصيبين بلدة ذائعة الصيت في جامعاتها ولاسيما بمدرستها الخاصة باللاهوت. قال القلقشندي هي قاعدة ديار ربيعة وهي مخصوصة بالورد الأبيض لا يوجد فيه وردة حمراء. وفي شمالها جبل عظيم يقال إنه الجودي الذي استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام. منه ينزل بنهرها حتى يمر على سورها وعليه بساتينها ونهرها يسمى الهرماس، وبها عقارب قتالة.

كانت بقعة نصيبين فيما مضى خصبة جداً، إلا أنها اليوم أصبحت وبيلة بحكم وفرة المياه ورداءة توزيعها في الري، ولم يبق من المدينة القديمة سوى ساحة

واسعة من الخرائب. وفيها مما يستحق الزيارة كنيسة السريان الباقية المنسوبة لمار يعقوب المبنية في القرن الرابع والمنقلبة إلى كنيسة في عهد يوشانوس.

وقال ياقوت ما ملخصه: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها على مايذكر أهلها اربعون ألف بستان بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام وبين دنيسر يومان عشرة فراسخ وعليها سور وكانت الروم بنته وأتمه آنو شروان الملك عند فتحه إياها. وذكر أن آنوشوان حاصرها وماقدر على فتحها، فأمر أن تجمع إليه العقارب من قرية بايران فرماهم بها في العرادات والقوارير حتى ضاق أهلها وفتحوا له البلد وذلك اصل عقارب نصيبين وأكثر العقارب في جبل صغير داخل السور في ناحية من المدينة ومنه تنتشر العقارب في المدينة كلها. ونصيبين مدينة وبئة لكثرة بساتينها ومياهها، فتحها عياض بن غنم عنوة وقيل صلحاً.

وإزاء نصيبين داخل الحدود الشامية انتصبت بليدة حديثة اسمها (القامشلي) من كثرة القصب الذي كان ثمة على ضفة الجغجغ سكانها ١٨٠٠٠ جلهم نصارى سريان وكاتوليك وأرمن قديم ومسلمون عرب ويهود من حوالي تركيا ثم جوالة من عرب بلاد الشام (دمشق وحلب) وهي مركز قضاءه وفيها سوق حافل بالحوانيت والحركة التجارية، وكنائس نصرانية ويهودية ومسجد ودار حكومة ومستوصف ومدرسة ابتدائية والقامشلي لم تكن حتى سنة ١٩٢٦ سوى نقطة عسكرية إفرنسية صغيرة ثم التف حولها المهاجرون المذكورون ومازالت تتقدم بسرعة حتى صارت إلى ما هي عليه الآن، وهي وسط براري ومزروعات خصبة. (من القامشلي إلى الحسكة لحب صالح للسيارات، ٩٣ كم، يسير على ضفة الجغجغ، في اتجاه الجنوب الغربي في الكم ٤٤٨ تل زيوان وفي قربها قرية المحمقية ضيعة في الحدود الشامية، ثم تأتي محلات قبور البيض، تل علو، تل كوشك. ومن نصيبين إلى الموصل نحو ٢٠٠ كم. (محطة تل كوشك) . أكثر مباني هذه البليدة من اللبن ومن طراز بعض مراكز الأقضية، والدور الحجرية هي دار الحكومة والبلدية ودور بعض الموظفين التي بنتها البلدية ودور موظفي المصرف السوري وشوارعها مستقيمة ومنظمة ومتعامدة، وفي الوسط شارع عام يمتد في استقامة طريق عين ديوار - الحسكة.

الفصل السابع

حمص وحواليها

طرق الوصول ـ السكك الحديدية، من طرابلس ١٠٢ كم و ٣٠٠م ص ـ من بيروت ١٠٥كم ص من حلب ٢٠١كم ص من دمشق ٢٠٨كم ص.

الطرق المعبدة ـ من طرابلس ١٠٥كم ص ـ من بريت (عن طرابلس ٢٠٢كم)، (عن بعلبك ٢٠٢ في التخطيط الجديد، ١٩١ في التخطيط القديم، ص.. من حلب ٢٠٢كم ص من دمشق ١٩٠كم ص.

حمص ـ مدينة سكانها ٥٥٠٠٠ كم أكثرهم مسلمون، إلا نحو ١٥٠٠٠ نصراني سوادهم الأعظم روم أرثوذكس وهي مركز محافظة تابعة لدولة سورية، وفيها محكمة صلح ومحكمة شرعية. وقد وقعت حمص وسط سهل أفيح خصب، علوه ٤٩٥م. وفي باب فرجة بين جبال النصيرية وجبال لبنان، وهذه الفرجة تساعد على بلوغ الساحل بسهولة مما جعل حمص سوقاً زراعياً ذات مكانة ومركز تموين للقرى والبادية المجاورة، ونقطة اشتباك السكك الحديدية (خط رياق ـ حلب وخط حمص ـ طرابلس). إلا أن الصناعة فيها قليلة الازدهار (نحو ٢٠٠٠ نول لنسيج الحرير)، وقد نال سكان حمص بين كل بلاد الشام شهرة ذات خاصية مفرطة أساسها التعصب. ولو أن نساء النصارى يخرجن متحجبات على الزي القديم. إلا أن طراز حياتهم مال إلى التبدل قليلاً.

ومدينة حمص منبسطة مستوية تمتد على هضبة غير متناهية. إلا أن أحياءها الحديثة تنمو وقد ازدهت بمكان للنزهة. أما الأبنية القديمة فذات منظر متجهم يبدو للرائي بشدة حين القدوم من دمشق أو من حماه. وهذا التجهم يعود بعض السبب فيه إلى لون الأحجار القاتمة التي تشاد بها مباني حمص، كما يعود أيضاً إلى قلة الماء والخضرة، وذلك لأن العاصي بعيد نحو كيلو متر، ويشرب سكان حمص من قناة اشتقت من العاصي تصفي البلدية ماءها. وفي مكان على العاصي اسمه ميماس تقام في فصل الصيف مقاهٍ في الهواء الطلق.

وفي حمص محطة للسكة الحديدية تبعد نحو كم يفد إليها كل يوم قطار واحد من حلب ودمشق وبيروت وطرابلس. وفي قرب هذه المحطة مطار للطائرات العسكرية. وفيها من الفنادق فندق المحطة، وفندق رغدان قرب دار الحكومة وثمة ثلاثة فنادق أخرى وسط أو تحت الوسط، وثمة من المطاعم الحسنة مطعم المحطة ومطعم الروضة، وثمة حول دار الحكومة عدة مقاهٍ أجملها مقهى الروضة وفيها من المدارس مدرسة التجهيز الرسمية (التي لم يبن لها دار خاصة بعد) ومدرسة الآباء اليسوعيين ومدرسة الروم الأرثوذكس ومدرسة البروتستانت الإنكليزية.

التاريخ: ولو أن حمص موجودة منذ أقدم زمان التاريخ إلا أنها لم تذكر للمرة الأولى إلا في عهد الرومان باسم Emejat ففي هذا العهد اشتهرت بكونها مسقط رأس الأكابال رئيس كهنة معبد الشمس وكان فتى، وهو الذي نصب فيما بعد إمبراطوراً في سنة ٢١٨، وقد منح الأكابال موطنه حمص امتيازات متنوعة أدت إلى ازدهارها الذي ازداد أيضاً بحكم موقعها الجغرافي.

إن الحجر الأسود في أمسا المسمى (إله الشمس) الذي اختص الإمبراطور المعتوه باسمه لنفسه، كان فيه نقوش بارزة ومحفورة جعلت في وقت واحد ذكراً وأنثى، وقد نقل الأكابال حجره المقدس إلى روما ووضعه قرب نارال، وبعد أن قتل مذبوحاً أعيد هذا الحجر إلى أمسا.

ولما استولى العرب على حمص سنة ١٥هـ ٦٣٦ جعلوها مركز منطقة إدارية، إلا أنها لم تلعب في التاريخ السياسي إلا دوراً طامساً ففي كل العصور المتوسطة كانت تحت سلطة أيدي أمراء عديدين، وبعد غارات المغول صارت تتبع لمدد قصيرة دمشق أو حماه وقد حافظت خلال القرن ٢٩ على مكانة ثانوية رغم الثورة التي حاولت بها أن تتخلص من حكم المصريين.

إن زيارة المدينة لا تبدي أي جاذبية خاصة، ولا تستدعي أكثر من ساعتين، فالزائر يمل بسرعة من منظر شوارعها الكئيب، ومن مبانيها التي يكاد يكون جميعها غير ذي طائل.

إذا غادر الزائر السراي يطلع الأسواق، وهي غريبة المنظر وحافلة، إلا أن أكثرها إمتاعاً هو سوق الحرير. وفي مدخل هذا السوق يوجد (الجامع الكبير)

الذي شيد مكان بيعة، ولكن ليس في عمارة هذا الجامع ما يستحق النظر سوى منارته الشيقة.

وإذا بعد الزائر عن الأسواق متجهاً نحو الشرق يسير في متاهة من الدروب الضيقة التي يكاد يتيه فيها، أو إذا سار في طريق دمشق لوحدها يبلغ القلعة.

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية للسور الباقي من العصور المتوسطة يلحظ في خارج الخندق أطلال برجين أو مدفنين كشفتهما بعثة مسينل روبوس سنة ١٩٣٠، وهما برجان مربعا الشكل في وسطهما درج، طول ضلعهما نحو ١٠ أمتار، وهما من القرن الأول الميلادي. وإذا استمر سائراً نحو القلعة، يجد على بعد ١٠٠ متر نحو الشرق والجنوب الشرقي من المدرسة الإنكليزية بيتاً لأسرة النداف فيه مغارة تحت الأرض كانت كنيسة من القرن الخامس الميلادي، وفي قربها أطلال مدفونة لدير قديم.

أما القلعة التي في الطواف حولها من الخارج متعة، كانت تشغل فيما مضى قمة تل كغيرها من القلاع الكثيرة في بلاد الشام. ولكن قلعة حمص قائمة على ما يظهر فوق تل صخري، أي ليس فوق تل صناعي وقد خربها إبراهيم باشا ولم يبق منها سوى بضعة أبراج مهدومة كلها أو بعضها، وقد عثروا فيها على أنقاض تحصينات من عهود عريقة في القدم وفي ذروتها منظر جميل مشرف على المدينة وعلى السهول المحيطة بها وتحتاج زيارتها إلى رخصة من قائد الموقع العسكري في حمص.

ويمكن الوصول في الجنوب الغربي من القلعة إلى بقايا أحد الأبواب القديمة واسمه (الباب المسدود)، فإذا اجتاز الزائر هذا الباب يجد نفسه فوراً أمام رحبة فيها مساجد ومساكن قديمة ذات مزايا خاصة.

وإذا عاد إلى السراي يمكنه إذا سار نحو الشرق أن يبلغ باب تدمر، وذلك بعد اجتياز ممر، فيشاهد فيه مناظر ممتعة للسور القديم وإذا سار نحو طريق حماه يصادف على يمينه جامعاً كبيراً جديداً يحتوي على ضريح خالد بن الوليد فاتح سورية العربي، ولكن ليس في هذا الجامع متعة فنية.

وألطف أيام السنة التي تستحق فيها حمص الزيارة هي الربيع بسبب جودة هوائها في هذا الفصل وبسبب الأعياد الخاصة بها خلاله، وهذه الأعياد دينية

الصفات وذات مناظر شيقة جداً. وهي تجري خلال خمسة أيام خميس متعاقبة، آخرها يتقدم بانتظام يومين عن عيد الفصح لدى الروم الأرثوذكس.

الضواحي ـ ١ ـ مشرفة وسلمية (٢٠كم و ٤٨كم نحو الشمال الشرقي، طريق صالح للسيارات وهو جيد في الفصول الجافة). يخرج من حمص من طريق حماه الذي سيأتي وصفه وينحرف إلى اليمين عند أول شارع قرب جامع خالد بن الوليد الذي قبابه ومآذنه تظهر على اليمين ثم يتبع الجانب الذاهب إلى قرية دير بعلبة أما إذا كان الفصل ممطراً والأرض هناك موحلة فيخرج من باب تدمر فيجد فيه لحباً يخترق كروم حمص.

في الكم ٥ دير بعلبة، قرية مسلمة صغيرة يدل اسمها فقط على ماضيها. وعند الخروج منها يشاهد بضعة تلال ثانوية ثم بعد قليل يمر من سفح تل Ade وهذا يترك على اليسار وهذا التل أحد خط التلال الأسود وأقصاها للشرق وهذا يتبع قرب اللحب الذي تجتازه أما التلال الممتدة نحو الغرب فهي تل الباشا، تل الصغير، تل المجوز، تل الداب وخط الدفاع هذا المبني في الوادي كان لأجل الدفاع عن مدينة قطنا (المشرفة) من جنوبها الغربي.

٢ كم المشرفة ـ وهي القديمة تظهر هذه المدينة عن بعد بسورها المربع الشكل الذي دورته ٤كم بعد أن يجتاز السائر وادي الزورات فوق جسر، يدخل قرية المشرفة من الباب الغربي القديم للمدينة الأثرية. وهذا الباب مشيد بقطع رخام ضخمة يتجاوز حجم البعض منها أربعة أمتار مكعبة.

إن الحفريات قد جرت تحت نفقة كل من العهد الفرنسي ودولة سورية وقام بها الكونت دوبوليون بالاشتراك مع المسيو يلوا دوروترو.

وإذا ولج الزائر القرية ينحرف نحو اليسار ـ ولما كانت المدينة القديمة مترامية الأطراف (كيلو متر مربع) يحسن أن يظل الزائر في سيارته يتمكن من الطواف حول المباني، ثم يعود إلى القرية ليزور أولاً مصنع فيري وهو بناء مؤلف من رخام ضخمة كالتي ذكرناها في الباب الغربي، ومن ثم يبلغ النشز الذي عليه الكنيسة حيث تعمل الورشة الكبرى للحفر. وكل هذا القسم من القرية مع نشز الكنيسة كان يؤلف المدينة الملكية أو المدينة الداخلية الحاوية على أهم المباني.

أول ما يصل الزائر في الخرائب إلى الباحة الأمامية أو حرم هيكل نيكال فيجد باحة مكشوفة واسعة معدسة أرضها بباتون من الأصل يحيط بها جدار من الأجر المشوي (اللبن) وثمة على اليمين أي في الجهة الغربية يلحظ أرض بناء البحيرة المقدسة المخصصة للآلهة وهذه الأرض هي باحة مكشوفة ثانية مربعة الشكل كانت محاطة من أصلها بأربعة أعمدة ضخمة جداً لا تزال أسس الثلاثة منها موجودة وفي وسط هذه الباحة خابية مدورة من حجر البازلت تقوم مقام الحوض، وأمام المعبد يوجد أنقاض حوض ثانٍ مزدوج ومربع الشكل ومن حجر البازلت أيضاً.

ويعود الزائر إلى الباحة الأمامية حرم الهيكل الوحيد فيجد في الزاوية الشمالية الشرقية (أي في المنتهى وعلى اليمين) المعبد الأصلي لنيناكال. وهذا المعبد عبارة عن سور مستطيل الشكل كان محاطاً في الأصل ببلاطات منحوتة لا يزال اثنتان منها موجودتين في الجهة الشرقية. وإذا مر من بين هاتين البلاطتين يدخل قدس الأقداس الخاص بنيناكال وهو عبارة عن حيصة ضيقة مرممة.

(إن قدس الأقداس هذا من الطراز السومري، وهو مثل كل هيكل، يعود فيما يظهر إلى الأسرة الثالثة من حكام أور (سنة ٢٢٠٠ ق.م). وكان على ثمة سجف صفين من الجوخ الفاخر أو من خشب الأرز، يسد المدخل ويجعل جوف البناء مظلماً. ولم يكن ليسمح بدخوله إلا للكاهن الأعظم، وقد عثر على المصباح الذي كان يستعمله هذا الكاهن على الأرض المعدسة بالباتون وعثروا حوله أيضاً على اثني عشر لوحاً مكتوباً تحتوي بالحروف المسمارية على قائمة موجودات هيكل نيناكال (سيدة قطنا)، وهيكل أرباب الملوك، ولا شك لأن هذا الهيكل الآخر هو في المكان المرتفع الذي سيأتي ذكره، وقد قرأ المسيو هذه الألواح ومنها كشف للمرة الأولى اسم المدينة والهيكل.

ثم يرجع الزائر إلى الباحة الصغيرة المسورة التي تكون أمام المعبد فيرى في شرقه باب الهيكل المحصن بمدخل فخم ذي واجهات أربع وهو من الآجر غير المشوي، ففي اليسار كان ولا ريب موضع تمثال عظيم موضوع ضمن كنيسة لم يبق من آثارها سوى جدران الأساس من الآجر.

وبعيد ذلك المكان إلى الجنوب أطلال مبانٍ أقل قدماً من الهيكل ذات مستوى أعلى منه بمقدار وثمة بيعتان مربعتان تتصلان في الشرق وفيهما أدنان من الحجارة المبنية، وكلاهما متشابهتان تشابهاً تاماً ويلحظ أن الأرض المعدسة بالباتون ذات انحدار وأنه هنالك لطخات من الدم قد ظلت آثارها على حواجز الدن الذي في قعره مصطبة وقد حسب هذا الترتيب من البناء أنه مخصص إلى الاحتفالات للعهد المدري أي إلى الثور المخصص للضحية الذي يتبعه تعميد بها لدمه.

وبعد زيارة مكان التضحية يجتاز الباحة الصغيرة المسورة العارض ذي الخط الموصل بين الزوايا فيبلغ هيكلاً مختلفاً عما قبله كل الاختلاف. وهو المكان الأعلى أو (البيت المرفوع) ويدخل إليه من الزاوية الشمالية الغربية ومن غرفة متوسطة.

(إن هذا المكان الأعلى) أو (البيت المرفوع) يمثل الشكل الابتدائي الأصلي لمعابد الأمم قبل السامية، وقد كانت هذه المعابد في الأصل مؤلفة من نصب واحد أو أنصاب عديدة أو من أحجار مقدسة منصوبة فوق نشز أو جبل مظلل بشجرة، وقد انقلبت الشجرة فصارت آلهة أنثى، وانقلب النصب أو الأنصاب فصارت آلهة ذكوراً. ويعتبر التوراة هذه المعابد وثنية. ويظهر أنه ينبغي تمييز النموذج الكنعاني (في فلسطين) عن النموذج السومري الممثل هنا. فالأول كان يؤلف بقصد الضحايا المهيئة للذبح، والثاني كان يخصص لأجل الغسل ولأجل الضحايا غير المعدة للذبح. ويظهر أن (البيت المرفوع) في قطنا قد ذكر في الألواح (الرقم) ذات الكتابات المسمارية باسم هيكل آلهة الملك والمذبح ذو الحفر المدورة المحفورة الذي يذكر بالحفر الابتدائية المنقورة في الصخر، كان يستعمل كمنضدة للنذور وكانوا عثروا على قطعة من البرونز الصيلامي ظهر لنا فيه ملك يتقدم للصلاة في طلوع الشمس في معبد من هذا الطراز.

إذاً المكان الأعلى في قطنا يتألف من سور أولي مركب من جدار من اللبن يحيط بأرض معدسة مستطيلة الشكل وثمة دن مدور كان مخصصاً للغسل، وفي الجنوب الشرقي سوران صغيران مربعا الشكل كانا في البدء محاطين لا يزال يرى فيها مواقع الأقدام (شقوق مستطيلة نحو ١٢ سم) فالسور الأيسر ليس له إلا في ثلاث

جهات، بينما هو مسدود من الأمام بمذبح ذو حفر مدورة من طراز راق جداً (حجر مستطيل ذو إحدى عشرة عقدة) أما من الخلف فيوجد دعامتان من الحجر المبني مازالتا قائمتين ولا يعرف ما إذا كانا يمثلان الآلهة أو كانا يسندان تماثيل آلهة.

والسور الأيمن كان يحتوي على جذع الشجرة أو الآشيرا وقد وجدت القاعدة (الرجل) في المكان نفسه وكان خراب المعبد بتأثير صاعقة انقضت على الآشيرا.

ومن المكان الأعلى ينتقل الزائر إلى بهو الجرار أو الخوابي في الشرق. ففيه يرى الزائر أنقاض مخزن كان فيه نحو أربعون خابية مخزونة باسم الهيكل أو باسم القصر، ثم يرى الباحة الأمامية أو الباحة الشمالية مع بحرة مدورة من الحجر الحري قد نفذت في الأرض وكانت في الأصل محاطة بسور.

وإذا دار إلى اليمين أي إلى ناحية الجنوب يلحظ قاعدتي دعائم متجاورة وخابية مدفونة في الأرض حتى العنق، ثم يجتاز (بهو الصلاة) الأسود الذي اكتشفت فيه قطع أثرية مهمة ورأس كبش من البرونز وغيرها، وعلى اليسار بهو الحصر (جمع حصير) وهو يستحق النظر لما فيه من الزوايا، وقد ظلت آثار الحصر في أرض هذا البهو حتى اليوم.

ويلقي الزائر نظرة إلى اليمين نحو (بهو الإناء الكبير) الذي فتك به الحريق معظم فتكه حتى أذاب صخور البازلت ثم يعود أدراجه نحو (بهو الحصر) ويمر إلى اليمين ليلج (بهو العرش الكبير) وثمة .. مصطبة أو مرتبة ظلت في شماله حتى الآن ومنها كانت تسميته.

وينبغي ألا ينتهي الزائر من زيارة المباني التي على نشز الكنيسة دون أن يصعد فوق قدس الأقداس العائد لنيناكال، حيث يجد منظراً يحيط بجميع آثار المشرفة، وفي شمالي نشز الكنيسة صخر منحدر قد طمرته الأتربة يمر به الزائر، وهذا المنحدر ما هو إلا سطح منحدر لسطح صناعي. فالهياكل والقصر قد تمركزت في الواقع على هضبة من الأجر غير المشوي.

وهنا يمكن أن يعود لركوب السيارة ويطوف حول الأسوار. إلا أنه إذا كان يرغب استئناف السير من ثم نحو سلمية يمكنه أن يؤجل هذا الطواف إلى حين السفر فيذهب مباشرة نحو (قبة لوط).

وإلا يمكنه أن يخرج من المدينة من بابها الشمالي، تاركاً بساتين المشرفة على يساره فيتسنى له أن يطوف حول السور الشمالي من الخارج بين الخندق ومرتفع التراب، ثم يدور إلى الزاوية الشمالية الشرقية (بناء كارمون كانو على اليمين) فيدخل ثانية إلى المدينة القديمة من بابها الشرقي، ثم يقف على بعد نحو مئة متر لينزل ويصل ماشياً على قدميه إلى (قبة لوط) التي تحسب أنها ضريح أحد ملوك قطنا.

وثمة سراديب وآبار صالحة للاجتياز والوصول نوعاً ما توصل حتى وسط القبة (لابد من رفيق). وتحت التليلة الحجرية يوجد مصطبة مدورة من الآجر غير المشوي دون غرفة داخلية.

ثم يعود لركب السيارة ليصل إلى البيت الذي تقيم فيه بعثة التنقيب. ويترك على يمينه ويساره عدة ورشات للتنقيب. وأجلها شأناً تلك التي في الباب الجنوبي، ففيها أطلال مباني الدفاع ودور السكن وفيها مما يستحق النظر غرف الوضوء والاغتسال وهي شبه آبار معدسة وفي خارج الباب منظر جميل نحو الأسوار والخنادق.

ولأجل الذهاب نحو سلمية يخرج من الأسوار من الباب الشمالي. أطلال غير ظاهرة لخربة (الشباك) ـ ٢٨كم تل عمري ـ قرية شركسية في بطن الوادي ـ ٣٨ كم، يمر من بين قريتي شكارى ويرى فيها التلول التي كانت بلا ريب القديمة، ٤٨ سلمية ٢ ـ بحيرة حمص ذكرت في من حمص إلى تدمر عن طريق الفرقلس، ص إلى دمشق ص إلى بيروت.

من حمص إلى حلب

بالسكة الحديدية ٢٠١كم، في كل يوم قطار إلى حلب ومنها، والمدة في القطار ٤,٥ ساعة تتجه السكة الحديدية نحو الشمال ـ في الكم ١٥,٦ تل بيسة (علوها ٤٥م) ومن ثم يدخل في البقعة البركانية المسماة (أبو عر)، ثم تعبر السكة نهر العاصي، ثم تعبر أحد روافده ـ في الكم ٣,٧٠ حرب نعسا (علوها ٣٧٨م) ويظل القطار سائراً في سهول الوعر الملآنة برجوم الأحجار البركانية، أو تمر بقرية دير

الفرديس (على اليمين) وبيرين (على اليسار) ومناظر هذه القرى كئيبة متجهمة . في الكم ٤٥,٦ كفر لهم (٣١٨م) على اليمين تقع القرية وهي ذات دور حجرية سوداء مزخرفة، وفي وسط القرية كنيسة . ومن ثم ينسد الأفق الشرقي على يمين السائر جبل العلا، وينتصب في الشمال جبلا قرون حماه.

في الكم ٤٧,٤ حماة (علو ٣٠٧م) سيأتي وصفها . ويدور الخط الحديدي حول المدينة فيشاهد الراكب أحياءها القريبة من القلعة ورياضها الممتدة في وادي العاصي . ثم يجتاز القطار نهر العاصي فوق الجسر الحديدي قرب قرية كازو.

ومن ثم إلى أن يبلغ حماة تمتد سهول شاسعة حالية ومطردة المناظر، وقد يصادف هنا وهناك بضعة قرى ذات بيوت من القباب المخروطية . في الكم ٧١,٦ قمحانة (٣٢٨م) في الكم ٨٥,٧ كوكب (٣٤٥م) في الكم ٩٩,٩ الحمدانية (٣٥٠م) في الكم ١١٥,٥ أم الرجيم (٤٣٤م) في الكم ١٣٠,٥ العوجا (٣٨٢م) في الكم ١٤٢,٧٠ أبو الظهور (٣٥٢م) ومن ثم يصير السهل مرزغياً ويدعى (المطخ) . في الكم ١٥٥,٣ تل حينة (٢٤٥م) في الكم ١٧٢,٢ الحميدي (٣٠٢م) في الكم ١٨٧,٦ الوضحي (٣٢٦م)، وهنا يظهر وادي نهر قويق وفيه قليل من البساتين والأشجار، وبعد قليل تبدو قلعة حلب بغتة، ثم تبدو مآذن حلب من بين بساتينها (وهنا منظر جميل) على اليسار طريق حلب إلى إنطاكية يشرف عليه مشهد الدكة (شيخ محسن) ومشهد الحسين . في الكم ٢٠١ حلب.

أما الطريق المعبدة فطولها ٢٠٢ كم، وهي جيدة وفي سهول قليلة التموج يخرج من حمص من شمالها من قرب جامع خالد بن الوليد ويدخل في سهل مترامي الأطراف. منبسط كل الانبساط مزروع أو محروث . وقد جرت في هذا السهل معركة طاحنة سنة ١٢٨١/٦٥٩ بين السلطان قلاوون والمغول، كانت الدائرة عليهم. ويوازي الطريق المعبدة السكة الحديدية خلال بضع دقائق.

في الكم ١٢ تلبيسة . على اليمين، قرية كبيرة، قسم منها فوق تل أثري وفي هذه القرية يجد القادمون من الجنوب إلى هذه الأنحاء للمرة الأولى نموذج المساكن الخاصة بشمالي الشام وغربي والجزيرة. فكل بيت مؤلف من غرفة مكعبة الشكل تعلوها قبة على شكل قالب السكر المخروطي، مبنية من اللبن، ويدخل

إلى البيت من باب واطىء. وهذا النوع من البنيان الذي لا حاجة لاستعمال الخشب فيه كان مستعملاً في بلاد آشور ومصر القديمة. وبعد تلبيسة يهبط الطريق نحو العاصي من وادٍ انحداره شديد.

في الكم ٩٢١ الرستن، قرية كبيرة فوق الأكمة الناتئة كعرف الديك التي على يمين الطريق، القديمة وقد كان فيها أمراء عرب في عهد الفتح الروماني. وبقعة الرستن من أكثر البقاع لفتاً للأنظار في طريق حمص - حلب، لأن بيوت القرية المبنية جميعها من حجر البازلت تصطف على ذروة المنحدر الصخري للأكمة، وتجد نساء هذه القرية اللواتي يلبسن فساتين زرقاء وسراويل حمراء يهبطن من ذلك المنحدر، ثم يتوغلن أطراف الخط كله لإملاء الماء - ثم يعبر الطريق العاصي فوق جسر عربي قديم، وبعد الجسر سد أثري، وعلى يمين الجسر خان قديم ذو جدران متعددة الألوان، وثمة ناعورة، وثمة إلى الوراء منظر جميل نحو الرستين ثم تصعد الطريق نحو هضبة صخرية، ثم تعود للتدرج في السهل، ومن هنا ليس من شيء يستحق النظر حتى يبلغ حماة.

في الكم ٥٤ حماة - وفيها محكمة بداية وحاكم صلح ومحكمة شرعية، وهي إحدى المدن الهامة في سورية الداخلية، وعدد سكانها، بما فيه سكان القرى عمل قضائها، نحو ٥٥٠٠٠ منهم ١١٠٠٠ نصارى، وحماه، مثل حمص، قد حفظت مكانتها بحكم أن فيها سوقاً للبدو الرحل ومركز صناعة الحرير (وقد انفردت هي بالمنسوجات الحريرية والقطنية، لاسيما بمناشف الحمامات ونسيج الأقمشة القطنية أو الكتانية، وهذه تصدر أحياناً في غاية الجودة، ثم أن حماة هي المدينة السورية التي يوجد فيها أطايب الخيول الأصيلة، وإقليم حماة يا للأسف حار ورطب بحكم وقوعها على شاطئ العاصي في قعر وادٍ سحيق مسدود الجهتين (علوها ٣٠٨م) بين آكام مرتفعة، وفي الصيف ليس من النادر أن تكثر فيها حمى البرداء كما هو الحال في بقية وادي العاصي المتجه نحو سهل الغاب، ولذلك يكون من الاحتياط أن ينام المرء تحت الكمة. وفي حماة دواليب خشبية كبيرة تدعى (الناعورة) تجرف الماء من العاصي ومنها يشرب سكان حماه.

المحطة، تبعد نحو ١كم. (الفنادق): أحسنها فندق أبو الفداء الذي شيدته البلدية أخيراً، ويوجد فندقان من الدرجة الثانية أحدهما في الموقف والثاني تجاه فندق أبي الفداء، (المطاعم): وفي هذه الفنادق مطاعم لكنها لا تعجب، والتي في الأسواق أدهى وأمر (الحمامات): وفي حماه حمامٌ جميل ونظيف، (المصارف): وهي مصرف سورية ولبنان (المكاتب): مكتبة الشيخ طاهر النعسان ـ (المدارس): مدرسة التجهيز الرسمية، وقد بني لها في سنة بناء كبير صالح وثمة مدرسة للروم الأرثوذكس، ومدرسة أهلية ابتدائية (دار العلوم) في بيت العظمة الأثري. (المعابد): في حماه ٤٤ مسجداً، وكنيسة الروم الأرثوذكس، ومعبد للبروتستانت.

التاريخ ـ حماه مدينة قديمة جداً، سكنها الحثيون مدة من الزمن وفي القرن التاسع ق.م تحالفت مع مملكة دمشق الآرامية لوقف غارات الآشوريين، إلا أنها غلبت وجعلها صارغون إحدى ولاياته. وفي عهد السلوقيين جعلوا اسمها على شرف انطيوحوس اينفان الرابع، ثم افتتحها العرب سنة ٦٣٩/١٨م ثم استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٨ ثم استردها المسلمون سنة ١١١٥/٥٠٩، ثم خربتها الزلزلة سنة ١١٥٧/٥٥٢ واستولى عليها صلاح الدين سنة ١١٧٨/٥٧٤ وفي العصور العربية المتوسطة تعاورتها أيادٍ كانت تنتقل من يد إلى يد، ولم تلعب دوراً يجعلها ذات مكانة. وازدهار حماة لم يبدأ إلا في عهد الأيوبيين. فقد أعطى صلاح الدين حماه إلى أحد أبناء أخيه. وقد توفق أعقاب هذا إلى حفظ حماه وجعلها مملكة ممتازة تحت سيادة السلاطين المماليك المصريين حتى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢ وفي عهد الترك ظلت حماه مدة مركز باشوية، لكن لم تزد مكانتها عن أنها مدينة مقاطعة صغيرة.

إن حماه هي أكثر كل مدن سورية الشمالية جاذبية وأقلها تأثراً من الغرب. والشروط المادية لإقامة الغريب وإن كانت غير مرضية إلا أنه يمكن أن يقضي فيها بضعة أيام دون ملل. فوضع المدينة الجغرافي والشكل الأثري لمبانيها التي لم يتخللها أي بناء حديث، وأزياء سكانها كل ذلك قد جعل لحماة منظراً فوق الوسط يماثل ما هو موجود في حلب، بيد أن نداوة ولطافة رائعتين بحكم خضرة رياضها الممتدة على ضفتي نهر العاصي، والألوان الزاهية في دورها، والضجيج المتوالي الصاعد من

نواعيرها. ومع هذا فحماة مدينة قليلة الترحاب، شديدة الإعراض عن الأجانب، ويعد سكانها متعصبين والحالة الاجتماعية فيها تذكر عهد الإقطاع. وحماه مثل أكثر مدن الشام لا يفيد فيها ركوب المركبة، فضياع الوقت يكاد لا يذكر، ناهيك أن الماشي يتملى أكثر بمشاهدة الطرق.

إن الأحياء المبنية على ضفة العاصي اليسرى هي أكثر اتساعاً وإمتاعاً. فإذا بدأ سيره من جسر السراي، يمكن أن يقطع الشارع العريض الممتد شمالاً في موازاة نهر العاصي. وبعد قليل يصير من تحت قناطر ناعورة كبيرة، وبعدها حالاً يجد على يمينه مدخلاً فخماً قديماً ١١٨٨/٥٨٤ نصفه مطمور، ثم يسلك الشارع الذي في اتجاه من جهة المدخل ويعقب منعطفاته حتى يبلغ قصر بيت العظم (أجرة الدخول ٢٥ ق.س، وثمة مجموعة صور شمسية لهذا القصر تقدم للزائر) وهذا القصر هو المسكن القديم لأسعد باشا الذي حكم حماه حتى سنة ١١٥٥/١٧٤٢ وهو الآن مقر مدرسة دار التربية والتعليم وهذا القصر أقل بهاء من قصر دمشق وله فناءان أحدهما فوق الآخر، لهما شيء من الصميمية. وفي الفناء العلوي بهو قاعة ذات قبة أمامها صف من الأعمدة ونجارة الخشب فيها ١١١٢/١٧٧٨ حافلة ومتفتة. إلا أن الغرفة المجاورة قد حفظت برسوم أنيقة من القرن ١٨ إحداها التي على اليمين تمثل منظر حلب.

والروعة الأصلية لبيت العظم هذه في موقعها. ففي الأسطحة التي تعلو القاعة منظر غاية في الإبداع نحو ضفاف العاصي والأحياء التي على يمينه.

وبعد أن يغادر بيت العظم يسلك الشارع متجهاً نحو الشمال فيمر من قرب ناعورتين كبيرتين جداً ومزدوجتين، ثم يمر من تحت ساباط ينحرف في منتهاه نحو اليمين، فيجد نفسه فوق جسر على العاصي (وثمة ثلاث نواعير) وهناك على الضفة اليسرى بيت الكيلاني ذو القبة، وهم يؤلفون الأسرة الوحيدة في حماة المنحدرة من القديس الإسلامي عبد القادر الكيلاني. وعلى الضفة اليمنى قبة بيت العظم، وفي المجرى الأسفل للعاصي منظر جميل نحو البساتين، وعلى اليسار حمام عربي قديم وإذا عاد أدراجه وصعد في الشارع يمر من أمام جامع النوري (١١٧٢) وفيه منبر بديع الصفة من الخشب المنقوش، ومئذنته ذات الخطوط البيض والسود ممتازة بين كل مباني حماه، وبعده يبلغ التل الذي كانت قلعة حماة قائمة فوقه.

لم يبق من أطلال هذه القلعة سوى كسور من أحجار البناء ومن الجدران المبنية باللبن وجميعها تعود إلى عهود عريقة في القدم. ومن ذروة تل القلعة منظر جميل نحو المدينة وضواحيها ـ وأنسب وقت للصعود إليها هو العصر بسبب الاتجاه.

وإذا استمر على نفس الاستقامة يمر من أمام مسجد صغير له قبة (مضلعة) ذات نتوءات متطاولة بارزة وهو يدعى مسجد الحسنين، وفيه كتابة تذكر الزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ١١٥٧/٥٥٢ ، ثم يبلغ فوراً إلى تحت المئذنة الرشيقة المثمنة الأضلاع التي تعلو مدخل الجامع الكبير.

وهذا الجامع ـ هو كغيره من الجوامع الإسلامية الكثيرة ـ كان كنيسة قديمة مقلوبة عن معبد وثني أقدم منها ولا يزال يرى في حرم هذا الجامع الذي يحتوي على منبر من الخشب المنقوش من العصر ١٥ بقايا البازيليكا النصرانية والهيكل الوثني الذي تقدمها ، وفي الصحن يوجد ـ كما في المسجد الأموي في دمشق بناء صغير مرفوع على أعمدة كانت تحفظ فيه الخزينة.

وإذا استمر في سيره في نفس الشارع، ثم دار نحو اليمين يجد نفسه فوق العاصي قرب ناعورة كبيرة تدعى (المحمدية) مبنية في القرن ١٤ ، لأجل إيصال الماء إلى الجامع الكبير وإذا عبر الجسر وفوقه طاحون قديم يبلغ من طريق يمر وسط البساتين (جامع الحيات) وقد سمي بذلك لوجود أعمدة تزين نافذة في حرم هذا الجمع، وأبدان هذه الأعمدة مؤلفة من طرائز ملتوية كالحيات.

وفي شمالي حرم الجامع قبة مضلعة ذات مئذنة يوجد تحتها ضريح المؤرخ والجغرافي العربي الشهير أبو الفداء سلطان حماة (١٣١٠/٧١٠ ـ ١٣٣٢/٧٣٣). وليس في بناء هذا الجامع أي متعة فنية ولكن منظره من جهة الجسر المجاور له وشبحه الأنيق المنعكس على ماء العاصي، والبساتين النضرة المحيطة به تجعله من أجمل أماكن حماه.

ومن جسر جامع الحيات يمكن أن يبلغ المدينة إذا سار بمحاذاة تل القلعة ، ثم اجتاز الأراضي الخالية التي تمتد أمامها فيصل فوراً إلى مدخل أسواق لا تقل عن أسواق دمشق وحماه حركة ، وجلبة واحتفاظاً بطابعها الأثري.

ضواحي حماه (مصياف) ٤٥كم الجنوب الغربي ـ إليها طريق صالح إلا في فصل الأمطار تصعد السيارة من حماه في منحنى كبير من قرب باب طرابلس حتى تبلغ محطة السكة الحديدية، وتمر من أمام مقابر واسعة، ثم تلج سهلاً فقيراً وقفراً في الكم ٥ على اليسار. على بعد ٧ أو ٨ كم يلمح جبلين أدكنى اللون وأجردين. في الكم ٩ حوش مزرعة كبيرة أصفر اللون محمره وذو سطح خشبي أو ستور بألواح التوتيا التي تغطى النوافذ. في الكم ١٨ جسر ذو ثلاثة قناطر على نهر الصاروت، يشرف عليه تل، يهبط الطريق خلال ٣٠ دقيقة في منعرجات بسيطة ويحاذي في سيره مسيلاً. في الكم ٣٩ يقاطع الرصيف الروماني الممتد من أفاميا إلى مريمين. ثم إلى اليسار (نحو الجنوب) وعلى بعد يلمح قرية ربعو وقبلها ضريح في السهل. (ربعو في موقع قديم جداً، ذكر في عهد الآشوريين، وربما كانت القديمة قلعة لوباما حيث أقام فيها آسور نازيربال حينما اجتاح مملكة لوقوتي، وفي هذه القرية ضريح مقدس له فتحة تذكر الروايات أنه لا يلجها (ينفذ منها) إلا رجل واحد ذو ضمير مرتاح.

يغادر على اليسار معسكر الجيش ثم مفرق طريق لحب مريمين وفي الكم ٤٥ مصياف.

ثانياً شيزر وخرائب أفاميا (٢٣ و ٤٥)كم نحو الشمال الغربي ـ في لحب).

يحسن أن يقوم السائح بهذه الجولة في فصل جاف، لأن الطريق الذي إنما هو لحب بسيط في أراضٍ معدة للحرث يكون الاجتياز وقتئذ. أما في الشتاء فهناك خطر الغرز في مخاضة نهر الساروق أو وادي الجفار.

يترك الطريق حماه نحو الغرب ويجتاز السكة الحديدية قرب محطتها من ممر في مستوى الأرض ثم يدخل في سهل عظيم خصب قد سد أفقه بآكام ناتئة شجراء من سلسلة جبل النصيرية.

في المصلبة الأولى يسلك اللحب الأيمن ويجتاز بعده بقليل من أمام قرية شيحاذ التي لبيوتها شكل القباب المخروطية (الكم ٥) وبعد مسير طويل تطرد المناظر وسط أراضٍ مزروعة، يهبط فجأة وادي الساروت أحد روافد العاصي فيعبره من مخاضة (في الكم ١٢) على مقربة من جسر عربي قديم، ثم بعده بقليل يترك على اليمين (في الكم ١٤) لحب قرية محردة، وهي قرية كبيرة نصرانية يلمح بيوتها ذات

الأسطحة المنتشرة بين كروم العنب ثم تصير الأرض صخرية وتتحدر نحو الوادي وتسير بمحاذاة جدار صخري على يمينها، وفي منتهى هذا الجدار الصخري قامت (قلعة شيزر).

في الكم ٢٣ سيجر، شيزر قديما.

التاريخ: إن مكان شيزر ينطبق على (موقعها) قديماً حيث قلعتها تمثل قسم المدينة الأعلى، وفي العصور المتوسطة كان حصن شيزر في ملك أسرة عربية تدعى (بني منقذ) استخلصته من يد البيزنطنيين في أواخر القرن ١١ وفي أول عهد الصليبيين قامت شيزر بغارات عديدة على إفرنج أفاميا، وهذا ما حدا بهؤلاء أن يشيدوا في الجبل المناوح لشيزر مرصداً يخبرهم كلما رأى حركة خروج من حامية شيزر وفي سنة ١١٠٨/٥٠٢ قدم تنكر يد نفسه إلى أمام قلعة شيزر، إلا أنه لم يستولِ عليها، ثم عقدت معاهدة بين أمراء شيزر والإفرنج في سنة ١١٠٠/٤٩٤ ونشأت علاقات صفاء بينهم، وفي سنة ١١٣٨/٥٣٣ أوقفت شيزر ٢٤ يوماً حصاراً شديداً للغاية قام به البيزنطيون، وجاؤوا وقتئذ بأعظم ما لديهم من آلات الحصار وأجودها، ولما أخفقوا أرادوا الرجوع لم يستطيعوا حملها لثقلها فأحرقوها أمام القلعة وفي سنة ١١٥٧/٥٥٢ خربت قلعة شيزر بزلزلة حماه الهائلة ومات وقتئذ كل أمراء بني منقذ تحت الهدم وكان بقي منهم سالماً أحدهم المسمى (أسامة)، ترك آثاراً سرد فيه ترجمة حياته بأسلوب مذكرات.

وقد حاول الإفرنج ثم الإسماعيلية أن يحتلوا خرائب شيزر، إلا أن نور الدين طردهم، ثم رمم القلعة وسلمها للحاكم، وفي سنة ١١٧٠/٥٦٦ خربت ثانية بزلزلة أخرى وفي سنة ١٢٦٠/٦٥٩ جاء الملك الظاهر بيبرس ورمم شيزر كما رمم في الوقت نفسه قلاع ومدن دمشق وبصرى وبعلبك وحمص وأقام فيها حامية من الجند المماليك، وفي زعم المؤرخين أن البقايا الحاضرة في هذه القلعة يمكن أن تنسب إلى نور الدين أو إلى بيبرس أو إلى كليهما. وخرابها البطيء الذي يدوم حتى يومنا هذا قد بدأ فيما يظهر من قبل الفتح العثماني.

لم يبق من أطلال المدينة القديمة إلا ما ندر كتيجان أعمدة وقواعد أعمدة وتعود الخرائب الحالية منها إلى العهد العربي (القرن ١٢ ـ ١٣) والقلعة، التي تبدلت

المدينة العليا التي كانت فيها في العصور المتوسطة بضيعة حقيرة، تستطيل فوق عرفة صخرية تمتد من الجنوب إلى الشمال وتشرف من علو أربعين متراً على السهل المجاور لها، وهذا الشكل المتطاول هو الذي جعل العرب يسمونها بعرف الديك، وفي الجانب الشرقي من الأكمة يجري نهر العاصي وسط مضيق كهف ضيق بعد أن يخرج من منعطف حاد، وفي جنوبها خندق عميق منخفض وسط الصخر قد نحى القلعة عن الأرض المجاورة. وفوق هذا الخندق قد قام صرح القلعة.

يصل الزائر إلى القلعة من شمالها بعد أن يجتاز جسراً حجرياً قد مد فوق واد ضيق وعميق. إن هذا الجسر الذي قام مقام الجسر النقال الذي كان في العصور المتوسطة قد حمل فوق طبقتين من القناطر ـ ولما كان انحدار أرضه شديداً فقد مد فيها مدارج حجرية مؤلفة من بلاطات كبيرة، وجعل على جانبيه درابزين قد تهدم نحو نصفه.

إن مدخل القلعة ينفتح ضمن قسم بارز (باشورة) مربع الشكل، مبني برخام ضخمة منحوتة نحتاً محدودباً وعادياً. وحشي بين هذه الرخام قطع من أبدان الأعمدة لتشد ارتباط بعض المداميك ببعض وفي جوف فجوة قد رسمت داخل قوس منكسر، ينفتح باب ذو عتبة مستقيمة وفوق هذا القوس كتابة عربية طويلة قد نقشت على أحجار الجدار الظاهرة (أحجار التصفيح) وفوق الكتابة بقليل ينفتح زغلولا نافذة مربعة الشكل. والطابق الأعلى من الباشورة نافذة أخرى مربعة، لا يزال يعلوها زافرتا شرفة وقد كانت هذه الشرفة تحرس المدخل. وقد هدم البرج حتى وصلت إلى مستوى الزافرتين المذكورتين.

وعلى اليمين قام كتلة هرمية الشكل من الحجر المبني أقسامها العليا مهدومة وقد كانت مخصصة لحراسة الجسر وثمة فيها درج مختبىء.

وتحت باشورة المدخل ممر معقود ينفذ إلى الساحة المكشوفة للقلعة، وقد امتلأ معظمها ببيوت الضيعة وثمة شارع بين هذه البيوت يأخذك إلى الطرف الجنوبي للقلعة حيث (الصرح).

وهذا الصرح قد أقيم في أضعف نقطة من نقاط الدفاع فوق الخندق الذي تقدم ذكره، وجعلت وظيفته كالصيصة وقد بُني بعناية خاصة، فأحجاره من الرخام

المنحوتة نحتاً محدودباً وهي هنا أضخم واعمق عملاً من رخام الباشورة، وفي عرض جدرانه حشيت قطع كثيرة من أعمدة الروابط وذلك لتزيد انضمام الأحجار الداخلية بأحجار التصفيح، وشكل هذا الصرح موشور ذو وجوه مستطيلة وله في جبهته الشمالية بروز قليل، وفي جانب هذا البروز ينفتح المدخل، ومن هذا المدخل يصل الزائر إلى طابق تحته غرف معقودة لعلها كانت مستودعات مؤونة أو صهاريج ماء، وثمة درج يصعد من الطابق المذكور إلى طابق ثانٍ، ومن هذا إلى السطح وفي الطابق الأول غرفتان كبيرتان للرمي لهما عقود ذوات زوايا بارزة، وتستند هذه العقود على دعائم ضخمة ذات مقاطع مستطيلة، ويحتوي الطابق الثاني على الأوضاع ذاتها ومن السطح يشرف الناظر على منظرة رائعة على مجرى العاصي وعلى السهل، وهناك ناعورة تدور قرب الجسر القديم (جسر بني منقذ) الذي كان مركباً تركيباً يساعد على الدفاع وكانت مكانته السوقية مهمة جداً. بعد مغادرة سيجر يعبر العاصي ويدخل في أراضٍ محروثة.

في الكم ٢٨ في سفح تل صغير اسمه تل ملح قرية بيوتها أكواخ من القصب، حدثت فيها في عهد الصليبيين معارك عديدة بين إفرنج أفاميا ـ والمسلمين ـ في الكم ٣٢ شيخ حديد ضيعة بيوتها أكواخ، تحيط بها بضعة أشجار وتقع على ذروة عرفة صغيرة وعلى يسار الطريق يلمح عن بعد قرية الصقيلبية التي لبيوتها قبب ذات سطوح، وهي قرية نصرانية كبيرة شيدت فوق نشز من الأرض على سيف الغاب، ثم يلمح السائر أمامه الجدران السمراء ذات الانعكاسات المذهبة لقلعة المضيق، وهي في سفح الأعضاء الأولى لجبل الزاوية، ويستدل عليها من معبد صغير ذي قبة، في الكم ٤٠ الجرنية وهنا يترك على اليسار لحباً يتجه نحو الجنوب ويصل إلى مصياف ثم يهبط فوراً المنحدر الصعب لوادي الجفار، وفي قعر هذا الوادي يجري ميل صغير.

وهنا أردأ ممر في كل هذه الطريق ثم يصعد إلى الضفة الشمالية فيلاقي أحجاراً أثرية متمددة تعود إلى خرائب أفاميا، ثم بعد بضع دقائق يصل إلى قلعة المضيق.

في الكم ٤٥ قلعة المضيق ـ وهي المدينة العليا (الأكروبول) لمدينة أفاميا اليونانية أفاميا سماها سولوقس نيقاتور بهذا الاسم الذي لزوجته الأميرة الفارسية التي

تزوجها في أعطاس (سوس) مدينة في مملكة عيلام، كانت مقر دارا وخلفائه، وكانت أفاميا مع إنطاكية وسلوقية من أكبر مراكز المملكة السلوقية، فقد كان فيها خزينته الحربية ومستودعات الخيل والأفيال، وقد خسرت هذه المدينة مكانتها عقيب الفتح الروماني ومع هذا فقد جعلت وقتئذ كرسي أسقفية، ولكن الفرس جاؤوها سنة ٥٤٠ واستولوا عليها وأحرقوها، وفي عهد الصليبيين جاء تاسريد برنس إنطاكية واستولى على هذه المدينة التي كان اسمها فهاميا وكان فيها في عهدهم قيادة فرسان الاستباريين، وجعلت مركز أسقفية أرمينة ثم افتتحها نور الدين محمود سنة ١١٣٩/٥٣٤ إلا أنه في سنة ١١٥٧/٥٥٢ خربت أفاميا بزلزلة حماة الهائلة وانتقلت أفاميا بعد إلى أيدي المماليك كشيزر.

وإذ إنها كانت بعيدة عن المسالك التجارية الكبيرة فقد انحطت درجتها إلى مقاطعة بسيطة تابعة لولاية حلب.

إن قلعة المضيق هي أكثر الخرائب تشواقاً فالقلعة قد قامت فوق تل عظيم جداً، وكان هذا التل فيما مضى مكسياً بصفح من الحجارة، وفي سفحه يمتد وادي الغاب المزروع الأفيح الذي يجري فيه العاصي ويضيع وسط آجام من القصب. إن سور القلعة (يعود تاريخه إلى القرن ١٣/٧) لا يزال محفوظاً، فالمدخل، وقد سد في يومنا هذا، ينفتح نحو الجبهة الجنوبية، وقد جعل بين برجين متقاربين جداً. وداخل السور قد ملئ ببيوت القرية (وفيها مدير ناحية وبرق وبريد)، ويصادف فيها السائر في كل خطوة بقايا أثرية مبعثرة وكتابات يونانية وعربية، ومن قمة الجدران منظرة جميلة نحو الغاب وجبل النصيرية وجبل الزاوية، وفي الجنوب الشرقي من القلعة باب قديم له أروقة أمامية كورنثية وفي جنوبها الغربي مسجد صغير من الأسلوب البسيط والرشيق، يعود إلى العهد العثماني.

وفي غربي القلعة سد ممدود في عرض أحد روافد العاصي وفيه حواجز ذات أبواب متحركة إذا حجزت الماء تحدث بحيرة حقيقية غزيرة السمك.

(أما بقايا أفاميا فهي تمتد إلى الشمال قليلا (٢كم) وعلى طرف هضبة تشرف على الضفة اليمنى للعاصي. إن الزلازل الأرضية واتخاذ الأنقاض كمقالع لم يبقيا منها إلا شيئاً قليلاً. والسور القديم الذي بقي منه بضعة أنقاض، كان يؤلف مربعاً ذا

محور كبير ممتد من الشمال إلى الجنوب. ولا يزال بالإمكان تتبع آثار شارع ذي أعمدة طوله نحو ٥٠٠ متر في منتصفه بناء مهدوم يدل على المكان الذي كان يأتي إليه شارع عمودي ويقاطعه، وكثير من الجهات لا تزال ممتدة على الأرض وأكثر المباني سلامة هو الباب الشمالي، وأطلاله تحفظ كتابة لاتينية.

من قلعة المضيق إلى طريق حلب ـ لحبان صالحان للسيارات في الفصول الحسنة يوصلان إلى طريق حماه حلب، والجنوبي منهما يمر بكرناز (كل ٩) وبكفر زيتا (كم ٢٠) فيبلغ الطريق المذكور عند مورك (كم ٢٩) واللحب الثاني يمر بكفر بنودا (كم ١٠) والهبيط (كم ١٥) فيبلغ الطريق عند خان شيخون (كم ٢٥).

٣ ـ سلمية وقصر ابن وردان ـ (إلى الشرق والشرق الجنوبي) يمكن الوصول إلى قصر ابن وردان من حماه مباشرة عن طريق معر شحور وثكنة الحمراء (نحو ٥٥كم) ماراً ببقاع خربة مكتئبة بعثرت فيها صخور حرية (لحب وعركئود) ولهذا يفضل عليه المسلك الذي سنذكره الآن، وهذا المسلك وإن كان أطول (١٣٠كم) لكنه أقل إيراثاً للملل ناهيك أنه يمكن من الاستفادة من لحب جيد حتى سلمية التي يمكن أن يحصل فيها على دليل.

ولابد لقاصد قصر ابن وردان من استصحاب زاد وماء للطريق.

إذا خرج من حماه يصعد إلى الهضبة التي تشرف على الضفة اليمنى للعاصي. ووراءه لمحة نظر جميلة نحو المدينة. على اليسار جبلان توأمان يعرفان باسم (قرون حماه) عليهما ضريح زين العابدين. وأمامه المنحدرات الأولى لجبل وعلى يمين جبل الأربعين (٦٩٣م) والطريق هنا مطردة المنظر ودون عارض يستحق الذكر بعد المسيل النضر المسمى بقصارين (في الكم ٥).

في الكم ١٤ على اليمين كافات، ومن ثم يقترب السائر تدريجياً من جبل العلا (على اليسار) وعلى اليمين (في الكم ٢١) ضيعة تل الدرة ثم بضعة طواحين ثم يبلغ فجأة المدرسة الزراعية ثم الدور الأولى لسلمية.

في الكم ٣٢ سلمية ـ مركز قضاء ـ صار لها بعض المكانة من الوجهة الزراعية، بفضل روح التشبث الذي للنواة الإسماعيلية القاطنة في هذا القضاء (نحو

١٥٠٠٠) ويزرع هنا خاصة القطن وسلمية تعد أيضاً مركز تربية جياد الخيل الأصيلة وفيها مدرسة زراعية ومركز برق وبريد ومخفر درك ومستوصف.

التاريخ - هي قديمة، وتدل كمية كسور الأحجار الأثرية التي يعثر عليها أنها كانت ذات مكانة، لاسيما في العهد النصراني، أما في العهد العربي فإنها لم تذكر إلا بحكم أنها كانت مقر فرع من الأسرة العبادية ومقر الرؤساء الأولين للإسماعيلية (القرن ١٠) وقد ولد في سلمية أول الخلفاء الفاطميين عبيد الله ومن ثم فقد انحطت مكانتها تدريجياً.

لا تبدي هذه البلدة من الناحية التجوالية أي متعة، بحكم أنها مبنية بناء جافياً، والمباني القليلة التي فيها ليس فيها ما يسترعى النظر فمن هذه القلعة التي أمام السرايا لم يبق منها سوى نصفها المختبئ وراء الدكاكين، و (المسجد) المبني بالأحجار الحرية في تاريخ ١٠٨٨، وحمام جميل قديم، لاسيما وقد ظل سالماً حتى الآن.

والشيء الوحيد الجالب للنظر في سلمية هو هذه الكميات التي لا تحصى من الأنقاض البيزنطية التي توجد فيها.

نخص بالذكر منها أطلال بازيليكا فيها أعمدة ضخمة من الحجر الحري (البازلت) ومن الحجر المجنب (الغرانيت) شديدة التعثر والخراب ويمكن أن يقال إنه ما من دار إلا وتجد بين جدرانه قد أقحمت كتابات أو نقوش مزخرفة.

إلى الشمال الغربي على بعد نحو ٣كم وعلى ذروة أكمة صغيرة قام بناء صغير من الحجر الحري يدعى مقام الخضر، لا توازي زيارته تعب الصعود إليه، ولو أن فيه منظراً شاملاً نحو جبل العلا.

قلعة شميميس، إلى الغرب من مقام الخضر وعلى بعد كيلو متر، خرائب قلعة شميمس تعد أكثر إمتاعاً وفيها صعود ليأخذ الزائر دابة ودليلاً من سلمية، تشغل القلعة ذروة مخروط من الصخر الكلسي قد غطته دفقة ثخينة من الحميم الذي جزئ قسمه الأعلى على شكل حلقة جعلته يؤلف خندقاً ذا منحدرات.

أما جدار سور القلعة فهو من الحجر الحري قد هدم معظمه، وفي وسط باحة القلعة ترى اسراباً من الحمام يتكاثر بسرعة وسط فوهة البركان التي اندفع منها

الحميم، ولا يعلم على الضبط تاريخ هذه القلعة، ولا شك أنها من آثار العرب فقد كانت موجودة في القرن ١٢/٦، لكنها رممت بعد ذلك عدة مرات.

من سلمية إلى مشرفة وحمص

لأجل الذهاب من سلمية إلى قصر ابن وردان، يسلك طريق تل عدا وتل سرنان ثم في الكم ١٨ ضيعة حصين، ثم في الكم ٣٥ ثكنة الحمراء التي يقر فيها في الفصول الحسنة حامية عسكرية لمراقبة البدو، وفيها يجد المحتاج ماء للشرب، ومن الحمراء يسير نحو الشمال الشرقي مخترقاً قرى كانت جهة مهجورة خلال الحرب ثم أعيد عمرانها سنة ١٣٤٤/١٩٢٦ ـ ١٣٤٥/١٩٢٧ يقطنها أعراب متحضرون، ولا يزال حتى يبلغ خرائب (قصر ابن وردان) الواقعة وسط البراري الفسيحة. في الكم ٥٦.

إن خرائب قصر ابن وردان تعد من أكبر بلاد الشام الشمالية جلالاً وربما كانت أكثرها استرعاء للأنظار وقبل الوصول إلى المباني يظن القادم أنه يشرف على بقايا مدينة قديمة ثم يتبين له بعد أن كل ما رآه لا يزيد عن ثلاثة مبانٍ، لا تشبه قط أياً من أبنية بلاد الشام. لأنها قد شيدت على نفس الأسلوب التي شيدو به المباني التكية في القسطنطينية على عهد يوستينانوس وبنفس المواد.

وهذه المباني الثلاثة هي: كنيسة مربعة ذات قبة، وقصر عظيم، وكلاهما ما برحا سالمين بعض السلامة ١٣٤٨/١٩٣٠ وأخيراً بناء عسكري واسع لعله ثكنة وهو خراب بالمرة أو يكاد، وقد شيدت هذه المباني بالآجر أصفر اللون ذي قطع كبيرة وبالأحجار الحرية، وكلاهما قد عملت بملاط قوي جداً. وربما استعملوا للتزينيات الداخلية أحجاراً كلسية بيضاء أو رخام، وتواريخ البناء قد برزت على اثنين من هذه المباني، ٥٦١، ٥٦٤ وعليه يكون ذلك في عهد يوستينانوس ولا ريب أبداً في أن كلها قد شيدت وأكملت خلال بضع سنوات.

والكنيسة واقعة قرب الصيب الغربي للهضبة، وهي قد كانت بناء عظيماً ذا ثلاثة دهاليز من التي تشرف على جوف الكنيسة ويكون لكل منها ثلاث فتحات،

وكان للكنيسة قبة عظيمة علوها عشرون متراً والأقسام التي لا تزال باقية من هذه الكنيسة هما بقايا الطابق الأسفل (ما خلا التي في الزاوية الجنوبية الغربية) وجدران الدهليز ذو الفتحات الثلاث في الجهات الشمالية والغربية، والأقواس الشمالية للدهليز المذكور وجدران المحنية والقسم الأول من نصف قبة، والقوس الكبير الذي يحمل الجهة الشمالية من الدهليز، وتحت الجميع نصف البانداتيف الشمالي الشرقي مع قطعة من الجدار المجاور له في الغرب. والمرتسم الخارجي لهذه الكنيسة على شكل مستطيل أبعاده ١٨,٥×١٥م مع برج صغير في الزاوية الشمالية الغربية.

في داخل الكنيسة صحن متطاول (٦,٦٠ في ١٠,٤٦م) ينتهي بحنية عميقة مدورة تدويراً نصفياً، وقد حجبت من الخارج بالجدار المسطح الذي في جهة الشرق، وثمة حنايا جانبية تمتد في كل الجهات وفي طول الجدار الغربي الذي هو بالنتيجة المستعرض لغيرها. والجناح الغربي أكثر ما يشبه النارتكس (المكان المغطى في مدخل كنيسة) ولا ينفتح على الحنية إلا من قوس واحد، والأجنحة الجانبية تنتهي في الشرق بغرف كبيرة تجنح الحنية، ومرتسم طابق التريفوريوم هو كالطابق الأرضي أو يكاد إلا القسم الذي فوق النارتكس فإن الدهليز ينفتح نحو الكنيسة الوسطى بأقواس متماثلة للتريفوريومات الجانبية وخمس من النوافذ الكبيرة المقوسة قد نابت عن الأبواب والنوافذ الصغرى في الطابق الأسفل.

وقد كان يعلو هذا المرتسم الطويل الداخلي قبة محمولة على أقواس في جهة الشرق وعلى دعائم ثخينة في جهة الغرب في وسط الكنيسة، وذلك من الحنية والنارتكس إلى الأقواس الثلاثية للأجنحة وللتريفوريوم، وقد كان مجموع عرضها يساوي عرض الصحن. وهكذا كان يتألف مربع من الأقواس ليحمل بانداتيفات القبة، وكل هذا من قواعد الزيارة البيزنطية.

أما أطلال القصر فتتألف من كتلة بناء عظيمة نهضت من طابقين فوق الركام المهدومة وليس ثمة إلا كسرة صغيرة من البناء الأصلي فالجبهة تلتفت نحو الجنوب، وهي أكثر البناء سلامة. وكان القصر مبنياً حول باحة مكشوفة تكاد تكون مربعة الشكل، والمباني التي في جنوبي الباحة كانت أعلى من التي في بقية الجهات، والكتلة المتوسطة المؤلفة من طابقين ذوي ردهات معقودة، لا تزال قائمة

وفي زوايا الموقع الكبير قد تهدمت الأطراف وأصبحت ركاماً من الأنقاض، والجهات الشمالية والشرقية من الباحة تعرف بالأكوام المؤلفة من الأنقاض، وبيد أن الجهة الأمامية التي يكاد أن يكون كلها متهدماً يظهر فيها دعامتان ضخمتان إحداهما مرتفعة وذات طبقتين والثانية ذات طبقة واحدة وعليهما قواعد عقود لا تزال مرئية على الجهات.

أما الخارج فكاد أن يكون مربعاً (٤٤م ×٥٠) وطول كل الباحة الداخلية على الجانب ٢٥م والقسم الجنوبي مؤلف من غرف كبيرة والجوانب الممتدة نحو الشمال كانت دهاليز طويلة مؤلف كل منها من صفين من الغرف المتوسطة التي مساحتها واحدة وتتصل بعضها ببعض.

والجانب الشمالي من الباحة كان مسدوداً ببناء أضيق وبعرض غرفة واحدة ولعله كما يظهر باب مزدوج لدخول الحيوانات.

أما بناء الثكنة الذي فعل فيه الهدم كثيراً يتراءى على شكل ذي سور مزدوج ولكن الجدار الداخلي من هذا السور لا يوازي الجدار الخارجي في كل امتداده. والمسافة التي بين الجدارين كانت ملآنة بغرف معقودة ذات علو مختلف وكان في الداخل باحة مربعة (٣٦م×٣٨م) وفي الوسط بناء مرتفع ذو طابقين وعقود عديدة ولا يمكن تحديد الغاية منها. ولا يمكن معرفة سوى باب المدخل الكبير وهو على الجانب الشمالي، وعلى عتبته كتابة كبيرة، وسوى الزاوية الشمالية الشرقية للسور الخارجي وبضعة قطع من البناء المتوسط.

اصطبل عنتر: إلى الشمال الشرقي من قصر ابن وردان وعلى بعد عشرة كيلو مترات يمكن أن يبلغ الزائر قلعة اسمها (اصطبل عنتر)، تاريخها حول سنة ٥٥٧ - ٥٥٨م، وهذا الحصن القديم يمتد في مساحة ذرعها ٧٥م×٨٠م وفي كل من زواياه الأربعة أبراج مربعة، وفي وسط الجانب الجنوبي برجان يجنحان المدخل، وفي وسط الجدار الشرقي برج مربع واحد. وكان الجدار مسنوداً في داخله بدعائم تنتهي بأنصاف أقواس وبارزة نحو ثلاثة أمتار بينها عدد كثير من أقواس التدعيم. وثمة دعامتان ضخمتان تشبهان الأبراج كانت تجنح المدخل في الداخل. وفي جوف الجدار لم يبق سوى ركام مختلطة من الأنقاض. وقرب الجدار الشرقي وفي جنوبي المحور

الشرقي الغربي في القلعة يوجد بناء ذو أقواس يحتمل أنه كان كنيسة ونحو منتصف الجدار الشمالي كان يوجد بناء مقسوم إلى قسمين ومبلط بفسيفساء بيضاء. وأحدهما كان يحتوي على صهريج والجدار الجنوبي ونصف الجدار الشرقي لا يزلان سالمين تماماً. والأبراج في المدخل وفي جنوبي البناء قد تهدمت، إلا أن الباب الذي شكله مستطيل، لا يزال محتفظاً بعتبته الباقية في المكان وعلى كتابة تحوي التاريخ المذكور أعلاه.

من قصر ابن وردان إلى خرائب الأندرين (٢٥كم، إلى الشمال الشرقي ٥٠ دقيقة، في السيارة) (لحب غير جيد) يجتاز اللحب بضعة حقول زراعية ضعيفة ومحجرة، وهضبة صغيرة صخرية تحتوي على بقايا جدران أثرية، ثم يهبط في منخفض، ثم يدخل في أرض ذات مسيل ومستورة بأحجار ضخمة، تاركة في الغرب على بعد قليل ضيعة نصف خراب وقبل الأندرين بقليل يرى السائر عدداً كبيراً من كواكب متتابعة لقناة أثرية محفورة في وسط الصخر الصلد.

٢٥كم، إن خرائب الاندرين، وكان اسمها القديم، تشغل مساحة واسعة في سيف البادية وهذه المدينة التي معظمها مبني من الآجر المجفف، ليست الآن سوى أنقاض مركومة وأطلال مهدومة ولم يبنَ فيها بالحجر إلا المباني المهمة. وهذه البقعة الغريبة تحتوي على مجموع غريب من خرائب مدينة بيزنطية صغيرة مسورة لا تزال خططها ماثلة كما كانت حينما هجرت في عهد قطنة عقيب الفتح العربي.

وحينما يقترب الزائر من هذه المدينة يرى أبنية تشبه الأبراج شيدت من الأحجار الحرية. قد انتصبت منفردة أو مجتمعة في أحياء مختلفة وكانت هذه الأبنية زوايا جدران العمائر الكبيرة التي أحيطت بخليط من الأنقاض.

أما المباني التي بقاياها عظيمة فهي الثكنات، وهذه جدران طوابقها الأرضية ما برحت قائمة على أنها مدفونة تحت أنقاض الطوابق العليا. ثم كنيسة عظيمة ولعلها الكاتدرائية، ثم كنيسة أخرى في جنوبي المدينة يحيط بها جدار ثخين، ثم حوض ماء جسيم.

ويوجد بقايا عديدة لمبانٍ أخرى من الآجر المشوي يصعب درسها. ويوجد أيضاً كنيستان متلاصقتان مكرستان إلى الملائكة العلويين، وأخرى قرب الجدار

الشرقي وواحدة أصغر في الجنوب الشرقي من الثكنات ومعبدان (كايللا) أحدهما مربع الشكل كان له قبة والثاني كان مستطيلاً. وتجاه الثكنات بناءان ذو تخطيط غير قياسي تظهر في أحدهما غرفة مدورة وأخرى متطاولة منتهاها على شكل نصف دائرة مما يدل بلا ريب على أنه كان حماماً، وثمة كثير من الخرائب والبقايا الناشئة من الدور الخاصة التي يخيل للرائي أنها قد شيدت في أكثر الأحوال حول باحة، ويصادف أحياناً صهريجاً محفوراً تحت الباحة، وثمة أيضاً طريقان أحدهما شمالي جنوبي والثاني شرقي غربي يخيل للرائي أنهما كانا موجودين على التقريب في منتصف المدينة.

أما سور المدينة فلا يزال سالماً في كثير من الأماكن وحصن بأبراج عادية بعضها مدور وبعضها أبراج زوايا. وهذا السور مبني بقطع رخام ضخمة مستطيلة، تسنده عضادات في كل ٣,٥ ـ ٤ أمتار.

أما الثكنات (٥٥٨) فتؤلف في وسط المدينة بناء مربع الشكل طول كل من أضلاعه ثمانون متراً يستدل من تخطيطه على الغاية العسكرية المتوخاة منه، وهذا البناء مستطيل الشكل وذو مدخل واحد في الجهة الغربية وأبراج زوايا مثمنة الأضلاع وأبراج مربعة في وسط الجهة الشمالية والجنوبية، وفي منتصف الباحة الكبرى كنيسة ذرعها ٢٠ في ١٥ متراً.

أما الكاتدرائية وقد سميناها بذلك لأنها أكبر الكنائس ـ فهي تقع في الجنوب الغربي من الثكنات قرب مصلبة الجادتين الكبيرتين. وما تبقى من هذه الكاتدرائية يجعل في الإمكان عدها بين النماذج الكلاسيكية للبازيليكات، وهي تحتوي فضلاً عن ذلك على صحن وسطي كبيرة قد فصلت عن الأجنحة الجانبية بثلاثة أقواس محمولة على دعائم متطاولة.

وقد كانت الحنية مثقوبة بخمس نوافذ ولكن لم يبق منها في المكان سوى جدران الدياكونيكوم والجدران الشرقية والجنوبية من البروتريا، وفيها قسم من الخيمة المنحنية في الخارج إلى الداخل وقسم من الجدار الغربي ومن الزاوية الجنوبية الغربية أما جميع ما تبقى فقد تهدم.

والكنيسة الجنوبية تعد أكثر كل مباني الأندرين سلامة كانت كلها مبنية بالأحجار ماعدا سقوفها فقد كانت من الخشب. وماعدا هذا فحولها جدار صيانة مبني بحجارة ومدعوم بعضادات وأبراج، وهذا ما يجعلها تعد في صف الكنائس المحصنة في وسط المدينة. أما تخطيطها ، فيشبه مخطط الكاتدرائية كثيراً ، لولا أن انحناءه غير مرئي من الخارج بقدر تلك وأنه غير مثقوب إلا بثلاث نوافذ. ولا تزال الحنية سالمة مع الغرف الجانبية حتى الطابق الأول ومع الدعائم أيضاً ، ولكن القبة النصفية قد زالت بالمرة والقسم الأكبر من الجدار الشمالي لا يزال سالماً ومثله قسم من الجدار الجنوبي والزوايا الغربية للصحن، والدعائم ذات الشكل الصليبي التي في الطرف الغربي الأقصى لا تزال محفوظة ، ولكن الجدار والأبراج الغربية قد خربت بالمرة وقد بُني مقابل الغرفة الجانبية الشمالية بناء ويكاد يكون كله سالماً ويظهر أنه كان ضريحاً ، وخارج الكنيسة مستطيل الشكل ، أما الداخل فيتراءى بشكل الصليب.

وفي جنوبي المدينة وخارج الأسوار يوجد خزان ماء مربع الشكل ذرع كل ضلع منه ٦١ متراً وزواياه تقع على النقاط الأربع. وقد بني هذا الخزان بأحجار كلسية يظهر على بعضها زخرف روماني وليس له الآن من العمق سوى خمسة أمتار ، ولكنه كان فيما يظهر في الأصل على عمق سبعة والقسم الأعلى من الكورنيش يؤلف ممشى عريضاً دائراً ما دار النهار، وفي الخارج صف من الحجارة الضخمة المستطيلة الشكل كانت تمنع مياه السيول من الوصول إلى الخزان.

من الأندرين إلى حلب عن طريق خناصرية وأسرية

من حماه إلى دير شميل (٤٠ كم، لحب) يتجه اللحب نحو الغرب ويسلك تخطيط سكة أثرية - في الكم ٧ شيخاني - في الكم ١٥ جسر على نهر الصاروت - في الكم ١٦ المجدل، شمالي الطريق - في الكم ٢٥ عصيوليت - في الكم ٣٥ رملة ، وهنا يجتاز اللحب رصيفاً رومانياً يمتد من الشمال إلى الجنوب ويلاقي في الشمال أفاميا وفي الجنوب طريق حماه - مصياف ص في الكم ٤٠ دير شميل (ص) وهي على طريق مصياف - مرداش.

عودة إلى طريق حماه – حلب

يغادر طريق حلب حماه من الضفة الشمالية تاركاً على يمينه المستشفى وهو يجتاز المقابر ثم يصعد بلطافة إلى الهضبة التي فيها يكشف قسماً من مدينة حماه، وهو بعد أن يجتاز السكة الحديدية (في الكم ٥٨) ممر على مستوى الأرض، يهبط بطريق رديئة إلى ضفاف العاصي حيث يحاذيها في سيره برهة من الزمن، وثمة ناعورتان، هذا إلى أن يصل إلى خط السكة الحديدية، في الكم ٥٩ ممر تحت السكة، وفي هذا المكان يستعير الطريق قعر وادٍ ويتعرج فيه ثم يفضي مرة أخرى إلى الهضبة.

في الكم ٦١ قمحانة بيوتها قباب مخروطية ـ ثم يجتاز بعدها خراً طريقاً كئوداً ثم يفضي إلى سهل أفيح ويحاذي في مسيرة السكة الحديدية على اليمين قرون حماه ـ في الكم ٦٤ محطة قمحانة ـ في الكم ٦٩ طيبة العلا، قرية في مدخلها مسجد ذو مئذنة.

ومن ثم يقل الزرع في السهل تدريجياً ـ على اليمين وعند (١٨كم عن حماه) صوران وهي شورون القديمة، وفيها قبة الشيخ أربعين التي قامت مقام كنيسة الأربعين شهيد، وعلى بعد ٣ كم إلى الشمال الغربي تل ماصين الذي حققته بعثة مسنيل دولويسون منذ سنة ١٩٣٠ وهو تل مربع الشكل ذرعه في كل جهة ٢٠٠م وعلوه ١٢م، كان فيما مضى مدينة ميتانية (في منتصف الألف الثانية ق.م) ماخلا بعض أماكن فيها أطلال مدن أقدم من ذلك العهد بكثير (من أواخر الألف الثالثة) على اليسار جبل النصيرية يسد الأفق الغربي.

في الكم ٨٢ مورك وهي مورموريك القديمة فيها تلان أحدهما عظيم وذو طبقتين وفي داخل القرية بضعة قواعد أعمدة أثرية. ثم يترك على اليسار لحباً صالحاً للسيارات يتصل في الكم ٢٩ بقلعة المضيق .

ويظل منظر هذه البقاع مطرداً مملاً، إلا أنه يلمح من حين إلى آخر على يساره وادي الغاب ويظل الطريق إلى ما بعد خان شيخون بدون أي عارضة صالحة للذكر، سائراً في هضبة متموجة قليلاً يتخللها بضعة تلول.

ـ في الكـم ٩٠ خـان شـيخون وهـي آشـخاني القديمـة، سـكانها ٣٠٠٠، ودورهـا قبـاب مخروطيـة ـ في حضيض تـل شـاهق عظـيم، وهـي أكثـر قـرى هـذه البقـاع لفتـاً للنظر.

وفي جنوبي القرية خان جميل (من القـرن ١٤ مـن عهد المماليك) وفي شمالها التل العظيم ذي المخطط البيضوي الشـكل، ذرع قطـره ٢٠٠ إلى ٢٥٠ م في قاعدتـه وعلـوه ٢٥م وقد وجد الكونت مسنيل دوبويسون خلال التنقيب الذي أجراه سنة ١٩٣٠/٣٤٨ بقايا قرى من بـدء الألـف الثانيـة قبـل الميلاد. وفوقهـا سـطح مبني بنـاء صناعياً يحمـل أنقـاض مدينـة تنـسب إلى تحوتموسـيس الثالـث (القـرن ١٥ ق.م) وأخـيراً إن الطبقـات العليـا مؤلفـة مـن أنقـاض أربـع مـدن يركـب بعضها فـوق بعض مـن العصر الحديـدي (القرن ٥-١٠ قبل الميلاد).

وعلـى بعـد ٤كـم إلى الـشمال الغربـي مكـان خـال كانـت فيـه (كفـر طـاب) أو كفر طابو، وهي مدينة ذكرت كثيراً في تواريخ الحروب الصليبية. في الكم ٤ إلى الغرب تل حاس وفي غربـه علـى بعـد ١ كـم مـدفن مـن الألـف الثالثـة قبـل الميلاد. وفي الكـم ١٠ إلى الـشمال الغربـي مارطـارش وهـي مغـار طاريشا القديمـة، وفيـه أطـلال ضريح الشيخ محمود وأطلال مسجد كان فيما مضى كنيسة باسم الأربعين شهيد.

عودة: يترك على اليسار لحباً صالحاً للسيارات يتصل بعد ٢٥كـم بقلعـة المضيق. ثـم تـصير الطريـق فجـأة صـخرية، علـى اليـسار في القـسم الأول التموجـات الرخـصة لجبل الزاوية مع أطلال أثرية فوق رابية صغيرة على اليسار تحيط بها غابـة مـن شـجر الزيتون وتصير البقاع تدريجياً جاقة وكئية.

في الكم ١١٤ معرة النعمان. (نزول المسافرين عند الوجهاء، ليس فيها فنـدق ولا مطعم) مدينة صغيرة سكانها ٥٢٥٠ مـسلمون، مركـز قـضاء تـابع ولايـة حلـب، بـرق وبريد ومخفر درك.

التاريخ: يظن أن المعرة مبنية مكـان القديمـة وكـان اسمهـا لـدى الـصليبيين وقـد نسبت إلى أحد الصحابة إلى النعمان بن بشير الذي كان حاكم هذه الأنحاء في زمـن معاوية، وقد استولى المـسلمون علـى المعـرة سـنة ١٦هـ/٦٣٧م وصـار يـتردد ذكرهـا في تواريخ العرب كمركز ذي مكانة وخصب، تحدق به البساتين والـزروع الثريـة. وقـد

تبعت المعرة خلال العصور المتوسطة كلها نصيب حماه وحلب، وتعاورتها الأيدي. وقد دكت تحصيناتها مرات عدة وهوجمت ونهبت أيضاً لاسيما من قبل البيزنطيين سنة ٩٦٨/٣٥٨ ثم من قبل الصليبيين (٢١ كانون أول ٤٩٢هـ/١٠٩٨م وقد ذبحوا فيها عشرين ألف نفس، وبعد أن استردها زنكي سنة ١١٣٧/٥٣٢ ظلت تابعة للأيوبيين ثم إمارة حماة في عهد المماليك. وفي عهد الترك كان فيها أمير بلدي ظل مستقلاً خلال القرن ١١ هـ/١٧م وقد اشتهرت المعرة بأنها وطن الشاعر العربي الكبير أبو العلاء المعري (المولود سنة ٩٧٣/٣٦٣ الذي لا يزال يشك في صحة قبره.

البلدة الحالية تشبه إلى حد ما حلب، بقسوة دورها المبنية بحجارة سنجابية والمحاطة بحدائق مغبرة، أما السوق فكثير الحركة وهذا السوق مع اختلاف صف الأقواس الممتد تجاه الجامع الكبير لهما خاصة محلية ذات جاذبية تستحق الزيارة. ويوجد أيضاً شوارع مسقوفة بعقود كما هو الحال في القدس وتكثر الأنقاض الأثرية خلال تلك الشوارع ولاسيما تيجان أعمدة كورنثية من كل النماذج المعروفة، وقد حفظت المعرة من العهد العربي بنائين أثريين فخمين من صنع مهندس معمار واحد وهما مئذنة الجامع الكبير (أواخر القرن ١٢) تماثل بعض مآذن حلب، والجامع نفسه مبني للمرة الثانية وفي صحنه قبتان صغيرتان راكبتان على أعمدة أثرية مستعارة من أبنية أخرى، والمدرسة الشافية ١١٩٩/٥٩٦. وهذان البناءان يمكن أن يعتبرا نماذج للمدارك الريازية في بلاد الشام الشمالية في عهد الصليبيين، وفي الطرف الشرقي من المعرة خان كيير من القرن ١٦ وفي شمالها الغربي فوق أكمة أطلال قلعة.

ومن معرة النعمان لحب صالح للسيارات يتجه نحو الشمال الغربي فيصل في الكم ٤ إلى كفر روما وفي الكم ٨ إلى الحاس حيث ينتهي اللحب. والحاس نقطة سفر لكثير من الرحلات في جبل الزاوية، وفيه خرائب رومانية ونصرانية.

وعند الخروج من المعرة يميز الرائي على يساره فوق نشز (في الكم ١٢٠) خرائب دانا، في الكم ١٢٦ يبلغ بابيلا وهي على اليمين، فيها دعائم وعتبات أبواب وأنقاض أثرية مبعثرة على الأرض. ومن بابيلا يمكن أن يبلغ على يساره مجتازاً

الحقول المزروعة الخرائب المهمة المسماة جرادة ورويحة الظاهرتين للعيان وسط الصخور الجرداء .

في الكم ١٢٨ خان السبيل. وفيه خان محصن من القرن ١٠/١٦ . في الكم ١٣١ على اليمين معرة دبسة ، ثم بعدها بقليل، على اليسار جوبر وفيها تل وبرج.

في الكم ١٤١ سراقب قرية كبيرة . يترك على اليمين طريق حلب القديم المار بخان طومان.

في الكم ١٤٦ آفتر . في الكم ١٥٢ تيزر . في الكم ١٥٦ تفتناز، وهنا يلاقي طريق اللاذقية . حلب .

في الكم ١٧٦ أورم الصغرى، وهنا يلاقي الطريق الحديثة الذاهبة من حلب إلى الاسكندرونة في الكم ٢٠٢ حلب (ساحة باب الفرج).

هذا وثمة طريق ثانٍ من سراقب، كان المستعمل قديماً ثم أهمل وتشعث يمر بخان طومان فبعد سراقب يلمح عن بعد شاسع سرمين تظهر كلطخة شهباء . في الكم ١٥٤ أو ١٥٧ قريتان لهما قباب مخروطية، وبعدها على اليمين يظهر رويداً رويداً في الأفق جبل النبي عيسى المشرف على قنسرين وعلى هذا الجبل ضريح صغير ذو قبة، وعلى اليمين واليسار قرى عديدة.

في الكم ١٦٩ الزربة . يترك على اليمين (نحو الجنوب الشرقي) لحباً صالحاً للسيارات في الفصول الجافة يفضي إلى برقوم في الكم ٤ ثم إلى خرائب قنسرين في الكم ١٠ ومن ثم تزداد رطوبة الأرض كلما اقترب من نهر قويق.

في الكم ١٣٧ خان طومان، وفيه خانان قديمان من القرن ١٣/٧ و ١٠/١٦ ثم تصير الطرق ذات تلعات عديدة وتجتاز على التوالي أودية ثم تصعد . في الكم ١٨٣ على اليسار حوش خراب، ثم تترك الطريق الأرض الوعرة وتدخل في سهل خصب ثم تعود للصعود إلى نشز خفيف الارتفاع أمامه على اليمين وفوق عرفة الشيخ سعيد.

في الكم ١٨٥ الأنصاري. وفيها جامع وضريح ذو قباب من القرن ١٥، ومن ثم ينكشف كل سهل حلب والبساتين المحدقة بها، وتتجه الطريق نحو منحدر طويل (فيه منظر جميل).

ثم يرى على يساره في سفح رابية صغيرة ضريح الشيخ محسن (من القرن ١٢) أحد أعقاب النبي محمد، ثم بعد أن يجتاز ممراً فيه عطفة صعبة، أطلال مشهد الحسين (من غرة القرن ١٣) - ويتقدم بعدها مجتازاً أشجار الزيتون - ويترك في الكم ١٩١ على اليسار - طريق حلب - الاسكندرونة - ثم يبلغ فوراً أوائل دور حلب - في الكم ١٩٣ حلب.

الفصل الثامن

حلب وضواحيها

سبل الوصول ـ بالسكة الحديدية: من بيروت ٣٩٦كم، ـ من دمشق ٤١٠كم، ـ من طرابلس ٣٠٤كم، ـ من حمص ٢٠١كم، من الاسكندرونة ٢٧٥ كم من نصيبين ٤٤٢، ـ من مرسين ٣٦٤.

بالطرق: من حمص ٢٠٢كم، ـ من الاسكندرونة بالطريق الحديثة ١٤٧كم، وبالطريق القديمة ١٦٨ ـ من أنطاكية ١٠٦كم، ـ من اللاذقية ١٩٨كم، ـ من دير الزور ٣٤٣كم.

حلب ـ مركز ولاية تسمى باسمها وتتبع دولة الشام، ومقر مندوب المفوض السامي الفرنسي ووالي الولاية ومطران ماروني، وآخر للروم الكاثوليك، وللروم الأرثوذكس.. الخ، ومفتي وحاخام وعدة محاكم ومحكمة استئناف ـ وهي بعد دمشق أجل مدن الشام الداخلية، وهي واقعة في السهل المتوج الممتد من نهر العاصي حتى الفرات، وفي وسط قعرة تحدق بها الآكام والتلعات. وجفاف الجو في بقعتها جعل لها خاصة قاسية في اللون الكامد لأحجارها (ومنها لقبت في العربية بالشهباء) ونهرها المسمى قويقاً الذي يذهب جنوباً ويتلاشى في مستنقعات قنسرين هو نهر ضئيل يزداد ضآلة من استعمال مائه بسقي البساتين، وهذا ما جعل حلب محاطة بمنطقة بساتين ثرية بالخضارة كدمشق. ولا تخلو ضواحيها أيضاً من الخضارة القليلة، خاصة بوجود شجر الفستق (والفستق يكاد أن يكون محصوراً بحلب وله فيها تجارة)، أما منظر حلب العام فهو على خلاف ما يراه القادم مثلاً بالقطار من بيروت، ذو جاذبية غير يسيرة. ومما يزيد هذه الجاذبية وقلقها التي تشرف عليها من ذروة التل الشاهق، ومآذنها الطويلة ذات الأشباح المختلفة والبارزة في كل مكان من خلال السطوح المستوية.

وإقليم حلب رغم أنه أكثر تأثيراً من إقليم دمشق بحكم موقعها الأكثر انحرافاً للشمال وارتفاعها الضئيل (٣٢٠م) فهو صحي يناسب الأوروبيين. والوطنيون

معرضون لعلة خاصة تدعى (جعة حلب) وهي نوع من القروح تنمو على الأكثر في الوجه ثم تتلاشى خلال مدة طويلة قليلاً أو كثيراً بعد أن تترك مكانها ندبة عميقة.

والمدينة القديمة ذات شكل شبيه بالمربع مبنية على الضفة اليسرى لقويق الذي لا يخترقها إلا أن أرباضاً آهلة بالسكان كان قد خرجت من المدينة في كل الجهات. ولكن الأحياء الحديثة كالعزيزية والحميدية قد نمت خاصة في الجهة الغربية في اتجاه المحطات، ومثلها حي اليهود المسمى بالجميلية. وفي طرف المدينة شيد مهاجرو الأرمن حياً حقيراً بنوه من مواد البقعة كما عملوه في معسكرهم في بيروت.

وربما كان عدد سكان حلب نحو ٢٥٠ ألفاً، وهم أقل اختلاطاً من سكان دمشق، وبينهم عنصر كبير من الأرمن ومثله من الترك. واللغة السائدة هي العربية، ولكن التركية أيضاً منتشرة بكثرة بحكم قرب حلب من خط تقسيم هاتين اللغتين. ويتكلم قسم غير يسير من السكان الفرنسية وسكان حلب أذكياء ومخلصون. ولهم عناية خاصة بالتجارة وسعي دائم برهنوا بهما على كفاءة عظيمة، والمسلمون يؤلفون القسم الأعظم من السكان، ولكن النصارى يملكون زمام أكثر التجارة التي عليهم تعتمد ثروة حلب بحكم وجودها في موقع يؤلف الطرف الغربي الأقصى للطريق الآتية من الخليج الفارسي إلى البحر المتوسط. واليوم قد نقصت أهمية هذه التجارة نقصاً كبيراً، وذلك لأن سوق بلاد الترك قد سد في وجوه تجار حلب بسبب الوضع العدائي الذي أسكت حكومة أنقرة، ولأن حركة التجارة المحلية مصابة أيضاً بالوهن. ولكن منافذ تجارية جديدة تنفتح رويداً رويداً ومدينة حلب ستستعيد في برهة وجيزة فعاليتها السابقة؟ أما الصناعة فيعمل عدد كبير من العمال بنسج المنسوجات الحريرية القطنية. ومن الصناعات الخاصة بحلب هي صناعة خطوط الذهب أو النحاس المذهب المستعمل في صناعة التخريم البلدي.

وفي حلب خارج باب الفرج كثير من الفنادق وهي وسط من الإتقان، وكذا المطاعم وهذه جلها غير مرضٍ، وفيها أيضاً كثير من المقاهي وأحسنها تلك التي في جادة الخندق، وفي هذه الجادة عدد من المراقص والملاهي ودور السينما، وإقبال على هذه الأماكن شديد لاسيما من الطبقة العامة. وفيها أيضاً محطتان كبيرتان الأولى

لشركة دج، ت وهي في غربي المدينة وفي منتهى جادة الخندق. والثانية لشركة ج. ب، ث وهي في الشمال الغربي، وفيها كثير من المدارس، أجلها مدرسة التجهيز الرسمية، ومدرسة الصنائع الآلية الرسمية، والمدرسة العلمانية الفرنسية، ومدرسة الإخوان المريميين الفرنسية، ومدرسة الآباء الفرنسيسكان، ومدرسة الاليانس اليهودية، ومدارس للبنات بيد راهبات عديدة مختلفات النحلة، هذا عدا المدارس الحكومية الابتدائية العديدة، أما المعابد فالنصارى كنيسة اللاتين في الشياف وكنائس لطائفة الروم الكاثوليك، والروم الأرثوذكس.. الخ وللمسلمين جامع النبي زكريا الكبير، جامع الفستق، وجامع البهرامية، جامع التوتة، جامع الأطروش، جامع الطواشي.. الخ. ولليهود الكنيس الكبير.

التاريخ: حلب إحدى أقدم مدن العالم الباقية حتى الآن، وقد ذكر اسمها فيما مضى بشكل خلاب في الحجج الحثية قبل الميلاد بألفي سنة، وبعد ذلك في النصوص البابلية والمصرية. وفي عهد السلوقيين سميت باسم بروئه وحازت نصيباً من الرقي، إلا أن الفرس قضوا عليه لما هاجموها وخربوها (في سنة ٥٤٠م)، ولما فتحها العرب دون مقاومة سنة ٦٣٧/١٦ ظلت حلب من المدن الثانوية لأن المركز الإداري لشمالي الشام كان وقتئذ قنسرين ولهذا ظل تاريخ حلب مندمجاً بتاريخ الشام كله.

وجاء بعد حين سيف الدولة ابن حمدان (٩٣٦/٣٢٥ ـ ٩٦٧/٣٥٧) واستطاع أن يؤسس في الشام الشمالية مملكة مستقلة جعل عاصمتها حلب، كانت مركزاً نشيطاً للحضارة الإسلامية. وكان يضطر للكفاح. تارة غالباً وتارة مغلوباً ضد الإمبراطور الكبير اليزنطي نيسفور فولاس الذي توفق للاستيلاء على حلب برهة من الزمن. ولما مات سيف الدولة، عمت الفوضى مملكته فسقطت حلب بسهولة في يد الأتابكيين ملوك الموصل. ولما استخلصها صلاح الدين من يد ابن نور الدين سلمها إلى ابنه الملك الظاهر غازي ١١٨٥/٥٨١ ـ ١٢١٨/٦١٥ فجعلها هذا دولة قوية وشيد فيها كثيراً من المباني الأثرية. وبعد أن استولى عليها المغول ونهبوها (سنة ١٢٥٨/٦٥٦) انتقلت حلب مع بلاد الشام كلها إلى يد مماليك مصر، فجعلوها مركزاً لنيابة عظيمة بالنظر إلى قربها من الحدود. ثم استولى عليها الترك سنة

١٥١٦/٩٢٢ فظلت حلب مركزاً لولاية ومركزاً عظيماً للتجارة الأوروبية منذ القرن ١٧/١١.

هـذا وطـراز الحكـم التركـي وسـوء الإدارة المـصرية (١٨٣١/١٢٢٧ - ١٨٤٠/١٢٥٦) أضرا بحلب وهي الآن عاصمة ولاية سورية الشمالية.

زيارة المدينة ـ تستدعى زيارة حلب وقتاً أقل بكثير من دمشق. فيوم واحد يكفي لذلك. فيمكن قبل الظهر أن تزور الأسواق والجامع الكبير، ويخصص بعد الظهر إلى زيارة القلعة والفردوس التي يذهب إليها بالمركبة.

وأسواق حلب تبدي مزايا محلية أكثر من أسواق دمشق: فهي أكثر ازدحاماً، ومن كثرة اشتباك شوارعها الصغيرة لا تستطيع المركبات النفوذ إليها ومن السهل جداً أن يدخل الغريب فيها.

ويكاد أن يكون جميعها معقوداً بعقود حجرية، لهذا تكون مظلمة رطبة إلى حد ما وفي جوها كل الروائح المختلفة.

ويبدأ الزائر مسيره من ساحة الساعة الكبرى (باب الفرج، فيسلك في الزاوية الجنوبية الشرقية من الساحة شارع حمام التل (وفي أول عطفة حي اليهود (وثمة تسمى بحسيتا) وفيه كنيس قديم، ويظل سائراً فيه حتى الباب ذي القوس الفارسي الذي يدل على أنه مدخل خان الحرير (ويمكن أن يقضي هذا القسم من التجوال في مركبة)، وينعطف نحو اليسار أمام سيل ماء وذلك في داخل امتداد شارع العقبة، فينفد بعد ذلك في الشارع الأول الأيمن، فيجد نفسه فوراً بين مدخل الجامع الكبير (وهو على اليمين) ومدخل المدرسة الحلوية التي تواجهه.

أسـس الجـامع الكـبير في بـدء العهـد العربـي في مكـان المقـبرة المحيطـة بالكاتدرائية، وقد أعيد ترميمه مراراً بحيث لم يبق من بنائه الأول أي أثر. وهو في حالته الحاضرة يعود تاريخه على الأخص إلى القرن ١١/٥ و ١٢/٦. وأجمل قسم فيه هو المئذنة المرتفعة إلى ٤٢ متراً، وقد شيدت في القرن ١١/٥ من قبل السلجوقيين. ويلحظ الكتابات الجميلة الكوفية التي تزينها.

أما الحرم فعقوده ترتكز على دعائم مربعة وضخمة جداً، ولكنه أقل جمالاً بكثير من حرم الجامع الأموي في دمشق. إلا أنه يحتوي على بناء ظريف من الخشب

المنقوش في القرن ١٥/٩. وعلى يسار المحراب شبك من النحاس قد وضع أمامه شمعتان كبيرتان، وهذا الشبك يسد مدخل غرفة مبلطة بالقاشاني يزعمون أن فيها رأس زكريا أبو يوحنا المعمدان، وعليه سمي هذا الجامع.

والمدرسة الحلوية (وهي مدرسة قرآنية، (يطلب السائح الإذن للزيارة)، ليست سوى كاتدرائية حلب القديمة، التي ربما كان مؤسسها الإمبراطورة هيلانة أم قسطنطين، وفي أوائل القرن ١٢/٦ حولت إلى جامع انتقاماً من غارات الصليبيين على حلب.

وحرم هذه المدرسة لا يزال يحتفظ بقسم من البناء البيزنطي مع تيجان أعمدة جميلة عليها نقوش نبات الخرشوف وتحت إيوان الصحن محراب بديع جداً من الخشب المنقوش (١٢٤٥/٦٤٣).

وإذا رجع من حيث أتى وانعطف نحو اليمين يمر من أمام (بنك روما) وبعده ببضعة أمتار يرى على اليسار نموذجاً جميلاً لهذه الشوارع المعقودة التي تجعل لبعض أحياء حلب طابعاً خاصاً بارزاً - ثم يبلغ من فوره وأمام سيل ماء إلى شارع الحاج موسى. ثم ينعطف نحو اليمين ويسلك السوق الذي يعبق جوه برائحة التنباك إلى أن يبلغ الشارع الأول الذي على اليسار فيرى ثمة الواجهة الجميلة لجامع الفستق (من القرن ١٤/٨ وفي آخره يميز الواجهة السوداء والصفراء لخان الوزير (القرن ١٧/١١ وهو أجمل خانات حلب.

(كانت تجارة الترانزيت التي أغنت حلب فيما مضى توجب إنشاء هذه المستودعات العظيمة المسماة (خانات) لهذا ليس في أي مدينة في القطر الشامي مثل خانات حلب في كثرة العدد وضخامة البنيان وجماله).

ويعود أدراجه هابطاً من شارع خان الوزير وينعطف نحو اليسار في سوق أصلان دادا، الذي هو في امتداد شارع الحاج موسى. ثم يصل في مدة بضع دقائق إلى خان الصابون (القرن ١٦/١٠)، وواجهة هذا الخان مزينة بنافذة محاطة بإطار مؤلف من نقوش جميلة مؤلفة من أشكال متداخله متشابكة، ثم يسلك بعده شارع خان الصابون الذي يباع فيه المناديل والكوفيات الوطنية، ثم شارع العطارين ومن هذا ينفذ إلى سوق القطعية الذي اكتظت فيه حوانيت شوائي اللحوم وباعة الخبز

والمعجنات والخضروات. ويلحظ على اليمين الشوارع الصغيرة المتصلة بالجامع الكبير، وفيها الأحذية الحمراء (الصرامي) قد تراكمت في حوانيت صناعها. على اليسار خان الكرك وأمامه قبتان متهدمتان (من القرن ١٢/٦) وهو مكان الكرك قديماً، ويستعمل الآن سوقاً للنقد (بورصة) وإذا استمر ماشياً في الشارع وقطع سوق القصابين أعلى اليمين خان من القرن ١٦/١٠ له مصاريع من الحديد عليها كتابات، ثم يصل فوراً إلى جامع البهرامية (وهو على اليسار) ثم إلى دكاكين خشبية صغيرة لصباغين. وبعدها ببضعة أمتار ينتصب عند مصلبة واجهة جامع التوتة، وكورنيش هذا الجامع نقوش بديعة جداً من عهد الفاطميين (القرن ١٢/٦). ثم يقابل باب أنطاكية (القرن ١٣/٧) وهو مصدوف ببرجين مثمني الأضلاع. وبعد أن يجتاز الباب ينعطف نحو اليمين متتبعاً السور فيلاقي نفسه في ساحة باب الفرج بعد أن يكون قد مر من مصلبة باب جنين التي فيها سوق مزدحم يقام في العراء.

ولأجل الوصول إلى القلعة يغادر باب الفرج سالكاً جادة الخندق وصاعداً نحو السراي القديمة والبلدية.. إن قلعة حلب قد شيدت فوق تل كبقية قلاع بلاد الشام ويظن البعض أن هذا التل يمثل المدينة القديمة الأثرية، ولكن الواقع ليس كذلك. لأن كل هذه القلعة قد بنى فوق صخر - وسور هذه القلعة الذي أعيد بناؤه في القرن ١٦/١٠ قد تهدم معظمه بالمرة. إلا أن مدخلها المعدود من أجمل المباني العسكرية في العصور المتوسطة لا يزال سالماً. وكان البدء في ترميم هذه القلعة على عهد الملك الظاهر غازي في أواخر القرن ١٢/٦ فقد بنى هذا الملك على وجه منحدر تل القلعة بلاطاً من طرف الخندق إلى أسفل السور وذلك ليرد عدوان النقابيين، وصدّف الباب ببرجين عظيمين، ووصل الباب بالمدينة بجسر في قربه مصنع بارز أعيد بناؤه في القرن ١٠/١٦ مكلف بحمايته. وإذا عبر الزائر الجسر عليه أن يسلك خمس عطفات في دهليز المدخل، وفي هذا الدهليز ثلاثة أبواب مترادفة، منها بابان قد احتفظا حتى الآن بمصاريعهما القديمة المعمولة من الحديد المدقوق والمزين بنعال الخيل (القرن ١٣/٧)، وفي أعلى الباب الأول يرى الزائر ثعبانين متشابكين، ملتفين، وفي أعلى الباب الثاني أسدين متواجهين يتناطحان، وفي أعلى الباب الثالث أسدين آخرين قد دخل نصفهما في الجوارالمشرف على هذا الباب. وكل هذه الصور كان يظن أن لها

مقدرة سحرية. وفي سنة ١٢٥٨/٦٥٦ لما استولى المغول على حلب دكوا أسوار القلعة، فرممها السلطان المملوكي خليل بعد حين. وإلى هذا الترميم تشير الكتابة الطويلة الموجودة في الواجهة، وقد ذكر السلطان فيها بألقاب (سيد الملوك والسلاطين، محي العدل في العالمين، اسكندر الزمان، فاتح العواصم).. وفي سنة ١٤٠٥/٨٠٨ بنى الوالي باشورتين في حدود الخندق وعقداً بين برجي المدخل، ورفع فوق السطح الذي حصل على العقد ردهة كبيرة مسقوفة بتسع قباب لا تزال مزينة ـ بتصاوير أخلاقية، وواجهة هذه الردهة مزخرفة أيضاً بنقوش جميلة. وكانت هذه الردهة تعد (قاعة العرش) ومدخلها الذي عبارة عن رتاج من الزخرف المقرنص) ينفتح على باحة صغيرة بديعة الشكل.

ووسط القلعة خراب بيد أنه يرى على اليمين وهو خارج من برج المدخل رتاجاً بديعاً للغاية أصفر اللون وأسوده وهو مسقوف بعقد مقرنص. وهذا الرتاج هو دون ريب باب حمام (القرن ١٤/٨)، وإلى أعلى ينفتح باب البهو الكبير.

وإذا عاد فسلك الطريق الصاعد من المدخل يصل إلى مسجد صغير بناه نور الدين سنة ١١٦٧/٥٦٣لشرف النبي إبراهيم الذي يروون أنه أقام في حلب مدة فسميت هذه المدينة باسمه، وفوق ذلك بقليل يصل إلى جامع القلعة الكبير (١٢١٣/٦١٠)، وهو نصف خراب، ومن المفيد أن يصعد إلى المئذنة ففيها يشرف على منظر عام جميل لمدينة حلب، فتظهر قببها ومآذنها وأسطحتها وضواحيها، ويظهر في شمالها الغربي جبل (كرد طاغ) وفي غربها جبل الأعلى وفي الجنوب الشرقي بحيرة الجوف تلمع في الأفق البعيد.

وفي قرب طاحون الهواء الذي بناه المصريون خلال استيلائهم على بلاد الشام ينفتح بئر محفور في الصخر في القرن ١١ من قبل السلطان ملكشاه السلجوقي. ولا يقل عدد درجات هذا البئر عن ٢٢٠ درجة.

وفي الساحة التي أمام القلعة، حيث يقام كل يوم جمعة سوق عام مزدحم، يرى أمام مدخل القلعة ضريح الملك الظاهر غازي وهو مدفون إلى نصفه. وعلى مقربة منه قد بنيت سراي الحكومة الجديدة، وفي الطرف الآخر من الساحة تنتصب مدرسة

آق بوغا الأطروشي وفيها ضريحه، وكان حاكم حلب، (١٤٠٥/٨٠٨) وأخيراً على حافتي خندق القلعة يرى حمام قديم قبته مزينة بتصاوير (القرن ١٥/٩).

وإذا ترك القلعة واتجه نحو الجنوب يبلغ حمام الخصيان المسمى جامع الطواشي من القرن الثامن، ثم يسلك شارعاً حتى يبلغ باب المقام (من القرن ١٥/٩) ومنه يخرج إلى خارج المدينة. ثم يبلغ فوراً بتكية صغيرة ذات قبتين هي ضريح خير بك آخر حاكم من المماليك الشراكسة في حلب، وهو الذي تآمر على مولاه السلطان قانصو الغوري وسلم حلب إلى السلطان سليم العثماني (١٥١٦/٩٢٢) ثم بعد قليل يلحظ في الجنوب وسط المقابر مدرسة الفردوس التي تميز عن بعد بقببها الإحدى عشرة ومآذنها الصغيرة الحديثة التي تعلو فوق إيوان، إن هذه المدرسة قد بنتها في القرن ١٣/٧ ضيفة خاتون زوجة الملك الظاهر غازي، وهي كانت في الوقت نفسه مدرسة ورباطاً وضريحاً. وواجهة هذه المدرسة مثقوبة برتاج جميل مقرنص ومزين بكتابة أنيقة جداً. وصحنها مع نافذة النور الكبرى التي في إيوائها، وحوض الماء المظلل بالعرائس وبصف خفيف من الأعمدة المحيطة به، ولعل هذا الصحن أجل الآثار الحميدة للفن السوري في العصور المتوسطة. أما الحرم فيحتوي على أجمل منبر في حلب، وهو مرصع بقطع الرخام المتعدد الألوان. وعلى مقربة من مدرسة الفردوس المدرسة الظاهرية، ولهذه أيضاً رتاج جميل، لكن داخلها خراب بالمرة.

ـ ولا تكمل زيارة حلب إذا لم يلج الزائر إلى داخل بعض بيوتها القديمة ذات النقوش والتزيينات الصالحة للتصوير، وإذا لم يتفحص المجاميع الأثرية القيمة الخصوصية كالتي لدى بعض محبي الآثار، ومنهم ماركويولي، وزيارة هذه المجاميع تحتاج نواحي خاصة.

ضواحي حلب

المدن الموات في الشام الأعلى

إن اكتشافات المركي دوفوكي (١٢٧٧/١٨٦٠ ـ ١٢٧٨/١٨٦١) والبعثات الأميركية التي أعقبته (١٣١٧/١٨٩٩ ـ ١٣١٩/١٩٠١ ـ ١٣٢٣/١٩٠٥) عرفت أن في الشام الأعلى أكثر من مائة مدينة موات "التي مناظرها تنقل السائح إلى وسط حضارة ضائعة وتظهر له كل أسرارها" والتأثير الذي توجده في قلبه "تشبه تأثير بومبى"، على أن هذه أجدد. وفي الواقع إن كل هذه المدن.. تؤلف مجموعة كل شيء فيها قد ارتبط واشتبك وانتسب إلى طراز واحد وأسلوب واحد، وأخيراً إلى عهد واحد. وهذا العهد هو عهد النصرانية الأول الذي امتد من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي (الكمام لفوكي).

ولم يبق من المدن التي كانت مالئة أرض الشام في عصور النصرانية الأولى سوى هذه التي نذكرها، لأنها بقيت مهملة منذ غارات الفرس والفتوحات العربية في القرن السابع، وهي لم تتضرر إلا من تأثير الزلازل الأرضية ومن كوارث الدهر. وخرائب هذه المدن، التي لاتزال محفوظة حفظاً يدعو إلى الاستغراب قامت على سيف البادية في شرقي حماه وفي جبل الزاوية بين حماه وادلب وفي جبل باريشا وجبل الأعلى في الشمال الغربي من حلب. إلا أنها ستتلاشى حتماً كلما كثر عدد السكان كما حدث في كنيسة ترمائين إذا لم يؤسس ثمة حراسة صارمة.

وبين مجاميع هذه الخرائب اكتشف العلماء بعض الفروق في العهود والطروز. فمباني جبل الزاوية مثلاً هي أقدم من التي في جبل باريشا بنحو قرن وتتصل أكثر بالطراز الكلاسيكي. ولكن التصميم العام للمدن وللعمارات الممتازة قلما يختلف، وكل مدينة لها سور محيط بها عليه عدة أبراج للحراسة، وفيها شوارع مبلطة شيدت على طراز واحد أو طرازين ظاهرين تماماً. أما البيع، فأولها البازيليكات المتطاولة ذات الصحون الثلاثة التي حنيتها مجنحة بغرفتين مستطيلتي الشكل، البروتزيا في اليسار والدياكونيكون على اليمين) والحنية المذكورة كانت تبنى قبلاً على شكل نصف دائري، ثم جعلت أكثرها مؤخراً مربعاً في تصميم بديع ندر أن يكون

على شكل مركزي أو مسدسي الأضلاع. ومما تمتاز به مباني الفنادق أن لها أروقة تحيط بها من جهتيها أو من عدة جهاتها أبهاء عمومية واسعة. وكانوا يعرفون عرض البضائع التجارية في أسواق على شكل دهاليز متطاولة قليلة العمق تحد الشوارع. وكانت القصور كثيرة جداً وحول كل منها عدة باحات مسورة مستورة الداخل، كما هي حال الشرقيين، وفي داخل هذه القصور كان يوجد باحة متكاملة حولها مجموعتان من أماكن السكن، مزينتان في واجهتيهما الداخليتين بصفوف الأعمدة والغرف العديدة، وهاتان المجموعتان متقابلتان وجهاً وبينهما المباني المخصصة للخدمات المختلفة، من جهة، وجدار السور وباب المدخل من جهة أخرى. وفي أطراف المدينة كانت تمتد المقابر: وفي هذه أضرحة قبور من تصاميم مختلفة منقورة في الصخر، أو مدافن مبنية بشكل هيكل ذي مدخل مزين أو بشكل هرمي أو أضرحة ذات قباب من حجر، ثم هناك نواويس ضخمة موضوعة على سطح الأرض أو فوق قواعد، وهناك أعمدة مؤلفة من عدة أسطوانات منتصبة نحو السماء. وفوق كثير من المباني الكبيرة وفي جانب الأشعرة الدينية وطرر المسيح، كانت تبرز كتابات تدل على تاريخ البناء واسم صاحبه أو اسم الميت إذا كان في المدفن. ناهيك بالجمل المختصة بالطقوس الدينية، أو بالدعوات أو بالتمنيات وكلها تدلنا على اتجاه التفكير لدى بنائي تلك العمارات قبل أربعة عشر قرناً.

وكل هذه المباني الأثرية مشيدة بقطع منحوتة جميلة من الأحجار الكلسية الناعمة جداً المطلية بملاط سنجابي أو مذهب. وهي تدهش بجسامتها وفخامتها، وتثير العجب من كونها ذات زخرف أصلي ونافذ. وإذا عدلنا عن التنويه بالفسيفساء وبالقطع ذات الألوان المختلفة التي وجدت، فإن عتبات وقوائم الأبواب وحنايا بعض الخورسات في البيع والنقوش البارزة والكورنيشات في الواجهات مزينة بأوراق الأشجار وبخمائل مدلاة وبصفوف من البيض المزخرف الذي يمثل الأحجار المنقورة في بعلبك وتدمر.

ولم يؤسس هنا إلا الفن البيزنطي الذي أعاد لبلاد الشام تصاميمه وقواعد بنائه، وأماكن - هذا على الرغم من أعمال الأستاذ سترزيكوفسكي - ولكن بيزنطية مدينة إلى هذه البلاد دون ريب - عقائدها الدينية وزخارفها المنقوشة.

١ـ الخرائب التي تزار في الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة.

٢ـ قلعة سمعان ودير سمعان

دعس = ٤٣كم، ١ ساعة و ٤٥ دقيقة.

يتبع الزائر أولاً الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة، ثم يتركها عند الكم ٣ أبعد ١٤ دقيقة، قبل بنيامين، وثمة لحب يتفرع ويتجه نحو الشمال ثم الشمال الغربي باتجاه مستقيم نحو جبل الشيخ بركات الذي كان اسمه عند الأقدمين (جبل قريفة)، ومثلث هذا الجبل يعلو نحو ٩٠٧م ويشرف على كل تلك البقاع ـ في الدقيقة ٣٠ على اليمين، الخندق، حوش محصن، ثم كروم التين خاصة قرية كفر ديهة ـ في الدقيقة ٤٠ قرية بشانتا ـ في الساعة ٢ والدقيقة ١٥ على اليسار فوق منحدر أكمة (المشبك)، ثم خربة تحمل الاسم المذكور، وهي منعزلة في ذروة الأكمة.

هذه الخربة عبارة عن بازيليكا لا تزال على سلامتها التامة بحيث يكفي أن يوضع لها سقف ومذبح لتصبح صالحة للصلاة. والقسم نصف المدور المتمم لخورس الكنيسة ذو الخطوط المستقيمة هو ثقيل نوعاً ما لأن الحنية قد أقحمت في داخل سماكة الجدار الأخير. أما مجموع تصميم البناء فهو ـ رشيق وجسم البناء طويل، ذرعه ١٨,٥ م في ١٣,٧٥ م، وهو منقسم على صفين ذوي خمسة أعمدة علو كل منها ٥م، وصف الشبابيك الذي في أعلى صحن هذه الكنيسة قد فتح على اليمين وعلى اليسار، وفيه تسعة شبابيك، وعلو سقف الكنيسة الذي كان من الخشب يبلغ ١٣م. وتيجان الأعمدة من طرز مختلفة. أما الزخارف فهي متوسطة في الجودة وبناء هذه الكنيسة هو في الجملة من أبدع نماذج الريازة الشامية في أواخر القرن الخامس.

في الساعة والدقيقة ٣٠ دارة عزة، قرية كبيرة إسلامية، مبنية فوق خرائب قديمة في مطاوي الجبل.

ومن دارة عزة يمكن لراكب الخيل أن يبلغ خلال ساعتين قمة جبل الشيخ بركات وفيها ضريح ولي وأطلال هيكل كان مخصصاً للإله.

وثمة لحب صالح للسيارات ينفصل نحو اليمين من دارة عزة ويبلغ خلال نحو ١٧كم الطريق الحديثة من حلب إلى الاسكندرونة ماراً بتل عدي (٧كم) وحرزة (١٠,٥كم) ودانا (١٥كم).

وينحدر لحب قلعة سمعان في شمال دارة عزة نحو سهل صغير متطاول، ثم يترك على اليسار قاطورا (وفيها دسكره ومقبرة رومانية، ومجموعتان من الأعمدة لكل منها عمودان قبوريان، ومدافن منقورة في الصخر، مع صور أشخاص وكتابات).

(ويلحظ في قاطورا بيت جميل يعود تاريخه إلى ١٠ آب سنة ٥١٠، ويتقدم الطبقة العليا منه دهليز محمول على أعمدة ودرابزينات مزينة. ولصف الأعمدة جهة مزينة بالزخارف والنتوءات تنتهي في جوانبها بزخارف حلزونية وتيجان الأعمدة مختلفة الطروز، وفي بعضها صلبان).

ثم يترك السائر على اليسار قرية دير سمعان (وسيأتي ذكرها).

وفي الساعة ١ والدقيقة ٤٥ قلعة سمعان، وثمة عقبة كأداء قصيرة المدى لابد من تسلقها تنتهي بين الدير في الشمال ومكان المعمار في الجنوب إلى الغرفة التي تشرفت بمقام القديس سمعان العمودي.

التاريخ: ولد سمعان سنة ٣٩٠م وبعد أن قضى أدواراً شتى من حياة النسك، جاء إلى هذا الدير واستقر فيه سنة ٤١٢، وقد ساقه الولع بالعزلة والشغف المتزايد بحياة النسك إلى أن يطلب من رئيسه إذناً بالسكنى في حجيرة موضوعة على قمة عمود، وكان علو هذا العمود يزداد تدريجياً من ١١ - ١٧ - ٢١ وأخيراً إلى ٣٠ ذراعاً. وهذا العمود الأخير كان يتألف من ثلاث اسطوانات تيمناً بالثالوث الأقدس. وقد نحت في نفس المكان، في صخر الجبل ونصب من قبل رفقاء القديس. وكان حول العمود محاطاً بجدار صغير من الحجر لوقاية مسكن القديس. وقد عاش سمعان ٧٢ سنة فوق هذه الأعمدة المختلفة، التي كانت محجة الزوار المتقاطرين لاستماع مواعظه. وأخيراً مات في ٢٧ أيلول سنة ٤٥٩ وقد دفن بادئ ذي بدء في قمة مكانه الأخير ثم نقل باحتفال عظيم إلى إنطاكية ودفن في كنيسة قسطنطين ولم يحل موت سمعان دون استمرار الحج الذي بدأ في حياته. وأخيراً حدا النفي بمريدي هذا القديس، إلى

أن بنوا هذا البناء التذكاري الحامل لاسم القدس وقد زار افاكريوس هذا البناء سنة ٥٦٠ م ووصفه وصفاً مفصلاً ينطبق تماماً على الخرائب الحاضرة).

كان دير سمعان وهو في شمالي الأكمة محاطاً بسور محصن بأبراج وهو يحتوي على بازيليكا القديس سمعان وعلى مباني رهبانية مع كنيسة لكل منها وعلى كابللا قبورية.

والبازيليكا شيدت في أواخر القرن الخامس، وهي بناء أثري أصلي (ويمكن أن يقال عنها دون مبالغة إنها حلية ثمينة في جيد الريازة الخاصة ببلاد الشام المتوسطة وإحدى الآثار البارعة في الجمال في الفن النصراني (قاله ديهل).

وهي تجمع نموذجين الكنيسة المستعملة في تلك الحقبة: البازيليكا ذات الصحون الثلاثة المتطاولة والبناء المدور الشكل أو المسدسي الأضلاع القائم على تصميم مركزي. وقد انتخب كمركز للبناء ذات العمود الذي استقر فيه القديس سمعان. وقد أحاط المهندس المعمار العمود المذكور بشكل مثمن الأضلاع والزوايا ذي سماء مكشوفة، طول قطر الخارجي ٣٠,٥م، وجعل فيه عقوداً على شكل أقواس علوها ٩,٥م، ثم شعب فوق هذا المثمن أربع بازيليكات مصفوفة على شكل صليب. فالشرقية منها المنحرفة انحرافاً محسوساً عن محور البازيليكا الغربية لكي تقترب من الشرق الحقيقي والمنتهية بحنية بارزة، هي التي تؤلف الكنيسة الأصلية وهي المخصصة لذكرى القديس العمودي. أما بقية البازيليكات فهي عبارة عن خراشيم واسعة مخصصة لاحتواء جموع الحجاج.

ويدخل إلى الدير كما كان في الماضي من الرواق الأنيق الذي في الجنوب، ولهذا الرواق ثلاث فجوات غير متساوية يعلوها فرونتونات مثلثية الشكل، وقد كانت نقاط اتصال هذه الفرونتونات تستند على كمرات محمولة هي الأخرى على دعائم بارزة. وكان هذا البناء يحتوي على كل العناصر التي لبوابات كنائسنا الرومانية. والانحناء الذي أعطوه إلى الزخارف ذات الشكل الخرشوفي في تيجان الأعمدة وجعلها كأنها منحنية بفعل الرياح إنما هو حادث جديد ذو عبرة قد اقتبست منه بعد الزيارة البيزنطية والريازة الصليبية في باب كنيسة القيامة.

وبعد أن يجتاز الزائر باب البازيليكا ذا الفجوات الأربع يجد بين الأطلال المهدومة المثمن المركزي والقاعدة التي كانت لعمود القديس وهي لا تزال منظورة. وهذه القاعدة عبارة عن مكعب من الحجر منحوت نحتاً دقيقاً في الصخر تبلغ مساحتها نحو أربعة أمتار مربعة، وهي تعادل دون ريب للمساحة التي كانت لسطح تاج العمود الذي كان القديس مستقراً عليه من علو عشرة أمتار.

والبازيليكا الشرقية الذي لها جدار خارجي يفصلها عن المثمن هي أطول من الأذرع الثلاثة للصليب وطولها من الخارج يبلغ ٤٣,٢٠م وقد زال منها صف الأعمدة، لكنها لا تزال محتفظة بحنيتها الثلاثية التي استندت استناداً صحيحاً إلى الشرق. والقسم نصف المدور المتمم للحوزى في هذه الحنية الذي يمكن بلوغها إذا دار الزائر دوراناً تاماً حول البناء من جهة الغرب والشمال، فقد كان مزيناً بصفين من العويمدات الراكب بعضها فوق بعض كما هو الحال في قلب لوزة ومما يؤسف له أن الأعمدة والتي كانت قائمة سنة ١٢١٣/١٨٩٥ قد تهدمت الآن بالمرة.

والمنحنيات الغربية والشمالية من الصليب كان طولهما - كما هو الحال في البازيليكا الجنوبية - نحو ثلاثين متراً. وقد كان النظر يمتد من الصومعة التي في طرف البازيليكا الغربية نحو وادي نهر عفرين وعلى كرد طاغ ولا يزال بالإمكان التمتع بهذا المنظر من الباحة المكشوفة التي أمام الدير في شمالي البازيليكا، ويرى أيضاً على هذه الباحة المكشوفة الكايللا الخاصة بالأموات المنحوت نصفها في الصخر والبرج الزاوية الذي يمكن أن يطل الناظر بنظرة واحدة على مجموع بازيليكا القديس سمعان المؤثرة والجديرة بالتصوير).

وينبغي للزائر أن يعود أدراجه كيما يزور المباني الرهبانية القائمة شرقي البازيليكا الجنوبية.

تتجه هذه المباني نحو باحة داخلية متطاولة - لها أروقة ذات ثلاث طبقات، وقد استطالت بالكنيسة الديرية وهي تشغل الجهتين. وفي وسط هذا الميدان الممتد أمام باب الكنيسة الكبير وقرب الكنيسة الجنوبية مكعب من الأحجار المحززة من درج كأنه دون ريب قاعدة عمود يسكنه بعض المؤتمين بالقديس العمودي.

والـدير كـان مغلقـاً في وجـه جمـوع الحجـاج في الأيـام العاديـة علـى الأقـل. وهـذه الجمـوع بعـد أن تنتـشر في المعبـد الواسـع كانـت تبلـغ فنـادق الـدير الـتي في الجنـوب، وهي مارة من قرب مكان العماد ومن السكة المقدسة.

ومكان العماد هذا هو بنية تشرف عن بعد ٢٠٠م من الدهليز الأمامي للكنيسة على الردف الجنوبي للأكمة وكان لهذه البنية بريج منارة مثمن الأضلاع مبني فوق قاعدة مربعة، وكان على رأس هذا البريج مخـروط مـن الخـشب المنجـر. وفي الجنـوب الغربي لهذه البنية باب ضخم للغاية كـان يوصل منـه إلى الطريق المقدسـة الـتي كـان فيها قوس نصر.

ويوصل إلى دير سمعان من عقبة كأداء تستغرق ١٠ دق وكان هذا الـدير يـدعى فيما مضى في السريانية تل نيشة ومعناه تل النساء، وفي اليونانيـة تلانيـسوس، وتعـزى مكانة هذا الدير وربمـا أيضاً يعـزى أصله، إلى الزيـارات والحجـات الـتي بـدأت قبـل مـوت سمعـان العمـودي بـ ١٥ سـنة واسـتمرت إلى أواخـر القـرن الـسابع. وبعـد أن كـان عدد مباني الدير اثنين أو ثلاثة أضـاف إليهـا الرهبـان بـادئ ذي بـدء أمـاكن الـضيافة ثم ألحقـوا بهـذه نُـزلاً خاصـة. وثمـة كتابـة يـدعو كاتبهـا لـصاحب إحـدى هـذه النـزل "بالـصحة والمتعـة" ولـيس ثمـة سـوق، إلا صـف مـن الـدكاكين في جنـوبي الخرائـب. كما أنه وليس هناك أي دسكرة خاصة، إلا أن تكون تلك البنية العالية ذات الآزاج الثلاثية الواقعة وسط الخرائب فلعلها نزل أنيق خاص.

وماعدا هذا البنـاء الأثـري فـإن العمـارات الـتي فيهـا فائـدة تقـوم في أربعـة أركـان هـذه الخطـة. وفي النقطـة الـتي تبلـغ الطريـق المقدسـة الخرائـب يمتـد سـبيل أثـري نحـو الجنوب فيبلغ الأروقـة المتشابكة الـتي تـدل كتابـة وجـدت فيهـا علـى أنهـا عائـدة إلى منزل، ثم يبلغ السبيل المذكور صف الحوانيت الصغيرة الخشبية التي في السوق. وفي الجنوب الشرقي ووسط هوة في الأكمة تظهر للممعن الآزاج المثيرة لمنزلين، ثـم ينبغـي للزائر أن يعود أدراجه ويسير محاذياً كل الطرف الأيمن للبلدة إلى أن يبلغ في الـشمال الشرقي الكنيسة الشمالية التي الدياكونيكوم فيها يرتفع كالبرج قرب بـاب جيـد الزخرف ومن ثم ينحرف نحو الغرب ماراً بين الأطلال فيبلغ البنية الثلاثيـة الآزاج الـتي تقـدم ذكرهـا، ثـم الكنـائس الـتي تعـرف بـسهولة، وهـي في الـشمال الغربـي وفي

الجنوب الغربي وكل من هذه الكنائس كان مخصصاً بحسب جسامته إلى حضور عدد من الزوار، على أنها كانت تحسب قسماً من الأديرة التي تلتحق بها أيضاً النزل. والدير الشمالي الغربي يشغل مستطيلاً ذرعه ٧٠م في ٥٠، والكنيسة التي سعتها ٢٢م في ١٦ قد انقسمت إلى صفين كل منها ذو خمسة أعمدة، وهي تنتهي بحنية مدورة عمقها ٤,١٨م هذا وبين الدياكونيكوم والبروتزيا وفي وسط كل منهما وقبل الأعمدة الأخيرة قد حفرت شقوق عميقة، لعله كان يقحم فيها المغطي للقسم الخاص بالنساء. وفي الأسفل نحو الشرق يوجد القسم المؤلف من آزاج مغطاة تحيط بباحة، وهو مقبري (السور المقبري) ومربع الشكل وهو بناء فريد المثال. ويلج إليه الزائر من الباحة الداخلية الكائنة في شمالي الكنيسة ومن ثلاث فجوات كما وهنا تستند على أعمدة كبيرة ذات تيجان كورنثية. وفي الجهات الثلاث الأخرى ذو طبقتين، قد ثقبت فيه خمس فتحات في كل من جبهاته، وقد بنى من الدعائم ومن جسور في الحجر الكلسي. وفي الطابق ا لأسفل في الجدار النهائي قد حفروا ٥ ـ ٦ وذلك حسب الجهات. والدير الجنوبي الغربي قد امتاز بالخاصة بكنيسة يبلغ طولها نحو ١٧م في ٨ م وهي ذات صحن واحد وحنية مدورة، أما علاقة هذا البناء فهو مثير للعجب. ففي شمالي الكنيسة وغربها باحة محاطة بسور ذي أزاج مغطاة بجمع بناء رهباني إلى فندقين، وفي الشرق وخارج السور المذكور مقلع أحجار حولوه إلى صهريج، وبعده بمسافة قرب البيادر انحناء مقعر لعقد قائم فوق ضريح، جدير أن يقف فيه الزائر ويستريح برهة.

ويجتاز الزائر الزاوية الشمالية الشرقية من القرية ليلاقي سيارته في أسفل قلعة سمعان.

إن جبل سمعان يحتوي على عدة خرائب نصرانية أخرى، إلا أن الوصول إليها عسير في مجازات كأداء لا تقطعها إلا البغال. فالخيالة الأشداء أو المشاة المتمرنون يمكنهم أن يسترشدوا بالدليل الآتي الذي يمر بأماكن تحوي على كل الخرائب، وفيه فائدة اتصاله بالطريق القديمة بين حلب والاسكندرونة حيث يمكن للسيارة أن تنتظر السائح.

فمن قلعة سمعان يتجه نحو الشرق فيبلغ في الكم ٥ تقريباً فافرتين (فيها كنيسة تاريخها سنة ٣٧٢م، ثم ينحرف نحو الشمال ويتجه نحو (في الكم ٨) برج حيدر ومن ثم في (الكم ١٠) كفر نابو، وفي الكم ١٢ باراد.

ومن باراد يعود نحو الجنوبي الشرقي فيبلغ بعد (الكم ١٧) برج القاص ثم ذوق الكبير (وفي الكم ٢٠ تقريباً) ومن ثم يلحق بعد عناءان (في الكم ٣٠,٥) وحوريتان (وهي في الكم ٣٤) يلحق الطريق القديمة المذكورة وإذا أراد يستمر سائراً من باراد نحو الشمال فيمر من قيمار وصوغانات ودير محيش فيلاقي في جبول لحباً صالحاً للسيارات يوصله إلى كفر الطون .

٢ ـ جبل باريشا

١٠٥ كم في طريق السيارة، ٣,٥ ساعة سيراً على الأقدام، وينبغي أن يوصى على الخيل وعلى دليل من سرمدا (ومن الحيطة أن يأخذ معه من حلب سرجاً وركائب) ويبعث بوقوفها في برج المدخر ـ أما في الربيع فالمشاة المتمرنون يستطيعون أن يطوفوا على أرجلهم مستصحبين الخريطة والبوصلة.

٥٠ كم من حلب إلى برج المدخر (وهو كنيسة خربة)، وهو على مقربة ويسار طريق حلب ـ الاسكندرونة وبعد باب الهوا .

ويلج المجاز في الوادي المتعامد على طريق السيارات وهو ينفتح في الشمال الغربي من الخربة. ثم يدور هذا الوادي فوراً نحو اليسار. في الدقيقة ٢٠ باعودة تظهر في الغرب حينما يبلغ السائر العرفة. وقد كانت هذه السوق الأعظم لهذه الكورة في جوار السكة الرومانية. ولا تزال شوارعها ظاهرة، وحول هذه الشوارع أروقة ذات طبقتين تتقدم أمام آزاج قليلة العمق صالحة لعرض البضاعة. وفي غربي هذه الخطة الأثرية وعلى السبيل الصاعد إلى بابسقا بنية يذكر وضعها بتلك التي يزعمون في سر جيللة أنها (قهوة) وفي الجبهة الغربية عتبة باب غريبة الشكل.

في الدقيقة ٣٥ بابسقا ـ التي كانت مركزاً أنيقاً للتجار الأغنياء. وفي الجنوب الشرقي من بابسقا حمامات مهمة، وفي شمالها الغربي، عتبات كنيسة من القرن الخامس نقشت فيها أشكال هندسية وضفائر. وكان المهندس المعمار هنا هو الراهب مركيانوس كيريوس الذي عمل في قصر البنات ودار قيطا. ويلمح الناظر

على بعد ٥ كم في الجنوب الغربي مدينة خربة اسمها باقرحا، وفي الغرب قرية خربة أخرى اسمها دار قيطا.

وينبغي أن يهبط الزائر إلى قعر وهدة ثم يصعد دون سبيل مخطط. وفي الساعة ١ والدقيقة ٣٥ باقيرحا التي تُرى فيها قصور ودساكر وأروقة ولاسيما كنيستان وإحدى هاتين الكنيستين التي في الطرف الشرقي من الخرائب تشرف على باقرحا كلها من جبهتها، ولا يكاد ينقصها إلا حجر واحد. والبنية التي يعود تاريخها إلى سنة ٥٤٩ كان يتقدمها في مخطط مكان مغطى ذو أربع دعائم. أما الكنيسة الغربية فلم يبق سوى مكان عماد مربع الشكل، وثمة في جوارها قمة بارزة تشرف عن بعد على سهل سرمدا وتدعى اليوم برج باقرحا، وقد كان فيها هيكل وثني لا يزال محفوظاً منه الباب الفخم المخصص إلى الكبير، وقسم من السللا (٣٣٩/١١/٨ الأعظمية).

في الساعة ١ والدقيقة ٣٥ برج ديروني وهو عبارة عن كايللا منعزلة تكاد تكون تامة السلامة.

في الساعة ٢ والدقيقة ٠٥ دار قيطا، تمتد خرائبها فوق المنحدرات الأخيرة لأحد أرداف جبل باريشا. وهي تشرف على سهل العمق وبحيرة إنطاكية، وعن بعد شاسع على الباشورات الوعرة لجبل اللكام.

تحتوي الحارة الشمالية على فندق تاريخه سنة ٤٣٦ كما يظهر من كتابة عليه، وجدرانه العالية تبدي مثالاً غريباً للعمارة ذات الأضلاع الكثيرة، وفي قربه كنيسة القديسين بولص وموسى التي بدأوا بإنشائها سنة ٤١٨ وهذه كانت بازيليكا ذات أعمدة تماثل التي في بابسقا وهي لابد أن تكون من صنع المهندس المعمار نفسه، وعتبة أحد أبواب الجدار الجنوبي مزين بزخرف بارز وبإطارات غاية في الرشاقة وفي الباحة الجنوبية مكان عماد من القرن السادس يجذب النظر فيها القبة البارزة لجرن المعمودية المنقور قسم منه في الصخر، وذلك لأجل التعميد بالغطس. وإلى بعد نحو الجنوب برج مراقبة تاريخه سنة ٥٥١م ثم مجموعة من الأروقة ذات الطبقتين وقد كانت سوقاً للتجارة. وفي الجنوب الشرقي من الأطلال بازيليكا القديس سرجيوس ولا يزال قسم من الجوف الذي ما بين كورنيشات الفرونتون

والذي يعلو القنطرة الكبيرة فوق الخورس - رافعاً رأسه نحو السماء، أما الحنية فمربعة وقد كانت مجنحة في شمالها ببروز بشكل البرج، وكان ثمة مكان عماد مجاوراً إلى الدياكونيكوم (مكان الشماسة)، وكان قدام الكنيسة مكان مغطى ذو أربع دعائم. وإذا شاء الزائر في طول البقية من الأروقة والدساكر الواقعة على حد البلدة من الجنوب يبلغ في الجنوب الغربي كنيسة الثالوث وتصميمها يكاد أن يكون مربعاً وعهدها في القرن السادس، وثمة بضعة أشجار وصهاريج قد تكون أحياناً جافة تستدعي الوقوف والتريث.

في الساعة ٢ والدقيقة ٤٠ تيزين العتيقة (أو خربة تيزين) فيها كنيسة تاريخها ٥٥٨ لا يزال الطابق الأول من واجهتها وجدارها الجنوبي سالمين. وتصميم هذه الكنيسة يماثل الذي لكنيسة الثالوث في دار قيطا، والأبواب الكبيرة في الواجهتين الغربية والجنوبية قد نقشا بزخارف على شكل ورق الخرشوف وأحيطت بنقوش بارزة ملتفة على شكل الحلزون.

في الساعة ٣ والدقيقة ١٠ قصر ابليسو. وهنا كابللا صغيرة في الجهة الشرقية تشرف على الوادي المتمعج الذي تخترقه السكة الرومانية، وعلى الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة ويعزى سبب سلامة هذه الكابللا بتمامها حتى الآن دون ريب إلى أن ليس في بنائها أي عمود. وحنيتها مربعة الشكل، والبروتوزيا التي كانت مغطاة قبلاً ببرج وكذلك الدياكونيكون يتجهان مباشرة نحو الخورس الذي كان يحف به قبلاً داربزين فاصل بينه وبين صحن الكنيسة وفي الخارج، قد زينت الشبابيك والأبواب الكبيرة بنقوش بارزة تنتهي أحياناً بأشكال حلزونية. وعلى بعد قليل نحو الشرق مجموعة عمارات تحتوي على كنيسة مجنحة بمكان عماد تدل كتابة سريانية فيها على أن تاريخها سنة ٥٤١.

في الـ ٣ والدقيقة ٢٥ عين دلفة، (مخفر درك، عين ماء..) وهي على طريق السيارات تؤخذ فيها السيارة المنتظرة ويرجع بها إلى حلب (٥٥ كم) من طريق قصر البنات..

٣ ـ الجبل الأعلى (جبل السماق)

٧٣ كم، طريق حلب ـ حارم. ومن حارم ٢,٥ ساعة على الخيل حتى قلب لوزة. ولابد من أن يوصى على الخيل في حارم على أن تكون من المعتادة على تسلق الجبال.

٧٣ كم من حلب إلى حارم عن طريق بني شهر وشيخ علي .

يمر طريق الدواب من أمام رأس النبع الأصلي في حارم، وهو في شرقي هذه البليدة، ثم يصعد بسرعة نحو منحدرات جبل الأعلى ـ في الساعة ١ و ٢٠ دقيقة بنابل، قرية درزية بين خرائب جديرة بالتصوير منها دساكر لإحداها طابقين وفوق جدرانها أقسام عالية مثلثة الشكل مستدقة ـ وفي جنوبي القرية عمود مقبري. ثم يتوقل الطريق أحياناً عقبات كالأدراج المنقورة في الصخر ولا يزال يصعد إلى أن يمر قرب خربة بريش ويترك في الشرق أطلال قرقبيزة، وفيها كنيسة ودسكرة.

في الساعة ٢,٥ قلب لوزة، وهي قرية درزية، سكانها نحو ١٥٠، بنيت في طرف الرابية وفي أسفل كنيسة من أجمل ما وجد في بلاد الشام.

إن ذرع هذه الكنيسة ٢٥م في ١٥. وهي مقسمة على ثلاثة صحون بصفين من العقود، الثلاثة ذات المدى الهائل. فهي إذن بازيليكا ذات دعائم وحنايا تشبه التي في رويحة. وثمة أمام الكنيسة دهليز فارتكس وهذا الدهليز مجنح بأبراج ذات طبقتين بينها ينفتح حنية عريضة ومقعرة. والقسم نصف الدائري المتمم للحوزى مزين برتبتين من الأعمدة الراكب بعضها فوق بعض بدون كورنيش متوسط بين الرتبتين.. والقسم نصف الدائري، وكذلك صدر الكنيسة هنا مشابهان برسومهما وتزييناتهما إلى القسم نصف الدائري وصدر الكنيسة الموجودين في دير القديس سمعان العمودي .

والقسم الأعلى في الصحن الكبير من هذه الكنيسة قد فتحت فيه نوافذ بينها عويمدات موضوعة على شكل الشرفات البارزة، كانت تحمل الأفاريز المخصصة لحمل هيكل البناء. ذي القطع المنفسحة والسقف كان مغطى في الواقع بالخشب، وأما القسم الأسفل فكان على العكس، يمتد عليه غطاء ثقيل من البلاط المنحوت من الحجر الكلسي طوله خمسة أمتار ويؤلف في الخارج كورنيشاً. ولا يزال فوق السور الجنوبي قسم من هذا الغطاء.

وربما كانت هذه الكنيسة البديعة الجمال من أواسط القرن السادس. وهي لم تكتفِ بإلقاء وحيها على معماري البازيليكات ذات الحنايا بل أيضاً على البنائين المتأخرين مثل بوسان معمار كنيسة فورفيمار الشهيرة بتقاطر الزوار إليها، وهي قرب مدينة ليون في فرنسا. ومثل المعمار الإيطالي الذي بنى أخيراً بازيليكا جبل الطور (فلسطين).

ويمكن أن يعود الزائر إلى حارم من نفس الطريق خلال ٢,٥ ساعة.

ومن قلب لوزة يتيسر القيام بعدة نزهات. إن في جبل الأعلى وإن في جبل باريشا وهما طودان يؤلفان حقولاً حقيقية من الخرائب، لكن الوصول إليها على غاية من الصعوبة، ولذلك سيكتفي على وصف دليل يمكن الخيالة والرجالة ذوي الشغف أن يبلغوا في الجنوب لحبا صالحاً للسيارات التي يرتبطون معها بموعد.

فمن قلب لوزة مجاز يتجه نحو الجنوب يمكن من بلوغ بهو (نحو ٢ كم) وفيها كنيسة تغرى بالنظر. ثم بعد قصر الدير (٤,٥ كم) كفر كيلة حيث يوجد كنيسة من القرن الخامس أو السادس، جديرة بالنظر لاحتوائها على مدرج مربع الشكل يحيط بسور الكنيسة ولواحقها، وللتزيينات الموجودة في أبوابها الجانبية، ومن كفر كيلة يمكن أن يتجه نحو الغرب ويصل بعد ١,٥ كم إلى بشندلايا حيث يزور فيها قبر طيباريوس كلوديوس صوصاندروس، وهو مدفن تحت الأرض غاية في الجمال منقور في الصخر، ومثله الباحة التي تتقدمه والمنحدر الذي يوصل به إليها. ومدخل هذا القبر مؤلف من أربع دعائم ضخمة وجيدة الحجر اثنتان منها قد وقفت على الصخر وثمة كتابة يونانية على الأحجار الضخمة المحمولة على الأعمدة يفهم منها أن هذا القبر انتهى عمله ٢٤ نيسان ١٣٤. والفريز بأشكال الأكاليل ورؤوس الثيران المسلوخة. وغرفة القبر منقورة في الصخر محاطة بثلاثة شباكي كبيرة مستطيلة وناووس موضوع في الصدر ومقحم في كتلة الصخر والكتابة المذكورة على باب المدخل قد استنسخت على نوع من المسلات المنتصبة إلى جانب المدفن. وهذه المسلة الوحيدة الحجر ذات علو قدره نحو سبعة أمتار وطول كل من أضلاعها ٩٠ سنتمتراً، وفيها غير الكتابة رسوم اثنين من الموتى المنقوشة أشكالها في صدر المشكاتين.

ومن كفر كيلة يعود أدراجه حتى قصر الدير ومن ثم يتجه نحو الجنوب الشرقي ويمر بسردين ومازاتا (نحو ١٠,٥ كم) فيصل إلى قوقنايا.

يرى في قوقنايا كثيراً من القور، نخص بالذكر منها مدفن أرضي جدير بالنظر وهو مسدود بغطاء ذي قواعد عديدة من التي تكون في أعلى الفرونتونات وتحمل زخارف أو تماثيل مختلفة، وتتألف من غرفة تحت الأرض مع دنان قبورية، وثمة إفريزان بارزان في منتصف علو الغرفة كانا يستعملان لوضع المصابيح وفي الوقت نفسه لدوس الأرجل حينما كانوا يقصدون الهبوط إلى حفر القبور. وأحد الأركوسولات عليه كتابة يونانية تاريخها سنة ٣٩٩م. وثمة قبران آخران أحدهما لايزال تام السلامة، كانا مؤلفين من هرم صغير محمول على دعائم وهو يغطى نواويس معروضة للهواء الطلق. وفي قوقنايا غير هذا دور ومنازل عديدة من نفس طراز البناء وتصميمه الموجود في البارة إلا أنها تختلف عن تلك بأن طابقها الأسفل ليس محمولاً على أقواس بل على دعائم مربعة. والنوافذ والأبواب هنا مستطيلة الشكل ومؤلفة من أحجار واحدة محمولة على عضائد نقوش خفيفة البروز قد كتب عليها كتابة يونانية تاريخها ٤٧٩م.

وبيوت الناس المترفين في قوقنايا ذات رواقين ودرابزينات وتيجان أعمدة مختلفة ويلحظ فيها أيضاً بيت مبني بالرخام بقطع ضخمة جداً. وطابقه الأسفل محمول على دعائم وأعمدة وله درج خارجي منحوت في بلاطة صخرية واحدة كان يوصل الصاعدين إلى الطابق الأعلى المؤلف من غرفة واحدة فقط.

ومن قوقنايا يستأنف المسير نحو الجنوب حتى يصل في (الكم ١٢ تقريباً) إلى الدوير، حيث ينحرف نحو الشرق ليبلغ بعد نحو ١٢,٨٠٠ كم قصر النبات، ثم في (الكم ١٣,٥ تقريباً) باقوزا وفيها كثير من البيوت المحفوظ معظمها حفظاً حسناً، وفيها بقايا كنيسة جميلة مبنية على منحدر أكمة.

إن هذه الكنيسة يعود تاريخها إلى القرن السادس، ولها في مدخلها مكان مغطى ذو عمودين في مداخلها الجانبية وأمكنة مغطاة صغيرة. والسور الذي في الصحن الأكبر منها ذو ثلاثة نوافذ ويؤلف بروزاً نصف دائري.

ثم يظل مستمراً في سيره نحو الشرق دائماً فيبلغ (في الكم ١٥ تقريباً) دير سيتا وفيها بضعة بيوت جميلة خربة، في منتصفها قامت ضيعة عربية صغيرة. وعلى مدخل أحد البيوت المذكورة قد برزت كتابة تاريخها سنة ٤١٢م.

يزار في دير سيتا أطلال كنيسة يميل شكلها نحو الاستطالة، واتجاهها من الشرق إلى الغرب، وقد كانت فيما مضى منقسمة إلى ثلاثة صحون تفصل بينها أعمدة ذات ثلاثة أساكيب، وكانت منتهية في الشرق. بصدر نصف دائري، وكانت مجنحة بغرف مستطيلة الشكل، ذرعها ٦م في ٤م. وبنية هذه الكنيسة ذات طول ٤٥م وعرض ١٨م.

والواجهة الشرقية التي وراء الصدر تتألف من جدار قائم مزين بمجموعة من الأعمدة عددها ١٢ محمولة على أفاريز ذات طنوف وتحمل هي أيضاً بدورها كورنيش الجهة السفلى من الكنيسة، والواجهات الجانبية مثقوبة بعدد كبير من الأبواب والنوافذ جبهة أقواسها المزخرفة قد نحتت في جوف حجر واحد، وزخرفت بنصبة تحف بكل التأليف حسب طريقة خاصة بهذه الانحاء. وقد كانت النوافذ تغلق ببلاطات مجزأة حسب الزي المستعمل في بلاد حوران، والأرض الداخلية في الكنيسة هي أعلى من الأرض الخارجية بمترين. وكل صحن الكنيسة قد تهدم. وثمة عدد من تيجان الأعمدة الكورنثية ذات الأسلوب الجميل قد تمددت بين الأطلال. وربما كان بناء هذه الكنيسة في القرن السادس. وأخيراً نذكر من مباني دير سيتا (مكان عماد) ذا شكل مثمن الأضلاع طول جوانبه نحو ٤,٥م وثمة رواق داخلي أصبح الآن متهدماً كان يحيط بالجرن المتوسط المدفون تحت الأنقاض. والواجهات الثلاث لمكان العماد المذكور لا تزال قائمة قد فتح فيها أبواب ينفذ منها الداخل إلى باحة مبلطة ومحاطة بأروقة وهذه الباحة كانت الدركاه، وفيه كان طلب العماد يرفض الشيطان والعالم ومباهجه وذلك قبل أن يتلقى التعميد الغطس وسط الحوض.

ومن دير سيتا يصعد نحو الشمال الشرقي فيبلغ كفر حاروت، ومنها يصل (في الكم ٢٢ تقريباً) إلى قوللي حيث يجد لحباً صالحاً للسيارة، يمر بخرابو وجنية

فيبلغ (في الكم ١٧) في قرية تارب الطريق الحديثة بين حلب والاسكندرونة. ومن تارب إلى حلب ٣٥ كم.

ب ـ خرائب تزار على طريق حلب ـ اللاذقية

البارة، سر جيللة

جولة فيها طواف بالسيارة نحو ٢٠٠ كم (ذهاب وإياب حتى مرعيان ومن ثم خمس ساعات على الخيل).

٨١ كم من حلب إلى أورم الجوز .

وعلى بعد ١٥٠م من هذه القرية وفي قرب صهريج ماء يفترق نحو اليسار لحب صالح للسيارات يفضي خلال ٣٥ دقيقة إلى قرية مرعيان، وهي إسلامية وفيها مسجد وينبوع ماء.

ومن مرعيان يمكن خلال ٣٠ دقيقة على الخيل أن يبلغ الكهوف الأثرية التي كانت تتخذ مساكن تحت الأرض، وهي قرب قرية المغارة. والمجاز يصعد وهدة ويترك الرعيان على اليسار وينفذ بين الأطلال، وفي حرف الأكمة التي تسد الوادي الضيق في الشمال تنفتح أفواه الكهوف المقبرية المتصلة ببعضها بممرات حلزونية، ويلحظ فيها الروافد المنحوتة وسط الحجر. وفي أعلى هذه الكهوف قبر من الطراز نفسه منحوت في الصخر. إن هذا البناء الأثري يمكن أن يعود إلى القرن الثالث الميلادي، والبقعة هنا هي دون ريب (المغارة) التي بحث عنها اشرابون. وعلى بعد ٥٠م إلى الغرب وفي أسفل المكان قبر جميل من القرن الخامس له خلية شاهقة مرتفعة.

يترك السيارة في مرعيان ويصعد إليها على الخيل ـ في الساعة ١,٥ قرية احسم ـ في الساعة ٢,٢٠ صهاريج البارا وهي على بعد ١٥ دقيقة إلى الغرب من القرية.

وفي قرب الصهاريج المذكورة ونحو الجهة الجنوبية الشرقية ينتصب الحرم الأسود لحصن عربي من العصور المتوسطة يدعى (قلعة أبو سفيان) والذاهب نحوه يترك على يساره بضعة أطلال لكنيسة (منها حنيتان محاورهما عمودية على بعضها). إن حصن أبي سفيان مبني من قطع رخام قديمة، وقد كان محاطاً بسور مستطيل الشكل محكم بأبراج مربعة بارزة، والدونجون كان ذا سور خاص به. وهذا أيضاً مرصد سهل، يميز الناظر وجوده على اليسار ونحو شرقي قرية البارة،

وأمام الزائر وعلى اليمين تمتد خرائب مختلطة، حيث يلحظ بينها خاصة الحنايا المبنية في وسط الغرف لتحمل السقوف الحجرية. وتجاه الزائر وعلى بعد قليل وادٍ ضيق مستوٍ متجه من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وفي ضفته الأخرى تمتد المدينة الأثرية المسماة (كفر البارة) أو (الكفر).

إن خرائب الكفر محاطة بالبساتين ومنفصلة على بعضها بطرق قديمة مبلطة ومحاطة بجدران، وهي جديرة بالتصوير لكنها عسيرة الزيارة. ويمكن الذهاب على خط مستقيم من الحصن العربي إلى أحد المقابر الهرمية الشكل الواقع في أقصى الشمال وهو يظهر وسط المقابر على الحدود الجنوبية للكفر.

وحينما يجتاز الزائر الوادي الصغير المستوى يترك على اليسار بقايا بازيليكا ذات تصميم أصلي. وحينما يصل إلى الهرم الشمالي يمكن أن يدور نحو اليسار ويسير على طول خر في الجنوب الغربي من المدينة، ذلك لكي يزور المقبرة، وفي قرب الهرم الثالث الذي لم يبق منه إلا قاعدة كثيرة الزخارف، وفي الضفة الثانية للخر المذكور حوش مزرعة غريب الشكل يسمى (دير حوباط) لا يزال على سلامته التامة. ومن هناك إذا عاد أدراجه نحو الشمال الشرقي في اتجاه القرية يمر بفيلات جميلة، ثم يمر بالضفة الأخرى من الوادي المستوى فيجد في طريقه غابة من الدعائم الحجرية التي يظن أنها كانت فيما مضى تدعم أسوار بساتين.

إن زيارة الأطلال المكتظة التي تبدي وسط البارة القديمة نواة صناعية للمدينة تحتاج لنشاط رياضي، ولا يصادف الزائر فيها إلا بصعوبة - المكبس الذي على فتحته قد برزت كتابة تشهر الخمر المصنوع في مواطنه.

وكذلك من الصعب العثور على كنيستين (غير اللتين ذكرناهما) والحمامات في شرقي الوادي المستوي التي أشار إليها بعض السياح. لأن خرائب البارة تفتك فيها معاول القرويين المجاورين.

(من البارة الحاس وخربة الحاس، سيأتي ذكره، وقد شرع في تمديد لحب من البارة إلى المعرة ماراً بكفر نبل والحاس).

في الدقيقة ٣٠ بعد مغادرة البارة، وعلى طريق معرة النعمان خرائب باعورة وهي على اليمين - وفي الدقيقة ٥٠ سرجيللة، وهي خرائب يقطنها رعاة الماعز في فصل الشتاء فقط.

إن هذه البقعة الأثرية كانت قد شيدت على شكل طبقات على أصداف واد صغير حيث يمتد النظر بدون تحديد نحو السهل الشرقي. وفي وهدة الوادي الصغير المذكور قد بنيت حمامات لاتزال محفوظة حفظاً يدعو للعجب، ومنظر البنية المحجوبة وراء جدار عابس، ويلحظ خاصة صدور كنائس بارزة على الضفتين الشرقية والجنوبية، وهي تشبه أن تكون حماماً بخارياً أو مكان التعرق، أو أن تكون مكان التبرد الذي يغتسل فيه بالماء البارد نهائياً. ولأجل الوصول إلى تلك الصدور كان يتحتم على طالب الحمام أن يجتاز باب المدخل الوحيد وهو في جنوبي جدار السور، ثم يبلغ البهو الكبير المتوسط، وفيه سدة محمولة على أربعة أعمدة. وفوق البهو المذكور مكان الشلح وأبهاء الاستحمام. أما مجاري الماء المفتوحة في تلك الجدران لاتزال ظاهرة العيان. وثمة صهريج ماء واسع مغطى بألواح حجرية طويلة محمولة على عمودين وحنايا عديدة لا تزال موجودة نحو الجنوب.

ولم يعثر المنقبون هنا على الموقد. وفي البهو المتوسط عثرت البعثة الأميركية سنة ١٩٠٠ على فسيفساء إلا أن هذه الفسيفساء خربت بعد حين. وفي محيط دائرة هذه الحمامات رسوم حيوانات يطارد بعضها بعضاً. قد نقشت وسط زخارف بارزة على شكل الأوراق، وثمة كتابة فيها تاريخ سنة ٤٧٣ واسم المحسنين.

وعلى مقربة من الحمامات تنتصب بنية ذات واراندتين، رشيقة جداً، وقد كانت مكان اجتماع، وقد حسبتها البعثة الأميركية سنة ١٣١٨/١٩٠٠ مقهى. والضفة الغربية من الوادي الصغير قد خصصت إلى المقبرة. (وفيها ضريح على شكل هيكل، وأغطية قبور ذات ستة مساند وزخارف. وعلى المنحدرات الشرقية أو الشمالية الشرقية ومن الحمامات فصاعداً تمتد على شكل طبقات كنيسة خراب بالمرة وفيلات مختلفة إحداها في الجنوب الشرقي لا تزال محتفظة باللوجيل ذات الطابقين أمام الواجهة.

ومن سرجيللة يرجع أدراجه إلى مرعيان (ولابد من دليل) في الدقيقة ٣٥ يترك على يساره في ا لشرق دير سميل (وفيه خرائب وقرية) ـ في الدقيقة ٤٠ اللوزة وهي قرية صغيرة مبنية وسط هذه الخرائب. وثمة فيلا لا تكاد تكون غير محسوسة، وأخرى في حالة أقل سلامة، وقبور. وهذا المكان هو دون ريب المقبرة القديمة التي كانت للصليبيين. في الساعة ١,٥٠ اخسم ـ في الساعة ٢ مرعيان ومنها تؤخذ السيارة.

ج ـ خرائب تزار في طريق حلب ـ حمص

١ ـ من معرة النعمان إلى الحاس والبارة

جولة تحتاج إلى ثلاثة أيام تقريباً ـ وللمبيت يطلب من مخاتير الحاس أو البارة، هذا إذا لم يكن لديه خيمة. من حلب إلى معرة النعمان ٨٨ كم.

اليوم الأول ـ (من المعرة إلى الحاس وخربة الحاس (لحب صالح للسيارات طوله ٨ كم حتى الحاس) ـ في الكم ٤ كفر روما، وهي قرية سكانها ٣٦٠ مسلمون وفيها أطلال أثرية أخصها جسر غريب جداً إذ إن له عوض القناطر بلاطات طولها ٤,٢٥م محمولة على عشر دعائم.

في الكم ٨ الحاس، قرية مسلمة (فيها مسجد من العصور المتوسطة وأطلال قد عبث فيها كثيراً) ويمكن قضاء الليل فيها. وفي الجنوب الغربي من القرية وعلى بعد بضع دقائق رسوم ضريح كان له طابقان ذوا أعمدة كورنثية تحمل هرماً. وكان هذا القبر ينسب إلى أيوب وانطونيوس ولدي ديوجن، وفيها بقايا بازيليكا ذات نوافذ واسعة سعة خارقة وكثيرة العدد (من القرن السادس).

ومن الحاس يمكن للماشي أو الراكب أن يصل خلال ٣٠ دقيقة إلى خربة فارس ثم خلال ٥٥ دقيقة إلى خربة الحاس.

وهي حقل واسع ملآن بالخرائب عرف من بينها سبع كنائس وكنيسة قديمة من تخطيط البازيليكات طولها في الداخل ٢٠ متراً في عرض ١٣ ويكون عرض الصحن الأكبر ٦,٦٠م. وفي جهة الحنية البروتزيا والدياكزيكوم وقد كانا على شكل الأبراج. وكانت أرض هذه الكنيسة مصفحة بفسيفساء تمثل طواويس بين أغصان العنب، وإلى جانب هذه الكنيسة بيت من بيوت المدن الفنية يحتوي على مسكنين على أطراف باحة مستطيلة تحف بها أعمدة دورية. هذا واللحب الصالح

للسيارات ينتهي في وقتنا بكفر بليل وهي قرية كبيرة سكانها ١٢١٥ مسلمون، ومن المأمول أن ينتهي تمديده حتى البارة.

وإذا وصل راكب الخيل سيره نحو الغرب يبلغ كنصفرا (وفيها خرائب).

اليوم الثاني ـ من الحاس إلى البارة (والرجوع إلى معرة النعمان).

١ ـ المسافة الأولى: ساعة ١ إلى بيترسا ـ ١,٥ إلى مجليا وفيها خرائب ذات شأن. من بينها حمامات وكنيسة صغيرة غريبة. فالمكان المغطى داخلها كثير الأضلاع وله حنية عميقة نصف دائرية، ويشغل المكان المذكور خمس جهات لشكل مثمن الزوايا محمول على أعمدة تحيط بصحن يحيط بخورس. في الساعة ١,٥٠ البارة. المسافة الثانية ـ ٥٠ دقيقة إلى ريبا وفيها مقبرة هرمية ومكان عماد ذو باب جميل. وكان في ريبا على عهد الصليبيين موقع عسكري، وهنا هلك باغيسيان الذي دافع عن إنطاكية دفاعاً هائلاً ضد الصليبيين.

في الساعة ١ والدقيقة ٢٥ باعودا (خرائب..) في الساعة ٢ البارة ومن البارة يمكن الوصول راكباً إلى مرعيان واورم الجوز .

اليوم الثالث: الرجوع إلى معرة النعمان ـ ٥٠ دقيقة إلى سرجيللا ـ ٢ ساعة و ١٠ دقائق إلى معرات.

٢ ـ من بابيللا إلى جرارة ودانا ورويحة

ينبغي بادئ ذي بدء أن ترسل الخيل من المعرة إلى بابيلا.

في الكم ٧٦ من حلب، وعلى طريق حماه وحمص وقبل معرة النعمان، يبلغ السائر على اليمين الطريق بنية حديثة وعلى اليسار دعائم وعتبات وبقايا مبانٍ قديمة مبعثرة على الأرض. هذه هي خرائب بابيللا. وإذا ترك السائح الطريق وسار نحو اليمين أي غرباً يبلغ آخر الحقول المزروعة ويتجه نحو خرائب تظهر اسمها جرادة.

وخلال ٣٠ دقيقة من المسير على الأقدام يبلغ المقرة التي في غربها. ذلك إلى الشمال يبلغ جدار السور الذي يحميه برج مراقبة ذو ست طبقات، علوه نحو ٢٨ م ومساحة تصميمه خمسة أمتار مربعة ونصف، وثمة مجموعة من الفيلات الجميلة لا تزال تامة السلامة وبرجان جميلان.

ومن جرادة يمكن أن يصل إن شاء إلى دانة وهي إلى الجنوب الغربي وعلى بعد ١,٣٠ ساعة وفيها خرائب كنيسة ومبان غريبة أحدها ذو هرم ورواق، وإن شاء إلى رويجة وهي إلى الشمال الغربي وعلى بعد ١,٣٠ ساعة أيضاً، وهي مدينة أثرية وحقل خرائب ممتدة، في وسط رويحة ساحة مربعة ضلعها ٤٠م، تحيط بها أروقة ذات طابقين، وهي تؤلف ساحة المدينة الكبرى أو السوق العام. وحول هذه الساحة كلها أطلال حي العمال ، وهي خراب بالمرة وذات شوارع صغيرة ضيقة. وفي غربي هذه الكتلة المركزية ينتصب الجدار الشرقي للكنيسة القديمة (من القرن ٤) ذات تصميم بازيليكي مع حديقة مسورة بجدران. وفي جنوبي السوق سكة عريضة تحف بجبل بينها الفيلات، ونحو الطريق الشرقي هذه السكة قبر على شكل الهيكل ذي العمودين تاريخه سنة ٣٨٤م وفي شرقي السوق سكة أخرى، تحف بها فيلات أنيقة، تاريخ أحدها سنة ٣٩٠م. وينبغي أن يتفرج الزائر خاصة في شمالي السوق على كنيسة بيزوس التي تعود إلى أواخر القرن الخامس أو أوائل السادس. وهي بازيليكا ذات دهليز مغطى قبال صحنها، ومساحتها ٣١,٧٠م في ١٧,٧٦م، وهي منقسمة إلى ثلاثة صحون بينها صفان لكل منهما ثلاث قناطر عظيمة. مستندة على دعائم. وهذا الوضع حديث، لأن البازيليكات الأولى كانت ذات أعمدة وكنائس رويحة وقلب لوزة فالكنائس ذات الحنايا المعروفة. وقبر بيزوس الذي سميت الكنيسة باسمه ذو بنية صغيرة قد سقف بقبة حجرية. وهو في القسم الجنوبي من الحظيرة المستطيلة الشكل المحيطة بالكنيسة. وفي القسم الشمالي قبر على شكل هيكل ذي عمودين.

ومن رويحة يرجع إلى بابيلا عن طريق رويحة (طريق حلب). ويمكن أيضاً أن يواصل السير على الخيل حتى ريحا فبعد سير ساعة وربع منطيف، وفي الساعة ٢ كفر لاثا التي يصطاف فيه بضعة مئات من أهالي حلب تحت الخيام.

وكفر لاثا كانت مدينة محصنة في العصور المتوسطة، ضبطها طنكرد من الإسماعيلية سنة ١١١٠ ثم استردها نور الدين سنة ١١٥١ من الإفرنج.

وفي كفر لاثا طريق صالح للسيارات يفضي إلى ريحا ومنها يذهب إلى حلب (٧٩ كم).

من حلب إلى قنسرين

٥٨ كم ـ الطريق المعبدة من حلب إلى الزربة ومن ثم لحب صالح في الفصول الجافة يستعيد الطريق المعبدة القديمة من حلب إلى حمص المارة بخان طومان، حتى الزربة وهي في الكم ٢٤ من حلب، ففي الزربة يسلك على اليسار لحباً صالحاً للسيارة في الفصول الجافة، وهو يمر في الكم ٢٨ ببرقوم.

في الكم ٣٤ قنسرين، وهي في سفح جبل النبي عيص، وفي ذروة هذا الجبل (وعليها إشارة إدارة المساحة علوها (٤٢٤م) ولي اسمه النبي عيص بني مقامة فوق أطلال كنيسة قديمة ـ وهذا الجبل يشرف على بطائح المطخ التي تنصب فيها وتتلاشى مياه نهر القويق القادم من حلب.

التاريخ: قنسرين كلمة آرامية تعنى (عش النسر) كانت مدينة ذات شأن، أسسها سلوكس نيكاتور وسماها والكلمة الثانية لكي يميزها عن سميتها التي في البقاع (مجدل عنجر)، ومكانة قنسرين كانت ناشئة من بقائها حتى القرن ١٣م، (٧ هجري) محطة للقوافل الذاهبة من حلب إلى الجنوب أو إلى إنطاكية، (وبين حلب وإنطاكيةرصيف روماني يمر بقنسرين ذكرناه..) وقنسرين كانت مشرفة على سهل واسع متموج يدعى باسمها شالسيديا وكان هذا السهل يحسب أخصب سهول الشام. وفي زمن القديس جروم الذي زارها سنة ٣٧٥ كانت مدينة ذات مكانة غير يسيرة غنية بغلاتها الزراعية وصادراتها التجارية وكان حصنها يحرس الأهلين المتحضرين من غارات البر والصحراء. وفي سنة ٥٥٠ ـ ٥٥٥م أعاد ديوستينا نوس بناء سورها. ولكن قنسرين خربت سنة ٦٢٩ من قبل أبي عبيدة. ومن ذلك العهد عمل العرب كالرومان فجعلوها مركز قيادة عسكرية وأنشأوا فيها ولاية الحدود التي دعوها جند قنسرين. وفي سنة ٣٥٢هـ /٩٦٣م نقل سيف الدولة أهل قنسرين إلى حلب، لأن جيوش الروم كانت قد خربت أكثر من نصفها، ومن ذلك الحين انقلبت قنسرين إلى قرية حقيرة وأضاعت نهائياً كل مكانتها وانقطع طريق القوافل عن المرور بها.

(إن ضيعة قنسرين الحالية واقعة في وهدة من الأرض بين أكمتين: الأولى تل النبي عيص في الشمال وتل شالسيس قنسرين في الجنوب. وبيوتهما مؤلفة من قباب مخروطية (كما هي الحال في كل بيوت قرى هذه الانحاء).

وخرائب شالسيس القديمة، التي نقب عنها سنة ١٩١٩/١٣٣٧ تحيط بضيعة العيص من الجنوب (حيث القلعة) وبالمدينة السفلى من الشرق وبالمقبرة من الشمال. والمقبرة كانت مبنية على تل يشرف من علو ٣٠م على مستنقع المطخ وذروته تؤلف هضبة مسطحة. وكان هذا التل محاطاً بأسوار لاتزال أسسها ظاهرة لاسيما في الجهة الغربية، وربما كان قسم من هذه الأسوار قد بني في زمن تأسيس المدينة اليونانية، وهذا السور كان محصناً بأبراج زوايا وبباشورات مستطيلة الشكل. وفي داخل السور آثار أسس البيوت وتخطيط الشوارع لاتزال ظاهرة.

وكان ينفصل من الواجهة الشرقية جدار ضخم مستقيم الخطوط ويتجه من الغرب إلى الشرق ويهبط المنحدر. وهذا الجدار كان يؤلف الحد الجنوبي للمدينة السفلى. وهذه المدينة كانت تمتد حتى المنحدرات الأولى لأكمة النبي عيص. وكذلك الأمر كان ينفصل من الواجهة الشمالية جدار ضخم آخر ويتجه إلى الشمال حتى سفح أكمة النبي عيص. ولا تزال آثار مداميكه السفلى ظاهرة. وربما كان هذا الجدار يعود كالجدار الأول إلى سور المدينة السفلى الذي محيت أقسامه الأخرى. وهو دون ريب السور الذي بناه يوستينانوس.

وفي كل الصدف الجنوبي من أكمة النبي عيص الصخرية قد حفرت مقالع حسيمة جداً في أسفلها قد امتدت مقبرة واسعة. وقد ثقبت الصخور فأصبحت كالغربال من مداخل الكهوف المقبرية التي لا تعد ولا تحصى. واستغلال هذه المقالع ربما كان حدث قبل وجود هذه المدافن.

ومن قنسرين ـ في الفصول الجافة ـ يمكن أيضاً العودة إلى طريق حلب ـ حمص القديمة عند مرتفعات القصيبية (بعد ٧ كم) وذلك إما باجتياز الحقول التي في جنوبي أكمة النبي عيص مباشرة، أو (بعد ٩ كم) عن طريق بانص وتل حدية. أما البعد بين القصيبية وحلب فهو ٢٢ كم.

من حلب إلى سفيرة ومسكنة وخناصرة وأسرية والأندرين.

لحب: ٢٥ كم من حلب إلى سفيرة، ١٢٠ كم إلى مسكنة، نحو ٤٠ كم إلى خناصرة، في لحوب صالحة للسيارات في الفصول الجافة.

يغادر حلب من جنوبها الشرقي (في طريق مسكنة ـ دير الزور)، وفي الكم ٨ بعد حلب ينحرف نحو اليمين ويسلك لحباً، يتجه نحو النيرب (١٠ كم)، وهي قرية شيدت دورها الحديثة من أتربة تل كان يغطي المدينة الأثرية، ولا يزال قسم منه موجوداً في طرف القرية الجنوبي.

في هذه القرية كانوا قد اكتشفوا سنة ١٨٩١/١٣٠٩ نصبين مقبريين عليهما كتابات آرامية، استحصلها المسيو كلرمون كانو، وهما الآن في متحف اللوفر في باريز. وفي سنتي ١٩٢٧/١٣٤٥ ـ ١٩٢٨/١٣٤٦ نقبت بعثة المدرسة الأثرية الفرنسية في القدس فتوصلت لكشف مقبرة أكثر قبورها تعود إلى القرن ٦،٧ قبل الميلاد. ووجدت أيضاً نحو ٢٧ لوحاً مكتوباً.

(رقم بالحرف المسماري وباللغة البابلية الحديثة يعود عهدها إلى مابين السنة الأولى من حكم بختنصر الثاني (٦٠٥) ق.م وبين حكم قمبيز (٥٥٨ ـ ٥٢١) ق.م وأكثر هذه الرقم عبارة عن عقود ومقاولات. وكتابات النصب ونصوص الرقم فيها تلميح إلى إله قمري معبود اسمه سحر. ولم تتمكن البعثة من العثور على أطلال مدينة. ولم يبق ثمة سوى بقايا مبهمة لركام أقدم من المقبرة.

في الكم ٢٥ سفيرة، قرية كبيرة، سكانها ٤٠٠٠ كلهم مسلمون، قاعدة ناحية ذات شأن كبير (١٢٠ قرية) تتبع قضاء جبل سمعان).

يظن أن تل سفيرة في مكان القديمة ففي أوائل سنة ١٩٢٨/١٣٤٦ وجدوا في سفح هذا التل القسم الأعلى من تمثال من الحجر الحري ملتحفاً بفوطة على الطراز المصري، وعليه كتابة مسمارية يعودة تاريخها إلى القرن ١٥ تقريباً قبل الميلاد (وهو في متحف حلب) وعلى أثر هذه اللقية شرع المسيو بروسه يسبر غور هذا التل سبراً أصولياً. فعثر على مقابر في الطبقات السفلى وعلى مقربة من كهف مقبري غريب الشكل فيه عين ماء، وعشرون هيكلاً عظمياً. وعلى بعد بضعة أمتار إلى الشرق عثر في عمق خمسة أمتار من التراب المتهدم على أطلال سالمة لباب كبير محصن مبني برخام من أحجار الحري المنحوتة التي يبلغ طولها نحو ٢،٥ متر. إن هذا الأثر

الريـازي العـسـكري هـو مـن طـراز معـروف في حفريـات زنجيرلـي ولكنـه مـن حجـم أكبر بكثير، والدهليز الذي فيه الباب ذو ثلاثة مواقع متسعة ومتتابعة ولـه طـول ٢٤ متراً، وعـرض البنـاء الأثـري يبلـغ ١٤ مـتراً. وهـذا البـاب واقـع في شمـالي سـور شـكله مستدير وهو مؤلف من جدار من الآجـر غيـر المشـوي (اللـبن). ويبلـغ عرضـه نحـو أربعـة أمتار. ولهذا السـور الهائل أبراج نصف دائرية تبرز ضمنه ويبتعد بعضها عـن بعـض نحـو ٤٠ متراً. وهذه هـي المرة الأولى التي يـكتشـف فيهـا في بـلاد الـشام مدينـة محصنـة مـن النمـوذج الآشـوري الحثـي. وخرائـب سـفيرة تؤلـف في الوقـت نفسـه أكثـر الأمـاكـن الباقية من الألف الثانية قبل الميلاد من حيث السـلامة.

مـن سـفيرة إلى مـسـكنة (٩٥ كـم، لحـب صـالـح للسيارات) ـ يتجـه اللحـب نحـو الجنوب الشرقي ويتبع الضفة الجنوبية لبحيرة الجبول المالحة ومملحة الجبول الواسعة الـتي ملحهـا يـستعمل مـن قبـل الحكومـة السـورية في فـصل الـصيف، منـذ أن يتبخـر قسم من مائهـا. واللحـب المذكـور يغـادر علـى يسـاره في السـهل وعلـى مقربـة منـه التـل المسطح الذي يدعى الملوحة وقد اندثرت أطلاله. وعلى بعد نحو مئة متر في غربي هـذا المكـان الأثـري تظهـر أطـلال مـزار الـشيخ سـيف، وهـي قـد بنيـت مـن أحجـار أثريـة لكنيسة بيزنطية قديمة.

ثـم يجتـاز اللحـب قريـة أبـو جـرين وهـي في حـضيض تـل قريـب جـداً مـن الطـرف الغربي للبحيرة، ثم يترك على يساره (بعد ٣ كـم) عقربـوز وهـي ضيعة في غربـي تـل، ثم بعد ١ كـم إلى الشرق أبو دريخة وهـي أيضاً في قـرب تـل ثم بعـد ٣ كـم جلهـوم في حضيض تل مخروطي صغير.

ثم يقترب اللحب إلى مروج رحبة تحيط بالبحيرة، وفي حقلة يوجد "سراي" تحتـوي على بهو خراب مبني بأعمدة أثريـة وإزاء حقلـة تقريبـاً وعلـى الـضفة الـشمالية للـبحيرة تظهر قرية الجبول ومستودع الملح، وهي القديمة. ثم يمر اللحـب بـين قريـة حقلـة وتلـها الوسط في حجمه، ثم يبتعد عن البحيرة فيبلـغ في الجنـوب الـشرقي وعلـى بعـد ٣ كـم قرية أم العمود (وهي تبعد ٤٩ كم عن حلب) ثم يعود لمحاذاة شاطـىء البحيرة فيـدوس في مروره ـ الأوحال اللامعة لبلورات الملح.

وبعد ٧ ـ ٨ كم من أم العمود يقترب اللحب من الجبل، ثم يدور نحو الجنوب ويجتاز في حضيض عرفة من الصخور المتفككة الحاملة لجدران، وهي أطلال قلعة تدعى بوز الخنزير. وبعد مقبرة صغيرة يجتاز خرشوماً حجرياً يمتد نحو الشرق ويترك على اليمين وعلى بعد ٢ كم قرية جبين ثم قرية مويح ـ على اليمين لحب يتجه نحو الجنوب ويفضي إلى خناصرة.

(إن هذا اللحب يتجه سوياً نحو الجنوب فيبلغ رسم النقل. وعلى بعد ٢ كم من هذه القرية وفي وسط واد عميق يأتي من الغرب تظهر أطلال مدينة صغيرة تدعى المعلق مع بقايا ثلاث كنائس وأربعة كايلات ومجاز يشبه الشارع يحده قناة. وأضخم الكنائس المذكورة واقعة في أسفل مكان من القرية وعلى الضفة اليمنى للوادي وهي تكاد تكون في منتصف سور مستطيل الشكل ثم يحيط اللحب بحضيض جبل الأحص ويمر بقريتي الشلالة والراهب (وفي هذه زخارف بيزنطية) وبعد هذه يبلغ خناصرة، الواقعة على سيف بادية الشام (سيأتي وصفها).

إن لحب مسكنة يجتاز وصلاً جافاً في الطرف الأقصى الجنوبي للخليج الذي تحاذيه بحيرة الجبول، ويترك على اليمين ضيع أسماؤها حاودلون وأبو رعد.

وعلى بعد ٦ كم من مفرق طريق خناصرة يترك على اليمين اللحب الذي يفضي إلى قرية جب العلي. وهي المقر الشتوي لاحدى بطون قبيلة عنزة، ويلحظ فوق نشز ووسط سور خرائب جميلة لكنيسة ذات أعمدة تدعى خربة جب علي.

ثم يدور نحو الشمال الشرقي ويظل الطريق في منتصف المسافة بين الجبل والبحيرة فيبلغ قرية زبد (٧٥ كم عن حلب) وهي على صدف جبل الشبيت وفي مخرج واد صغير واسع أقفر ويرى في هذه القرية أطلال ثلاث كنائس على الأقل. فالتي في الشمال الشرقي لايزال قسم منها قائماً، والتي في الشمال الغربي قد أحيطت بسور محصن.

ومن زبد إلى مسكنة يجتاز اللحب براري فيحاً قفراء لا يرى فيها قرى ولا مساكن للبشر، يبلغ مسكنة وهي على بعد ١٢٠ كم عن حلب .

من سفيرة إلى خناصرة (نحو ٤٠ كم، لحب) ـ يستعير لحباً يتبع مسلك القوافل القديم. فهذا اللحب يسير بادىء ذي بدء سوياً نحو الجنوب وهو يجتاز السهل، حتى

يبلغ مزار الشيخ براق، وهذا قد بني على أسس جدران كنيسة بيزنطية قديمة، وعلى بعد ١٠٠م من يمين الطريق يوجد أطلال قرية بيزنطية مع كنيسة ثانية.

ثم يترك على اليسار ضيعة اسمها المدينة. ثم يتسلق اللحب وهو صاعد طريقاً حجرياً ويصل إلى زينان وهي وسط واد صغير ثم إلى عقربا، وفي أعلى هذه القرية يلحظ نشزاً عليه سور غريب جداً مدور الشكل من النوع البلاجي. ثم يترك الطريق على يمينه واد اسمه وادي أبو عبدة يتغلغل وسط الجبل نحو الجنوب الغربي وينفذ في خر يصعد صعوداً متمعجاً إلى أن يبلغ النجد المتوسط لجبل الأحص فيصل فوراً إلى برج حسين الظاهر وهو حصن صغير بيزنطي مستطيل الشكل مبني بأحجار حرية.

ويترك اللحب على يساره قرى الصالحية وجب أنطاش ورسم عميش والحوير (وهنا صهاريج، وأساطين أعمدة وعتبات.. الخ) وإزاء الحوير يترك اللحب ويليه نحو الجنوب الغربي فيجد وسط الحقول فوق نشز قرية نبادي وفيها أطلال كنيسة اكتشفوا فيها منبراً عليه كتابات بالسريانية القديمة.

ثم يترك اللحب على يمينه الفيسان وفيها أسس جدران كنيسة وكفر حوت (وفيها أطلال قديمة) وسويان (كذا أطلال أثرية) وبرج عزاوي (أطلال كنيسة بيزنطية مع باب كامل ذو زخرف جميل) وسرج فارع (حوض ماء قسم منه أثري).

ثم يهبط اللحب من متعرجات رديئة إلى منخفض يمتد إلى أن يبلغ الرملة وهي في الجنوب أقصى من جبل الأحص، ثم يترك هذا المنخفض أو الوادي ويسير نحو الشرق فيبلغ منخفضاً ثانياً يتجه أيضاً نحو الجنوب. وفي هذا المنخفض قرية اسمها جب الأعمى - وبعد اجتياز ثنية صغيرة يفضي إلى واد واسع ثم يترك على يساره قرى الحبس والهربكية، ثم يبلغ بساتين خناصرة (وهي القديمة) وهي على السيف الشمالي لبادية الشام (٣٩/١٢/٢٢).

ليس اليوم ثمة مايدل على مكانة معينة لـ(كوناسرا) القديمة سوى بقايا من الريازة قد اضمحلت بالمرة. فالشراكسة الذين سكنوا فيها منذ ٤٠ سنة قوم نشيطون، قد شيدوا قرية جديدة تتضخم يوماً بعد يوم، واستعملوا لتشييدها الأحجار المنحوتة التي عثروا عليها في الجدران القديمة.

ومما يستحق النظر هنا عتبتان غير ملموستان عليهما كتابات يونانية. الأولى معروفة من زمن قديم، موجودة قرب باب السور الذي يفتح على لحب سفيرة وفي قربه أطلال كنيسة كبيرة تلفت النظر ومخفر الدرك الحالي يشغل بناء أثرياً صغيراً الغالب عليه أنه بيزنطي. ولا يزال الطابق الأسفل منه المعقود والمبني بأحجار ذات نحت حسن، مع صحن كنيسة متعارض، على أتم السلامة. وفي الشمال الشرقي من هذا المكان وعلى بعد قليل توجد العتبة الثانية التي اكتشفت حديثاً. وأطلال سور المدينة أيضاً لا يزال واضحاً، ودورته تدل على سعة المدينة القديمة.

من خناصرة إلى الحمام وإلى السرية ـ (نحو ٥٦ كم، لحب) يجتاز اللحب سور المدينة القديم في جانب مخفر الدرك ثم يسير سوياً نحو الجنوب الشرقي فيبلغ (في الكم ٦,٥) القرباطية ومن هذه القرية يمتد لحب يقترب من الجنوب الشرقي لحضيض جبل الشبيت ويمر بالحمام ويبلغ في الكم (٥٠) خرائب السرية.

السرية هي القديمة، كانت تشرف على الطريق الآخذ من الرصافة إلى مسلمية. ولا شيء يستطيع أن يجيد الدلالة على أن الصناعة البشرية كانت حولت بادية الشام مثل وجود هيكل روماني جميل في هذا المكان. إن هذا الهيكل ينتصب فوق نشز يغطي بقايا المدينة القديمة المدفونة والمندثرة ويظهر أنه كان من طراز شائع.. ولو أن السيللا التي فيه وحدها قد انفردت عنه. والجدار الشرقي من هذه السيللا قد أشغلت كلها تقريباً ببوابة عريضة عالية ومزينة زينة ثرية (فريز زهور، زافرة من كل من جهات العتبة) وفي أعلى البوابة يرى قوس تفريغ واسع هو الآخر أيضاً مزين. وفي كل من جهات المدخل يوجد عمارة مربعة الشكل على شكل الأبراج. فالتي على اليمين تحتوي على مدرج حلزوني يصعد إلى سقف الهيكل. وجدران هذا البناء قربه محمولة في خارجها على دعائم وتفاصيل التزيينات تدل على أن هذا الهيكل يعود عهده إلى نفس العهد العظيم الذي بنيت فيه بعلبك أي القرن الثالث الميلادي.

ومن السرية إلى السخنة (نحو الرقة، أو نحو دير الزور).

من خناصرة إلى الاندرين: يذهب من خناصرة إلى القرباطية. ولكن بعد هذه القرية لا يوجد أي لحب نحو الآندرين. إلا أن البرية صالحة للسيارات في الفصول

الجافة. ولهذا يبدأ السير سوياً نحو الجنوب وذلك كيما يجتنب المرور بالمنخفض المسمى (شوط) وهو مستنقع مالح ثم يجد بعد هذا بقعة ذات تموجات ضئيلة تتخللها ذروع قليلة مبعثرة للبدو، ثم يتجه نحو تل معشورت وهو المكان البارز الوحيد في تلك المنبسطات الشاسعة واسمه (تل زبيد) وفيه أطلال أثرية. هذا إلى أن يلمح في الجنوب أطلال الآندرين الجليلة ويبلغها في آخر المرحلة .

وبعد الآندرين بمسافة يمكن أن يبلغ في الجنوب خرائب قصر ابن وردان ومن ثم إما أن يسلك طريق حماه مباشرة أو أن يسلك طريق حمص المار بسلمية والمشرفة.

من حلب إلى جرابلس

لحب ١١٤ كم من بلدة الباب رأساً، ١٢٥ كم من الباب ومنبج. وفي كليهما لحوب صالحة للسيارات في الفصول الجافة - والعمل متواصل في إتمام طريق حلب - الباب.
يغادر حلب من طرفها الشمال الشرقي - في الكم ١ يترك على اليمين تكية الشيخ أبو بكر، ثم الثكنات العسكرية التركية، وعلى يسار الطريق الذي يفضي (في الكم ١١) إلى المسلمية وفي هذه معسكر الطيارات وملتقى هام لسكك حديد استانبول ونصيبين) - في الكم ٣ يترك على اليمين الطريق المسماة (حول المدينة) إلى أن يلاقي طريق دير الزور .
في الكم ٩ نقيرين، قرية ذات قباب مخروطية - ثم يجتاز الطريق سهلاً مطرد المناظر بعثرت فيه عدة قرى في الكم ٢٦ سرحة - في الكم ٢٩ مدونة - في الكم ٣٤ يلمح عن بعد مئذنة مزار الشيخ عقيل المشرفة على الباب.
ثم يقترب من الواحة النضرة المؤلفة من نهر الذهب ويكشف فوراً قرية التاتف وسط الواحة المذكورة، وهي مركز اصطياف ليهود حلب.
في الكم ٤١ الباب (فيها فندقان، مركز بريد و ٣ مرائب) قرية كبيرة، سكانها ٩٠٠٠، مسلمون منهم ٣٠٠ أرمن. علوها عن سطح البحر ٣٧٠م، مركز قضاء.
وحين الخروج من الباب يترك على اليمين (نحو الشمال الشرقي) طريق منبج. ويلمح على اليمين قرية بزاعة وسط الكروم - في الكم ٥٠ قرية قباسين.

في الكم ٥٦ يترك على اليسار تل البرشة ثم في الكم ٥٩ قارلي قويو (البئر المثلج) ـ في الكم ٦٧ قرية خاليصة ـ في الكم ٧١ على اليسار أكمة عليها اشارة رصد المساحة ـ في الكم ٧٣ قرية طاشلي هويوك ـ في الكم ٨٢ يبلغ وادي نهر الساجور النضر، وهو أحد روافد الفرات فيجتازه عند ضيعة اسمها للوا (وفيها طاحون قديم).

ثم ينحرف اللحب نحو الشرق ـ في الكم ٨٩ بوظ هيوك ـ في الكم ٩٣ زوغارا ـ على اليسار يلمح السكة الحديدية لشركة ب، ح، ق وتمديداتها (أوسكة بغداد) وهي تؤلف الحد الفاصل بين بلاد الشام وبلاد الترك، ومن ثم يوازيها في السير عن كثب.

في الكم ٩٧ على اليسار محطة هولمن ـ في الكم ١٠١ قارا قويو (البئر الأسود) ـ في الكم ١٠٤ طوغو نوق في الكم ١٠٨ يجتاز اللحب آكام طباشيرية جرداء ثم يظهر وادي الفرات ـ في الكم ١٠٩ ككليجك ـ في الكم ١١٣ يلمح على اليسار محطة جرابلس ـ في الكم ١١٤ سراية جرابلس.

جرابلس (فندق سنترال وفندق البلدية، إدارة بريد) بليدة صغيرة سكانها ٣٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم أرمن تعلو ٣٠٠م، مركز قضاء ومحكمة بداية ونقطة جمرك ومخفر درك.

ولأجل زيارة نقوش قرقميش الواقعة ضمن الحدود التركية ينبغي أن يحمل السائح جواز سفر أو تذكرة مرور من قنصل تركيا في حلب ويذهب بادىء بدء من دار حكومة جرابلس نحو المحطة ويبرز الجواز إلى الضابط التركي، فيضع هذا احد أتباعه تحت أمر السياح ليرافقهم. فيعود إلى جرابلس ويسلك لحبا يتجه نحو الشمال ويبلغ بعد ١ كم السكة الحديدية في نقطة تقع في وسط المسافة بين الجسر الحديدي والمحطة. وهنا يترك السيارة ويجتاز السكة الحديدية فيصل فوراً إلى مدخل خرائب قرقميش.

التاريخ ـ كانت قرقميش هي العاصمة القديمة لاتحاد الممالك الحثية في مطلع القرن الأول قبل الميلاد. وذلك حينما غزت شعوب البحر وقرصنت المملكة الحثية العظيمة التي كانت في آسيا الصغرى (حول سنة ١١٨٠ ق.م) وعهد قرقميش إذن

يعود لعهد المملكة الحثية المذكورة، ولكن لم تكن في ذلك سوى مدينة ممتازة. ولما اتحدت عاصمة اتحاد المماليك الحثية شرعت تتعرض لهجمات الآشوريين الذين استولوا عليها وحرموها كل استقلال في عهد السرجونيين (القرن ٨ ق.م)، وقد كشفت الحفريات التي أجرتها بعثة المتحف البريطاني قبل الحرب العظمى عن مبانٍ لتلك العهود المختلفة. وقد عرفوا خاصة أسوار المدينة الثلاثة مع الأقسام المضافة إليها بالتتابع. وحسب العادات الحثية تكون هذه الأقسام عبارة عن أبواب المدينة وأسس المباني المزينة بالصور المنقوشة البارزة. وهذه الصور عبارة عن مناظر ميتولوجية واستعراض جنود أو بطانة الملك، ووجدوا أيضاً تثمال إله وكل هذه الصور منقوشة أو منحوتة على الحجر الحري وهي غليظة، وتذكر الفن الآشوري، إلا أن كثيراً منها هي أقدم من تلك وكلها تحفظ للبهجة خاصة فريدة في بابها. ومن حسن الحظ أن هذه المباني الأثرية قد نشر عنها كتاب بعنوان (قرقميش) بقلم الأثريين كارت وفولاي في مجلدين، طبع المتحف البريطاني في لندن، سنة ١٩١٤ و ١٩٢١، لأنها قد فتك فيها خلال سني الحرب ومن ذلك الحين رفع الترك أجل الصور المنقوشة ونقلوها إلى متحف أنقرة.

(إن قرقميش ذات الشهرة التاريخية الذائعة، والواقعة في بقعة ينحرف فيها الفرات انحرافاً قوياً نحو الغرب ويقترب كثيراً من البحر المتوسط، قد لفتت أنظار علماء الآثار نحوها منذ زمن بعيد ففي سنة ١٨٧٦ كان المنقب الإنكليزي سميث أول من طبق اسم قرقميش على جرابلس. وساق بعد المتحف البريطاني على حسابه عدة بعثات للتنقيب أخصها بعثة هوكارت وفولناي المذكورة في سني ١٩٠٨ - ١٩١١، فأكدت تلك التسمية وأظهرت للعيان في هذه الأرض عدداً عظيماً من الآثار التي أثبتت وجود مدينة حثية ذات مكانة سامية مبنية على ضفة الفرات اليمنى.

ومدينة قرقميش كانت تنقسم إلى قسمين مختلفين: المدينة الداخلية والمدينة الخارجية وقد كشفوا آثاراً ذات شأن من حصونهما.

فالمدينة الداخلية كانت محدودة من الشرق الشمالي بالفرات: ففي الشرق كان لها سور يمتد على طول الفرات وقد فتح فيه باب. وفي الشمال الشرقي كانت تحيط المدينة الداخلية بالاكروبول أو القلعة الرابضة فوق مرتفع علوه نحو ١٢٠ قدماً

ويشرف على مجرى الفرات. وهذه القلعة هي في الأصل حثية لكنها جدد بناؤها من قبل سرجون سنة ١٧٨ ق.م وبعد القلعة كان السور يتصل نحو الشمال ببرج يدعى برج الطاحون وبقلعة أخرى تدعى القلعة الشمالية الغربية - وفي الغرب والجنوب كان هذا السور يفصل المدينة الداخلية عن المدينة الخارجية وكان فيه بابان أحدهما غربي والثاني جنوبي.

والمدينة الخارجية تمتد في غربي وجنوبي المدينة الداخلية. وكان يحيط بها سور يتصل بالأسوار الغربية والجنوبية للمدينة الداخلية. وكان لهذا السور أيضاً بابان أحدهما غربي والثاني جنوبي.

وكان في منتصف المدينة الداخلية وفي حضيض القلعة قصر. وكان يوصل إلى هذا القصر من شارع أو مدخل فخم على جانبيه رخام من الأحجار المنقوشة. وكان في هذا القصر غرف وباحات عديدة بينها هيكل. وكان يمتد على يمينه مدرج عظيم يأخذ إلى أقسام البناء الأخرى. والزائر الذي جاز الشارع المذكور يجد نفسه وسط باحة يحدها من اليسار أطلال القصر الرخيمة بمجموعة من النقوش البارزة المصطف بعضها في جانب بعض. ويجد الزائر إزاءه أيضاً وفي منتهى الباحة وصدرها بقايا المدرج.

والرخام المنقوشة التي هي وحدها السبب في لفت الأنظار نحو قرقميش والتي تحسب من أجمل النماذج المعروفة في الفن الحثي، ذات أحجام مختلفة تتراوح بين ١,١٠م على ٦٥ سم وبين ١,٧٥م على ١,١٢ ويظن أن النقوش القديمة من القرن ١٢ أو ١٣ ق.م والحديثة منها من القرن ١١ أو ٩، وهذه النقوش من مادتين مختلفتين، بعضها من الحجر الكلسي الأسمر وبعضها من الحجر الحري الغامق. وكثيراً ما يتراوح الرخام ذو اللون الفاتح مع الرخام ذي ا للون الغامق، فكأن المعمار قد تعمد التباين في الألوان. وكثير من هذه الرخام كان قد رفع من مكانه ونقل إلى المتحف البريطاني في لندن. ولا يبعد أن يأتي يوم، ترفع هذه الرخام الباقية وتنقل. ورفعها ونقلها أفضل من إبقائها عرضة للعوامل الجوية.

وبين النقوش البارزة التي كانت موجودة في مكانها سنة ١٩٣٠ نعد: استعراض الخدم الحاملين على أكتافهم معزى اوتيوس جبل (وهي جد بالية لطراوة الحجر).

رسم يمثل شخصاً راكباً ذلولاً (وجد بالياً) طائرا عنقاء يهاجمان ثوراً فتياً مجنحاً واقفاً في مستواهما (ينقص القسم العالي والأيسر) جنيان لهما افخاذ الثيران على رأسيهما إكليل الآلهة الحثين ذو قبة مدورة وقرون مع ضفيرتين من الشعر الحلزوني ويظهران من الأمام متكئين على رماح كأنهما حراس بعض أبواب المدينة، ولزيادة الهيبة حاز كل منهما في قربه على معاون ذي منظر مرعب، وهو شيطان ذو رأس ومسلح بعصا منحنية ذات عقد (وهذا التمثال من الحجر الحري الأسود ولكنه مكسر إلى عدة قطع).

- أسد واضع رجله على رأس ثور، وفوقه عجل صغير (بالٍ كثيراً ومثقوب) - صيد الأسود، مركبة حربية خفيفة يجرها حصانان ويسوقها رجل جاوز رأسه درابزين صندوق المركبة والأسد المتحفز للهجوم (وهذا أيضاً مكسر من عدة أماكن) وثمة محارب شاب ذو قميص طويل مشدود الوسط بمنطقة وشعر كثير مسترسل على عنقه بضفائر مشدودة - استعراض أشخاص منهم اثنان لابسان قمصان وآخر في الوسط لابس ثوباً مع خمائل مدورة، وأسفل البلاط مزخرف بخط كحروف السين الإفرنجية المتداخلة. (ولم يبق من هذا الا القسم الأسفل) راميا أقواس راكبان مركبة حربية يقودان حصاناً تحته تمدد رجل مضروب بسهم على حجر حري أسود - رضامان ضخمان عليهما كتابات عريضة هيروغليفية - إلهان أحدهما مجنح وواقف على ظهر أسد كبير جاثم - قواعد أعمدة مقترنة من ثيران أو أسود.. الخ.. الخ..

وبعد الانتهاء من الزيارة يمكن أن يبلغ في جهة الشمال الشرقي ضفاف الفرات، وهو سائر في محاذاة الجهة الجنوبية الشرقية للقلعة. وهناك يصادف أنقاضاً ذات شأن يونانية - رومانية. ويحتمل أن تكون هذه مكان الفوروم أي مساحة اجتماع الشعب (ساحة الندوة) وعلى جوانب القلعة، وفي قمتها الشرقية يجد أيضاً عدداً كبيراً من الرخام زخارفها تشبه التي في بعلبك وهذه الرخام بقايا هيكل ذي شأن من القرن ٢ أو ٣ وهي قد استعملت مراراً أخرى في عهود البيزنطينيين والعرب.

ومن الضفاف المرتفعة للفرات يتمتع الناظر بمشهد جميل على منحنى النهر. ومن ثم يسير في محاذاة هذا المنحنى نحو الجنوب الشرقي فيبلغ الجسر الحديدي الكبير

ذي العشر قناطر (طوله ٨٠٠م) الذي تمر فوقه سكة حديد حلب الموصل ثم يسلك السكة الحديدية متجهاً نحو المحطة إلى أن يلاقي المكان الذي أوقف السيارة فيه.

(ومن جرابلس يمكن أن يصل في لحب رديء في محاذاة الفرات إلى تل الأحمر (٢٢ كم).

ومن جرابلس يمكن أن يعود إلى حلب عن طريق منبج، ومن هذه إلى الباب حيث يتبع المسلك الذي وصفناه آنفاً.

إن لحب منبج يتجه نحو الجنوب ويسير في وادي الفرات (أما في الشتاء فهذا القسم يصبح تحت المياه الطاغية) في الكم ٦ جملى - في الكم ٨ عمارنة. ثم ينحرف اللحب نحو الغرب ويتسلق آكاماً طباشيرية - في الكم ١٢ عين البيضا، وهنا عين ماء وقرية. ثم يهبط الطريق فوراً نحو وادي الساجور ويعبر هذا النهر في الكم ٢٤ فوق جسر حجري.

في الكم ٣٧ منبج - هي القديمة واقعة فوق هضبة صخرية على علو ٤٤٧م سكانها ٢٠٠٠، منهم ٨٠٠ شركس و ١٠٠ أرمن، وهي مركز قضاء ومحكمة صلح وفيها مخفر درك وبساتين جميلة.

التاريخ: إن اسم منبج الحالي هو الذي استعمله سكان بلاد الشام منذ أقدم العصور أما اسم هيرابوليس اليوناني فقد كان إضافياً ولم يطل زمنه ومعناه (المدينة المقدسة) وقد ألف المؤرخ لوسيان اليوناني (من القرن الثاني ومن بلدة سميساط ومن أرباب مذهب الشك في كل شيء) كتاباً على الربة السورية) جعله منظوماً وعلى أسلوب هيرودوت، حفظ لنا فيه تفصيلات عديدة عن معبد هيرابوليس الذي كان في تلك الحقبة من أجل المعابد في بلاد الشام، وقد كان يعبد فيه إله سماء العاصفة المسمى هاداد وآلهة الماء المسماة استراكاتيس وكانت الأعياد تجلب عدداً عظيماً من قوافل الحجاج، وقد كانوا في هذه الأعياد يضحون بالأطفال الذين كانوا يضعونهم ضمن أكياس ويلقون بهم من أعلى مدخل المعبد إلى البحيرة. وظلت تقام هذه الأعياد حتى عهد الرومان وكان في المعبد راهب كبير يساعده عدد وفير من الكهنة، وكان في عداد هؤلاء الكهنة خاصة جماعة الرهبان الخصيان الذين كانوا يخصون أنفسهم في خلال نشوة بعض الطقوس. وكان فريق من هؤلاء

الرهبان الخصيان يطوف في أرجاء البلاد مثل الرهبان الشحاذين الذين نسئوا بعدهم، ويجمعون النذور والصدقات . وقد ذهلت عقول اليونان من طقوس منبج الغريبة وانتشرت عبادة آستراكاتيس انتشاراً زائداً في أوروبا وذلك تارة بمساعي الأجراء اليونان الذين كانوا مستخدمين عند الملوك الشاميين فشاهدوا تلك العبادة في مكانها، وتارة بمساعي التجار الشاميين الذين كانوا يصلون إلى بلاد الغرب. وقد وجدوا في دلوس أصغر جزر الارخبيل اليوناني ملحقاً حقيقياً لمعبد هيرابوليس يدير شؤونه رهبان قدموا من هيرابوليس ، وقد كانت مكانة هيرابوليس الحربية في عهد الدولة الرومانية لأنها كانت موقعاً حربياً لجيوش الرومان، فقد كانت تخرج هذه الجيوش من ساحل سلوقية وتزحف نحو البلاد التي وراء الفرات. وأسوار هيرابوليس التي بقي منها بعض آثار يظهر أنها كانت تعود لعهد يوستنيانوس، وقد ذكرها يوكوب المؤرخ اليوناني المتوفى سنة ٥٦٢، ولم يجسر كيخسرو على مهاجمتها).

لم يبق من مدينة منبج القديمة سوى السور. لأن أطلال المدينة قد استعملت منذ عصور عديدة وبعثرت. ولكن ليس ثمة أي ريب في أن مستنقع منبج هي البحيرة المقدسة التي كان يحفظون فيها أسماكاً مقدسة تحمل حلياً، وفي وسط هذه البحيرة كان يبرز مذبح من الرخام كان يصل إليه الحجاج سباحة ليقدموا له نذورهم. وكانوا يقيمون حفلات غاية في البهرجة يسيرون بها نحو البحيرة حاملين أصنام المعبد. ومما يذكر أيضاً في منبج مسجدها الجامع المبني في سنة ١١٥٦/٥٥١ من قبل صلاح الدين. وأمام السراي قد جمعوا بضعة أنصاب مقبرية مزينة بنسور وهي رمز الشمس حيث كان السوريون يفتكرون بعودة الروح بعد الموت. أما بقية المباني الأثرية فقد نقلت إلى متحف حلب نخص بالذكر منها نقشاً بارزاً كبيراً من الحجر الحري يمثل الراهب الأعلى لمنبج يقدم نذور البخور: وثوبه يشبه ثوب كاهن أورشليم الأعلى فهو مزين بخمائل جرسية الشكل.

ضواحي منبج: قلعة النجم . يخرج من منبج لحب صالح للسيارات يتجه نحو الشرق ويبلغ (بعد ٢٩ كم) قلعة النجم وهي على ضفة الفرات اليمنى. وهذه القلعة

عربية من القرن ١٣/٧م مبنية بالحجر فوق مرتفع يشرف على النهر في موقع جميل جداً.

التاريخ: إن مكانة هذا الموقع كانت تنشأ من أنه كان يحكم على الجسر الذي يعبرون النهر عليه. وكان هذا الجسر يتصل بطريق القوافل الآتي من بلاد مابين النهرين إلى بلاد الشام. وقد ظن بعضهم أن في هذا المكان كانت القلعة المذكورة بين المسالك الرومانية. فقلعة النجم إذن كانت قائمة فوق رأس جسر منبج، وقد لعبت هذه القلعة والجسر معاً أدواراً في تاريخ حروب المسلمين. وقد تعاورت هذه القلعة أياد كثيرة إلى أن أخذها نور الدين (١١٤٦/٥٤١ ـ ١١٧٣/٥٦٩) ورممها ثم رممها الملك ظاهر غازي الأيوبي ترميماً ثانياً مهماً للغاية، وذلك في سني ١٢٠٨/٦٠٥ ـ ١٢١٥/٦١٢، وهذا الملك هو الذي رمم قلعة حلب أيضاً.

وإذا كانت قلعة النجم رأس جسر منبج فقد تبعت عهد الانحطاط الذي أصاب مدينة منبج وفي القرن ١٤ كان معظمها خراباً. وفي سنة ١٨٢٠ عصت قبيلة عربية على الدولة العثمانية وأبت دفع الضرائب ولجأت إلى هذه القلعة، فقصفت وقتئذ بالمدافع.

إن قلعة النجم هي رخام من الصخور منفرد ومرتفع نحو ١٦٠ قدماً، تتوجه ضرائب القلعة الجديرة بالتصوير، وهو واقف فوق النهر مباشرة وقفة عمودية، بينما أن الصعود إليه جد عسير في الجهات الثلاث الأخرى ولا تزال كل أقسام القلعة قائمة ومحفوظة حفظاً حسناً. ويميز الزائر فيها طبقتين تحتوي على ابهاء كبيرة قليلاً وكثيراً، ويذكر أيضاً ممرات أرضية عديدة هي على ما زعم العرب تفضي من تحت الفرات إلى الضفة اليسرى. وفي أعلى الباب الأصلي المجنح ببرجين كتابة باسم الملك الظاهر غازي.

٢ ـ تل الأحمر: ويخرج أيضاً من منبج لحب ثانٍ صالح للسيارات يبلغ بعد ٢٥ كم إلى تل الأحمر وهو على ضفة الفرات اليسرى، وقد كان في مكان ممر ذي شأن في طريق القوافل القادمة من أورفا إلى حلب، إلا أنه أصبح ضيعة حقيرة نصف أهلها أكراد ونصفهم أعراب يشرف عليها تل حاكم على ضفة الفرات اليسرى.

يترك الزائر السيارة في الصفة اليمنى ـ هذا إذا لم يكن قصده الاستمرار في السير نحو عين العرب، والعبور يتم بركوب زوارق منبسطة الأسفل يكتظ فيها البشر والبهائم مختلطين. ويمكن للسيارات الخفيفة والمرتفعة فقط أن تنتقل في هذه الزوارق دون أي خطر.. وتفرغ الزوارق حملها بادىء بدء في جزيرة متألفة بين فرعين من الفرات فيجتازها في أسفل المنحدرات الأخيرة الغربية من التل.

التاريخ: إن تل الأحمر هو القديم إن هذه المدينة قد ذكرت في النصوص المسمارية لكن المعلمة الإسلامية تقول إنه في مكان (بيره جك)، انظر مادة بيره جك، والحق ان الأوصاف المندرجة هنا تنطبق كلها على بيره جك لا على تل الأحمر في الألف الثالث قبل الميلاد ومنذ زمن جودتها كانت تفد السفن الصاعدة من مدن الفرات السفلى فتصل إلى تل بارسيبا لتحمل خشب البناء المجلوب بالأطواف من أنحاء جبال طوروس. وفي الألف الثانية سقطت هذه المدينة في يد الحثيين الذين كانت تمتد سيادتهم من تلك الحقبة على كل المملكة الميتانية، ولما خلفت الدولة الآشورية دولة الحثيين أوصل الملوك الآشوريون حدود بلادهم الغربية إلى الفرات وافتتح وقتئذ سلمنازار الثالث في المعلمة الثاني تل برسيبا وبدل اسمها كارشولما ناشاريدو أي قصر سلمنازار وصارت هذه المدينة من ذلك العهد تابعة لمقاطعة حران الآشورية. وقد كانت خاصة نقطة مرور ذات مكانة ومركزاً لسوق الجيوش من الدرجة الأولى، ومن هنا كانت تعبر جيوش الآشوريين وتزحف للغارة على بلاد الشام ونهبها.

إن مكان (تل الأحمر) الأثري يظهر بشكل تل مرتفع نحو ٢٥ متراً ويمتد بانحدار لطيف نحو الغرب. وفي جهاته الثلاث منخفضات ضئيلة تكاد لا ترى تدل على أسوار الدفاع القديمة، بينما نهر الفرات يؤمن الدفاع عن جهتها الجنوبية. وقد قوطعت الأسوار بثغرتين تؤلفان بابي المدينة الشمالي الغربي والشمال الشرقي. والباب الشمالي الشرقي قد احتفظ بالأسدين اللذين كانا على جانبيه. إلا أنهما قد صارا الآن مكسرين. وثمة على جناحيهما كتابة برزت بالخط المسماري تحدث عن أنهما نصبا من قبل شامري هداد خليفة سلمنازار الأول بمناسبة الحرب التي انتهت بالانتصار على الأرمن. وقد أجرى من عهد قريب السيدان تورو دانكن ودونو،

حفريات فأظهرا في قمة التل قصراً آشورياً من عهد ساركويند مع رسوم مائية ملونة على الجدران.

ومن تل الأحمر يمكن الوصول (خلال ٢٢ كم) إلى جرابلس من لحب رديء مواز للحفريات. ويمكن أيضاً أن يبلغ (خلال ٣٥ كم) عين العرب من لحب سوي صالح للسيارات في الفصول الجافة).

بعد منبج يجتاز اللحب قرى متتابعة ففي الكم ٤٥ عسيلة وفي الكم ٤٧ طحنة وفي الكم ٥٥ موسجية الكبيرة وفي الكم ٦١ عريمة.

ويصل في الكم ٧٩ إلى بزاعة، وهي قرية كبيرة ذات دور على شكل القباب المخروطية، وفيها مسجد ذو مئذنة، وهي محاطة بكروم العنب وتروي أراضيها بمياه نهر الذهب.

في الكم ٨٤ الباب، يصادف اللحب الذي تقدم وصفه ومنه يصل إلى حلب (في الكم ١٢٥)

من حلب إلى الإسكندرونة

في السكة الحديدية ٢٧٥ كم، وهي خط شركة بوزانتي - حلب - نصيبين وتمديدها - لكن السفر في هذا الطريق لا يستحب، لبعد الشقة وضرورة الانتقال في محطة طوبراق قلعة أما في السيارة، فيمكن السفر إلى الاسكندرونة في طريقين. - الجديدة السورية أو القديمة الطويلة.

١ - الطريق الجديدة

١٤٧ كم، طريق معبدة حسنة.

يخرج من حلب من حي الجميلة وهو في الغرب الجنوبي - في الكم ١ يترك على اليسار طريق حمص القديمة المارة بخان طومان ثم يجتاز السكة الحديدية الذاهبة إلى حماه وحمص ورياق.

ثم تصعد الطريق عقبة سهلة تفضي إلى نجد فيه إذا التفت المسافر إلى ورائه منظر عام جميل نحو مدينة حلب وقلعتها، في الكم ٢ وعلى اليمين ميل كبير يشير

إلى طريق يدعى (طريق حول المدينة) يتصل في شمالي هذا المكان مع طرق الإسكندرونة القديمة، ويتصل أيضاً في شرقي ذلك المكان بطريق دير الزور .

في الكم ٣ على اليمين دعس يفضي بعد ٤٠ كم إلى (قلعة سمعان) أو دير القديس سمعان العمودي .

في الكم ٦ على اليمين بنيامين ضيعة ذات قباب مخروطية - في الكم ٩ بعد عقبة صغيرة يهبط الطريق ثانية فيشرف السائر على آفاق واسعة للسهول الممتدة. - وفي قعر أرض بطحاء قرية خان العسل يرى فيها قرب يبنوع ماء أطلال خان قديم على بابه كتابة عربية - ثم يجتاز السهل ذي المنظر المطرد.

في الكم ٢٢ قرية أورم الكبرى، تقع هذه القرية في بقعة مرتفعة تشرف على مساحات واسعة، مما جعل لها في العصور القديمة بعض الشأن. فكل الأراضي الممتدة حولها تحتوي على صهاريج قديمة منحوتة في الصخر. وفي شرقي القرية قد قامت عمارة مستطيلة الشكل مبنية برخام عريضة قد نحتت وربعت نحتاً وتربيعاً دقيقين ولا ريب في أن هذه العمارة كانت ضريحاً مبنياً على هيئة الأبراج.

في الكم ٣١ خربة الشيخ علي، على اليمين وفوق أكمة بقايا برج مبني برخام ضخمة منحوتة نحتاً دقيقاً وحوله بقايا جدران عائدة لمساكن مبنية بالحجر، ذات صهاريج ومعاصر. وفي ذروة الأكمة قد قام قبر ولي (لعله خليفة قديس نصراني كان اسمه حنا ليتاربا وهو عمودي مشهور في القرن السابع)، وفي قربه كان يوجد دير.

في الكم ٣٥ (يثرب الأثارب) قرية جديدة بالتصوير مبنية حول تل صناعي علوه خمسون متراً في ذروته ترى بقايا برج من العصور المتوسطة وبيوت الأثارب بشكل مربعات حجرية تعلوها قبعات من التراب المدقوق. كانت يثرب فيما مضى تقع على مفترق طرق ذي مكانة كبرى، فلا غرو أن تكون مذكورة في القوائم المصرية المرتبة في عهد الأسرة ١٨ باسم تيرابو. وسماها الرومان بعد ليتاربا. ويوجد في يثرب أطلال أثرية عديدة. وفي العصور المتوسطة سماها مؤرخو الصليبيين سرب. وفي عهدهم كانت في طليعة الحصون الصليبية المقابلة لحلب، وقد استولى عليها طنكرد سنة ١١١٠/٥٠٤، ثم استردها ايلغازي سنة ١١١٩/٥١٣ ثم استردها منه

بودوين فوراً. وأخيراً في سنة ١١٣٠/٥٢٥ استولى عليها عماد الدين زنكي نهائياً ودكها دكاً.

يترك على اليسار دعساً صالحاً للسيارات يتصل (في الكم ٣٨) بالطريق الذاهب من إدلب إلى حارم والمار (في الكم ٤) بحينه وفي الكم ١٣ بخرانو وفي الكم ١٨ بمعرة الإخوان وفي الكم ٢٦ بكيتة. إن هذا الدعس مغر بحكم أنه يلف حول جبل باريشا من جهته الجنوبية ويمكن أن يسلكه السائح ويزور الخرائب الجنوبية في هذا الطود لكريرسيتا وغيره .

في الكم ٣٧ على اليسار ووسط الزيتون قرية كفر كرمين وفيها خرائب أثرية.

ثم يترك الطريق السهل ويدخل بين آكام صخرية تعد اليمنى طريقاً يتجه نحو ترمانين (بعد ٦ كم).. ـ في الكم ٤١ على يمين الطريق يلمح السكة الرومانية المبلطة بالحجارة (الرصيف) التي كانت تربط إنطاكية بحلب مارة بقنسرين .

إن الرصيف الروماني في هذا المكان سالم هنا سلامة تدعو للإعجاب خلال طول يزيد عن ١٢٠٠ متر. وهو يتألف من رخام ضخمة من الحجر الكلسي الصلد ومصفوفة فوق الصخور. وبعض هذه الرخام يبلغ طوله أكثر من مترين وعرضه ٨٠ سنتميتراً وثخنه ١,٢٠ متراً. وقد كانت هذه الصخور فيما مضى مخططة لمنع انزلاق ارجل الدواب المارة، ثم صقل سطحها بكثرة الاستعمال وحدثت حفر عميقة في بعض أماكنها بفعل المياه ولكن ما من رخامة منها كسرت أو نقلت من مكانها قط، ولم يفك ارتباطها القوي بتاتاً. وهذا الرصيف يعلو عن مستوى الأرض الصخرية التي يجتازها بما لايقل عن نصف متر. ولابد أن حوافي الطريق كانت فيما مضى أوطأ من مستوى الأرض، إلا أن هذه الحوافي قد زالت الآن بالمرة ـ ويظهر أنه بسبب انحناء هذه الطريق أرادوا بناءه هنا بمتانة خاصة. ويصعب تعيين تاريخ هذا الطريق. بيد أنه ليس من المستبعد نسبته إلى ذلك العهد الكبير الذي بنيت خلاله السكك الرومانية، أي في أوائل القرن الثاني الميلادي. وهو أيضاً عهد أكبر الحملات العسكرية الهامة التي قام بها الرومان في شرقي بلاد الشام (٣٩/١٢/٣٠).

في الكم ٤٢ يعبر السكة الرومانية ويتركها على اليسار ويلحظ أنها تتضاءل ثمة فوراً، لأن رخامها عبثت به الأيدي ـ في الكم ٤٣ على يسار الطريق يلمح قرية

(تل عقبرين)، وهي قديمة وذات خرائب اكتشفت ومنها كتابة يونانية وفي العصور المتوسطة بنى فيها الصليبيون قلعة.

(بين خرائب تل عقربين يلحظ بناية تنتصب طبقاتها الأربع فوق القرية ولها نوافذ ذات زخارف جميلة، ثم فوق هضبة كبيرة بناية أخرى ذات نوافذ مزدوجة علوها أربعة أمتار ومنفصل بعضها عن بعض بنصف عمود أنيق، ثم في الجنوب الشرقي من القرية كنيسة (كايللا) كل جدارها الجنوبي منحوت في الصخر وثمة كتابة سريانية.

من تل عقبرين إلى دانا وترمانين (٢ ـ ٧ كم، في دعس صالح للسيارات).

في الكم ٢ دانا ـ قرية فيها مجموعة من القبور المنحوتة في الصخر، يعلوها بناء غريب الشكل، محمول على أربعة أعمدة إيونية ومتوج بهرم صغير أصبح الآن خراباً. وعلى إحدى المشاكي المقبرية المحفورة تحت الأقواس الموجوة في الهواء الطلق التي تحيط بالبناء المذكور استطاع المسيو دي فوكي أن يقرأ تاريخ هذا البناء فإذا به ٣ مارس ٣٢٤ ميلادية. وعلى رغم أن القرية الحديثة قد بنيت بأحجار القرية القديمة، لايزال يوجد بين جدران القرية الحديثة كثير من الأطلال التي تجلب الأنظار نخص الذكر منها حنية كنيسة مبنية بأحجار جميلة ثم بنية أخرى قد شوه شكلها.

وفي دانا يلحق السكة القديمة التي كانت تبتعد بعد باب الهوا عن السكة الرومانية الكبرى الذاهبة من انطاكية إلى حلب المارة بقنسرين، وذلك لكي تبلغ حلب مباشرة في طول المرتفعات الصخرية لجبل سمعان مارة بدانا وترمانين ودير أمان وإرحاب (وفي هذه خرائب واسعة) وتوقات وعين حارة (وفي هذه خرائب) وكفر مسبيل.

في الكم ٤,٥ حزرة (وفيها خرائب)، يترك على اليسار دعس يتجه نحو تل عدي وسيأتي ذكره.

ثم ينحرف نحو اليمين ـ في الكم ٧ ترمانين، في أعلى هذه القرية يلحظ أيضاً بيت مزين بنقوش على شكل الورود وبالصلبان، وبيت آخر مزين بعويمدات على شكل الحزم. وفي غربي القرية كهوف مقبرية ذات أدراج من الحجر. على بعد كم للشمال الشرقي (نحو ٢٥ دق، دعس غير صالح للسيارات) واد صغير فيه خرائب دير

مانين أو خربة الترس. وهي تتألف من بناء كبير لعله فندق للزوار، وهو ذو طابقين، وأمامه باحة مبلطة ببلاطات كبيرة وفيها حوضان، وكان في طرف هذا المكان بازيليكا مشهورة ذات أعمدة، وهي من القرن السادس، إلا أنها قد اندثرت بالكلية. قال ياقوت عن هذا الدير. هو بين حلب وإنطاكية مطل على بقعة عرف بسرمد وهو دير حسن كبير وهو الآن خراب وآثار باقية.

ويرجع من ترمانين إلى حزرة ومن هذه يمكن أن يبلغ، في دعس صالح أيضاً للسيارات، طوله ٣ كم إلى تل عدا، وفي هذا خرائب. ومن تل عدا طريق يفضي بعد ١ كم إلى دير تل عدي، وهو مكان دير كبير كان اسمه تلاءا وكان يعد في العصور المتوسطة من أشهر أديرة بلاد الشام، وفي هذا الدير سنة ٤٠٠م شرع القديس سمعان العمودي بالترهب والنسك ودامت مكانة هذا الدير حتى بعد الفتح الإسلامي، إذ كشفوا فيه كتابة سريانية تاريخها سنة ٩٤١ ميلادية. وقد استولى طنكرد على هذا المكان سنة ١١٠٤/٤٩٨.

وسيمد الدعس بعد الآن حتى قرية دارة عزة حيث يلاقي فيها الدعس القادم من حلب إلى قلعة سمعان .

في الكم ٤٥ يلمح على اليسار وعلى بعد شاسع مباني سرمدا الأثرية التي يوصل إليها في دعس رديء. عرفت سرمدا منذ عهد الفتوحات المصرية، فقد ذكرت في قوائم تحوتمس الثالث وظلت تعد من الأماكن الحصينة حتى زمن الحروب الصليبية. فقد ذكرها مؤرخو الصليبيين باسم ميت.

إن البناء المقبري في سرمدا يتألف من عمودين كورنثيين، مزدوجين ومرفوعين فوق قاعدة عالية وذلك قرب مدخل قبرين تحت الأرض. ويعود تاريخ البناء إلى سنة ١٣٢ ميلادية.

في الكم ٤٧ على يمين الطريق خرائب غامضة الشكل، بينها أحجار منتصبة، تعود لفندق من زمن النصرانية. في الكم ٤٨ باب الهوا. إن الطريق المعبدة الحديثة مدت هنا فوق السكة الرومانية نفسها وهي ممر من تحت قوس يشبه أقواس النصر مؤلف من بقايا جدارين يحملان قوساً كبيراً. ولا ريب في أن هذين الجدارين لم يتجاوزا قط حجمهما الحالي. بيد أن أحدهما كان أطول من الآخر، لأنه قد وجد

الزخرف النهائي الذي يتممه ومن المستحيل أن يعرف تاريخ هذا البناء ولا السبب الذي أقيم من أجله.

وقبل هذا البناء يلحظ على اليسار خرائب كنيسة لايزال باقياً منها باب ذو عتبة مستقيمة وزخرف على شكل البرعمة. ومخطط الحنية ووراء الكنيسة رواق محمول على عمودين. وعلى يمين الطريق يلمح بقايا فندق مع صهريج منحوت في الصخر يوصل إليه بدرج (٩٣٩/١٢/٣٠ الساعة ٥ مساء).

في الكم ٤٩ على اليسار، على العرف الصخري المشرف على الطريق يلمح الخرائب النصرانية في قرية باعورة . وفي الكم ٥٠ برج المدخر. وفي يسار الطريق، يلمح بقايا كنيسة بقي منها بابان الشمالي والجنوبي لهما عتبات مستقيمة مزينة. وعلى الباب الشمالي وفي أعلى العتبة يوجد قوس تفريغ مبني من حجر واحد. ويظهر أن الحجّار الذي بناه أراد أن يعبث فرسم عليه خطوط الأحجار والثقوب التي تؤلف الأقواس المبنية ويخيل للرائي أنه مؤلف من عدة أحجار.

ثم يترك على اليسار طريقاً يفضي إلى الخرائب النصرانية في جبل باريشا .

في الكم ٥٢ يترك على اليمين كومة أحجار غير مهندمة، لا ريب في أنها مكان مخفر ثم يجتاز مضيقاً كان فيما مضى يغلق كل مساء بباب علوه خمسة أمتار (وقد أوصل الترك إلى هنا حدود لواء الاسكندرونة الذي استولوا عليه في سنة ١٩٣٩.

في الكم ٥٣ يلحظ على يسار الطريق مقطع صخري يعود عهده دون ريب إلى البنائين الرومان. وعلى اليمين وعلى حافة الطريق كتابتان مزدوجتان قد برزتا على الصخر. فالأولى تشيد بمجد ماركوس أويليوس والثانية تحدد التخوم بين قريتين. وبعد ٢٠٠ متر إلى الأمام الخرائب النصرانية العائدة لقصر البنات.

إن هذا القصر هو المسمى في النصوص المسمارية باسم دوربانيتي، وفي عهد الصليبيين سمي ، استولى عليه طنكرد سنة ١٠٩٨/٤٩٢. ولما كان هذا البناء مشرفاً على السكة الرومانية وعلى المضيق القاطع لجبل باريشا، كان معهداً دينياً عظيماً في القرن الخامس الميلادي، ومخصصاً لإيواء الحجاج، وقد أدى وضعه الاستراتيجي لتحصينه. إن هذا الدير يتألف من مجموعة بنايات مبنية حول باحة

واسعة يشرف عليها برج ذو ستة طوابق. وهذا البرج يعلو أكثر من ٣٠ متراً. وجدران الرواجع بين حجراته الممتدة من قاعدته إلى ذروته تقسم كل طابق إلى حجرة كبيرة وحجرتين أخريين صغيرتين، وإحدى هذه الصغيرات كان فيها الدرج. وكان الطابق الأول مبلطاً، والطوابق الأخرى كان لهما أرضية من الخشب. والنوافذ صغيرة بعض الصغر. وجدران بعض الغرف لا تزال تحتوي أيضاً على بقايا كثير من ملاط الجص الدقيق مع آثار رسوم ملونة تمثل أشكالاً هندسية. أو رمزية بالألوان الحمراء والخضراء والصفراء.

وحول الباحة يلمح من اليسار إلى اليمين (حينما يتقدم من الطريق نحو القصر) ثلاثة مبانٍ يظهر أنها كانت فنادق. وفي صدر الباحة ومنتهاها بنية طويلة مستند ظهرها إلى الجبل يتراءى للناظر أنها كانت الدير الأصلي. إن هذه المباني قد بنيت على ثلاث طبقات على الأسلوب البسيط المستطيل الشكل. والجدران قد عملت من رخام صغيرة ذات أحجام غير متناسقة، لكن عضائد الأبواب والنوافذ هي من الأحجار العظيمة الوحيدة القطع.

وعلى يمين الباحة قامت كنيسة مساحتها في الطول ٢٦,٦م وفي العرض ٢٠م وقد كان يوجد سبع في كل جهة من الصحن، عرض كل منها ٣,٣٥م والبوابة الغربية تخيل للناظر أنها كانت قد فتحت في عهد سابق لعمارة الكنيسة، والصحن الشمالي أعرض من الآخر.

ولم يبق في هذه الكنيسة إلا القسم القليل: كالجدار الغربي وكقسم من الحنية الكبيرة والكايللات الجابنية. والتزيينات الداخلية الوحيدة هي قوس الحنية، وتيجان الأعمدة الكورنثية ونصف الأقواس في الصحن الوسطاني.

ومن الزخرف الخارجي لم يبق سوى عتبتين لأبواب منقوشة، واحدة منهما في الأرض نحو الجهة الجنوبية، والثانية متدهورة في جهة الشمال.

وثمة كتابة يونانية تدل على أن معماري هذه الكنيسة كان اسمه كيريس. ولعل هذا الرجل نفسه الذي بنى كنيستي بابسقا (الكنيسة الشرقية) ودار قيطا. ووراء الحنية يلحظ وجود قبور منقورة في الصخروعلى مدخله رسم صليب. في الكم ٥٤ على اليسار، وفي مكان أعلى بقليل من مستوى الطريق يلحظ مغارة كبيرة

يتفجر منها الماء، وقد اشتهرت ماء هذه المغارة بأنها نافعة للنساء المرضعات اللواتي يجزن عن إرضاع أطفالهن إذا زرنها وضحين بدجاجة أمامهن.

في الكم ٥٥ عين دلفة، وفيها مخفر للدرك وعين ماء ثرة تتفجر من حبب الجبل في جنوبي الطريق. وعلى هذه العين سبيل عربي البناء (هنا يجد الزائر نفسه أمام حقل واسع من الخرائب الواضح أنها نصرانية. فعلى يسار الطريق ما لايقل عن خمسة مبان مختلفة، كلها في حالة من الاندثار البليغ. وبين هذه يلحظ بقايا كنيسة، السالم منها حتى الآن القسم ذو المدرج نصف الدائري المتمم لخوري الكنيسة مع القبة النصفية والجدار الشرقي . وهي طود صلب من البناءة الجميلة والـ دان في فتحة الصحن التي بشكل القوس لايزالان محفوظين وقواعد كثير من الأعمدة لاتزال في الأرض. وكل بقايا الكنيسة قد اندثر ولا يمكن أن يذكر شيئاً عن طول هذا البناء ولا عن عرضه، إلا إذا قيل إنها كانت أعظم كنيسة في هذه البقاه والجناح الأكبر كان عرضه ٧,٣٠ متراً والحنية كانت في عرض ٥,٤٠ متر وعمق ٥٥ متر.

وعلى يمين الطريق وبعد الجدول الجاف الذي يمتد على امتداد الطريق يلحظ بناءان آخران ويتألف جهازها من رخام ضخمة موضوع بعضها فوق بعض دون أن يكون بينها ملاط ظاهر.

في الكم ٦٠ يجتاز الطريق فوق جسر الجدول المذكور الذي يترك على اليسار وثمة لوحة مكتوبة تدل على الحدود بين دولة ولاية سورية ولواء الاسكندرونة المستقل.

في الكم ٦١ على اليسار ووسط واد خضر نضر قرية جران. ثم يدخل الطريق في السهل.

في الكم ٦١ يدور نحو اليمين ويترك إزاءه قبل قرية بني شهر طريقاً يفضي مباشرة إلى إنطاكية وفي هذا الطريق فرع يفضي إلى حارم. ويتجه الطريق نحو الشمال الغربي وقد عمل من تراب مكوم ومدور وسط سهل زراعي ومطرد المناظر.

في الكم ٦٨ الريمانية، قرية كبيرة، مبنية فوق أكمة خضرة نضرة، وذات منظر جميل وفيها سوق، (وأهلها شركس). (على مقربة من هذه الريحانية هضبة كلسية الأحجار يوجد فيها كثير من القبور المنقورة في الصخر ومطامير واسعة،

وعلى الأرض فتحات مدورة قطر دوائرها نحو متر وفي الصخر حفائر واسعة جداً عمقها لايقل عن اثني عشر متراً تشبه بأشكالها جراراً عظيمة مدفونة. ويضع المسيو دوسسو قرب الريحانية موقع قلعة صليبية كان اسمها آرتزيا من توابع إمارة إنطاكية في عهد الصليبيين.

في الكم ٧٣ قرية المشيرفية، هنا يعبر الطريق نهر عفرين فوق جسر طوله ٤٥ متراً ثم يتجه فوراً في خط مستقيم نحو الشمال - في الكم ٨٣ يدور الطريق إلى اليسار تاركاً على يمينه طريق حلب - إسكندرونة القديم المار بالحمام وقطمة.

في الكم ٨٤ قرية ني كوي. ويتجه الطريق نحو الشمال الغربي - في الكم ٨٧ دعس يفضي إلى قرية قزيل قيام - ثم يمر بين أكمتين صخريتين. في الكم ٨٨ على اليمين وفي سفح أكمة قرية عين البيضا أهلها تركمان. ثم خان خراب - في الكم ٨٩ قرية متليك كوي - وفي الكم ٩١ على اليمين قرية باشا قسطلى - في الكم ٩٣ يدخل الطريق السهل - على اليسار في سفح منتهى الأكمة قرية تزيل قياسي.

في الكم ٩٣ جسر مراد باشا، وهو جسر قديم طويل ذو ١٧ قنطرة فوق مسيل ماء مستنقع يخرج من بحيرة كولباش ويصب في الجنوب في بحيرة العمق. وسهل العمق هو مركز مملكة عنقى القديمة الآشورية ومملكة عمقيون بديون اليونانية. وفي هذا السهل انتصر أورليانوس على جيش زنوبيا في سنة ٢٧٣ ق.م. وفي هذا السهل قسم غارق بالمستنقعات وقسم بالبحيرة، وفيه تلال عديدة صناعية بارزة وسط القسم الأول وفي وسط البحيرة يوجد برج قد غزته الآن المياه يدعوه صيادو السمك المئذنة.

وعلو هذا السهل المنخفض عن مستوى البحر ١١١ متراً، وهو محاط بجبال ومرتفعات هي في المقربة عمقلى طاغ وكاور طاغ في الشمال وعلي بك طاغ في جبل موسى في الغرب. وشكله يؤلف مثلثاً كبيراً يتجه طرفه نحو البحر في ممر مضيق يسيل فيه نهر العاصي. أما بحيرة العمق فتأتي مياهها من نهر عفرين ذي الماء الوافر القادم من الشرق ويخترقها نهر قره صو (النهر الأسود) الذي يصب في العاصي قبل إنطاكية بساعة، ولذا كانت مساحة هذه البحيرة عرضة للتبدل حسب الفصول. وهي ذات سمك وافر جداً، نخص بالذكر السلور الأسود الكبير والحنكليس والزجر الذي يستحضر منه الكافيار.

ﻓﻲ الكم ١١٠ قرية فلاح كوى على يمين الطريق ـ ثم جسر على نهر مستنقع ـ ثم ينحرف الطريق نحو الجنوب الغربي .

ﻓﻲ الكم ١٠٢ يعبر فوق جسرين على نهر الأسود ـ ﻓﻲ الكم ١٠٤ قرية طرون ـ ﻓﻲ الكم ١٠٨ قرق خان.

من دمشق إلى جسر بنات يعقوب (طبريا)

طريق معبدة جيدة ٩٢ كم يغادر دمشق من الجهة الجنوبية الغربية فيمر من بين ثكنة الحميدية ومحطة البرامكة. ﻓﻲ الـ كلم ١(كفر سوسة) والتي ذكرت ﻓﻲ معجم البلدان ثم يمر من بين مباني عسكرية حديثة العهد ﻓﻲ الكم ٢، ثم يعبر السكة الحديدية ويجتاز بساتين وكروم زيتون عديدة، ـ ﻓﻲ الكلم ٤ يمر من طرف قرية (المزة). ويلحظ ﻓﻲ غربها فوق الآكام عدة مبانٍ عسكرية إفرنسية ومستودعات عتاد. وﻓﻲ أعلاها بناء سموه حصن غورو، ﻓﻲ الـ كلم ٧ على يسار الطريق مباني الطيران العسكرية والأهلية.

ويسلك الطريق خطاً مستقيماً على يمينه سلسلة آكام جرداء تحضن قرية المزة، تدعى قلابات المزة، وعلى يساره سهل أفيح أجرد ﻓﻲ طرفه بساتين قرية كفر سوسة التي تختفي تحت ظلال الأشجار والكروم. ـ وﻓﻲ الـ كلم ١١ يلحظ على يساره عن بعد قرية داريا. وهي وكفر سوسة من أمهات قرى غوطة دمشق. ذكر شيخ الربوة داريا فقال: قرية عظيمة المغل والأرض وبها قبر أبي مسلم الخولاني وقبر أبي سليمان الداراني.

أبو مسلم شيخ الفيحاء زاهد من سادات التابعين، وأبو سليمان أيضاً زاهد، ثم يلحظ على يساره أيضاً عن كثب وﻓﻲ الـ كلم ١٢ قرية المعضمية. وﻓﻲ الـ كلم ١٥ يترك على اليسار مجازاً يوصل إلى قرية الجديدة، وهذه نصف سكانها نصارى أرثوذكس، ويلحظ وسط كروم الزيتون خلوة درزية.

ﻓﻲ الـ كلم ١٨ قرية عرطوز (ﻓﻲ قربها كوكب اشتهرت بالمعركة التي حدثت سنة ٢٩١هـ ضد القرامطة (عن كتاب التنبيه للمسعودي). وقد امتدت المعركة

يومئذ إلى كناكر. وهنا ينتهي قضاء دمشق ويبدأ قضاء وادي العجم، وأمام عرطوز وعلى يمين الطريق طريق فرعي يتجه نحو الغرب فيصل بعد ٦ كم إلى قطنا. وهي بلدة حسنة نزهة علوها ٨٠٠ وسكانها ٥٠٠٠ ثلثاهم مسلمون والبقية روم أرثوذكس وسريان كاثوليك. وهي مركز قضاء وادي العجم، وفيها دار حكومة حديثة جميلة وأمامها حديقة بلدية ومحكمة صلح ومخفر درك ومدرسة ودور قوراء بيضاء وشوارع مستقيمة عريضة، مغروسة وهواؤها جيد، تحيط بها البساتين النضرة ذكرها ياقوت بقوله قطنا من قرى دمشق، منها الحسن بن علي القطني. وقيل إنها ذكرت في عهد الوليد بن يزيد الأموي، وبنواحيها حدثت موقعة سنة ١١٢٥م بين يوسف باشا والي الشام المعزول وسليمان باشا والي عكا الذي خلفه في الولاية، لأن الأول أبى تسليم الولاية للثاني فكانت الدائرة على الأول.

لوحة على الطريق عليها الأرقام الآتية: إلى قطنا ٦ كلم ـ قلعة جندل ٢٠ ـ عرنة ٣٢ ـ بيت جن ٤٢ ـ صبورة ٢١ ـ إلى القنيطرة ٤٩ جسر بنات يعقوب ٧٤ بانياس ٧٦ ـ مرجعيون ٩٥ صيدا ـ ١٥٤ ـ دمشق ١٨.

أنحاء قطنا ـ ١ ـ في قطنا لحب صالح للسيارات في الفصول الجافة يتجه نحو الشمال الشرقي في محاذاة أسناد جبل هاشمة ماراً بقرية صبورة، فيصل بعد ١٨ كلم إلى صحراء الديماس ويلاقي طريق دمشق ـ بيروت. ٢ ـ برقش ورخلة. ـ مجاز يحتاج لركوب الدواب. فإذا خرج الراكب من قطنا متجهاً نحو الغرب الشمالي يصل بعد ٤٥ دقيقة إلى امبيا، وهي ضيعة وسط غياض وعيون، ويظل سائراً في منعطفات ذات صواعد وتلعات خفيفة.

قضاء وادي العجم يحده من الشمال قضاء دمشق والزبداني ومن الشرق قضاء دوما وقسم قليل من أزرع ومن الجنوب قضاءا إزرع والقنيطرة.

ينقسم وادي العجم إلى قسمين: وادي العجم التحتاني الممتد في سفوح أعضاء جبل الشيخ غرباً، إلى الجبل الأسود والجبل المانع شرقاً وغوطة دمشق شمالاً وأوعار الجيدور وسهول حوران جنوباً. وهذا القسم يؤلف ثلثي القضاء وأراضيه منبسطة لا يتجاوز ارتفاعها ٩٠٠ ـ ١٠٤٩ متراً. تتخللها تلال وآكام وأوعار عديدة أشهرها أكمة سلح الطير شمالي الدرخبية وجبل الكلب. وجبل المضيع شمالي الكسوة. وثمة حول

قرية زاكية وعرة كبيرة (حرة) تدعى وعرة زاكية ربما بلغ طولها من الشرق الشمالي إلى الجنوب الغربي نحو ٢٠ كم وعرضها نحو ٨ كم. وفي هذا القسم نهر وادي العجم الأعظم المسمى نهر الأعوج لكثرة اعوجاجاته وهو المعروف في التوراة باسم فرفار. وهذا النهر يتكون من عدة عيون ومسايل تنبعث من سفوح جبل الشيخ أهمها عيون قرية عرنة وبيت تيما وحينه ونهر الجناني القادم من قرية بيت جن، ومن ينبوع آخر اسمه المنبج ومن عين أم الشراطيط ووادي الدهامية وعين الطماسية وعين الطيبة وهي أبرد تلك العيون تحسن ماءه كما يحسن ماء عين الفيجة مياه نهر بردى باختلاطه بها، وبعد أن يهبط هذا النهر من السفوح ويصل السهل ينقسم عند أم الشراطيط إلى فرعين الأول يسيل نحو الشمال الشرقي ماراً من شمالي وعرة زاكية، فيسقي في مجراه كثيراً من القرى الشرقية لوادي العجم التحتاني والمرج القبلي إلى أن يصب في بحيرة الهيجانة وتتبخر مياهه فيها في أوائل الصيف. والفرع الثاني يسير نحو الشمال فيسقي القرى الغربية لوادي العجم التحتاني إلى أن تتلاشى في أراضي قرية المعضمية. هذا وفي وادي العجم التحتاني من القرى والأحواش التي تروى من الأعوج حوش الاشرفية والعباسية والدير حبية وحوش المقبيلية وحوش مرانة وقرية الكسوة وخان الشيح وصحنايا والخيارة وسبينة وسبينات والماجدية وذا النون وأم القصور والدير علي وزاكية وزغبر وشورى والطيبة والبويضة ومرجانة والحسينية والعباسية وحوش النفور وسعسع وكناكر ودير ماكر وشقحب وماعص وسرسيا والعثمانية والدناجي والزريقية والهارية وغيرها من الأحواش والمزارع. وكثير من هذه القرى والأحواش والمزارع ملك لأعيان دمشق. والسكان يختلفون بسحنهم ولهجاتهم وازيائهم عن أهالي حوران والغوطة وإقليم العلاف الذي سيأتي ذكره، فهم أشبه بسكان قرى المرج في هذه الشؤون إلى أن يبلغ إسناد جبل برقش. ومن ثم تبدأ مشاق الصعود إلى أن يصير المجاز شعباً يمر وسط الصخور وهكذا إلى أن يبلغ بعد ساعتين وربع قرية برقش وعلوها ١٥٨١ متراً. وفيها يزار الخرائب الممتدة فوق هضبة واسعة والمنقور بعضها في الصخر الصلد. وطول هذه الخرائب ٤٧ متراً من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي وعرضها ٣٥ متراً. ويبلغ علو جدارها الجنوبي ١٢ متراً بينما الصخر في الجهة الشمالية قد سطح تسطيحاً، وثمة غرفة عظيمة عرضها ١٦

متراً تشمل كل امتداد الطابق الأسفل، وفوقها صف من الأقواس. وفي جانبها غرف أخرى إحداها كانت فيما يظهر تستعمل كحمام. وهناك عدد وفير من تيجان الأعمدة مبعثرة على الأرض. ويحتمل أن تكون هذه الأطلال بازيليكا نبطية بيزنطية وأنها شيدت مكان بناء أقدم منها. وفي شمالي هذه الأطلال بقايا بناء لعله هيكل أو كنيسة.

- ومن برقش يمكن أن يستمر سائراً في شعب جبلي فيصل بعد ساعة ونصف إلى رخلة، وهي قرية درزية صغيرة علوها ١٥٢٧ متراً تقع وسط مضيق موحش، ففي شمالها وفي مكان أوطأ بـ ٣٠٠ متر منها أطلال هيكل كبير ذرعه ٣٢×٥٧ متراً وفيه أعمدة علوها سبعة أمتار كلها متصلة. وثمة للباب الكبير عتبة قد انفصلت عنه، عليها رسم نسر ممدد الجناحين كما في نسور بعلبك وتدمر. وكان في الجهة الغربية حنية كان يمتد منها صفان من الأعمدة متجهان نحو المدخل، فيقسمان البناء إلى ثلاثة صحون. وفي خارج الجدار الجنوبي عند الزاوية الحنوبية الشرقية رسم كبير قد نقش على شكل (مدانتون) أخلطت به شعلات، ولعله رسم بعل (إله الشمس) قد حطم طرفه أهل القرية للأسف (زيارتنا ٩٤٤/١١/١٤) وفي شمال الهيكل ناووس ثابت حول أدراج يدل على أنه كان لرجل عظيم.

وفي القرية نفسها يلحظ هيكل صغير عليه كتابات يونانية. والصخور التي حول القرية قد نقر فيها كثير من الكهوف المقبرية كما أن في جنوبها مسيلاً صغيراً فيه أطلال بناء أثري آخر.

من رخلة إلى راشيا - (٣ ساعة وربع، مجاز دواب) بعد اجتياز وادي محصور بين جبلين. يصل السائر بعد ساعة وربع إلى هضبة صخرية فيها أطلال أثرية غير معينة. وبعد ساعة ونصف يبلغ قرية عهيا، في طرفها الغربي أطلال هيكل قديم عليه كتابات يونانية، وعلى بعد ٣٠٠ متر من القرية سماوة امرأة منقورة في الصخر وبضعة من أحداث هذه الأنحاء الواقعة التي جرت بين عساكر الطولونيين سنة ٢٩٠ القادمة من مصر وبين القرامطة الهاجمين على دمشق، وذلك في قريتي كناكر وكوكب.

ومن مرتفعات هذا الإقليم تنحدر مسايل عديدة كنهر بربر الهابط من أنحاء برقش وقلعة جندل ونهر عرنة ونهر السبيراني ونهر الجناني.

أما وادي العجم الفوقاني المعروف بإقليم البلان فهو قرى سفوح جبل الشيخ أو ما يقرب منها وطوله نحو ٥٠ - ٣٥ كم وارتفاعه من ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ متر يحده جنوباً الجولان وشمالاً صحراء الديماس وقضاء راشيا وشرقاً وادي العجم التحتاني وغرباً جبل الشيخ وقضاء حاصبيا، وهو يؤلف ثلث القضاء فقط، وأهم قراه عيسم وهي أول الإقليم على نحو ٧ كم من قطنا، ومن قراة عين البرج وقلعة جندل وبيت تيما وكفر حور وبيت سابر وحينة وبقعسم وعين الشعرة وريحة وعرنة ودربل وبيت جن وجرنة وخربة السوداء وحضر وسحيته وطرنجة وجباتا الخشب ومقروصة وحلس وبرقش وكفر قوق وصوجة ورضوان وامبيا ودورين والسجاع وصورة ورأس العين ورخلة ويعفور. ونظنه (ابلية) المذكورة في التوراة بأنها إحدى مقاطعات شرقي الأردن كانت تقع شمالي إيطورية (الجيدور) وغربي دمشق وكانت عاصمتها لبيلا (سوق وادي بردى) لا يعرف عن ماضي هذا القضاء ولا عن تسميته بوادي العجم شيء، فقد سكتت تواريخ العصور الأولى والمتوسطة عن بيان اسمه القديم وحالته وأحداثه. اللهم إلا ما كان من ذكر نهر الأعوج المعروف في التوراة باسم فرفر. على أن الهياكل والكنائس والنواويس التي في كثير من قراه الجبلية. تدل على عمران قديم، وأن الآراميين والرومانيين والبيزنطيين سكنوا هذه الأنحاء وعمروها وخلفوا فيها آثاراً، ففي رخلة وبيت تيما وكفر حور وكفر قوق وسحيتا كهوف مقبرية ونواويس نقرت في الصخر بصورة هائلة تدل على أنها مدافن أغنياء وأمراء، كما تدل كنائس وهياكل برقش ورخلة وعرنة وقمة جبل الشيخ، فإن الأحجار المنحوتة الضخمة وقلعة جندل على بسطة في العيش والرفاهية والمتعة.

وإقليم البلان الجبلي متوسط في زراعته لكثرة ثلوجه وصخوره ورقة أرضه على العكس من وادي العجم التحتاني، فإن تربته أخصب وتجود فيها كل الزروع والغراس لولا أن العناية قليلة لجهل الفلاح وابتلائه بالملاريا المنتشرة بحكم وفرة المياه واتساع الأراضي المسقية. والنفوس قليلة في هذا القضاء بالنسبة لمساحته والسبب هجرة السكان إلى أميركا وغيرها منذ نصف قرن متوالية وهم أخلاط

بمذاهبهم. فيهم المسلمون السنيون والدروز والنصارى الروم والكاثوليك والبروتستانت، والدروز أكثرهم مضاء وإقداماً على العمل ويليهم النصارى، وفي الخطط، إن من حسنات سليمان باشا والي دمشق سنة ١٢٢٥ ضمه إقليم البلان إلى ولاية دمشق بعد أن كان مستقلاً تحت لواء أمراء راشيا الشهابيين. وكان هؤلاء الأمراء مستبدين، والأهلون يقاسون منهم حروب الجور فتخلصوا من هذا الضيم.

ومن عهيا يبلغ بعد نصف ساعة إلى راشيا ماراً من قرب مستنقع كفر قوق.

٣ ـ الصعود إلى جبل الشيخ ـ تم فتح طريق السيارات إلى قلعة جندل وعرنة، وطوله نحو ٢٠ كم، وهو يمر بعد مغادرة قطنا من بقعسم الفوقا، وهذه عبارة عن بضعة بيوت حقيرة يلجأ إليها أصحاب الزروع وقت الحصاد فقط، في الكم ١٣ عين البرج، وهنا بقعة جبلية جميلة جداً، فيها مزرعتان إحداهما واسعة ومحاطة بالحدائق والكروم المتدرجة في حضن الأكمة.

في الكم ١٤ قلعة كبيرة جبلية، علوها ١٥٠٠، سكانها ١٢٠٠ ثلثهم دروز وثلثاهم روم أرثوذكس ثم سريان كاثوليك، وفيها كنائس للطائفتين المذكورتين وخلوة درزية، وفوق هذه القرية صخرة عظيمة تحمل أطلال حصن عجيب مستطيل الشكل، وفي واد سحيق، وقد نقر كله في الصخر الصلد. وإذا صح الظن بأنه كان في ابتداء أمره هيكلاً، فيكون هو الهيكل الوحيد بين كل هياكل حرمون في اتجاهه إلى الغرب. والغالب أن بناءه يعود إلى العصور المتوسطة. فقد كان بناؤه منقسماً إلى حجرتين فالحجرة الغربية تحتوي في جدارها الغربي على محراب متجه إلى القبلة تدل على أثر الإسلام في هذا البناء، وعلى فجوات ذات عضائد وعتبات مزخرفة. وفي شماله يلحظ وجود مرمى وفي جنوبه نافذة منكسرة منقورة في الصخر. أما الحجرة الشرقية فتحتوي في كل جهاتها على جدران مبنية. ففي جنوبها درج يوصل إلى نافذة مفتوحة. وفي طول الحجرتين المذكورتين ممر داخلي يطل إطلالاً عمودياً على منحدر كئود فوق الوادي ويوجد تحت الحصن قبو.

ومن قلعة جندل لحب صالح يتجه جنوباً نحو قريتي بيت تيما وكفر حور. وبين هاتين القريتين لحب ينحرف نحو اليسار ويذهب نحو بيت سابر (في الكم ١٢) ويتصل فيما بعد بطريق دمشق ـ القنيطرة وكذلك بعد كفر حور يمر الطريق بحينة

(وفيها أطلال هيكل صغير مربع). وفي حينة ينقسم الطريق إلى فرعين فيذهب الأول إلى دربل والثاني ينتهي ببيت جن، وفي هذه كهوف مقبرية.

ومن بعد قلعة جندل تتبع طريق السيارات حضن جبل بربر وتطل إطلالاً عمودياً على وادي بحيران السحيق ذي المياه الدافقة، وفي الكم ٢٠ بقعسم، قرية درزية جميلة المنظر، ومن بعدها تتمعج الطريق كثيراً فوق أودية سحيقة موحشة ومنحدرات عمودية رهيبة، ثم تجتاز قرية الريمة المعلقة فوق عرفة صخرية، وبعدها بقليل تظهر قرية عرنة، وسط حدائق وكروم غناء وعيون ثرة وذات دور جبلية متراكبة امتدت في قعر وادٍ فسيح في سفح حرمون العظيم، وهي تعلو نحو ١٥٠٠ متر، سكانها ٦٠٠ نصفهم دروز ونصفهم روم أرثوذكس. وهي من أجمل المصايف وأنقاها هواء وأبردها ماءً، على الرغم من أن وسائط سكنى المصطافين وحاجاتهم لم تتيسر فيها بعد كما ينبغي. وفي قربها منتزه وسط واد أغنى عند عين ثرة باردة تدعى عين عيسى يرتادها قاصدو النزهة والرياضة من دمشق وقطنا بسياراتهم. وقيل إن في عرنة فحم حجري غير ناضج وهناك عين سابا وغيرها من العيون الكثيرة، فأينما ذهبت تجد ظلاً وماء سلسبيلا، وكان اسم عرنة قديماً وفيها مما يدل على عمرانها القديم أطلال هيكلين، الأول في غربها فوق واد سحيق، ليس لأنقاضه شكل وقصد ظاهر، وقد وجدت في زاويته الغربية كتابة يونانية - والثاني في شمالها وفي مكان مرتفع مشرف على القرية، وهو يمتد من الشرق إلى الغرب، نقرت له صخور الجبل لينفسح المجال لبنائه. وأحجار جدرانه غاية في الضخامة وليس فيها أي أثر للشيد والملاط. وفي أعلى هذه الجدران كورنيش مزخرف. ومدخل هذا الهيكل في وسط الجدار الشرقي، وعلى هذا المدخل عتبة كبيرة من حجر واحد، قد انكسرت في عهدنا، ويلحظ وجود ثلاثة صفوف أعمدة دورية في طول البناء، ولا يعرف ما إذا كانت هذه الأعمدة قديمة أصلية أم جلبت ووضعت بعد، وفي الغرب ترى كوة كان فيها تمثال.

ومن عرنة يمكن الصعود إلى قمة جبل الشيخ راكباً على بغل أو راجلاً، في شعب شديد الكئودة ومن طريق (عين المصلبة)، وخلال أربع ساعات والأفضل أن يجعل الزائر صعوده في ليلة قمراء ومن الهزيع الأول من الليل ليلحق القمة باكراً

ويتحلى بهلال الفجر وروعة الشروق وصفاء الجو في الآفاق التي يشرف عليها من ذلك العلو الشاهق، وقد تقدم ذكر مناظره. بعد عرطوز وعلى يسار الطريق مزرعة جونية وتل المنسفة ومزرعة كوكب.

عودة إلى طريق القنيطرة: وفي الكم ٢١ يترك طريق القنيطرة لحباً يذهب (في ٨ كم) إلى قرية زاكية. جبل الشيخ هو جبل حرمون المذكور في التوراة وسماه العرب جبل الثلج. قال حسان بن ثابت:

من دون بصرى ودونها جبل الثلج   سبح عليه السحاب كالقدد

ويسمى أيضاً سيئون وسنير. ويعلل البعض تسميته بالشيخ لبياض الثلج الذي على قمته ويشبه رأس شيخ أشيب. ولأن علوه يحفظ الثلوج إلى آخر فصل الصيف ولاسيما في المنحدرات العالية التي لا تعبث بها الرياح الحارة وأشعة الشمس. وعلو أعلى قمة فيه ٢٨١٤ متراً عن سطح البحر، وطوله ٣٠ كم وهو إلى الجنوب الغربي من دمشق على بعد ٢٥كم، ومن الغريب في أمر هذا الجبل أن العيون المنبجسة من ثلوجه تكثر جداً في شرقه كينابيع نهر الأعوج وفي جنوبه كعيون نهر الأردن، بينما هو في سفوحه الغربية والشمالية ضنين بالماء جداً لاسيما في أنحاء راشيا.

قدس القدماء حرمون فكان من الجبال التي يهرع إليها العباد كما تشهد بذلك المعابد الكثيرة المبثوثة في كل سفوحه وقممه، وكان الاسرائيليون يعجبون بعلوه ويجلونه، لأنه يجمع على ظهره وفي صدره الغيوم. وقد ورد في نشيد الأناشيد كلام على الحيوانات الكاسرة التي كانت تسرح فيه، ولا يزال فيه إلى اليوم نوع من الدببة من الذي يسميه الإفرنج الدب السوري، وفيه أنواع من الثعالب والذئاب وضروب من الطيور، وهو قاحل لا خضرة فيه ولا أشجار إلا بعض الأعشاب والأنجم الغثة، وذلك لشدة انحداره ولدوام انهيال تربته وتكسر أحجاره وفقدان المياه منه بعد زوال الربيع، ولا يعلم ما إذا كانت السفوح والمناكب القريبة منه مغروسة بالحراج إلى الأمكنة الغربية قد يعثر على بعض الأشجار المثمرة البرية كاللوز والكمثرى والكرز والخوخ، وعلى نباتي السيكران والسراس وغيرهما.

وهي مركز ناحية وقرية كبيرة، سكانها ١٥٠٠ مسلمون، مبنية وسط وعرة كأداة. وقبل زاوية يلحظ أحواش أو مزارع دروشة والبويضية، وقرية كبيرة اسمها الدير خبية، ومنذ عرطوز تحاذي هذه الطريق فرع نهر الأعوج الشديد التعرج، تتركه على يسارها، كما تترك على اليمين وعن بعد قليل تل قبية (علوه ٩٧٥) وفي غرب هذا جبل القلع (علوه ١٠٥٤)، وفي الكم ٢٤ يمر من غربي خان قديم اسمه خان الشيح - وفي الكم ٢٨ منعرج كبير يحدثه نهر الأعوج - في الكم ٣٢ على اليسار مخفر درك أم الشراطيط - في الكم ٣٥ يترك على اليمين لحياً صالحاً يذهب إلى بيت سابر (كم ٦) وإلى كفر حوار (كم ١٢)، وهذه قرية درزية كبيرة مبنية فوق أكمة وسط حدائق وكروم وفي غربي هذه قرية حينة.

ثم يعبر الطريق فرع نهر الأعوج من فوق جسر - ثم في الكم ٣٨ يعبر ثانية نهر الأعوج الأصلي فوق جسر كبير، ويجتاز سهلاً فسيحاً خصباً مزروعاً ومغروساً في آخره قرية سعسع، وخان سعسع الأثري الكبير، وهو من بناء الوزير العثماني المشهور سنان باشا (الارغودوي المتوفى ١٠٠٤هـ) وهو خان واسع مستطيل الشكل، له سور خارجي محصن بأبراج ويحتوي على عدد كبير من الغرف الحقيرة المتهدمة، يسكنها بعض الفلاحين.

وبعد سعسع يتغير منظر الطريق، فيدخل في بقعة وعرة خربة سوداء كئيبة، فيغادر على يسار الطريق تلاً اسمه تل الشام - وفي الكم ٤٥ على يمين الطريق قرية دروين - وفي الكم ٤٧ على اليمين أيضاً ووسط وعرة موحشة ضيعة الشوكتلية وعلى اليسار العثمانية - في الكم ٤٩ منظر جميل نحو كتلة جبل الشيخ، الذي في سفوحه عن بعد تظهر قرى بيت جن وريمة اللتان تقدم ذكرهما، ومن ثم يدخل كورة الجولان إحدى كور حوران التاريخية.

في الكم ٤٥، على عين الطريق مرج أخضر افيح مزروع اسمه برج برغوت. يخص أهالي قرية جبا، وهذه بعيدة عنه نحو ٥ كم إلى الجنوب، وفيها ضريح الشيخ سعد الدين الجباوي مؤسس الطريقة السعدية. وفي الطرف الشمالي الغربي لمرج برغوت تل.

في طرفه الغربي الشمالي تل أثري اسمه كوم الويسية في حضيضه منبع نهلا العرتم أحد روافد نهر اليرموك، وفي الكم ٥٧ على يمين الطريق قرية كبيرة اسمها خان أرنبة، فيها خان أو مخفر عثماني قديم خراب. ومن هذه القرية مجاز دواب يوصل إلى قرية جباتا الخشب مقر إحدى الأسر العربية المسلمة في هذه الديار، وفي شرقها قرية طرنجة وفي شمالها سحيتا. في الكم ٦١ يعبر الطريق جسراً حجرياً كبيراً فوق نهر الرقاد الضحل، في جنوبه أراضي قرية صغيرة لمهاجري الشاشان اسمها الصمدانية إلى أن يصل في الكم ٦٦ إلى القنيطرة.

وفي غربي سعسع من القرى خزرجية وفي غربي هذه المقروصة ثم بيت جن، وفي جنوبي سعسع مزرعة شورا وقرية دير ماكر.

سرتلين الشمالي منها تل الهوا والجنوبي تل الشحم وبينهما قرية دير ماكر.

وفي غربي دوريني ضيعتا حلس وحرفا.

وهنا ينتهي قضاء وادي العجم ويبدأ قضاء القنيطرة.

وثمة على اليسار (تل الغار ١١٦٩) وفي جنوبه قرية جبا المختفية وراء التلول نزل فيه السلطان صلاح الدين في رمضان سنة ٥٨٤ في طريقه من دمشق إلى فتح صفد وعبر وقتئذ الشريعة مخاضة الأحزان.

في الكم ٦٦ القنيطرة ـ بليدة، علوها ٩٨ متراً وسكانها ٢٠٠٠ أكثرهم من مهاجري القفقاس شركس وداغستانيين، والبقية موظفون وتجار وصناع من دمشق وغيرها، وعدد ضئيل من نصارى مجدل شمس وغيرها الذين لجأوا إليها عقب ثورة سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٥ م وهي قاعدة كورة الجولان ومركز قضاء يدعى باسمها، وفيها محكمة صلح وجند درك، وجند متطوعة ودائرة بريد وبرق، وهذا لقربها من حدود فلسطين وفيها جامعان كبيران ومدرسة ابتدائية وأخرى أهلية. وقد كانت القنيطرة في العصور الماضية ضيعة صغيرة ملتفة حول خان من آثار لالا مقطعي باشا هو الآن خراب بنيت فوقه دائرة حكومة القضاء، ولم ينبه ذكرها إلا بعد أن نزلها مهاجرة الشركس والداغستان في أوائل القرن الهجري الحالي، فعمروها وبنوا فيها بادئ بدء دوراً حقيرة بأحجار البازلت الأسود التي كانوا يركمونها ركماً، ثم تدرجوا منذ ربع قرن لبناء ما هو أوسع وأجمل وسقفوا بعضه بالآجر الأحمر،

فصارت تظهر للقادم كبليدة عصرية حسنة، ذات شوارع مستقيمة وحوانيت ومقاهٍ عديدة، وسط سهل أفيح أخضر تظهر حوله عن بعد عدة تلال وآكام، أجلها تل أبو الندى في غربيها، وفيها حركة تجارية غير يسيرة لجنوب بلاد الجولان ومواشيها ويقام فيها كل نهار جمعة سوق عام للمواشي.

الجولان:

الجولان ومعناها الدائرة وهي كورة كبيرة من كور الشام من أقسام حوران، يحدها من الشمال جبل الشيخ ومن الشرق نهر الرقاد (العرام) ومن الغرب بحيرة طبريا والحولة ونهر الأردن الأعلى، ومن الجنوب وادي اليرموك. وكانت تسمى هذه الكورة بالعبرية كولان GOLAN هو اسم كان يطلق قبلاً على مدينة إسرائيلية مقدسة من بلاد باشان ينزلها سبط منسي (تث ٤:٣٤) و (يسوع ٨، ٢٠) وهي اليوم قرية (سحم الجولان) المذكورة في التوراة سيأتي وصفها وكانت هذه الكورة من جملة مملكة هيرودس فيليسيوس ابن هيرودس الأكبر الذي جعل عاصمته بانياس. وكانت تدعى جولاميتيد GAU LAMI TIDE وتشمل الجيدور الحالية أيضاً. وليس لهذه الكورة ذكر كاف في التواريخ العربية. قيل الحارث الأعرج الغساني نزلها. وأن شرحبيل بن حسنة افتتحها، وورد ذكرها في شعر حسان بن ثابت بقوله:

قد عفا جاسم إلى بيت راس فالجوابي فحارث الجولان

وفي شعر النابغة بقوله:

بكى حارث الجولان من فقد ربه وحوران منه خائف متضائل

وقيل حارث الجولان قرية من حوران.

وقد كان قضاء القنيطرة الحالي في العهد العثماني من أعمال لواء حوران، إلى أن سعى الشركس بربطه رأساً بعاصمة ولاية الشام، فتم لهم ذلك حول سنة ١٣٢٣هـ. وقد كان يتبعه ثلاث نواحي: ناحية الشقراء وفيها من القرى مجدل شمس

وجباتا الزيت وبانياس وعين قنية وعين فيت، وزعورة وميـنـور الـشباغته والغجـر وخـان الدوير ومزارع الفضل القريبة من جبل الشيخ. وناحية الجولان وفيها قـرى الـشركس وأجلها القنيطرة والمنصورة والصمدانية وعين الزيـوان والـصرمان والخشنية وموم‍سية وبئر عجم وبريقـة وجـويزة وفـزارة والفحـام، وقـرى التركمـان ومزارعهـا وأهمهـا عـين عائشة والرزانية وضابية وأحمدية وحسينية وحضر وعين سمسم وكفـر نفـاخ وقادريـة وعليقة وسنديانة وحفير وقـرى الحوارنـة كجبـا وخـان أرنبـة، وقـرى عـشائر الأعـراب كالهوادجة والبحاترة والويسية والقصيرين والجعاتين، وناحيـة الزويـة، وهـذه فـصلت بعد سنة ١٣٤٠ وجعلت قضاء تابعاً لمحافظة حوران مباشرة.

وأراضـي الجـولان جيـدة في الجملـة، لـولا صـعوبة العمـل فيهـا مـن وفـرة أوعارهـا وأحجارهـا، وتربتهـا سـوداء بركـانيـة، تجـرد زروعهـا في الـسنين الـتي تقـل أمطارهـا، وتغرق في سني الـري الـكثير، لاسيما أنهـا غنيـة بالأمطـار والنـدى والـضباب إلى حـد الإفراط (لا تقل أمطار القنيطرة في أغلب السنين عن ٨٠٠ مـم فهـي أغنـى بـلاد الـشام الداخليـة بـذلك). فبينمـا تـشكو الـكـور المجـاورة في الـشرق تـئن الجـولان مـن الغـرق. ولـذلك تـصلح أراضيها لتربيـة الماشـية كـثيراً، وتكـاد تكـون البقعـة الوحيـدة الـتي تصلح لهذا الغـرض في بـلاد الـشام، وفيهـا عـرق مـن البقـر خـاص بهـا أسـود اللـون مـع لطخات بيضاء، يحـسن الـشركس تربيتـه والارتـزاق بـه كمـا يحـسن الأعـراب تربيـة الغنم واقتنـاءه. وهمة الفـلاح الجولاتي ضعيفة، لأنـه في الغالـب لا يملـك أرضـاً لـه ينفـق سنين ليتوفر على إتقـان حرثها وزرعها، بل إن أغلب القرى ملك لأمراء عشيرة الفضل. وبعض أعيان دمشق من أكـراد ومغاربة. وهـؤلاء يكـتفون باتـساع المـساحة دون التـوفر على إتقان العمل. وهكـذا لا يشاهد رقي الزراعة نـسبياً إلا في مـزارع الشراكـسة إذا اختص كل فرد منهم بقطعة أو قطع تناسب حاله وشأنه فأصلحها لما سـاعدته مادتـه وقوتـه، وبنـى البيـوت بـالحجر والقرميـد وغـرس قلـيلاً مـن الأشـجار والكـروم وعنـى بتربيـة البقـر وأثـرى منهـا وعـاش في الجملـة أحـسن مـن عيـشة سـكان الجـولان الأصـليين، ولـو أتـيح للـشركس أن يتوسـعوا في الملـك والأرض بالقـدر الـذي يكفـي لإعالة أسرهم، لما اضطر أبناؤهم إلى التطوع في الجندية ومـا إليهـا مـن الأعمـال الـتي فيهـا دفـع وجـذب. وتتميـز القنيطـرة بغـزارة أمطارهـا في الـشتاء (لا تقـل عـن ٨٠٠ م في

أغلب السنين) وقسوة بردها وشدة رياحها ووفرة الندى والضباب في جوها في أكثر فصول السنة.

المسافات من القنيطرة إلى دمشق ٦٧كم، إلى نوى ٣٨ كم. إلى شيخ مسكين ٥٢كم، إلى درعا ٧٨كم، إلى جسر بنات يعقوب ٢٧ كم.

وذكرها القلقشندي وذكر أنها كانت مقر عمل الشعرا تارة كما كانت قرية خان تارة أخرى. وإن هذا العمل يمتد ما بين بانياس إلى جبل الشيخ. جامع القنيطرة، كان صغيراً شبه خراب من بناء لالا مصطفى باشا، ظل على ذلك إلى عهد الإفرنسيين، ثم رمم بشكله الحاضر الجميل بإعانة الأهلين والبعثة الإفرنسية والأوقاف سنة ١٩٢٢، (جامع الداغستان) للشوافع، هو أصغر من الأول بني بإعانة الأهلين سنة ١٩٣٢، أما السراي الحالية فهي فوق الخان الذي بناه لالا مصطفى باشا.

من القنيطرة إلى بانياس

طريق معبد جيد، ٢٤ كم يخرج السائر من وسط القنيطرة متجهاً نحو الغربي الشمالي، فيرى على يمينه ويساره عدة طواحين هوائية، وبعد ٣ كم وسط السهل الأفيح، المنصورة، قرية شركسية، سكانها ١٥٠٠، وفيها مسجد ذو مئذنة، وبعد الخروج منها يترك على اليسار لحباً دعساً متجهاً إلى الغرب الجنوبي يفضي إلى ضيعة اسمها واسط فيها قصر كبير قديم كان بناه الأمير محمد رئيس عشيرة الفضل.

وبعد أن كان الطريق في بدئه آخذاً للغرب ينحرف نحو الشمال ويصعد هضبة، - في الكم ٧ على اليسار عين الحجل، ضيعة حقيرة درزية وعلى اليمين عين حور - وفي الكم على اليسار وعلى اليمين بقعاتا قرية كبيرة درزية سكانها ٩١٦، ثم يجتاز الطريق خطاً مستقيماً فيه على يمينه ويساره هضبات كانت هضبة تكثر فيها غابات السنديان وقد كانت فيما مضى أكثر وأكثف من الآن.

في الكم ١٥ يمر الطريق من وسط مسعدة وهي قرية صغيرة درزية، وفيها منظر جميل نحو الطرف الجنوبي من سلسلة جبل الشيخ.

على بعد نحو ٢ كم من قرية مسعدة وإلى شرقها الشمالي بركة الرام، أو بحيرة الرام، عجيبة التكوين، وهي خوبة سحيقة كالقمح محصورة بين آكام. ويظن أنها البحيرة نفسها التي تحدث عنها المؤرخ يوسف قلاقوس وسماها TLIALA أي المقطع.

وزعم أنها من ينبوع نهر الأردن الأصلي وأنه منها يجري في مجرى مستتور تحت الأرض إلى بانياس، وإن فيلبيس رئيس ربع تراقونتين (اللجا) أول من اكتشف ذلك فإنه أمر بطرح تبن في هذه البحيرة فخرج من بانياس. وذلك أشبه بما يقال عن مغارة أفقا في لبنان، فقد زعم بعضهم أن نبعها في بركة اليمونة مستدلاً على ذلك بإلقاء التبن في البركة فخرج من المغارة.

ومن قرية مسعدة طريق يتجه نحو الشمال ثم يهبط قعر وادٍ ثم يصعد إلى قرية كبيرة اسمها مجدل شمس، في حضن جبل الشيخ سكانها ١١٠٠ دروز، وكانت قاعدة مديرية ألغيت مؤخراً.

إن الأراضي الخاصة بأعراب الفضل تمتد من قرب المنصورة جنوباً حتى بانياس شمالاً ومن جباتا الخشب شرقاً إلى الحولة غرباً. ولا يطوفها الراكب بالسير المعتدل في أقل من ثلاثة أيام يقل سكانها واستغلالها بالنسبة لمعظم بقعتها، غلاتها جيدة، وفيها بعض الأشجار والكروم والغابات التي كانت فيما مضى أكثر من الآن وفيها صورة مصغرة من مناخ بلاد الشام، ترى فيها إذا هبطت من القنيطرة إلى بانياس الصيف والشتاء في آن واحد. وأميرها وهو اليوم فاعور بن محمود الفاعور مالك هذه الأراضي كلها. وهذا الأمير حاكم مطاع في عشيرته عرب الفضل المؤلفة من نحو ١٥٠٠ بيت، لا يشاركه في ملكها سوى شيخ الهوادجة وبعض الجاترة وهم عبارة عن ١٨٠ بيتاً يملكون جزءاً صغيراً منها، وعرب الفضل أعراب مختلفو المنبت والمشرب التفوا من عهد بعيد حول (آل الفاعور) وهؤلاء الأمراء على ما يحقق لي ليسوا كما يزعمون من أعقاب الفضل بن العباس، الذي لم يعقب بل كان عقب العباس من أخيه عبد الله فقط (تاريخ الأمم الإسلامية) للخضري بل هم من أعقاب

آل الفضل ذوي الشهرة الطائرة في عهد السلاطين المماليك، الذين كانوا أمراء البادية وساداتهم في شمالي الشام من القرن السادس إلى ما بعده من القرون كما ذكره القلقشندي في صبح الأعشى، ويظهر أن فرع الفاعور انفصل عن أبناء عمه آل عيسى بن مهنا الذين تبدل اسمهم فصاروا (آل أبو ريشة) تأمروا عشيرة الموالي الباقية حتى الآن في كورة العلاء شرقي المعرة، وانتقل فرع الفضل إلى كورة الجولان قبل ثلاثة أو أربعة قرون واحتفظ باسم (الفضل) كما احتفظ بلقب الإمارة ومالها من آثار السؤدد والغنى، وعشائر الفضل الملتفة حول هؤلاء الأمراء كثيرة العدد، أسماؤها يجمعها كلها اسم الفضل وكلهم رحل أو من سكان بيوت الشعر، ولكن رحلتهم في أرضهم لا يتعدونها إلى القاصية وأميرهم يدفع ما على أراضيه من الأعشار والضرائب الخفيفة ويتحكم في أموال أعرابه ودمائهم وأتعابهم. وأهل الجولان مسلمون سنية في الغالب، ليس فيها سوى ثلاث قرى في آخر عملها اسمها عين فيت وزعورة وعنجر سكانها نصيرية، لا يعلم كيف ومتى كان انتقالهم من جبالهم في الشمال.

وبعد مسعدة يتجه الطريق نحو الغرب ثم يبدأ بالهبوط من كورنيش فتح في العدوة الجنوبية من واد سحيق عظيم اسمه وادي سعار، في هذه العدوة أشجار متفرقة أو متكاتفة من أشجار السنديان النضرة، وهي بقايا ما كان في هذه الأنحاء من الحراج الكثيرة - في الكم ١٨ يترك على اليسار طريقاً يصل إلى قرية نصيرية اسمها زعورة، وفي غربها قرية نصيرية أخرى عين فيت.

في الكم ٢٠ يلحظ على العدوة الأخرى للوادي، في الجهة الشمالية، وفوق أكمة منفردة قلعة الصبية العظيمة وسيأتي ذكرها.

وهنا أنسب مكان لرؤية هذا البناء الحربي الهائل الذي تعلق بذروة الأكمة كأنه وكر نسر فوق شقوق من الصخر وفي جهة القلعة المذكورة يلمح قريتين صغيرتين، السفلى عين قنية (درزية) والعليا (عين الريحان) ويلحظ إلى شرقهما وعن بعد جباتا الزيت، قرية مسلمة كبيرة سكانها ١٠٠٠.

ثم يستمر الطريق في الهبوط من أسناد الجبل وفي امتداد المضيق الذي يؤلفه وادي سعار، إلى أن يبلغ السهل ويعبر سعار فوق جسر حديث بني سنة ١٣٤٦هـ،

ويتقدم نحو غربي قرية بانياس، ويعبر جسرها القديم الممتد فوق وادي الخشبة الذي يتألف من ينابيع بانياس.

في الكم ٢٤ بانياس قرية صغيرة سكانها ٢٠٠٠ مسلمون، وفيها مخفر درك، تقع في حضيض التل الشرقي المعروف بالهيش في أعضاد جبل الشيخ، عند ملتقى واديين، وادي سعار في الجنوب ووادي الخشبة في الشمال وتطل على سهل الحولة ومرتفعات هونين وهي ذات موقع نضر، جذل، يحميها جبل الشيخ من رياح الشمال، وترطب جوها الينابيع والجداول الدافقة الصاخبة، فتسقي فيها الأشجار ولاسيما الحور والصفصاف ويصح الليمون والبرتقال وتخضر دوماً الآكام والسفوح المحيطة بها، فتظل دافئة نضرة في الشتاء وحارة في الصيف. ودور بانياس حجرية، بني أكثر أقسامها من الأطلال الأثرية، وتعد بانياس آخر عمل الجولان وأول عمل الحولة، قال شيخ الربوة في وصفها: بانياس مدينة قديمة حصينة كثيرة الحدائق وهواؤها وبئ وترابها كذلك وبها مياه غزيرة وآثار لليونان قديمة، وقال، أبو الفداء في تقويم البلدان: بانياس اسم لبلدة صغيرة ذات أشجار محمضات وغيرها وأنهار وهي على مرحلة ونصف من دمشق (٩٠ كم) من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب، والصبية اسم قلعتها وهي من الحصون المنيعة. وقال العزيزي.. ومدينة بانياس في لحف جبل الثلج وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه صيفاً ولا شتاء. وقال ابن جبير في رحلته في وصف بانياس إنها مدينة صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر يفضي إلى أحد أبواب المدينة وله مصب تحت أرجاء. وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين، ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج اسمه هونين بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ. قال وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة ولا صيف يجري بينهم فيها ، وذكر الظاهري في (زبدة كشف الممالك) زراعة الأرز التي كانت قائمة في جوارها.

قلت، وخرائب بانياس ذات شأن غير يسير تدل على عظمة من استولوا عليها رغم ما انتابها من حوادث الأيام، ولاسيما الزلازل، مياهها غزيرة لو توفرت العناية بإخراج الصخور والردم من طريقها لتضاعفت كميتها.

التاريخ يبدأ تاريخ بانياس من العهد اليوناني فاليونان منذ أن استلموا بانياس كرسوا المغارة التي فوق نبع الأردن باسم الإله بان جالينوس الغابات والحقول والمواشي والصيادين، ومنها نشأ اسم المدينة الذي احتفظ به العرف فصار من بعد بانياس، وقد شاد هيرودوس أمام المغارة المذكورة هيكلاً على اسم اوغسطوس، إلا أن بانياس لم تتقدم إلا في عهد ابنه فيلبس رئيس الربع حاكم المملكة المربعة في الطيورية (الجيدرو) فقد أنجز بناءها ووسعها فيليبس.

وفي عهد أغريبا الثاني أطلق عليها اسم (نيرونياس) مدة من الزمن نسبة إلى القيصر نيرون الظالم وجاء يسوع المسيح في آخر أيامه إلى أنحاء بانياس وأرسل من هنا إلى الخوري بطرس كلماته المشهورة أنت بطرس وفوق هامتك سأبني كنيستي.. الخ" "انجيل متى، ١٦، ١٨" وفي الرواية النصرانية أن بانياس كانت موطن المرأة التي شفاها يسوع المسيح من نزيف الدم في كفر ناحوم (انجيل متى، ١٩ و ٢٠) وفي سنة ٧٠م جاءها تيطوس واحتفل فيها بانتصار الجيوش الرومانية في معارك فلسطين وباستيلائهم على القدس وتخريبها. وأقام في بانياس ملعباً أجبر فيه أسراه من إليهود أن يصارعوا الوحوش الضارية فهلك منهم بذلك عدد كبير ودخلت بانياس بعد في النصرانية، وفي القرن الرابع جعل فيها كرسي أسقفية لاتينية تابعة لبطركية أنطاكية، وفي العصور المتوسطة استولى الصليبيون عليها وعلى قلعة الصبية، وذلك حينما فتحوا هذه البلاد في سنة ٥٢٤ أو ٥٢٥ عندما حاولوا فتح دمشق، وشادوا فيها أسواراً وأبراجاً وجعلوها إحدى معاقلهم الأمامية للدفاع عن ممتلكاتهم في الشام وفلسطين تجاه ملوك دمشق المسلمين.

ذكرها القلقشندي في صبح الأعشى ج٤ ص ٢٠٤ قال عمل بانياس، مدينة من جند دمشق، وهي على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب، وهي في لحف جبل الشيخ وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه شتاء ولا صيفا وهي مدينة الجولان وبها قلعة الصبية من أجل القلاع وأمنعها.

(اسعار) قرية خربة بين مجدل شمس وجباتا الزيت وهناك نهر يعرف بنهر اسعار وكان أهل هذه القرية من الشيعة.

ـ سهل الحولة: طوله نحو ٢٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب وفيه بحيرة تسمى باسمه واقعة بالقرب من طرفه الجنوبي.

ويصب في زاويته الشمالية نهر أصله من نبع يدعى عين الملاحة يخرج من حضيض الجبل الغربي. والأرض الواقعة على الطرف الجنوبي والطرف الغربي من البحيرة إلى الملاحة تدعى بلاد الخيط. وقد تسمى البحيرة نفسها أحياناً ببحيرة الخيط ـ وإلى شمالي البحيرة أكمة ليس فيها سوى القصب والبردى، وهي ممتدة على أرض أكبر من أرض البحيرة. والأنهر التي تصب في بحيرة الحولة هي ١ ـ نهر الملاحة المار ذكره ٢ ـ نهر البلاط ٣ ـ نهر من أنحاء مرجعيون ٤ ـ نهر من أنحاء وادي التيم ويعد أبعد فرع لنهر الأردن ومخرجه من شمالي حاصبيا وهو المعروف بالحاصباني، ٥ ـ نهر من بانياس وآخر من تل القاضي ثم يخرج نهر الأردن من هذه البحيرة ويصب في بحيرة طبرية بعد مروره من جسر بنات يعقوب ثم يخرج من بحيرة طبريا ويصب في بحيرة لوط حيث يغدو ولا يخرج.

ومن دلائل عظمة بانياس في تلك العهود أنها كانت تتصل بدمشق وبرصيفين رسما في خريطة فلسطين عمل (معهد اونبرغ الجغرافي) وطبع جون بارتولووف وشركاه، الأول يتجه منها نحو الشرق الشمالي ماراً بمجدل شمس وعين التينة والحصر، ثم من بين بيت جن ومزرعة دير العشاير إلى بيت تيما ومن ثم إلى قطنا فكفر سوسة ثم ينحرف نحو الشمال الشرقي داخلاً في الوعر نحو سعسع فخان الشيح فجونية فعين الباردة ويدخل غوطة دمشق من شرقي داريا.

وفتحها المسلمون سنة ١٥ هـ حين فتح الشام وكانت في عهد الصليبيين عرضة لمواقع شتى تتعاورها أيدي الإفرنج والعرب. فقد استولى عليها سنة ٥٠٣ هـ طنكري صاحب أنطاكية، ثم استرجعها المسلمون منهم وصارت في ولاية طغتكين صاحب دمشق إلى سنة ٥٢٠ ثم سلمها تاج الملوك يوري طغتكين وقتئذ إلى بهرام الإسماعيلي بإشارة وزيره المزرقاني، لان هذا كان قد كثر جمعه وعظم شرهم وطلبوا مكاناً يأوون إليه فأقطعهم بانياس، ولكن الإفرنج عادوا في سنة ٥٢٣ واحتلوها وزادوا فيما بعد في وسائل دفاعهم عن هذه الأنحاء عندما رمموا قلعة الصبية، وفي سنة ٥٢٧ جاءهم شمس إسماعيل بن مورى صاحب دمشق وانتزعها منهم بعد قتال شديد هال

الإفرنج. ثم في ٥٣٤ لما حاصر عماد الدين زنكي دمشق ثم جاء ثانية واستولى عليها سنة ٥٣٤ فعادوا واستردوها، وبقيت في أيديهم إلى سنة ٥٥٢ حينما جاء نور الدين محمود واستولى على المدينة ولم يقدر على القلعة، ثم استردها بودوين الثالث أحد ملوك الصليبيين، ثم جاء نور الدين ثانية واستولى عليها سنة ٥٥٩ فثبتت من ثم للمسلمين وبعد موت نور الدين حاصرها الإفرنج سنة ٥٦٩ ثم نهبوها في سنة ٦١٤، وفي سنة ٥٦٦ جاء الملك المعظم عيسى بن صلاح الدين بن أيوب فدك حصونها ومعالمها لئلا يعود الإفرنج إليها ثم أقطعها إلى أخيه العزيز عثمان، فلما توفي العزيز ورثها ابنه السعيد وأعاد العزيز عثمان وابنه السعيد الحصون التي خربها المعظم كما يتضح ذلك من النقوش التي لا تزال باقية، ثم سلمها إلى الملك الصالح أيوب في سنة ٦٤٤ وجاء لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٥٠ واستولى على بانياس ونازل القلعة فامتنعت عليه وانهزم عسكره فعاد أدراجه، وبعد ذلك بزمن جاء المغول فخربوا قلعة الصبية في جملة ما خربوه، وأكثر ما في بانياس إلى الآن من الكتابات العربية من القرن السابع الهجري.

زيارة خرائب بانياس: يشرع بالزيارة من الجهة الشمالية الغربية، فيرى ثمة على ضفة النهر بقايا برجين من العصور المتوسطة. وكان برج ثالث على بعد قليل عنهما إلى الجنوب وغربي الطريق الحالية. وكانت جدران الأسوار مدعومة بأعمدة روابط أقحمت في جوف هذه الجدران كما هو الحال في جبيل وقيصرية فلسطين وعيها وهذه الأعمدة هي إما من حجر هذه البلاد الكلسي وإما من الغرانيت أي من الحجر المحبب الأسود المرقط المجلوب من صعيد مصر، وكلها من بقايا المباني التي كانت في العهد الروماني. وكان القسم المحصن في بانياس مبنياً في ملتقى النهرين ومستنداً عليها من الشمال ومن الجنوب، وإذا سلك الزائر السكة القديمة يمر في القرية ويصل إلى الجسر العتيق الذي في الزاوية الجنوبية الشرقية. وكان هذا الجسر محمياً ببوابة قوية أقحمت أيضاً في جدرانها أعمدة روابط من الغرانيت، وترى حتى الآن بعضها ملقى على جانب الطريق. وبناء هذا الباب في جملته يدل على أنه من عمل الصليبيين، إلا أن الباب الذي له عتبة ذات كتابة عربية، يظهر أنه أعيد بناؤه مؤخراً بعد عهدهم. وكانت تحصينات بانياس تمتد على طول ضفة النهر في الشرق

وفي الغرب، إلا أنها الآن خراب بالمرة. وإذا عاد الزائر أدراجه وتقدم بضع دقائق نحو الجبل يصل إلى نبع الأردن الصاخب الجميل. فيجد المياه تسيل بغزارة كلية ومن أماكن مختلفة تحف بها أشجار الصفصاف والحور وغيرها.

وفي الخطط ج٢ ص٧ "إن الذي جاء شمس الملوك إسماعيل، على حين غفلة وفتحه وذلك لما بلغه عن عزمهم على نقض الموادعة المستقرة، وكانت حصينة وكثيرة المقاتلة، فهناك الإفرنج ما وقع".

ومن أحداثها في العصور المتأخرة أن الأمير إسماعيل بن الأمير نجم حاكم حاصبيا أصلح في سنة ١١٨٧ قلعة بانياس وعمر ما كان قد هدم منها من زمان آل معن. فحضر إليه عثمان باشا الكرجي والي دمشق وحاصره وقبض عليه ونهب القلعة، ثم أمر بهدمها (تاريخ الأمير حيدر الشهابي).

(واكثروا التعجب من تسلل الأمر في فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في أقرب مدة).

وعجز مجير الدين آبقي بن محمد بن بوري عن لقائه سلم بانياس إلى الإفرنج ليدفعوا عنه عادية عماد الدين فبقيت في أيديهم إلى سنة ٥٥٢.

أما مغارة الإله بان فهي فوق النبع. وقد ردمت وملئت الآن بصخور ضخمة متدحرجة من أعلى الجبل، وصارت زريبة للغنم والماعز وفي فصل الشتاء يمتلئ قعر هذه المغارة بالماء. وفي فصل الصيف تجف بالكلية. وبالقرب من مدخل هذه المغارة في الجهة الجنوبية قد نقرت خمس كوى في العهد اليوناني الروماني، كانت مخصصة لوضع السمامات. وفوق كوتين منها كتابات نذرية باليونانية وفي الجهة الشمالية وعلى قسم بارز من الصخر قد بنوا مزاراً باسم الخضر. وفي مدخل هذا المزار مذبح صغير روماني مهدوم، وفي جوفه ضريح صغير حقير مغطى بخرقة خضراء.

قلعة الصبية ـ تسمى قلعة بانياس (الصبية) ويسميها الأهلون هنا (قلعة النمرود)، يصعد إليها الزائر ماشياً أو راكباً خلال ساعة ونصف، ويستحسن استصحاب دليل من القرية.

إن هذه القلعة العربية كانت موجودة قبل عهد الصليبيين. فقد ذكرت التواريخ أن الأتابك طغتكين صاحب دمشق قد وجهها في سنة ٥٢٠ إلى الإسماعيلية وكان

رئيس هؤلاء وقتئذ بهرام ثم جاء الإفرنج سنة ٥٢٥ واستخلصوها منهم وسلموها إلى فولك. وفي سنة ٥٢٧ جاء شمس الملوك إسماعيل بن بورط بن طغتكين واستولى عليها، لكن الأمير علي الذي عهدت القلعة إليه وقتئذ سلمها إلى عماد الدين زنكي صاحب حلب. فاتفق بوري مع الصليبيين لاسترداد هذه القلعة من يد زنكي. وسلم الصليبيون هذه القلعة إلى ريز بروس، وأقاموا في مدينة بانياس أسقفية. وفي سنة ٥٤٩ زحف نور الدين محمود زنكي على قلعة بانياس، لكنه لم يفز بطائل، فسلم نصفها إلى الفرسان الاستباريين، لكم هؤلاء ما لبثوا بعد قليل أن تركوا ما استلموه وجاء في تلك السنة نفسها نور الدين فظفر بفتح بلدة بانياس، لكن قلعة الصبية ظلت ممتنعة عليه بفضل دفاع أوفر المذكور، حتى جاء بودوين الثالث لنجدتها، فاضطر نور الدين إلى إخلاء بانياس والرجوع عنها، لكنه عاد إليها بعد مدة قليلة مفاجئاً فلم يستطع سكانها الصليبيون الدفاع فلجأوا إلى القلعة ودافعوا حتى جاءهم بودوين الثالث للنجدة فعاد نور الدين خائباً مرة ثانية. لكنه في سنة ٥٦٠ عاد لمهاجمتها في غياب أميرها وأسقفها وتمكن من الاستيلاء على المدينة والقلعة نهائياً، وخسرهما الصليبيون تباعاً، وذهبت محاولة الملك عموري في سنة ٥٦٩ ومحاولة جيش القديس لويس ملك فرنسا في سنة ٦٥١ في حصارها عبثاً.

ولم تعد التواريخ تذكر عن هذه القلعة خيراً لفقدها المكانة الاستراتيجيكية التي كانت لها في عهد الصليبيين، ولعلها ظلت مأوى لبعض الزعماء الإقطاعيين، إلى أن جاء ذكرها في تاريخ الأمير حيدر الشهابي (طبع بيروت سنة ١٩٣٣) إذ يقول في حوادث سنة ١١٨٧ هـ أصلح الأمير إسماعيل بن الأمير نجم حاكم حاصبيا قلعة بانياس وعمر ما كان قد هدم منها من زمان بيت معن فحضر إليه عثمان باشا الصادق الكرجي والي الشام وحاصره وقبض عليه ونهب كل ما كان في القلعة من أثاث وذهب ثم أمر بهدمها.

وصف القلعة: قامت خرائب قلعة الصبيبة فوق قمة جبل منحدر يطل على قرية بانياس من شرقها، ويستند على الأعضاء الأولى لجبل الشيخ. وثمة شعب شاق يمر وسط الصخور وكروم الزيتون يفضي خلال نحو ساعة إلى القمة المذكورة وينتهي عند ثغرة بين البناءين المؤشر إليهما بحرفي ١، ٠٠ وفي هذه النقطة الشاهقة يطل

الزائـر علـى منـاظر غايـة ـ في الروعـة، ففـي الجنـوب وـ في الغـرب يحـيط النظـر بـأرض الحولـة الخـضراء وبحيرتهـا الزرقـاء، ووراءهمـا سلـسلة جبـال الجليـل الـدكناء، وـ في شمالي القلعة وهدة هائلة العمق والانحصار، يسيل ـ في قعرها وادي الخشبة يفصل بين أكمة القلعة عن إسناد جبل الشيخ. إن هـذا الوضـع الاسـتراتيجي الـذي يـشرف علـى عدة طرق هامة قد لفت أنظار حكـام هـذه الـبلاد مـن أقـدم العـصور، فتعـاوروا بنـاء هذه القلعة وتحصينها يدل على ذلك بـلاط المبـاني الخربـة فيهـا، فإنهـا مـن بقايـا عـدة عهود ودول، فالأقسام السفلى المطمورة هـي مـن عهـد الـصليبيين، أمـا الأقـسام العليـا فخليط من بناء العرب والصليبيين.

وهنا، كما هو الحال ـ في أكثر قلاع الشام، قـد أثـر شـكل الأرض ـ في تخطـيط القلعة. فهي مؤلفة من سور واسع، شـكله كـالمثلث المتساوي الساقين، وطولـه زائـد، ورأسـه ـ في الجهـة الـشمالية الـشرقية وقاعدتـه ـ في الجهـة الجنوبيـة الغربيـة. وقـد جعلـت التحـصينات فـوق الأمـاكن الأكثـر ضـعفاً وتعرضـاً أي ـ في الجبهـة الجنوبيـة الـشرقية الـتي فيهـا الـصيـصة. أمـا ـ في الجبهـة الـشمالية الغربيـة الـتي تقـف فيهـا صـخرة القلعـة وقوفاً عمودياً فوق وادي الخشبة فقد اكتفـوا بجـدار سـور، بينمـا ـ في الجهـة الجنوبيـة الـشرقية اضـطرتهم تـضاريس الأرض إلى حـشد أجـل التحـصينات قـدراً. وقـد حفـروا صهريجاً عظيماً ـ في الجهة الشمالية الشرقية وخارج القلعة.

وأحجار الواجهة الجنوبية الشرقية مؤلفة من رخام منحوتة نحتاً ناتئـاً وذات حجـم وسط ومصفوفة صفاً متقناً وسجوف الخط الدفاعي التي تجمع بـين جوانـب الأبـراج، جعلت بعرض أربعة أمتار وثقبت فيها رمايات. والأبراج الجانبية ذات أشكال مربعة أو مدورة، وكلها ذات طبقة واحدة للدفاع. أما تيجان الجدران الـتي كانـت فيهـا زوافـر رمايات فقد خربت بالمرة. إلا أنه لا يـزال يـرى ـ في تواجـدها آثـار كـثيرة لطـرق المراقبـة المعقـودة الـتي كانـت تمكـن مـن اتـصال الرمـاة بعـضهم بـبعض تحـت طريـق جـدار المتراس.

وأقطع صلاح الدين بانياس وقلعتها إلى ابنه الأفضل، ثم استولى عليها بعده أخوه المعظم (٦١٥ ـ ٦٢٥) وأقطعها هذا إلى أخيه العزيز عثمان فلما توـ في العزيـز ورثهـا ابنـه الـسعيد حـسن وأعـاد الأب والابـن المـذكوران الحـصون الـتي خربهـا المعظـم، كمـا

يتضح ذلك من النقوش التي لا تزال باقية. في سنة ٦٤٤ تسلم الصاحب أيوب قلعة الصبيبة من ابن عمه العبد بن الملك العزيز في سنة ٦٥٩ كانت هي وبانياس في إقطاع صاحب دمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي. وبعد ذلك في سنة ٦٥٨ لما جاء هولاكو خرب المغول قلعة الصبية فيما خربوه من قلاع الشام، إلا أن الملك الظاهر بيبرس أعاد بناءها بعد أن فتح مدينة بانياس سنة ٦٥٩ فهو قد جددها وأنشأ لجامعها منارة، وبنى بها داراً لنائب السلطنة، وعمل جسراً يمشي عليه إلى القلعة.

في نقطة ١ برج عظيم مربع شديد البروز. وقد تهدم حتى وصل إلى مستوى قاعدة السور، وزال قسمه الأعلى بالمرة، ماخلا قسم كبير من جدار مع درج. إلا أنه قد بقي حتى الآن في قاعدة ثلاث طوابق للدفاع. ويمكن أن يلج الزائر إلى أعلى طابق من سطح مائل معقود يقع وراء سجف خط الدفاع عند نقطة ص فيجد نفسه وسط بهو واطئ مسقوف بعقود ذات زوايا بارزة. ومن هذا البهو عدة منافذ يوصل منها إلى غرفتين للرمي معقودتين قد ثقب في جدرانهما رمايات، والطوابق السفلى تحتوي على نفس الوضع من غرف الرمي، دون أن يظهر فيها طرق اتصال بالطوابق الوسطى.

وفي نقطة (ب) وفي جوف الأرض صهريج عظيم معقود للآن بماء آسن. وله درج للنزول إليه. وفي نقطة ت كان في وسطه المدخل الأصلي للقلعة، وهو الآن مطمور، وكان الباب مفتوحاً في واجهته الجانبية وأمامه عدة أدراج، وكان ضيقاً وواطئاً، يعلوه قوس ذو قمة حادة. وكان إذا ما ولج الداخل يجد نفسه وسط بهو مسقوف ذي زوايا بارزة. وعلى اليمين كان ينفذ إلى داخل السور من باب ثانٍ - وكان في جوف الجدار عند نقطة (ص) درج يصعد منه إلى السطح. إلا أن هذا قد خرب بالمرة.

وفي سجف خط الدفاع بين ث و د كان ينفتح خمسة كوى عمقها ٢,٥ متر معقودة بعقود حادة، ومثقوبة بمرمى يطل على طريق الوصول. وكانوا قد تمموا وسيلة الدفاع عن المدخل ببرج مدور (د) ذي بروز زائد، لم يكن فيه سوى طابق دفاعي واحد هو عبارة عن بهو كثير الأضلاع، مسقوف بعقود ذات زوايا بارزة تستند على ركيزة متوسطة. وثمة ست كوى ذات عقود مقوسة جهزت بمرامٍ تنفتح نحو جوانب البهو المضلع وكانت تمكن الرماة من ضرب كل النقاط المجاورة لطريق الوصول. وثمة درج مزدوج يرتفع ضد المواجهة الداخلية للبرج يوصل إلى السطح أما

تيجان هذا السطح فقد زالت بالمرة، على أنه لا يزال بضعة زوافر من التي كانت تحمل دهليز الشرفات المثقوبة.

وسجوف خط الدفاع على جانبي برج "ج" خراب بالمرة ولم يبق فيها سوى قواعد جدرانها. ومما لا ريب فيه أنها كانت متصلة بطريق المراقبة clammier de rondo معقود ومثقو بمرامٍ.

وفي نقطة "ج" برج مدور يحتوي على طابق دفاعي معقود ولكن ليس لعقوده ركيزة متوسطة، وهو مثقوب بمرامٍ بقي منها اثنتان وكان في بهو الطابق باب جانبي يوصل إلى طريق المراقبة المعقودة الخاصة بالسجف.

والباحة الكبرى في داخل السور ترتفع تدريجياً نحو الشمال الشرقي. وفي أعلى نقطة فيها يقوم البرج الكبير الذي يشرف على القلعة كلها. وهذا البرج قد خرب معظمه كما هو الحال في بقية مباني القلعة. وكان يؤلف صيصة مستقلة، لأنه محصن في جنوبه الغربي من ناحية الباحة بخندق عريض وببرجين ضخمين مربعين (ق و ق) ويوصل إلى هذه الصيصة بدرج مهدوم بعضه، يقع في واجهتها الغربية وفوق البناء ذي الحرف "ن" وفي نقطة "د" صهريج ماء عظيم تحت الأرض. وفي نقطة (ل) بناء متوسط مستطيل الشكل كان يؤلف الصيصة الأخيرة وهو مستقل عن بقية البرج الكبير. وكان يحتوي على بهو كبير. ويظهر أن هذا البرج الكبير من نفس العهد الذي شيد فيه جدار الجهة الجنوبية الشرقية. لأن أحجارها متشابهة وأحجار الظهارة pare,emt قد مدت على شكل سطح مائل في قاعدة الأبراج. والشكل المستطيل سائد هنا تقريباً في كل المباني. حتى في عدة ثقوب ونوافذ حيث تجد عتبة وحيدة الحجر، قد مدت مكانه عوضاً عن إقامة قوس حاد.

وتحت البرج الكبير تمتد دهاليز معقودة. وفي الجهة الجنوبية الشرقية عدة طرق معقودة تمتد بين هذا البرج الكبير وجدار السور حتى البرج البارز (ك) الذي يؤلف النقطة القصوى للقلعة نحو الشرق. وكان هذا البرج أقوى جميع الأبراج وأمنعها. ولما كان قائماً فوق قمة زاوية حادة، كان لبنائه تضرس عظيم. وطابق الدفاع عبارة عن بهو مثمن الزوايا. والجهات الست التي كانت تشرف على الخارج كانت مثقوبة

بست كوى مع مرام. وفي داخل الجهتين الداخلتين فتحوا بابين كانا يتصلان مع سجوف خط الدفاع المجاورة.

ومن أحد هذين البابين كان ينفذ في نقطة (ش) إلى غرفة طويلة معقودة قد تهدمت بالكلية، ثم في نقطة (م) إلى بهو كبير معقود أيضاً. وكان هذا البهو مؤلفاً من ثلاثة طوق مزدوجة العقود منفصلة عن بعضها بأقواس بارزة. وكانت الأعصاب محمولة على زوافر وأرجل العقود على ركيزتين في الوسط. وهذا البهو لم يبق منه سوى اثنان من جدرانه مع بعض قطع من عقوده يشبه البهو الكبير في قلعة المرقب، وكان له باب سري للخروج له دهليز معقود يهبط في الشرق نحو الوادي.

وعلى الجبهة الشمالية الغربية، حيث المنحدر وقفة عمودية فوق الوادي، اكتفى بناة هذه القلعة بإقامة جدار بسيط على حافة الهضبة أما (ن) فهو بناء في أسفل البرج الكبير يحمي جدار السور بين نقطتي (م) و (ن) وفي نقطة (و) يوجد مخزن معقود وفي نقطة (ب) برج مربع مبني على الصخر، له طابق دفاعي معقود وذو مرام وذروة العقد قد ثقب فيها كوة للتهوية.

وفي الجنوب الغربي حيث الأكمة تؤلف سطحاً أمام السور، قد حميت هذه بخندق عميق محمي بمبانٍ مربعة أو متطاولة. إن في بناء هذه الجدران تبايناً عظيماً، وفيما يلفت النظر خاصة البلوكات العظيمة المنحوتة نحتاً ناتئاً (صورياً) وهي من صنع العرب، ولا يزال قسم من هذا الجدار قائماً. أما البقية فقد تهدمت وتدحرجت نحو الخندق وألفت كومة من الأنقاض تشبه نوعاً ما تلك التي في باحة الهيكل الكبير في الكرنك (مصر). وثمة بناء آخر مؤلف من أحجار بلوكات مصفوفة أيضاً صفاً حسناً لكنها أصغر حجماً من الأولى تشبه التي في الواجهة الجنوبية الشرقية، ولابد أن هذه أيضاً من صنع العرب. وأخيراً مجموعة جدران مؤلفة من أحجار صغيرة قليلة الانتظام سدت بها الثغرات في مختلف الأدوار.

في نقطة (ك) برج خراب في الخارج فوق أرض سماوية. وهو أعرض من شكل السطح، الذي جدران استناده مرممة بأحجار صغيرة يتخللها أحجار من التي ذكرنا ضخامتها البالغة. وفي جدار هذا البرج وعند قاعدته ينفتح في أرض الباحة السماوية دهليز تحت الأرض يهبط بدرج إلى أحضان الجبل. فهو يمتد بادئ بدء نحو الشمال ثم

ينعطف نحو الشرق ويقف بعد ٢٠ ـ ٣٠ متراً. وجدرانه الجانبية مؤلفة من بلوكات منحوتة نحتاً صقيلاً أبعادها تبلغ حتى ٣,٣٥ متراً في الطول و ١,٢٠ في العلو. وهذه الجدران قد طليت بالإسمنت وصفت صفاً غاية في الإتقان. وثمة عقد دائري مائل بقوس حاد القمة تلبس الجدران المذكورة. وفي الطرف الأسفل من البناء حيث المنظر يأخذ منتهى روعته، ثقب محفور في الأرض، قد ملئ بأنقاض، ويظهر أن هذا الثقب كان منفذاً للاتصال مع الخارج. وهذا الدهليز الغريب جداً لابد أنه كان باباً سرياً يفضي إلى جناح الوادي.

وعلى جانب مدخل الدهليز باب مسدود كان ينفتح نحو الساحة السماوية كان يفضي إلى داخل البرج، حوله كتابة عربية، ولعله كان باباً سرياً يفضي إلى الساحة السماوية أو لعله كان باباً ثانوياً للقلعة. وعلى يمين هذا الباب وفي جدار سجف خط الدفاع فتحة من نوع الأبواب الجذاعة فوقها قوس ogime ومدخنة تمر من وسط الجدار حتى أضراس السجف المذكور. في نقطة (ر) بناء مستطيل خراب جداً ليس له منافذ.

والباحة الكبرى داخل السور المؤلفة من تضاريس طبيعية، اجتمعت فيها أنقاض كثير من المباني كالمساكن والمخازن والأفران والاصطبلات.. الخ ففي نقطة (س) يوجد أسس كنيسة صغيرة. ويلحظ فيها بقايا أعمدة ذات قواعد مثمنة، وتحت الكنيسة بهو معقود، وأرض الباحة الملآنة بالأنقاض تحتوي أيضاً على صهاريج وأقبية.

من بانياس إلى جديدة مرجعيون .

من القنيطرة إلى فيق وإلى الحمة (٤٨ كم و ٧١ كم نحو الجنوب والجنوب الغربي) طريق معبدة حتى الفحام ١٤ كم، ثم لحب صالح في الفصول الجافة. إذا خرج من القنيطرة يسلك الطريق المعبد الذاهب إلى نوى ويترك على يساره قريتي عين صرمان وصرمان. ثم يمر من بين قريتين صغيرتين للشركس اسماهما عين زيوان والمومسية، ويلمح على يمينه عين عيشة، وثمة على اليسار آكام مشجرة تختفي

وراءها قريتا بير عجم وبريقة الشركسيتان.. وبعد أن يغادر يلاقي على يمينه عن بعد قليل قرية عيشة التركمانية، ثم في الكم ١٠ جويزة، قرية شركسية أخرى، علوها ٧٠٠، فيها منظر جميل يمتد نحو سهول الزوية وبحيرة طبريا وجبال فلسطين الشمالية. ومن ثم تبدأ الأرض بالانحدار نحو غور طبرية. في الكم ١٤ يترك على اليمين عن بعد ثلاث قرى شركسية هي فزارة والخشنية والفحام، ثم بين الفحام وقرية عربية اسمها عيشة يهجر الطريق المعبدة ويسلك لحباً يتجه نحو الجنوب الغربي، فيمر من شرقي تل كبير شاهق مخروطي اسمه تل الفرس (١٠٠٠ م)، ثم من الغرب ضيعتان اسماهما البطمية والرفيد، ـ وكل الأراضي هنا شديدة الوعورة كثيرة الصخور والحجارة، سوداء اللون، زكية التربة، يبقى كلؤها في أيام الربيع.

في الكم ٢٠ تبدأ حدود قضاء الزوبة. وفيه الجوخدار، تل كبير، فوقه ضيعة خراب، وفي أسفله خان وطاحون قديمة، كلاهما خراب، وأراضي الجوخدار يقطنها ويزرع فيها أعراب فلاحون من بني التيم والدياب والحناضة ما برحوا تحت المضارب ينتسبون لقبائل شتى يبلغ مجموعهم نحو ٥٠٠ أراضي الجوخدار رغم وعورتها وكثرة رجومها وحجارتها تنبت أجود كلأ وأبسقه، تغشاها في فصل الربيع ألوف من قطعان المواشي القادمة من قرى حوران أو العائدة للتجار الذين يجلبونها من بلاد الكرد وفي أراضي الجوخدار رصيف أثري قديم يأتي من الغرب ويتجه نحو حوران في الغرب، وعليه في كل بعد وآخر أحجار أميال وأنقاض مخافر. تتبسط الأرض نوعاً ويجتاز المجاز بقعة مستنقعة يتعذر سلوك السيارات فيها في الشتاء.

في الكم ٣٣ خسفين قرية سكانها ٣٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى علوها ٥٢٠م وفيها مخفر درك ومركز هاتف، وقد كانت في ملتقى الطريقين الرومانيين، القادم عليها من دمشق المار بكفر ناسح وعقربا والحار وعويسة والثاني القادم من نوى. وفي جنوبي هذه القرية وغربيها تمتد مقبرة أثرية واسعة. في الكم ٣٨ ناب، ضيعة، مسلمة هي nab المذكورة في التلمود.

في الكم ٤٣ العال، قرية، سكانها ٨٠٠ مسلمون (علوها ٤٢٠)، في جنوبها الغربي مقبرة أثرية، وفي القرية نفسها كسور أحجار أثرية منقوشة، وكانت (العال)

موقعاً استراتيجياً على الطريق الكبيرة الممتدة من دمشق إلى القدس، وفي سنة ٤٩٩ ـ ٥٠٠ هـ بنى الإفرنج فيها قلعة لم يلبث المسلمون أن جاؤوا واستخلصوها منهم.

في الكم ٤٢ فيق. ـ قرية، سكانها ١٠٠٠ مسلمون، جعلت قاعدة قضاء الزوية منذ سنة ١٣٤٠ ـ إلا أنها لا تزال صغيرة حقيرة ليس فيها من أسباب الإقامة والعيش ما يكفي.. وهي القديمة التي ذكرها (أوزب). ويذكرها مؤلفو العرب كثيراً بأنها محطة ذات شأن على طريق دمشق ـ القدس. ويوجد أمام مسجدها بضعة آثار كبقايا أعمدة وغيرها.

وفي شمالي فيق، على بعد ٣ كم قرية اسكوفية، سكانها ٥٥٠، وفيها منظر على غاية من الروعة يطل على بحيرة طبريا، ومدينة طبريا والقرى التي في ضفتها الغربية، وعلى مزارع البطيحة المشهورة بحصنها الموجود في ضفتها الشرقية.

وفي غربي فيق على بعد نحو ساعتين خربة تدعى قلعة الحصن، يوصل إليها الراكب في لحب سهل، وهذه الخربة فوق جبل منحدر واقف وسط المكان الذي يصب منه وادي فيق في بحيرة طبريا. وإذا نظر الزائر إلى هذا الجبل من الجهة الشمالية ومن شاطىء البحيرة يجده مشابهاً لسنام الجمل مما أوجب تسميته كما قال المؤرخ يوسيفوس، وقد كان هذا المؤرخ، ذكر مدينة في الجولان وجعل موقعها فوق مستوى بحيرة طبريا وفي مقابل مدينة طبريا، ووصفها وصفاً طبوغرافياً حمل البعض على تطبيقه على (قلعة الحصن) هذه ولكن آخرين يرفضون هذا التطبيق ويضعون (كمالا) في قرية جملة التي سيأتي ذكرها، وينسبون (قلعة الحصن) إلى مدينة أخرى كان اسمها هبيوس من المدن العشر. والثاني القادم من نوى والمار بتسيل وعين دكر.

وكان حصن علعال من الحصون المنيعة. قال طغتكين للمقاتلة يومئذ، من أتاني بحجر منه أعطيته خمسة دنانير، فبذلوا أنفسهم وصعدوا إلى الحصن وخربوه وحملوا حجارته إلى طغتكين فوفى لهم ما وعدهم.

قضاء الزوية: يحده من الشمال قضاء القنيطرة ومن الشرق قضاء أزرع ودرعا ومن الجنوب إمارة شرقي الأردن ومن الغرب بحيرة طبريا وفلسطين. قال الهمذاني: إنها (بين دمشق وطبرية ويقال أفيق بالألف. وعقبة فيق لها ذكر في أحاديث الملاحم.

وقال ياقوت إن عقبة فيق ينحدر منها إلى الغور غور الأردن ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها وقد رأيتها مراراً. وذكر في التوراة. إن فيها اختبأ بنهدد من وجه أخاب وسقط سورها على ٢٧ ألفاً من جيشه. حدثت عندها حروب كثيرة بين ملوك إسرائيل وملوك آرام.

وفي شرقي فيق وعلى بعد ٣ كم قرية الباقوصية، يظن أنه وقعت في السهول القريبة منها معركة اليرموك الشهيرة في سنة ١٣ هـ، وإن في الأودية القريبة منها أيضاً وقعت عساكر الروم المنهزمة من سيوف العرب فسميت القرية بمعنى هذا الوقص أو السقوط، قال الخضري في تاريخ الأمم الإسلامية ج ص ٢٨٦ إن قواد الروم (احتجوا ونزلوا منزلاً واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب فنزلوا الواقوصية وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقاً لهم وهو لهيب لا يدرك، ووافقهم الجنود الإسلامية فنزلوا بحذائهم على طريقهم. ثم جرت المعركة فاقتحمت رجالة الروم الخندق فاقتحمه خالد عليهم فعمدوا إلى الواقوصية من ورائهم حتى هوى فيها كثير منهم، وليس أعول على الأماكن الموصوفة في حديث هذه المعركة من أنحاء قرية الواقوصة الحالية، إلا أن الأمر لا يزال محتاجاً للتثبت، فميدان المعركة الحقيقي وكيفية التقاء الجيشين واصطفافهما محتاجان لرجال من ذوي المعرفة في فنون التعبئة والقتال يأتوا إلى هذه الأنحاء ويبحثان ويرسمان خطط هذه المعركة المعدودة من أعظم معارك التاريخ الحاسمة. فمن لنا بهذا العمل من بين مفكري المسلمين وهواة تاريخهم.

يصعد إلى قلعة الحصن متسلقاً العضد التي يربطها بالجبال التي في جنوبها، وذلك من طريق معبدة تعبيداً طبيعياً ممتدة بين وادي فيق ووادي القلعة. وتمتد الخرائب في الطرف الشمالي والعالي من الطريق المذكورة، وهذا الطرف يشبه هضبة غير متساوية، جوانبها مقطوعة قطعاً عمودياً في الشمال والغرب والشرق، ولا يمكن بلوغها إلا من الطريق المذكورة. وكانت محاطة بسور محصن ولا يزال يرى قسم من أساساته واثنان من أبراجه. وثمة أكوام من بقايا الدور والمباني المهدومة ترى ممتدة على الأرض. وثمة أيضاً شارع أساسي ظاهر للعيان يخترق المدينة في كل طولها أي من الشرق إلى الغرب. وفي منتصف هذا الشارع على التقريب يلحظ بناء

جميل، مبني بأحجار البازلت الضخمة مرتبة بعضها على بعض ترتيباً متقناً ولهذا البناء في الجهة الغربية جدار ثخين، وفي الجهة الشرقية برجان بارزان بينهما باحة نصف دائرية، فيها بضعة أدراج نصف دائرية أيضاً. وأمام هذا البناء تمتد ساحة لعلها كانت فيما مضى مبلطة أو مغروسة بأحجار الفسيفساء ومزينة بأعمدة الغرانيت، لاتزال أبدانها ممدة على الأرض تغطي صهريجاً كبيراً، محفور بعضه في الصخر. ويلحظ أيضاً بين الخرائب بقايا كنيسة كبيرة ذات ثلاث حنايا، ونواويس وأنقاض قناطر ماء. هذا وبين فيق وقلعة الحصن يجتاز السائر وادياً يدعى (وادي الملوك) وجدوا فيه نواويس منقورة في الصخر.

أما جملة التي تقدم ذكرها فهي ضيعة سكانها نحو ٣٠٠ تقع على بعد ٢٠ كم إلى شرقي فيق، على ضفة الهوة السحيقة لنهر الرقاد. وفي قرب شلال ماء كبير. وفي جملة خرائب عديدة من العهد الروماني، مما جعلها أكثر انطباعاً على جمالا التي ذكرها يوسيفوس من أن يكون ذلك على قلعة الحصن.

استولى إسكندر جناوس على جمالا ثم جاء يوسيفوس وحصنها، ثم جاء أغريبا الشاب وحاصرها مدة سبعة أشهر دون طائل وحاصرها سباسيان حصاراً شديداً انتهى باستخلاصها وذبح سكانها عن بكرة أبيهم، ومن جمالا يمكن الوصول في ٢,٥ ساعة في السيارة في لحب رديء إلى درعا ماراً بالشجرة .

وبعد فيق، يستمر اللحب الصالح نحو الجنوب الغربي، فيمر في الكم ٥٢ بقرية كفر حارب وهي تشرف على بحرة طبريا من عل، سكانها ٧٠٠ مسلمون وإذا صعد الزائر إلى سطح بيت المختار يتمتع بمنظر غاية في الروعة يمتد نحو بحيرة طبريا وما حولها، وعلى مصب نهر الأردن وعلى جبل طابور وجبال الجليل و. . الخ.

وبعد كفر حارب تنبسط الأرض وتقل الأوعار، وتصل بعد خمسة كم إلى مزرعة حديثة البناء لأحد وجهاء الشركس في القنيطرة وفي قربها شفا المنحدرات المطلة من على قرية سمخ وجسر المجامع وما حولها، وثمة في حضيض هذه المنحدرات نصب تذكاري للطيارين التركيين صادق وفتحي اللذين مرا من هنا في محاولتهما السفر إلى مصر سنة ١٣٣١هـ فهوت بهما الطيارة في مكان النصب وقضيا نحبهما. وثمة هذه المزرعة المذكورة (عقبة فيق) التي طالما ذكرها جغرافيو العرب الهابطة

من هذه الهضاب نحو فلسطين، وبعدها أيضاً بقليل الحدود الفاصلة بين بلاد الشام وفلسطين، وهذه الحدود تتبع الشاطئ الغربي لبحيرة طبريا بحيث يبقى الشاطئ هذا إلى فلسطين، ثم تسير شمالاً إلى ما بعد مزارع البطيحة لتلاقي المنحدرات المحيطة بنهر الشريعة فتسير في شفاها إلى جسر بنات يعقوب ثم إلى قرب بانياس.

وفي الكم ٦٢ يبدأ الانحدار في مدارك وادي اليرموك، وهي تتعرج وتتمعج بشدة وخطر، إلا أن المنظر حولها مرني وخلاب جداً.

في الكم ٧١ الحمة. ـ حمامات حارة كبريتية نافعة، يقصدها في زمن اصفرار الشعير (نيسان) الألوف من ذوي الأمراض الجلدية والعصبية، وقد أحدث فيها أخيراً أماكن وغرف تؤجر للمستحمين، وثمة محطة السكة الحديدية الحجازية القادمة من دمشق إلى حيفا، وثمة أيضاً الحدود بين بلاد الشام وفلسطين (مراجعة مجلة المقتبس ج٥ ص ٨٥ ابحث الحمى).

من القنيطرة إلى درعا. ـ تسلك السيارة أولاً الطريق المعبدة الحديثة الذاهبة من القنيطرة إلى السويداء، المارة بنوى، فتلاقي في الكم ٢٥ عند الشيخ مسكين الطريق القادمة من دمشق إلى درعا .

ـ عودة إلى طريق جسر بنات يعقوب . ـ يخرج هذا الطريق من القنيطرة متجهاً إلى الجنوب، فيترك على يساره قرية عين زيوان الشركية، وهي كبيرة، سكانها ٨٠٠، ثم يجتاز الطريق هضبة وعرة مطردة المناظر فيها بضع تلعات وتلال. كتل أبو الندى ١٢٢٥م وتل أبو الخنازير ١٢٧٣ وتل أبو سيف. في الكم ٧٣ يبدأ الطريق في الانحدار من علو ١٠٠٠ فما دون.

في الكم ٧٥ يلحظ عن بعد بحيرة طبريا تلمع عن بعد بين سلسلتين من الجبال.

في الكم ٧٧ على اليمين كفر نفاخ، قرية سكانها عرب وتركمان ثم قرية عليقة.

في الكم ٨٧ يشرف على سهل الغور المحاط من الغرب بجبال الجليل الشاهقة، وفي قمتها صفد البيضاء، ويشرف على اليمين في الشمال أطراف بحيرة الحولة وسفوح جبل الشيخ.

وقد ذكر ياقوت (دير فيق) أنه في ظهر عقبة فيق وهي عقبة تنحدر إلى الغور من أرض الأردن ومن أعلاها تبين طبرية وبحيرتها، وهذا الدير فيما بين العقبة وبين

البحيرة في لحف الجبل يتصل بالعقبة منقور في الحجر، وكان عامراً بمن فيه من الرهبان ومن يطرقه من السيار. والنصارى يعظمونه.

ويستمر الطريق في الهبوط نحو الوادي - إلى الكم ٨٩ يظهر مجرى وادي اليرموك وحوله غيض الحور.

في الكم ٩١ مخفر الحدود السورية في بناء شيد في جانب خان أثري خراب. وعلى مقربة منه بنت السلطة الإنكليزية الفلسطينية مباني حديثة من الإسمنت لإقامة موظفي وجنود حدودها، وستبني السلطة الإفرنسية مباني حديثة تشبهها في شفا المنحدرات الشرقية.

في الكم ٩٢ جسر بنات يعقوب الحديث وكان في شمال الجسر على بعد ٥٠ متراً الجسر القديم المهدوم منذ بضع سنوات، الذي بناه الملك حوبرقوق في أواخر القرن الثامن، وقد هدموه وقتئذ لتوسيع مجرى نهر الشريعة وإخلاء مياه بحيرة الحولة ليمكن تجفيفها.

وبعد اجتياز الجسر يصعد الطريق إلى مستعمرة مشمارهيرون الصهيونية، ثم ينحرف بعدها نحو الجنوب ماراً بمستعمرة الجاعونة وقرية المجدل إلى طبريا في الكم ١١٩.

من حاصبيا إلى جديدة مرجعيون (١٣ كم إلى الجنوب الغربي)

يخرج الطريق من حاصبيا نازلاً نحو الغرب في حضن رابية فيها منعرجات عديدة، ثم يقطع نهر الحاصباني فوق جسر، وهذا النهر يتألف في شمالي هذا الجسر على بعد كيلو مترين وعلى بعد بضعة أمتار من التقاء جداول وادي التيم ونبع الحاصباني.

في الكم ٣,٥ يترك على اليمين لحباً صالحاً للسيارات الخفيفة في الفصول الجيدة يذهب نحو رأس نبع الحاصباني ثم راشيا وقد صار معبداً أحسن تعبيد، ويلاقي بعد ١٨ كم في راشيا طريق مجدل عنجر .

في الكم ٤ معدن الحمر - وفيه آبار المعدن الذي يعرف في الاصطلاح الفني باليتوم وهو مخلوط بالعكس، يستخرج من سراديب وأقبية تحت الأرض تغور في أحشاء الجبل، ثم يغسل ويجزأ، وقد كان هذا المعدن من أملاك السلطان عبد الحميد الخاصة يستثمره لنفسه، وظهرت منه فوائد لأهل هذه الديار إلى أن قلت الأيدي التي كانت تعمل فيه منذ أن كثرت الهجرة إلى أميركا وغيرها بعد العقد الثاني من القرن الهجري الحالي فأهمل كما أهمل من قبل معدن سحمر في البقاع. وهذا المعدن يستعمل كل سنة في أواخر آذار بعد عمل معجون حار من مسحوقه مع عكر زيت الزيتون وتداوى به أغصان الكروم المقلمة لاتقاء دودة براعم الكروم، وهذه الدودة تكثر في كروم الغوطة وبعض قرى وادي العجم ووادي التيم.

وعلى اليسار يلمح قرى سنديانة وقادرية ورزانية وقنابية وأحمدية وغيرها من القرى الآهلة بالتركمان المحتفظين حتى الآن بلهجتهم التركية القديمة، وفي الكم ٨٠ على اليمين قرية العليقة، وعلى بعد منها قرية دير سراس ثم في الكم ٨٣ على اليسار قرية نعران التركمانية، ولا يزال الطريق آخذاً بالهبوط ومائلاً نحو الجنوب الغربي.

وثمة على اليمين وعن بعد ضيعة دريجات جرت فيها معركة بين الترك والألمان والإنكليز سنة ١٩١٨.

في الكم ٥ على اليمين فوق الطريق وفي ركن الجبل كوكبا قرية مارونية، سكانها ٤٠٠، وفيها كروم زيتون وتين، هوجمت في ثورة ١٩٢٥ بشدة لتعنت أهلها، فأضروا أنفسهم.

في الكم ٦، يبلغ الطريق بطن وادي أغن مليء بأشجار الحور. وهنا يترك على اليسار مجازاً صالحاً للسيارات الخفيفة يفضي إلى راشيا الفخار، وهي قرية تبعد نحو ٤٠ دقيقة. وعلى يسار هذا المجاز قبل راشيا المذكورة وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات عن هذا المجاز قرية الهبارية التي فيها هيكل روماني أكثر أهلها روم، يشتغلون بصناعة الفخار.

وعلى اليسار يلحظ سوق الخان، وهو خان عربي، يوشك أن يتداعى، يقام حوله سوق عام حافل جداً يوم الثلاثاء من كل أسبوع. في الكم ٩ يطل الطريق على واد

سحيق فيه نهر الحاصباني ويهبط نحوه، وثمة على اليسار واد فرعي فيه نهر شبعا الذي يلتقي بنهر الحاصباني عند سيلانه في الشتاء، لأنه يجف في الصيف.

في الكم ١١ يلحظ عن بعد على اليسار قرية إبل السقي، يوصل إليها بلحب خاص. في الكم ١٣ مفرق طرق بانياس ثم يصل إلى مرجعيون.

جديدة مرجعيون، بليدة، سكانها ٢٥٠٠ علوها ٧٨٠، أكثرهم روم أرثوذكس وأصلهم من أذرع حوران قدموها منذ قرنين مركز قضاء، مركز مطرانية للروم الأرثوذكس، وأخرى للروم الكاثوليك، ومحكمة بدائية. وفيها فندق ومطعم.

ومرجعيون بليدة حديثة البناء بدليل اسمها، ليس فيها ما يلفت نظر رواد الآثار، إلا أنها قاعدة سهل أو مرج يدعى مرج العيون، يؤلف مبدأ الانخفاض الذي يحدثه مجرى نهر الأردن ويمتد حتى بحيرة الحولة، وبحيرة طبريا، وبحيرة لوط.

ويقال له قفر اليهودية، نوع من القفر. وهو جوهر أسود لامع جاف سريع التفتت وكان المصريون يستعملونه لتحنيط الموتى وكذلك العرب، ومنه اسمه عندهم صمغ الجنائز. وله منافع طبية عديدة، ومنها استعمال مسحوقه في كروم العنب المصابة بدودة براعم الكروم في الغوطة ودوما وبعض قرى وادي العجم ووادي التيم وذلك بعد مزجه بعكر زيت الزيتون.

بنى هذا الخان الأمير أبو بكر الشهابي، بناه لجمع الصدقات من المحسنين (المقتطف ج ١٠ السنة ٥ آذار/١٨٨١.

وهذه التسمية نشأت في الغالب للعيون الكثيرة التي تنبع من أرض الجديدة خصوصاً، وتؤلف جداول عديدة تحيط بها الغياض والبساتين أو تروي الحقول، وهي عجيبة تكاد لا تخلو قطعة أرض من عين تنبض فيها، مع أن الجديدة على سطح مستو في رأس تل يسمى تل نامو لاتصال بينها وبين القمم العالية حيث تبقى الثلوج أشهراً كما هو الحال في قمم حرمون وصنين. ويحد قضاء مرجعيون من الشرق جبل الشيخ وقراه، ومن الجنوب بلاد بشارة وبحيرة الحولة ومن الغرب قرى بلاد الشقيف والسجن ومن الشمال جبل الريحان وتومات نيحة أو شقيف تيرون.

ومرج عيون كانت مملكة من ممالك إسرائيل تحيط بها حدود رجوب وقادش وخاصور وأفيق، واختلفت الأحوال عليه في الحكومات الإسلامية فكان من عمل

صفد وسماه أبو الفداء معودة العيون. وفي الشمال الأقصى من السهل المحيط بالجديدة يلحظ جبل اسمه تل دبين فيه خرائب، طبق اسمها على إبيون أو عيون، وهي مدينة كانت تخص سبط نفتالي وتقع في شمالي فلسطين. استولى عليها قواد الملك بنهدد الآرامي الذي استنجد به كازاملك إليهودية ضد الملك اسرائيل بعسا، ثم استولى عليها تغلات بيلاصر الآشوري. ولعل الاسم الحالي نشأ من تبدل كلمة إبيون بعيون.

ومنحدرات أكمة تل دبين تستند على جدران استناد ذات ضخامة بالغة، بنيت بأحجار مأخوذة من مبانٍ ومساكن متهدمة. وثمة نبعان ينبجسان من حضيض الأكمة، يدعى الأول عين تل دبين والثاني عين الحمام. وكانت مياه الثاني تجمع في حوض لا تزال آثاره ظاهرة.

وعلى بعد قريب عند منعرج الوادي قرية إبل السقى تميزاً لها عن إبل القمح من أعمال مرجعيون أيضاً. وفي منتصف الوادي على نفس السطح الذي أقامت عليه قرية إبل قرية الخيام. والجديدة والسقي والخيام ثلاث بلدات كأنها بلد واحد ذو ثلاثة أحياء لا تقل نفوسها عن ١٢٠٠٠ نسمة.

ومرجعيون من أجمل البقاع منظراً وبهجة، لو أكثروا فيه من زرع الأشجار المثمرة لفاق غوطة دمشق وأشبه سهول فرنسا وجبالها، خصوصاً وأكثر دور الجديدة وإبل والخيام مبنية على الطراز الحديث بالحجر والقرميد وتحيط بكل دار حديقة. ويكثر فيها الندى لوفرة الغيوم التي لا تنقشع عن سمائها صيفاً، وسكانها مجتهدون وفيهم طباع العرب، ولهم في المهجر جالية وفيرة. وفيها ثلاث كنائس للأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت، وجامع ومدارس عديدة. وقضاء مرجعيون صار غريب الشكل بعد إلحاق حاصبيا به، يحده من الشمال أقضية جزين وزحلة وراشيا، ومن الشرق قضاء وادي العجم والقنيطرة ومن الجنوب فلسطين وقضاء صور.

ويتبع قضاء مرجعيون كثير من قرى جبل عامل، وعدد قرى قضائها ٥٤ قرية، منها ما هو ذو شأن كبير بتاريخه وكثرة سكانه كبنت جبيل وهونين ودير ميماس وميس، ولا تقل نفوس القضاء عن ٦٠٠٠٠ وربما كان المهاجرون منهم نحو

خمسهم وكثير منهم وفقوا في المهجر وأثروا، ولاسيما سكان الجديدة ممن لا تجد بينهم أمياً من الذكور والإناث، وبينهم من تثقفوا ثقافة عالية، ولا تشبهها في هذا المعنى في بلاد الشام إلا الناصرة، لأن تنافس الطوائف النصرانية منذ نصف قرن على تأييد نفوذها ودعوتها دعا كلاً منها إلى فتح المدارس وتعميم التعليم فنجح الجميع في هذا المضار، ولم يقصر فيه إلا المسلمون.

الطريق من شتورا إلى مرجعيون (سهل البقاع) (٧١ كم)

يترك القادم من بيروت في شتورا طريق بيروت ـ دمشق على يساره ويسلك طريقاً على اليمين متجهاً نحو الجنوب في سفح أكمة، ذات غياض ورياض، سكانها ٢٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى، ذات دور عصرية متراكبة في سفح أكمة، في ذروتها خرائب قلعة صغيرة ظلت عامرة يعتصم بها بعض الإقطاعيين إلى أن هدمت في حدود سنة ١١٨٨ هـ. وفي أعلى القرية وفي خارجها بناء تذكاري لموتى جنود الحملة الإفرنسية في سنة ١٢٧٧/١٨٦٠.

في الكم ٧,٥ على اليسار حوش مزرعة، ويستمر الطريق سائراً في لحف جبل الباروك المزدان بالأنجم والأشجار الخضراء ويترك على يساره سهل البقاع الخصب النضر في الكم ١١,٥ مستنقع وسط غيضة أو غابة.

في الكم ١٤,٥ وادٍ عميق، وفيها نبعان جميلان، وعلى اليمين يترك لحباً يصعد نحو القرية، وعلى اليسار مبانٍ زراعية عصرية محاطة بالأشجار من أملاك أحد آل سرسق ـ في الكم ١٦ على اليمين ضيعة اسمها دير طحنيش ـ في الكم ١٧ بعد قرية حانا ينحرف الطريق نحو اليسار فتصبح الأرض بعد ذلك تدريجياً جبلية فيضيق السهل وتختفي التربة الزراعية.

في الكم ٢١ كفرية، وهي قرية على اليمين في ركن الجبل ـ يترك على اليسار لحباً صالحاً للسيارات يلاقي في الكم ١٣ ثنية الفالوج طريق مجدل عنجر راشيا المار بجب جنين التي تلمح على اليسار.

في الكم ٢٣ على اليمين قرية الحبس، وفيها شجرة جميلة منفردة تحتها قبة ولي، وعلى اليسار كروم توت.

في الكم ٢٦ على يسار الطريق وفي أسفله عين زبدة، نبع جميل ذو قناة وسط بقعة شجراء خضراء، حولها عدة مقاهٍ، يقصدها رواد الاصطياف والنزهة. وعلى يمين الطريق قرية اسمها من اسم النبع المذكور مبنية فوق أكمة صخور وفيها أثران على أحدهما صورة آلهة على زي المعبودات اليونانية، وعلى الثاني صورة ثور على ظهره أسد وعلى جانبيه عجلتان. في الكم ٢٨ بعد أن يدور حول كروم توت واسعة. يصير الطريق منقوراً في الصخر ويشرف من علو شاهق على وادي الليطاني، وهنا منظر رائع على الوادي المذكور وعلى سهل البقاع - في الكم ٨٩ صغبين، قرية كبيرة، سكانها ٢٠٠٠، دورها ذات أقواس، وهي قاعدة ناحية.

في الكم ٣١ على اليسار بيت منفرد، ومنه يهبط الطريق. يترك على اليمين لحباً (غير كامل بعد مشغرة) يوصل (في الكم ٢٧) إلى جزين ماراً بمشغرة، وفي هذا اللحب يلحظ قرية (دير عين الجوزة).

ثم يؤخذ على اليمين لحب صالح للسيارات رديء جداً ويحتاج للحيطة، يهبط إلى بطن وادي الليطاني، ومنه يسلك مضيق الليطاني المشهور. في الكم ٣٤ يعبر الليطاني فوق جسر ذي ثلاث قناطر.

في الكم ٣٦ على اليسار لحب يفضي إلى قرية القرعون. وفي طرف هذا اللحب إلى يمينه جسر قديم خراب جسر القرعون - على اليمين فوق ركح الجبل يلحظ عتينيت (على طريق جزين).

في الكم ٣٧ على اليمين وفي قعر وادي وبين الأشجار الخضراء يلحظ قرية مشغرة في سفح أكتي تومات منيحا ثم أن اللحب يدور نحو اليسار ليعبر في الكم ٣٩ جسراً رديئاً فوق وادٍ جاف في الغالب. ثم يصعد بعده في منعرجات ويجتاز بقعة وعرية جرداء.

في الكم ٤٠ يترك على اليسار لحباً صالحاً. يفضي في الكم ٨ إلى لحب حاصبيا راشيا، وهذا اللحب يتبع وادياً سحيقاً محصوراً بالروافد الشرقية لليطاني،

ثم يمر في الكم ٢ من شمال قرية كفر مشكة ليلحق لحب حاصبيا ـ راشيا في شرقي القرية المذكورة.

في الكم ٤١ يسلك اللحب سبيلاً بين الصخور. على اليمين قرية سحمر وفيها نواويس وفي أسفلها جسر على الليطاني، وهو جسر بسيط من الخشب استفيد في وضعه من ضيق طبيعي لمجرى الليطاني.

في الكم ٤٣ على اليمين ينفذ الليطاني في مضائقه السحيقة الموحشة التي لا بد له من اجتيازها قبل الوصول إلى البحر.

أما اللحب فينحرف نحو اليسار ويصعد.

في الكم ٤٦ على اليمين وفوق مهماز قامت قرية يحمور الغريبة الشكل، وفيها منظر جميل. (من هذه القرية التي تشرف على مضيق الليطاني يمكن الهبوط خلال ٤٠ دقيقة إلى جسر (الكوة)، وهو جسر طبيعي غريب راكب فوق النهر ومؤلف من صخور سقطت من الجبل بفعل هيلان، ثم أوقفتها المصادفات خلال سقوطها فكونت بنفسها هذا الجسر. وعرض هذا الجسر ٣ أمتار، وفتحته ٧ وعلوه فوق مستوى الماء ٣٢ متراً. ومنحدرات المضيق ترتفع فوق الجسر وتؤلف جدراناً عمودية هائلة علوها نحو ١٦٠ متراً. وهذا المضيق ملآن بأنجم وأشجار ملتفة تحجب قسماً من النهر الذي يحدث هنا سقوطاً واندفاعاً رائعين جداً. أما الوصول إلى مستوى الماء تحت الجسر فهو متعذر جداً. إلا أنه يمكن إذا تسلق صخور الضفة الغربية أن يبلغ فجاة واسعة، لا يزيد عرض مجرى الماء تحتها أكثر من ٤ ـ ٥ أمتار.

ذكر أبو الفداء اسم بحيرة عميق وقال إنها مستنقعات وأقصاب وقش يعمل منها الحصر وسط البقاع البعلبكي بين كرك نوح وعين الجر. وكان الأمير سيف الدين تنكيز في النصف الأول من القرن الثامن الهجري لما تولى نيابة الشام اشترى هذا الغاب من بيت المال وعمل فيه مجاري للمياه تنفذ إلى الليطاني فنضبت المياه وعمر فيه نحو عشرين قرية، ولما صادره الملك الناصر وأخذ قراه وأقطعها إلى غيره عطلت الأقنية فعاد الغاب مستنقعاً سباخاً لا يصلح إلا لإنبات القصب والقش. ويقال إن الأمير فخر الدين المعني والأمير بشير الشهابي حاولا تجفيفه فلم ينجحا، وظلت هذه الأنحاء بؤرة الحميات إلى أن أخذه نجيب يوسف سرسق أحد أثرياء بريت في أوائل

هذا القرن الهجري وأنفق عليه أكثر من مئة ألف دينار وبنى المزرعة المذكورة وغرس أشجاراً من أنواع الصنوبر، والشوح والشنبوب وغيرها باسقة زاهية، فوق هذه الأنحاء وصارت عميق قرية خصبة قل ما بقي سباخاً من أرضها.

من قرية دير عين الجوزة إلى جزين ٢٦كم، في الكم ١ دير عين الجوزة للرهبنة المخلصية. - في الكم ٨ مشغرة، وهي قرية كبيرة حسنة تعد أفضل منتزه في هذه الرباع في واد في غاية الحسن بالأشجار والأنهار، قامت في سفح الشرقي من لبنان، سكانها ٢٠٠٠ نصفهم شيعة ونصفهم كاثوليك، وهي ذات مياه غزيرة وكروم وبساتين، ونحو ثلاثين دباغة يصدر الجلد منها لأكثر أنحاء الشام، ومن محصولاتها الحرير والعنب والدبس الفاخر والعرق، وموقعها جميل مشرف على وادٍ أغن، وفي مشغرة كهوف مقبرية، وفيها آثار دير صالح ووادي الحمام وقلعة عمارة، ومن مشغرة يهبط الطريق نحو وادي الليطاني مشرفاً عليه من جبل، فيصل بعد ٤ كم شمالاً إلى عتينيت، قرية جميلة للغاية، همسة الهواء والماء تشرف على البقاع وجبل الشيخ وفي أسفلها بساتين، في أحدها نبع ماء طيب يدعى عين الزعرور، يقصد للنزهة. وفيها الحرير والعنب والزبيب الجيد. وفي جانبها أكمة تدعى (عريض الرأس) فيها بعض الآثار، واسم عتينيت يدل أنها كانت معبداً لبعل تانيت أي عشتروت. وبعد عتينيت بـ ٥,٥ كم قرية بماريا، وعلى بعد ساعة ونصف من مشغرة تومات نيحا، وهي قمم عالية تعلو نحو ١٩٠٠ متر يقصدها السياح.

وقد كانت في العصور المتوسطة ممر القوافل الآتية من صيدا إلى دمشق، لما كانت صيدا مرفأ دمشق الأصلي.

وثمة صخرة ساقطة وسط المسيل لم تترك للماء سوى ممر عرضه متر وهي تؤلف جسراً طبيعياً آخر. أما الهبوط نحوها فصعب، لوجود حصى تزلق الأقدام. والصعود منها يحتاج لما لا يقل عن ساعة وربع.

في الكم ٤٩ يلحظ من الأفق البعيد، فوق أكمة رفيعة، قلعة الشقيف أو حصن بوفور. على اليمين مناظر رائعة خلابة تمتد فوق مضائق الليطاني، على اليمين، يلحظ كذلك غابة صغيرة من السنديان وثمة نواويس منقورة في الصخر. وفي قرب

الغابـة عـين شـديدة الفـوران ومغـارة غريبـة للغايـة مؤلفـة مـن غـرفتين الواحـدة فـوق الأخرى، الوصول إليها صعب جداً.

في الكم ٥٠ على اليمين ضيعة زلايا مبنية على طبقات في سفح واد ثانوي. في الكم ٥٣ على اليمين أيضاً قرية القليعة.

ومن ثم ينفذ الليطاني في مضيق أكثر ضيقاً مما قبل. وبعد مسافة قليلة في قرية برغوز يكون عليه جسر، وفي بلاط يسيل الليطاني في قعر واد جد سحيق عمقه نحو ٦٠٠ متر وعرضه في بعض الأماكن لا يزيد عن متر أو مترين.

يلحظ هنا جديدة مرجعيون فوق أكمة كظهر الحمار. في الكم ٥٨ يصعد اللحب وينحرف نحو اليسار. في الكم ٥٩ يجتاز اللحب ثنية، على اليمين يلحظ كروم الزيتون الخاصة ببرغوز، وبضعة بيوت لهذه الضيعة جاثمة على أطراف الصخور.

في الكم ٦٢ يوصل إلى الطرف الأقصى الشمالي من أكمة جديدة مرجعيون فيدور عن يمينها - في الكم ٦٣ ينفذ داخل واد محصور بين تلعتين، على اليمين منظر يمتد نحو الليطاني الذي يحدان ضفتيه في كل امتدادهما أشجار الحور.

في الكم ٦٨ يترك على اليمين الطريق الآخذ إلى حاصبيا وإزاءه طريق بانياس، ثم يدور نحو اليمين ويسلك طريق نبطية - صيدا، وهذا الطريق ينحرف نحو اليمين ويصعد في منعرجات عدة إلى جديدة مرجعيون. وفيها مغارة ذات طبقتين كان يحاصر فيها المحاربون ولاسيما المعنيون، وبعدها قرية السيا.

وهذا النهر ينبع قرب بعلبك من نبع يعرف بالعليق ثم يجري بالقرب من قرية دير الأحمر، وهناك تنقسم مياهه فمنها ما يجري لينتهي إلى نهر العاصي ومنها ما يجري إلى نهر الليطاني. ويتكون هذا من عشرة روافد أهمها نهر البردوني الذي ينبع من سفح جبل صنين في الجهة الغربية ثم نهر الغزير الذي يتكون من عدة ينابيع تخرج من الجبل الشرقي وأخصها نبع عين الجر، ثم يجري الليطاني في مضيق وعر كثير الصخور بعيد الغور ويتقرب في مجراه بين الجبال من نهر الأردن الأعلى على مسافة ٨,٥ كم، ثم يتجه قرب عجوز نحو الغرب على خط مستقيم إلى أن يصل في البحر المتوسط في نقطة تبعد ٩ كم إلى الشمال من مدينة صور. يبلغ طول الليطاني ١٤٠

كم وتفريغه كان يتراوح بين ٩,٣٢ من المتر المكعب في الثانية أيار ٩٢٢ و ٣,٨١ م٣ في الثانية أيلول ٩٢٢ وتفريغ النهر وانحداره يجعله مصدراً لتوليد قوة كهربائية قدروها بـ ١٠٠٠٠ حصان، لا تزال مهملة، أما الانتفاع به للري فواقع إلى درجة ما .

قضاء الهرمل يحده من الشمال قضاء حمص ومن الشرق قضاء النبك ومن الجنوب قضاء بعلبك ومن الغرب قضاء طرابلس وزغرتا.

من مرجعيون إلى طبريا

يتبع بعد مرجعيون مدة من الزمن طريق نبطية - صيدا إلى أن يصل إلى ثنية تفصل مرجعيون عن وادي الليطاني ففي الكم ٧٤ يترك الطريق المذكور ويأخذ في يساره طريقاً صالحاً للسيارات ينفذ بعد نحو مئة متر من انفصاله - في قلعة القليعة. وهي قرية مارونية، قاومت الثوار في أحداث سنة ١٩٢٥.

ثم يتبع الطريق عرفة الجبل. يلحظ على اليمين مضيق الليطاني وفي ذروة الجبل المناوح له حصن الشقيف.

في الكم ٧٦ يهبط الطريق، في الكم ٧٧ يلحظ على اليمين قرية كبيرة، دير ميماس، في الكم ٧٩ يجتاز قرية صغيرة (الخربة) سكانها نصارى وشيعة، ويبلغ نقطة خفر الحدود اللبنانية وفيها تفحص جوازات المرور بين لبنان وفلسطين.

يترك على اليمين طريقاً يتجه نحو الجنوب الغربي، ويمر - في الكم ٢ من قرية كفير كلي وهي كبيرة أهلها شيعة، في الكم ٥,٥ مدينة التحتا قرية شيعية تشرف عليها خرائب حصن صغير من العصور المتوسطة مستطيل الشكل اسمه عديسة الفوقا، وفي الكم ٩ الطيبة. قرية شيعية، فيها مسجد مبني بالحجارة جميلة النحت مأخوذة من أماكن أثرية، وفي أسفل القرية نبع، والهمة منصرفة لإيصال الطريق من هذه القرية إلى تبنين ماراً بالقنطرة.

بعد الخربة يأخذ نحو اليسار طريقاً يجتاز السهل ويصل في الكم ٢٨ إلى المطلة وهي مستعمرة على الحدود الفلسطينية. ومنها يذهب إلى طبريا (٣٩/٢/٢٧).

(وتزعم الروايات أن الكلب كان لما ينبح بشدة يبلغ صوته إلى بعد ميلين من ذلك المكان) ثم يصل إلى سطح مستوٍ من الصخر يشبه المصطبة. ومن بعده بنحو خمسين متراً وبينما يرى السكة الرومانية تستمر في سيرها الأفقي يصادف مجازاً فيه أحجار يتسلق بسرعة إلى اليسار ونحو الجنوب ويمثل ما يظن أنه الطريق المصرية والآشورية. وفوق هذا المجاز إلى الشرق تمتد عمرات صخرية مباغتة في أسفل جدار عمودي يتجه من الشمال إلى الجنوب. وفي هذا الجدار قد نقشت اعتباراً من الشمال: رقم ١٣ نصب آشوري يمثل ملك آشور وهو يتعبد، رقم ١٤ في لصق النصب مائدة مستطيلة تظهر الفرعون رعمسيس الثاني (١٢٩٢ ـ ١٢٢٥ ق.م) وهو يضحي بأسير أمام الإله هارفحيس، رقم ١٥ فوق المائدة بأقل من ٢٠ متراً صورة أخرى لملك آشور لا تزال سالمة نوعاً ما.

وإذا استمر يتسلق سند الجبل على العدوة الصخرية يبلغ بعد ٤٠ دقيقة إلى منتهى المسلك فيجد فيه لوحتين من أجمل اللوحات، الواحدة في جانب الأخرى. رقم ١٦، نصب لا يزال سالماً مستطيل الشكل يصور مرعميس الثاني يشير بتضحية أمام آمون أكبر الآلهة المصريين في طيبة، ثم رقم ١٧ نقش بارز آشوري فيه نصب جميل لأسر حدون. وفوقه كتابة بالخط المسماري تذكر حملات هذا الملك على مصر سنة ٦٧١ ق.م.

هذا ويمكن أن يصعد ثانية إلى وادي نهر الكلب على عدوته اليسرى في درب صالح بعضه للسيارات، ثم يسلك مجازاً يوصله بعد إلى النبع الأصلي لهذا النهر. وبعد أن يجاوز الجسر العربي القديم، ثم يجاوز طاحوناً وهو في آخر الدرب الصالح يبلغ بعد ١,٢٠ كم إلى مكان ينفسح فيه الوادي انفساحاً غرست فيه الأشجار المثمرة المختلفة. ثم يضيق الوادي فينقلب موحشاً. وثمة على الضفة اليمنى يلحظ المعمل الكهربائي الذي ينير بلدة جونية، ثم القناة المشتقة من نهر الكلب الآخذة بمائه إلى ضبية إلى معمل تصفية ماء شرب بيروت في ضبية، وعلى العدوة اليسرى وعلى بعد ٣,٥ كم وفوق قليل من الارتفاع دير مار عبدا للموارنة يشرف على قديم جعيتا قرية صغيرة قرب عجلون من قضاء كسروان واقعة على جبل يخرج منه نبع غزير من مغارة واقعة في حضيض بجانب مجرى نهر الكلب تعرف بمغارة جعيتا

نسبة إلى القرية المذكورة، وأهالي القرية نحو ٣٠٠ نفس، وأما المغارة المنسوبة إليها فهي مغارة كبيرة صخرها كلسي يرى على جدرانها وسقفها تكونات كثيرة كلسية ويدخل إليها من مدخل ضيق بجانبها إلى جهة الجنوب الشرقي يؤدي إلى مغارة أولى منخفضة السقف تتخذ حظيرة للماعز، ثم يدخل فيها إلى المغارة الكبرى التي يجري فيها ماء النبع المذكور، آتياً إليها من مسافة شاسعة إلى الجهة الشرقية من المغارة، وهي مظلمة جداً لا تسلك إلا بالمصابيح، وقد تتبع جماعة ذلك النبع إلى مسافة بعيدة فتعذر عليهم الوصول إلى آخره بشلال ساقط من مكان مرتفع. وهذا النبع هو أكبر الينابيع التي يتكون منها نهر الكلب، وماؤه هو الذي يصل إلى بيروت في أيام الصيف، لأن النبعين الآخرين للنهر المذكور وهما نبع اللبن ونبع العسل يقل ماؤهما في الصيف فلا يزيد إلا قليلاً عن حاجة الأهلين لسقي الأراضي (دائرة المعارف ج٦).

وعلى بعد نحو ٦ كم من مصب النهر يبلغ المغاور التي ينفجر منها نبع غزير جداً، يدفع لوحده في فصل الصيف بمياه نهر الكلب. وهو مبدأ نهر حقيقي. وقد زار كثير من الرواد وأرباب الولع هذه المغاور في الأعوام الأخيرة، وركبوا فيها زوارق ومشوا كيلو مترات عديدة، وشهدوا بأنها لا تقل روعة عن أجمل أمثالها من مغاور أوروبا.

عودة - في الكم ١٧,٥ على اليمين، الطريق الآخذ إلى قرية غيطورا فريفون ففيترون في الكم ١٩,٥ تعوج الطريق تعويجاً قاسياً إلى اليمين ويهبط في منعرجات عديدة تاركاً على يساره قبيل الدخول إلى جونية طريقاً صغيراً يحاذي الساحل ويمر من آكام دير حربا للروم الملكيين، وأجل بناء كنسي في هذا الدير مشيد فوق أسس هيكل أثري. وتحت هذا الدير وعلى ضفة البحر درك يهبط إلى كهف قديم منقور في الصخر حتى البحر ينسب جداره الشمالي إلى المار جرجس ويعزى إليه شفاء الأطفال. أما حربا فقرية كبيرة.

في الكم ٢٠ جوينة، بليدة، سكانها ٥٠٠٠ وهي شمال الميناء القديمة والميناء الجديدة تلتفها بساتين الخضروات والأشجار المثمرة. وفيها مدرسة للفرير وكنيسة غريبة وبناء تذكاري مقبري على شفا سطحها الأعلى، والبناء عربي قديم متخذ

اصطبلاً. وهذه البليدة تنتظم دورها فأكثرها حديث جميل على جلول (طبقات) قائمة فوق الأعضاد الأخيرة لجبل لبنان. ومرفؤها ينفتح على ساحل جد جميل شكله كقوس الدائرة. والروابي المخضرة بأشجار الحراج التي تحيط بجونيه قد أشرفت عليها تمثال عذراء لبنان المنتصبة فوق قاعدة مخروطية .

ثم يترك على اليمين طريقاً يصعد إلى بكركي مقر بطريرك الموارنة ثم إلى تمثال عذراء لبنان، ثم يخرج طريق طرابلس من بين دور جونيه المصطفة على جانبيه، ثم يحاذي الساحل الذي في منتهاه الشمالي يقوم جدار صخري.

في الكم ٢٣ المعاملتين قرية صغيرة واقعة على رأس خليج جونيه فيها منتهى السكة الحديدية الآتية من بيروت.

من المعاملتين إلى غريز وغنية، ٩ و ٢٣ كم، طريق يمتد حتى باشوش في الكم ٣٥ ينفصل هذا الطريق عن يمين طريق طرابلس، فيصل في الكم ٩ إلى غريز، علوها ٤٦٠. وهي قرية كبيرة مارونية، سكانها ٢٥٠٠ مبنية على جانب الجبل. على خليج جونية وعلى بيروت. وفي الغرب والجنوب الغربي تظهر قرى لبنان الجميلة على المرتفعات المتوالية والأديرة البارزة فوق قمم تلك المرتفعات. وهي مبنية على منحدر أكمة بسيطة وبيوتها منضدة بعضها فوق بعض على شكل نصف دائرة بحيث يرى الناظر منها مشاهد جد رائعة.

وغريز قاعدة كسروان وكانت دار ولاية الأمراء آل عساف وسيفا وشهاب. ولا تزال لهؤلاء الأمراء قبة مدافن فيها. ومن أبنيتها التي يستوقف النظر بقدمها دير الكوشيين وقد كان داراً للأمراء من آل عساف وسيفا وشهاب المسلمين سكنوها مئات السنين وموقعه من أجمل مواقع غريز وأبهجها. بناه سنة ٨٩٠ هـ /١٥٧٢م الأمير منصور عساف بعد أن ولته الدولة على الأنحاء الممتدة من نهر الكلب إلى حماه. وبنى أيضاً جامعاً فسيحاً له مئذنة شاهقة. لأن غريز كان كل سكانها من المسلمين كما يشهد بذلك بقاء اسم الحي الذي كانوا يقطنونه وقد جلوا عنها لما جلا عنها آل سيفا ١١٢٣/١٧١١ بسبب حرقها من قبل محمد باشا أبو هرموش. وغريز مسقط رأس الأمير بشير الشهابي الكبير سنة ١٧٦٧ ومن بنايات غريز دير اليسوعيين.

جونيه ٢٠٠٠ نسمة يقصدها أهالي الصرود العالية في فصل الشتاء هرباً من

البرد وجونية قاعدة قضاء كسروان الشتوي وفيها دار حكومة، وفيها تجارة ذات شأن للحبوب وغيرها. ويستخرج من مينائها كثير من السمك وهي لم تكن حول سنة ١٨٨٢ حسبما ذكرته دائرة المعارف سوى موضع به مخازن ودكاكين تأتيه السفن والقوارب بالغلال وغيرها، ولم يكن إذ ذاك فيها (بيوت للسكن بل إنما هي محل أشغال يقوم بها قوم من سكان القرى المجاورة)، كصربا وغادير وحارة صخر.

قضاء كسروان بحيرة من الغرب البحر المتوسط ومن الشمال قضاء البترون ومن الشرق قضاء بعلبك ومن الجنوب قضاء المتن.

آل عساف من رؤساء التركمان الذين أقطعهم أقوقوش الأفرم نائب الشام المتوفى سنة ٧١٦ هـ بعد أن استأصل شأفة النصيرية منها. ولما فتح السلطان سليم بلاد الشام أبقى كبيرهم في حينه وكان اسمه الأمير عساف وولاه بلاد كسروان وجبيل، فجاء هذا وسكن غريز ومات فيها، ثم تعاقب أحفاده، ومنهم الأمير منصور المذكور الذي بنى سرايات في بيروت وجبيل وغريز وبعد موته خلفه ابنه الأمير محمد إلى أن قتل غيلة سنة ١٥٩٠/٩٩٩، قتله يوسف باشا سيفا وإلى طرابلس في عقبة المسيلمة، وكان ذاهباً إلى عكار لجبي الأموال الأميرية، وكان هذا الأمير بدون عقب، فانقطعت سلالة العسافيين به.

والأفرم كان أحد الأمراء المقدمين في أواخر الدولة الأيوبية، استعمل نائباً بدمشق ثم بصرخد ثم بطرابلس ثم تولى على همذان فمات بها سنة ٧١٦ هـ. بنى الآباء اليسوعيون سنة ١٨٤٣ في غريز كلية مدرسة أميركية، ثم نقلوها إلى بيروت سنة ١٨٧٥، فصارتا الجامعة المنسوبة للقديس يوسف. ولم يبقوا في غريز سوى قيماً. واشتهرت غريز بمكوث أرنست رينان واخته هنريت، وقد ألف خلال ذلك كتابة (حياة يسوع). وعند الخروج من غريز على اليمين طريق ينقسم إلى فرعين أحدهما يذهب جنوباً ويوصل بعد ٤ كم إلى دلبتا، والثاني يذهب شمالاً ويوصل في الكم ٤ إلى عرمون، ثم في الكم ٧ إلى مار عبدا.

وبعد غريز يتبع الطريق وادي المعاملتين الخضر النضر إلى الكم ١٤، حيث دير مار عبدا، وهنا يترك على اليمين طريق عرمون. ثم يصعد في منعرجات عديدة.

في الكم ١٩ قرية الكفور، علوها ٧٠٠، سكانها ٣٧٩ مصيف، فيه فندق كبير وشجرتا سنديان كبيرتان ظليلتان في الكم ٢٣ غنية، قرية صغيرة ومصيف، فيها فندق باسم أدونيس.

بعد ١٠٠ م من هذه القرية مجاز صخري ينفصل إلى اليسار نحو رأس الكنيسة يوصل بعد بضعة دقائق إلى صورة أدونيس الشهيرة. وثمة على جدار صخري عمودي نقشت المعركة التي يروون وقوعها بين هذا الإله الفتى والخنزير البري أو الدب. وملامح الأشخاص قد تشوهت كثيراً بمرور الأجيال لكن الحيوان المذكور لا يزال ظاهراً. وعلى اليمين عشتروت جالسة وهي تبكي عشيقها. وتحت هذه الصور مغارة مقبرية. وللجدار الصخري المذكور واجهة أخرى على اليسار نحو الشرق على يمينها صورة بارزة لشخص قائم في يده رمح ويتبعه كلبان، ويقال إنها صورة أدونيس وهو يصطاد.

أفقا ونبع نهر أدونيس: (في نحو ٦ ساعات ودرب دواب كأداء) من حينة يقطع الدرب ثنية صغيرة ويجتاز سطوح (جلول) صفيين، فيصل بعد نحو ١ ساعة إلى ثنية ششتول (علوها ٩٦٠) ثم يهبط الدرب بسرعة نحو بطن وادي نهر الديب المنحصر بين الأسناد العمودية لجبل راشين في الجنوب وجبل موسى في الشمال. ثم يمر تحت صخرة تدعى صخرة الدب وتحت ضيعة اسمها المشتى. ثم بعد ١ ساعة و ٤٠ دقيقة مشرع نهر الدب (علوه ٨٢٠م) وإذا بلغ عدوته اليمنى يتسلق الدرب مدارج المشتى الكأداء، فيصل بعد ١ ساعة إلى تحت الأطراف الشرقية لجبل موسى، وسط واد عريض مزروع وتحت ينابيع نهر أبو اطرام (علوه ١٥٦٥م) ومن هذه النقطة يصعد مجاز إلى الجنوب الشرقي ليصل إلى عدد من قرى مقاطعة الفتوح التي من قراها البوار وإلى الشرق منها جبل شبروح. ويقال إن فيها صخراً منقوشاً عليه صور تمثل قتل الخنزير البري لأدونيس وبكاء الزهرة عليه. وإن حكاية عودته إلى الحياة منقوشة في محل يسمى (المشنقة) في أعمال جبيل.

من صعدة سريعة في ٥٠ دقيقة إلى نبع الحديد، ثم يمر الدرب من قرب أطواد الغرة ذات الاحمرار المنقطع النظير في شدته. ويبلغ في الساعة ٤,٢٥ إلى لازا (علوها ١٤٠٠م) ومن لازا يهبط إلى سرايتاو إلى جسر الخابط ثم يصعد إلى أفقا. في الساعة

٦،٤٥ وسيأتي وصفها،

عودة في الكم ٢٥ جورة ترميس، قرية كبيرة ذات فندق حسن، في الكم ٣٥ بحشوش ضيعة علوها ٥٧٠ وفيها ينتهي طريق السيارات.

عودة إلى طريق طرابلس. ـ في الكم ٢٤ جسر على نهر المعاملتين. وهذا النهر يجف بالكلية في فصل الصيف. وعلى يمينه قنطرة جسر خراب تدل أحجاره الضخمة على أنه روماني. وقد دعمته دائرة الآثار سنة ١٩٢٦.

وبعد أن يجتاز ساحة مدورة على ضفة البحر يلجأ إليها صيادو السمك، يدخل الطريق في منعرجات عديدة ترتفع في صعدة كئودة. وعلى اليسار كروم عنب، وبرج القديسة هيلانة، وهو خراب، كان يقيم فيه مراقبو الشواطىء من أبناء العرب في القرن ١٤، منتصب على ذروة صخرية. وإلى وراء السائر منظر رائع نحو جونيه وبيروت.

في الكم ٢٨،٥ برجا أو طبرجا، ضيعة ومرسى صغير في جوف جون أو خليج صغير جداً، وعلى مقربة من هذا المرسى وفوق الصخور المحدقة ببرجها أسراب ومغاور مقبرية عديدة. ـ وفي الكم ٣٢ قرية بوار. وبعد مغادرة بوار ومار ضوميط البوار وميناء العقبة يخرج إلى سهل ضيق يحادد البحر ويصب فيه نهر إبراهيم. (نهر أدونيس قديماً) بعد أن يدور دورة طويلة نحو الجنوب وخلف ركام من الرمل.

في الكم ٣٣ على اليمين مجاز صغير يوصل من على العدوة اليمنى للنهر إلى جسر عربي حجري، له قنطرة شاهقة الارتفاع تجتاز فوق مدرجين، وهذا الجسر في مكان نزه جميل فيه مقهى صغير على ضفة النهر. وهذا المجاز يصعد مع الوادي ويوصل إلى ينابيع نهر إبراهيم (سيأتي وصفها).

على العدوة اليسرى مجاز يوصل بعد ٢ كم إلى بقايا قناة ماء رومانية رممها العرب في عهدهم وجعلوا اسمها قناطر زبيدة. وبعد مسافة قليلة جسر حديدي على نهر إبراهيم، فوقه وفي وسط جداره الأيسر بلاطة عليها كتابة قديمة كانت تبين حدود ولاية بيروت. وثمة روابي تشرف على العدوة اليمنى لنهر إبراهيم الذي يوغل في الجبل إلى جهة الشرق.

ثم يحاذي الطريق ساحل البحر، فتواجه السائر قرية جبيل، ويبرز من بينها بناء ضخم هو حصن قديم.

في الكم ٣٨ على حيز الشاطئ الصخري، على يسار الطريق برج المحيش، وهو برج ناظور جميل من العصور المتوسطة يكاد يكون سالماً في الجملة. يقال إن له صدى واضحاً يضرب به المثل لمن يجيب جواباً لا معنى له على حد قولهم فسر الماء بالماء.

في الكم ٣٨,٥ يجتاز وادياً جافاً في الغالب، اسمه نهر الفدان، وتزعم الروايات المصرية أن جفافه نشأ من دموع إيزيس حينما كان يبكي ويجول في هذه الجبال باحثاً عن أوزيريس.

في الكم ٤١ جبيل بليدة ساحلية من أعمال قضاء كسروان، سكانها ٥٠٠٠، أكثرهم موارنة بينهم نحو ٣٠٠ مسلم، وفيها خمسة كنائس للموارنة وجامع ذو مئذنة للمسلمين. وجبيل الآن ليست ذات مكانة وجل ما يقال إنها فرضة لبعض القرى المجاورة، وأفضل التبغ ما يجلب من الجبال المجاورة لها. فيها مخفر درك ومدرسة للفرير المريميين.

(التاريخ): كانت جبيل المدينة الأصلية للجبليين، وكانوا يسمونها بيبلوس، وسماها التوراة جيبال وثمة رواية ذكرها فيلون تجعل جبيل أقدم مدن العالم وفي فجر التاريخ استقر فيها الإله إبل الذي قلبه اليونان إلى بكرونوس، وبنى لنفسه داراً أحاطها بسور. وفي الواقع أن جبيل تعد بين مدن الشام وفلسطين الأولى التي تناولها التاريخ قبل غيرها.

ومنذ الألف الرابع ق.م كانت بيبلوس ظاهرة على صيدا وصور اللتين ربما لم تحويا عهدئذ إلا أماكن للصيادين وكانت أكبر مركز تجاري وديني في الساحل الشامي. وكان المصريون يدعونها قبن ويأتون إليها ليحملوا منها أخشاب لبنان اللازمة لمبانيهم. حتى أنهم صنعوا فيها سفنهم الكبيرة لعبور البحار البعيدة التي سموها قوبنيت أي الجبيلية ووجدوا فيها أيضاً مادة أخرى ذات قيمة وهي النحاس الذي كانت تجلبه القوافل من بلاد القوقاز.

وفي هذا العهد البعيد كان في بيبلوس هيكل مشهور، وكانت عبادة آلهة هذا الهيكل منتشرة حتى وادي النيل. وقد ضاع تاريخ إشادة هذا الهيكل في ظلمات الدهر. إلا أنه ظل معموراً حتى القرن ٢-٣ قبل الميلاد. ولا ريب في أن التجار المصريين هم الذين بنوه في مكان مغارة مقدسة تعود إلى ماقبل التاريخ. وقد تمتع هذا الهيكل خلال قرون عديدة بجود الفراعنة الذين كانوا يقدمون إليه هدايا ثمينة، وجدت بعض القطع منها وعليها اسم (خاسخام أوج) أحد مؤسسي مصر (نحو ٣٢٠٠ سنة ق.م) واسم خئويس وميسرينوس. وفي أواخر القرن الثالث حدثت في بيبلوس قلاقل احترق الهيكل المذكور خلالها. ثم بعد قرنين وبعد أن عاد السكون صار يحكم جبيل أمراء أو ملوك صغار محيلون، شيدوا فيها هيكلاً جديداً بنوه فوق رماد الهيكل السابق. وصار وقتئذ لعبادة ايزيس حيث وجد قبولاً كبيراً عند الناس. والأمراء أو الملوك الصغار المحليون المذكورون إنما كانوا اتباعاً لفراعنة مصر، وكان من أسمائهم آبيشوا وايبشموآبي. وكانوا يدفنون إذا ماتوا على طريقة كبراء مصر، وتؤثث أضرحتهم بنسبة اتساع ملكهم. وروابط هذه التابعية لم تنفك خلال الألف الثاني. أما في القرن ١٩ فقد أظهرت المراسلات بين ملوك بلاد الشام والفرعون امنمحات الثالث والرابع، أن ريبادي ملك جبيل كان يرجو أن يمد بجيوش تمكنه من مقاومة جيرانه. وفي القرن ١٣ ق.م كان في بيبلوس ملك اسمه آجيرام اكتشفوا ضريحه سنة ١٩٢٤. وقد خلف هذا كتابات فينيقية هي أقدم ما عرف من نوعها حتى الآن.

وفي القرن ١٢ ق.م رأت جبيل كغيرها من مدن فينيقية مرور شعوب البحر، ومن بعده جاء الملوك الآشوريون واستولوا على هذه المدن. وظل حكمهم قائماً حتى القرن السادس. ومنذ سنة ٥٣٧ دخلت فينقية في حوزة ملوك الفرس.

وكانت لغة الجبيليين جد قريبة من لغة العبرانيين. ولما تمكنت علاقتهم مع الشعوب الآسيوية ولاسيما مع شعوب ما بين النهرين، نفذت فيهم آثار تلك الشعوب واختلطت بالأثر المصري السابق، وجاءهم فيما بعد قسم من الأثر الميسيني اليوناني، فتولد لديهم من كل ذلك فن محلي هجين دعي فيما بعد بالفن الفينيقي، وإنما ارتقى الفن الفينيقي تحت النظر المصري مع احتفاظه بمزاياه المحلية وهكذا اقتبس

الجبيليون الأشكال الخارجية التي كان المصريون يصورون بها آلهتهم ويحتفظون في الوقت نفسه (ليانثئون) أهم مزاياه السامية. وقد كانوا صناعاً حاذقين، وخاصة بأشغال الخشب وقد استفاد من حذقهم هذا سليمان حينما بنى هيكل أورشليم.

وخلال فتوح الإسكندر انضمت بيبلوس من تلقاء نفسها إلى مملكة هذا الفاتح. وقد حفظت مدة من الزمن سيادتها القومية ومزجت مقدراتها بالدولة السلوقية. ولما جاء بومبوس دخلت بيبلوس في جملة ما دخل في حوزة الرومان. ومن ثم يختلط تاريخها لأنها كانت متأخرة، وهذا الفتك كان من عوامل انحطاط بيبلوس. إلا أن الانحطاط الاقتصادي قد أمكن تخفيفه في العصور الأخيرة لعهد الوثنية بفضل الحفلات الدينية الضخمة التي كانت تقام فيها وتزداد روعتها وفتنتها عاماً بعد عام، وكان يتقاطر الناس إليها في شوق وافتتان عجيبين.

وقد ظلت بيبلوس في كل زمان مركزاً دينياً عظيماً. فقد سماها المصريون أرض الآلهة، ورافقت فيها قصص ديانتهم الوثنية وآلهتهم أرباب التجارة، وثمة روايات خرافية قديمة ربما لفقت في عهد الأسر المالكة التينيتية وقد وصل الصدى المتأخر لهذه الخرافات إلينا عن طريق الآداب الإغريقية، وفيها يقال إنه لما قتل ست أخاه إيزيس، وصلت جثة المقتول إلى شاطئ بيبلوس، فرميت هناك بدغلة، وهذه استحالت فيما بعد إلى شجرة، فأمر ملك بيبلوس بقطعها وجعلها مقام عامود وحملت سقف قصره. فجاءت بعد أخت إيزيس بهيئة طير سنونو تفتش عليه لتنقله إلى مصر. (وفي اعتقاد الجبليين أن أدونيس لم يكن سوى أوزيريس)، وأن إيزيس حاثور سيدة بيبلوس لحظته وتمنت الحصول على يوم من أيام الربيع.. إلا أن هناء هذين العاشقين لم يطل سوى بضعة أيام. وبعد موت أدونيس بكت بعلات على جثته ودفنته، لكن غرامها لم يلبث أن أوصلها إلى الموت وهذه كانت من المنقولات الأدبية لدورة الموسم. ويفهم منها أنه في كل سنة تستيقظ الطبيعة من رقادها في فصل الربيع، وتزدهي وتنتج ثم تموت إذا اشتد الصيف لكي تعود إلى حياتها بعد رقاد طويل بفضل نسمات الربيع التي تداعبها.

وقد ثبت الجبيليون ضريح الفتى الجميل في بلدتهم، فكان في كل سنة تتقاطر الجماهير لزيارته، وفي العهد الروماني صارت هذه العبادة الطبيعية أشد روحانية

ودعمت برأي الموت. وتحت تأثير هذه الآراء صار للأعياد الدينية إقبال عظيم من الناس، وصارت بيبلوس من أعظم المراكز الدينية في كل الشرق. والبرية التي تحيط بها نالها حظ موفور من ذلك التمجيد فشيدت فيها عدة معابد.

وفي عهد قياصرة الرومان السبعة المسميين بأنطونين، عظم الدور الديني لبيبلوس وزاد ازدهارها في عهد ديوكليتانوسي حتى جعلت بعد انتشار النصرانية مركز أسقفية. ومن بعد ذلك سقطت في يد المسلمين.

وفي عهد الصليبيين مهد وضعها النافع لازدهارها مع سمات أخرى ففي نيسان ٤٩٨هـ /١١٠٤م فتح ريموند صنجيل كونت طرابلس مدينة جبيل بمعونة الجنوبيين. وفوضت إمارتها مع الوراثة إلى غليوم امبرياك مقابل ضريبة سنوية كان يقدمها إلى الجمهورية. إلا أن كونتت طرابلس عاد فحرم ورثته المذكور فنزحوا إلى قبرص. ولما وقع هوكو الثالث المعروف بالأعرج أسيراً في يد المسلمين في معركة حطين ٥٨٤ هـ /١١٨٨ قدم مدينة جبيل وحصنها إلى السلطان صلاح الدين. وفي سنة ١١٩٠ لما جاءت الحملة الصليبية الجديدة بقيادة فردريك بارباروس فهدم صلاح الدين حصن جبيل ودك أسوارها. وبعد ثماني سنين تمكن كي دو جبيلة من استرداد جبيل فسمي باسمها (جبيلة) وقد لعبت دوراً مهماً بصفتها موقعاً بحرياً ومدينة أسقفية في عهد مملكة القدس، وعني وقتئذ بترميمها مستعجلاً مع العلم بأن مكانتها الحربية وقتئذ كانت شبه معدومة. وظلت جبيلة في حوزة الصليبيين إلى شهر آب سنة ٦٨٩ هـ /١٢٩٠، إذ جاء وقتئذ الأمير سنقر الشجاعي أحد قواد الملك الأشرف بن قلاوون وحاصرها. ولما رأى المحاصرون أشد الفتك قد أحاط بهم وأن الدفاع لا جدوى فيه اغتنموا فرصة إحدى الليالي العاصفة فأخلوا البلدة ونزحوا إلى طرابلس، فهدمها سنقر المذكور ودك قلعتها. ودخلت ١٦١٨ في حوزة الأمير فخر الدين المعني.

يظهر أن المدينة الفينيقية كانت محددة من جهة الشمال بالدرب المحفور الذي يوصل الأسواق إلى المرفأ، ومن جهة الجنوب بالوادي الذي يهبط نحو البحر من جسر الطريق الذاهبة إلى طرابلس. وهذا الموقع الذي حددناه مؤلف من رابية صغيرة مشرفة على البحر. أما المدينة اليونانية الرومانية فقد كانت تمتد على التقريب في نفس المسافة التي للقرية الحاضرة، التي تذهب من الشاطىء إلى سفح الجبل. ومخطط

جبيل في عهد الصليبيين يظهر بجلاء في الشمال. وهو معين بخط الأسوار التي يمكن متابعتها من عند المرفأ حتى الحصن ومنه إلى الشاطئ.

١ ـ المدينة الفينيقية ـ عمل الأثرى المسيو مونته ومن بعده المسيو دونان حفريات كثيرة، ويمكن زيارة أماكن العمل خارج أوقاته بإذن من مصلحة الآثار في بيروت. وقد كان بدء تلك الحفريات سنة ١٩٢١، فكشفت عن قسم من أسوار المدينة الفينيقية، وكثير من أضرحة الملوك وعن المعبدين اللذين تعاقبا في هذا المكان الأثري فالأسوار يمكن رؤيتها في أسفل الواجهة الجنوبية للجدار الشمالي من السور الصليبي، وهي بين الحصن والبحر.

جاء أحد مراكب الدول المتحدة لإرجاع سورية إلى الدولة العثمانية وقصف قلعتها. وقد انحطت جبيل عن عظمتها السالفة انحطاطاً عظيماً وفيها كثير من الآثار والخرائب، منها كنيستها القائمة إلى الآن وقلعتها الشاهقة وأعمدة ونواويس وآثار أبراج وأقبية في القلعة، وأهلها نحو ٢٥٠٠ موارنة، بينهم نحو ١٥٠ من المسلمين الذين كانوا قبلاً أكثر من ذلك فنزحوا إلى بيروت وغيرها.

وهي تتألف من جدار ثخين عرضه نحو ٤،٥ م، متجه من الشرق إلى الغرب. ومحفوظ فوق ارتفاع وسط قدره ٣ ـ ٤ م، في داخلها قد دعمت بعضائد ضخمة موضوعة في مسافات جد منتظمة، كان القصد منها زيادة التصاق الأسوار بالصخور التي يزداد في هذا الموقع انحدارها. وبين اثنتين من تلك العضائد البارزة جرتان كبيرتان مملوءتان بهياكل عظمية لأطفال، وهذه الهياكل من بقايا الضحايا البشرية التي كانت تقدم إلى الآلهة بمناسبة بناء تلك العضائد.

والمقبرة تحتوي على تسعة كهوف مقبرية وجدت كلها مجتمعة في جنوبي قسم السور الذي صار اليوم مرئياً منها بادئ بدء ضريحان يشرفان على ساحل البحر ويتصلان بدهليز ينزل إلى أحدهما بدرج حديث، وهو ضريح الأمير آبي شمو داخل بئر مربع الزوايا منقور في الصخر. وكان فيه أشياء ثمينة نقلت إلى متحف بيروت، وبعد قليل ضريح آخر للأمير آبي شمو وهو والد الأمير المذكور آنفاً، وكان معاصراً لأمنمحات الثالث فرعون مصر في أواخر القرن ١٩ ق.م وعلى مسافة قليلة ضريح ثالث إلى آحيرام، وجدوا فيه تابوتاً عليه كتابة من أقدم ما عرف من الأبجديات

الفينيقية. وهذا أيضاً في متحف بيروت. وفي الجنوب الشرقي من المقبرة المعبد الذي كان بناه المصريون الذين جاؤوا أول مرة إلى جبيل، ثم احترق سنة ٢٢٠٠ ق.م شيَد الأمراء الجبيليون مكانه معبداً آخر لا تزال جدرانه ماثلة. وقد كانوا وجدوا في باحة هذا المعبد بضعة جرار تحتوي على تمائم عديدة كانت تقدم كنذور للمعبد وهي الآن في متحف بيروت.

المقبرة والمعبد اليوناني الروماني: كانت بيبلوس وضواحيها ملآنة بالمعابد المشيدة تقديساً لأدونيس وانجذاباً مع شهرته. ومكان أكثرها مشغول الآن بكنيسة. والمعبد القديم في الآكروبول نفسه حدث فيه مؤخراً ترميم. والباب الشمالي لساحته قد وصل بالقسم المنخفض من المدينة بصف من الأعمدة التي وجدت أيضاً قطعها، وأعيد نصب ستة منها. وقد جرت كل أنواع الحفر في هذه الصخور المجاورة لساحل البحر فإذا بها كلها أقبية لحفظ الموتى.

في جنوبي بيبلوس، كل كثبان الرمل الممتدة جنوبي الطريق هي مما تألف وتراكم حديثاً وقد غطت المقابر والقبور التي تشغل القسم الأعلى من الصخور التي تشبه كراسي الخشب التي في صدور الكنائس، وهي منقورة في الصخر. وبعضها لا يزال مزخرفاً بصور من النقش البارز وبقليل من الكتابات. وتحتها مناكب الصخور المتجهة نحو البحر والمغطاة الآن بالرمل، وهذه المناكب تحتوي مجموعة واسعة من أقبية المقابر ذات الطابقين من القبور. بعضها قد فتح في الصخر وبعضها مبني بالأحجار وكل أقبية هذه المقبرة نقرت في الصخر الصلد وكانت مخصصة في الغالب لعدة أجساد.

وإذا صعد الزائر في الوادي الذي ينتهي في الجنوب بساحل ذي رمل وحصى، يصادف في كل خطوة آثار مبانٍ ومقابر فعلى اليسار يمتد من الجنوب إلى الشمال مجرى ماء منقور في الصخر يتصل بقناطر توجد على العدوة اليمنى لنهر إبراهيم، وهذه القناطر كانت توصل قديماً مياه النهر المذكور إلى جبيل.

وإذا ظل في اتجاهه نحو شمال المقبرة يرى على اليسار بقايا جدار قديم، وإذا ترك أمامه الجسر الممدود على الوادي الفاصل بين المقبرة المذكورة والبلدة، يعرج نحو اليمين ليصعد نحو العدوة اليسرى للوادي.. وبعد أن يجتاز مدرسة الفرير (على

اليسار بعد ٥ دق) يصل إلى (رابية قصوبا) التي محيطها منقور على شكل مدرج. وعلى الواجهة الغربية للرابية المذكورة قامت عدة بيوت وكنيسة اسمها (سيدة قصوبا) مبنية بالأنقاض الأثرية. ويوجد في قمة الرابية في الشرق حفائر غريبة جداً، كالقبور والصهاريج والمعاصر الرحى وأعمدة مصغرة مدورة، وفي الواجهة الغربية يرى أساس جدار كبير مؤلف من أحجار جميلة النحت، تعلوه كومة عظيمة من تيجان الأعمدة الأيونية من العهد الروماني.

والوادي الذي في سفح قصوبا من الجهة الشمالية غني بالحفائر المنقورة في الصخر. وكل الرابية في الشمال هي مقبرة واسعة وعلى يسار الرابية قرب دار يعقوب الخوري منظر واسع والباب مؤلف من عضادتين ضخمتين مجلوبتين، وفي الداخل يرى الصخر الصلد والصدر يؤلف نوعاً من الحنية المنقورة في الصخر. وكل سفح الرابية في الشرق مملوء بالأقبية المقبرية التي هدمت سقوفها. وفي أعلى ذلك السفح وفي الوادي جرون مقبرية. وإذا صعد في الوادي يجد مغارة فيها أثر من الريازة جميلة جداً، تؤلف بهواً محاطاً بما يشبه المصطبة الموضوعة في الصخر.

وإذا انحرف نحو الشمال يجد كهوفاً أخرى، يدعى أحدها مار شربل اتخذ بعد كنيسة. وإذا وصل إلى الطرف الآخر من الرابية أي إلى تحت مار سمعان يسلك مجازاً على اليسار ثم ينحرف بعد أربع دقائق إلى اليسار ويترك في الشمال كنيسة مار جرجس ليأخذ في اليمين درباً يهبط إلى السهل، ويمر بكنيسة خراب باسم مار يعقوب. وفي أسفلها كرم توت.

يرى في وسطه عدة تيجان أعمدة وقطع رخام. وفي العهد الروماني، كان يوجد في هذا المكان هيكل ربما كان مسرح أدونيس.

٣ ـ مدينة العصور المتوسطة: هذه المدينة محاطة بسور يؤلف شكلاً ذا أربعة أضلاع غير قياسية مستنداً إلى البحر وطول السند ٣٠٠ م وعرضه المتوسط ٢٥٠ م.

وكان هذا السور مؤلفاً من جدار عال عليه أبراج بارزة مربعة. والجبهة الشمالية لا تزال سالمة في الجملة على كل امتدادها. وهي تحتوي على جدار بسيط ومحصنة بأبراج مستطيلة تدل أحجارها المتوسطة الحال على أنها رممت مراراً.

والجبهة الشرقية قد خرب نصفها وامتلأت بدور البلدة. والجبهة الجنوبية التي رممت كثيراً قد اندثر بعضها أما الجبهة الغربية فلا يوجد فيها سوى الشاطئ والمرفأ. وفي الزاوية الشمالية الشرقية من هذا السور قد قام برج مبني بأحجار ضخمة لكن أكثر من نصفه مهدوم، وتسير طريق طرابلس في محاذاته. وعليه دار لأحد الأهلين ذات منظر وإن كان حقيراً إلا أنه مرئي.

وكان للسور بابان لا يزالان موجودين. أحدهما في الجبهة الشمالية والثاني في الجدار العالي الشرقي تحت إشراف الحصن، والحصن يعتلي ظهر رابية في الزاوية الجنوبية الشرقية من سور المدينة. وهو مطل عليها ويؤلف الملجأ الأخير في الدفاع عنها.. وهو يتألف من سور مستطيل الشكل ذرعه ٥٠ م في ٤٥ ويحيط به خندق عميق. وفي وسطه قام برج ضخم متطاول هو (البرج الكبير) وكل هذه المباني الدفاعية مبنية من أحجار ضخمة منحوتة نحتاً محدودباً (أحجار صورية) ومعها (أحجار تشبيك) منقوشة. وعلى ثلاث من زوايا السور يوجد أبراج مربعة أو متطاولة. أما الزاوية الرابعة فقد اندثرت، ولا ريب في أن ذلك قد حدث حينما دك المسلمون هذه المدينة. وثمة برج آخر نصفه خراب يظهر بارزاً وسط الجبهة الشمالية للسور. وكان في كل من جدران بهوه رمايات.

ويتصل الحصن بالخارج من باب مفتوح في الجبهة الشمالية من الباب، وهو لا ريب في أنه من بناء العرب الذين كانوا هنا قبل الصليبيين وكان هذا الباب متصلاً بالخارج بجسر حجري له قنطرتان ذواتا أقواس منكسرة، وهذا أيضاً من عهد أولئك العرب.

أما البرج الكبير فهو بناء ضخم متطاول، فالجدران مبنية بأحجار منحوتة وسط خرسانة محلية متوسطة الحال تحتوي على رمل مختلط بحصى شواطئ ذات ألوان مختلفة تسبغ عليها منظر نافذة من اللون البرتقالي، أو هيئة محرقة جداً في بعض النقاط. (ويمكن أن يقال إن بناء هذا البرج من النوع الضخم جداً. لأن البلوكات الأكثر ضخامة في مداميك الأسس، في الزوايا الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية يصل طولها من ٥,٠٧ إلى ٥,٦١م، وهي ضخامة ليس في بلاد الشام ما يزيد عليها سوى بضعة مبانٍ رومانية منها قلعة بعلبك والأحجار الساترة للجدران

منحوتة نحتاً غاية في الاحديداب (أحجار صورية)، يحيط بها بجدار تشبيك، قياسي نوعاً. وهذه الجدران العظيمة الضخامة تجدها سالمة حتى أرضية الطابق الأول ومثلها النصف الأعلى الغربي للبرج ـ أما الطرف الفوقاني من القسم الشرقي فهو خراب..).

والقسم الذي تحت الأرض مشغول كله بصهريج واسع، لا يزال على أحسن حاله. ثم تجد فوقه بهو الطابق الأرضي مغطى بعقد دائري ذي قوس منكسر، يلحظ وجود بضعة ترميمات في ذروته. وليس لهذا البرج منفذ سوى من باب صغير في جبهته الغربية. وتعلو هذا الباب عتبة ضخمة من حجر واحد، قد خفف حملها بقوس من نوع التي علوها أقل من فتحتها، وهذا القوس يتألف من ثلاثة أقفال فقط، وفي الداخل قد غطى الباب المذكور لكبر انحنائه النصف دائري، ومثله النافذة الوحيدة في الطابق الأرضي وفجوات الطابق الأول.

ويوصل إلى الطابق الأول وإلى سطح البرج من درج أقيم وسط الجدران الغربية والشمالية تحت عقد دائري ذي ميل، قسمه الأعلى من صنع العرب وربما كان ذلك في القرن ١٤ أو ١٥، وعقد القبة التي فوق بهو الطابق الأول هو أيضاً من صنع العرب، والدهليز المغطى الواقع في أعلى الجدار الشمالي، هو أيضاً ترميم مكرر من نفس الصنع ولكنه بأحجار متوسطة الحال. والمناظر التي تتكشف للرائي في قمة البرج جد رائعة.

والكنيسة الأصلية تقع في وسط المدينة وتواجه البحر، ولا تزال تستعمل للصلاة. وهي مكرسة باسم مار يوحنا المعمدان، وقد بنيت سنة ١١١٥، ونصفها الشرقي خراب حتى الأسس. أما الواجهة الغربية كلها فهي حديثة العهد. وفي شمالي هذه كنيسة أخرى صغيرة فقيرة لكنها حسنة البناء، وهي من الطراز البيزنطي دون شك، والمرفأ صغير جداً، يتألف من ساحة مدورة محددة برصيفين كبيرين مستويين وبجدارين طويلين. ويوجد في منتهاها برجان قد بنيا للدفاع عن الممر. وقد بقي من أحدهما الذي في شمالي الممر أطلال ضخمة. ومن البرج الذي في الجنوب بقيت أعمدة أثرية ممتدة على الصخر.

ضواحي جبيل

يمكن أن يزار حول جبيل ضمن دائرة قطرها نحو ميل بضعة أماكن مفيدة. فإذا صعد في الوادي الذي ينفتح نحو جنوبي قصوبة يصل إلى قرية (البلاط) وفيها كنيسة باسم مار الياس بنيت بأنقاض هيكل قديم وأقحمت في جدرانه قطع من التماثيل الرومانية. ويظهر من كتابة وجدت هنا أن تاريخ بناء الهيكل في القرن الأول قبل الميلاد. وإذا عاد الزائر أدراجه واجتاز المقبرة يجد على يساره كنيسة فقيرة باسم مار سمعان قد انتصب في وسطها عمود من المرمر غاية في الضخامة محيطه ٤,٥ متر. ويزار هناك أيضاً كنيسة جنوب المبنية مكان هيكل قديم والمشابهة لدير القلعة (قرب بيت مري) ثم حول مكان اسمه (أدّه) مواقع هياكل عديدة، ويوجد في تادروس ومار يوحنا ومار أعمى ومار اليشع أطلال أثرية. أما (غدفين) فهي مثال الأماكن الأثرية المقدسة اللبنانية ففيها معاصر ومقابر وأحجار جميلة مبعثرة.. الخ.

ومن ثم في وادي عمشيت إلى الشمال الغربي مار جرجس وفيه أطلال هيكل قديم عليه كتابة إغريقية وبين مار جرجس وعمشيت كنائس عديدة أخصها في بيريت شاهين. ثم أنه في دير سيدة نايا وهي وسط غابة مقدسة، كثير من الكهوف المنقورة في الصخر.

من جبيل إلى أفقا والعاقورة: تصل السيارة إلى قرطبا فقط (٢٢ كم)، ومنها تركب البغال إلى أفقا خلال ٢,٥ ساعة ومنها أيضاً العاقورة ٣ساعة، ويتجه الطريق نحو الشرق. ففي الكم ٢٠ نبع طورظبا وفيه عين ظليلة ـ في الكم ٢٢، يترك على اليسار طريقاً يأخذ إلى مزرعة اهمج، وسيمتد منها الطريق إلى هضبة غريبة اسمها اللقلوق يخيم فيها أعراب رعاة يقرون الضيف، وسيمتد أيضاً إلى قرية دوما ماراً بدير ماروني اسمه مشمش وبقرية اسمها أجاج.

ويترك الطريق على اليمين (نحو الجنوب) أطلال عجيبة لهيكل يقع فوق هضبة تدعى (شير الميدان) علوها ٩٥٠م وفيها ماعدا ذلك منظر هائل نحو المنحدرات الصخرية التي على جانبي مضائق النهر. ولعل هذه الأطلال كانت لمعبد يظن أنه مخصص لعبادة أدونيس، وأنها من القرن الأول الميلادي. وفي شمال الأطلال ممر

منقور في الصخر اسمه (المشنقة) على جانبيه نقوش وصور من عهد عبادة أدونيس، وفي قرب الممر قبور ذات أغطية منقورة في الصخر.

ويترك الطريق على اليسار ضيعة بيطاس ويتسلق منعرجات عديدة ليصل إلى جبل النمرود. في الكم ٣٢ قرطبا، قرية كبيرة، سكانها ١٣٠٠، علوها ١١٠٠ على سطح الانصباب الجنوبي لجبل الواردية وتشرف من فوق منحدر عمودي على وادي نهر إبراهيم، وفيها ينابيع عديدة غزيرة، وكروم توت وعنب وزيتون واشتهرت بجودة البطاطا التي تنتجها وتستعمل كتقاوى في أكثر البلاد الشامية.

وبعد قرطبا يصعد درب البغال في الفرع الشمالي لنهر إبراهيم في منكب الجبل.

(١) من قرطبا إلى افقا. نحو ٢,٥ ساعة، بعد قرطبا بربع ساعة يهبط الدرب بسرعة وسط الجلول المغروسة بالتوت ويعبر مسيل العاقورة فوق جسر (علوه ١٠٤٠م) وبعد ١ساعة وربع عن قرطبا يعبر جسراً آخر على نهر أفقا، ومن هنا يصعد في مجرى النهر وعلى العدوة اليسرى حتى يبلغ بعد ٢,٥ ساعة إلى مغارة أفقا الشهيرة ويذهب كثير من اللبنانيين إلى أن نبع هذه المغارة آت من مغارة بحيرة اليمونة (أي النبي الصغير) الواقعة في الشمال الشرقي من هذه المغارة على بعد ١٣ كم وقدا متحن ذلك – كما يقال – بإلقاء تبن في البحيرة المذكورة فخرج من المغارة، وهو تفسير لا يعوّل عليه. وعندما تخرج المياه من المغارة تندفع من علو بضعة أمتار متفجرة مزبدة في مجرى صخري عميق محاط بالجبال العالية إلى أن تبلغ أسفل وادٍ عميق حيث تلتقي هناك بجدول آخر يجري في واد يبدأ من قرب العاقورة وحينما يبلغ سهل جبيل يسير على منبسط من الأرض في مجرى كثير التعاريج، ويروي هناك جميع الأراضي الواقعة على ضفتيه فيكسيها بالخضرة على مسافة بضعة كيلومترات، ثم ينصب في البحر على مسافة نحو ٨ كم جنوبي جبيل بعد أن يجتاز مسافة لا تقل عن ٢٠ كم وهي الينبوع المقدس لأدونيس.

قال رينان "هذا واحد من أجمل بقاع الدنيا".

ينبثق نهر إبراهيم من مغارة واسعة واقعة في منكب صخرة عمودية علوها نحو ٢٠٠م. يوصل إليها من ممر، في ضفة النهر اليسرى وعلى الصخرة وتجاه المغارة تماماً مصطبة واسعة أنقاض هيكل خراب بالمرة. ويرى في أسسه من جهة النهر المدخل

وهو يشبه النفق، وكان هذا المدخل قديماً يوصل الماء إلى حوض مندثر الآن، وكان المؤمنون بأدونيس يلقون في هذا الحوض نذورهم. وقد ظلت قداسة هذا المكان محفوظة حتى الآن. فالأهلون يضعون تحت العقد سُرُجاً تضاء بالزيت تمجيداً للسيدة التي ترد إلى هذه الأماكن. وهنا تجد مزيجاً غريباً من العقائد.

أفقا قرية صغيرة حقيرة من قرى ناحية الفتوح موقعها قرب مخرج نهر إبراهيم، سكانها شيعة. وإلى جنوبي النهر المذكور مقابل القرية آثار هيكل لم يزل كثير منها قائماً بين أشجار من الجوز يذكر العابرين بالفواحش التي كان يرتكبها القدماء عباد الزهرة في ذلك الهيكل.. ويذكر التاريخ أن الملك قسطنطين الكبير أمر بهدم ذلك الهيكل وإقامة كنيسة على اسم السيدة مريم مكانه.

والنصارى يقدسون معاً (الزهرة) التي خلقت (فينوس) في لبنان. ويؤكد النصارى أن أطلال افقا كانت لكنيسة باسم العذراء. وثمة على مقربة شجرة تين مقدسة يعلقون عليها ثياب المرضى كي ينالوا الشفاء.

وكان هيكل افقا مشهوراً في العصور القديمة ومكرساً باسم (فينوس) وقد خرب بأمر قسطنطين حينما بلغه أنهم يجرون فيه عبادات مخالفة للحياء (طقوس خلاعية). ثم رمم بعضه في عهد الامبراطور يوليانوس، ثم هجر.

وهنا تجعل الرواية مكان وقوع حكاية فينوس وأدونيس كما تصنع قبر الإله الفتى. وتقول إن أدونيس ولد نتيجة وصال غرامي من تلك التي تحدث بين الأقارب، بين سينيراس ملك قبرص وبين ابنته ميراها، وإنه كان ذا جمال فتان. ولما كان صغير السن عشق أفروديت فيما بعد. وفي ذات يوم بينما كاد يصطاد وسط غابات لبنان وثب عليه خنزير بري مرسل من قبل غريمه المريخ (إله الحرب) وجرحه جرحاً مميتاً. ولما بلغ الخبر إلى الإلهة أفروديت صارت تدور في الجبال باكية نادبة، فوجدت عشيقها وواسته دون أن تتمكن من شفائه. وولدت نبتات الشقيق الأحمر من دم الإله الفتى أي تحول هو إلى زهرة الشقيق. ويقال أيضاً أنه في هذه الظلال تبادل العاشقان أول قبلاتهما وآخرها.

وفي شهر آذار يحدث أن تنقلب مياه نهر إبراهيم حمراء من جراء انحدار الأتربة الحديدية من أودية العاقورة بفعل الأمطار والسيول الغزيرة. فيقال إنه في ذلك اليوم

نفسه جرح أدونيس في الناب. ومن هنا نشأ الوهم الديني الذي يقول إن مياه السيل جرفت معها دم الإله وصبغت به. ومن هنا أيضاً نشأ ذلك التصور الذي أعلى اسمه في كل العصور القديمة وجعل من هذا الوادي الشهير مركزاً لعبادة غير منقطعة وكثر فيها عدد المعابد. وقد زادت المناظر المنقطعة المثال لهذا الوادي بذلك التقديس. ويصادف الزائر في كل خطوة كهوفاً يسودها الصمت، وكان العبيد المقدسون المخصصون لخدمة الهياكل، القاعدون في منعرجات الطرق يدخلون إلى تلك الكهوف الأتقياء القادمين لطلب الغوث من الآلهة، (والنساء النادرات الجمال لكل طالب).

فكان أهل جبيل يحتفلون في منتصف شهر آذار بمأتم تلبس نساؤهم ثياب الحداد ويجلن في شوارع جبيل باكيات يضربن صدورهن ويشققن جيوبهن حزناً عليه، ولكن في اليوم الثاني ينقلب الترح مرحاً إذ يبعث أدونيس ويرتفع إلى السماء فتقام في المدينة معالم الزينة والابتهاج فتحلق النساء شعور رؤوسهن. ومن لا تقدم على هذه التضحية تكفر عن سيئاتها بإباحة جمالها لكل طالب طوال هذا اليوم. ويخصص ريع هذا العمل الشائن لأعمال البر والتقوى. وكان الفينيقيون يعدون أعمال العهر والفجور أعمال تيمن يتقربون بها إلى أربابهم.

من أفقا إلى اليمونة (٤,٥ عة) في مجاز، هو أسهل من المجاز القادم من العاقورة والذي سيذكر فيما بعد).

من افقا إلى المسيطر ١٠ دقائق وبعد نصف ساعة من المنيطرة يمر الدرب في واد صغير اسمه وادي البرج، وهو في بطن مضيق صخري. وعلى يساره يفترق مجاز نحو الشرق يصعد بسرعة في هذا الوادي إلى أن يبلغ مكاناً متسعاً معشوشباً (بعد ١ ساعة و ١٥ دقيقة) فيه خرائب كنيسة وحصن صغير اسمه (الحصن) ربما كان من عهد الصليبيين وبعد ٢ ساعة و ٣٠ دقيقة رأس الحمراء أو الرام القبلي، وهو ثنية علوها نحو ٢,٣٠ متراً ـ ثم يهبط نحو سطح الانصباب الشرقي ماراً بوادي الخيل ثم ينفرج نحو الشمال، فيصل إلى نبع اسمه عين البحر ـ ويترك (زينية) على بعد ١٥ دقيقة وفي الأسفل وعلى اليمين. إلى أن يقترب من البركة الكبيرة المسماة (بركة اليمونة) بعد اجتياز ٤,٥ ساعة.

من قرطبا إلى العاقورة: (٣ ساعات في درب دواب) يترك على اليمين مجاز أفقا فيبلغ فوراً ضيعة (المغيرة) علوها (نحو ١٢١٠ متر) ثم يترك على اليمين أطلال قرية أثرية على هضبة صغيرة، وفيها عدة كنائس وأنقاض بناء كبير نوعاً، وبعده ببضعة أمتار يوجد هيكل يانوا الصغير (علوه نحو ١٢٠٠م) الذي لا يزال فيه بضعة نوافذ منقوشة بزخارف على طراز مباني بعلبك. وكان البيزنطيون بدلوا هذا الهيكل إلى كنيسة، والآن ينسبه الأهلون إلى مار جرجس الأزرق نسبة لزرقة أحجاره.

ثم يقترب الدرب من المسيل ـ فيلاقي جسراً (علوه ١٣٠٠م) يلتحق به درب أفقا (وسيأتي)، ومن ثم صعدة بسرعة توصل بأقل من عشر دقائق إلى قرية العاقورة.

في الساعة ٣ العاقورة، علوها ١٤٥٠، قرية مختبئة في سفح جدار صخري هائل جدير بالتصوير، تحيط بها بساتين الأشجار المثمرة والكروم، وفيها وجهاء يرحبون بالضيوف والسياح. وفي العاقورة مغارة عجيبة جداً، مفتوحة في قاعدة المنحدر الصخري المشرف على القرية. (قد اتخذت هذه المغارة كمقبرة، ولعل ذلك في عهد الرومان. ويؤيد ذلك وجود نواويس ورموس كثيرة منقورة بشكل دائري. ثم جعلت كنيسة، إذ لا يزال يرى حتى الآن أسماء قديسين مكتوبة بالأحمر وبالخط السطرنجيلي (وهو السرياني ذو الأحرف العمودية). وقد كان هذا المعبد مزاراً ويحج إليه. وكان تحت حماية القديس بطرس.

من العاقورة إلى ليمونة (٤,٥ ساعة، درب دواب غير يسير، وهو طريق روماني قديم) ـ بعد ١٠ دقائق من العاقورة يترك فوق المجاز على اليسار الحفر المنقورة في مقبرة صخرية، وبعد مسافة ١٠ دق أطلال كنيسة القديس سمعان. ولعلها من العهد الصليبي.

في الدقيقة ٤٨ تبدأ السكة الرومانية التي لأجل أن تجتاز جداراً صخرياً كان نقرت على شكل أدراج (علوها ١٢٥٠ متر)، على اليسار فوق السطح الداخلي لجدار عالٍ مشرع فوق الممر تجد كتابة تدل على أن الإمبراطور دوميسيانوس (٩١ ـ ٩٦) قد شق هذه السكة. ـ في ١ ساعة و ٤٠ دقيقة عين العصافير ذات ماء جيد، (العلو ١٧٨٠ متراً) في ٣ ساعات و ٢٠ دقيقة، يبلغ خط تقسيم المياه وثمة ثنية عريضة مفتوحة تكاد تكون هضبة على علو ٢٠٢٠ متراً. وعلى صخرة في جنوبي الدرب يوجد مثال

من كتابات أوريانوس التي كانت تأمر أن يحفظ لهذا الإمبراطور أربعة أصناف من الأشجار المخصصة لبناء السفن. ـ ثم يهبط المجاز إلى وهدة اسمها عبات، على سطح الانصباب المتجه نحو البقاع من منعرجات كأداء جداً وسط الصخور. في الساعة ٤,٣٥ اليمونة، وثمة أطلال هيكل يوناني روماني (سيأتي وصفه) ومن اليمونة يمكن الوصول إلى بعلبك .

وللرجوع من العاقورة إلى أفقا. ـ يعود إلى الجسر الذي فوق وادي العصافير في سفح القرية ـ ثم يصعد المجاز بسرعة نحو الجنوب فيبلغ بعد ١٥ دقيقة إلى سفح منحدر عمودي رائع، في وسطه مغارة واسعة اسمها (مغارة الحسا)، ينفجر منها نبع غزير. وهذه المغارة قد قطعت بجسر طبيعي عجيب الشكل، فتحته تذرع نحو ١٥ متراً، ويعبر من فوقه درب الدواب (علوه ١٣٤٥م) ثم يجتاز هذا الدرب هضبة ذات ميل خفيف (علوها نحو ١٣٨٠م) وفيها منظر غاية في الروعة نحو كتلة وادي نهر إبراهيم، ثم يمر وسط غابة من شجر التويا (الصنوبر) ثم يهبط فجأة، فيبلغ بعد مغادرة العاقورة وثلث إلى المنيطرة (علوها ١٢٦٠م) وهي ضيعة فيها نبع ماء غزير، وكان هنا في عهد الصليبيين حصن من إقطاع كونتية طرابلس. ومن المنيطرة يهبط في ١٠ دقائق إلى الجسر على نهر إبراهيم (علوه ١٢٠٠م) وهو تحت مغارة أفقا بمسافة ثلث ساعة.

عودة إلى طريق طرابلس. ـ يخرج من جبيل نحو الشمال ويحاذي في سيره البحر، ويجتاز بطن واد جاف. ـ في الكم ٤٣ على اليمين ينفصل طريق يوصل (بعد ٥ كم) إلى عمشيت، قرية صغيرة، سكانها ١٠٠٠ منهم كثير من الأغنياء وأكثر دورهم متقنة مبنية فوق رابية حجرية، اشتهرت بأن العالم الإفرنسي أرنست رنان أقام فيها وألف كتابه (حياة يسوع) وقد كانت أخته (هنريت) ترافقه في إقامته هذه وتساعده في عمله، فماتت خلال إقامتها تلك فحزن عليها كثيراً، ولا يزال البيت الذي أقام فيه مقصوداً بالزيارة.

كما أن ضريح هنريت لايزال محفوظاً داخل سور جديد تحت شجرة سنديانة، وفي عمشيت مستشفى للراهبات الإفرنسيات، وفيها دير وكنيستان وكثير من

المغاور المقبرية. وأكثر دورها الحديثة مشيدة بأحجار المباني الأثرية المنقولة من جبيل أو قطوبا.

ثم يستمر طريق طرابلس في محاذاة البحر، ويجتاز عدة تلعات مغطاة بالزيتون والتين. إلى أن يصل في الكم ٤٦ إلى ضيعة مبنية عند مصب وادي حلاوة، فيعبر الطريق هذا الوادي فوق جسر حجري له عدة قناطر. ثم ينحصر الطريق بين الشاطئ وبين منحدر صخري. ـ في الكم ٤٩ ضيعة اسمها البرج ـ في الكم ٥٣ منعطف فجائي نحو الشرق تتكشف منه البترون والساحل المجاور لها ورأس الشقعة. ـ في الكم ٥٤ جسر المدفون وهو على وادي بشاشبا.

في الكم ٥٩ ادة، ضيعة، منها درب دواب ينفصل نحو الشرق ويصل بعد ٤ كم إلى جبيل، قرية صغيرة تستحق التصوير جداً، علوها ٤٠٠ م يشرف عليها نشز مرتفع على قمته حصن من العصور المتوسطة، في داخله وعلى مقربة منه آبار وصهاريج عميقة منقورة في الصخر عجيبة الصنع. ولهذا الحصن خندق منقور في الصخر، وفي الواجهة الشمالية للمداميك السفلى مجموعتان من النقوش العجيبة جداً منها لوحة تصور شخصاً قاعداً وأمامه شخص آخر جاثياً. وثمة على اليسار خمسة أشخاص واقفين، إلا أن كل هذه الرسوم مشوهة للغاية، وفي شمالي الحصن كنيسة قديمة حسنة البناء باسم القديس نهرا، يزورها مرضى العيون للاستشفاء.

وبعد ادة يترك طريق طرابلس إلى يمينه طريقاً فرعياً يصعد إلى ميفوق، ويترك طريقاً آخر يصعد خلال ٣٥ كم إلى دوما، ماراً في الكم ٨ بكفر هايا، وفي الكم ١١ ببكسمايا، ثم بجبلة ثم ببستان العاصي، وفي الكم ٢٥ بكفر خلده حيث يلتقي بطريق أميون ـ دوما.

في الكم ٦٢ البترون. ـ بليدة جميلة ساحلية وهي قاعدة قضاء البترون، سكانها ٤٠٠٠ أكثرهم موارنة وبعضهم أرثوذكس وبينهم عدد ضئيل من المسلمين، مركز قضاء البترون، وفيها محكمة بداية وفصيلة درك، ومكتب برق وبريد وهاتف، ومدارس ابتدائية. وليس في البترون ولا في القرى المحيطة بها ماء نبع. بل يشرب أهلها من الآبار المحفورة حول البيوت والأحياء. وأهلها كانوا يغوصون على الإسفنج ويتاجرون بما يستخرجونه منه ومن الملاحة، وصادراتها الحرير والزيت.

(التاريخ): وكان اسمها في العهد اليوناني الروماني بتريس. وفي رواية يوسيفوس أن مؤسسها الأول هو أثيو بعل ملك صور في عصر النبي إيليا في القرن ١٠ ق.م. على حين أنها أقدم من ذلك بكثير. لأنها قد ذكرت في رقم تل العمارنة إنها من توابع ملك بيبلوس. ولما استولى عليها انطيوخس الكبير لم تكن سوى ملتقى قرصان البحر، وفي العصور المتوسطة سميت بالبترون وجعلت إحدى المدن الأسقفية التابعة لكونتية طرابلس. وكان لكروم البترون شهرة ذائعة في عهد الصليبيين. وتفاصيل تاريخها مشتركة مع جبيل وبيروت وطرابلس، والمظنون أنها خربت بإحدى الزلازل التي تواترت في هذه البلاد الفينيقية.

يزار في شمالي البترون انقاض مدرج روماني لم يبق منه - يا للأسف - سوى قسم قليل. فالأدراج منقورة في الصخر وعلوها نحو ١٢م، وعددها ١١، على شكل نصف دائرة قطرها ٤٠م. أما جدران المسرح فلم يبق منها إلا الأسس المنقورة أيضاً في الصخر، يمتد فوق هذه قطع صغيرة من الكورنيش المنقوش على طراز كورنيشات هياكل بعلبك. وفي شمال الطريق عدة مغاور مقبرية وجدوا فيها أحجاراً صوانية منحوتة من عهود ما قبل التاريخ.

وكان الذاهبون إلى طرابلس قبل سنة ١٣٣٠ هـ التي شق فيها طريق رأس الشقعة يخرجون من البترون بعد استئجار الرواحل، فيسيرون نحو الشمال ويمرون من شرقي قرية كبة وهي من أرباض البترون يجتازون نهر الجوز ويدخلون مضيقاً فيه عقبة كأداء اسمها (عقبة المسيلحة) أو (المسلحة). وهذا وبعد نحو ٣ كم من البترون صخرة عظيمة منفردة منقورة نقراً عمودياً من كل جهاتها بحيث لا يمكن الصعود إليها إلا مشياً، وهذه الصخرة تؤلف مقعداً لحصن صغير تعمدوا بناء جدرانه على شكل غير قياسي كي تتعذر الإحاطة به،.. حتى صار يستحيل بلوغه، وقد كانوا بنوا هذا الحصن في هذا المكان الاستراتيجي لحراسة المرور والعبور في هذا الممر الوحيد بين طرابلس وبيروت، وذلك قبل شق طريق رأس الشقعة. ولا يزال هذا البناء الحربي الهائل سالماً في الجملة حتى مستوى شرفات الجدران المضرسة التي كانت في أعلاه ثم اندثرت. وهو من بناء العصور المتوسطة، ولا يعلم إن كان من صنع العرب أو الإفرنج. واسمه (المسيلحة) تصغير المسلحة، ويشبه في تفاصيله وطرازه

الحصون العربية كقلاع مصياف وشيزر أكثر من مشابهته لحصون الإفرنج، حتى أن المصادر الصليبية لا تذكر كلمة عنه قط. ولعله من القرن ١٨ ، وكل الترميمات التي جرت فيه لم تبدل في شكله الماضي ولا في مرتسمه الأصلي.

في الكم ٦٤ يعبر جسراً صغيراً فوق نهر الجوز وهو نهر صغير يخرج من مغارة فوق قرية كفر خلدا على مقربة من المسيلحة وسمي كذلك لأنه يجري في واد يكثر شجر الجوز على ضفتيه. وفي جنوبي قلعة المسيلحة تذهب منه قناة إلى البترون فتسقي الأراضي المحيطة بها ، . في الكم ٦٥ كبة، قرية صغيرة، سكانها ٢٠٠ ، روم أرثوذكس، مبنية دورها بعضها فوق بعض في سفح هضبة. وفي شرقي هذه القرية فوق تلعة حمامات.

وبقرب هذه القلعة قتل أمير غزير العساف محمد بن منصور سنة ١٥٩٠. ثم يدخلون وادياً منفرجاً على جانبيه تلال عالية منحدرة وموعرة جداً. وبعد سير نحو ساعة يصلون إلى سفح عقبة المسيلحة الكأداء وهذا الوادي بعرض نحو كيلو متر، وهو خصب التربة مزروع وتجري فيه عدة جداول صغيرة، وفي وسط هذا الوادي كنيسة مهجورة باسم المخلص من عهد الصليبيين، فيها مغاور مقبرية منقورة في الصخر، وتحتها كنيسة حديثة باسم مار يعقوب، لكن جدرانها قديمة من عهد الصليبيين أيضاً.

بعد قبة جدار صخري عظيم فيه كثير من الكهوف الأثرية من عصور ما قبل التاريخ، ومغاور مقبرية. وبعد نحو ١,٢ كم، فوق الصخور الممتدة على الشاطئ أطلال برج ناظور قديم اسمه (برج الشعلة) كان يستعمل للإشارات بالنار. . في الكم ٦٦ ، فيبلغ جبل رأس الشقعة. وهو خرشوم عظيم يقف جداره فوق البحر وقفة عمودية شاهقة. وهو قائم بنفسه منقطع عن بقية لبنان يلفت إليه الأنظار من بعيد لهيئته الغريبة ووعوثة مرقاه، ووفرة الأنجم والأشجار الصغيرة الخضراء المتعلقة بأذياله ومنها الآس والبلان والخرنوب وغيرها. وفي هضبته عدة قرى عامرة أكبرها حامات، سكانها ٦٠٠ روم أرثوذكس، وهو حافل بالأديرة ومنها دير سيدة النورية ودير مار الياس ودير حنوش وغيرها ، وأكثر هذه الأديرة شيدت فوق أبنية اقدم عهداً منها. وينتهي هذا الخرشوم عند البحر بجدار شاهق يعلو نحو ٣٠٠ متر. وكان القدماء

يسمونه وجه الإله ودعاه الإدريسي أنف الحجر، ويدعى الآن الشقعة ويظهر أن الزلازل غيرت كثيراً من هيئته، وقد افتتح فيه في سنة ١٩٣٩ نفق واسع مستقيم على مقربة من النفقين اللذين فتحا حول سنة ١٣٣٠ يزيد الاطمئنان في اجتيازه. ولدير النورية منظر جميل لعلوه ووقوع البحر تحته، ويكثر هناك صيد السمك الطيب، وقد تأتي ذاك المكان من البحر أنواع كبيرة من حيتان البحر المتوسط. ويذكر أنه في سنة ٥٥٧ انقطع جزء كبير من الرأس المذكور فوقع في البحر فتكون به مرفأ لم يكن هناك من قبل. وقد شق من عهد قريب منكب هذا الجبل وجعل فيه نفق واسع مستقيم، بعد أن كان يسير في منعرجات عديدة، وثمة على اليمين في الكم ٦٨ طريق معبد فتح خلال الحرب العالمية الأخيرة قد شق في الجبل وهو يصعد نحو قرية حامات ذات الكروم والمناظر الجميلة، ثم ينحدر من شرقها في شقوق وأخاديد عريقة فتحت حديثاً وسط جبل ترابي إلى أن ينحدر في منحدرات ومنعرجات عديدة ذات تربة ناعمة كلسية بيضاء ولا يزال حتى يبلغ الهري، وطول هذا الطريق نحو ١٠ كيلو مترات وهو من حسنات الحرب الأخيرة. كما أن السكة الحديدية المحاذية لهذا الطريق من حسناتها أيضاً.

في الكم ٦٨ طريق متوسط الحال يصعد الجبل المذكور إلى قرية حامات، وفيها على بعد ١،٥ كم كنيسة مار الياس، مبنية على شفا المنحدر الجنوبي للهضبة، وفيها منظر غاية في الروعة. وكان طريق طرابلس يبلغ في الكم ٧٠ نقطة علوها نحو ٨٠ ـ وينحرف نحو الشرق ويمر من تحت نفقين صغيرين ويشرع بالهبوط من منحدرات سريعة كلسية، يطل فيها على منظر جميل نحو طرابلس ويدخل في قضاء الكورة وغيره.

في الكم ٧٤ هري، ضيعة، سكانها مسلمون، مبنية على رابية صغيرة فوق الطريق، ومن ثم يدخل الطريق في سهل فسيح محاذٍ للبحر وقد ذكر يلينوس هذه الضيعة. في الكم ٧٦ يعبر نهر العصفور ـ في الكم ٧٩ شكا الجديدة، قرية ساحلية جميلة، سكانها ٨٠٠ أكثرهم موارنة، وقد كانت من مراكز الفينيقيين، إلا أنه لم يبق لهم أي أثر سوى صخور منقورة في الساحل، وثمة طريق على اليمين يصعد إلى أميون (١٠ كم) وطرابلس (٢٥كم).

في الكم ٨١ أنفة قرية ساحلية جميلة، سكانها نحو ٩٠٠، روم أرثوذكس، مبنية وراء جنوبي قلعة صخرية، وهي من عهد الصليبيين، كانت تؤلف إحدى الإقطاعات الكبرى لكونتية طرابلس، وكان لكبرائها نفوذ عظيم إلى أن نزحوا إلى قبرص في القرن ١٤.

وفي أنفة برزخ يصل بين شبه جزيرتها وساحلها وهو مقطوع بخندقين منقورين في الصخر من عمل الصليبيين، الكبير منها (ذرعه (١٠٠×٣٠) يجتاز كل الصخور في مستوى البحر. وفي المدخل الشمالي للخندق الشرقي بقايا مبانٍ ذات أحجار ضخمة، ولم يبق اليوم من حصن الصليبيين سوى بضعة جدران. وبين الخنادق والقرية يظهر في الرأس الممتد نحو البحر وعلى واجهته عدة آثار صناعية منقورة في الصخر، كالكهوف والقبور وأحواض السمك وأحجار عديدة. وفي القرية نفسها بضعة آثار. كهوف منقورة في الصخر وأربع كنائس بعضها بيزنطية وبعضها صليبية، والأخيرة ما برحت مستعملة.

في الكم ٨٥ على يسار الطريق، وفوق خرشوم داخل في البحر قام دير للروم يدعى سيدة دير الناطور. وعلى يمين الطريق نحو الشرق فوق رابية مشرفة على الطريق من علو شاهق يظهر دير كبير اسمه دير البلمند ـ في الكم ٨٧ مكان اسمه الحريشة فيه مجاز يصعد في عقبة كأداء خلال ساعة إلى هذا الدير المذكور.

في الكم ٨٨ القلمون ـ قرية صغيرة، سكانها ٦٠٠، مسلمون، مبنية دورها وسط بقعة خضرة نضرة من بساتين النارنج والرمان وكروم الزيتون والتين. وحرفة أهلها العمل في بساتين طرابلس ـ مسقط رأس السيد رشيد رضا صاحب المنار.

في الكم، ٨٩,٢ إلى الشرق وعلى بعد مسير ثلث ساعة في منحدرات صخرية، يوصل إلى مغارة (مارينا) التي تظهر عن بعد من لونها البرتقالي وسط الصخور القاتمة. هذه المغارة معبد صخري، في جدارها الجنوبي صور من عهدين متواليين، أقدمها من الطراز البيزنطي، ومعها كتابات يونانية، تمثل الست مارينا. وتمثل الملاك جبرائيل يبشر مريم بحملها بالمسيح، وتمثل قديساً راكباً حصاناً.. الخ، وتزعم الروايات المحلية أن هذه العذراء التي ولدت في قلمون كانت تتزيا بزي الرهبان الرجال وتقيم في دير قنوبين المبني في أعالي وادي قاديشا. ولما صارت من

النساك الحبساء أرضعت طفلاً ضائعاً فأنقذته من الموت. ولهذا صارت الأمهات اللواتي درهن ضعيف يفدن زرافات إلى المغارة التي ماتت فيها القديسة من دير قنوبين ويزرنها.

وبعد قلمون يظل الطريق في محاذاة الساحل، يمر من سفح جبال الكورة التي يظهر على شفاها قرية اسمها (ددة) ثم يمر من قرب عين ماء باسم (ابو حلقة) أمامها وسط البحر وعلى بعد بضعة أمتار ينبوع ماء حلو يفور من تحت الماء المالح. وثمة على اليمين طريق يصعد إلى ددة وإلى فيع وإلى قلعات ودير البلمند (وبعده عن طرابلس ١٨ كم).

ثم يبدأ حلقة يجتاز سهلاً رملياً فسيحاً يرى سهل الجصاص يمتد على طول الشاطىء الغربي الآخذ نحو ميناء طرابلس، وفي الكم ٩٥ يترك على اليمين الطريق الصاعد إلى الأرز، الذي يمر بأميون . وفي الكم ٩٧ بعد اجتياز كروم زيتون وسفح جبل أبو سمرة يبلغ طرابلس، ويدخلها من بين مقبرة باب الرمل.

من بيروت إلى حمص (عن بعلبك)

في السكة الحديدية ١٩٣كم، ينتقل المسافرون في رياق من الخط الضيق إلى العريض، أول المحطات في هذه السكة الحديثة كم ٦,٣ (العلو ٨١) ـ بعبدا ٨,٩ (العلو ٨١) ـ الجمهور ١١,٩ (العلو ٣٨٠) ـ عاريا ١٦ (العلو ٥٥٦) ـ عالية ٢٠,٣ (العلو ٨٢٠) ـ بحمدون ٢٦,٤ (العلو ١٠٧٣) ـ صوفر ٣٠,٥ (العلو ١٢٨٠) ـ نفق المديرح طوله ٢٨٠م. ظهر البيدر ٣٧,٦٠ علوه ١,٤٨٧ وهو في الذروة العليا من هذا الخط ـ المريجات ٤٣ (العلو ١١٩٨) ـ جديدة شتورا ٤٦,٧ (العلو ١٠٠٥) ـ سعد نائل ٥١,٨٠ (العلو ٩١٤) ـ مقلعة زحلة ٥٥,٩٠ (العلو ٩٢٠) ومن هذه المحطة يجتاز القطار سهل البقاع سائراً نحو الشرق ـ رياق ٥٦,١ (العلو ٩٢٩) وهنا يترك خط دمشق وينتقل إلى قطار حلب ـ طالية ٧٨ بعلبك ٩١,٦ (العلو ١١٢٠) ـ محنة ١٠٦,١ ـ لبوة ١٢٢ (العلو ٨٥٦) رأس بعلبك ١٣٧ (العلو ٨٠٧) ـ القاع ١٥٢ ـ القصير ١٦٦,٩ (العلو ٥٤٤) ـ قطينة ١٨٠ (العلو ٥١٩) حمص ١٩٥ (العلو ٥٠٦).

طريق السيارات: ٢٠٢ كم التخطيط القديم في ١٩١ كم التخطيط الحديث وهي جيدة حتى بعلبك، أما ما بعدها فما برح قيد الإصلاح.

من بيروت إلى شتورا ٥١ كم - تقدم وصفه وفي شتورا يترك على اليمين طريق دمشق الكبير المتجه نحو الجنوب الشرقي، ويأخذ على اليسار طريقاً يتجه نحو الشمال الشرقي ويحاذي سفوح لبنان.

في الكم ٥٤٫٥ إلى اليمين فرع طوله ٣ كم يلاقي طريق دمشق عند تعنايل ماراً بثعلبايا. وثمة بعد المفرق قرية سعد نايل وفيها محطة قطار. في الكم ٥٦ يترك على اليسار فرعاً يؤدي بعد ٠٫٨ كم إلى كسارا وفيها مرصد جوي للآباء اليسوعيين، ومعمل وأقبية عظيمة لصنع الخمور وحول مبانيهم كروم عنب من الأصناف الإفرنجية الصالحة للعصر، ويستمر الطريق موازياً السكة الحديدية من يسارها - في الكم ٥٨٫٥ المعلقة، وفيها محطة قطار، ومنها طريق يصعد بعد ١ كم إلى بلدة زحلة.. ومن بعد محطة المعلقة تنحرف السكة الحديدية نحو الشرق متجهة إلى رياق.

في الكم ٦٠ كرك نوح، قرية، سكانها ٤٠٠ أكثرهم روم كاثوليك وبعضهم مسلمون شيعة. وفي وسط القرية مسجد قديم فيه ضريح كبير طوله نحو ٤٠ ذراعاً يزعمون أنه قبر النبي نوح، والحقيقة أنه قسم من قناة قديمة. وكان في هذه القرية حصن روماني رممه الملك الظاهر بيبرس - منقور في الصخر يزوره الشيعة. والكرك لفظة سريانية بمعنى حصن أو معقل. وكانت كرك نوح قاعدة هذه الديار وأشبه بمدينة إلى سنة ١٨٤١/١٢٥٧ التي تملك فيها الأمير بشير الشهابي أرض المعلقة وبنى فيها الشونة (السراي) فعمرت المعلقة وخربت الكرك حتى أصبحت قرية صغيرة تتصل أبنيتها بالمعلقة.

وهي بليدة متصلة بزحلة، سكانها ٤٠٠٠، جعلت في سنة ١٨٦٨ مركز قضاء البقاع واتبعت بدمشق، وظلت إلى سنة ١٩٢٠ حينما انسلخت الأقضية الأربعة عن دمشق وألحقت بما سموه لبنان الكبير.

بعد كرك نوح يترك على اليسار طريقاً (١٫٥ كم) إلى قرية الفرزل، سكانها ١٥٠٠ روم كاثوليك، علوها ١١٠٠ وهي في المنقلب الشرقي من سفح لبنان جيدة الماء والهواء، ذكرها ياقوت في معجمه وقال إن فيها الزبيب الجوزاني ويعمل بها الملبن

المسمى بجلد الفرس. فهي قديمة جداً، عرفها الرومان وكانت مركز أسقفية منذ القرن الخامس للميلاد وجاءها الصليبيون فخربها الملك الظاهر لمنع رجوعهم إليها، ثم عمرت بعده بتدفق الأسر الحورانية النصرانية إلى سهول بعلبك والبقاع، ثم خربها الحرافشة فظلت صغيرة على ما هي اليوم، وفيها إلى الغرب الشمالي واد رطب يمكن الوصول إليه مشياً، فيه صخور هائلة ومغاور عديدة تدعى (مغر الحبيس) بعضها فوق بعض. كلها منقورة في الصخر بشكل القلنسوة وداخلها لا يزال مطلياً بالكلس وعليه نقوش حمراء جميلة. وفي جل هذه المغاور صهاريج ماء منقورة. وفي سند الجبل الذي على العدوة اليمنى للوادي باحة واسعة مربعة منقورة نقراً غاية في الاتساق، وفيها مدرج ذو أربعة أدراج يفضي إلى بهو داخلي منقور أيضاً في الصخر الصلد يدخل إليه من باب واسع. ولعل هذا البهو هيكل صخري من العصور الفينيقية القديمة، أو هو معبد لبعل وعشتروت اللذين عبادتهما منتشرة في هذه الديار. وفي فرزل أيضاً بعد اجتياز الوادي المذكور يتسلق الجبل من شرقيه من شعب كئود فيصل بعد ١٠ دقائق إلى نصب غريب الشكل من النقش البارز نحت في قعر كوة على أحد جدران الصخور. ويتألف هذا النصب من شخص ممتطٍ جواداً، ولابس ثوباً طويلاً مستوراً على جسمه، وعلى ظهره معطف يتموج وراءه قد ربط في كل من منكبيه بعلاقة، ورأسه قد أحيط بهالة مشعة، وهو قابض بيده اليمنى على لجام، وبيده اليسرى يقطف ثمرة من شجرة أمامه. وإزاءه في الطرف الثاني من الشجرة صبي يمسك بيده اليمنى عنقود عنب ضخم أما رأسه فمشوه بالمرة.

في الكم ٦٤,٥ يفرق طريق (٤ كم) يفضي إلى رياق، وفيها مفرق ذو شأن كبير للسكك الحديدية القادمة من بيروت ودمشق وحلب. وهذا المفرق جعل لرياق شأناً استراتيجياً هاماً أوجب اتخاذها مركزاً عسكرياً كبيراً عندما بدأت الحرب العالمية في سنة ١٩١٤/١٣٣٠، وفيها الآن محطة طيران عظيمة، وقديماً لم يكن لرياق شأن يذكر إلى أن مدت منها السكة الحديدية إلى حلب في سنة ١٣٢٤هـ، فالتف حولها السكان وتضخمت وما برحت تتضخم وتكثر دورها وحوانيتها حول المباني والمستودعات العسكرية العديدة.

في الكم ٦٥,٣ ابلح، قرية، سكانها ٨٠٠ روم كاثوليك، على يسارها وبعد ١ كم ضيعة مسلمة اسمها النبي الياس حولها كروم عنب جميلة وفيها مسجد صغير ذو قبة باسم النبي المذكور. وفيها آثار وعاديات كثيرة هامة، منها هيكلان الأول في حضيض الأكمة - في الكم ٦٧ على اليسار بعد ١,٦٠ كم طريق إلى نيحا قرية نصرانية فيها التوت والكرم، تقع وراء الأكمة المذكورة وهو روماني مكرس على ما يظهر من كتابة عثر عليها في أطلال أخرى في هذه القرية - إلى الإله هادرنيك السرياني الذي كانت تخدمه العذارى النادمات، وعليه كتابة معناها أن عذراء كرست ذاتها لهذا الإله. وعملت بأمره أن لا تأكل خبزاً مدة عشرين سنة.

عثرت بعثة ألمانية في كنيسة نيحا - على تمثال لجوستر البعلبكي وأرسلته إلى متحف استانبول. وعلى جدران البيوت وفي التصوينات نقوش بارزة وعاديات كثيرة ذات فائدة. ومن نيحا يصعد ماشياً خلال ساعة وربع إلى وادي ضرار نيحا، وفيه الهيكل التالي المسمى قلعة الحصن أو حصن نيحا، علوه ١٣٤٤م، وهو هيكل كان ذا مدخل مزين بأعمدة، ومن الطراز الكورنثي. يتجه إلى الشرق، وقد بني فوق مداميك ترتفع نحو ٣,٥م وطوله ٢٨م بعرض ١٢، وأرضه مرصعة بالفسيفساء وفيه نقوش بديعة ورسوم كثيرة ويشبه لطرازه وشكل بنائه هيكل المشتري في بعلبك ويعود زمنه إلى القرن الأول للميلاد. وقد عثر المنقبون هنا أيضاً على أنقاض كنيسة بيزنطية وقرية ومقبرة صخرية. وكانت نيحا من أول قرى قضاء البقاع.

في الكم ٦٨,٥ على يمين الطريق يلحظ قرية تمنين التحتا، مسلمة، علوها ٩٦٣، وعلى يسار الطريق على بعد ١,٧٠ كم قرية تمنين الفوقا، علوها ١١٠٠، بقربها أطلال باسم حصن نبنوش، وعدة غرف مقبرية. من تمنين الفوقا مجاز يفضي في ٣٠ دقيقة إلى قرية مسلمة اسمها قصر النبع فيها أطلال هيكل روماني ذو نقوش بديعة نادرة.

في الكم ٧١ يترك على اليسار لحب يفضى إلى قرية بدنايل مبنية في سفح الجبل. - في الكم ٧٢ بيت شمعة، قرية شيعية، سكانها ٣٠٠ وفيها مخفر درك على الطريق. والقرية في سفح الجبل في الجهة الغربية.

في الكم ٧٤ بعد أن يترك على اليمين ضيعة اسمها حوش الخانين يجتاز السكة الحديدية ويظل محاذياً إياها من يمينها وعن كثب، ثم يعبر نهر الليطاني. وأكثر هذه الطريق خال من الأشجار والزروع، يتخذ مرعى للمواشي فقط.

واكتشفوا حجراً منقوشاً عليه صورة امرأة يعلو رأسها تاج متقن الصنعة وعلى ذراعيها طفل تقدمه ضحية.

في الكم ٧٩ مخفر درك، وعلى يمين الطريق يلحظ قرية طالية، سكانها ٥٠٠ روم أرثوذكس، قاعدة ناحية، وفيها يترك على اليمين لحب يفضي إلى حور ثعلا، ضيعة في سفح الجبل، وقد أعيد هذا اللحب ومد إلى ثنية عين البنية والنبي شام وقرية معربون ومنها إلى قرية سرغايا ثم الزبداني فدمشق .

في الكم ٨٤ بعد ١ كم إلى اليسار قرية مجدلون، سكانها ٣٠٠ روم كاثوليك مسلمون وشيعة ويلحظ فيها أعمدة أثرية وعتبة باب ذات إطارات ضخمة تدل على أنها بقايا هيكل تحول إلى كنيسة فجامع. ـ في الكم ٨٨ بعد ١ كم إلى اليمين قرية دوريس، سكانها ٤٥٠ أكثرهم موارنة. وعلى يسار الطريق يلحظ قبة صغيرة مدورة وهي بناء مقبري صنعه العرب بأحجار قديمة نزعوها من بعلبك.

في الكم ٩٠ بعلبك، علوها ١١٢٠م.

في الكم ٩٣,٥ يترك على اليسار طريقاً يفضي في الكم ١٠ إلى دير الأحمر وفي الكم ٢٥ إلى عيناتا (ستأتي).

في الكم ٩٧ مخنة، ويستمر الطريق في قطع سهول جرداء مطردة المناظر، تتباعد فيه القرى ويقل السكان، وهكذا إلى أن يبلغ خط تقسيم المياه بين نهري الليطاني والعاصي. ومن ثم كل الينابيع ترفد العاصي. والجدول الذي يحاذي الطريق عن يساره هو أصل العاصي.

في الكم ١١٢ ضيعة رسم الحد، ولا يعرف أي حد عناه واضعو هذا الاسم، وترتوي هذه الضيعة بمياه عين أهلا وهي من ينابيع العاصي الأصلية.

في الكم ١٢٠ اللبوة ـ قرية شيعية، علوها ٨٥٦، فيها أطلال هيكل قديم، بدله فيما بعد العرب إلى حصن. وحدثت في اللبوة سنة ٥٦٦/١١٧٠ معركة بين صليبيي حصن الأكراد والترك السلجوقيين دارت الدائرة فيها على الأولين.

تنطبق كلمة اللبوة على العبرانية التي فسرت في التوراة بمعنى المدخل، أي مكان الدخول إلى أرض الميعاد، ويؤيد هذه النظرية كلمة "رسم الحد" التي مرت. وقد ذكرت اللبوة في الكتب الرومانية حيث ترويها جداول عديدة تتبجس عن بعد ٥ كم في الشرق، وفيها أيضاً نبع كبير في أسفل القرية يعد النبع الأصلي للعاصي. وتزعم الروايات أن زنوبيا ملكة تدمر جرّت قسماً كبيراً من مياه اللبوة إلى تدمر بقناة كبيرة. والواقع أن هناك آثاراً لقناة كبيرة في سفح الجبل ما برحت ماثلة نحو الشمال حتى قرب القصير. وفي شمال الآثار المذكورة نفق أثري يجتاز الطرف الأقصى لسلسلة لبنان الشرقي.

قضاء بعلبك، من أوسع أقضية لبنان مساحة، يحده من الشمال قضاء الهرمل، ومن الشرق قضاء النبك وقسم قليل من الزبداني، ومن الجنوب قضاء زحلة ومن الغرب أقضية كسروان والبترون وزغرتا وقسم قليل من كل من قضائي المتن في الطرف الجنوبي الغربي وقضاء طرابلس في الطرف الشمال.

ومن اللبوة إلى نحلة وبعلبك طريق سيذكر

في الكم ٢١٢ النبي عثمان ضيعة شيعية، فيها مسجد. يترك فيها على اليسار لحباً جبلياً فتح حديثاً يشق سلسلة لبنان الشرقي (جبل قلمون) طوله نحو ٥٠ كم ويفضي إلى النبك ماراً بعرسال وخربة يونين وثنية قرنة مريق وفليطا والسحل إلى أن يلاقي دمشق ـ حمص قبل بلوغه النبك.

في الكم ١٢٤ العين، قرية، سكانها ٦٠٠ أكثرهم مسلمون شيعة وبعضهم روم كاثوليك، فيها عدة عيون وجداول، وبضعة آثار غير ذات شأن.

في الكم ١٢٨ الجديدة، يعبر جدولاً. على بعد ٢,٥ كم وبعد قطع مجاز صخري كئود قرية، (الفاكهة) تقع في بطن مضيق، سكانها ٨٠٠ ثلثاهم روم كاثوليك وثلثهم مسلمون سنية، وهي قرية نزهة، فيها كنيسة ومدرسة ومسجد وتصنع فيها البسط.

في الكم ١٣١ على يمين الطريق (٤ كم) يأخذ إلى قرية رأس بعلبك وهي كبيرة علوها ٨٠٧، سكانها ٢٠٠٠ كلهم روم كاثوليك وفيها كنيسة ومدرسة ودير باسم سيدة الرأس مبني فوق أطلال أثرية.

ربما كانت رأس بعلبك المذكورة في تواريخ الأقدمين أو المذكورة في محاضر المجمع الخلكيدوني، ويلحظ فيها أطلال كنيستين، إحداهما وسط القرية مبنية من مواد منتزعة من بناء روماني. والثانية خارج القلعة إلى غربها وهي كنيسة بيزنطية تشغل داخل هيكل من العهد الروماني. ويلحظ أيضاً بقايا قناطر ماء وقد كانت رأس بعلبك فيما مضى أكبر من الآن بكثير. إلا أن أكثر سكانها هاجروا إلى زحلة تباعاً خلال العصور الأخيرة من توالي الفتن الداخلية. وعلى يسار الطريق يترك عدة طواحين يعلو بعضها فوق بعض بين الأشجار والظلال.

في الكم ١٣٦ يجتاز الطريق السكة الحديدية، وعلى اليمين محطة رأس بعلبك. وفي قربها ينفصل طريق الهرمل من رأس بعلبك إلى الهرمل. ـ ١٦ كم طريق معبدة، في بدء الطريق فرع لهذا الطريق بالكاد يظهر يفضي بعد ٢ كم إلى عين الزرقاء المنبع الأصلي لنهر العاصي، وهي عين كبيرة تظللها أشجار دلب عظيمة.

تنبجس مياهها بشدة وتندفع لتأخذ في طريقها روافد كثيرة ترد من منحدرات لبنان الغربي والشرقي وأخصها ما يرد من نبع اللبوة الذي تقدم ذكره. وإذا ترك الزائر سيارته على شفا الهضبة يهبط إلى بطن الوادي الذي يجري فيه العاصي خلال ٢٠ دقيقة من السير ثم في الكم ١٠ على اليمين مرتفع يتحلى الناظر منه بمشهد غاية في الامتداد نحو المنحدرات السفلية للبنانين الغربي والشرقي، وفي الجو الصافي يمكن أن يستشف منه قلعة حمص. وفوق هذا المرتفع مبني أهرام يدعى قاموع الهرمل أو قائم الهرمل قد ركب فوق قاعدة منفردة ذات ثلاثة أدراج من الحجر البازلتي الأسود. وهو مؤلف من مكعبين متراكبين، يؤلفان نوعاً ما طابقين، الأول منها يحمل كورنيشاً مزخرفاً والثاني يحمل هرماً (وفي أعلى الطابق الأسفل يلحظ وجود نقوش زخرفية تمثل مشاهد صيد. والواجهة الشرقية مزينة برسم خنزير بري كبير مطعون بثلاثة رماح وقد لحق به كلبان ضخمان. وفوق الكلبين يرى أسطوانة محاطة بجبل أو بمجموعة من الأقراص. وهذه الرسوم يعلوها إطار في داخله كتابة من البرونز قد محيت. وفي الواجهة الشمالية غزالان يقابل أحدهما الآخر قائمان على هضبة وتحتهما رمحان متصالبان. كأن في رأسيهما شبكة. وتحت كل من الغزالين قد وضعت أسطوانة. والواجهة الغربية مزينة بثور كبير يهاجمه ذئبان أو دبان

ووراءهما تظهر رماح أو حبال. وفي الجهة الجنوبية التي تكاد تكون خراباً بالمرة لا يلحظ الناظر إلا جثة حيوان، لاشك أنه غزال، وبضعة أدوات. وفي الطابق الأعلى المزين من كل جهة بأربع دعائم قام هرم مربع علوه أربعة أمتار وجوف هذا الهرم مملوء وهذا البناء يحمل على الظن بأنه شامي الصنعة بحت، بني خلال القرن الأول والثاني قبل الميلاد، وأنه كان يحوي ضريح أمير حاكم هذه الأنحاء. وفي الواقع أن طراز هذا البناء لا ينطبق على الطراز اليوناني الروماني المعروف في بلاد الشام.

في الكم ١١ يعبر العاصي من بطن واد سحيق - في الكم ١٦ الهرمل. قرية كبيرة وهي مركز قضاء الهرمل، سكانها ٧٠٠٠ شيعة، قامت فوق ثلاث آكام متفرقة بعضها عن بعض بالحدائق، من الأعضاء الأولى للبنان الغربي. وهي أكبر قرى الشيعة في هذه الأنحاء وفيها أسرة كبيرة ذات وجاهة يدعون آل حمادة، من أكبر الأسر الشيعية وأعرقها. أصلهم من إيران ولما جاؤوا قطنوا في قضاء الكورة في لبنان وطغوا إلى أن أوقع بهم الأمير يوسف الشهابي سنة ١٧١٤ فانتقلوا إلى الهرمل. (وإن قضاء الهرمل يحده من الشمال قضاء حمص ومن الشرق قضاء النبك ومن الجنوب قضاء بعلبك ومن الغرب قضاء طرابلس وزغرتا.

وقد وجدوا في الهرمل أطلالاً أثرية تدل على مكانتها السالفة في العصور القديمة، منها مذبح كان مخصصاً لجوبيتر البعلبكي حفظ الآن في دار الآثار في بيروت.

ومن الهرمل يمكن الانتقال مشياً خلال ساعة إلى عين الزرقاء ويعدها البعض النبع الأصلي لنهر العاصي. وهي عين كبيرة تظللها أشجار دلب عظيمة طاعنة في السن تنبجس مياهها بشدة وتندفع لتأخذ في طريقها روافد كثيرة أخصها نبع اللبوة.

وعلى بعد ٥٠٠م من رأس العين المذكورة وعلى يمين مسيلها المنحدر صخرة عمودية واقفة كالجدار إلى علو نحو ٩٠ م قد نقر فيها مغارة اصطناعية ذات ثلاث طبقات، تعرف باسم مغارة الراهب أو دير مار مارون. نقر فيها في الصخر الصلد بضعة مذابح ودرج وحجرات صغيرة. ويزعمون أن مار مارون أبا الطائفة المارونية اعتزل وأقام في هذا الدير. بينما الصحيح أن المذكور أقام في ديره الذي كان في شمالي حماه على العاصي. وفي جدران هذا الدير مرام تدل على أن العرب بدلوا هذا

الدير حصناً. هذا ومن الهرمل يمكن سلوك لحب صالح (٣٨ كم) يفضي إلى قطينة على بحيرة حمص ماراً بالقصير ١٣ كم وزيتا ١٦ كم وعرجون ٢٣كم. ومن الهرمل يمكن أيضاً أن ينفصل عن اللحب المذكور آنفاً في زيتا ويركب راحلة ويجتاز سفوح جبل أكروم ماراً بهيت (١٣ كم فيصل عقربية (١٨ كم) وحماقيات الشرقية (٢٤ كم) أو وادي خالد إلى المحطة التي على السكة الحديدية، ومنها إلى قرية حديدة التي على الطريق المعبدة بين حمص وطرابلس.

- في الكم ١٤٣ القاع، قرية، سكانها ١٠٠٠ أرثوذكس، علوها ٦٢٣ وفيها حصن ما برح سالماً في الجملة.-

في الكم ١٥٣ الحدود بين جمهورتي لبنان وسورية، ومن ثم تبعد السكة الحديدية عن طريق السيارات، وتتعرج نحو اليمين في سفوح سلسلة لبنان الشرقي.

وثمة في شرقي السكة الحديدية أطلال بليدة قديمة تدعى جوسية الخراب.

قال القلقشندي في صبح الأعشى عن نهر العاصي. نهر حماة ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بنفسها، ونهر حماه لا يسقي إلا بنواعير تنزع الماء منه ويسمى النهر المقلوب لجريانه من الجنوب إلى الشمال. وغالب الأنهر إنما تجري من الشمال إلى الجنوب، واسمه القديم نهر الأرنط، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها على نحو مرحلة (٤١ كم) وتسمى الرأس، ويمتد من الرأس شمالاً حتى يصل إلى مكان يسمى قائم الهرمل بين قرية جوسيه والرأس، ويمر في وادٍ هناك وينبع من هناك أكثر ماء النهر من موضع يسمى مغارة الراهب، ويمتد شمالاً حتى يتجاوز جوسية، ويمتد حتى يصب في بحيرة قدس غربي حمص، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حمص إلى الرستن ويمتد إلى حماة ثم شيزر ثم إلى بحيرة أفاميا، ثم يخرج منها ويمر على دركوش ويمتد إلى جسر الحديد وذلك جمعيه شرقي جبل اللكام (كذا، وصحيحه أن يقول جبل لبنان وجبل النصيرية وجبل القصير) فإذا وصل إلى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك، ويستدير النهر المذكور ويعود ويسير جنوباً بغرب ويمر على سور أنطاكية ويسير كذلك مغرباً بجنوب حتى يصب في بحر الروم عند السويدية. وقد قدمنا ذكر هذه الأماكن في (الجولة الأثرية)، فأنت ترى أن القلقشندي يعتبر نبع العاصي

الأصلي من الرأس، وصوابه أن يقول من اللبوة على نحو ٣٠ كم عن بعلبك إلى الشمال ، ويعتبر أن عين الزرقاء ترفده رفداً كما ترفد عين الفيجة نهر بردى وتؤلف أكثر مائه، وطول العاصي من منبعه إلى مصبه ٤٥٠كم. وقد درست إدارة هذا النهر فوجدت أن تفريغه الأدنى في سنة ١٩٣١ بلغ ١٠م وفي ٩٣٢ ٨,٥ م أما في قرقور حيث تنضم إليه ينابيع كثيرة من سلسلتي الجبال المجاورة فقد بلغ ١٩٣١ /١٩/م وفي ١٩٣٢ /١٨/م، أما في أنطاكية بعد انضمام عفرين والنهر الأسود إليه فإن تفريغه الأدنى بلغ ٣٠م في السنتين المذكورتين. ولو استخدمت الطرق الفنية في استثمار مياهه فإنها يمكن أن تروي مساحات أوسع مما يرويها الآن.

في الكم ١٥٦ على اليمين قرية جوسية العمار كان فيها جامع قديم له مئذنة خربوها من عهد قريب للأسف وبنوا بأحجارها جسراً على نهر الحاروث، في قربها عين تنبجس كان ماؤها فيما مضى يمر إلى حمص ويرويها ، ولا تزال قناة هذا الماء المحفورة تحت الأرض، وهي جسيمة وطويلة، ظاهرة للعيان، كانت حتى في القرن السادس كما ذكر الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق" تصل إلى حمص، قطعت في زمن مجهول وأديرت على قرية القصير وأرضها فعمرت بها هذه القرية. وحرمت حمص. ولا تزال القساطل الفخارية الحمراء التي كانت توزع ماء هذه القناة ظاهرة في أماكن عديدة في أكثر أنحاء حمص، كما أن خزانها الذي كانت تصب فيه الماء كما كانت في الماضي، أحجموا لما رأوا أنها تجر بعيدة عنه. وعلى ماء هذه القناة في القصر حشد إبراهيم باشا المصري جيوشه قبل أن يهاجم حمص سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢ ويظفر بمعركتها. ويستولي بعد ذلك على شمالي الشام كله. ثم أنه في شمالي جوسية بقليل وعلى اليمين وبين كروم التوت عين الزراعة، كانت مياهها تمر أيضاً إلى حمص كماء جوسية. وثمة شرقي الخط الحديدي وحول العين المذكورة قرية الزراعة، اشتهرت بالمعركة التي حدثت بين الجيشين العثماني والمصري في ذي القعدة سنة ١٢٤٧ والتي حدثت بين الجند الإفرنسي والثوار الشاميين في سنة ١٣٤٤. ويضع الأثري دوسوبين عين جوسية والزراعة مدينة وثلاث جنان هي التي اجتمع فيها كبار قواد الاسكندر بعد موته وأتمروا على تقسيم مملكته المترامية الأطراف بينهم.

في الكم ١٥٧، ربلة، قرية، سكانها ٥٠٠ روم كاثوليك. كان في غربيها وعلى العاصي ربلة القديمة المذكورة في العهد القديم (سفر الملوك ٢٢ ـ ٢٥)، كانت ذات شأن كبير في عهد حزقيال وينشائو وبختنصر، ويظهر أنها كانت قاعدة كورة لائوديسيا التي حولها وأنها كانت هي المدينة المسماة بئوديسية لبنان ظلت عامرة إلى مضي ربع قرن فأخلاها أهلها لوطأة حمى الدواء، وابتعدوا إلى مكان ربلة الحديثة ولم يبق من مبانيها الأثرية سوى بناء مربع الشكل يزعم أهل ربلة أنه كنيسة.

وحول ربلة تنخفض سلسلة لبنان الشرقي ولا تزال حتى تضمحل في السهل، ولبنان الغربي ينتهي في غربي ربلة عند جبل أكروم، وينخفض هو أيضاً عما كان عليه في مرتفعاته حول سهل بعلبك.

في الكم ١٦٢ القصير، فيها محطة قطار، قرية كبيرة، سكانها ٣٠٠٠ نصفهم مسلمون ونصفهم نصارى وهي ذات أزقة مستقيمة ودور قوراء وأفنية فسيحة متباعد بعضها عن بعض ذات جدران عالية، تؤلف النموذج الأول لشكل وتخطيط قرى الشام الشمالية. ذكرها ياقوت في معجمه فقال: ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق. فيظهر أنها كانت في عهد ياقوت صغيرة غير كافية لتكون قصبة هذه الكورة التي كانت في جوسيه، ولم تتوسع إلا بعد أن اغتصت في عهد مجهول ماء قناة حمص. وفي ثورة سنة ١٣٤٤ استولى عليها الثوار الشاميون وقتلوا فيها مهندسين إفرنسيين من عمال إدارة المساحة فنصبت هذه الإدارة عند قبريهما في المحطة حجراً تذكارياً. وفي القصير نهر صغير من روافد العاصي يدعى الحاروث يروى أراضيها المنبسطة. وقد جعلت قاعدة ناحية تحوي قرى وضياعاً كثيرة تمتد إلى سفوح جبال أكروم والهرمل من أعضاد لبنان الشمالي.

وفي غربي القصير على بعد ٥ كم عند زاوية يؤلفها العاصي وأحد روافده اليسرى، تل النبي منر وهو تل صناعي قامت فوقه قرية صغيرة ذات مسجد فيه ضريح هذا النبي المجهول. وقد طبقوا عليه مدينة قادش القديمة التي كانت أحد معاقل الحثيين المخصصة لحراسة تخومهم الجنوبية. حدثت فيها بينهم وبين فراعنة مصر معارك كثيرة أهمها ما أتاه رعمسيس الثاني المعروف باسم سيزرستريس. فقد

جاءهم في سنة ١٢٩٥ ق.م عن طريق الساحل ماراً بنهر الكلب وطرابلس وسهل البقيعة فظفر بهم وأخضعهم ثم سالمهم وصاهر ملكهم. وقد ذكرت تفاصيل هذه المعركة ونقشت على جدران رامسئوم في الأقصر وممونيوم في أبيدوس وأبيسامول وقد نقب الأثري موريس بيزار الإفرنسي تل النبي في سنتي ١٣٤٠ ـ ١٣٤١ فاستخرج آثاراً مصرية عديدة من عهد الفراعنة وغيرهم وهي أوانٍ وأدوات وأسلحة، وأجلها كان نصب من الحجر الحري الأسود نقل إلى دار الآثار الوطنية بدمشق فيه صورة أشخاص ومعبودات منهم الفرعون ستي الأول الذي أقام هذا النصب تخليداً لذكرى انتصاره على موسين ملك الحثيين واستيلائه على قادش سنة ١٣١٥ ق.م، هذا وفي القصير ينحرف طريق حمص المعبد نحو اليمين (الشرق) ويتصل في الكم ١٨٠ عند بشمسين بطريق حمص ـ دمشق الموصوف في كتابنا الجولة الأثرية ص ٣٧٠ وما بعدها، وإذا ظل سائراً نحو شمالي القصير يترك على يمينه قرية ضيعة، وفي الكم ١٧٧ على اليسار قرية كمام وعلى اليمين محطة قطينة.

في الكم ١٨٠ قطينة، قرية مبنية في جنوبي تل ذي شأن أثري لم ينقب بعد، وعلى الضفة الشرقية بحيرة حمص. وصفنا هذه البحيرة في الجولة الأثرية .

وفي قطينة لحب ينفصل نحو اليسار ويذهب إلى الجنوب الغربي ويفضي إلى عرجوم (كم ١٥) وتل النبي في الكم ١٨٧ كفر عايا ـ في الكم ١٨٩ بابا عمرو ـ في الكم ١٩١ حمص.

الطريق من بانياس إلى مرجعيون

بعد الخروج من بانياس (وهي في الكم ٢٤ عن القنيطرة) يصادف في الكم ٢٥ جسراً على وادي الخشبة الذي يتكون من ينابيع بانياس .

في الكم ٢٧ جسر على وادي العسل وهذا أيضاً من روافد نهر الأردن ـ وفي الكم ٢٨,٥ على اليسار، وعلى بعد نحو ٤ كم عن الطريق للخط حرجة من الشجر الكثيف، وفي جانبها تل مستطيل الشكل (تل القاضي) ومكانة هذا الموقع ناشئة من أنه كان يرقب طريق دمشق. ولذلك استولى عليه الصيدونيون قبل مجيء

الإسرائيليين وقد ذكر حديث استيلائهم هذا من أسفار يشوع وأسفار القضاة. ثم أن ستمائة محارب من سبط دان الذين لم تعجبهم القسمة التي أصابتهم من الأرض جاؤوا يجوسون هذه الديار، ويبثون الجواسيس، فعاد هؤلاء وأخبروهم بمستعمرة الصيدونيين الصغيرة. فهجم الدانيون على حين غرة على الصيدونيين قبل أن يستمدوا المعونة من صيدون وذبحوهم عن بكرة أبيهم وبنوا مدينة دعوها باسم أبيهم دان، وكانت دان الحد الشمالي الأقصى لأرض الميعاد. كما كان الحد الجنوبي بئر السبع. ومكانة هذه البلدة جعلتها مطمح أنظار ملوك دمشق الآراميين، فظلوا يرواحونها القتال حتى استولى عليها ابن حدد، وظلت دان في مكانتها إلى أن عمرت بانياس وقلعتها وازدهرت فانحطت دان ومازالت حتى خربت، وظل اسمها، مستعملاً على شكل كلمة (القاضي) وهي تعريب دان.

يقوم تل القاضي فوق طبقتين غير متساويتين من السهل، بحيث إن واجهته الشمالية لا تعلو أكثر من ١٠ ـ ١٢ متراً. وواجهته الجنوبية تشرف على السهل من علو قدره نحو ٣٠ متراً. أما ارتفاعه عن سطح البحر فهو ٢١٦م. وقسم من هذا التل مزروع إلا أن أكثره مغشى بأعشاب وأشواك عالية تحول دون فحص آثاره. وفي جهته الغربية تنفجر مياه غزيرة من ينابيع عديدة تؤلف وسط المرج حوضاً واسعاً مدوراً تحيط به بضعة أشجار، ثم تخرج منه نحو الجنوب نهراً صغيراً أحد الأصول التي تؤلف نهر اللدان أحد روافد نهر الأردن، وليس في ذروة التل إلا قليل من الأنقاض الأثرية وأكثرها بروزاً في جهته الجنوبية بضعة أحجار منحوتة بازلتية من نفس صخر التل.

في الكم ٣٠ يجتاز مسيلاً ينشأ من نبع اللدان. ـ ثم يسير في سفح الجبل الذي تنفجر منه ينابيع عديدة تجتمع كلها في نهر الحاصباني فتؤلف نهر الأردن.

إن لنهر الأردن عدة ينابيع في لبنان وحرمون. وأعلى ينابيعه في جنوبي حرمون (جبل الشيخ) في جوار حاصبيا وارتفاعه عن سطح البحر (٦٠٠م) وهو مؤلف من نحو عشرين فواراً تنفجر من موضع ضيق ويتألف منها حوض عمقه ١٥ قدماً ثم تجتمع مياهها في مجرى واحد وتجري إلى الغرب ثم إلى الجنوب وتسمى بالنهر (الحاصباني) نسبة إلى بلدة حاصبيا، ثم بعد أن تقطع سهل الحولة تجتمع بمياه تل القاضي ومياه

بانياس وهما من أعظم ينابيع الأردن ويتألف منها نهر واحد يصب في البحيرة التي كان يسميها الرومان (ميروم يشوع) واليونان (سمخونيتيس) والعرب (الحولة) أو (الملاحة) أو (بحر بانياس) ثم هو يخرج من طرفها الجنوبي عكراً. ويجري إلى الجنوب فيصب في بحيرة طبريا. ويعبر من جسر اسمه جسر بنات يعقوب، ثم يخرج من بحيرة طبريا ويجري وسط سهل واسع يعرف بالغور إلى أن يصب في بحيرة لوط.. ويسلك الطريق خط الحدود الفاصل بين بلاد الشام وفلسطين، فما كان في جنوبي هذا الخط ويدعى سهل الحولة أدخل في حدود فلسطين إكراماً لخاطر الصهيونيين ـ في الكم ٣٢ الحدود بين جمهوريتي سورية ولبنان من ثم يستقيم الطريق على خط سوي نحو الشمال الغربي. في الكم ٣٤ جسر جميل فوق نهر الحاصباني بني سنة ١٩٢٨ اسمه جسر أبو زبلة. ثم ينحرف الطريق نحو اليمين ثم يبدأ الصعود والخروج من وادي الحاصباني. ـ في الكم ٣٧ على اليسار ووسط وادٍ ضيعة سمادة. ـ في الكم ٣٨ يلحظ نحو الجنوب سهل الحولة وبحيرتها ومستعمرة المطلة الصهيونية التي بناها في سنة ١٨٩٦/١٣١٤ البارون روتشيلد، وهي في أقصى الحد الشمالي لفلسطين. ـ في الكم ٣٩ على اليسار، يلحظ عن بعد على شفا جدار صخري قلعة (الشقيف (حصن بوفور). ـ في الكم ٤٢ على اليسار أيضاً فوق عرفة قرية القليعة. ـ في الكم ٤٤ يترك على اليمين طريقاً جيداً يفضي بعد ٢ كم إلى الخيام، وهي قرية كبيرة ومركز عسكري، تظهر عن بعد فوق أكمة، وثمة على اليسار أكمة مغطاة بشجر التين اسمها تل دبين وهي القديمة. في الكم ٤٥ مفرق طريق مرجعيون ـ حاصبيا وطريق بانياس الذي نذكره.

إلى حاصبيا ـ في المفرق المذكور آنفاً يسلك طريق حاصبيا، ففي الكم ٢ من المفرق يلحظ على اليمين قرية إبل السقي يصل إليها بمجاز. ـ في الكم ٣ يهبط الطريق إلى وادٍ سحيق الذي يجري فيه نهر الحاصباني، وعلى يمين الوادي الجانبي المسمى بوادي شبعا وهو أحد روافد الحاصباني. ـ في الكم ٦ يبلغ الطريق بطن الوادي الخضر النضر، وثمة أشجار زيتون وتين وغيرها، ثم بساتين حاصبيا، ثم يترك على اليمين مجازاً صالحاً لسير السيارات يوصل إلى راشيا الفخار، وهي قرية

تبعد عن الطريق نحو ٤٠ دقيقة، ويمكن من هذا المجاز بلوغ الهيكل الروماني في قرية الهبارية.

وثمة يلحظ على اليمين سوق الخان، وهو خان عربي قديم شبه خراب بناه أبو بكر أحد ا لأمراء الشهابيين، يقام حوله في كل يوم ثلاثاء سوق عام يتقاطر إليه القرويون من كل هذه الأنحاء. ثم ينحرف الطريق نحو الشمال ويوازي وادي نهر الحاصباني. ـ في الكم ٧ على اليسار وفوق الطريق وفي منكب الجبل كوكبا، قرية مارونية، سكانها ٤٠٠، وفيها كروم زيتون وتين. ـ في الكم ٨ معدن الجمر. ـ وفيه آبار هذا المعدن وهو البيتوم في الاصطلاح العالمي. ويستخرج مخلوطاً بطبيعته مع الكلس، من آبار وأقبية تحت الأرض ثم يغسل ويكسر. ـ في الكم ٨،٥ يترك على اليسار مجازاً صالحاً ليسر السيارات الخفيفة في الفصول الجافة (أصلح هذا المجاز أخيراً في سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ وعبد تعبيداً حسناً) (زفت) يصل بعد ١٨ كم إلى الطريق القادم من مجدل عنجر إلى راشيا .

ثم يقطع طريق حاصبيا جسراً فوق نهر الحاصباني، وهذا النهر ينشأ فوق الجسر لكيلو مترين ويتضخم باجتماع مسائل وادي التيم، ثم يصعد الطريق نحو الشرق في منكب الرابية وهو يدور في منعرجات عديدة، إلى أن يبلغ في الكم ١١ حاصبيا.

حاصبيا، كلمة سريانية معناها الجرار، سكانها نحو ٣٠٠٠، نصفهم دروز، وربعهم الأول أو أقل مسلمون سنة وربعهم الثاني نصارى من مختلف الطوائف، علوها ٧٤٠م، وحينما كانت تابعة لدمشق في العهد العثماني كانت مركز قضاء يتبعه ١٩ قرية تعد من وادي التيم الأسفل التي هي قاعدته. هذا وموقع البياضة جميل يطل على كثير من قرى وادي التيم وترى منه قلعة الشقيف وغيرها من بلاد مرجعيون وجبل عامل والحولة، فإذا أوقدت النار شوهدت إلى مكان بعيد وبعد الاحتلال ألحقت بلبنان في جملة الأقضية الأربعة التي سلختها اليباشة الإفرنسية عن دمشق، فجعلتها جمهورية لبنان مركز ناحية تتبع قضاء مرجعيون ثم تركتها كقرية بسيطة فيها مخفر للدرك فقط، وفيها مسجد للمسلمين السنيين وخمس كنائس ودائرة حكومة من بناء حمدي باشا والي الشام سنة ١٢٩٨. وهي مبنية على شكل

مدرج في بطن وادٍ من مراعي وادي التيم اسمه وادي بوحصيص، يمر في جوفه نهر صغير وعلى ضفتيه كروم جيدة من العنب والزيتون اللذين اشتهرت حاصبيا بهما، وكروم التوت والتين. ورأس هذا الوادي الواقع على بعد قليل نحو شرق البلدة قد سد في جهاته الثلاث بآكام شاهقة جعلت مناكبها على شكل مصاطب مدرجة (جلول) تستغل حتى أعلى قممها بالغرس والزرع. ويزاحم الرأس المذكور في الناحية الغربية شنخاب يمتد من الجنوب إلى الشمال ولا يدع للوادي إلا ممراً ضيقاً في الجهة الشمالية. والآكام التي تؤلف هذا المدرج الهائل ترتفع إلى علو نحو ٢٠٠ متر فوق الوادي، في الشمال وفي الجنوب والتي في الشرق تعد أعلى الكل.

وفي مدخل البلدة، قرب الجسر، يلحظ وجود جدران ضخمة لمبانٍ قائمة فوق الصخور تؤلف في مجموعها شبه القلعة مع مئذنة وبرك كبير مربع (في الجنوب الشرقي)، فهذه المباني هي (السراي) أو المسكن القديم للأمراء الشهابيين، ولا يزال مجيئهم إليها ١١٧٢م/٥٧٤ هـ.

بني السراي الأمير علي الشهابي سنة ١٦٠٠، وفي سنة ١٦٦٠ خرب أكثرها محمد باشا الكوبري ثم رممها الشهابيون وسكنوها، وخرب بعضها في سنة ١٨٦٠ فعادوا ورمموها وجددوا فيها منذ عهد قريب آذار ١٨٨٠.

ينتسب الأمراء الشهابيون إلى الحارث بن هشام المخزومي القرشي، قدم هذا من الحجاز أميراً على جيش من عشيرته في حملة الجيوش التي استنفرها أبو بكر الصديق لفتح الشام. وقد سكنوا أولاً في حوران وتولوا الأعمال للأمويين ثم للبنانيين وسموا بني شهاب نسبة إلى الأمير شهاب المخزومي والي حوران المتوفى سنة ١٠٧٣هـ/٩٧٣م، ثم انتقلوا إلى وادي التيم سنة ١٠٦٩ واستخلصوه من يد الإفرنج وتأمروا فيه، إلى أن مات الأمير أحمد المعني في سنة ١١٠٩م بلا عقب، فورث بعضهم مكان آل معن وانتقل إلى دير القمر وساد فيه إلى أواسط القرن الماضي.

وبنى فيها ثكنات الوافدون من وادي التيم وجبال صفد والجبل الأعلى في حلب وجبال لبنان وجبل حوران والفرديس وعين جرفا وبو قمحة وعين قنية وشوبا وعين تنا وميمس والخلوات والكفير. وفي الغرب برغز وكوكبا وقلية ولبابة والذنيبية،

وسكان هذه القرى أكثرهم دروز ثم روم أرثوذكس وبها قليل من المسلمين، السنية والشيعة والكاثوليك.

يسير الزائر إلى سطح الانصباب المقابل إلى أن يبلغ الهبارية، وهي قرية مسلمة، سكانها ٥٠٠ تحف بها بساتين الخوخ والدراق وغيرها في قرب هذه القرية هيكل يواجه جبل الشيخ، وهو خراب وقسم منه أقحم داخل بيت، ذرعه ١٧,١٠× ٩,١٠م، وعلوه من السطح إلى الكورنيش ٨,٢٠م، والواجهة الأصلية لهذا الهيكل تقع في الشرق، فيها عمودان مدوران في الوسط، ودعامتان من الطراز الأيوبي تنتهي بهما الجدران الجانبية. ويوجد في مثل هذه الركائز في الزوايا الغربية للهيكل، وجدران السيللا ما برحت قائمة، ماخلا التي في الجهة الشمالية. وثخن هذه الجدران متران والأحجار التي تتألف منها ذات ضخامة كبيرة وبعضها منقور نقراً محدودباً (أحجار صورية). وفي كل طرف من الهيكل فرونتون، وجوانب اليرونائوس زخارف بفجوات. والمداميك السفلى لبست بمنطقة مزخرفة كما لبس دائر السقف بكورنيشين مزدوجين.

الصعود إلى جبل الشيخ: ينبغي لمن يروم الصعود إلى جبل الشيخ أن يقضي ثلاثة أيام، وأن لا يحاول ذلك إلا بعد دخول شهر تموز أي عقب ذوبان الثلوج.

اليوم الأول. ـ يصعد من حاصبيا راكباً، فيصل في خلال ثلاث ساعات ونصف إلى شبعا. وهي قرية مسلمة، سكانها ٣٠٠٠، دورها مبنية بعضها فوق بعض في مسند الجبل المدعو بالوسطاني، وفي قربها نبع ماء غزير جداً. ينفجر من مغارة في جوار القرية قد جر الإفرنسيون هذه المياه بقساطل حديدية ووزعوها رغم ممانعة أصحابها من أهالي شبعا وشكواهم في قرى حاصبيا وجديدة مرجعيون وآبل السقي وغيرها، فارتوت هذه القرى بعد أن ظلت قروناً قليلة المياه، وفي أسفل هذه القرية وادٍ باسمها خضر نضر من وفرة مياهه والتفاف بساتينه ذات الأشجار والبقول المتنوعة الجميلة. وفي شبعا كما في حاصبيا يمكن الحصول بسهولة على بغال وأدلة ماهرين بالصعود، كما أنه يمكن أن يبيت في شبعا عند أحد القرويين.

اليوم الثاني. ـ من شبعا إلى قمة حرمون ٥ ـ ٦ ساعات. فيسير بادئ بدء في مجاز يمتد باستقامة وادي الخيام، وبطن هذا الوادي ملآن بكروم العنب، وفيه عيون

عديدة. وبعد ٣٠ دقيقة، يوجد شنخاب يقسم الوادي فيسلك المجاز الذاهب إلى عرنة وهذا ينحرف نحو اليمين ويدور حول الشنخاب نحو الشرق. ويتسلق هذا المجاز وسط الكروم ثم يسلك وادياً مائلاً فيه بعض الكئودة، ويلحظ من بدء ثنية، وهذه يبلغها خلال ساعتين. وحيئنذ يتبع عرنة نحو الشمال حتى يبلغ قمم حرمون.

ولجبل الشيخ ثلاث قمم الأولى وهي الأعلى تكون في الشمال وتشرف على سهل وادي البقاع وعلى سلسلة لبنان الشرقي والغربي، والثانية في جنوب الأولى وتبعد عنها نحو ٣٠٠ متر تشرف على غوطة دمشق وعلى الوادي السحيق الذي تتفجر منه ينابيع نهر الأعوج. والثالثة في غربي الثانية وتبعد عنها ٤٠٠ متر، أوطأ الكل، إلا أنها تشرف على وادي الأردن. وعلو القمة العليا ٢٧٦٠ متراً عن سطح البحر المتوسط و ٣٢٠٠ عن غور الأردن، وعلى هذا يكون حرمون الجبل الثاني في بلاد الشام، أي أنه يأتي بعد قرنة السوداء أعلى قمم شمالي لبنان وكل بلاد الشام التي علوها ٣٠٠٠ وقد تقدم وصفها، والقمة العليا في حرمون تشبه الشكل المخروطي وتعلو بقية جبال الشام نحو الف متر، ومثل ذلك عن أعلى قمم سلسلة آنتي لبنان فوق الزبداني.

وفي القمة الأولى العليا يمتد النظر نحو الشمال فوق سهل البقاع، وسلسلة لبنان الغربي وسلسلة لبنان الشرقي ووادي الزبداني ويمتد في الشرق فوق بادية الشام الكبرى المحصنة في البعد وفوق جبل حوران، وسهوله، وفي الجنوب فوق وادي الأردن وبحيرتي الحولة وطبريا، وفي الجنوب عند الأفق البعيد جبال الجليل وجبال نابلس حتى جبل الكرمل، وفي الغرب يلحظ في أوقات صفاء الجو البحر المتوسط من رأس الكرمل حتى خرشوم صور ووراء هذه المسافة جبل الجرمق وتومات نيحا وجبل الباروك وجبل الكنيسة، وأخيراً جبل صنين الذي يسد ما وراءه.

وكان اسم حرمون عند الآشوريين وعند العموريين وعند الفينيقيين وذكره العهد العتيق في مواضع كثيرة باسم بعل حرمون. وكان هذا الجبل مقدساً، واجل مراكز العبادة القديمة التي تقام في الأماكن المرتفعة. وكان في نظر الكنعانيين عرش الإله الأعلى ملك الأرض والسحب، ويروي القديس جروم أنهم كانوا حتى في زمنه (٣٣١ ـ ٤٢٠) يصعدون إليه ويقدمون القرابين في قمته. وفي العهد الروماني كان يعد حرمون كالكرمل ولبنان وكاسيوس (الجبل الاقرع شمالي اللاذقية) من

الأماكن المقدسة بل كان يعد إلهاً، وقد شيدوا له في سفوحه هياكل عديدة، ففي سفحه الغربي قلعة بصرى والهبارية وعين حرشا والنبي صفا، وفي شماله عهيا، ورخلة ودير العشائر وبرقش، وفي شرقه قلعة جندل وعرنة وحينه.. الخ. وسماه العرب جبل الشيخ لما وجدوا من الشبه بين قمته البيضاء وهامة شيخ شائب.

وفي أعلى قمته الثانية أطلال بناء من دور الوثنية يدعى قصر عنتر. فشنعوف القمة، وهو بشكل المخروط، يعلو ٥ ـ ٦ أمتار، تحيط به تصوينة (صوان) من الحجر شكلها بيضوي، كان فيها قبلاً مدماكان مؤلفان من أحجار ضخمة منحوتة نحتاً كاملاً ومقحمة وسط الصخر. وقد أضافوا إلى هذا السور المقدس في جهة الجنوب هيكلاً صغير الحجم، تدل نقوشه على أنه من العهد الروماني، وشنعوف القمة نفسه كان مبنياً. إذ يرى بين الجدران الصغيرة التي أقيمت لحمل خشبة الإشارة الحبؤذرية، من الصخر كان محفوراً على شكل قمع قطره ٣ ـ ٤ أمتار. وقد عثر العالم الأثري كلرمون غانو على كتابة يونانية وجدوها بين أحجار السور البيض، ذكر فيها ترتيب الاحتفال والعرض الديني الذين كانا يجريان حول الشنعوف المقدس المذكور، وهذا العرض طقس معروف عند الأقوام السامية وآخر آثاره الطواف يقوم به المسلمون حول الكعبة. أما القمع الذي في قمة الشنعوف، فهو يذكر بمذهب معروف بين المذاهب الشامية، باسم (يريد)، وقد دعاه المؤرخ لوسيان المسيساطي باسم (النزول إلى النبع)، وهذا يعني نقل كمية من الماء من حدود البحر أو الآبار إلى قمة الجبل باحتفال فخم، فكانوا ينقلون هذه المياه ويسكبونها في ذلك القمع، ويقصدون بذلك أن رشحات هذا الماء إلى أعماق القمة تؤدي لغزارة جريان الينابيع.

ومن القمة يعود أدراجه إلى شبعا، فيقضي ليلته فيها، وفي اليوم الثالث يعود إلى حاصبيا، أو يهبط إلى راشيا، أو إلى قطنا عن طريق قلعة جندل وفي هذه أنقاض حصن صغير.

من حاصبيا إلى راشيا. من اللحب الصالح للسيارات (٢٨ كم) يسلك السائر لحباً يتجه نحو الشمال، وهو على طريق جديدة مرجعيون بعد الجسر الذي على نهر الحاصباني وعلى بعد ٣,٥ كم من حاصبيا.

ففي الكم ٢ على اليمين حوض ماء جميل محصور بسد، وفيه نبع نهر الحاصباني، بل هو معدود أحد الينابيع الأصلية لنهر الأردن الأعلى. وهو على الأقل آخر نبع دائم، لأن في أعلاه ليس سوى مسائل وادي التيم التي تجف في بعض أقسام السنة. والجدول الذي يشتق من الحوض أو النبع المذكور ينحدر بعد ١ كم في بطن وادي التيم ويؤلف مع هذا الوادي النهر المدعو بالحاصباني.

وفي شرقي الشنعوف المذكور على بعد نحو ١٥ متراً مغارة كانت مبنية بدليل أن فيها عموداً منحوتاً كان يحمل سقفها، يلجأ إليها الآن المقرورون من رواد الجبل.

ويدرج اللحب نحو الشمال الشرقي، في حصن الرابية ويحاذي مهاميز عديدة تنفصل عن جبل بير الضهر. ويعبر جداول عديدة. ويتمتع السائر إذ ذاك بمنظر رائع يتجه نحو كتلة جبل حرمون.

في الكم ٩ يلحظ على العرفة التي على اليسار قرية لبايا ويلحظ في الوادي الأيمن وفوق مهماز ضيعة الذنيبة، وفي الجانب الآخر من هذا الوادي روضة اسمها السفينة.

في الكم ١٢ حوش الناعمة، قرية نصرانية حديثة، هدمت بالمرة في ثورة سنة ١٩٢٥/١٣٤٤ ثم جددت كلها.

في الكم ١٣ على اليسار ضيعة اسمها النبعات وفيها خمار يعمل الخمور. ومن هنا مجاز جيد للدواب، ذو ميل شديد نوعاً ما يفضي صعوداً بعد ٣٠ دقيقة إلى قرية النبي صفا وفي شمالها يرى بقايا هيكل ذرعه ـ ٢٢×١١ متراً وهو خراب جداً. لم يبق منه سوى المداميك العليا للجدار الشمالي والزاوية الشمالية الغربية منه، وتاج عمود من الطراز الأيوبي يحمل طرف فرونتون مثلثي الشكل قد خرب اليوم. أما بلاط باحة هذا الهيكل فلا يزال سالماً. وتحت البناء ينفذ من درج ذي بضع درجات إلى عدة غرف بعضها ملآن، تتألف من أحجار جيدة النحت مرصوفة بدون طلاء وبدون فواصل بينها. وبلاط الباحة العليا يؤلف سقف هذه الغرف، وهي محمولة بكورنيشات ضخمة. وفي جنوبي القرية يوجد بضعة نواويس.

في الكم ١٧ يلحظ على اليسار فوق عرنة قرية كفر مشكة، يوصل إليها لحب صالح، وإذا انفصل السائر نحو يسار كفر مشكة يصل أيضاً في ٤٠ دقيقة من مجاز رديء إلى قرية النبي صفا التي تقدم ذكرها.

يترك على اليسار لحباً صالحاً يلاقي بعد ٨ كم طريق مضائق الليطاني الذي يأخذ من راشيا إلى مشغرة. وهذا المجاز يمر بين قريتي كفر مشكة على اليسار، وكوكب (على اليمين) ثم يجتاز معبراً فيشرف عليه حيئنذ من علو ٣٠ متراً قرية مجدل بلهيص الجاثمة على جبل اسمه الجبل الغربي.

ثم إن طريق راشيا ينحرف نحو اليمين ويجتاز سهلاً أجرد فيه رجوم وأوعار. ثم يلحظ على اليسار قرية كوكب التي هوجمت وخربت في ثورة ١٩٢٦ وهي الآن تجدد وفيها شجرتا سنديان عظيمتان محترمتان.

في الكم ٢٠ على يمين المجاز عين اللبوة. يلحظ فوق نشز صخري راشيا وقلعتها - في الكم ٢٢ يلاقي مرة أخرى طريق مجدل عنجر وراشيا - في الكم ٢٨ راشيا.

من حاصبيا إلى راشيا من مجاز الدواب ٤,٥ ساعة

يعبر هذا المجاز وادي حاصبيا فوق جسر، ثم يرى الفتى هضبة متمعجة فوق رابية مغروسة بالزيتون، ويبلغ بعد ربع ساعة قرب غابة صغيرة، وثمة ثنية تدعى رأس زغلة فيها منظر جميل نحو حاصبيا. ومن ثم يهبط المجاز فجأة في درك شاق رديء. ثم يلف حول أحد أعضاد جبل الشيخ تارة من جلول وتارة من منحدر ضعيف. ثم يعبر في الدق ٤٥ جدولاً اسمه نهر أبو دجاجة، ثم بعد ساعة يبلغ ميماس التحتى. ثم تزداد كؤودة المجاز فيمر بعد ساعة من قرب حوض ماء جميل ويحاذي خلال ساعة وربع الحدود الشمالية لقرية ميماس الفوقى.

ثم يترك على اليمين مجازاً شديد الكؤودة يوصل في ٢٠ دقيقة إلى قرية خلوة الكفر، وفي شرقي هذه على بعد ١٠ دقائق غابة سنديان باسم النبي شيت في طرفها آثار مبانٍ خربة، وثمة تحت شجرة عظيمة ضريح حجري عليه رأس صبي مزخرف. ويظن البعض أنه مدفن الدرزي مؤسس المذهب الدرزي.

ومن ميماس الفوقى يدور مجاز الدواب وهو هنا جيد - حول التلعات الحاملة لخلوة الكفير، ثم يصل في ساعتين وبعد هبوط مدرج إلى بطن واد كبير كثير الحصى. ثم يعود للتصعيد والتجمع بين كروم الزيتون فيلحق بعد ساعتين وربع كفير الزيت، قرية كبيرة، سكانها ٨٠٠ أكثرهم روم أرثوذكس وهي مسقط رأس الأستاذ فارس الخوري رئيس المجلس النيابي السوري ومن ثم يصعد المجاز في مشقة بين كروم العنب إلى أن يصل في الساعة ٢ والدقيقة ٤٠ إلى العرنة التي في شمالي الكفير. وفي الساعة ٣ يعبر وادياً صغيراً في مبدئه قرية عين عطا، سكانها ٦٥٠ أكثرهم دروز ولها مجاز إلى اليمين يوصل إليها في ٣٠ دقيقة. ويترك على اليسار مجازاً آخر يوصل إلى سفينة.

ومن ثم يهبط المجاز نحو عين حرشة في دركات شاقة إلى أن يصل في الساعة ٣,٣٠ إلى بطن الوادي وإذا ترك المجاز نحو اليمين يمكنه أن يصل في ٣٠ دقيقة إلى هذه القرية، ليبلغ العرنة التي تشرف عليها وفي ذروتها على بعد ١٦٠٠ متر عن القرية هيكل روماني. وهو هيكل يعد أكثر هياكل سفوح جبل حرمون سلامة فجدرانه الأربعة ما برحت قائمة. وهو بناء صغير يتجه نحو الشرق، ذرعه نحو ١٢× ٨ متراً وعلو سطحه ذي الكورنيش يبلغ ٥,٧٠ متراً. أما السقف فساقط. ويلحظ في هذا الهيكل باب مزخرف زخرفاً متقناً. والكورنيش مزين برأسي أسد بينهما رأس نمر. وفي فجوة تشبه الحنية في الطرف الغربي نصب امرأة من الزخرف الناتئ تحمل على رأسها قرنين. (وهي لا ريب تمثال عشتروت) وقد شوه وجهها. وفي واجهته مدخل الهيكل في الشرق يلحظ وجود بضعة نواويس وكتابة فوق الصخر.

وإذا عاد إلى مجاز راشيا عن طريق عين حرشة يسلك بادىء بدء بطن وادٍ في الساعة ٣,٤٠ ثم يبتعد عنه ليجتاز مهمازاً وجدولاً. ثم يتسلق المجاز نشزاً مرتفعاً جثمت فوقه قرية بيت لهيا، فيجتازها، ثم يلحق بعد مرور حقول مزرعة العرنة التي في جنوبي بكفية التي يلحظ حدودها فقط. ثم يرتقي المجاز عقبة مدرجة بين كروم التوت والتين فيبلغ أخيراً في الساعة ٤ راشيا.

من حاصبيا إلى بانياس

راجلاً أو راكباً فالمسافة نحو ٥,٣٠ دقيقة أما إذا أراد اختصار الوقت والتعب يركب سيارة إلى راشيا الفخار من طريق جديدة مرجعيون ومن لحب سوق خان راشيا الفخار .

يسلك بادئ بدء خلال ساعة ونصف طريق جديدة مرجعيون، وفي الوقت الذي يشرع هذا الطريق بالدوران حول خط العرف التي تحيط بوادي نهر الحاصباني في الشرق، ينفذ نحو اليسار في مرج يقع بين تلك العرف وكتلة خلوة البياضة. ويمر المجاز بين كروم الزيتون والعنب متجهاً نحو قرية (أبو قمحة) فيتركها إلى اليسار (٤٥ دقيقة) ثم يهبط نحو وادي شبعا ويعبره خائضاً ليلحق لحب السيارات في سوق الخان في راشيا الفخار ويظل سالكاً هذا اللحب حتى العرنة التي تحمل قرية راشيا الفخار. ومن ثم يتركه ليسلك على اليمين بين كروم العنب المجاز الأول الذي يصادفه. وهذا المجاز يتجه نحو الرأس الرفيع المستور بالغابات في قرية الخريبة، فيصله في الساعة ١ والدقيقة ٤٥ ومن ثم يأخذ مجاز المارنة (في الساعة ٢ و ٤٥ دقيقة) ومن هذه القرية يصعد في الساعة ٣ ثنية صغيرة منها منظر جميل نحو سهل الحولة وجبل هونين الذي يشرف عليها من غربها. وبعد هذه الثنية يعود للهبوط في الساعة ٣ وربع إلى واد نضر اسمه وادي سريايب، يسقى بجدول يجتازه وبعد هذا الوادي يعود للصعود (في الساعة ٣,٢٥) إلى هضبة جميلة مغروسة بالسنديان الأخضر، وهي تمتد تحت أقدام الأعضاد الأخيرة لجبل الشيخ وتشرف على وادي نهر الحاصباني، ثم يهبط (في الساعة ٤) إلى ينبوع عين الخرويعة. وفوق هذه العين تقوم خربة تدعى قلعة بصرى في جهة الشمال الشرقي فوق قمة أكمة مرتفعة أكثر من ٣٠٠ متر يمكن الوصول إليها خلال ٤٥ دقيقة وهذه الخربة مجموعة هياكل متهدمة بالكلية، يلحظ بضعة أعمدة وأبواب مزخرفة بنقوش بارزة.

وبعد عين الخرويعة يترك المجاز على اليمين نبع ماء ثم يدور حول الحضيض الغربي لجبل الشيخ ويعبر وادي العسل، فتظهر حينئذ أمامه قلعة الصبية ـ ثم يجتاز

بقعة ذات غابات وزروع حسنة ويبلغ في الساعة ٥ و ١٥ دقيقة وادي الخشبة وبعد ١٠ دقائق يصل إلى قرية بانياس.

من راشيا إلى وادي الزبداني ومحطة التكية (٦ ساعات) في مجاز دواب، يجتاز سهل عجا أو مستنقع قرية عجا، ثم يدخل وادي تكية الطويل الذي وقعت فيه معركة بين إبراهيم المصري والدروز كانت الدائرة عليهم.

رحلة إلى وادي العجم والجولان

دفعني حب التجوال إلى زيارة قضاء وادي العجم، وأصعد إلى قمة جبل الشيخ، وأهبط منها نحو أوعار الجولان، وأبلغ منابع الأردن في بانياس وسهل الحولة وبحيرة طبريا، وأصل إلى المكان الذي رقص فيه جيش الروم عقيب معركة اليرموك وكنت حسب عادتي لا أكتفي.

ساقتني التقادير مرة لزيارة قضائي وادي العجم والجولان. وتجولت فيهما وبحثت عن شؤونهما الجغرافية والتاريخية والعمرانية شأني في كل أرض حللتها، وقد أحببت أن أنشر خلاصة ما رأيت وما بحثت عنه ليطلع عليه من فاتتهم رؤية هذه الأماكن التي لم توصف بعد في كتبنا العربية على هذا النسق:

تقرير قرية مورك

الموقع شمالي حماة، ٢٨ كم على الطريق العام المؤدي إلى حلب، من قرى ناحية طار العلا.

الحدود شرقاً العطشان، معان، سكيك، شمالاً خان شيخون غرباً اللطامنة جنوباً لحايا، الطيبة، صوران، تبعد عن محردة ٢٠ كم وهي في سهل فسيح، وفيها تلان أثريان (تل الحبي) و (تل الشيخ علي) وهو أكبرهما، وقد نقب فيه سنة ١٩٣٨ الدكتور فعثر على قبور تعود إلى القرن ٢٠ ق.م

الأودية، وادي الدورات في جنوبي أراضي القرية، يفصلها عن أراضي صوران ووادي خنزير وادي السعف ووادي العميق في الشرق، تعد مورك مع صوران وكفر

زينـة واللطامنـة والطيبـة مـن القـرى الزراعيـة المهمـة، وأهلـها مجـدون وقـد اشـتهرت ببطيخها الجيد الضخم.

المساكن، قباب مخروطية، ٥م، لا نافذة ولا شباك، سوى الباب، نفوسها ١٨٠٠.

الفصل التاسع

من درعا إلى أم الجمال

ـ من درعا يمكن الوصول رأساً إلى أم الجمال على طريق ترابي جيد جداً يشق البادية، صالح للسيارات في الفصول الجافة، طوله ٥٢ كم، ففي أوله عند الكم ١٣ نصيب، وفيها محطة للسكة الحجازية، وفي الكم ٢٢ خربة سما (وفيها دير القديس جاورجيوس) من سنة ٦٢٤م وهي على وادي البطم، وفي الكم ٣٤ خربة أم السراب مهجورة وفيها كنيسة باسم القديسين سرجيوس وباخوس من سنة ٤٨٩م، وفي شرقي أم السراب خربتا السماقيات وطيسية، وفي جنوبي السماقيات قلعة البائك، ثم في الكم ٤٤ المبجة، وبعدها في الكم ٥٢ أم الجمال.

وأظن أنها التي ذكرها ارميا في (سفر ٢٧..) زارها كراهام ودادنيكتون ويفكر فريق من الدروز بسكناها وقد بنوا فيها البيوت، لكنهم لم يستقروا بعد وهي في معزل من الأرصفة الكبرى.

أتيح لي رؤيتها من بعد وأنا في السيارة في طريقي من بغداد إلى محطة المفرق، (١٢ تموز ١٩٤١)، وهذه المحطة غربي أم الجمال وعلى نحو ٦ ـ ٧ كيلو مترات عمقاً، وهي تظهر للرائي منها.

من بصرى إلى صلخد ٣٩/٢/٢٠

أولاً ـ من الطريق المستقيم. ـ ٢٣ كم إلى الشرق. وهو طريق جيد التعبيد. يتبع هذا الطريق بادئ ذي بدء الرصيف الروماني الذي كان فيما مضى يصل بصرى بصلخد وبدرعا، ويجتاز سهولاً كئيبة يعثر فيها على كثير من أعمدة الروابط.

في الكم ٩ على اليسار مجاز صالح يذهب مباشرة بعد ٢٣ كم إلى السويداء ماراً بالقريا ورساس. وبعد مسافة قليلة على اليمين الطريق الذي فيه دورة ذيبين ـ أم الرمان ـ صلخد (٣٨ كم وقد تقدم) ثم في الكم ١٣ يترك على اليمين مجازاً يوصل بعد ٢ كم إلى قرية الهيت، وفي الكم ٢٣ صلخد

ثانياً. ـ من المجاز المحاذي لحدود البادية وخربة أم الجمال (نحو ٩٠ كم). من كان لديه متسع من الوقت يسلك هذا المجاز من بصرى إلى صلخد فيشاهد فيه عدة أماكن أثرية ذات فائدة.

ففي الكم ٢٥ أم الجمال. ـ قرية مهجورة خراب من أعمال شرق الأردن، وهي واقعة على خط حدود جبل العرب، هذه آخر قرية في طرف البادية. وأعظم خربة في هذه البقاع، وهي من العهد البيزنطي يخترقها وادي العاقب القادم من الجنوب وهو أحد روافد الزبيدي. تمتد خرائب أم الجمال في مساحة ذرعها ٨٠٠×٣٠٠ متر، (٢٤ هكتاراً) وقد أحاط بها سور فيه ستة أبواب ظاهرة، اثنان منها في كل من الجدار الجنوبي الشرقي والجدار الغربي. وأجمل الأبواب هو الذي في شمال الجدار الغربي، ويتألف هذا الباب من عضادتين قائمتين ركب فوقهما قوس قليل الانفتاح، وقد حصن بحجرتين مبنيتين في الواجهة الداخلية من الجدار يدخل إليها من الشارع، ولا تزال إحداهما التي في الشمال سالمة. والباب الذي في شرقي الجدار الجنوبي والباب الذي في وسطه كانا محصنين بأبراج. أما بقية الأبواب فقد كانت فتحات أو ثغرات عادية ذات عقود. وأبواب الجدار الشمالي قد خربت. ولا ريب في أن هذه الجدران قد شيدت نحو أواخر القرن الثاني الميلادي، أما خرابها فلعله قد حدث في القرن الرابع واستعيض عنها فيما بعد بجدران شيدت على نفس المخطط في خارج الجدران السابقة التي لا تزال آثارها بارزة في الجهة الشرقية.

وقد كانت أم الجمال في القرن الأول الميلادي قاعدة نبطية ذات شأن كبير. ولا يزال فيها من مباني ذلك العهد أطلال هيكل وثني صغير جميل يقع في شمالي الباب الغربي. ويتألف هذا الهيكل من شكل قريب من المربع. وفي واجهته الشمالية ثلاثة أبواب. والجداران الشرقي والغربي يستطيلان في ما بعد الواجهة بنحو ثلاثة أمتار ثم ينحرفان عند انتهائهما نحو العمودين اللذين يتقدمان المدخل.

وكان في هذه المدينة عدة صهاريج وخزانات ماء. وأعظمها يقع في شرقي منتصف البلدة بقليل. وذرعه ٣٠ في ٤٠ متراً، وبعضه منقور في الصخر وبعضه مبني. وفي زاويته الجنوبية الغربية يرى بقايا درج يوصل إلى قعره. وكانت الماء تأتيه بقناة مجرورة من الوادي الذي في غربي المدينة (وادي العاقب). وثمة ثلاثة صهاريج أقل شأناً من الأول كانت تستمد قسماً من مائها من تلك القناة أيضاً، لكن أكثر الماء كان يأتيها من السيول.

وبين البابين الغربيين، وعلى بعد قليل لا يزيد ثلاثين متراً عن السور القديم، وفي أطراف الباحة الواسعة الممتدة وسط المدينة يوجد بناء عظيم لم تعرف الغاية منه. وشكله شبيه بالمنحرف. والمدخل الأصلي مفتوح وسط واجهته المنحرفة نحو الجنوب فينفذ الداخل منه إلى باحة داخلية محاطة بأروقة، فيها أربعة أعمدة، وعلى يمينها بهو شكله كالصليب، وعلى يسارها بهو واسع عليه قنطرتان صغيرتان يوصل إليه من ثلاثة أبواب، ولا يزال يظهر على سطحه أطلال الطابق الثاني. وفي شمالي هذه الأبهاء الثلاثة يوجد خمس غرف. فالشرقية منها يشرف عليها البهو ذو الشكل الصليبي، والغربية يشرف عليها البهو الكبير ذو القنطرتين. أما الغرف الثلاث الباقية فتتصل مباشرة بالباحة الداخلية. وثمة درج خارجي يبدأ من الزاوية الجنوبية الشرقية للبناء يوصل إلى السطح. وتاريخ هذا البناء من القرن الرابع.

وفي الجهة الجنوبية من جدران السور يوجد بناء يشرف عليه برج مربع الشكل لا يزال سالماً بتمامه. والأعراب هنا يسمون هذا البناء الدير. وهو على شكل مستطيل واسع قد أحاطت بكل جهاته غرف مفردة أو مزدوجة. وبعضها ذات طبقتين حول البرج. وليس لهذا البناء مدخل إلا من باب واحد مفتوح في الجدار الشرقي على بعد يسير من طرفه الشمالي. أما البرج فقائم عند الزاوية الجنوبية الشرقية وذرعه في

المربع ٤,٤٠ متراً وعلوه ١٥ متراً، وهو مبني بحجارة جميلة النحت، ومن الغريب أنه لايزال سالماً بتمامه. وهو مؤلف من ست طبقات، وفي أعلاه، وعلى كل من واجهاته قد فتحت نوافذ مستطيلة الشكل مسدود جزء منها. وقد نقش على كل من الواجهات اسم أحد الملائكة كميكائيل وجبرائيل ورافائيل وأوربائيل. ويرى على البرج أيضاً كتابات أخرى دينية. وفي الجهة الشرقية من البناء قد التصقت كنيسة من الأبواب المفتوحة في كل من جهاتها الكبرى. وكان هذا البناء في زمن معروف متخذاً كدير. ويظن أن المدخل الحالي قد قام مقام مدخل فخم سابق. وربما كان هذا البناء من القرن الرابع الميلادي.

وكان للريازة الدينية في مدينة أم الجمال تقدم شديد تدل عليه كنائسها الخمس عشرة ولهذه الكنائس نموذجان رئيسيان. فبعضها ذات شكل مستطيل أو مربع مع قناطر تماثل الأسواق المعقودة الكبيرة الرومانية التي يوجد منها في حوران ومنها قيسارية شقا. وبعضها منقسم إلى ثلاثة صحون مع حنية مدورة الشكل، حولها دهاليز منورة راكبة فوق الصحون الجانبية الواطئة التي على طريق نخورس. وأغلب هذه الكنائس ذات مداخل فخمة قليلاً أو كثيراً مع أعمدة أو أبراج جانبية وبعضها ملحق بدير وبعضها مستقل بذاته.

وأجمل هذه الكنائس سلامة تقع خارج الباب الشمالي للجدار الشرقي. ولهذه الكنيسة باحة كبرى معقودة قد خرب جناحها الشمالي بالمرة، وهي تنقسم إلى ثلاثة صحون بصفوف أقواس مستطيلة لكل منها أربعة أطواق. والحنية عميقة جداً على جناحيها حجرتان تنفتح نحو الصحون الجانبية الواطئة. وكان المدخل محصناً من خارجه ببرجين مربعين لم يبق منهما إلا أثر ضئيل.

ولنذكر أيضاً كنيسة نومريانوس. وهي مبنية على التخطيط العادي للكنائس ذات الثلاثة الصحون مع حنية نصف دائرية ومحصنة بصياصي تنفتح نحو الصحون الجانبية الواطئة، وفوق هذه الصحون كان يمتد دهليز واطئ يأخذ نوره من الخارج ويوصله من فجوات إلى الباحة الكبرى المعقودة. وكان في لصق الجدار الشمالي للكنيسة دور للسكن تحتوي على باحة متوسطة اصطفت حولها غرف عديدة.

ويمكن أيضاً أن تزار كنيسة جوليانوس. وهي تقع في الطرف الشمالي من مجموعة المباني التي في الشمال الشرقي للباب الشمالي المنفتح في الجدار الغربي للمدينة. وهي على رغم خرابها الزائد، لاتزال تبدي فائدة كبرى، لأنها أقدم كنيسة عرفها التاريخ. فهي تعود إلى سنة ٣٤٥م. وهي تتألف من باحة كبيرة معقودة مستطيلة الشكل تنتهي في الشرق بحنية نصف دائرية. وكان سقفها محمولاً على عشرة قناطر متوازية وعمودية على محور البناء. وفي خارج الجهة الشمالية كان يصطف أربعة ابهاء. وكان في امتداد الجهة الجنوبية صف أعمدة فيه ثمانية أعمدة ثلاثة منها لا تزال حتى الآن سالمة، تؤلف الحد الشرقي لباحة مستطيلة حولها في الجهات الثلاث حجرات لاتزال سالمة أيضاً بتمامها.

وفي وسط الجدار الشرقي يمكن أن يرى أطلال كنيسة مكانها لا يزال ملحوظاً بجلاء. فحنيتها وصحنها قد جعلا وسط شبه منحرف. وهذا قد حصن بصيصتين ضيقيتين تنفتحان نحو الصحن. وأمام المدخل يتقدم الكنيسة رواق ذو ثلاثة أعمدة يتقدمه أيضاً درج. وكان في لصق الجهة الجنوبية مبانٍ للسكن لا تزال سالمة.

وفي الحي الجنوبي الشرقي يوجد كنيستان متعانقتان. فالشمالية ذات شكل مستطيل لها ثلاثة صحون غير متساوية العرض بحكم صفي الأعمدة الموجودين فيها، وهما يحملان قناطر صغيرة. والجهة الشمالية التي فتح فيها باب تؤلف واجهة الكنيستين معاً. وفي الجدار الجنوبي بابان يوصلان إلى الكنيسة الجنوبية التي لا تختلف عن الشمالية المذكورة أي أنها مبنية بصفوف قناطر صغيرة متوازية تحمل السقف. والواجهة الأصلية قد فتح فيها باب كبير. وعلى اليمين إذا ما ولج الزائر يرى جرناً لماء المعمودية بارزاً من الجدار. والحنيتان تحتويان على حنايا عميقة تبرز من جدار الكنيسة الشرقي.

أما الجدار الجنوبي للباحة الكبرى المعقودة فقد خرب. أما الكنيسة العظمى في أم الجمال فقد قامت في منتصف المدينة ووسط الساحة البلدية الكبرى. إلا أنها قد خربت تماماً، ولا يظهر منها إلا جدرانها الجنوبية والشمالية فقط، وقد كان لها باحة عظيمة معقودة مستطيلة الشكل منقسمة على ثلاثة صحون بصفين من

الأعمدة وكان لها حنية نصف دائرية محصنة بصيصتين تنفتحان على الصحون الجانبية الواطئة. وكان في الواجهة الأصلية ثلاثة أبواب يتقدمها أربعة أعمدة. وكان في الجدار الشمالي غرفة متصلة مع الصحن الجانبي الواطئ الشمالي.

على أن معظم خرائب أم الجمال يتألف من المساكن أو الدور الخصوصية. وكانت هذه الدور مجتمعة على شكل أحياء تكثر مكانتها أو تقل، ويفترق الحي عن الآخر بشوارع ضيقة متعرجة. وكل الدور في هذه الأحياء كانت ذات باحة واحدة أو عدة باحات. وكان لها على الشارع عدة واجهات مستقيمة عديمة الزخرف وقلما كان يفتح لها نوافذ في الطوابق السفلى. وكان يوصل من الشارع إلى الباحة العامة من ممر أو عدة ممرات معقودة. أما الأبواب والأدراج والنوافذ والشرفات فقد كانت تتجه إلى الداخل لباحات الدور وكان لهذه الدور عدة طوابق قد تبلغ الأربعة. والشكل الأكثر شيوعاً لهذه الدور كان يتألف من طابقين يحتويان على ابهاء عظيمة فيها قنطرتان أو ثلاث قناطر صغيرة، قد امتزج بها أربع طبقات من الأبهاء الصغيرة وذات السقوف الواطئة. وكلها كان مغطى بسطح مستو. وكانت الجدران مكسوة في خارجها ببلاط وفي داخلها قد طليت وزخرفت بطبقات من الجص، ولعل هذا كان ملوناً. ويظهر أن هذه المدينة كانت تحتوي على ١٥٠ حياً، وعلى سبعة أو عشرة آلاف من السكان. وهم الذين كانوا يقطنون الدور، فإذا أضيف إليهم كل الطبقات الدنيا من الشعب، صار العدد ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما ذكر. ومعظم هذه الدور من القرن الخامس أو السادس، وأقدمها عهداً لا يبعد عن القرن الأول.

والمقبرة تحيط بالمدينة. واليوم لا يمكن أن يرى فيها أي قبر. فقد كانت الأضرحة مباني حقيقية مؤلفة من باحة متوسطة يدخل إليها من باب. وكل الجهات ـ ما خلا التي فيها الباب ـ كان فيها صفوف من المشاكي بعضها فوق بعض لوضع أجساد الموتى.

ولهذه القبور ثلاثة نماذج، الأول تلك التي مدفونة بكاملها، والثاني تلك التي حفرت في حضن جبيل وتركت كل واجهاتها ظاهرة، والثالث تلك التي دفن قسم منها وبرز القسم الآخر فوق الأرض. وفي بعض هذه القبور كتابات نبطية، وهذه

أقدمها عهداً وأخرى من القرن الأول والثاني، والبقية لها كتابات يونانية وتمتد عهودها حتى القرن السادس.

هذا وفي أم الجمال ينحرف المجاز نحو الشرق ويسير في أطراف البادية وعلى الحدود الفاصلة بين بلاد الشام وشرقي الأردن في طريق أصلحه الإفرنسيون والإنكليز. ففي الكم ٣٥ خرائب الصبحية، وهي من عهد أم الجمال وفيها بركة رومانية. وفي الكم ٥١ أم القطين، خربة مهجورة، وهي من أوسع خرائب حوران الجنوبية، طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٢٠٠ متر. ليس فيها أي أثر من الريازة المدرسية (الكلاسيكية) وتدل الكتابات الملتقطة من بين أطلال ثلاثة كنائس كبيرة وكنيستين صغيرة قد خربت تماماً. وفي الجهة الشرقية من هذه المدينة لا يزال يرى ركام من الأطلال أقل دثوراً من غيرها يشرف عليها برج مربع. وهذه الأطلال تعود إلى دير. وهي مؤلفة من كنيسة ذات ثلاثة صحون مع حنية نصف دائرية تتجه نحو الشرق، ومن مجموعتين من المباني ذات الباحات الداخلية في الجنوب الشرقي، وثمة باحات أخرى بينها واحدة أحجارها جميلة منحوتة وسالمة بتمامها، وكلها كانت تعود لدور خاصة.

وبعد اجتياز خربة عواد في الكم ٤٩ وهي ضيعة درزية فقيرة، يصل في الكم ٦٩ إلى العانات وهي قرية درزية حسنة، سكانها ٤٠٠ وكان اسم هذه القرية قديماً عينانوس وكانت في العصور المتوسطة مركزاً ذا شأن في صناعتي النسيج وتربية الماشية. وفي أطراف القرية إلى الشمال توجد بركة كبيرة ملآنة على الدوام، نقرت في الصخر سنة ٦٢٠ هـ ثم وسعت بعد سنتين كما تدل على ذلك الكتابة العربية الموجودة على حافتها ويوجد في شرقي العانات على بعد ٢ كم وفوق تل حبران مزار باسم السلطان سليمان يزوره الدروز. وعلى بعد ساعة وثلث من العانات أي ٨ كلم يوجد تل صغير فوقه بناء يسميه الأهلون دير الخف. وهو حصن صغير روماني مربع الشكل في زواياه ووسط واجهاته أبراج مربعة وفي امتداد جدرانه حجرات للسكن (٣٠٦) ومامن دار مسكونة حتى الآن إلا وكله أو بعضه من الدور الرومانية. والشوارع العجيبة التي في جوانبها أرصفة لاتزال سالمة ومستعملة. ثم إن فيها برجين يلفتان النظر. الأول وهو الأكثر سلامة موجود في جنوبي القرية، والثاني في وسطها.

وكان في الماضي رصيف روماني يصل صلخد مباشرة بدير الخف ماراً بالعانات ومنها يمتد ربما إلى العراق.

وبعد العانات ينحرف نحو الشمال ويجتاز سهولاً شاسعة محصاة يزرع فيها الشعير فيصل في الكلم ٧٧ إلى امتان، قرية كبيرة درزية سكانها ١٣٠٠، وهي قديماً، كانت مركزاً ذا شأن، وجد فيها كتابة مقبرية باسم رجل من بلاد الغال ومن مدينة روان، دفن فيها بعيداً عن أسرته سنة ٣٤٤ م. نشأ فيها، وفي امتان يترك على اليسار إلى الغرب مجازاً يوصل بعد ١٠ كم إلى المشقوق، وعلى اليمين مجاز يوصل بعد ١١ كلم إلى ملح الصرار.

وفي غربي أم الجمال محطة المفرق التي على السكة الحجازية وبينهما نحو ١٢ كلم، وفي جنوبها الشرقي وسط البادية وضمنها حدود إمارة شرقي الأردن وبينهما على خط مستقيم نحو ٦٠ كلم. وفي جنوبي قصر الأزرق إلى الشرق مستنقع كبير يصب فيه وادي راجل المنحدر من جبل العرب.

وبعد امتان يسلك الرصيف الروماني القديم الذي رمم سنة ١٩٢٦. ففي الكلم ٧٨ يلحظ على اليسار تلٌ مخروطيٌ اسمه تل الخضر، عليه مخفر عسكري شيد سنة ١٩٢٦. وفي قمته ولي يحج إليه الدروز على ضريحه بابان مزخرفان. ويشرف الناظر في هذه القمة على منظر رائع يمتد نحو السهوب الرملية المحففة في البعد نحو شرقي الأردن تلمع تحت أشعة الشمس. ـ وأخيراً في الـ كلم ٩٠ صلخد.

مقال لمجلة (الحديث) الحلبية عن أفاميا

متى خربت أفاميا؟

قرأت في عدد شباط ١٣٣٩ من مجلتكم الزاهرة مقالاً لصديقي الدكتور كاظم الداغستاني فيه وصف الحفريات التي أجرتها البعثة الأثرية البلجيكية في مدينة أفاميا الجميلة، وبيان موجز عن تاريخ هذه المدينة وأكثر هذا البيان يتعلق بالعهود السابقة للإسلام. والوصف والبيان مقتبسان مما أدلى به مدير البعثة المذكورة إلى كاتب المقال.

وقد حمدت سعي الصديق الدكتور في إذاعته أخبار هذه الحفريات الجارية في القضاء الذي يتولى اليوم إدارته. وهي بادرة حسنة تصور من موظف إداري لم يسبقه أحد من زملائه في البحث عن مثل هذه المكتشفات العلمية الثمينة التي تجري حوله، حتى ولا الاكتراث بها، ناهيك الكتابة في الصحف والمجلات. عنها أو عن أي موضوعات جغرافية وعمرانية وانتوغرافية وأثرية تتعلق بمنطقة عمله، ليطلع جمهور القراء في بلاد الشام خاصة على ما برحوا يجهلونه من معالم في كافة النواحي والأقضية والمحافظات بالبحث والإجابة عن أسئلة في الموضوعات المذكورة ومازلت ألاحق هذا الاقتراح حتى قدرته وإذاعته. وبتنا الآن ننتظر الأجوبة، لعلها إن جاءت حسبما طلب تمكنني من تأليف موسوعة تكشف ما صعب عن خطط بلادنا ومآثرها، وتعزز ما هو موجود في كتابي الذي نشرته سنة ١٩٣٤ واسمه "جولة أثرية في بعض البلاد الشامية".

وقد كنت أتمنى لو أن الصديق الدكتور داغستاني اطلع على كتابي هذا، ففيه بحث غير يسير (من ص ١٤٥ إلى ص ١٥٤) عن تاريخ مدينة أفاميا لاسيما في العصور الإسلامية وعن حفريات البعثة البلجيكية المذكورة التي حمدت عملها كثيراً وهو يتفق في أكثر النواحي مع ما نشره هو - أخيراً.

وقد جئت الآن في مقالي هذا أبدي رأيي الذي ذكرته في جولتي الأثرية في أمر خراب مدينة أفاميا، متى وقع ومن أوقعه؟ وألفت إليه الأنظار لأن المعلومات التي أدلى

بها مدير البعثة المذكورة إلى الدكتور داغستاني تجعل وقوع هذا الخراب في العهد الإسلامي وفي سنة ١١٥٧م ثم في سنة ١١٧٠.

ومعنى هذا أن مدينة أفاميا ظلت عامرة بالمباني آهلة بالسكان ـ تماماً أو قسماً طول العصور الإسلامية الأولى أي من القرن السابع إلى الثاني عشر للميلاد. وإنها ضربت فيما بعد في السنتين اللتين ذكرهما بالزلازل.

على حين أن الواقع الذي استخلصته من المصادر العربية وذكرته في كتابي (جولة أثرية) هو مغاير لما ذكر، ذلك أن خراب مدينة أفاميا كان حاصلاً قبل مجيء المسلمين. فهم لما فتحوا هذه الديار في القرن السابع الميلادي (سنة ٦٣٨ منه) شاهدوا أفاميا خراباً كما هي الآن فاكتفوا بحصنها (أي بقلعة المضيق الحالية) ولم يعمروها قط، ولعل ذلك لأنهم لم يجدوا مقدرة أو فائدة اقتصادية أو إدارية تحملهم على البذل والتعب في إصلاحها كما وجدوا في بقية المدن التي عمروها بعد خرابها كمنبج وسلمية وغيرهما. مما فيه مزايا غير متوفرة في أفاميا كتوفر الماء وجودة الموقع الجغرافي وغير ذلك. وهم إذا ذكروا أفاميا في تواريخهم عنوا حصنها والقرية المبنية في داخله. ودليلي على هذا أولاً المؤرخ ابن الأثير فقد قال في حوادث سنة ٥٠٤ هـ (١١١٠م) وفيها سار نور الدين محمود زنكي إلى حصن أفاميا. (ولم يقل مدينة أفاميا) وهو للفرنج أيضاً وبينه وبين حماه وشيزر مرحلة وهي حصن منيع على تل مرتفع عالٍ من أحسن القلاع وأمنعها وكان من به من الفرنج يعزون على أعمال حماة وسيزر وينهبونها فسار نور الدين إليه وحاصره وملكه وحصنه بالرجال والذخائر.. الخ.

فلو كانت مدينة أفاميا عامرة آهلة في سنة ١١١٠ المذكورة (القرن الثاني عشر الميلادي) لاقتضى أن يذكرها ابن الأثير وهو أصدق المؤرخين في صحة الوصف وتقرير الحقائق. فحصره القول على الحصن دون مدينة أفاميا أكبر دليل على أن هذه المدينة كانت خراباً قبل سني الزلزلتين اللتين ظن مدير البعثة البلجيكية أن الخراب حصل فيهما.

ودليل ثانٍ هو الأمير أسامة أحد أمراء بني منقذ أصحاب قلعة شيزر وقد عاش هذا الأمير العالم البطل عمراً طويلاً في القرن الثاني عشر المذكور، وألف فيما ألف

كتاباً سماه (الاعتبار) طبع في أوروبا وأميركا، جمع فيه أخباراً وكوائن شتى عن طراز الحياة والصيد والفروسية وقتال الصليبيين بين بلدته شيزر وحصن أفاميا القريبة منها.

قال فيه (ص ٤٧ طبع جامعة برنستون بتحقيق الأستاذ فيليب حتى). وسرنا إلى أفاميا فلقينا فارسهم وراجلهم - وهو يعني الصليبيين - في الخراب الذي لها. وهو مكان لا ينصرف فيه الخيل من الحجارة والأعمدة وأصول الحيطان الخراب.. إلخ.

وهذا أبلغ وصف لحالة خرائب أفاميا التي هي الآن كما كانت في القرن الثاني عشر الميلادي لا تستطيع الخيل أن تجول وسط حجارتها وأعمدتها وأصول حيطانها الخراب. ولعمري لا تكون حالة المدن على هذا النحو - مالم تكن خراباً منذ قرون عديدة.

فهذان القولان، مع فقدان أي ذكر أو وصف لأفاميا كمدينة عامرة وآهلة في أي كتاب أو مخطوط عربي في الجغرافيا أو التاريخ أو الرحلات.. كل ذلك مما ينفي العمران ووجود السكان عنها خلال العصور الإسلامية. حتى أن الجغرافي العربي الكبير ياقوت اكتفى في معجمه بقوله "أفاميا مدينة عظيمة قديمة على نشز من الأرض لها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب (يريد العاصي) فقط. ولو كانت في زمنه أو قبل زمنه عامرة آهلة لأطنب وأسهب في وصف عمرانها ومن نشأ فيها ولم يكتف بكلمة (قديمة) التي عبر بها عن خرابها وعن قدم هذا الخراب.

فإذا ثبت هذا يكون خراب أفاميا قد وقع قبل الإسلام بقرن ونيف، معظمه في الزلزلة الهائلة التي حدثت سنة ٥٢٦ م وخربت أيضاً فيما خربته مدينة أنطاكية العظيمة عاصمة بلاد الشام وقتئذ وأهلكت فيها كما قيل ربع مليون نسمة. فما أصاب أنطاكية أصاب أفاميا حتماً. ولعل الروم البيزنطيين رمموا أفاميا بعد ذلك المصاب كما رمموا أنطاكية فعاد إليها بعض عمرانها أو أكثره وعادت تحفل بالسكان، إلا أن هذا أيضاً إن حدث قضى عليه ملك الفرس كيخسرو الثاني (لأخيسرويس كما ذكره الدكتور داغستاني) في سنة ٥٧٣. وقد كان هذا الملك الجبار الهدام يحمل أفظع عواطف الحقد التي كانت تجيش إذ ذاك في قلوب الفرس ضد خصومهم الروم البيزنطيين. فهاجمهم في بلاد الشام، فخرب وأحرق ونهب

وأجهز على ما أبقته الزلازل وفوضى الإدارة البيزنطية. ولما جاء المسلمون بعده بخمس وستين سنة (٦٣٨م) وجدوا بعض تلك البلدان خراباً بالمرة كالآندرين وأفاميا وبعضها قد خرب معظمه أو كاد، كما كان الحال في أنطاكية ومنبج وسلمية وباليس وخناصرة واسريا وأم الجمال (وهذه جنوبي حوران) وغيرها من المدن والقرى التي كانت منتشرة، ومن أسباب ازدياد هذا الخراب وقتئذ سوء إدارة الروم البيزنطيين. فقد جاء هؤلاء في أواخر عهدهم وغلبت الفوضى على إدارتهم وشغلوا بالخلافات المذهبية مع اليعاقبة وبالحروب المستمرة مع الفرس، فكانت مدن الشام تقع بين المطرقتين. فانحطت من جراء ذلك ونقص سكانها وخربت منها على الأخص المدن والقرى التي ذكرناها.

ولم تكتف الزلازل وهجمات الفرس بالقدر الذي ذكرناه، فقد جاءت زلزلة عظيمة سنة ٥٨٩ أجهزت على ما بقي في أنطاكية وأفاميا من الزلزلة الأولى، وتكررت غارات الفرس وفظائعهم إلى قبيل انتشار البعثة الإسلامية حتى تم خراب أفاميا بالمرة وانحصر عمرانها في حصنها فقط كما ذكرنا.

ثم قول مدير البعثة إن المماليك استولوا على هذه البقاع في القرن الثالث عشر، وأنهم أحاطوا المدينة بسور قوي.. الخ فيه نظر، وصحيحه أن الملك العادل نور الدين محمود زنكي (وهذا لم يكن مملوكاً)، بل نبيلاً سلجوقياً من أعاظم ملوك المسلمين في الحرب والعمران والتقى) استخلص قلعة أفاميا من الصليبيين سنة ١١١٠م وانتقلت من بعده إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي ومن هذا إلى أبنائه وأحفاده ولم تصل إلى يد السلاطين المماليك إلا بعد انقراض الأسرة الأيوبية بكاملها، ثم إن الذين أحاطوا القلعة (لا المدينة) بالأسوار والأبراج هم أولاً نور الدين محمود زنكي ثانياً الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب ثم الناصر يوسف حفيد الظاهر غازي، كما تشهد بذلك الكتابات العربية التي قرأتها في قلعة المضيق وهي ماثلة حتى الآن وقد أفضت في كتابي (الجولة الأثرية) في هذا الموضوع وفي وصف القلعة الحالية وما حولها من المباني الأثرية، فمن شاء فلْيعْد إليه والسلام.

الفهرس